الدكتور غالي شكري

إنهم يرقصون ليلة رأس السنة...

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الاولى
١٩٨٠

الغـلاف
بريشة الفنانة الفنلندية
ربيـكا

إنهم يرقصون ليلة رأس السنة...

المقدّمة

أوراق مسافر

(١)

لم انقطع عن الكتابة الصحفية طيلة الربع القرن الاخير . وأحب هنا أن أفرق بين الكتابة الصحفية والكتابة للصحافة . فالكتابة الاولى هي «نوع» مستقل بين أنواع الكتابة المختلفة ، اكتسبت سماتها الخاصة من طبيعة العمل الصحفي نفسه ، بينما هناك أنواع اخرى من الكتابة في الصحافة لا سبيل لادراجها في باب الكتابة الصحفية ، لانها اكتسبت سماتها الخاصة من طبيعة العمل الجامعي أو العمل السياسي أو العمل الادبي... هذه الانواع من الكتابات تتخذ من الصحافة وسيلتها الى الرأي العام . ولكن الكتابة الصحفية هي غاية الصحافة والصحافة غايتها .

بعد هذه التفرقة ، يمكن القول في حساب الارباح والخسائر ، أن الكاتب الصحفي هو ألمع الكتاب ، لانه يصل في بساطة ويسر الى أوسع رقعة قارئة بشكل دوري متصل ومنتظم ، يوميا أو اسبوعيا . ولكن الكتابة الصحفية من ناحية أخرى قصيرة العمر ، اذ هي تعالج في الاغلب أحداثا سريعة الزوال . أما أنواع الكتابة الاخرى ، التي تتخذ من الصحافة مجرد وسيلة الى الرأي العام ، كالمقال العلمي أو الاقتصادي أو الادبي ، فان أصحابها يستمدون مكانتهم الاجتماعية من الدائرة الاصلية التي يتحركون

فيها كالجامعة أو جهاز الحكم أو الحزب السياسي أو الحركة الثقافية ، وبالتالي فتأثير كتاباتهم في الصحافة محدود بتلك الدوائر ، ولكنها أطول عمرا من ناحية أخرى ، لانها تعالج غالبا أحداثا أو قضايا أو مشكلات بطيئة الزوال .

هل يمكن القول بعدئذ أن معادلة الارباح والخسائر بين الجانبين تكاد تكون عادلة .. فالتأثير الواسع القصير العمر يعادل التأثير الضيق الطويل العمر ؟

لا أدري ، بالرغم من أنني لم انقطع طيلة ربع قرن عن الكتابة الصحفية والكتابة في الصحافة من ناحية، والتأليف العلمي والبحث الاكاديمي من ناحية اخرى . أي أنني اجتزت التجربتين معا . كل ما أدريه انني لم أشعر يوما بالتناقض الداخلي حين كنت أكتب تعليقا يوميا أو مقالا اسبوعيا أو دراسة علمية . ولكنني كنت أشعر يقينا بأن الكتابة الصحفية شيء وبقية أنواع الكتابة شيء آخر .

ولعلها من الظواهر التي تستحق التأمل في حياة جيلي على نحو خاص، أننا عشقنا العمل الصحفي والعمل الاكاديمي دون أي التباس في الحب أو شعور بالازدواجية ... فقد كنت أجد نفسي في الخاطرة السريعة ، وأجدها أيضا في البحث المطوّل . ولقد أتيح لي كغيري من أبناء جيلي التدرج في سلّم الحرفة الصحفية من محطة المحرر الى رئاسة التحرير ، دون أن يؤثر ذلك يوما على التطور الموازي في مجال الدراسات العلمية من المقال الى الكتاب الى الاطروحة الاكاديمية .

(٢)

في لبنان الذي أقمت بين ربوعه منذ عام ١٩٧٣ الى صيف ١٩٧٦، وفي باريس التي انتقلت اليها في ذلك التاريخ ، بلغت هذه الظاهرة أوجها ، حيث عملت ابان ثماني سنوات في «المطبخ الصحفي» لمجلة «البلاغ»

و «الدستور» الاسبوعيتين ، وجريدة «المحرر» اليومية في بيروت، ومجلة «الوطن العربي» في باريس . ومن ناحية أخرى ، وفي الوقت نفسه ، انجزت في الفترة نفسها أطروحة جامعية هي « النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث» وكتابا اكاديميا هو «الثورة المضادة في مصر» كما كنت عضوا بهيئة التدريس في جامعة السوربون .

عن تجربتي الصحفية ، أحب هنا أن أتكلم . وعن تجربة السنوات الثماني الاخيرة أحب أن يقتصر الحديث . ذلك أن هذا الكتاب ، على وجه من الوجوه ، هو حصاد هذه المرحلة وتلك التجربة .

في «البلاغ» اللبنانية (ايار ــ مايو ١٩٧٣) ولدت «أوراق مسافر» ، وهي الزاوية التي صاحبتني بعدئذ الى مختلف المنابر التي عملت فيها ، وهي أيضا عنوان الرحلة الطويلة الغياب عن مصر .

لم أكن أجرّب «الكتابة الصحفية» للمرة الاولى ، ولكن المناخ اللبناني ــ الثقافي الاجتماعي ــ يختلف قليلا أو كثيرا عن المناخ في مصر وبقية أقطار الوطن العربي . لذلك تركت نفسي أتنفس هواء هذا المناخ وأعيش دقائقه وتفاصيله : الحساسية الملتهبة لدى الجماهير اللبنانية ازاء الحرية ، فاللبنانيون شعب خارج على القانون بالفطرة ، بالمعنى العظيم للخروج على القانون ، فهو شعب غير قابل للقهر أو العبودية .. ومن ثم فمستوى الوعي ، بتلاحم الرأي والرأي الآخر ، مرتفع نسبيا وواسع الانتشار بين قطاعات عريضة تتجاوز فئات المثقفين . ولانه شعب حرّ ، فهو مرهف الاصغاء جاهز التوتر لاية انتفاضة من أجل الحرية في المكسيك أو جزر القمر . ولذلك كان شعبا كونيا ، فحدوده ليست العشرة آلاف كيلومتر مربع ، بل هو على اتصال وثيق بأرجاء الدنيا الاربع . وهكذا فـ «المواطن العادي» اللبناني لا يرادف هذا المصطلح الدارج في أي قطر عربي آخر .

ولم أكتب للمثقفين ، وان كتبت عنهم . وانما كتبت لذلك المواطن العادي في البسطة والاشرفية والمصيطبة وعين الرمانة ، في بيروت وصيدا

وطرابلس . وكانت رسائل القراء أكبر عون لي لمعرفة في أي طريق أسير . فلقد تعوّد المواطن اللبناني أن يقرأ للكاتب المصري منذ قرن على الاقل ، ولكنه اعتاد أن يقرأ له الرواية أو المسرحية أو القصيدة أو المقال الذي يعالج مشكلة مصرية أو دولية . وكانت المرة الاولى ، ربما ، التي يصادف فيها كاتبا مصريا «مقيما» في لبنان بكل ما تعنيه الاقامة من أبعاد فكرية وروحية أكثر كثيرا من معناها الجغرافي . فقد حاولت الاقتراب من هموم الجيل الجديد والمجتمع الجديد والفكر الجديد ، أن أتعرّف في البداية وأن أتفاعل وأن أقرر «المواطنة» لا الضيافة .

لذلك «تدخلت» في الشؤون الداخلية للقلب اللبناني والعقل اللبناني، واختلفت أو اتفقت من هذا الموقع وحده ، ومن جانب اللبنانيين انفسهم لم أعامل قط كغريب أو كطارىء تحسن مجاملته .

ولان لبنان لم يكن محصورا ــ بالفكر أو الهموم ــ داخل أسواره الجغرافية ، فانني من خلاله لم أربح فقط «تجربة لبنانية» بل تجربة عربية وتجربة عالمية أيضا . ولذلك لا أسأم من التكرار بأنني أمضيت في هذا الوطن الصغير الكبير أروع سنيّ عمري على الاطلاق .

وفي «أوراق مسافر» انعكست الثمانية والثلاثون شهرا في «البلاغ» و «الدستور» و «المحرر» شكلا ومضمونا في كتابة صحفية جديدة عليّ تماما ، رغم اصداء وجذور العشرين عاما السابقة عليها والتي امضيتها في الكتابة الصحفية أو الكتابة للصحافة في مصر . بل انني من لبنان رأيت مصر ، على نحو جديد كليا ، كان له أثره الحاسم والمباشر في تطويري فكرا وتعبيرا .

وحين وقعت الحرب الاهلية عام ١٩٧٥ قررت البقاء كأي مواطن من برج البراجنة أو برج أبو حيدر أو النبعة أو الشياح ، وعشت عامين هما أخطر سنوات حياتي لا من حيث «التجربة» في ظلال الموت ، بل من حيث المعرفة والوجود والتاريخ وكل شيء يتصل بهذه البقعة الساخنة سخونة

الدم المراق من الشمال الى الجنوب .

واعتقد أن كتابي «عرس الدم في لبنان» يعطي صورة واضحة لموقفي من الحرب كطرف ، لا كمؤرخ ، وكمواطن لا كسائح ... ولكن الاهم هنا، هو انعكاس هذه التجربة الفذة والبالغة الاستثناء على شكل كتاباتي ومحتواها ، فالخوف واللهاث والوعي الحاد ، أصوات المدافع والقذائف وصراخ المذبوحين والجوعى، انهيارات الابنية والبشر وجنائز الموتى والاحياء والمبادىء والافكار ، كلها تركت بصمات لا تمحى على اسلوب الكتابة ومضمونها ، لعلني أقول أن هذا المضمون كان طريقة التعبير ذاتها .

ولن أنسى ما حييت الحضن اللبناني العريض الذي احتواني بالدفء وغمرني بالحنان . لن انسى ذلك الشاب الاسمر المتدفق حيوية وناصرية ، سائق التاكسي الذي عرفني في زحمة العازارية ، وأخذني ليحدثني طول الطريق عن الحب والحرب والسلاح والسلام ، عما أكتبه وما لا أكتبه . وكيف توطدت علاقتنا حتى أصبح سائقا لسيارتي وحارسا الى أن دعاه نداء الواجب ، فاستشهد في «معركة الفنادق» . نعم ، لن انسى محمود عزالدين.

ولن أنسى مئات الرسائل والمكالمات الهاتفية كل يوم ، وأحيـانا البرقيات . بل وتلك الكتيبات التي كانت تعيد نشر كتاباتي للاقاليم البعيدة والمناطق النائية . ولن أنسى الوجوه المجهولة التي كانت تأتي الى منزلي دون موعد لتحتضنني بعيون تتكلم وألسنة صامتة ، وتمضي . كذلك الوجوه الاخرى التي كانت تأتيني بالخبز والماء وقد انقطع الامل في كل طحين وكهرباء .. رغم أهوال القصف ومفاجآت الموت .

ولن أنسى تلك اللحظات الفاجعة بحق ، في ٦ تموز ــ يوليو ١٩٧٦ حين أبحرت بي باخرة الشحن من ميناء صور الى ميناء لارنكا القبرصي .. فقد ودعت حينذاك قطعة من القلب والعقل والروح حسبتها لن تعود .

(٣)

وأنا الآن أكتب هذه المقدمة بعد حوالي ثلاث سنوات ونصف أمضيتها في باريس . ولكني أكتبها في غرفة بأحد فنادق منطقة «الروشة» تطل على البحر الابيض المتوسط ، من بيروت .

نعم ، بعد أربعين شهرا أعود ، في زيارة قصيرة ، لاعطي هذا الكتاب الى ناشري . لشد ما تغيرت بيروت، لشد ما تغير لبنان. لشد ما تغيرت أنا...

ففي باريس كانت تنتظرني تجربة مغايرة كليا ، عن تجربتي اللبنانية، وهي امتدادها في نفس الوقت .

الغرب هو المنفى . بيروت لم تكن منفاي قط ، أما باريس فكانت .

ولكن «أوراق مسافر» بقيت معي ، برفقة منبر جديد لصاحب «المحرر» ، شاركت في تأسيسه من عدد الصفر الى اليوم ، هو مجلة «الوطن العربي» .

كانت تجربتي في الغرب ، مغايرة وغنية معا .. فباريس عاصمة عربية بمعنى ما ، وباريس أقرب المدن الغربية الكبيرة الى مغرب الوطن العربي ، الى المغرب والجزائر وتونس وليبيا .

كانت الحياة في الغرب تجربة كاملة ، وكان التعرف على المغرب تجربة أخرى . وكانت «الثقافة على محك التجربة» هي عنوان حياتي في تلك المرحلة . فالمعرفة شيء والواقع شيء آخر . وكشأني دائما ، عشت تفاصيل «الحياة» ودقائقها الصغيرة ، لادرك من خلالها معنى الافكار الكبيرة .

لم يكن الغرب اكتشافا ، بل تأكيدا لمجموعة من الصور والتصورات كونتها علاقاتي البعيدة والمجردة معه ... تأكيدا يحمل في تضاعيفه متغيرات عصر الهزيمة العربية ، عصر النفط العربي ، عصر الثورة الاسلامية .

أما المغرب ، فكان اكتشافا لي ، اكتشافا باهرا . فرغم انني أستأذن البعض في انني كنت أحد المصريين القلائل الذين اهتموا بثقافة المشرق والمغرب ولم ينكفئوا على الذات الثقافية المصرية ، الا ان المعايشة الحيـة

للواقع العربي الاسلامي في المغرب ، هو اكتشاف كامل بكل معنى الكلمة، وهو ضرورة قصوى لكل من يشعر حقا بأنه عربي .. حتى يتكامل ايمانه القومي بشاهد حضاري وتاريخي ومعاصر ، لا يدحض ، هو الشاهد المغربي .

وكانت «أوراق مسافر» هي الصوت والصـــدى ، هي التحدي والاستجابة ، لمتغيرات الرحلة الجديدة التي أتاحت لي رؤية وطني من بعد ، من قلب العالم العدوّ لنا ، رؤية جديدة انعكست بدورها على كل ما كتبت.

وها أنذا أتهيأ لمرحلة ورحلة جديدتين ، لذلك أردت أن أضم أوراقي المسافرة بين دفتي هذا الكتاب ، رغم انها مجرد «كتابة صحفية» وربما لهذا السبب نفسه.. فهي نبضات القلب أكثر منها ومضات العقل، هي ظلال أيامي أكثر من أضوائها ، هي أفراحي وأحزاني وتوترات نومي ويقظتي وخلجات الحشايا وتجليات القلق وأزمات النفس واضطراب الحنايا .. انها اعترافاتي قبل أن تأخذ طريقها الى الكتابة غير الصحفية .

د. غالي شكري

بيروت ــ ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩

المجموعة الأولى
١٩٧٣



برولوغ

أن تكون أنت أو لا تكون

ربما كانت لعبة الشطرنج من أكثر اللعب المسلية رواجا بين هواة اختبار الذكاء . ان موت احدى القطع أو حياتها معلق باليد التي تمسك بها، وبالرغم من ذكاء الايدي التي تمسك بقطع الشطرنج أو غبائها ، فان هذه القطع لا تملك حق الرفض أو القبول ، لا تملك الحق في مصيرها .

هكذا كانت حال اللعبة الى وقت قريب ، ولكن أجهزة الرصد الفلكية اكتشفت حديثا في كوكب بعيد ، أن الكائنات التي تعيش فيه تلعب شطرنجا مغايرا .. للقطع حق الاعتراض وحق الموافقة ، انها تتدخل في صنع مصيرها بمقدار ذكائها الخاص، قد تضطر للانصياع، ولكنها أحيانا ترفض! وخطورة اللعبة انها تحد من ذكاء اللاعبين بأقدار القطع ، اذا طلب أحدهم من الفيل أن ينتقل على الرقع البيضاء يمينا ، فانه يفاجأ بالفيل يتخذ طريقه يسارا ، وان لم يتخل عن اللون الابيض . لم يعد اللاعبون يملكون السيطرة المطلقة على الدمى التي يحركونها بأيديهم ، لان بعض الدمى ــ في هذا الكوكب الغريب ــ قد تمردت ذات يوم واضطربت بالحياة . بحياتها أصبحت لها ارادتها الخاصة وذكاؤها الخـاص ، ربما كانت قدراتها أقل من قدرات اللاعبين ، ولكنها تصارع بأمل أن تتفوق تدريجيا وتترك الخشبة نهائيا .

وقد انتقلت عدوى الحياة من هذه الدمى العجيبة الى غيرها ، مما هدد مستقبل لعبة الشطرنج في ذلك الكوكب تهديدا خطيرا . ولكن أمهر سكانه

وأبرعهم ذكاء وأحرصهم على بقاء اللعبة ، راح يناور القطع المتمردة ، بينما قذف بها لاعب آخر عن الخشبة ، كان صبره قد نفذ من هذه الدمى التي تشاركه التفكير والاهتمام بمصير الملك ، فألقى بها بعيدا ، وأخذ يفتش عن لعبة جديدة .

تقول أجهزة الرصد الفلكية أن الدمى عقدت مؤتمرا سريا فيما بينها، وناقشت الوضع برمته : هل تعود الى الموت وتستمتع بالاستقرار وتترك مصيرها للاعبين الاذكياء والاغبياء ، أم أنها تحيا رغم المغامرة وخطورة التحدي ؟ وانقسمت الدمى شيعا ومذاهب بين مؤيد ومعارض ووسط ، ولكن صوتا خافتا بين الجميع ارتفع قائلا : أن نكون أو لا نكون ، هذا هو السؤال . والكينونة ليست في البقاء على الخشبة ــ بأمان القبر ــ الى الابد ، انها مغامرة ولكنها أيضا الحياة بكل تحدياتها ومخاطر «الوجود» فيها . أما العدم فليس مطروحا للنقاش ، من يريد منكم سعادة العودة الى الموت ، فلماذا تمرد من قبل ؟ لقد ظننت ان المؤتمر سيناقش : كيف نحيا لا كيف نموت ! ولكن صوتا آخر ناداه قائلا : لا تتشنج ، ربما كانت متعتنا هي صراع اللاعبين ، والصراع معهم أيضا ، ما رأيكم اذا تظاهرنا بالموت ونحن أحياء ، حتى نضحك آخر اللعبة ؟

وضجت القاعة وانفرط العقد ، لان المدينة ــ في ذلك الكوكب المجهول ــ كانت تفكر على نحو مغاير لتفكير الدمى واللاعبين على حد سواء . كانت تفكر في الغاء اللعبة !

... الامر واضح جداً .. ولكن هل ما زال مرغوباً في عالمنا هذا - اقصد [illegible] - ان نخرج قطعة من الشطرنج من داخلها وتتركه دون [illegible] .

١٩٨٥/٤/٢

الطائر الشارد .. لمن يغني ؟

قالت : ستسافر اذن ؟

قلت : نعم .

قالت : وستعود ؟

قلت : نعم .

قالت : اذن فيم السفر ؟

قلت : أخشى الصدأ . هل جربت الحب ؟

قالت : وما علاقته بموضوعنا ؟

قلت : حين يتوقف القلب عن الحب لزمن طويل يتراكم عليه الصدأ ، حتى يصعب فتحه من جديد . والعقل أيضا .

قالت : ماله ؟

قلت : ينبغي ألا يتوقف عن التفكير ، والا علاه الصدأ .

قالت : وما علاقة ذلك بالسفر ؟

قلت : الحركة نوع من التفكير .

قالت : ولكن السفر الذي تقصده ، معا ، قد يبعدك عن التفكير فينا. ربما فكرت في كل شيء الا شيئا واحدا .

قلت : ما هو ؟

قالت : المكان الذي ارتبطت به منذ مولدك .

قلت : التفكير هو احدى عمليات العقل . والعقل هو احدى ثمرات الزمان والمكان . ومن يتخلى عن الزمان او المكان يتخلى عن عقله ، أي انه يجن . فهل ترينني موشكا على الجنون ؟

قالت : كلا .. ولكن السفر بعد عن المكان .

قلت : انه حركة في الزمان من اجل المكان ، حتى لا يضطرب الميزان بينهما .

قالت : لو كنت شاعرا يغني لنا ، هنا والآن ، ماذا كنت تستطيع أن تفعل كالطائر الشارد ؟

قلت : هذا تشبيه جيد لم تقصديه ، فالشاعر والطائر توأمان . والشاعر كالطائر لا يغير لغته مهما طار هنا وهناك .. سيظل يغني ويغني ويغني .

قالت : لمن ؟

قلت : لاولئك الذين يسمعونه دون آذان ويرونه بلا عيون ويشمون رائحته بلا أنوف ويتحسسونه بلا أيدي ويتذوقونه بلا أفواه .. أجهزة الاستقبال لديهم لا علاقة لها بالحواس الخمس .

قالت : هذا كلام صوفي .

قلت : ليكن .. هل جربت الحب ؟

قالت : مرة أخرى ؟

قلت : الحب من أحد جوانبه علاقة صوفية . حضوره هو المهم . غياب الجسد كحضوره ، طارىء وعابر . اما العقل والقلب ، فلهما أجهزة ارسال لا تخطر على بال .

قالت : سنسمع من شدو الطائر صداه .. اما الصوت فسيظل بعيدا .

قلت : الصوت الحقيقي لا يبتعد .. المهم ماذا يقول وكيف .. اذا لم يفقد نفسه بين مخاطر الغربة ، فسيبقى قادرا على الوصول . اما اذا اختلطت عليه الاشياء ، فالافضل له ان يموت .. ان يتحول الصوت الى صمت . اما اذا استطاع ان يستبقي جذوره ، ان يتفاعل معها بالاخذ والعطاء فحينئذ ينبغي ان نسمح له بالشرود أحيانا .

قالت : لنر الايام ماذا تفعل بالطائر الشارد .. وبنا .

١٩٧٣/٥/٢٨

٢٤ ساعة في حياة رجل وامرأة

□ هل كان حلما ؟

ــ بل كان كذبا !

□ كيف وقلبانا كانا يخفقان لهفة واحتراقا ؟

ــ كانا يكذبان !

□ وهل يكذب القلب ؟ ؟؟

ــ كثيرا .. انا مثلا ، عرفتك بالامس فقط . منذ ثلاثة ايام كنت اودع قصة حبي الحقيقية . القصة نفسها لا تهم ، لا تهمك أنت على الاقل . ولكن ما يهمني انا هو انني كنت جريحة مخضلة بالدم عندما قابلتك .. فكيف حدث بيننا ما حدث ؟

□ ألا يمكن أن تكون « روح العصر » هي السبب .. اننا في سباق ذري مع الزمن !

ــ اكذوبة أخرى ، فزمن الحب لا علاقة له بزمن عصر الفضاء . انني لم أحبك ، ولم يكن بمقدوري أن أحبك بهذه السرعة الجنونية . ولا ادري سر انجرافي معك طيلة الاربع والعشرين ساعة الماضية !

□ اما انا فقد كنت صادقا حين قلت انني أحبك . التقينا صدفة ، هذا صحيح ، ولم أعرفك فترة طويلة ، هذا صحيح أيضا ، والحب من أول نظرة سخف وتعبير مهذب عن الكبت ، هذا صحيح كذلك.. ولكني أحببتك كل ما ادريه انني أحبك فعلا .

ــ ماذا أقول لك .. كامرأة يجب ان اهتز فرحا ، ولكني حين أفكر في الامر أشعر انه كان حلما ، أي كذبا .. لقد كذبنا معا دون ترصد ولا سابق اصرار . التقيت انا الجريحة بك أنت بالذات !

□ ماذا تقصدين ؟

ــ أنت متعطش للحب ، ولكنك لم تحب بعد .. لقد « توهمت » انك تحبني ، ربما كنت الطراز الذي يعجبك .. ولكن الحب شيء مختلف !

□ لم أكن أتصور ان قصر الفترة أو طولها يؤثر على عمق العواطف أو سطحيتها ، وجودها او غيابها .. الى هذا الحد !!

ــ كيف ذلك .. ان الحب تجربة كبقية تجارب الحياة .. والتجربة زمن .

□ اذن فلنعط هذه التجربة زمنها ، ولا ينبغي ان نستبق الوقت ، لعلها تنجح .

ــ الآن مستحيل . كان ذلك ممكنا لو لم يحدث ما حدث . لو ان قلبينا لم يخفقا كذبا ، ولو ان الامور سارت في مجراها الطبيعي .. ربما كانت «العلاقة» اتخذت مسارا آخر هو الحب . اما الآن ، وحتى لا نكذب من جديد ، فليذهب كل منا في طريقه .

□ طريقي هو طريقك .

ــ ها انت تكذب من جديد .. انه كذب أبيض ، ولكنه في النهاية كذب . انا مثلا لن اجيبك بأن طريقي مختلف ، ولكن كل ما استطيع ان اقوله هو انني لا ادري ما اذا كنا سنلتقي ثانية أم لا .

/ وأصبح المستحيل ممكناً

قالت : يا ويلنا ! ليتنا عشنا في عصر آخر .

قلت : مثل ؟

قالت : العصر البدائي .. أي جمال وأية براءة ؟ حتى العصر الوسيط، له مباهجه الروحية التي لا تقدر بثمن ! اما هذا القرن المعذب ، فهو عصر التعاسة والانحطاط .

قلت : ربما كان العصر البدائي جميلا ، فأني لم أره والفرصة قد فاتت ، كان علينا أن نسأل انسانا عاش في ذلك الزمان .. اما الحكم من مسافة تبلغ آلاف السنين ، فهو بالضبط كالحكم على المكان من مسافة تبلغ آلاف الاميال : حكم بعيد عن الواقع ، الخيال عموده الفقري .

قالت : ألا تصدق الكتب ؟

قلت : أحيانا .

قالت : الصورة التي ينقلها الينا التاريخ تقول ان المجتمع البدائي لم يعرف الشرور العصرية التي نعاني منها في القرن العشرين .

قلت : ولكنه عرف الشرور البدائية .

قالت : نعم .

قلت : اذن ، فالمعادلة بسيطة وواضحة : ان شرور ذلك العصر كانت بحجم الانسان الذي وجد آنذاك .. وشرور عصرنا بحجم انساننا .

قالت : الانسان هو هو لم يتغير .. تغيرت الظروف فحسب الى

الاسوأ .. هذه «الحضارة» الحديثة ، الا تكتم الانفاس ؟

قلت : أرجو ألا نخلط . هاتان قضيتان متمايزتان ، الانسان والعصر. اما الانسان ، فجوهره ليس كما تظنين كاملا وثابتا ونهائيا . ولكل عصر سلبياته التي تنال من هذا الجوهر ، ولكن عظمة الانسان هي صراعه من أجل التطور والتكامل .

قالت : ربما .. ولكنني أرى اننا نتخلف ولسنا نتقدم رغم كل مظاهر الرقي التكنولوجي .

قلت : ليس هذا صحيحا . كان الجهل بالطبيعة في المجتمع البدائي سببا خطيرا في تعاسة انسان ذلك العصر . وحين بدأ ينتصر على الجهل كان تقسيم العمل في انتظاره ، ثم جاءت الآلة و ..

قالت : وأقبل القرن العشرون بالذرة والقنبلة الهيدروجينية والحروب الكونية ..

قلت : وبأشياء أخرى كثيرة، أهمها الخطوة الاولى على طريق استكمال انسانية الانسان .. قرننا العشرون هو عصر الاستقطاب العنيف بين اغتراب الانسان واستعادته لجوهره المسلوب عبر القرون .

قالت : تقصد ، كما انه عصر الاستعمار فهو عصر الاشتراكية ؟

قلت : تماما .

قالت : هل ترى في التجارب الاشتراكية حتى الآن ، تجارب مشجعة؟

قلت : كلمة «تجارب» كلمة دقيقة ، فهي تحتمل الصواب والخطأ .. ولقد أصيبت الاشتراكية في بلادها بجراح عميقة ، سواء من الداخل أو الخارج .. ولكن الحصيلة الختامية هي ان «الحلم» الانساني ممكن التحقيق ، لم يعد مستحيلا أن يستعيد الانسان جوهره .

قالت : الى متى يدفع الانسان من حياته الراهنة ثمن المستقبل المجهول؟

قلت : وسيظل الانسان في حالة صراع ما دام الجنس البشري قيد الوجود .. وربما كان هذا هو مغزى الحياة نفسها .. تتغير اشكال الصراع

ومضامينه ولكنه باق . المهم أن يكون صراعا من أجل التقدم .

قالت : وما هو التقدم ؟

قلت : كل نقطة يحرزها الانسان من اجل استعادة جوهره .

قالت : هذا «الشيء» غير الكامل ، غير الثابت ، واللانهائي ؟

قلت : نعم ، وهذا هو « المعنى » الوحيد للحياة ، والدافع الوحيد لاستمرارها . عصرنا ، من هذه الزاوية ، قدم الكثير .

قالت : عصرنا اذن مرحلة انتقال .. دعني اذن من الحلم القديم بالمجتمع البدائي .. ليتني أعيش في العصر القادم .

قلت : ليست المشكلة هي أن نعيش في هذا العصر أو ذاك .. المشكلة أين نقف من العصر ، هل ننظر الى الامام ، أم اننا ننظر الى الخلف .. في بلادنا أناس يعيشون بأجسادهم فقط في القرن العشرين ، اما عقولهم وأرواحهم فلا تزال قابعة في عصور سحيقة .. ومن هنا يحدث التمزق بين خارجهم وداخلهم . هناك أيضا أناس يتخذون من القرن العشرين مجرد ديكور حضاري ، وهم في واقعهم يحيون في ظلال وارفة من العصر الوسيط .. هؤلاء تمزقهم أفدح .

قالت : والحل اذن ؟

قلت : أن يكون الانسان ابنا لعصره ، بالاخذ والعطاء معا ، ألا «يستهلك» فحسب حضارة القرن العشرين ، وانما يضيف اليها بالخلق والابداع .

قالت : بهذا المعنى ، فنحن مجموعة شرهة من المستهلكين ، فاننا نأخذ ولا نعطي .

قلت : لا تنسي اننا اعطينا بالامس ، ومن حقنا ان نأخذ .. ولكنه فرق خطير بين ان نستهلك لننتج وان نستهلك فقط .

قالت : كيف ؟

قلت : مثلا ، خذي بعض اجزاء الوطن العربي البالغة الثراء ، انها

تستهلك ثرواتها فيما يمكن أن تأخذه من أجهزة الحضارة الغربية الحديثة، ولكنها لا تنتج قيما جديدة تتساوق مع وارداتها.. على النقيض من التجارب الاشتراكية الحقيقية ، فقد تفاعلت مع الحضارة الغربية على نحو مختلف .

قالت : كيف ؟

قلت : بأنها أضافت الى هذه الحضارة قيما جديدة ، حلت بواسطتها بعض المشكلات الجوهرية التي يعاني منها انسان العصر .

قالت : بلادنا ، بهذا المعنى ، مرشحة لان تضيف .

قلت : طبعا .

قالت : لنبحث اذن عن جذور العقم في حياتنا .

حريتك .. لا حرية أم كلثوم

قالت : اعطني حريتي ، أطلق يديا

قلت : هل تغنين لام كلثوم أم لابراهيم ناجي ؟

قالت : لهما معا بالطبع .

قلت : كلا .. فـ «الأطلال» قصيدة ملفقة !

قالت : ماذا تعني ؟

قلت : لقد عاش ابراهيم ناجي حياته يتمنى ان تغني له ام كلثوم ... ولو استيقظ الآن من الموت لتمنى لو ان اسمه لم يقترن بهذه الاغنية !

قالت : كيف ؟

قلت : أبدا ... كل ما في الموضوع ان «الأطلال» التي تغنيها كوكب الشرق (!!) ليست من تأليف ابراهيم ناجي !

قالت : لا افهم .

قلت : لقد لفقت سيدة الغناء (!!) هذه القصيدة من أبيات قصيدتين لناجي ، وأجرت عملية مونتاج مؤسفة لفن شاعر لا يستطيع — وهو في القبر — ان يدافع عن نفسه .

قالت : غريبة ! على أية حال ، هذا لا يهمني ... انها موضوعات شهية لكم أنتم معشر المتحذلقين ... ان ما يهمني هو هذا المعنى «الجميل» في البيت الذي أردده الآن .

قلت : وما هو هذا المعنى ؟

قالت : الحرية ! ليس هناك ما هو اغلى منها !

قلت : هذا صحيح . ولكن ما هو رأيك في «حرية» ام كلثوم ، حين حذفت وأضافت وعدلت في القصيدة التي تتحدث عنها ، و «حرية» ابراهيم ناجي في تقديم شعره الى الناس كما يريد ؟

قالت : ماذا تقصد ؟

قلت : لقد مارست أم كلثوم حريتها ، ولم يمارس الشاعر حريته !

قالت : لانه ميت .

قلت : ولو كان حيا ... الا كانت تتصادم حريته مع حرية المطربة المشهورة ؟

قالت : وماذا بعد ؟

قلت : يعني انه حين تفرحين بكلمة «الحرية» يجب أن تسألي نفسك أولا : حرية من ؟

قالت : حريتي .

قلت : ماذا تصنعين بها ؟

قالت : أعيش كما أريد .

قلت : لماذا ؟

قالت : لاحقق وجودي .

قلت : اذن فالحرية وسيلة لتحقيق الوجود ؟

قالت : نعم .

قلت : وأنت ، هل تعيشين في جزيرة مهجورة ؟

قالت : كلا ، أعيش مع اسرتي وزملائي وأصدقائي .

قلت : أي في مجتمع ؟

قالت : نعم .

قلت : واذا تضاربت حريتك مع حريات الآخرين ؟

قالت : هناك حد أدنى من الاتفاق ... فلست أعيش في غابة .

قلت : وهذا « الحد الادنى » يستوجب بعض التنازلات من جانبك عن بعض الرغبات .

قالت : طبعا .

قلت : معنى ذلك انه الى جانب حريتك الفردية ، هناك « وظيفة اجتماعية » للحرية ... بها يحقق مجموع الافراد للمجتمع غايات أوسع وأعرض وأشمل من الطموح الشخصي .

قالت : نعم ، فالحرية نسبية .

قلت : للفرد والمجتمع على السواء ... فليست هناك حرية مطلقة .

قالت : انها حلم على كل حال .

قلت : حلم انساني مشروع ، يدفع البشرية لان تحقق كل يوم خطوة نحو الحرية .

قالت : كيف ، وتضارب الحريات كما تسميه ، بين الفرد والفرد وبين الفرد والمجتمع وبين الفرد والعالم يزداد مع الزمن .

قلت : لا شك أن هناك صراعا بين ارادات الافراد وحريات المجتمعات ... ولكني أختلف معك في أن هذا الصراع يزداد مع الزمن .

قالت : كيف ؟

قلت : لان الزمن مع الحرية وليس ضدها ...

قالت : بدأت فعلا لا أفهمك ، فما علاقة الزمن بالحرية ؟

قلت : الزمن هو الخط البياني للتقدم ... كل انجاز علمي وفكري وفني ، سياسي واقتصادي واجتماعي ، هو انجاز للحرية ، في صفها .

قالت : ألا ترى الدم بحورا في الشوارع والميادين العامة ؟

قلت : معركة ضارية ؟ ليكن ... العامل في معمله ، والفنان في محرابه، والمفكر في صومعته ، وكل من يسهم في تشكيل الحضارة ، يكتشف جديدا لم نكن نعرفه من قبل .

قالت : وما علاقة المعرفة بالحرية ؟

قلت : المعرفة هي اكتشاف المجهول ، هي اختراق الحواجز القائمة أمام الانسان ... والحرية هي ان يصبح المجهول معلوما ، وبمعرفة المجهول نحطم الحواجز والسدود القائمة في وجه السعادة البشرية .

قالت : اضرب لي مثلا واحدا ...

قلت : الامثلة كثيرة كثيرة في حياتنا الخاصة والعامة ، في التفاصيل والعموميات ، في الماديات والافكار ...

قالت : كثيرة ولكني لا أعرفها .

قلت : ليس صحيحا ، فأنت تعلمين ان اكتشاف أحد الامراض هو بداية تحرير الانسان من المرض ، وان اكتشاف أسباب الفقر هو مقدمة تحرير الانسان من الفقر ، وان اكتشاف عوامل القهر هو التمهيد لتحرير الانسان من الخوف ، وهكذا ... وهكذا ...

قالت : لقد تمت اكتشافات عديدة كهذه ولم يحصل الانسان على حريته ... ثم ان لي ملاحظة ، هي انك انت نفسك تتحفظ بشأن امكانية تحرير الانسان ، وتقول ان الاكتشاف مجرد مقدمة وبداية وتمهيد ...

قلت : هذا صحيح تماما ... لان المعرفة ذاتها لا تعني شيئا ... المعرفة تظل ناقصة حتى نلتزم بما عرفناه ... تلك هي خطورة المعرفة ، انها ليست لهوا ذهنيا أو ترفا مجردا ، انها مسؤولية ثقيلة ، ففي اللحظة التي نعرف علينا ان نناضل من أجل ما عرفناه ، والا ...

قالت : والا ماذا ؟

قلت : والا أصبحنا مشاركين في الحواجز والسدود المقامة في وجه الانسان وحريته ... فالحرية ليست محايدة ، انها موقف . والمعرفة منحازة لا تعرف السلب ، اما اننا معها أو ضدها .

قالت : المعرفة والحرية ام انك تتكلم في السياسة ؟

قلت : منذ بدأنا الكلام عن أم كلثوم وابراهيم ناجي ونحن نتكلم في السياسة .

قالت : يا سلام ؟

قلت : والله العظيم ... فالمعرفة ليست قراءة كتاب، المعرفة مناضلة، انها مسؤولية ما نعرف ، والا أصبحنا عالة على العلم . والحرية كذلك ، ليست هتافا من الحناجر ، ولكنها نضال مرير .

قالت : اذن لن أقول لك اعطني حريتي، فسآخذها بكلتا «يديا» !

١٩٧٣/٦/١٨

الحب .. مع وقف التنفيذ

قالت : لم أعد أحبه .

قلت : انت حرة

قالت : ولكني أحبه .

قلت : نعم ؟

قالت : حاول أن تفهمني .. لقد أحببته لانه ضرب لي مثلا رفيعا للشاب العربي الجديد ، الشاب الذي لا يعريني من ثيابي بعينيه ، ولا ينظر لي الا كأنثى .. لقد أحببته لانه خاطب عقلي ووجداني .

قلت : العقل والوجدان معا ؟ هذا شيء رائع .. ماذا تبقى ؟

قالت : يبدو انك أصبحت بالفعل عجوزا .. فبعد فترة تكشف لي انه لا يختلف عن الآخرين ، وانه كان بارعا حين تسلل الى اعماقي عن طريق الثقافة والكلام الحلو في السياسة والحضارة .. اما هدفه الحقيقي فكان جسدي .. تصور !

قلت : ولماذا يريد جسدك أنت بالذات ؟

قالت : ماذا تقصد ؟ الست جميلة ؟

قلت : نعم .. ولكن هناك جميلات أخريات ، يستطيع صيدهن للفراش بسهولة .

قالت : ربما لاني مثقفة ، والثقافة تمنح المرأة جاذبية خاصة لدى الذئاب من المثقفين .

قلت : ربما .. ولكن هل لاحظت عليه انه «يكذب» في سلوكه اليومي . للمرأة قرون استشعار خفية ، فهل احسست وهو يقول لك

« أحبك » انه وغد وكذاب ؟

قالت : كلا .. لقد كان لطيفا ، وهو صادق لدرجة السذاجة احيانا .. ولكن لماذا يهينني ويطلب مني أن امارس معه الحب ؟

قلت : من حسن الحظ انك استخدمت هذا التعبير بالانجليزية ، فالحب فعلا ممارسة !

قالت : ماذا تقول ؟

قلت : انت لا زلت كأمك تفصلين بين الحب والجنس ، ولا زلت كجدتك ترين الجنس خطيئة ، ولا زلت كملايين النساء اللواتي يطالبن بالمساواة مع الرجل الا في الحب .. فهن ينظرن الى الرجل كغاز ويتصورن أنفسهن مدينة مهددة دائما بالغزو ..

قالت : ألا يمكن ان أحب دون جنس ؟

قلت : مرة أخرى تضعين المسألة وضعا خاطئا .. الجنس هو تعبير مركز عن الحب، هو احدى اللحظات في سياق الحب.. المهم ان يكون بعيدا عن الزيف والانفعال ، والا ...

قالت : والا ؟

قلت : والا أصبحت «المهانة» من نصيبكما معا ، فجسدك كجسده هو الاطار الخارجي للروح .. اذا كانت الروح «مرتبطة» فالشيء الطبيعي أن يرتبط الجسد . وكما اننا نسمي الانثى التي تبيع جسدها مومسا ، فكذلك الرجل الذي يبيع نفسه .. نظرة الانثى الى جسدها على أنه جوهرة عزيزة المنال ، حتى على من تحب ، هي نظرة ــ في الاساس ــ ضد المرأة ، لانها تحولها الى انثى فقط .

قالت : ولكن ما الفرق بين الذي يحبني لعقلي والذي يحبني لجسدي؟

قلت : هنا الخطأ من جديد ، فمن يحبك لجسدك وحده لا يحبك ، انه يشتهيك كنزوة عابرة . ومن يحبك لعقلك وحـده ، لا يحبك ، انه يحترمك فحسب كزميلة او صديقة .

قالت : وما هو الحب اذن ؟

قلت : هو التكافؤ العقلي والشعوري بين اثنين ... وهذا التكافؤ يتخذ لنفسه تعبيرات مختلفة منها الجنس .

قالت : الا يمكن ان نكتفي بمختلف التعبيرات فيما عدا الجنس ؟

قلت : ان هذا يعني خللا عضويا في أجهزة التعبير عن الحب . ان العلاقة الصحية والصحيحة علاقة كلية وشاملة تتآزر في تجسيدها وتطويرها كافة العناصر ، والجنس أحدها بالضرورة .

قالت : هل تتصور انه لن يتركني اذا حققت له طلبه ؟

قلت : انني لا اعرفه ، ولكنني اعرفك أنت . وحين تقولين «طلبه» استغرب جدا ، ألا تشعرين ان ما يطلبه هو طلبك أنت أيضا ؟

قالت : انك تخجلني . ولكني أحاول كبت نفسي حتى لا اجني وحدي ثمرة خديعة ... مثلا !

قلت : الحب كأي تجربة انسانية اخرى تستحق ان تعاش ، ونتائجها بالسلب والايجاب هي مكسب لتكوينك الانساني .. عدم خوضها هروب، فالاطمئنان الكاذب لن تجني منه سوى الخسارة الشخصية . اننا لا نقدم على التجارب بشروطنا ، وانما نحن نخوضها لنزداد ادراكا للحياة وفهما لانفسنا .. اننا نكسب في جميع الاحوال .

قالت : ولكن هل التحرر يعني التحلل ؟

قلت : اذا احسست وانت تمارسين الحب انك تتحللين ، فأنت لا تحبين .. واياك من السقوط في براثن عقدة المثقفات حين يتصور بعضهن ان التحرر هو خلع الثياب فقط ، بينما يتصور البعض الآخر ان التحرر هو الاسترجال والدردشة الثقافية فقط .. كلا الفريقين لا يعرف التحرر ولا الحب .. ورغم انهما نقيضان متطرفان فهما يلتقيان في كونهما « رد فعل » وليسا « فعلا » !

قالت : كل ما ادريه انني أحب !

١٩٧٣/٦/٢٥

انا لا نقدم على تجارب بشروطنا !؟

الخلاص بالحب

□ ما فائدة الحب اذا لم يكن خلاصا للانسان ؟ اننا في هذه الدنيا بلا نصير ضد الموت .. اننا في خاتمة المطاف نموت وحدنا .

ـ أولا ، لا ينبغي أن ننتظر «فوائد» من الحب ، انه يجيء أو لا يجيء بكل مخاطره وطموحاته . ثانيا ، اذا كان الموت هو زاوية النظر الى الوجود فهو عبث ولا خلاص لنا بالحب أو غيره .

□ الموت ليس زاوية للنظر ، انه حقيقة .

ـ لا تزيد على حقيقة الحياة .

□ ما الفرق ؟.. الحياة هي الكلمة الاولى والموت هو الكلمة الاخيرة!

ـ فرق كبير .. اذا نظرنا الى الوجود بمنطق الكلمة الاولى استطعنا أن نشك في الكلمة الاخيرة !

□ هل تشك في أنك ستموت ؟

ـ كلا ، ولكن موقفي منه يتغير اذا تأملته من زاوية الحياة .

□ كيف كان ذلك ؟

ـ أي انني اذا تعاملت مع الدنيا على انني محكوم بالاعدام سلفا ، يحسن بي منذ البداية أن أنتحر .. أما اذا اتخذت من وجودي رحلة صراع ضد الموت ، فان موقفي يتغير .

□ ماذا تصنع مثلا ، تحب ، أليس كذلك ؟

ـ أصنع أشياء كثيرة ، ليس من بينها الحب على أية حال !

□ غريبـــة .

ــ الحب لا يصنع ، انه يوجد أو لا يوجد .

□ كالقضاء والقدر ؟ لا ارادة لنا فيه ..

ــ ليس هذا قصدي ، فالارادة كامنة في قلب الحب ، بشرط ان يكون موجودا .. أي ان ارادة الفرد قد شاركت في صنعه ، في تكوينه ، وعندما يتطابق اثنان في تكوينهما العميق ، في عمق أعماق الفكر والشعور ، فهذا هو الحب الذي ساهمت فيه الارادة ــ من غير قصد ــ قبل أن يولد ، أي قبل أن يلتقي الاثنان .. بلقائهما تتضاعف مسؤولية الارادة في دعم الحب وتطويره .

□ هناك احتمال ، ألا يلتقي هذان القلبان مدى الحياة !

ــ نعم، وهذه في ذاتها دراما الوجود.. انهما قد لا يلتقيا على الاطلاق، وقد يلتقيان بعد فوات الوقت أو قبله .. انهما على الارجح لا يلتقيان في الوقت المناسب ..

□ ماذا تعني بالوقت المناسب ؟

ــ اللحظة التي تسمح بدعم هذا الحب وتطويره حتى ليصبح خلاصا للمرء في هذا الوجود .

□ لا زالت كلمة الخلاص بالحب غامضة .

ــ اذا توحد ايقاع الحياة تحت الجلد مرورا باللحم والعظم والدم حتى النخاع ، بين قلبين وعقلين ، فان صراعهما ضد الموت يصبح مصيرا مشتركا .

□ المصير المؤكد هو الموت ، ولن يموت أحد بدلا من أحد !

ــ لن نعود الى بداية المناقشة ، فاذا كان الانسان يموت وحيدا ، فلعله من الافضل ألا يعيش وحيدا أيضا .. وفرق كبير بين أن تكون تجربة الحياة صراعا ضد الموت ، وبين ان نقضي عمرنا في انتظاره !

□ ما الفرق اذا كانت النتيجة في الحالين واحدة ؟

ــ الفرق هو ما نراه وما نسمعه وما نحياه من آيات الحضارة من حولنا .. أو ما أحب أن أسميه بطاقة الخلق والابداع في هذا الكون .. الحب العظيم يفجر هذه الطاقة الى اقصى مداها .. والخلق هو الوجه الآخر للموت ، انه بعيدا عن دائرة الفرد الضيقة ، يخلق هذا التوازن العجيب بين الحياة والموت .. بالابداع البشري المتواصل لا يصبح الموت هو الكلمة الأخيرة .. انه أحد طرفي المعادلة فحسب .

□ وخلاصنا اذن يتم بهذا العطاء غير المحدود ، والذي ندعوه الحب ؟

ــ نعم ، فكل قصة حب حقيقية هي «نقطة» جديدة تحرزها الحياة ضد الموت .

في الصراع بين الحياة والموت .. توجد ما يسمى "تاريخ البشرية" .. وهو خلاصة ابداع البشرية – شعراً ونثراً – في الصراع الدائر [illegible] بين الموت والحياة .. ونحن في صراع [illegible] نقف على قمة "الحب" ما دام هو ارادة الانتصار امام ارادة الموت .

٢٦/١٢/١٩٨٥م

مثلث حب متساوي الاضلاع

□ مشكلتي مشكلة !

ـ دائما انت هكذا .

□ ظللت لا أحب امدا طويلا كما تعلم .. وحين أحببت وقعت في غرام ثلاثة رجال في وقت واحد !

ـ لا زلت لا تحبين .. صدقيني !

□ قلت لك انني أحبهم فعلا .. المشكلة انني عمليا أكذب عليهم ، لان كلا منهم لا يدري علاقتي بالآخر .

ـ أنت تكذبين عليهم وعلى نفسك وعلى الدنيا كلها .. انت لا تحبين، فمستحيل أن يتسع القلب لأكثر من واحد !.

□ هذه نظريات اجدادي واجدادك .. اما الآن فقد يعجبني رجل لسبب ما ، ويعجبني رجل آخر ، في نفس الوقت ، لسبب مختلف .. ما المانع ؟

ـ الاعجاب شيء والحب شيء آخر .

□ سفسطة ! كقول البعض الحب شيء والجنس شيء آخر .. كلها ظواهر مترابطة لا انفصال بينها .

ـ ليكن .. ولكني لا أتصور على الاطلاق انه من الممكن ان يحب المرء اكثر من شخص واحد .

□ تصور متخلف .. لان هذا حدث ، وها انذا امامك .

ـ يبدو اننا مختلفان في تعريف الحب .

□ بل نحن مختلفان في تعريف الحياة نفسها .. اننا مختلفان في كل شيء !

ــ ليس الحب (مع ثلاثة رجال في وقت واحد) هو كل شيء .

□ انه أحد مظاهر التغير في عالمنا .. هذه هي روح العصر .

ــ كم من الجرائم ترتكب باسم "روح العصر" ..

□ هل تستطيع ان تفسر لي الوجه الآخر للعملة : كيف يقع في هواي ثلاثة رجال في وقت واحد . ألا يرى كل منهم في " شيئا ما يحبه .

ــ الانسان عندما يحب ، فهو لا يحب «شيئا ما» ، انه يحب «الكل»، وهذا هو الفرق الخطير بين الحب وأية عواطف أخرى كالانفعال الجنسي أو الانبهار العقلي أو الخلقي أو ..

□ لكن ما تقول صحيحا .. ألا يتفق ان يحبني بهذا المعنى أكثر من رجــل ؟

ــ ربما .. ولكن المشكلة فيك أنت ! أنت امرأة واحدة قد يجد فيك أكثر من انسان مبتغاه . مشكلتك عكس ذلك تماما ، انك ــ كما تقولين ــ تحبين الثلاثة رغم تباينهم .. انت التي تحبين «شيئا ما» في كل منهم . وليس هذا هو الحب ..

□ اذن ، فأنا لم أحب بعد .

ــ انك تبحثين عن الحب .. الرجال الثلاثة مجرد محاولة للاقتراب من الرجل .. محاولة يغلب عليها الاضطراب .

□ ربما .. فالاول تستهويني معاملته لي ، والآخر يستهويني ذكاؤه .

ــ قبل ان تحدثيني عن الثالث ، فان واحــدا منهم لم ينل «كل» اهتمامك ، أي حبك .

□ وما العمل ؟

ــ أبدا .. المشكلة الآن أصبحت مشكلتهم ... اما انت فلم تعرفي الحب بعد .

هوامش بخيوط الفجر

١ ـ ابي يا سيدي القاضي

يا سيدي القاضي ، يجب أن تفرح ...

أراك تحبس دموعك بمشقة مؤسية ، ألا تصدق حتى الآن ابنتك ..؟
لقد كبرت البنت الخجول ، ولم تعد خطيئتها أن تخلو بابن الجيران تحت بير السلم !

لا تبكي يا أبي .. متأسفة ، يا سيدي القاضي !

وسأحكي لك ، كما لو كنت أمي ، كل شيء ...

حين كنت تسألني عمن أحب كانت وجنتاي تلتهبان احمرارا ، وكنت أنفي « هذا الشيء » الذي تتحدثون عنه نفيا يريبكم أكثر . وكنتم أنتم على حق . كنت عاشقة ! لم أحبه من النظرة الاولى . تابعته في المدرج والكافتيريا وقاعة الاحتفالات . ليس وسيما . ليس غنيا . ولكنه يتكلم بجرأة ويقول أشياء مثيرة . وأنا فضولية كما تعلم يا أبي ، يا سيدي القاضي . وحاورته وحاورني . اختلفنا كثيرا واتفقنا كثيرا . ولكني أحسست انني أتعلم منه أكثر من الاساتذة وملازمهم . وكان ـ معي ـ طيبا ، متواضعا ، ليس من طبعه التعالي والكبرياء . كانت عاهته النفسية الوحيدة هي عكس ذلك فهو من أسرة فقيرة . وكانت هذه النقطة في سلوكه تؤلمني . ولم أقدمه لكما أنت وأمي لاني أعرف ردكما سلفا .

يا سيدي القاضي .. يا سيدي القاضي ..

ولكني كنت قد أحببته . وأحببته أكثر حين رأيت في عينيه انه يحبني ، وغضبت منه لانه ظل زمنا لا يبوح لي بسره . حتى كان ذلك اليوم الذي تهتكت فيه كل الاسرار . سره وسري وسرك يا أبي وسر الدنيا كلها من حولي . رأيته يقود هذه «الدنيا» والاعناق اللاهثة بالحب الاكبر تحملني . تصور ! انا ابنتك الخجول ، ترفع صوتها لا في وجه خالها أو عمتها أو شقيقتها الاكبر ، لا في وجهك ولا في وجه أمي ، وانما رفعت الصوت عاليا وسط الحشود العملاقة التي تجأر بتحرير الارض والانسان .

سيدي القاضي ...

هذه المنشورات التي يبذل وكيل النيابة جهدا مضنيا ستحاسبه عليه زوجته ، كتبتها انا ووزعتها انا . تلك الاجتماعات التي يتصبب وكيل النيابة عرقا لاثبات انني كنت أحضرها ، تمت فعلا في منزلنا ... في منزلك ... معذرة ، لم اكن استطيع ان اقول لك ... ولكن يجدر بك أن تفرح ، وامي التي أراها هناك في زاوية القاعة تنتحب خلف نظارتها السوداء يجدر بها ان تزغرد ...

فاليوم زفافي .

وحين أدخل الزنزانة بعد لحظات ، أشعر انني لاول مرة تحررت !

فلا تستجب للمحامي المسكين الذي يطلب لي البراءة من ذنب لا يعرفه.

٢ ـ هل هو الحب

لم يتزوجا عن حب . كان مجروحا من طعنات حبه الاول . فاتكأ على ذراع أول فتاة جميلة صادفته وتزوج . كان يدري انه نوع من الانتحار ، ولكنه أقدم على الزواج بمنتهى الشجاعة . ومضت به الايام حتى اكتملت خمسة عشر عاما . لم يكن يبد تبرما بشيء ، تراه ضاحكا مهرجا حتى لتحكم بأنه انسان سعيد . كان يخفي النار في صدره بين أكوام الكتب التي يقرأها

والصفحات التي يكتبها والسجون التي يدخلها .

ولكني استطعت ذات يوم ــ بالصدفة ــ انأمزق هذا القناع المنسوج من الهدوء والاستقرار . رأيته مع امرأة . ورآني . وراح بعدئذ ينزف كل ما في قلبه . ان المسافة الهائلة التي تفصله عن زوجته هي سر عذابه الدفين ، وانه قد خانها من الاسبوع الاول للزواج . ولكن الغريب أنه لم يعثر بعد على امرأة يحبها . يشعر حتى النخاع انه مصاب بعجز عاطفي ، فهو غير قادر على الحب . والجنس في حياته مجرد لحظات يفرج بها عن الكرب الذي يعانيه .

وفي خضم نضاله السياسي تعرف على فتاتين : احداهما تصغره بعشر سنوات أو أكثر ، والاخرى تكاد تماثله سنا . الاولى طالبة بالجامعة والثانية مدرسة بها . الاولى في مرحلة التفتح والاخرى قاربت النضج . وانفعل بالفتاة الصغيرة وتفرغ لها . علمها وثقفها وشاركها ادق تفاصيل حياتها . وانفعل بالاخرى وفرح بها لانها تشاركه الاتجاه السياسي . وقال للاثنتين في يوم واحد : **أحبك !**

وكان صادقا . ولكن أحدا من أصدقائه المقربين لم يصدقه . قالوا له : أنت تحب «التلميذة» و «الزميلة» ولكنك لا تحب المرأة . قالوا له أيضا : أنت مثل «بيجماليون» ترى انك «خلقت» من تمثال الفتاة الاولى شيئا حيا، وانك مع الثانية ترى «النموذج» الذي كنت تتمناه فيما مضى . ولكنك لا تعشق احداهما . حيرتك لا معنى لها ، فأنت تحب زوجتك !

وصعقته المفاجأة حين جاءني يسرد على مسامعي ما قاله الاصدقاء مضيفا: ليس صحيحا انيأحب زوجتي، انفصالنا الفكري والشعوري أقوى من الانفصال المادي . انها ، فحسب ، توفر لي المناخ الهادىء المستقر للانتاج والعمل . هل صحيح انني لا أحب ؟ واذا كنت أحب فهل يمكن ان اعشق الاثنتين معا ؟ ام انني أكذب عليهما وعلى نفسي وعلى الناس ؟

وكنت على يقين من صدقه المروع مع النفس والآخرين .

ولكنني أيضا لم أستطع أن أجيب .

انه «مثقف» توفرت له كل امكانيات الوعي والادراك . ومع هذا فهو يعاني قسوة تناقضات تمتد جذورها الى عمق الاعماق ، يعاني من ردود الافعال الاجتماعية العنيفة التي لا تترك للسلوك الارادي الا حيزا صغيرا .

حبه الاول رفضه المجتمع .

زواجه الاول باركه المجتمع .

حبه الاخير المزدوج لا يصدقه المجتمع .

ماذا يفعل ؟

٣ ـ قصة الطفل القادم

كنت واحدا من كثيرين اعترضوا على زواجهما . وكان المعترضون فريقين : أولهما يخشى عليه « هو » الفقير الغني للثورة ، منها « هي » البرجوازية الشقية بشجاعتها وفوضويتها وتناقضاتها . كنا نخاف عليه من حياة الترف الجديدة ان تحرفه عن طريقه الذي أحبه الناس ، لانه مضى فيه حتى نهاية الشوط دون تعثر او وجل .

وكان الفريق الثاني أهلها وصديقاتها المقربات ، قالوا لها : كيف تقترنين بصعلوك يخرج من السجن ليدخله من جديد ، بلا ماض او حاضر او مستقبل . أنت نجمة لامعة ، وتنتظرك بالزواج منه ، فضيحة مدوية !

ولكنهما معا ، رفضا مشورة الاهل والاصدقاء ، وتزوجا . وكان الحدث قنبلة فاجأت الجميع ، حتى أولئك الذين كانوا يعرفون المقدمات . ولكنهما صمدا لكافة الاقاويل والشائعات وحواديت المقاهي والجلسات الخاصة . وكان هذا الصمود المشترك مقدمة للصمود الاكبر .

واقبلت «التجربة» التي هزت وجدان الملايين . ودخلا التجربة كغيرهما من الالوف الطليعية صاحبة المبادرة . الهمته التجربة أروع ابداعاته الفنية، وألهمتها التجربة بداية الطريق الصحيح ، بعيدا عن الفوضوية التي اشتهرت

بها وقريبا من صفوف الثورة .

وشيئا فشيئا ، وسط الدائرة الواسعة لجماهير التجربة ، أحسست مع الآخرين كم كنا مخطئين ! كنا نشاهد عشرات التجارب الصغيرة تتبلور في قلب التجربة الكبيرة ، وكانت قصتهما اروع هذه التجارب ، لانها أعمقها وأغناها . كان قلباهما يزدادان اتحادا وتفاعلا خلال العمل الثوري المشترك.

والنتيجة المتوقعة حدثت ، فقد دخل السجن .

وكان الجديد انها هي الاخرى دخلت السجن ، لاول مرة في حياتها .

وفي بطنها الآن الثمرة الانسانية للتجربة .

وبعد أسابيع ، سيستقبل عالمنا طفلا ليس ككل الاطفال ، يولد في زنزانة هي كل دنياه ، لامد لن يطول .

فسيكبر .. ويحكي للعالم قصة !

٤ ــ محمود درويش .. كأنه يحب

حين قلت في الماضي ان محمود درويش ــ في الارض المحتلــة ــ شاعر معارضة لا شاعر مقاومة ، تلقف القناصة العاطلون هذا التعبير وشغلوا به أنفسهم وقراءهم وانتظروا محمود درويش ليجيء بنفسه ويؤكد صحة هذا التصور ! وكان مجيء درويش ذاته صدمة كهربائية لافكارهم الحقيقية والزائفة على السواء ، حتى انني اتخيل انه مر في بعض الاوقات بمحنة صعوبة التمييز بين الصديق والعدو .. فالكل اراد له ان يعود من حيث أتى ، خوفا عليه وعلى شعره وعلى أنفسهم !

وحين قلت هذا التعبير لم أقصد به مطلقا ان يكون معيارا للشعر ، بقدر ما قصدت به تحديد المحاور الفكرية التي كان يدور حولها هذا الشعر .. فالمعارضة او المقاومة ليست جواز مرور للشاعر ، والمهم قبل ذلك وبعده ان يكون شاعرا بالفعل .

ومحمود درويش داخل الوطن المحتل وخارجه شاعر حقيقي ، لا بالمعايير السياسية الموقوتة ، وانما بمعيار الفن الخالص . والاهم من ذلك انه شاعر «متطور» . ولقد ظلمنا طويلا كلمة «التطور» هذه حين ألصقناها بكل من هب ودب ممن يرتدون أحدث الموديلات الشعرية في قصائدهم والروح أقدم من الجاهلية ! على هذا النحو كادت اللفظة ان تفقد معناها .. فتطور الفنان ليس شيئا ميسورا في متناول اليد ، وانما هو معاناة روحية هائلة مع الواقع المحيط به ، مع الفكر الجديد والفن الطالع ، مع التكوين الذاتي والموهبـــة .

ورحلة محمود درويش في اعماله الكاملة دليل حاسم على هذا التطور الاصيل والمعاصر معا . وفي تقديري ان أخطر انجازاته الفنية هي التي أبدعها في المرحلة الاخيرة ، أي بعد خروجه من الارض المحتلة . اي انني أقول ــ بصراحة ووضوح ــ ان المرحلة التي كان فيها نجما وبطلا يرتزقون من ورائه ، ليست أكثر من «بذرة» و «اعلان» عن موهبة أكيدة .. ولكن أعماله الاخيرة والتي كانت قصيدته «سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا» أبرزها ، هي التي جسدت ملامح هذه الموهبة واشارت الى حجمها الحقيقي وهي موهبة كبيرة وخصبة دون شك . وقد جاءت قصيدته التالية عن «الجندي الاسير» توكيدا مهما بأن تجربته الابدائية تتبلور في خط بياني صاعد . ربما لم تعجبني مزاميره كثيرا ، ولكن التجربة في ذاتها موحية بشمول الافق ونفاذ الرؤيا وعمق البصيرة .

ولعل قصيدته الاخيرة «كأني أحبك» تجمع هذه المعاني كلها في بوتقة واحدة ، انها اختزال مرهف لهذه الرحلة المضنية التي بدأها فتى من فلسطين رأى بعينين طيبتين الى أقصى الحدود ان ثمة شيئا خطأ في هذا العالم ما دامت بلاده يحكمها اناس آخرون . وازدرد العلقم وهو يرى ان مهزلة المشهد ليست أقل من مأساويته ، فأهله أنفسهم داخل «الوطن» وخارجه ممزقون بين حجري الرحى.. والعدو الحقيقي يمد قامته على البساط

السندسي الاخضر يقهقه كالشيطان الذي ترك الجنة الوهمية ليستولي على الجنة الحقيقية !

محمود درويش في قصيدته الاخيرة لا يصلي ولا يعربد ، لا يفكر ولا يتأمل ، وانما هو يدخل الدهاليز الخفية للحلم الكابوسي وينضح دما .. يتسرب منه في شرايين الموال الجنائزي والنثر الاخرس والترديد السريع الراقص في حلبة الاشطر القصيرة المتناغمة . «كأني أحبك» ليست تجربة شعرية جديدة بقدر ما هي وقفة استعادة للرحلة الطويلة ، وقفة تشير الى نهاية منعطف وبداية طريق .

٥ ـ المعجزة

حين وضع خاتم الزواج في اصبع يدها اليسرى همس في أذنها : هذه أسعد لحظات عمري . امـا هي فاحمرت وجنتاها وكانت تود ان تبادله الهمس قائلة : لقد انتصرنا .

كان حبهما معركة عنيفة امتدت نيرانها الى كافة الجبهات . كان معيدا بالجامعة ، وكانت تلميذته ، وما أكثر القيل والقال ، اذا احب المدرس طالبة. كان غنيا وكانت الابنة الوحيدة لعامل فقير بذل دمه حتى يعلمها . وما اقسى العبارات المهذبة التي يعتذر بها الاب والام عن قبول هذا النسب . وكانا من دينين مختلفين ، وما اعسر ان تنجو الرقاب من الذبح .

ولكنهما ناضلا خطوة خطوة . كانت الشبهات تحيط به من كل جانب ، فهو الى جانب المواد التي يقوم بتعليمها ، يعرج بالحديث الى أشياء غير مدرجة في جدول الاعمال . أشياء نظرية حينا وواقعية حينا آخر ، يربط بينها خيط رهيف هو ضرورة التغيير من الجذور . وأحست هي في البدء ان هذا التغيير في صفها وصف أبيها المكدود ، وصف كل من تعرفهم حواليها ، يعرقون ويشقون ويموتون بلا ثمن ... ولا كفن !

ثم لفت نظرها ما كان ينبغي ان تلتفت اليه منذ البداية ، وهو أن صاحب هذا الكلام شاب غني له مستقبل مرموق في المجتمع الحـالي ،

فلماذا يريد ان يغيره ؟ وكانت هذه هي نقطة البداية عندها ، فقد أحبته ، أحبت عينيه وهما يتوهجان بانفعال السخط على الواقع ، واحبت يديه وهما ترتعشان دفاعا عن طبقة لا ينتمي اليها .

وأحبها هو الآخر ، لم تكن كبقية الطالبات اللاتي يذهبن الى الجامعة لاقتناص الشهادة .. وقسيمة الزواج ان امكن ! كانت تسأل وتناقش وتجادل ، ولكن أسئلتها لم تكن استفسارات ذهنية مجردة ، أو ولعا في النقاش والجدل في حد ذاته . وانما هو قد أحس بأنها تناقش مصيرها الشخصي وقد التحم بمصير الوطن في قضية واحدة .

ورغم كل الصعاب والاهوال انتصر الحب كالمعجزة . صارا أسطورة العاشقين .

ودارت الايام ، واذا بانتفاضة الحياة تتراءى لعينيها حلما يتحقق . واذا بها في عفوية كاملة تضع كل ما سمعته منه في الايام الخوالي موضع التنفيذ والعمل . وكانت لا تزال « طالبة » ، وكان هو قد ترقى في سلم الجامعة .

وفي لحظة لم يكن بمقدور عقل الكتروني ان يحسبها ، رأت نفسها في صف ، وهو في الصف المقابل . كانت تتوقع في حياتها الشر كله الا ان ترى هذا الموقف المذهل : هي بسليقتها في جانب الذين تعلمت على يديه الدفاع عنهم لانها منهم ، وهو في جانب الذين تعلمت على يديه الكفاح ضدهم لانهم الاعداء! وكان شجاعا ــ أو وقحا! ــ حين تقدم منها «ناصحا» ان تترك مكانها لتذهب الى البيت أو قاعة المحاضرات . وكانت أكثر شجاعة حين تقدمت منه وخلعت من اصبعها خاتما يحكي اسطورة ناولته اياه وهي تقول : انني امضي في طريق قدتني أنت اليه ، ويقيني انه الطريق الصحيح!

وذهبت الى السجن !

وذهب الى البيت !

هل هذه معجزة ؟!! ما المعجز في هذا ؟! هل لأن امرأة [illegible]
[illegible]
[illegible]

١٩٧٣/٦/٢٥

[illegible]

مضى ... دون أن يقول وداعاً

لم تنقل سوى مجلة «الطليعة» المصرية ، نبأ نعيه ، وهو الذي كان يملأ الدنيا في مصر طولا وعرضا من الاسكندرية الى أسوان ، بمسرحياته التي أثارت أمامه وحواليه وخلفه ، أعمق حوار سياسي شهدته حياتنا الادبية حول الماضي والحاضر والمستقبل .

عرفت ميخائيل رومان في أواخر الخمسينات حين كنا نلتقي في «البرنامج الثاني» باذاعة القاهرة ، نترجم المسرح والشعر وسير كبار الكتاب والفنانين في الشرق والغرب . ولا زلت أذكر الى الآن كيف أنه أطلعني على مسودة برنامج يناقش شخصية «راسكلينكوف» من رواية «الجريمة والعقاب» للكاتب الروسي العظيم دوستويفسكي . كانت فكرة البرنامج هي أنه انتزع «البطل» بمفرده من ركام الاحداث والشخصيات الاخرى ، وسلط عليه أضواء النقد القديم والحديث ، اي أنه أقام حوارا بين الشخصية الروائية ونقادها منذ عصر خالقها الى الآن .

وحين سألني رأيي قلت له : يا ميخائيل ، أنت تقيم في واقع الامر حوارا بينك وبين دوستويفسكي ، لا بين الشخصية الفنية ونقاد الادب . وفتح عينيه على آخرهما وهو يقول لي كمن اكتشف كروية الارض فجأة : أنت مجنون ، ان عباقرة الادب والفن ليسوا أكثر من وسائط بشرية بين الوجود وسره . دوستويفسكي شيطان ، اما راسكلينكوف فليس مجرما رغم قتله للمرابية العجوز . قلت له : انك لم تجب على السؤال ، وانما أنت

قد جندت كل ثقافتك النقدية لتحاور دوستويفسكي في أمر الجريمة والضحية والجلاد . وابتسم دون أن يعلق .

وقد كنت أحس وراء كل ترجمات ميخائيل رومان وبرامجه التي يعدها للاذاعة ، أنه يقيم حوارا مع الخلق الفني ، مع سر الابداع . فهو رغم اتجاهه التقدمي في التفكير السياسي ، كان أهم ما يعنيه في الاثر الادبي هو سره الدفين في طوايا ما ندعوه بالرؤيا الفنية ، كيف يستبصر الفنان عالمه ويكتشف تخومه . وكان يحدق في المجهول أكثر من توقفه عند المعلوم . ولم يكن ميخائيل قد درس الادب في الجامعة ، اذ تخرج كيميائيا في كلية العلوم ودرس الرياضيات العليا . وكان حريصا على متابعة تخصصه فيما يصله من دوريات علمية وكتابات العلماء في الخارج . كان يرى في «العلم» معجزة الانسان لبناء المستقبل .

وبقدر محبته للعلوم ، كان مفطورا على تذوق الجمال ودراسة الفنون، فيها كان يرى معجزة الانسان لبناء نفسه . ولهذا لم أفاجأ كثيرا ـــ بعد أن تغيبت عنه عدة سنوات في بداية الستينات ـــ حين وجدته يعرض مسرحيته الاولى «الدخان» على خشبة المسرح القومي . ولكن المسرحية فاجأت الحياة الادبية كلها ، فقد تجاوز صاحبها العمر الذي يقدم فيه الناس أعمالهم الاولى، كما انه تجاوز «الحدود السياسية» المفروضة حينذاك على الفكر ، حين صرخ على لسان بطله حمدي «اللي عنده السل ماركعش» .. هذه الصرخة التي دوت في آذان السلطة والجماهير والنقاد جميعا ، اذ كانت أروع تحية الى المناضلين الصامدين وراء الاسوار في ذلك الوقت . ولكن «الدخان» أيضا اشارة الى أزمة المثقف المصري المطحون بين حجري الرحا : الواقع والحلم ، الواقع الضاغط على أنفاسه حتى حافة الموت ، والحلم الذي ينبثق كشعاع أزرق من الحشيش . بين الواقع والحلم ، ظل «حمدي» رازحا تحت سطوة «ملك المقطم» الذي يمنحه نعمة المخدر والحلم اللذيذ ، يمنحه بابا واسعا للهروب . ولكنه الباب الذي يؤدي الى طريق مسدود . ويرتطم رأس

حمدي بالحائط الاصم، فيحطم الآلة الكاتبة، رمز الآلية والرتابة والجمود، ويفيق من سطوة ملك المخدرات ويثور . يعرف مقدما ان الباب الجديد ضيق ، ولكنه الباب الوحيد الذي يؤدي الى الخلاص .

قلت ان «المفاجأة» هي ان ميخائيل رومان بدأ يكتب للمسرح في تلك السن المتأخرة ، وهو استاذ الكيمياء بالمعهد الصناعي العالي الذي يعطي بعض وقته لترجمة الآثار الادبية التي تعجبه شخصيا . وأضيف أن المفاجأة الثانية هي انه مزج في التركيب الدرامي لمسرحه ، بين الطابع السياسي الصرف وأزمة المثقفين الداخلية أو مأساتهم الروحية التي تعبر عن نفسها بعشرات الشقوق والشروخ التي لا ترى . وهو في ذلك كان قريبا من روح معلمه الاول دوستويفسكي الذي كانت تؤرقه المشارط الحادة وهي تغوص في دماء شخصياته كلما أرادوا تجاوز ذواتهم والظروف المحيطة بهم .

وقد أبرزت مسرحيته الهامة «الحصار» هذا المعنى التراجيدي الناتج على مصير الفرد والمجتمع على السواء ، كان حصار المثقفين هو نفسه حصار الجماهير المسلوبة الوعي . وكانت «همزة الوصل» الغائبة ، بين المثقف والناس هي الشغل الشاغل لميخائيل رومان وهمه الوحيد . وهو لم يكن شيوعيا ، رغم قناعته الخالصة بالماركسية كأداة خلاقة للوعي الثوري . وهكذا فهو لم يهتد طيلة حياته الى «التنظيم» القادر على انجاز الثورة ، ولم يمسك بهمزة الوصل التي ظل يبحث عنها وكأنها قطة سوداء في غرفة مظلمة. وانما كان ميخائيل رومان مزيجا عجيبا من الماركسية والمسيحية والفوضوية والحساسية العدمية التي التقى بها مع الوجوديين ورواد اللامعقول في الادب الغربي الحديث . وقد انعكس هذا كله على ابنية المسرحية التي جاءت خليطا جماليا غريبا من المسرح السياسي ومسرح العبث من زاويتي الشكل والمضمون معا .

وحين عرضت مسرحيته «ليلة مصرع جيفارا العظيم» انقسم النقاد

بشأنها انقساما حادا، يذكر بانقسامهم ليلة عرض مسرحيته الاولى. انه متأثر ببريخت وفايس وبرانديللو ويونسكو ، قدم عرضا طقسيا شاعريا كصلاة البدائيين الراقصة ، تشبه الى حد كبير المسرح الشعائري ، وخاصة اعمال جان جينيه . ولكن هذه «الخلطة» المثيرة تسببت في فوضى لا حدود لها ، انهكت الاخراج ولهث وراءها الديكور وضج منها المتفرجون ضجيجا يعكس الحماس الشديد والانقباض الشديد في نفس الوقت .

ولكن ميخائيل رومان ـــ بعد الهزيمة مباشرة ـــ كان قد استعاد وحدة جمهوره بمسرحيته العظيمة «الزجاج» أو «العرضحالجي» التي حلل فيها مقومات حزيران ١٩٦٧ وفي مقدمتها «الفتارين» كما كان يسمي البرجوازية المصرية ، ومقومات النصر وفي مقدمتها توجيه الدعوة الى «عموم أهل الوادي» من العمال والفلاحين الى الثورة والحرب . يطل علينا حمدي في هذه المسرحية من جديد ، ولكن في مرحلة جديدة بالغة التشابك والتعقيد . انها المرحلة التي ناقشتها تمثيليته الصغيرة «الوافد» ولكن لم يتيسر لها العرض الا ليلة واحدة . ديكورها الاساسي «لوكاندة» تحرم كل من لا يثبت هوية الانتماء اليها من الطعام والنوم والتفكير والتأمل . ما أقربها من ناحية المظهر الخارجي ـــ حتى لا أقول الشكل ـــ الى «ظلام في الظهيرة» لآرثر كوستلر و «١٩٨٤» لجورج أورويل .. ولكنها تأتي ـــ من ناحية الزمان والمكان ـــ في ظروف بالغة التبـــاين ولخدمة هدف بالغ الاختـــلاف .

وكانت آخر عروضه على الخشبة مسرحيته «٢٨ سبتمبر الساعة ٥ مساء» حول اللحظات الأخيرة من حياة الرئيس جمال عبد الناصر . وكأن هذه المسرحية ـــ القصيدة ، هي الستار الاخير . ويتوقف المرء طويلا طويلا حول اختيار ميخائيل رومان دائما للحظات الاخيرة في حياة البطل ، سواء كان جيفارا أو عبد الناصر ، وانطلاقه الاسطوري من لحظة الموت الى الماضي والمستقبل ، أي الى الحياة ، وما عكسته وما يمكن أن تعكسه السيرة ـــ

الاسطورة ، على صفحة العالم من تغيرات تظل باقية رغم رحيل البطل . ومن اللافت للنظر حقا ، انه لم يختر طيلة حياته الفنية بطولات فردية سوى شخصيتي جيفارا من العالم الثالث ، وعبد الناصر من مصر . وتلك كانت رؤياه السياسية ، رغم انك لا تستطيع من مجموع مؤلفاته ومواقفه أن تصفه بالجيفارية أو بالناصرية . لقد كان يضع أذنه فحسب على قلب العالم الذبيح فيدق اسم جيفارا رمزا للخلاص المسلح من ربقة العبودية ، وكان يضع اذنه فحسب على قلب الشعب المصري فيسمع دقاته تردد اسم عبدالناصر طريقا للخلاص المثقل بالصعاب والثغرات والهموم . وفي ذلك كله كان صادقا، عريانا، ملتاعا وحزينا ومتمردا.. لو كانت في بلادنا فرق للفوضويين لانضم اليها دون تردد .

وربما كان أروع ما في ميخائيل رومان هو مخزونة من الشعلة المضيئة الملتهبة داخله ، وكذلك «حياته» التي ظلت بمنأى عن المساومات والتنازلات والتراجعات لانه ــ على حد تعبيره ــ لم يكن لديه ما يفقده . رفض العمل في الصحافة ووزارة الثقافة ووزارة الاعلام ، تكفل له وظيفته الحد الادنى من القوت ، لم يكن لديه أي طموح اجتماعي أو سياسي .. كان مبرر وجوده الوحيد ــ وبين نفسه ــ هو أن تصل كلمته عبر المسرح الى الجماهير الواسعة .

ومضى ميخائيل رومان فجأة دون ان يقول لنا وداعا ، ولا زالت كلمته الحقيقية حبيسة الادراج تطالبنا بعد غيابه الفاجع ، ان نطلع عليها شعبه العظيم ، فهي وصيته الاخيرة .

لا تقيموا له تمثالا في أحد الميادين ..

لا ، ولا تضعوا اسمه على أحد الشوارع ..

بل اضيئوا المسارح وافتحوا ستائرها على اعماله ..

واطبعوا كتبه ..

ولا تفاجأوا اذا شعرتم أنه لم يمت ! ١٩٧٣/١١/١٢

يوميات آخر الليل

١ ـ من نصدق : العدو ام الصديق ؟

قبل أن يموت بأشهر قليلة صدر لجورج لوكاتش ـ أعظم ناقد ماركسي في القرن العشرين ـ كتاب هام عن الاديب الروسي الكبير سولجنتسين . والجزء الوحيد القديم في هذا الكتاب هو الفصل الاول الذي خصصه لوكاتش عن رواية سولجنتسين الاولى «يوم في حياة ايفان»، اما بقية الاجزاء فهي آخر ما كتب الناقد المجري العظيم في النقد الادبي ، وتدور حول انتاج الكاتب السوفياتي المرفوض : روايته « الدائرة الاولى » وروايته الاخرى «جناح السرطان» . وموجز رأي لوكاتش ان سولجنتسين على صعيد الفكر كاتب اشتراكي لا غش فيه ، وان كانت لديه تحفظات مريرة على بعض مظاهر الحياة من حوله . وانه على صعيد الفن ، هو الامتداد الاكثر تطورا لاروع تقاليد الادب الروسي من جوجول الى دوستيوفسكي وتولستوي . ومن هذه الزاوية فهو النموذج السوفياتي الاول بعد ثورة اكتوبر ، الذي يمكن تقديمه ـ على مستوى الندية الكاملة ـ الى الادب العـالمي .

وهذا الشهر صدرت الترجمة الانجليزية لكتاب الناقد الايطالي جيوفاني جرازيني عن سولجنتسين .. والكتاب من أوله الى آخره قصيدة مدح عاطلة من الشعر لاعمال الكاتب الروسي من زاوية انها تعادي النظام

السوفياتي وتكشف عوراته وتتبرأ من الانتماء اليـه . وهو يجتزىء من سياق الروايتين الاخيرتين بعض المقاطع التي يدلل بها على صحة تحليله ، ويترك مقاطع أخرى أو يشير اليها على انها من نقاط ضعف الكاتب ، أو انه كتبها بدافع لا شعوري من القهر ، او انها تجسد تناقضه وعدم توازنه !

والحق ان هذا الكتاب هو أكمل النماذج لمصيدة الاعـلام الغربي وشباكه الجهنمية .. "فجائزة نوبل" لباسترناك حين يصدر رواية رديئة هي «دكتور زيفاجو» لا حين قدم أعظم ترجمة روسية لشكسبير كما يقول نقاد الادب المقارن في العالم أجمع . وجائزة نوبل تعطى لسولجنتسين حين تشيع كواليس الصحافة الغربية انه معتقل وانه يحاكم وانه وانه .. لذلك كان علينا ـــ دائما ـــ أن نشك فيما يصدره الاعلام الغربي من احكام ودعايات حول هذا او ذاك من كتاب العالم الاشتراكي . يجب ان نكون على حذر ، بمعنى ألا نخضع رفضنا وقبولنا لردود الفعل الغربية . ان هذا الكتاب الذي يكيل الثناء على سولجنتسين بلا حساب ، لا ينبغي أن يستدرجنا الى ذبح سولجنتسين ـــ ولو في المخيلة ـــ فهذا بالضبط ما يهدف اليه جرازيني وأمثاله : ان نشنق أعظم مبدعينا على صلبان من صنعهم ! ان الوجه الآخر لكتاب الناقد الايطالي هو العداء للاشتراكية والاتحاد السوفياتي .

وعلينا ألا نخلط ، فان هذا العداء لا علاقة له بمشاعر سولجنتسين الذي يقتطف له الناقد نفسه هذه الكلمات « الاتحاد السوفياتي ، بأرضه وناسه وثورته ، هو حبي الاول والاخير ، وسعادتي يوم موتي ان أدفن في ثراه » . علينا ألا نصدق كل ما يقوله الغربيون ، والا نصوغ معادلاتنا على ضوء تصوراتهم الخـادعة ... فصوت لوكاتش أكثر صدقا ، وصوت سولجنتسين أقرب الى الحقيقة ، وصوت ضميرنا ينبع من الداخل .. لا من خارج الخارج !!

٢ ــ عين الفن على الخارج والداخل ؟

مجموعة القصص القصيرة التي أسماها جمال الغيطاني « أرض .. أرض » ليست مجرد مجموعة من قصص النضال الثوري ضد العدو. ليست نواحا على ما فات ولا تصفيقا لما هو آت . انها درس فني بالغ الاهمية والصدق ، وهي تخرج بصاحبها من «مأزق» كاد في الماضي أن يصل الى نهايته .

لقد كتب جمال الغيطاني من قبل مجموعة عنوانها « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » واستقبلت بترحيب واحترام كبير من النقد ، ذلك انها قدمت تجربة جديدة في مجال التوسل بالتاريخ لمخاطبة الحاضر . كان الغيطاني يستخدم أسلوب ابن أياس في صياغة الاحداث التي تتراكم من حوله كالكابوس . ولكنه كان يختار الواقعة التاريخية بعين الفنان الكاشفة لابعادها الانسانية ، وعين الثوري الفاحصة لابعادها الاجتماعية . وكانت «مصر» بتاريخها الحضاري الطويل هي لب لباب التجربة التي يعانيها الغيطاني بكل جوانحه . وأكثر ما كان يعذبه هو تلك اللحظات من السلب الكامنة تحت جلد الانسان المصري . وكانت مهمته هي الغوص في الوحل والدماء ، في الشرايين والجذور ، لعله يصل الى منابت هذا السلب ومنابعه.

وفي « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ــ وقد صدرت قبل الهزيمة مباشرة ــ كان الفنان الشاب واحدا من القليلين الذين رأوا الهول قبل وقوعه ، ولكن هذه المجموعة الاولى استنفدت أغراضها الفنية ، لان ثوب التاريخ مهما كان فضفاضا لا يتسع لجراح الحاضر وآلام الحمل بالمستقبل. هكذا كرر الغيطاني نفسه في عديد من القصص التالية التي نشرت له في الصحف والمجلات المصرية والعربية ، حين تصور أن نجاح التجربة الاولى يعني المضي على هداها دائما .

وقد أدرك جمال الغيطاني بعد حين خطأ هذا التصور . وساعده عمله

الذي اختاره بمحض ارادته — وساعده على تحقيقه محمود أمين العالم عندما كان رئيسا لمجلس ادارة اخبار اليوم ، حيث توجه الى الجبهة المصرية مراسلا عسكريا . وهناك رأى وسمع وشم ولمس وذاق ما لم يخطر له ، ولا لابن اياس ، على بال . عاش على ضفاف القنال تجربة ما اغناها ، خاصة ايام حرب الاستنزاف .

وكان الغيطاني يعرف مكامن الخطر الفني في الكتابة من ميدان القتال، انه المنزلق التقليدي لكتابة الشعارات والكليشيهات والاناشيد الحماسية. ولكن الفنان الحقيقي يستطيع بحاسته الابداعية الخالقة ان يستخلص من ركام الانقضاض كنزا لا يعوض ، وهذا ما فعله جمال الغيطاني في مجموعة «أرض — أرض» . لقد تسلل الى داخل الكيانات البشرية ، واستعاد معها تاريخها الانساني قبل أن ترتدي الزي العسكري ، وراح يجول بنا في باطن الارض التي أثمرت هذه النماذج البشرية . لم تكن الهزيمة أو النصر هو الخامة الفنية الماثلة لكيان عمله القصصي ، وانما كان الانسان ، في صوره العديدة المتشابكة المعقدة ، والتي تصوغ فيما بينها هذه «الحالة» التي نحن عليها الآن .

ان وقفة الجندي في الميدان ليست وقفة تجريدية ، وانما هي وقفة كثيفة كثافة الحياة المحيطة به والممتدة في دهاليز الجغرافيا وكواليس التاريخ . وفي هذه المجموعة ، لا يحلم الفنان ولا يتنبأ ، وانما هو يواكب تجربة جيل ينتمي اليه .. جيل مطلوب من عينيه أن تحدق خارج الحدود ، كما تحدق داخلها ، لان خطوط ميدان القتال — هذه المرة — هي أطول وأعرض خطوط عرفها التاريخ المصري ، القديم والحديث .

٣ — القصة — القصيدة .. وبكارة الاشياء

ربما كان موبسان أكثر تأثيرا على بدايات القصة القصيرة في الادب العربي الحديث ، من تشيكوف وادجار وآلان بو ، رغم الترجمات العديدة

التي صدرت لهذين الكاتبين في وقت مبكر . ومعنى هذا أن « الحدوتة المحبوكة الصنع» التي تعتمد الصدفة والمفاجأة قرب الخاتمة هي الاطار الفني الذي كان متسقا مع وجدان الكاتب والقارىء على حد سواء في ذلك الزمن . ومن هنا كان محمود تيمور ــ مثلا ــ هو نجم القصة المصرية القصيرة في العشرينات والثلاثينات ، بينما كان محمود البدوي الذي تأثر بتشيكوف أقل جاذبية . أما ادجار آلان بو فان أحدا لم يتأثر به تأثرا جادا من جيل الرواد . كانت شاعرية تشيكوف ورمزية بو أبعد كثيرا عن مخيلة القصة العربية القصيرة ونبض الواقع الذي أثمرها في مناخ أقل تعقيدا من أن يتحمل الشعر والرمز .

في الاربعينات ، وفي غمرة الاحتفال بالادب الواقعي الذي يزاحم الرومانسية العربية المهيمنة ، ظهرت أشباح طليعية تأثرت غاية التأثر بالغرب المعاصر ومدارسه الفنية في كافة أشكال التعبير خاصة الرسم والاقصوصة والشعر . وكان التأثر مزيجا مركبا من عناصر متباينة كالوجودية والانطباعية والتأثيرية والتعبيرية والرمزية . حشد من المذاهب المختلفة اجتمع في اناء واحد هو الرغبـــة في التجديد والتغيير . ورغم الجهود الاصيلة لفؤاد التكرلي ويوسف الشاروني وغيرهما قليلون ، تبددت هذه المحاولات في ريح الواقعية الملتزمة بتغيير المجتمع وتطويع الفن لمقاييس التغير الاجتماعي.

ولكن البذرة ظلت كامنة حتى استيقظت من رقادها في أواسط الستينات ، حيث تواءمت الراية الطليعية مع متطلبات الواقع الاجتماعي والثقافي في الوطن العربي . وكان زكريا تامر هو أول النبوات بأن القصة العربية القصيرة بحاجة الى ثورة فنية شاملة . وقد حققت أعماله الاولى نموذجا رائدا في التجديد ، الاصيل والمعاصر معا . غير ان أهم ما يتميز به فن زكريا تامر هو التطور وليس القفز المفتعل فوق الحواجز . كثيرون قلدوه وظنوا انهم بذلك يجددون ، ولكن زكريا كان يفاجئهم بأن ما ظنوه « جوهر الفن » هو مرحلة وتجربة ، لان مصدر التجديد ليس هو تقليد

النموذج ، وانما الانصات الواعي الدؤوب والموهوب معا ، لتطور الواقع في شموله والفن في أسراره .

هكذا تجاوز زكريا تامر نفسه في كل مجموعة قصصية أصدرها . ولم يكن تجاوزه تخطيا لشكل استنفد أغراضه ، وانما كان «تخطيا كاملا» لمرحلة في الوعي وتجربة في التعبير . وهو في مجموعته الاخيرة «دمشق الحرائق» يضرب المثل على ان التجديد لا يرادف التعقيد ، وأن الرمز لا يرادف المعادلات الرياضية ، وان الحداثة لا ترادف الغموض . هذا على الرغم من تأثره البالغ بمترجمات التراث الغربي «الحديث» . ولكنه التأثر المهضوم والمتمثل بعمق وغير المفروض من الخارج على الفن . ان قصص هذه المجموعة متناهية البساطة التي لا تتناقض ، بل تكمل ، منتهى الغنى والخصوبة والالتصاق الحميم بالارض . انها «فانتازيا واقعية» كما أحب أن أسمي هذا النوع الرائع من الفن الذي لا يهرب من الواقع بقدر ما يقترب منه عبر دهاليز خفية في عقل القارىء ووجدانه .

٤ — بريستلي .. او « جوجول » مقلوبا

لماذا رحب الروس ترحيبا حارا بمسرحية الكاتب الانجليزي بريستلي «المفتش على التليفون» منذ حوالي ربع قرن ، حتى انها عرضت على مسارح الاتحاد السوفياتي قبل مسارح لندن ؟ كان هذا هو السؤال الذي يطاردني طيلة العرض الممتع الذي شاهدته لهذه المسرحية القديمة الجديدة على خشبة « مسرح بعلبك » .

وكان الجواب ان الروس فيما يبدو لم يروا في «المفتش على التليفون» شيئا عجيبا ، وانما هم على العكس شعروا بأواصر المودة بين الكاتب البريطاني وكاتبهم الاثير «جوجول» ، بين مسرحية «المفتش على التليفون» ومسرحية «المفتش العام» على وجه الخصوص . ربما كانت ملاحظتهم

الوحيدة ان بريستلي قلب جوجول رأسا على عقب ، أو هو بعبارة أدق استكمل الوجه الآخر للصورة التي رسمها الكاتب الروسي العظيم .

كان الوجه الذي ركز عليه جوجول نقده العنيف الساخر ، هو ذلك الانحلال والتفسخ الاجتماعي ، أما بريستلي فقد ركز هجومه الضاري على الوجه المقابل : ذلك التهرؤ النفسي والتآكل الداخلي الذي يؤول بالانسان الى السقوط . وقد كان المجتمع الذي اتخذ منه جوجول مادته ، كما كان الانسان الذي اتخذ منه بريستلي مادته متشابهين في ذلك النفاق والزيف والدجل ، مع الذات ومع الآخرين .

ومن هنا تشابهت أدوات التعبير الفني بين الكاتبين . وكانت أولى هذه الادوات هي اصطناع حيلة المفتش الوهمي والمفتش الحقيقي والمفارقة الكاشفة التي تؤدي اليها هذه الحيلة. وثاني هذه الادوات هو جو الفانتازيا وما يسوده من مفاجآت ساخرة من الزيف ، مفاجآت خلع الاقنعة الزاهية عن الوجوه المتحللة .

بعد هذا التشابه في التكنيك والهدف من كتابة المسرحية ــ وهو تعرية مجموعة من الشخصيات تمثل مجتمعا يقوم على خداع النفس والآخرين ــ يختلف بريستلي عن جوجول في انه يتخذ من «داخل» الانسان شريحته التي يضعها تحت الميكروسكوب ، بينما كان الكاتب الروسي مهتما بما يحيط بالانسان من ظروف تعيسة .

وقد تمكن المخرج شكيب خوري من أن ينقل روح النص الى خشبة المسرح بتحريكه لمجموعة موهوبة من الممثلين والممثلات في اتجاه ابراز «المعنى» الذي قصد اليه الكاتب قصدا مباشرا ... كان اختياره للديكور مناسبا لتهيئة هذه الاسرار البرجوازية التي عاشت أحداث المسرحية في احدى أمسيات ربيع ١٩١٢ بشمال انجلترا ... تهيئتها لاستقبال «الحدث المفاجىء» أثناء احتفالها بخطيب الابنة الجميلة .

ولقد كان «جون ديفيز» في تمثيله لدور الاب «آرثر برلنج» مقنعا.

وكذلك «ريتا كنعان» و «جين مابليبك» في دوري الابنة والام . ربما كان دور الاخ والخطيب هما أقل الادوار لمعانا ، ولكن دور المفتش الذي قام به «نيل براثون» كان باهرا .

ويبدو ان لغة بريستلي التي تنتمي الى عصر مضى لم تفقد جاذبيتها بعد، سواء لدى الاجانب أو اللبنانيين... فالاجانب من الانجليز والامريكان ليسوا غرباء على الانجليزية ، واللبنانيون ليسوا غرباء عما يقوله بريستلي.

٥ ــ الحياة تجري ... والنقد ايضا

اذا تصورنا ناقدا انجليزيا في عصرنا ، ألف كتابا عن شكسبير ردد فيه ما قاله ناقد آخر في القرن الماضي ، وكان هذا الناقد القديم بدوره قد نقل كلامه عن ناقد آخر في القرن الاسبق ، وهكذا حتى نصل الى عصر شكسبير نفسه فنجد ان آراء النقاد الثلاثة لا تخرج عن وجهة نظر أحد النقاد الذين عاصروا شكسبير .. حينذاك ماذا نستطيع ان نقول ؟ هل نكتفي مثلا باتهام النقاد بالسرقة بعضهم عن بعض ؟ لنفترض جدلا انهم لا يعرفون لغات بعضهم التي كتبوا بها ، فهذا ناقد ايطالي والآخر فرنسي والثالث الماني ، وانهم قرأوا شكسبير مترجما ، وبالتالي فهم لم يسمعوا بمؤلفات بعضهم ولم يقرأوها مطلقا ، ألا تتلاشى حينذاك التهمة بالسرقة ، ويظل السؤال ــ مع هذا ــ قائما : لماذا اتفقوا الى درجة المطابقة في رؤيتهم لشكسبير ؟

في عام ١٩٦٣ أصدر الملحق الادبي للتايمز ملحقين متتاليين من اعداده لمناقشة «النقد الادبي الحديث في العالم» . وكان هذا السؤال من بين أسئلة كثيرة طرحها مؤرخو النقد وفلاسفته في أوروبا وأمريكا . وقد أجمعت الغالبية منهم على جواب مشترك ، مؤداه ان التطابق في آراء النقاد من عصر الى عصر آخر (لا بين نقاد جيل واحد) في عمل فني محدد ، أو في

أعمال كاتب بعينه ، دلالته الوحيدة ان هناك «قيمة مطلقة» يحملها هذا الفن لا علاقة لها بسياق التاريخ وتطور الحياة . وكان الاختلاف الفرعي بين هؤلاء المؤرخين والفلاسفة ، هو ان بعضهم رأى انها قيمة فنية تتصل بجوهر العملية الابداعية ، والبعض الآخر رآها قيمة انسانية تتصل بجوهر الكائن البشري . ولم ينف هؤلاء الاساتذة الكبار ان هناك الى جانب هذه القيمة المطلقة مجموعة أخرى من القيم النسبية التي تتعرض لرياح التغيير من عصر الى عصر .

وهذا الشهر أصدرت مجلة «انكاونتر» الانجليزية عددا خصصت قسما منه للنقد الادبي ، التطبيقي والنظري على السواء . وكان السؤال المشار اليه من بين أسئلة عديدة طرحها النقاد على أنفسهم وعلى مؤرخيهم وعلى قرائهم . وكانت الاجابة ــ بعد عشر سنوات من اجابة نقاد التايمز ــ نقيضا متطرفا للقول بأن «القيمة المطلقة» هي سبب التطابق بين آراء النقاد في عصور مختلفة . لقد أجابت «انكاونتر» بأن التطابق مستحيل ، وان وجد فهو مرفوض لانه يعبر عن آراء نقاد ضعاف البصيرة ، فهم لم يروا عصرهم بصورة كافية ، وكذلك العمل الفني أو الكاتب الذي يعالجونه . ذلك ان لكل عصر جوهره وروحه ووجدانه وأدواته العقلية والروحية في المعرفة والاحساس . ولا بد لهذا كله من ان ينعكس على العمل النقدي في رؤيته للآثار الفنية القديمة . ومن هنا ، كان لا بد كذلك من الاختلاف بين الرؤى النقدية في العصور المختلفة للعمل الفني الواحد ، أو لاعمال كاتب ما . هذا الاختلاف قد يصل الى درجة التناقض ، ولكنه يغني الفن والنقد والحياة جميعا . يغني الفن القادر على البقاء بايجاد همزة وصل جديدة بينه وبين العصر الجديد ، ويغني النقد بأسلحة العصر الحديثة في المعرفة والرؤية حتى يكتشف في العمل الفني ما لم يكتشفه النقد السابق ، ويغني الحياة برؤيا جديدة للقيم المطلقة والقيم النسبية في الفن والانسان على السواء .

٦ ـ حتى لا يدفع الشعراء فاتورة المؤامرة

تستطيع أن تقرأ قصيدة معين بسيسو «تلغراف الى انتربول الشعراء» بأكثر من طريقة . وان «تستمتع» بها لاكثر من سبب . اذا كنت لا تحب الشعر أصلا ، فانك تستطيع قراءتها دون ان ترهقك البحور الصعبة والاوزان المستحيلة . واذا كنت لا تحب الشعر الحديث خصوصا ، فانك لن تجد كلمة واحدة غريبة عليك لم تسمعها في صحيفة أو من اذاعة أو على خشبة مسرح أو في أحد الشوارع . واذا كنت من غلاة المتعصبين للشعر القديم ، فسوف تجد ضالتك من الحكم البليغة الموجزة .

وفي جميع الاحوال فانك سوف تنحاز للقصيدة : اذا كنت شاعرا فهذا دفاع عن الشعراء ، واذا كنت قارئا للشعر فانك لن تندم على الايام والليالي التي قاومت فيها السهاد بقراءة قصيدة او ديوان . واذا كنت ممن تفتنهم مشاهد الطبيعة كالبحر والصخور ، فسوف تطمئن الى انهما ما زالا بخير رغم كل ما يقال عن تلوث المياه والالغام التي تفجر الصخور .

ولكني أحب أن أقول لك أن هذا كله ليس هو التلغراف الذي أرسله معين بسيسو الى انتربول الشعراء ، وانما الشاعر قد أراد ــ في وقت متأخر نوعا ــ أن يتقي احجارا تساقطت من كل صوب ، غداة الهزيمة ، على الشعر والشعراء والثقافة والمثقفين .. بل ان بعض ادبائنا قد شاركوا في الوليمة المسعورة حين راحوا يصورون «جريمتهم» في قوالب ذهبية من النقد الذاتي (!!) .. تناسى الكثيرون الاسباب العميقة التي أدت للهزيمة ، والتي تتصل رأسا بعروش الحكم العربي وأنظمته المهترئة ، واتجهوا الى الحلقة الضعيفة من السلسلة الجهنمية يمطروننا بوابل من القنابل المسيلة للدموع. وكان السلاطين يضحكون في أكمامهم، فادانة المثقفين تبرئة لهم!

من هنا تأتي أهمية قصيدة معين بسيسو ، فهي دفاع حار عن الشعر والثقافة عموما في وجه صناعة الهزيمة الحقيقيين . ولكن عدالة القضية

وحدها لا تكفي لانصاف أصحاب الحق .. فليست المشكلة ان شعراءنا لم يكونوا في «السلطة» حتى نحاكمهم ، ليست المشكلة ان البياتي لم يكن وزيرا للدفاع ، وان صلاح عبد الصبور لم يكن وزيرا للخارجية وان نزار قباني لم يكن رئيسا للجمهورية . ان براءة شعرائنا ــ أو ادانتهم ــ يجب أن تستمد من مواقعهم الفكرية والوجدانية وتأثيرهم في هذا النطاق على الجماهير وأنظمة الحكم .

لو طرحنا القضية على هذا النحو لتبين لنا ان بعضا من شعرائنا كان ولا زال في السلطة، وان بعضا آخر كان ولا زال في المعارضة، وان بعضا ثالثا كان ولا زال تحت الارض . والدفاع «العام» عن الشعراء ، ينصف البعض ويظلم البعض الآخر ويغفر خطايا البعض الثالث . ولكن يخيل الي ان «تعميم» معين بسيسو قصد به ان يكون دفاعا عن جوهر الشعر لا عن الشعراء . ومن هنـا كان لا بد له من اجراء عملية « مونتاج » للقصيدة يتخلص فيها من الاشارات الجزئية والآنية ويركز ويبلور العلاقات الدالة على الجوهر .. ذلك ان القضية عادلة وصحيحة ، فالشعر العظيم يقف على الطرف النقيض من الهزيمة بمقدماتها ونتائجها . ولكن الديكور الذي يتفنّن الشاعر في تزيينه بالصور الجذابة هو الذي يستدرجه الى تخوم مجهولة ... فالبراءة من الاتهام لا تعني البراءة من المسؤولية . والطريف ان الذين «يتهمون» الشعراء هم أنفسهم الذين يجردونهم من «المسؤولية»، ولكن المسؤولية هي شرف الفن ، وسيظل الشاعر مسؤولا حتى لا يدفع من جديد فاتورة المؤامرة .

٧ ــ رحلة المصير

من المفارقات الغريبة ان اهتمامنا بالآداب المغربية المكتوبة بالفرنسية لادباء من تونس والجزائر والمغرب ، يفوق اهتمامنا بالادب العربي في هذه

المنطقة من الوطن الكبير . ان مؤلفات كاتب ياسين ومحمد ديب ومالك حداد أكثر شعبية في المشرق ، من مؤلفات عبدالكريم غلاب وعبدالله القويري . وربما كان ابو القاسم الشابي هو الشاعر التونسي الوحيد المعروف عندنا . وأيا كانت مشكلات التوزيع وتحويل العملة ، فان المسؤول الاول في تقديري هو النقد الادبي، الرسول المؤهل والمكلف بعقد الصلات بين أجزاء الوطن عبر الادب والفن .

ولاقطار المغرب العربي مشكلاتها الخاصة غير المعزولة عن مشكلاتنا ، بل ان بعض هذه المشكلات الخاصة تلزمنا بالكثير مما نستطيع القيام به ، كمشكلة اللغة .. فالتعريب في هذه البلدان معركة حقيقية لا تنفصل عن بقية المعارك التي تخوضها الشعوب المغربية ضد التخلف والاستعمار والرجعية المحلية . واذا كان «التعليم بالعربية» يقوم بواجبه في هذه المعركة الضارية ، فالثقافة ــ وفي مقدمتها الادب والفن ــ تقوم بدور أكبر . ان التعليم يتوقف عادة عند أعتاب اللغة بمفرداتها وقواعدها ، ولكن الثقافة تخاطب العقل والوجدان وتغير الفكر والشعور .

ومن هنا كانت الرسالة الملقاة على عاتق الادباء والمثقفين عامة في المغرب ، كبيرة وثقيلة . وهم يقومون بها في شرف وصلابة ومثابرة تستحق ما هو أكثر من الاكبار والتقدير .. تستحق التقييم الموضوعي الدقيق . وهذا هو العبء الذي يتعين على نقاد الادب في المشرق أن يتحملوا جزءا منه بشجاعة . انهم بذلك يسهمون في المعركة على أكثر جبهاتها حدة واشتعالا . والمؤمنون منهم بمستقبل اللغة العربية ووحدة الثقافة العربية ، تتضاعف مسؤوليتهم في هذا الصدد .

ذلك ان الادب في المغرب العربي لا يناضل فحسب على جبهة اللغة ، وانما رواسب الفكر والشعور المتخلفة عن الاستعمار الفرنسي ، تترك بصماتها في وضوح على بناء هذا الادب وروحه .. ان القضية عند الاديب الجزائري أو التونسي أو المغربي لا تنتهي بمعرفته لاسرار اللغة العربية ،

وانما هي تبدأ بعد ذلك . تبدأ مع القاعدة العريضة من القراء الذين تربّوا في مناخ مشبع بالثقافة الاجنبية . تبدأ أيضا مع رد الفعل المحتمل ضد الثقافات الاجنبية ، وما ينشأ عن ذلك من تعصب يرفضه الفكر العربي المستنير . تبدأ كذلك مع أجهزة السلطة الممزقة بين التعريب والتغريب . تبدأ أخيرا مع الادب العربي في المشرق ، حيث الابنية والاخيلة تعكس تراثا عميقا في الارض المحلية .

هكذا تبدو لي رحلة الكاتب في المغرب العربي ، رحلة عسيرة غاية العسر ، بالغة العذاب والضنى . وأكثر المشاعر عذابا هو احساسه بأنه يمضي في رحلته وحيدا . والناقد العربي في المشرق ، مرشح بالضرورة ، لان يكون رفيقا له في رحلة المصير الواحد .

٨ ــ نزار قباني .. وجريمة الشرف !

لعلني كنت أقسى من تصدى لشعر نزار قباني بعد الهزيمة . ولن أكرر هنا ما سبق ان رددته مرارا ، ولكني أحب أن أشير الى انني ظللت دوما أقول بأن نزار قباني شاعر كبير ، وأن دوره في تمهيد الارض للشعر الحديث كبير هو الآخر. ولا زلت ، حتى الآن، مؤمنا بصواب كلا الرأيين. ولكن قصيدته الجديدة «جريمة شرف أمام المحاكم العربية» تجيء لتضيف بعدا جديدا ، هو ان الشاعر اذا توغل في أعماق التجربة الدامية التي يعيشها ، هو ووطنه ، يستطيع أن يقتحم الآفاق البكر لسماوات الشعر العظيم .

وقصيدة «جريمة شرف» برغم استلهامها المعجم التقليدي لشعر نزار، وبرغم حفاظها على تركيباته الاثيرة لديه ، فانها قصيدة «حقيقية » ان جاز التعبير .. فهي لا تتوقف عند سطوح الاشياء ، ولا تجوف التماثيل ، ولا تنفخ الطبول ، وانما هي نظرة أسيانة في قلب العالم ، في قلب القلب .

كانت الهزيمة قد تمثلت للكثيرين «منقذا رسميا» من البوار والعقم، فهي «مادة جديدة» لم تخطر على البال، فظلوا يكتبون عنها حتى استهلكوها واستنفدوا أغراضهم منها .. ولكنها ــ بعد أن أصابهم الملل ــ ظلت شبحا كابوسيا جاثما فوق الصدور والاقلام ، لا تصلح معه الهدهدة ولا لطم الخدود . أمست «واقعا» جديدا ، يتدخل في تفاصيل الحياة اليومية للبشر .. ومنهم الشعراء .. من هنا ، وبعد ان كانت الهزيمة مجرد «مادة» يعاملها كتابنا من فوق ، كأي «موضوع» للكتابة، أخذت هي المبادرة. بعد أن كانت ستارا مؤقتا يخفي العقم والبوار ، أضحت مصباحا كاشفا كل عورة وكل نقص . تحولت لان تكون «سيدة الموقف» .

ونزار قباني في قصيدته الجديدة «جريمة شرف» يدرك هذا المعنى ادراكا عميقا وجادا ونافذا . انه لا يهاجم السلطان أو حاشيته أو عبيده ، ولا ينافق الحواس الهشة التي فقأت العيون في زمن العار .. وانما هو يتسلل الى ما تحت الجلد ، الى أدق ما في شعيراتنا الدموية من خلايا نابضة برواسب القرون وأحزان الحاضر وأشواق المجهول، بأثقال الزمان والمكان.

ولان نزار قباني لا «يمدح» ولا «يذم» فان لغته الشعرية لا توجه الخطاب لاحد ، انها أشبه بمونولوج داخلي يمتص الدنيا كلها في حلم «الخراب» . هذه اللغة تبعد به عن التقريرية والمباشرة والهتاف ، رغم الالفاظ الطازجة والتعبيرات المألوفة . وهو لا يتخلى عن بصمته ، ولكن موهبته الكبيرة وخبرته تمنحانه القدرة على التلاعب بدرجة الكثافة والشفافية ، وبحركات الاصبع على الوتر .

في «جريمة شرف» لا يتفرج نزار قباني علينا ، انه واحد منا . ليس مدعيا عاما ولا محاميا ولا شاهدا .. انه ــ ببساطة ــ أحد المتهمين .

٩ ــ « عبقرية » لا يجود بمثلها الزمان !

ليست هناك مشكلة «شخصية» بيننا وبين السيد يوسف السباعي..

على المستوى الشخصي ربما كان الامر على النقيض . ومعظم الكتاب الوطنيين والتقدميين في مصر تعاونوا معه مند كان رئيسا لتحرير مجلة «الرسالة الجديدة» الى أن أصبح سكرتيراعاما لكل هيئة أدبية . ولقد كانت الشكوى الدائمة للسباعي أن النقد المصري يتجاهله ، ولكني أعتقد أن هذه الشكوى غير قائمة بالنسبة للنقاد التقدميين ، فقد كتبنا عن أدبه بالاختلاف والاتفاق .. بل انني كتبت مقدمة لمجموعة من الدراسات تناولته بالتحليل (بأقلام طه حسين ، محمد مندور ، أنور المعـداوي ، يوسف الشاروني وغيرهم) . وتحملت في سبيل هذه المقدمة عتاب الكثيرين .

لم نكن في يوم من الايام اذن اعداء يوسف السباعي ، لا كاتبا ولا مسؤولا اداريا، فقد عمل معه الكثيرون منا في المؤتمرات والمسابقات الادبية التي كان يشرف عليها في نادي القصة وجمعية الادباء والمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب .

وقد كانت هناك ولا تزال علاقة خاصة بين يوسف السباعي والسلطة المصرية ، تعنيه هو في المقام الاول ، وتهمنا نحن من زاوية تأثيرها على حياتنا الفكرية والفنية . ذلك أن هذه العلاقة وحدها ــ لا الموهبة ولا الكفاءة التي لا يخلو منهما ولكنه لا ينفرد بهما ــ قد تسببت في أن يشغل من المناصب في وقت واحد ما تنوء به ظهور عشرة رجال . كما انها تسببت في بقائه بهذه المناصب فترة تجاوزت خمسة عشر عاما .

ومعنى ذلك في التطبيق ، هو أن يوسف السباعي ظل مهيمنا على الحياة الادبية المصرية هيمنة كاملة ومطلقة طيلة هذا الزمن . وأقل ما يمكن توقعه من نتائج هذه «الحالة» هو غياب الديموقراطية من العمل الثقافي المصري غيابا تاما ، حتى ولو كان الرجل ملاكا من السماء وعبقرية لا يجود بمثلها الزمان .

ويوسف السباعي لم يظهر في أرض قاحلة مجدبة خالية من المواهب.

لقد ظهر في مصر ، حيث يوجد توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض ويحيى حقي وعبدالرحمن الشرقاوي وزكي نجيب محمود وعلي الراعي وسهير القلماوي ونعمان عاشور ويوسف ادريس ومحمود العالم وصلاح عبدالصبور وعشرات غيرهم من أصحاب الكفاءات الكبيرة . ويستحيل على الخيال البشري ان يتصور يوسف السباعي وقد أوتي سر الاسرار ومعجزة المعجزات ، بحيث أن واحدا من هؤلاء لا يصلح لكثير من المسؤوليات التي تولاها . أما اذا كان السباعي بشرا مثلنا ، فاننا نعترف له بالكفاءة والموهبة البشريتين ، أي انه يستطيع أن يقوم بمسؤولية واحدة على نحو ممتاز في فترة قصيرة . لو أن ذلك حدث ، لتحققت ديموقراطية العمل الثقافي المصري وأثمرت في الفكر والتعبير ثمارا غير التي عرفناها . ولو ان ذلك حدث، لما تصور العالم أنه لا يوجد عندنا سوى «يوسف بيك» هو الذي يرونه في المؤتمرات والمحافل ، وتوقيعه يلمع على كل الوثائق والبيانات .

والسباعي ــ وحده ــ ليس مسؤولا عن هذا الوضع الشاذ . تشاركه في المسؤولية جهات عديدة في مقدمتها السلطة المصرية التي كان يعنيها في الكثير أن يكون هناك «ضابط» على رأس الاجهزة والمؤسسات ، ومن بينها الاجهزة والمؤسسات الثقافية . يشترك في المسؤولية أيضا ، المثقفون أنفسهم الذين سمحت سلبيتهم باستمرار هذا الوضع (باستثناء المرة الوحيدة التي تقدم فيها بعضهم بمذكرة الى طه حسين يسحبون فيها ثقتهم من السباعي عام ١٩٦٥) . تشترك أيضا في المسؤولية مؤتمرات الادباء العرب وكتاب آسيا وأفريقيا ، حيث عاملت الوفود العربية والاجنبية يوسف السباعي دوما وكأنه «مصر» .. أي احتكاك بـه أو اعتراض عليـه هو احتكاك بمصر واعتراض عليها .

وليس هذا صحيحا ــ أيها الزملاء والاصدقاء والرفاق !! ــ فمصر ، أغنى وأخصب من أن يمثلها رجل واحد كل هذا الزمن وفي كل شبر من

حقلها الثقافي . ومصر الحقيقية ــ لو تعلمون ــ تشعر انكم تنالون منها في الصميم ، بهذه المواقف !

١٠ ــ الفن الحديث .. نهاية حضارة ؟

« في هذا النمط الفني مطلوب من المتفرج أن يكون ايجابيا ، أن يتوجه الى داخل الصورة ، وعلى نحو غير عقلي وبحرية كاملة عليه أن يستخلص المعنى الخاص به منها » ، « اذا لم تستطع أن تغير فكرك وأنت تشاهد صورة لم ترها من قبل فالامر لا يتجاوز أحد احتمالين : اما انك أبله او ان التصوير لم يكن على درجة عالية من الجودة» ، « علينا ان نسلم ونحن امام الاعمال الفنية اننا لا نستطيع الهرب من كون نظرتنا للواقع تواجه تحديا ما » .

هذه المقتطفات الثلاثة من كتاب «الفن الحديث وموت حضارة» للدكتور هـ. ر. روكماكر ــ أستاذ تاريخ الفن بجامعة امستردام ــ تعاطف حار من جانب الناقد الكبير مع الفن الحديث . والكتاب رحلة ممتعة في سراديب التصوير والنحت التجريدي المعاصر في أوروبا واميركا .

ولكن الاستاذ روكماكر يطرح للنقاش سؤالا هاما يقول : لقد جاء الفن الحديث عامة كرد فعل فوري على منجزات الحضارة الصناعية بمرحلتيها الاولى والثانية في القرن الماضي والعصر الراهن . وردود الفعل قد تكون صادقة وأصيلة ، وحينئذ فهي تشير وتتنبأ ، ولكنها ــ مع هذا ــ سرعان ما تزول . والافعال الحقيقية ، سواء كانت مع التقدم أو ضده ، هي التي تبقى .

تلك هي خلاصة الفكرة التي يطرحها الناقد الهولندي للحوار . وهي ليست بمعزل عما يضطرم به ميدان النقد الفني في الغرب هذه الايام . ثمة انكباب واضح على عصر النهضة مثلا . وربما كان كتاب ميشال ليفي الذي

صدر عام١٩٦٧ تحت عنوان «بواكير عصر النهضة ــ الاسلوب والحضارة» هو فاتحة هذا السيل الذي تصعب متابعته في السنوات الاخيرة حول كلاسيكيات فن النحت والتصوير .

انها ليست عودة رجعية الى الوراء من قبيل الحنين الرومانسي، ولكنها وقفة تأمل ودراسة لاشكال الحضارة من خلال الفن . فكتاب ليفي تخيل عميق لبدايات «الرنسانس» وكيف كان الفن حلما رائدا لهذا العصر . وكذلك كتاب روكماكر تحليل دقيق للفن الحديث ، كرد عفوي للثورة التكنولوجية وحلم أقرب الى الكابوس ، ولحن جنائزي في خاتمة المسيرة المعقدة لحضارة اليوم .

والكتابان كلاهما لا يقف ضد الفن الذي يعالجانه ، ولكنهما يتخذانه وثيقة مع العصر أو ضده .. فالكاتب الهولندي يرى في التجريد المعاصر مرآة سلبية لما يجري ، والكاتب الآخر رأى في فنون عصر النهضة مرآة ايجابية . كلاهما يرى للفن دورا رياديا فاعلا بالسلب أو الايجاب .

١١ ــ حتى لا نخطىء من جديد !

لحظات التأمل الخاطفة التي يسرقها المرء من نفسه هذه الايام ، تكاد تنحصر في «النماذج العظيمة» التي عرفتها حياتنا الفكرية والفنية غداة الهزيمة . كان المناخ المشبع بالقهر والعذاب ، لا يجد متنفسا الا في نهش الذات وتعذيب النفس . والقلة النادرة هي التي استطاعت أن تفلت من هذا الحصار الجهنمي للشخصية العربية . وهو الحصار الذي شاركت في صنعه أجهزة الدعاية الاسرائيلية والغربية والفكر الاستسلامي العربي اليائس .

والقلة النادرة التي نجت لم تفلت عبثــا ، كانت حياتها قد تشكلت بالفكر والممارسة في الاتجاه المعاكس ، كان وجودها قد تحقق بالنظر والتطبيق في الاتجاه الضد . كان غسان كنفاني ــ بين هذه القلة على سبيل

المثال ـــ يعيش لحظات عمره ، في أدق تفاصيلها ، عكس الهزيمة وضد الاستسلام . من هنا لم يكن تفاؤله في روايته « عائد الى حيفا » تفاؤلا سطحيا ساذجا ، وانما كان رؤية نافذة لحركة التاريخ . انه لم يجلس متفرجا على عجلة التاريخ وهي تدور ، وانما هو كان احدى قطرات الشحم والزيت التي أسهمت في تحريك هذه العجلة ، كان أحد عمال رصف الطرق أمامها لتسير .

وقد برهن على ذلك في الفكر والسلوك على السواء . لم تكن صدفة انه كان أول من ارتاد الادب الفلسطيني في الارض المحتلة ، ولم تكن صدفة أيضا أنه كان أول من كتب عن الادب الصهيوني . كان يستشرف الطاقات الخلاقة المبدعة داخل الوطن وخلف الاسوار ، وكان يتبين طاقات العدو وفكره وأهدافه .

الى جانب البحث النظري والتحليل الادبي ، كان غسان كنفاني فنانا كبيرا ، كتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة ، وكلها عن فلسطين . وكلها من موقع مقاومة الامر الواقع وهزيمة اليأس . ولم تنفصل تجربته السياسية وعمله في الصحافة عن المجرى الرئيسي لهذا الخط المضيء ، بل انه عن طريق النضال السياسي والعمل الصحفي كان يقترب من دقائق الحياة اليومية ومعدل سرعتها وجريان أحداثها .

وهكذا لو أننا استطعنا تخيل ٢٤ ساعة في حياة غسان كنفاني ، لما عرفنا متى ينـــام ، بل انني أتخيل الساعات القليلة التي كان ينـــامها وقد ازدحمت بالاحلام والكوابيس ، أحلام الثورة ودوره فيها ، وكوابيس الاغلال التي تحاول تطويقه .. دون جدوى !

نعم ، فقد سجل غسان كنفاني في يوم استشهاده ، تاريخ انتصاره على مناخ حزيران المشبع بالقهر والعذاب . ولقد كان « نمط حياته » هو طوق نجاته من الحصار الجهنمي الذي فرضه العدو على الشخصية العربية بعد الهزيمة . وهكذا انتصر «نموذج غسان كنفاني» الأمس واليوم ، بينما

سقطت كل النماذج التي عزلت الفكر عن الممارسة أو رفضتهما معا ، فلم تر الدنيا الا سوادا في سواد .

فلنتأمل النماذج العظيمة اذن حتى لا نخطىء من جديد .

١٢ ــ رحلة البحث عن الذات

كان «الانكفاء على الذات» من أوضح الظواهر التي أثمرتها هزيمة ١٩٦٧ . ولكن هذا الانكفاء اتخذ اشكالا عدة بين الكتاب والمفكرين غداة اليوم السادس من حرب حزيران . لقد حدث الانكفاء على الذات الفردية حينا والذات الاجتماعية حينا آخر والذات القومية حينا ثالثا والذات الحضارية حينا رابعا .. وهكذا تباينت الاستجابات الفكرية والفنية من كاتب لآخر حتى ولو كان «الانكفاء على الذات» هو الاطار العام الذي يجمعهم .

وقد كان الانكفاء على الذات أحد ردود الافعال العديدة التي صدرت عنا في مواجهة «فعل» الهزيمة . ورد الفعل ، أيا كان اتجاهه ومرماه يظل محاصرا في دائرة السلب ، أما الافعال الايجابية فهي التي تحطم الطوق الجهنمي وتخترق الاسلاك الشائكة بروح فدائية لا تخضع لمنطق الهزيمة وما قبلها . وقد عرفت حياتنا الثقافية والعملية العديد من الافعال الايجابية التي تحدت حزيران بكل ما تملك من مقومات التحدي .

غير أن «الانكفاء على الذات» من بين الظواهر السلبية والايجابية على السواء ، كان أكثرها وضوحا وتمايزا . وقد تبدى الانكفاء على الذات الفردية في كثير من الاعمال الفنية خصوصا ، ورغم اتخاذ الانقاض والخراب العام ديكورا ، فان الجوهر ظل كامنا يطل علينا برأسه في الانطواء الحاد على النفس ، مناقشتها الحساب أو ممالاتها أو تجريحها وايلامها لدرجة السادية . كما تبدى الانكفاء على الذات الاجتماعية في نبذ كل ما هو خارج

الحدود أو على ضفتيها والتفكير الجاد داخل الحدود وما تشتمل عليه من ثغرات في أبنيتها الاجتماعية والسياسية . وتبدى الانكفاء على الذات القومية في البحث الاليم عن مخرج للقومية العربية تصل بواسطته الى الوحدة الشاملة بين العرب ، وكثيرا ما تبين ان التجزئة الاستعمارية للوطن الكبير ليست وحدها المسؤولة عما جرى وانما هناك أوضاع اقليمية تكرس هذه التجزئة وتغذيها بمزيد من الوقود الذي لا يكف عن الاشتعال . وتبدى الانكفاء على الذات الحضارية ــ أخــيرا ــ في التيمم نحو التــاريخ الفولكلوري والديني لشعبنا ، وما نتج عنه من تقاليد وقيم ظلت سارية المفعول في دمائنا .

ورغم أن «الانكفاء على الذات» بقي في دائرة رد الفعل السلبية ، الا ان تراكماته البطيئة طيلة السنوات الست الماضية قد أثمرت « تغيرا » كيفيا في المفاهيم والافكار والقيم .. ان كتابا مثل « تاريخ الفكر المصري الحديث » للدكتور لويس عوض ، وكتابا مثل «العرب والفكر التاريخي» لعبدالله العروي ، ومجموعة المؤلفات التي ناقشت تراثنا من مواقع مختلفة، لصادق العظم وعاطف أحمد وعفيف فراج وبو علي ياسين ومحمد عيتاني، والمناقشات الناضجة التي أثيرت حول هذه الاعمال .. كل ذلك وغيره قد تحول برد الفعل السلبي (وهو الانكفاء على الذات الاجتماعية والقومية والحضارية) الى فعل ايجابي هو ما نشاهد آثاره الآن ــ وندهش لها ! ــ على نفسية وعقل الانسان العربي .

حتى الانكفاء على الذات الفردية فيما ظهر من فنون ، قد أدى مع الحوار الهادىء والصاخب الذي ضجت به حياتنا الادبية ، الى شيء جديد، أيا كان الحجم والوزن اللذين ولد بهما هذا «الجديد». المهم، ان السنوات الست الماضية لم تذهب عبثا ، بأخطائها وصوابها ، وانما هي في الواقع كانت سنوات الحمل بما يستهوله البعض منا الآن ، في ساحة القتال ، وخلف الخطوط .

١٣ — من « قشعريرة البرد » الى « قشعريرة الضمير »

لنا ان نسأل ، وان نقلق ، على مصير «الضمير الاوروبي» ، الذي يصوغ همساته وصرخاته كبار الادباء والفنانين والمفكرين ، أعني كبار الروح . ان كل ما نسمعه عن أوروبا هذه الايام هو قلقها من تخفيض النفط العربي ، وكل ما نشهده في اوروبا هذه الايام هو «نفاقها» للعرب، وهو قلق رخيص ونفاق أكثر رخصا .. فاذا كانت قشعريرة البرد وحدها هي التي ستشعر الاوروبيين بأن هناك «عالما عربيـا» في هذه الدنيـا ، يستطيع أن يؤثر على حياتهم ، ومن ثم على سياستهم الخارجية ، فاننا نشعر في نفس الوقت ، بما يشبه اليأس لغياب قشعريرة الضمير الاوروبي التي لم ترتجف قط لما أصاب هذا «العالم العربي» من طعنات غربية مختلفة الازياء والالوان ، أحدثها الزي الصهيوني واللون الاميركي .

اننا ندهش حقا حين نجد اسماء كبيرة ، كان لها أثر كبير في وعينا ، وقد تصدت بسرعة مذهلة عام ١٩٦٨ لما سمي حينذاك بالتدخل السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا ، كتب أراجون وكتب جـارودي وكتب سـارتر احتجاجاتهم الملتاعة على ضرب «حرية الاختيار الوطني لبناء الاشتراكية».. اما الغزو الاسرائيلي للوطن العربي فلا غبار عليه ولا هم يحزنون !..

اننا ندهش حقـا حين نجد هذه الاسماء «الكبيرة» وقد تصدت لاضطهاد حرية الفكر في الاتحاد السوفياتي (بدءا من سينيافسكي ، وانتهاء بساخاروف مرورا بكوزنتسيف) فكتب جارودي وكتب سارتر منددين «بالبيروقراطية التي تذبح الابداع وتهتك اسـرار النفس» .. ولم يكتب أحدهم حرفا عن غابة الوحوش الاسرائيلية التي لا تسمح للانسان العربي الا أن يكون طعاما شهيا لامعاء خاوية وجاهزة ودما لابتلاعه !

اننا ندهش حقا حين نجد اصحاب هذه الاسماء الاوروبية «الكبيرة»

وقد ناطحت الثور الاميركي في فيتنام ، ولكنها تخشاه لدرجة الرعب في الشرق الاوسط .

وندهش أكثر وأكثر حين تسكب دموعها السخية على «مجازر الحرية» داخل المجتمعات العربية ، فتبرق (بما نرفع له قبعاتنا احتراما) الى المسؤولين العرب هنا وهناك «مسجلة أسفها الشديد علـى معاملة المثقفين والمناضلين العرب معاملة سيئة» ترفع صوتها مطلقا ضد الارهاب الاسرائيلي الذي يهتك عرض الثقافة والفكر في وضح النهار ، بالقتل الجماعي والاغتيال الفردي على السواء !

لنا الحق في أن ندهش لهذه الازدواجية المذهلة في مواقف الفكر الاوروبي المعاصر (يقول سارتر ان الكاتب مسؤول حتى عن صمته ، والكاتب مسؤول حتى عن الجرائم التي لا يسمح بها !!) .. ولكننا بعـد الدهشة، من حقنا أيضا ان نسأل، وان نقلق على مصير «الضمير الاوروبي» الذي لا يمكن ان يوقظه انخفاض تصدير النفط ، فقشعريرة البرد توقظ الجسد ولكنها في أغلب الاحيان يقظة قصيرة الاجل لا يصل مفعولها الى العقل والوجدان .

والحقيقة هي انه اذا كان الضمير الاوروبي قد عانى ضمن ما عاناه من ويلات الحرب العالمية الثانية الاحساس بالذنب لعدائه للسامية ، فان التكفير عن هذا الذنب لا يلغي هذا العداء ، وانما هو يغير الصورة اليهودية ويضع مكانها الوجه العربي .

هذه هي الحقيقة ، فلا يمكن لامثال اصحاب هذه الاسماء «التقدمية» ان يكونوا من « ضحايا الاعلام الصهيوني » ولا هم « عملاء الاستعمار الاميركي » ، وانما هم بكل بساطة : عنصريون !!

١٤ ـ الانتماء المستحيل

دعت الظروف بعضا من خيرة المثقفين العرب التقدميين ان يعيشوا جزءا طويلا من اعمارهم في «المهجر الاشتراكي» سواء في أوروبا الشرقية او في الاتحاد السوفياتي او في الصين .

وليس من شك في ان « اللحظة » التي غادروا فيها بلدانهم الى الشرق الاشتراكي كانت لحظة اضطرارية ، وكان «السفر» أحد الحلول التي لا يمكن القول بأنها كانت هربا من النضال . على ان السفر اذا تحول الى «هجرة نهائية» لا يمكن وصفه هو الآخر بأنه أحد أشكال النضال . على اية حال ، لا سبيل الى الحكم على «النوايا» والعبرة أخيرا بالحصاد أو حصيلة الغيبة الطويلة عن أرض الوطن .

أثارت هذه الخاطرة عندي زيارة الروائي العراقي الكبير غائب طعمة فرمان لبيروت. وغائب من كتّاب الصف الاول في الادب العربي الحديث، بأي مقياس . روايتاه «النخلة والجيران» و «خمسة أصوات» تفسحان له هذا المكان البارز في حياتنا الثقافية .

ولكن غائب الغائب عن أرض الوطن ٣٢ عاما متقطعة ، لم يربح ولم يربح الادب معه من هذه الهجرة شبه الدائمة ، أو لعلي أكون دقيقا اذا قلت ان ما ربحه الكاتب شخصيا على صعيد الثقافة والتعرف على عالم جديد، لا يساوي الخسائر الموضوعية التي جناها من الغياب .

مثلا ، فانني رافقته الى الناشرين اللبنانيين ، بخصوص روايته الجديدة «المخاض» . وكان واضحا ان رصيده من الشهرة لا يصلح شفيعا تجاريا لاقدام هذا الناشر أو ذاك على نشر الرواية . والشهرة في ذاتها ليست عيبا ولا مجدا ، ولكن «حضور» الكاتب في محيطه الادبي ـ خاصة اذا كان حضورا موهوبا ومتألقا كما هو الامر في حالة غائب طعمة فرمان يفرض

على الناشرين حسابات مغايرة . لقد أذهلني فعلا ان بعضهم لم يسمع به على الاطلاق !!

مثلا أيضا ، فانني على يقين من ان غياب غائب قد اختزل ـــ ولا أقول اختصر ـــ عدد المنجزات الفنية التي كان يمكن ان يقدمها في حقل الرواية لو انه ليس بعيدا عنا . انني استبعد تماما ما يقال من ان الغربة تدعو الى التأمل والتعمق والرؤية الاكثر استبصارا بالواقع الوطني، وانها فرصة ذهبية للابداعات الكبيرة . اعتقد ان هذا ما يتصوره «الغريب» للوهلة الاولى ، وهو يطأ الارض الجديدة مثقلا بعذابات الامس في أرضه الاصيلة . ولكنه ما ان ينفض عنه غبار القرف حتى تستدرجه الغربة يوما بعد يوم الى شباكها المتقنة الصنع من خيوط الملل والكسل والاعتياد ، ومغريات السكن في منطقة انعدام الوزن ، حين يصبح الوطن «ذكرى باهرة» دون ان يتحقق الانتماء المستحيل الى الوطن الجديد .

انني استخدم كلمة «الوطن» هنا بمعناها القومي الشامل لخريطة الارض العربية كلها ، فلا مقارنة بين العراقي المقيم في بيروت أو السوري المقيم في القاهرة ، وبين العربي المقيم في موسكو او براغ او برلين .

انني أتفهم ، لغير حد ، راحة الضمير التي يستشعرها المثقف العربي التقدمي الذي آثر البقاء في أحد عواصم البلدان الاشتراكية ، أكثر كثيرا من أحاسيس هذا المثقف نفسه حين يؤثر البقاء في أحد العواصم الغربية . ولكن راحة الضمير هذه التي تبررها «اللحظة الاولى» لمغادرة الوطن ، سرعان مـــا تصبح عبئا بعد ان تمتد هذه اللحظة سنوات طويلة .. قد يجيد خلالها المثقف العربي الترجمة من الروسية او البلغارية او الالمانية ، ولكنه اذا لم يعد الى أرض الوطن لن تكون هذه اللغة الجديدة اضافة الى ثقافته ، بل حاجزا ضخما بينه، وبين ما يستطيع ان يعطيه بالفعل، من طاقته وموهبته، لتراثه القومي .

أية فروع من الفكر الانساني ، في زمان ما ومكان ما ، هي التي تعلن تقدمه أو تخلفه ، هل هي الفلسفة أم الاقتصاد أم الآداب والفنون؟ هل هو الفكر السياسي ام الاجتماعي ام القانوني ؟ هذا هو موضوع الندوة التي عقدتها جامعة «ييل» بالولايات المتحدة في صيف هذا العام .

ومن الطبيعي ان تتصور على الفور ، ان اساتذة الفلسفة أجابوا ان الفلسفة هي رائدة التقدم الفكري ، فهي التي تبلور الرؤيا الى العالم من خلال ما انتهت اليه بقية العلوم ، وما يضيفه الواقع الانساني ، مما يخرج عن دوائر هذه العلوم . كذلك من الطبيعي أن يقوم علماء الاقتصاد ــ من شتى الاتجاهات ــ ليقولوا ان الاقتصاد هو محور التطور الاجتماعي ، وانه ، بالتالي ، العلم الذي يقود مسيرة التقدم على جبهة الفكر . والآداب والفنون تجيب بأنها الرادار الذي يوجه العقل والوجدان البشريين ، ومن هنا كانت دليل التقدم وبشيره . وهكذا ، وهكذا ..

ولكن الحقيقة ان شيئا من ذلك لم يحدث ، لان السؤال ــ أصلا ــ ذو شقين هما التقدم والتخلف ، فالعلم الذي يعلن التقدم مسؤول بدوره عن التخلف ! لذلك ، فان احدا لم يتحمس لان يكون هناك علم محدد ، له هذه القدرة الخارقة على ان يكون الطليعة والمؤخرة في نفس الوقت !

حينئذ تقدم اساتذة ما يسمى الآن بعلم «الحضــارة» وجمعوا كل المتناقضات على طبق واحد ، وقالوا ان هذه «العلوم الانسانية» كلها قد تكون اسبابا ونتائج في وقت واحد للتقدم والتخلف على السواء . وقد تكون بريئة من هذا «الشرف» وتلك «التهمة» حين تتحول الى مجرد «اطار» عقلي ووجداني للسياق التاريخي المضطرم بما هو أهم : بالحرب والسلم والفقر والمرض والجهل الى آخر القائمة !! اننا معشر المثقفين لسنا أكثر من «طفيليات» تنمو على ساق المجتمع ، بحذر حينا وتهور احيانا ، ولكنها لا

تكف عن التسلق ، بكبرياء ، الساق التي تتطفل عليها نفسها !!

وانفضت «الندوة» بهذه النتيجة السعيدة . ولكن علماء «انجلترا» لم يعجبهم حال زملائهم الاميركان ، فأقاموا الدنيا واقعدوها . وخرجوا عن وقارهم ، فنشروا آراءهم في « الصحافـة » !! هكذا حملت الاوبزرفر والصنداي تايمز أنباء المعركة الاميركية الانجليزية المثيرة . قال معظم الانجليز ان الثقافة من أخطر الاسباب التي يتقدم بها المجتمع أو يتخلف . وان الثقافة في كلا الحالين مسؤولة ، وليست مجرد نتيجة سلبية لما يجري في المجتمع . وانقسم الانجليز بعد ذلك حول السؤال الاساسي للندوة الاميركية : اي الفروع يدل على التقدم او التخلف ؟ هنا احتدمت معركة جانبية داخل الجبهة الانجليزية ، وكان ألمع المحاربين هم رجال القانون . قالوا ان القانون بطبعه «محافظ» ، ومن ثم فهو يصوغ علامات التقدم والتخلف بعد تمامها . القانون اذن قـد يتأخر ، وهو لا يتنبأ او يحلم ــ كالآداب والفنون ــ وانما هو يقين بالتقدم او التخلف .

رغم ذلك وجدتني مشدودا الى جانب النبوءات والاحلام التي رآها الادباء والفنانون .

من يونيو (حزيران) ١٩٧٣
الى ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٣

المجموعة الثانية
١٩٧٤ - ١٩٧٥

الوعي المذبوح

لسنا بالقطع في مرحلة «انحطاط» فكري ، ولا في حـالة «فقر» ثقافي . وانما نحن نجتاز مرحلة من الفوضى الذهنية المخيفة ، مظاهرها المباشرة :

□ حالة الانفصام العنيف بين الفكر والسلوك في حياة «القيادة» العقلية والوجدانية .

ولعله من المثير للتأمل ان غالبية اصحاب الثقافة التقدمية على الصعيد السياسي هم أكثرهم محافظة ــ بالمعنى الاخلاقي التقليدي ــ على الصعيد الاجتماعي . وليس مشهدا استثنائيا ان ترى شابا مناضلا متطرفا في دعواه السياسية، وهو لا يختلف في سلوكه الاجتماعي من حيث القيم والعادات والتقاليد عن آبائه واجداده . ألا يؤثر هذا الفصام على اتساق البنية العقلية ومجرى الشعور ، بحيث تصبح الاسس النظرية التي يمكن اقامة « بنـاء فكري » عليها من الرخاوة والسيولة واضطراب العناصر المكونة لها للدرجة التي لا يطول معها عمر البناء . وهكذا ، فسقوط الابنية النظرية ، واقامة ابنية جديدة سرعان مـا تسقط في فترة وجيزة ، من آيات هذا التخلخل العميق داخل الشخصية القيادية في الثقافة العربية المعاصرة .

□ حالة الانفصام الحاد بين القمة والقاعدة رغم ثورة المواصلات ، بكل ما تعنيه من استحداث أجهزة للارسال والاستقبال ، تفوق بمعـدل سرعتها وقدرتها على الاخذ والرد ، وسائل التثقيف البدائية التي كانت عليها

الحال في العصور الماضية. ان الصحافة والسينما والترانزستور والتلفزيون، أكثر فاعلية من ناحية السرعة والكم .. غير ان الكتاب والجامعة والحزب السياسي أكثر ايجابية من ناحية الكيف ولو هبطت معدلات السرعة في التوصيل وقل الكم «الا ان الملاحظة الدقيقة تقول ان نسبة الامية في الوطن العربي لا زالت كما كانت عليه منذ أكثر من عشر سنوات، وان الاعلام العربي ــ خاصة المرئي والمسموع ــ لم يرتفع بالوعي الى الدرجات الدنيا ، وان حالة فقدان الثقة فيما يكتب أو فيما يروي هي الحالة الغالبة» . الا يؤدي ذلك الى عدم اكتمال الدورة الجدلية بين القاعدة الجماهيرية العريضة والقمة الفكرية القائمة بحيث ان «افتراض مطالب الجماهير واحتياجاتها الفعلية يصبح هو الاساس النظري دون شاهد واقعي من الحياة العملية» ؟ ان الكلام في البوق دون انتظار لصوت في المسماع هو نوع من البلاهة واحدى درجات الجنون .

□ حالة الانفصال بين المفكرين وبعضهم البعض ، بدءا من مفردات اللغة وانتهاء بالمواقف العملية . ومن الطبيعي في هذا الصدد ان يكون لكل فنان ، شاعرا كان أو روائيا ، معجمه الخاص . كذلك فان اختلاف اساليب الكتاب كبصمات اصابعهم هو عنوان الاصالة وميزة الموهبة . ولكن تفرد الفنان باستخدام ألفاظ معينة وتفرد الكاتب بانتهاج صياغة معينة في التعبير ، لا تعني مطلقا درجة التعميم التي ينطوي عليها كل مصطلح والقاسم المشترك الاعظم بين الاستخدامات المتعددة للمفردة الواحدة . ان ما يحدث الآن بعيد تماما عن وجهي العملة المتلازمين : الخاص والعام في ألفاظ اللغة. لقد تداخل الوجهان على نحو مروع بحيث أصبح الغموض هو القاعدة والوضوح هو الاستثناء . ولست أقصد الوضوح بالنسبة للقارىء ، وانما أقصد غياب همزة الوصل بين الكاتب والكاتب بحيث بات الاتفاق أو الأختلاف بينهما بلا معنى . ان موقف مسرح العبث في أوروبا من قضية اللغة هو موقف فلسفي واضح ، فرواده ارادوا القول بأن اللغة في ذاتها

تشكل جدارا بين الذات والذات وبين الفرد والمجتمع انها احدى مظـاهر الاغتراب جماليا تنعكس هـذه الرؤية على بناء الكلمات فيما تتصوره من قبيل الفوضى واللامعقول ، ولكنها في الحقيقة محاولة فنية لتجسيد هذا المعنى الذي اشرت اليه . وهو المعنى الرابض في جوف المجتمع البرجوازي الغربي في مرحلة تاريخية تتسم بالتنـاقض الحـاد بين شكل الحضارة ومضمونها ، بين الثورة التكنولوجية المعاصرة بما استحدثته من اساليب للانتاج وبين وسائل هذه الثورة من القوى المنتجة في مجتمع الاستهلاك. فلاسفة الغرب من مواقعهم الايديولوجية المختلفة يصوغون هذا الجديد في حياتهم وفي ثقافتهم صياغة دقيقة من وجهة نظر المصطلح فيتفقون ويختلفون بوضوح كامل . بل ان الاقبال الواسع على مسرحيات بيكيت ويونسكو وارابال واداموف وجينيه تعني أيضا ان المصطلح الفني مشترك بينهم وبين جماهير المشاهدين .

حتى المواقف العملية لا تتفق عليها . والموقف الواحد الذي يعتبر من جانب البعض موقفـا ثوريا ، يراه البعض الآخر ليس كذلك . ان حرية الكاتب مثلا ، قضية واضحة لا تحتاج الى تفسير خاص ، فاذا جرؤ أحد الوفود العربية في مؤتمر للادباء على اثارة هذه المشكلة يتفق الجميع على وجهها النظري ويختلفون على امتداداتها التطبيقية . وهكذا وهكذا .

□ حالة الانفصال القائم بين الفئات الجماهيرية نفسها . التمايز الطبقي ظاهرة اجتماعية تقرها حقائق العلم . ولكن التمايز يختلف عن الانفصال . ان تجاربنا الحزبية والجبهوية لا زالت تعاني مخاضا عسيرا ، ذلك ان الرواسب القبلية والعشائرية والطائفية والدينية والعائلية لا زالت هي «الثقافة» التي توجه السلوك العفوي للجماهير ولا شك ان «الحزب» في حياتنا السياسية فضلا عن فكرنا السياسي، مرحلة متقدمة. كما ان «الجبهة» كذلك مرحلة أكثر تقدما . كلاهما تعبير عن الوعي الوطني والطبقي . ولكن المسافة بين الواجهة المعلنة والحقيقة العمليـة ، شاسعة . ذلـك ان اغلب

التحليلات والتوجيهات ترابط عند حدود الشعار والمانشيت والكليشيه ، لا يرافقها عمل ثقافي ونضال سياسي دؤوب ، يتحول بها لدى القيادات الاكثر وعيا من مرحلة الحلم الى الواقع . هكذا تنوء ظهورنا باعباء هذا الانفصال داخل صفوف الجماهير . وأكرر ان ثمة اختلافا بين الانفصال والاستقلال. ان تحول الكثير من أحزابنا الى قواقع صدفية محكمة الاغلاق، هو نفسه الذي ينعكس على جبهاتنا وتحالفاتنا من شروخ سفلية وشقوق للجدران ، وان بدا السطح لامعا والواجهة بيضاء . وهو نفسه الذي ينعكس في العديد من الانقسامات غير المبدئية .

* * *

ثم ماذا ؟

ثم تجرفنا هذه العلامات الاربعة الرئيسية ــ وهناك غيرها بالتأكيد ــ الى متاهات مضنية :

● الى ان يصبح الكاتب او الشاعر لا هم له الا ان يسب جميع البشر كل اسبوع ، أو كل يوم ، فزملاؤه كلهم ، السابقون واللاحقون ، هم من الاشرار والاغوات ، وهو وحده الملاك بل النبي بل الاله . ولا يمكن ان تكون هذه النرجسية الجماعية مرضا فرديا معديا انتشر بصورة وبائية . وانما هي تعبير عن الوجه الآخر للازمة : البعد ما امكن عن الخلق والابداع، أي عن الفعل الايجابي .

● ولا تصبح المقاهي مجرد مكان للراحة واللقاء العابر ، بل هي الاصل والقاعدة الفسيحة . وليس مهما أن تتحول الى بؤر للشائعات والنميمة ، وانما المهم ان ذلك كله هو الوجه الآخر لمرحلة التقاعد والشيخوخة التي يصبح فيها اللغو والثرثرة ونهش لحوم الآخرين بديلا للقراءة والتحصيل المرهق .

● وأخيرا يسهل على السلطة، اي سلطة، ان تغتال الثقافة او تحتويها..

ما دامت الغالبية العظمى من المثقفين قد اختارت ، ان تعيش كنباتات **الظل** في بيوت من زجاج، بدلا من أن تعيش كأحراج الغابات وأشواك **الصحراء**: جذورها في أعماق الارض وأعناقها تخترق عين الشمس ، والهواء **الطليق** يحميها من الوحوش الغادرة !

١٩٧٤/١/٢٨

مشكلة يوسف ادريس

قال لي عبدالرحمن منيف بهدوئه العجيب : انه مصيرنا نحن أيضا .
كنا نتكلم عن اسماعيل المهدوي ونجيب سرور وتيسير سبول ، عن الجنون والانتحار والموت المفاجيء ، عن الصمت والهجرة الى الداخل والهجرة الى الخارج . انه الجيل الضائع . لست أذكر اينا قالها . ولكني اذكر انني قلت لعبدالرحمن : لا تتصور انه «مصيرنا» الـذي سيجيء ، بل هو مصـيرنا الراهن . الضياع «حالة» تتخذ اشكالا متعددة ولكن جوهره «حاضر» فينا الآن . جنونهم وانتحارهم وموتهم المفاجيء ، نحياه داخلنا ولكننا نكابر ، نرتدي قناع التماسك والعقل والحياة أمام الآخرين ، وحين نخلو الى مرآتنا التي لا تكذب ، ننشب مخالبنا في كل الاقنعة ونبكي ، فهذه هي حقيقتنا المروعة : اننا مجانين ومنتحرون وموتى ، هجرتنا الى الخارج انعكاس لهجرتنا الى الداخل ، وكلام الكثيرين منا لا يختلف عن صمت الغالبية .

فجأة سألني مبدع «الاشجار واغتيال مرزوق» : ويوسف ادريس ، كيف حاله ؟ كان السؤال نفسه الذي أجبت به نزار قباني حين دعاني الى سهرة مع يوسف ادريس بمناسبة وصوله الى بيروت . قال لي نزار بصوت عال وقلب مفتوح : انه رائع ، يضحك وصحته ممتازة ، ومتألق كالعادة .

ورأيت يوسف . كما هو لم يتغير . كما تركته منذ ثمانية اشهر . الضحك والتألق ومضات خاطفة سرعان ما تنزوي في ركن بعيد عن النفس، وعما تحت الجلد . عيناه الحادتان لا تخفيان الحزن المتكبر ، كلماته الجادة

لا تستر الجراح الملتهبة ، وعشقه لضجيج الحياة وجلبة الدنيا لا يحمي تفاصيل الالم والرعب من الظهور المباغت .

يوسف ادريس ؟ هو مثلنا ، يحيا ضياع الجيل باشكاله المتعددة ، ولكن دون الوصول الى الحد الاقصى من تجسيد الحالة كما أصبح عليها المهدوي وسرور وسبول وغيرهم من شهداء المرحلة ، ودون الوصول الى الحد الادنى من تجسيد الحالة كما أصبحت غالبيتنا التي ترتدي قناع التماسك والعقل .

في منتصف الطريق تماما ، يوسف ادريس يقف . ويكاد يكون وحده الذي استطاع ان يحفر لنفسه هذا الخندق . ومن هنا كانت هواجسه وافكاره ومشاعره واعماله ومواقفه تشكل فيما بينها حالة خاصة وفريدة رغم انتمائها الشرعي الى أزمة جيل كامل ومأساة مجتمع بأسره ومسؤولية حضارة شاملة . وانه لمن أيسر الامور ان نعلق مزايا او خطايا أحد الافراد الاستثنائيين على مشجب نظام الحكم ، كما انه من ايسر الامور ان نفسرها على ضوء التكوين العبقري للفرد .. كلاهما حل اخلاقي ميسور للتفكير البسيط وأحيانا المبتذل ، التفكير الذي يري بيده مغفرة الخطايا او منح الاوسمة والنياشين .

ان حالة اسماعيل المهدوي ونجيب سرور وتيسير سبول وغيرهم وغيرهم ، ليست أكثر من رقعة في النسيج الواحد المشترك بيننا . وغالبية جيلنا هي الرقعة الاوسع . وتبرز حالة يوسف ادريس وسط هذا النسيج كبقعة فريدة ولكنها غير معزولة ولا « خارجة عن السياق » . ويعود هذا التفرد في تقديري الى حجم الموهبة ونوعها التي يتميز بها يوسف ادريس .

هذا الشاب الذي كان منذ أكثر من عشرين عاما زعيما لطلبة كلية الطب بالقصر العيني ، هو نفسه الذي كان منذ أقل من عام يخطب في الجنود على الجبهة وفي صفوف الشباب بالجامعة ، وكأنه لم يتغير . ولكن الحقيقة هي ان هذا الملمح السياسي هو أكثر الملامح سلبا وضعفا في وجه

يوسف ادريس . لا لشيء الا لان الفن هو موهبته الحقيقية والكبيرة ، هو عطاؤه الخصب والاصيل والعميق . واعظم الادباء في واقع الامر هم أطفال في السياسة ، بمدلولها العملي المباشر . ولكن « شهوة تغيير العالم » التي تدب في أوصال الفنان منذ البداية والتي بدونها لا يعطي فنا عظيما ، تختلط لدى البعض احيانا كثيرة بمعنى «السياسة» فيمارسونها وهم مؤهلون أصلا لما هو أخطر منها وأشمل ، وهم بعيدون بحكم تكوينهم الخاص والفريد عن منحنياتها ومنعطفاتها وتضاريسها المغايرة لطبيعة الفن والفنان .

وليس هذا معناه ، مطلقا ، انه يتعين على الاديب ان يبتعد عن السياسة، انه لا يستطيع حتى ولو شاء ان يبتعد عن أحد الينابيع الثرة لادبه .. ولكن المشكلة تبدأ حقا حين يختلط الامر على الفنان ولا يميز بين الفكر السياسي في فنه والعمل السياسي في حياته . وقد كانت هذه مشكلة وازمة بل ومأساة الكثيرين من أكبر الادباء في التاريخ القديم والحديث على السواء. غير ان المشكلة تزداد حدة وعنفا في بلادنا حين يكون الفنان منتميا الى تيار وطني ثوري في ظروف فرضت على العمل السياسي لهذا التيار ان يكون سريا معظم الوقت. ان غياب الديموقراطية والالتزام التنظيمي كلاهما يحتاج الى كوادر سياسية مؤهلة ذاتيا ومدربة موضوعيا على العمل النضالي في أسوأ الظروف . والفنانون — بشكل عام — ليسوا هم الفئة المرشحة لهذا الدور . تكوينهم وطبيعتهم لا تساعدان ، الا في مناخ ديموقراطي مزدهر ، على القيام به . وليس هذا عيبا ، ففي فنهم يقدرون على الكثير .

ولكن في ظروف العالم الثالث — والوطن العربي جزء منه — يلعب المثقفون دورا خاصا في العمل الوطني بالاضافة الى ان «شهوة تغيير العالم» لدى الفنان تغازل في كثير من الحالات «شهوة السلطة» . الفنان — خاصة اذا كان كبيرا وذا تأثير واضح على الجماهير — يقارن بوعي أو دون وعي بين قيادته المعنوية للامة وقيادة الحاكم لها ، ويشعر في قرارة نفسه انه أكثر جدارة وأهمية . وذلك هو الخطأ ، أو الخطيئة الاصلية ، التي تتسبب في

كثير من الازمات والمآسي والهزائم في حياة بعض الادباء .

وفي ظروف مصر خاصة حيث تحول المثقفون الى جيش من الموظفين في المؤسسات العامة وأجهزة الدولة ، يصبح السلم البيروقراطي للوصول الى أعلى المراكز هو السلم شبه الوحيد للصعود الى السلطة . وفي ظروف مصر خاصة حيث تفتتت التنظيمات الوطنية والثورية وتلاشت لم يعد ظهر المثقف مسنودا او محميا الا حين يستند على حائط التنظيم السياسي الرسمي، تنظيم السلطة . وفي ظروف مصر خاصة حيث ملفات اجهزة الامن وقوائمها لا ترحم الماضي والتاريخ ، يصبح الكتّاب الوطنيين والتقدميين لا حول لهم ولا قوة .

في هذه الظروف مجتمعة ، عاش يوسف ادريس العشرين عاما الاخيرة بين مد وجزر داخلي وبين شد وجذب خارجي . موهبته الفنية الكبيرة والتي أرى انها أضخم مواهب جيله وأكثرها عطاء ، برهنت بسخاء على انه كاتب استثنائي . ولكن حواره مع التيار السياسي الذي كان ينتمي اليه ، وكذلك حواره مع السلطة تعرض كلاهما لتعقيدات هذا الاستثناء ومشكلاته التي لا حدود لها . ولا شك ان التيار الثوري الذي ينتمي اليه قد تعرض داخله وخارجه سياسيا وتنظيميا وجماهيريا لصعوبات مؤلمة . كذلك فان سلطة النظام القائد للبلاد عانت هي الاخرى من ويلاتها الخاصة وتسببت في أهوال الفراغ التنظيمي والكبت السياسي العنيف . ولكن مشكلة يوسف ادريس لم تكن نتيجة هذه المعادلة الخارجية وحدها ، لم تكن ثمرة خطايا الآخرين وحدهم .

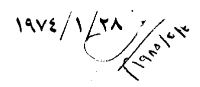
لقد اكتشف يوسف ادريس نفسه فجأة في عراء مخيف . زملاؤه يرتقون أعلى المناصب بدرجات السلم السياسي عن حق أو غير حق لايهم . الفن ينزوي ليصبح مجرد هامش على صفحة النظام لا سطرا في كتابه. القهر والخوف هو الشمس والهواء الذي يتنفسه البشر . الجوع والموت هما البديل الوحيد لحياة تكاد تفقد المعنى . جدران «الامان» في الظل الوارف

لتنظيم أو تيار سياسي او علاقات حميمة ، تنهار الواحد بعد الآخر .

ولا مفر من الجنون او الانتحار أوالموت المفاجيء سوى الصمت بالهجرة الى الداخل او الكلام الذي يرادف الصمت بالهجرة الى الخارج . ولم يختر يوسف ادريس أحد الطريقين ، عاشهما بالتفصيل دون ان يمضي في أي منهما . اختار ان يجسدهما معا في جرعة واحدة من التمزق والعذاب الذي لا ينتهي . ذلك انه لم يحسم أصل المشكلة ، وهي ان شهوة تغيير العالم ، لا تعني العمل السياسي باخطائه المحتملة ونتائجه اليسيرة المنال والسريعة الزوال . شهوة تغيير العـالم هي النبض الرائع في العمل الفني العظيم .

ويوسف ادريس فنان عظيم ، ولكنه ليس «سياسيا» على الاطلاق .

ومشكلة يوسف ادريس انه ــ ذلك العبقري ــ لا يدرك هذه الحقيقة البسيطة .



« الفوضى المخيفة »

من آيات «الفوضى المخيفة» في فكرنا الحديث غياب «المصطلح» او المعيار اللغوي القادر على الضبط والربط . واذا كان هذا الغياب مكشوفا ومأسوفا عليه في النقد الادبي مثلا ، فأنه يكاد يكون مستورا وغير معترف به في الفكر السياسي .

وسوف أضرب هنا مثلين محددين لمصطلحين شائعين في حياتنا «الصحفية» المثل الاول هو التفرقة التي يقيمها بعض الكتّاب والمعلقين في بلادنا بين الفكر الوطني والفكر الاجتماعي ، فيقال — على سبيل المثال — ان الفكر الوطني هو الذي يهتم بتحرير الارض ، بينما الفكر الاجتماعي هو الذي يهتم بسيادة الطبقات الشعبية على السلطة . أو يقال — أحيانا — ان الفكر الوطني هو مجموعة القيم النابعة من صلب أرضنا ، اما الفكر الاجتماعي فروافده الاساسية من خارج ديارنا .

وفي زمن التقدم الاجتماعي الذي قاده عبدالناصر منذ أوائل الستينات حاول البعض ايجاد مصطلح جديد هو «اليسار الوطني» ، للتفرقة بينه وبين اليسار الماركسي .

وكل هذه المحاولات تلقي ظلالا من الشبهة على وطنية ما يسمى بالفكر الاجتماعي واليسار الماركسي معا . هذه الشبهة السياسية تنعكس على البناء اللغوي للمصطلح انعكاسا شائعا يزيد من أوار «الفوضى المخيفة» .

كيف ذلك ؟

لنتأمل أولا عبارة «الفكر الوطني» : ان تحرير الارض ــ كحركة وتفكير ــ ليس مقصورا على مجموعة القيم والعادات والتقاليد «المحلية».. ذلك ان حركة التحرر الوطني حركة عالمية ، وتجاربها المشتركة قد بلورت بعض المبادىء العامة التي تسترشد بها «الاوطان» في كل بقعة من العالم ، ما دام الهدف السياسي واحدا هو معاداة الاستعمار ، والهدف الاقتصادي مشترك هو التنمية . قد تختلف أساليب النضال من مكان الى آخر ، ولكن تظل هناك «حدود دنيا» تتحرك داخلها الشعوب .

كذلك فالنضال الوطني ضد الاستعمار ليس مقصورا على الطبقة الوسطى ، فالعمال والفلاحون والجنود لهم مصلحة رئيسية في تحرير الارض لا تقل ، بل تزيد احيانا ، عن مصلحة الطبقات الاخرى . وقد شهدت حرية التحرر الوطني في العالم ، نكوصا من البرجوازيات «الوطنية» في تحرير الارض ، ولم يحدث ذلك قط من جانب الطبقات الشعبية .

على ذلك ، فهناك فكر وطني ، تتعدد الجداول التي تصب في مجراه : من تراث الامة المتراكم سلبا وايجابا على مدى العصور ، ومن التيارات المتصارعة على أرض الوطن ، مع بعضها البعض ومع التيارات الخارجية ، مستجيبة في هذا الصـراع لحركة الطبقـات ذات المصلحة في التحرير والطبقات الحليفة للاستعمار . الفكر الوطني هو كل ذلك ، ومن ثم يتجاور داخله السلب والايجاب .

" الفكر الاجتماعي" أيضا ، عبارة مطاطة تكاد من فرط ضبابيتها ألا تعني شيئا . الفكر الرجعي فكر اجتماعي ، والفكر التقدمي كذلك . اما اذا كان المقصود ــ عرفا ــ هو الفكر الذي ينشد التقدم الاجتماعي ، فمن قال ان هذا الهدف يتناقض مع تحرير الارض ، أي مع ما يسمى بالفكر الوطني ، بل من قال ان هذا «الفكر الاجتماعي» ليس فكرا وطنيا . ألأن ماركس لم يولد في مصر مثلا ؟ ابن خلدون لم يولد بها أيضا . ان عظمة لينين الحقيقية هي انه كان روسـيا حتى الاعماق وماركسيا حتى الاعماق . والتقـدم

الاجتماعي — يا سادة — مستحيل في ظل الاحتلال ، فالتحرير الوطني شرط للتقدم الاجتماعي . من هنا كانت الطبقات الثورية التي تنشد هذا التقدم صاحبة مصلحة رئيسية في تحرير الارض .

و «الفكر الاجتماعي» كما يسمونه ليس فكرا أجنبيا مستوردا . النظرية العامة والمبادىء الرئيسية لا وطن لها . اما التطبيق الحي الخلاق فهو الذي يضيف اليها مما يجعل من هذا الفكر الاجتماعي فكرا وطنيا .

— فكر التقدم الاجتماعي في جوهره فكر الثورة . والثورة الوطنية الديمقراطية المطلوب انجازها في بلادنا ذات شقين : أولاهما تحرير الارض والثاني تحرير الانسان . وليست هناك أولوية لاحدهما على الآخر ، ولا تناقض بينهما ... ومن ثم كانت المواجهة بين مصطلح «الفكر الوطني» ومصطلح «الفكر الاجتماعي» مواجهة غير صحيحة وضد العلم ، وتحمل في ثناياها رواسب الفكر القومي المتخلف عن تحرير الوطن وتقدمه على السواء .

والمثل الآخر الذي أريد ضربه هنا هو مصطلح «النظرية الثالثة» . وهو في ظني ليس مصطلحا جديدا ذاع في غمرة التسمية الشائعة الآن : العالم الثالث . وقد كان تقسيم العالم تكنولوجيا — أو حتى بمعدلات التنمية — الى ثلاثة عوالم هي الشرق والغرب وما بينهما تقسيما معاديا للعلم هو الآخر ./ فالحق ان بلدان العالم المتخلف هي جزء لا ينفصل من العالم الرأسمالي / ولكنها في ظل انتصار الاشتراكية ، أضحت مرشحة للطريق المسدود ، فليس آمالها الا التبعية بأسلاك من حرير للاستعمار الجديد ، او التحول الى الاشتراكية .

وكل ما سمي بالنظريات الثالثة ، ككتاب سيتوري عن «الشخصية الافريقية» وكتاب نكروما عن «الوجدانية» ليست أكثر من ضرب الرأس في الحائط الاصم عند نهاية الطريق المسدود / وينبغي أن نتأمل طويلا وعميقا تطور نظام ثوري في كوبا ، وسقوط الانظمة الوطنية على امتداد

القارات الثلاث . والقلة القليلة الباقية على طريق السقوط .

لا عالم ثالث ، لا حل وسطا بين الاشتراكية والرأسمالية . ولا نظرية ثالثة . هناك نظريات عديدة لا حصر لها . الماركسية واحدة ، ولكن داخلها نظرية للاقتصاد وأخرى للاجتماع وثالثة في التنظيم ورابعة في الثقافة وهكذا . والعالم الرأسمالي يموج بنظريات فلسفية لا تقبل الحصر ، باختلاف «النماذج» الرأسمالية : هناك البراجماتية والوضعية باتجاهاتها المختلفة والتجريبية بأشكالها المتباينة ، والوجودية المؤمنة والملحدة ، وغيرها وغيرها . هناك المسيحية والبوذية والاسلام وبقية الاديان ذات المذاهب المتعددة .

ومن هنا ، ماذا يمكن أن تكون «النظرية الثالثة» سوى تعبير مطاط يكاد من فرط التعميم أن يكون بلا معنى .

هل يقصد أصحابه تطوير أفكار عبدالناصر الاساسية ؟ الجواب : ان ميثاق العمل الوطني الذي وضعه عبدالناصر لا يسمى نفسه نظرية ثالثة . ولا الاسلام أيضا .

ماذا اذن حتى لا نزيد جماهيرنا بلبلة ؟

ان الميثاق الوطني الناصري أشار بوضوح الى «الاشتراكية العلمية» كصيغة وحيدة صحيحة للتقدم .

والاسلام كان حافزا ثوريا للمغرب العربي كله في حروبه الوطنية ضد الاستعمار الذي يرفع راية الصليب ... وكان أيضا «ثيابا مقدسة» تلفع بها البعض في مواجهة الثورة ..

ليكن تراث عبدالناصر التقدمي رافدا ..

وليكن التراث العربي الاسلامي في أعظم منجزاته الايجابية رافدا آخـرا ..

ولتكن هناك روافد أخرى لا نهاية لها ، من أرضنا ومن أرض غيرنا اذا كانت تخصب حاضرنا ومستقبلنا .

لكن ذلك كله دون الحاجة الى القول بأننا أصحاب «نظرية ثالثة» فلا طريق بين بين ولا حل وسطا بين التعاسة والسعادة بين الشقاء والتحرر ، بين البؤس والتقدم .

لا «وسط» ــ دون لف أو التواء ــ الا عند الطبقات المتوسطة ، بأحلامها وطموحاتها وأوهامها ، ولا عالم «ثالث» أو طريق «ثالث» او نظرية «ثالثة» الا لاولئك الذين يلتمسون تبريرا لعجزهم (اذا كانوا وطنيين) عن التحول الى الاشتراكية ، او الذين يريدون ستر عوراتهم «الوطنية» !

١٩٧٤/٢/١١

- القضية موضوع المقالة هي حساب الخطأ والصواب .. او الخيار والتمييز بين المصطلحات ..
وهذا يسمى "الموضوع الجاري" .. ثم يأتي المثال " التمييز بين التيار الوطني
والتيار الاجتماعي " بأن الوطن اليمين واليسار وطني ؟! والتيار الانساني
اللاوطني .. المبادئ المشتركة واحدة وتصبغ بأساليب وطنية .. والمثال الثاني
مصطلح "النظرية الثالثة" .. لا نظرية ثالثة للوسط الثالث .. الوسط
مبوع للبرجوازية وتطلعاتها .. العالم الثالث المتخلف هو "ذيل الاستعمار الرأسمالي"
.. لا طريق ثالث لا عالم ثالث لا نظرية ثالثة

١٩٨٥/٢/١٦

أزمة الفكر المصري

هل كان توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض ويوسف ادريس وصلاح عبد الصبور وغيرهم عشرات ممن صوروا «مصر الهزيمة» بألوان قاتمة طيلة الفترة ما بين حزيران وتشرين ، هل كانوا كاذبين ؟ هل كانوا قصيري النظر ؟ هل كانوا أدعياء معارضة ؟

الجواب كلا ، وانما هم كانوا أكثر صدقا من كتاب السياسة المباشرين، كانوا أكثر اقترابا من الحقيقة ، وكان أدبهم أكثر وعيا بما يجري .

اذن فما معنى «الازمة» التي يشير اليها البعض علنا ، وهم يقصدون ان صفوة المفكرين المصريين «تراجعت» عن سابق فكرها ، وانها تلهت في الموالاة والتأييد هذه الايام ؟

هناك أزمة بغير شك ، ولكنها ليست على الاطلاق أزمة ضمير ، فما قاله ادباؤنا في الماضي صحيح ولا يحتاج الى غفران . ومـا حدث في ٦ أكتوبر هو الآخر صحيح ، وقد كان فنهم السابق على هـذا التاريخ من الدعامـات الراسخة لانتصـارات الحرب ، ومن المؤشرات الحازمـة لانكساراتها . وسيظل السادس من أكتوبر المجيد بسلبياته وايجابياته ، حصيلة الحوار العربي العنيف حول الهزيمة ، الحوار المادي والفكري على السواء .

فأين الازمة اذن ؟

انها قائمة أصلا بين القرار السياسي والانجاز العسكري بين ما تحقق وما كان يمكن تحقيقه . وكانت الثغرة الاسرائيلية غرب قناة السويس

تجسيدا موجعا لهذه المسافة . وكان سدها بالوسائل الدبلوماسية ولا يزال هو مصدر الازمة التي يمكن تصورها لدى الكتّاب المصريين .. فالحقيقة انه ليس عيبا على الاطلاق ان يؤيد الناس قرارا تاريخيا بالقتال ، لان الحرب أيا كانت خلفياتها المتوهمة او الحقيقية لها قوانينها الخاصة التي قد تفعل فعلها الذي ينسحب على القرار السياسي .

ولكن المشكلة تبدأ حين تتوقف الحرب فجأة .. ويتلفت المثقفون حولهم ، فماذا يرون ؟

لقد بنت اسماءهم ، في وجدان الجماهير نضالاتهم ضد الصهيونية والاستعمار ، وتألقت نجومهم في سماء الوطن وهم يحرضون على تحريره من القهر والخوف والجوع ، وهم يفرقون لمخيلته بين الاعداء والاصدقاء، وهم يمدون بصره الى حدود وطنه الكبير من المحيط الى الخليج ، وهم يقولون له ان الولايات المتحدة هي عدونا الاول وان اسرائيل هي رأس الجسر المسلح أمريكيا الى الشرق الاوسط وان السوفييت هم حليف استراتيجي وليسوا تجار سلاح ، وان حربنا من أجل فلسطين وسيناء واحدة لان الوجود الاسرائيلي في فلسطين او الجولان يستهدف مصر أولا ..

هذه وغيرها من محاور الفكر العربي الحديث في مصر ، هي الشموع التي أوقدها المثقفون المصريون في ظلمة الليل الطويل ودفعوا من اجلها دماءهم وازهى سنوات العمر .

وقد عاشوا ليروا بعيونهم حلاوة الانتصار ، ثمرة المعاناة البطولية لاقلامهم الشريفة الصامدة المثابرة .. ورغم المرارة التي يمكن ان تصيب غالبيتهم من توقف الحرب ، وهو التوقف الذي ترك بصمته على شكل ثغرة عسكرية في الغرب ، رغم ذلك فان الاسلوب الذي اتبع في سد هذه الثغرة هو الذي صاغ بداية الازمة الحقيقية . ذلك ان «السد الدبلوماسي» للثغرة المفتوحة في جدار النصر ، قد هال التراب اكواما على معطيات نضالهم وما افنوا العمر من أجله : لم تعد امريكا عدوا ، ولم يعد السوفييت اصدقاء ،

ولم تعد الاشتراكية حلا ، ولا الديموقراطية أيضا ، ولا العروبة .

لماذا اذن كانت الحرب ؟ بل لماذا كان الكفاح الوطني طيلة العشرين سنة الاخيرة ؟ بل وما معنى النصر الجزئي الرائع ؟

فقدان المعنى هو جوهر الازمـة الحقيقية ، وليس التراجـع أو الاستنكار ، فتأييد القتال عمل شريف ، هو تأكيد لما اعطاه المثقفون المصريون لهـذه الحرب من قبل أن تقع . ولكن حصادهـا الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الطرف النقيض لما يطمح اليه الانسان العربي في مصر .. فليست الرقعة الجغرافية المستردة هي كل الامل .

وحين يشعر المثقفون بفقدان المعنى بصورة جماعية ، على ضوء واقعة مادية مباشرة كالحرب ونتائجها ، فان هذا الشعور يثمر في القريب ادبـا مغتربا عن الواقع . ولم تكن الموجة الوجودية في فرنسا ، ولا موجة العبث واللامعقول الا صدى روحيا عميقا لازمة كامنة في البناء الاجتماعي قبل وبعد الحرب العالمية الثانية ..

لذلك استطيع ان اتصور وافهم «أزمة الفكر المصري» خلال المرحلة القادمة .. انها ليست أزمة اخلاقية كما حاول البعض ان يوهمنا ، ليست أزمة ضمير ، ولكنها أزمة الاحساس بفقدان المعنى ، فقدان الامل وهو في كف اليد .

١٩٧٤/٢/٤

محاورات

١ ـ مداخلة غير مقصودة :

ـ خرج محمود درويش من الارض المحتلة .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ اتجه محمود درويش الى موسكو .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ توجه محمود درويش الى القاهرة .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ كتب محمود درويش «سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا» .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ استقال محمود درويش من «الاهرام» واستقر في بيروت يعمل بمركز الابحاث الفلسطينية .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ كتب معين بسيسو «العصافير تعشش بين الاصابع» .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .

ـ كتب معين بسيسو «مأساة جيفارا» ولم تمثل ، وكتب «ثورة الزنج» ومثلت ، وكتب مسرحية أخرى ومزقها .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .
ـ هل قرأت لاحمد دحبور ووليد سيف ؟

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .
ـ لا يمكن تقسيم الشعراء الى مقاومين ومعارضين تقسيما جغرافيا، هذه بهلوانية لفظية .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .
ـ قتلوا كمال ناصر في شارع فردان ببيروت وأطلقوا عشر رصاصات في فمه .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .
ـ فصلوا رأس غسان كنفاني عن يده أو هم فصلوا يده عن جسده لا أذكر .

● أصبح توفيق زياد عضوا بالكنيست الاسرائيلي .
ـ قتلوا باسل كبيسي والهمشري ووائل زعيتر في أوروبا .. في أوروبا .

● أصبح توفيق زياد عضوا في الكنيست .
ـ عاش شعراء الارض المحتلة ، شعراء المقاومة .

● أصبح توفيق زياد عضوا .
ـ الذكرى الاولى لغسان كنفاني غدا .

● أصبح توفيق زياد .
ـ يهددون محمود درويش بخبث اسرائيلي براق في الاذاعة .

● أصبح توفيق .
ـ معين بسيسو، فدوى طوقان ، أحمد دحبور، وليد سيف، ...... ، ألا زلتم تكتبون ؟

● أصبح .

ـ أتسمعونني ؟

● « ... » .

١٩٧٤/٢/١١

٢ ـ حوار صامت بين نجم وامام :

● يا مولانا .. « بعضهم » يشتمنا في بيروت .

ـ وماله ؟ نحن أيضا نشتم الآخرين .

● يقولون انك صاحب صوت أجش وان لا علاقة لك بالشيخ سيد

ـ سيد درويش ؟

● نعـم

ـ من هم ؟

● ناس يقتلون القتيل ويتقبلون فيه العزاء

ـ مالنا .. ومالهم

● لنا الكثير .. وعليهم الكثير .

ـ لا افهم .

● حين كنا نغني لشبابنا وشعبنا كانوا ينشدون لاعداء هذا الشعب أقذر الاغاني .

ـ هذا كلام انشائي سخيف .. حدد .

● ما رأيك في شاعر عمل مع العسكر ، وعمل ضدهم .

ـ نذل

● وعمل مع الثورة وعمل ضدها

ـ الحق على الثورة .

● ومدح شهيد الشعب ثم مدح قاتله

ـ ممثل بارع والله العظيم

● يقبض من الشرق والغرب بلا حياء

ـ عبقري .

● انه شاعر « كبير » يا مولانا ..

ـ في السن ..

● لا .. في « المقام » وحياة مقام سيدنا الحسين

ـ كيف كان ذلك ؟

● بدأ حياته هنا في مصر ، في الحواري والازقة والشوارع ، تشرد وجاع وتعلم الشعر والثورة .

ـ عظيم .. هل كان ثائرا ؟

● هذا ما كان «يقوله» في شعره ، أما ما كان «يفعله» فلم يلتفت اليه أحدا ..

ـ ماذا كان يفعل بالله عليك ؟

● لن أقول لك . فالماضي يرحمه الله .

ـ اذا كان الماضي حاضرا .. فكيف يرحمه الله ؟

● لا تهتم .. ليست هذه مشكلتنا ..

ـ بل هي مشكلتنا ، سواء كان معنا أو ضدنا

● لا تغتر يا مولانا .. المهم هل هو مع الشعب أو ضده ..

ـ أجب يا أكثر الناس غرورا ..

● انه مع وضد

ـ هل تحدثني عن الشيطان كل هذا الوقت ؟

● أبدا .. عن شاعر يكثر من الكلام عن الشعب والثورة ، فاذا خلع ثيابه الناصعة وجدت أفعى تأكل نفسها وشعبها وامتها ، وتبيع جلدها لمن يشتري .

ـ في المزاد ؟
● العلني وحياتك
ـ العلني
● ويجد من يشتري يا مولانا .
ـ هذه مأساتنا ، اما انه يشتمنا فهذا آخر ما يجب أن نفكر فيه .

١٩٧٤/٢/١٨

٣ ـ على ابواب السفارة الاميركية :

● اسمك
ـ ريجيس دوبريه
● هل تريد الذهاب للولايات المتحدة لاغتيال الرئيس نيكسون ؟
ـ كلا
● هل تريد تأشيرة دخول لاميركا بقصد الترويج للشيوعية ؟
ـ كلا
● اذن ، لماذا تريد فيزا ؟
ـ لسبب بسيط .. أريد زيارة بلادكم
● ماذا تريد أن ترى هناك ؟
ـ أليست بلادكم واحة الديمقراطية ؟
● طبعا
ـ أريد أن أتأكد من ذلك ؟
● كيف ؟
ـ أريد ، مثلا ، زيارة الكنائس : هل تفرقون بين الابيض والاسود ؟
● وماذا أيضا ؟
ـ أريد ، مثلا ، زيارة الجامعات : هل تحرمون دراسة بعض الفلسفات الاخرى كالماركسية ؟

● وماذا أيضا ؟

ــ أريد مثلا ، زيارة نيويورك : هل صحيح ان المرء مهدد بالاغتصاب والسرقة بعد الثامنة مساء ؟

● وماذا أيضا ؟

ــ أريد أن أكتب في صحافتكم عن وجهة نظر اخرى في اسرائيل العرب مثلا .

● لو سمحت لي .. ما اسمك مرة أخرى ؟

ــ ريجيس دوبريه .

● عربي ؟

ــ كلا

● ماذا تعمل ؟

ــ صحفي ؟

● ماذا تكتب ؟

ــ كتبت عن اميركا اللاتينية وما تسمونه انتم بالعالم الثالث ورافقت جيفـارا .

● من ؟

ــ جيفارا

● وتريد زيارة الولايات المتحدة ؟

ــ نعم

● وتريد ان تقابل السود والملونين والشيوعيين والهيبيين ؟

ــ ربمـا

● ألا تريد أن ترى تمثال الحرية عند مدخل نيويورك ؟

ــ كلا

● هل تعلم ان بلادنا زعيمة العالم الحر والديمقراطية ؟

ــ قلت لك أريد أن أتأكد

● أنت لا تثق فينا اذن ؟
ـ تقريبا ..
● وتجيء بوقاحة لتطلب تأشيرة دخول
ـ وماذا في ذلك ؟
● لا تضحك علي ، أنت شيوعي، أنت تريد اغتيال الرئيس نيكسون، لا ترني وجهك .

١٩٧٤/٣/٤

٤ ـ ناقد .. وثلاثة شعراء :

الشاعر الاول

● هل قرأت العدد «الوثائقي» من مجلة الآداب ؟
ـ نعم
● ما رأيك ؟
ـ عدد وثائقي
● هل قرأت الشعر ؟
ـ نعم
● ما رأيك ؟
ـ يعني
● هل قرأت قصيدتي ؟
ـ نعم
● لست مغرورا ولكني اعتقد انها كانت أحسن قصيدة في العدد
ـ يجوز

● هذا عيبكم أيها النقاد ، انكم لا تقرأون !
ـ «...»

الشاعر الثاني

● هل رأيت المجلة التي أصدرها ؟
ـ تقصد التي تشرف على تحريرها وتصدرها احدى الدول .
● نعم ، ما رأيك في العدد الثاني .. دعك من العدد الاول
ـ لفت نظري ان هيئة التحرير تنتمي غالبيتها الى عصور ما قبل الجاهلية .
● هل قرأت قصائدي أثناء الحرب ؟
ـ نعم
● ما رأيك ؟
ـ ليست في مستواك .
● ألن تكتب مقالا لمجلتنا
ـ ليس لدي وقت
● اننا نؤمن لك مكافأة لا تعطيها لك مجلة أخرى
ـ ليس لدي وقت
● أكتب لنا عن الشعر الحديث
ـ قلت لك
● ليس لديك وقت ، ولكن فكر في الموضوع
ـ «...»

● هل قرأت قصيدتي الاخيرة ؟
ـ نعم وكنت أود لو انك حذفت الاسطر الثلاثة الاولى التي أوجزت فيها فكرة القصيدة .
● حسنا .. والباقي
ـ كشعرك دائما في الحب والحرب
● هل حـدث انك سئلت عني في حـوار تلفزيوني فاستخففت بالسؤال وبي ؟
ـ ليست هذه اخلاقياتي كما تعلم ، ورأيي فيك تعرفه ويعرفه الجميع ولست أخاف في الجهر بالرأي أحدا .
● لا تسمعني صوتك
ـ «...»

١٩٧٤/٣/١١

الماء يجري تحت العشب

ـ عوامل اليأس التي تنخر القلوب هذه الايام ، لها ما يبررها .. فالحرب التي كان يمكن ان تكون فاتحة «تفاؤل» عظيم ، أوشكت نتائجها السياسية القريبة من اليد ، أن تلون بالسواد غالبية النظارات الفكرية في الوطن العربي .

ـ وفي ظني ان هذه الرؤية السلبية لواقعنا ليست الا لحظة عابرة في ثقافتنا ، لحظة تعب ، نرى فيها الحركة سكونا ، والكتلة وجها واحدا .

وحين تمضي هذه اللحظة بكل أثقالها النفسية البطيئة ، وتعاساتها المريرة التي لا تحصى ولا تعد ، سوف نكتشف أننا أخطأنا الحساب . سوف نرى واقعنا الراهن يشتعل بنيران جديدة تحت السطح ، وان طبقات الجليد التي تغطيه ليست هي الحقيقة الوحيدة .

فالتاريخ ــ فعــلا ــ لا يتراجع الى الخلف ، رغم الانتكاسات والتعرجات والمطبات التي تملأ الطريق . اننا نملك داخلنا وتحت الجلد ، تراثا نضاليا يدفعنا دون أن ندري احيانا ، الى مواصلة التحليق .. فما تحقق خلال الربع قرن الماضي ، لم يكن ترفا نظريا مجردا ، وانما كان كفاحا داميا ضد التخلف .

وقد كان طه حسين يردد دائما أنه في الوقت الذي نتصور ان الماضي كان عصرا ذهبيا ، يجب أن نكف عن القيادة ونترك الدفة لغيرنا .. لاننا حينذاك نفقد البوصلة الهادية الى المستقبل .

– ولقد شهدت بلادنا ارتدادات مماثلة للردة التي نعاني أهوالها الآن ، ولكنها سرعان ما كانت تتخطى الازمة وتتجاوزها الى الامام ..

وحين نرى أنفسنا أحيانا نناقش البديهيات التي أنفق أسلافنا أعمارهم في تحديدها ، لا ينبغي ان نجزع ونتصور ان الزمن يعود الى ما وراء الوراء .. فالحق ان هذا لا يحدث مطلقا الا حين نسترخي وننظر الى الامور كما لو كان التاريخ قد توقف ، وحين نبصر الاشياء بعيون وحيدة الجانب .

أقول ذلك كله لان واردات مصر الثقافية هذه الايام تصيب بعضنا بالذعر ، فالسينما والمسرح والاذاعة والتلفزيون والمجلات الادبية وصفحات الفكر والفن في الجرائد ، تحتشد بطولها وعرضها أشباح الماضي الميت ، وتملأ ساحتها جثث ورمم لا تطاق رائحة عفونتها !! حتى ان المشكلة لم تعد قضية ازدهار يميني في ميدان الفكر ، بل أصبحت مقبرة واسعة يستخرجون منها هياكل عظمية مفتتة لا تفيد طلاب التشريح في كلية الطب !

ولكن هذه الصورة القاتمة البشعة – رغم صحتها – ليست هي الثقافة المصرية ، ولا يمكن أن تكون .. ذلك أن المجتمع لم يكن ساكنا طيلة السنين الماضية ، فمئات الالوف التي تربت فكرا وشعورا على أدب طه حسين والمازني ويحيى حقي وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومحمد مندور ولويس عوض ويوسف ادريس ، يستحيل عليهـا أن تستأنف مسيرتهـا «المعنوية» بأدب الورداني وصالح جودت . العقل المصري والوجدان المصري لا يبدآن من فراغ حتى يمكن الضحك عليهما بهذه المسوخ المشوهة القادمة من كابريهات الحرب العالمية الثانية .

أكثر من ذلك ان القاعدة المادية للمجتمع نفسه قد تغيرت، فالاحتياجات الراهنة للقارىء والمشاهد والمستمع المصري ، ليست هي احتياجات آبائه وأجداده .. لقد نمت قيم جديدة وعلاقات اجتماعية جديدة حتمتها ظروف بناء اجتماعي جديد على أنقاض البناء القديم . ولم تعد مطولات احسان عبدالقدوس ويوسف السباعي وأنيس منصور ومصطفى محمود بقادرة على

رؤية هذه القيم والعلاقات الجديدة ، فضلا عن التواؤم معها والاستجابة لها.

وكما ان الوضع الثقافي الحاضر في مصر لا يحتمل مناقشته على ضوء التناقض بين اليمين واليسار لان عفونة الكهوف المظلمة لا تندرج تحت أي منهما ، فان الوضع الاجتماعي كذلك ، ليست مشكلته الوحيدة انه منقسم طبقيا الى عديد من الشرائح والفئات .. لان من يتصورون أنفسهم كتابا للبرجوازية وفنانين للطبقة المتوسطة ، لا يدركون «روح العصر» الذي تستظل به هذه الطبقة الآن .. فبرجوازية الماضي تختلف عن برجوازية الحاضر اختلافات عديدة أملاها التغير الذي أصاب المجتمع ككل ، وأملاها التغير الذي أصاب العصر أيضا . فحتى أبناء وبنات البرجوازية المصرية تغيرت أفكارهم وأخيلتهم وقيمهم ، بحيث باتوا يحتاجون الى تعبير جديد.

وهكذا ، فما نراه ليس ارتدادا جذريا يرادف عودة الزمن الى الوراء، وانما هو بعض الاعشاب الطافية من زبالة التاريخ على سطح النهر الجاري.. ببطء ربما ، ولكن الريح والموج لا يلبث ان يطيح بالقمامة بعيدا ، الى قبورها القديمة ، ويستأنف النهر العظيم مسيرته التي لا تنتهي !

فقط لا تنسوا ان الماء يجري تحت العشب ، مهما حالت الرائحة النتنة بين عيوننا ورؤية القاع المضطرم بالموجات الجديدة ، ومهما حالت ضخامته الكاريكاتورية بين رؤوسنا والاحساس بالرياح القادمة غدا .

١٩٧٤/٤/١

٭ الشهود كانوا حاضرين

مع بداية كل ثورة أو ثورة مضادة ، يبرز «الماضي» موضوعا شهيا لاقلام الكتّاب والفنانين ، سواء كان الكاتب والفنان جبانا أو انتهازيا او مضطرب الرؤية ، فانه يجد في «الماضي» ملاذا من الحاضر وملجـأ من المستقبل .

وأيضا مع بداية كل ثورة أو ثورة مضادة ، يواكب البعض الظاهرة الجديدة بالشجاعة أو الجبن أو الانتهازية ، بالنقد والتحليل او بالتقمص والمظاهرة ، بالرؤية من الداخل او بالفرجة من الخارج . هذه المواجهة المزدوجة ، اما انها تفصح عن استشراف ديناميكي للمستقبل او انها تؤثر التوحيد مع الحاضر توحدا ستاتيكيا لا يرى ما هو ابعد من موطىء القدم.

هكذا كان الامر ــ مثلا ــ طيلة العشرين عاما الماضية في مصر الناصرية وهكذا يبدو الامر بعد السادس من اكتوبر ١٩٧٣ .

ولا بد لنا من استقصاء الملامح الرئيسية للوحة الثقافة المصرية بين هذين التاريخين حتى نحصل على المعيار الدقيق الذي يوفق بين الصدق والزيف ، بين الحق والباطل فيما يجري الآن من مظاهرات «أدبية» في مصر خلطت الحابل بالنابل ، وتسببت في بلبلة واسعة تكاد من اضطرابها ان تحجب الحقيقة القريبة من اليد .. والتي لم تمض عليها بعد سوى سنوات قليلة لا تسمح بالنسيان ولا بالاختفاء في امعاء الجرذان والصراصير بمخازن دار الكتب .

هذه الحقيقة التي تقول في غير مواربة ان «الازدهار» الادبي والفني في مصر الناصرية قد تحمل اعباءه الابداعية والحياتية على السواء ، اليسار المصري. انه سواء توقف عند الماضي مؤرخا او عند الحاضر مواكبا ، كانت لديه الشجاعة السياسية على مواجهة الظاهرة الثورية الجديدة بالنقد والتحليل واستشراف المستقبل ، كما كانت لديه الموهبة والخبرة والثقافة التي دفعته لان ينتقل بالادب المصري الحديث الى رحاب مرحلة جديدة كيفيا في مختلف مجالات الخلق والنقد . وقد دفع ثمن هذه الشجاعة والموهبة سجنا وتشريدا وموتا ، بالرغم من انه كان حليفا للظاهرة الجديدة، ومصيره في مصيرها .

بينما كان اليمين في حقل الثقافة المصرية على النقيض من ذلك تماما .. فهو حين توقف عند الماضي وحين واكب الحاضر ، لم تكن لديه الشجاعة على النقد ولم تكن لديه الموهبة في الابداع ، بحيث انه لم يضف جديدا الى لوحة الثقافة السائدة قبل ٥٢ بل هو اورث اللوحة الجديدة هشاشة المحتوى وتفكك البناء . وعاش حياته في مواقع السلطة والقيادة فلم يدفع قطرة عرق واحدة ، ولم يتحمل قط عبء المسيرة بل اكتفى بقطف الثمار من شجرة الثورة وغرس البذور لشجرة الثورة المضادة .

ولا شك ان هذا التصور لحركة اليمين واليسار في الثقافة المصرية المعاصرة ، هو ادانة من احدى الزوايا لموقف السلطة الناصرية من التيارين المتصارعين ، اذ هي اعطت الامتيازات لاعدائها الطبيعيين ومنحت الغرم كله لحلفائها الطبيعيين . وتبرهن الاحداث الجارية الآن على سطح الحياة الثقافية المصرية على صحة هذه النظرة : فالذين يدافعون عن منجزات الناصرية هم الذين قاوموا السلبيات ودفعوا الثمن باهظا ، بينما الذين يهاجمون التجربة هم الذين أكلوا خيراتها وغطوا خطاياها بستار سميك من دخان الحناجر المنافقة .

وليكن لنا من ذلك عبرة !

.. فاذا شئنا ان نرصد الملامح الرئيسية لحركة الثقافة المصرية خلال الفترة الماضية ، علينا ان نتساءل : ماذا كان يكتب نجيب محفوظ ويوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوي في الرواية والقصة القصيرة ، وماذا كان يكتب يوسف السباعي واحسان عبدالقدوس وعبدالحليم عبدالله ؟ وفي الشعر، ماذا كان يكتب كمال عبدالحليم وصلاح جاهين وصلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي ، وماذا كان يكتب عزيز اباظة وصالح جودت والعوضي الوكيل ؟ ماذا كان يكتب للمسرح نعمان عاشور ولطفي الخولي وألفريد فرج وميخائيل رومان ؟ وماذا كان يكتب علي أحمد باكثير ورشاد رشدي ؟ وفي النقد ماذا كان يكتب محمد مندور ولويس عوض ومحمود العالم وعلي الراعي وأحمد عباس صالح ورجاء النقاش وامير اسكندر ؟ وماذا كان يكتب اساتذة وتلامذة كلية دار العلوم وقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب على اختلاف نبعيهما ؟ ماذا كان ينتج صلاح أبو سيف وتوفيق صالح ويوسف شاهين في السينما وماذا كان يخرج حسن الامام ؟ ماذا كان ينحت آدم حنين والدواخلي وهجرس وتصور تحية حليم وجاذبية سري ، وماذا كان ينحت ويصور ويحفر غالبية مدرسي الرسم الصغار من اساتذة كلية الفنون الجميلة ؟

ماذا كان يغني الشيخ امام ويكتب أحمد فؤاد نجم وفؤاد قاعود وسمير عبدالباقي وسيد حجاب، وماذا كانت تغني جوقة الاذاعة المصرية ؟

ان الحصاد الثقافي للعشرين عاما الماضية لم يصبح بعد في ذمة التاريخ حتى ننسى ، فهذا الحصاد هو الدماء العقلية والشعورية السارية في تفكير ووجدان الاجيال المعاصرة. ولعلنا بالمقاييس الاحصائية البحتة نستطيع أن نبرهن على صحة هذا الغرض ، لو اننا درسنا بيانات الحركات الطلابية في مصر من ٦٨ الى ٧٣ ولو اننا درسنا قوائم توزيع الكتب وأجرينا استفتاءات لقراء الصحف ورواد السينما والمسرح ومعارض الفنون التشكيلية .

سوف تقول هذه البيانات التي تخشى الجهات الرسمية اعلانها ان

«ثقافة اليسار» هي المجرى الحقيقي لفكر الاجيال الطالعة ووجدانهم ، بالرغم من التضليل الاعلامي الواسع النطاق وبرامج التعليم الرسمية واجراءات القهر المشينة التي كانت ولا تزال ترى في نسخ مجلة «الطليعة» أو «الكاتب» مضبوطات قانونية تصلح مع مطبوعات الدور التقدمية في بيروت ، كقرائن على «شبهة الشيوعية» !!

لماذا ؟

- لان اليسار المصري كان شجاعا وموهوبا في التعبير عن الاحتياجات الواقعية لشعب مصر، والتي يمكن ايجازها في ثلاث نقاط هي: الديمقراطية والاشتراكية والعروبة . حول هذه المحاور الثلاث دارت حركة ٢٣ يوليو بسلبياتها وايجابياتها ، وعن هذه المحاور الثلاث ناضل اليسار المصري السلبيات ودعم الايجابيات . والنتيجة هي ان ثقافة جديدة تخلقت بالدم من جانب الادباء والفنانين التقدميين الذين يندر ان تجد من بينهم واحدا لم يدخل السجن او لم يتشرد او لم يمت !

هكذا كان ألفريد فرج في مسرحيته الرائدة «حلاق بغداد» مناديا جسورا بأن يصبح «منديل الامان» في أيدي جميع المواطنين ، وهكذا كان يوسف ادريس في قصصه القصيرة «الهجانة» و «جمهورية فرحات» و «العسكري الاسود» عدوا جهيرا للقمع والبطش والعسكرتاريا . وهكذا كان نجيب محفوظ من «اللص والكلاب» الى «ميرامار» امينا لنبضات قلب الشعب مع الديمقراطية وكراهيته حتى الموت للدكتاتورية .

وكان المثقفون اليساريون في مصر هم الذين وقفوا بدور النشر الفقيرة كدار الفكر ودار النديم ، ضد الاحلاف العدوانية القادمة من الغرب ، بينما كانت دور النشر الغنية كمكتبة الانجلو والنهضة والكرنك مشغولة حتى العنق بتراكم مئات الالوف من الجنيهات والدولارات في بنوك سويسرا مقابل ما تطبعه لمؤسسة فرانكلين والجامعة الامريكية ومكتب الاستعلامات بسفارة الولايات المتحدة !!

وكان نعمان عاشور في «الناس اللي تحت» وعبدالرحمن الشرقاوي في «الفتى مهران» وميخائيل رومان في «الدخان» هم الذين تصدوا للشرخ المروع في البناء الاجتماعي ، وكانت هزيمة حزيران تحقيقا تراجيديا لنبوءتهم الحزينة .

بينما كان علي أحمد باكثير ــ رحمه الله ــ مشغولا حتى العنق باثبات ان «الدنيا فوضى» كما تقول مسرحيته بهذا العنوان لان المرأة خرجت الى الشارع لتعمل ، كما كان مشغولا في مسرحيته «حبل الغسيل» بتلويث بعض الوجوه اليسارية . وكان رشاد رشدي منهمكا في التدليل على ان المال والجنس هما عماد الحياة ، وان الشعب المصري قطيع من النعاج . وفي أحسن روايات احسان عبدالقدوس «في بيتنا رجل» ، يتألق المنقذ الاسمر في الصفحات الاخيرة كفارس من العصور الوسطى يشبه جمال عبدالناصر ، وفي فيلمه « الله معنــا » لم تخرج القصة البوليسية المستوحاة من حياة الضباط الاحرار عن هذا المعنى المنافق لقائد ٢٣ يوليو. ولم يقلّ عنه نفاقا يوسف السباعي الذي تفرغ لتاريخ الثورة من «رد قلبي» الى آخر قائمة المطولات التي جدل فيها «مغامرات» الثورة بمغامرات الحب، ليسب الشيوعية والشيوعيين والعروبة والعروبيين ، وليمدح بكلمات فجة جمال عبدالناصر .

وكان صالح جودت مهموما بايجاد الوزن والقافية لقصائده القديمة التي قيلت في الملك حتى تنسجم مع اسم محمد نجيب ثم جمال عبدالناصر. وكان بالغ الاهتمام للبرهنة على ان صلاح عبد الصبور واحمد حجازي والسياب والبياتي «قرامزة» لانهم أهانوا الخليل بن أحمد وكفروا لانهم ادخلوا كلمات وثنية مسيحية الى القصيدة العربية .

وكان ابراهيم الورداني مشغولا الى أقصى الحدود في مغازلة وزير الداخلية وامنــاء الشرطة أيام شعراوي جمعة ، ومغازلة قادة الاتحــاد

الاشتراكي من أمثال ضياء الدين داود ايام علي صبري .

وفي الوقت الذي كان توفيق صالح في «المتمردون» يوحي ويشير ويرمز الى التمرد الكامن في الارض المصرية ، وكان صلاح ابو سيف في «القضية ٦٨» يباشر القول في فساد التنظيم السياسي ، كان حسن الامام يتولى تشويه أهم انجازات مؤسس الرواية المصرية ــ نجيب محفوظ ــ فيقدم ثلاثية بين القصرين تقديما عاهرا على كافة المستويات ، وفي المقدمة العهر السياسي .

هذه كلها مجرد أمثلة سريعة التقطها من الذاكرة التقاطا ، فالقضية تتطلب مجلدات كاملة :

تشهد بأن مثقفي اليسار المصريين هم الذين واجهوا بشجاعة باسلة ومواهب ابداعية كبيرة مرحلة «التحدي» للسلبيات التي واكبت التجربة الناصرية . وانهم هم الشهود الحقيقيون اذا كانت هناك محاكمة ، لانهم دفعوا الثمن مقدما .

وتشهد بأن المثقفين اليساريين المصريين هم الذين انجزوا ــ خلقا ونقدا ــ مرحلة جديدة من مراحل تطور الادب العربي الحديث في مصر ، في المسرح والشعر والرواية والفن التشكيلي والسينما والقصة القصيرة. هم رواد الاشكال الفنية الجديدة وآباء التطورات الخطيرة التي حدثت في الأبداع والتذوق على السواء .

وبعيدا عن المؤتمرات والجوائز ومقاعد المجلس الاعلى للآداب والفنون وجمعية الادباء ، ليس هناك ذكر ، فضلا عن الفعالية والتأثير ، لامثال صالح جودت والورداني واباظة .

لقد أثبت هؤلاء وغيرهم من عتاة اليمين المصري في حقل الثقــافة والفكر والفن انهم كانوا الجبناء والانتهازيين وفقراء الموهبة ، طيلة العشرين

عاما الماضية فأورثوا اللوحة المعاصرة للثقافة العربية في مصر ، أكثر زواياها سوادا وضعفا وتهافتا .

وهم ، لهذه الاسباب مجتمعة ، ليسوا فقط آخر من يحق لهم الكلام عن «سلبيات الماضي» ، وانما هم أول المتهمين الحقيقيين : لقد كانوا شهود زور في الماضي ولا يزالون .

والشهود الحقيقيون حاضرون !

١٩٧٤/٤/٢٩

اليوم اولاد الجوارى ... واولاد البلد [illegible] [illegible] [illegible]
واقفة على السلم يرعبون ما تقول وكيافون ولقول
و اصحى ... يسلم [illegible] .

د ١٩٨٥/١٢/

⸝ رســالة

أنت تحب الشعر ؟ اسمع اذن :

« ــ انت متهم باعترافك للمرة الثانية .

ــ بالتمرد ؟

لا بأس ..

اسألكم لحظة اخلع الثوب

ــ تمنع كل ضروب التعري هنا

ــ ان لي حرمة تحت هذا القميص الممزق

شاهدا لم يسجل بهذا الجواز

دفعت به رئتي ثمنا .

وأتتنا أوامركم تمنعون دخول الجراح

قبل يستنطق الجرح حتى يعاف مروءته

ثم يركل مثل النفاية بعد اداته »

⸝ لا أدري لماذا توقفت طويلا عند هذا المقطع من قصيدة عبد الرزاق عبدالواحد «مصادرة منشور سري» حين رأيت وجهك خلف القضبان ، وحين وقفت في قفص الاتهام ترفض .. لا اقول «المحاكمة أو التحقيق» كما جاء في بيانك امام القضاة ، لاني رأيتك «ترفض» ــ في واقع الامر ــ ما هو أكثر شمولا من تفاصيل «القضية» التي بسببها حكموك .

رأيتك ترفض ربما ذلك الرفض الحزين الذي ترف به أبيات الشاعر

العراقي . لقد أوقفتني قصيدته طويلا عند معنى وقوفك «الآن» في قفص الاتهام ، فهذه الوقفة أقرب الى الرمز منها الى الحالة الخاصة التي يعالجها القـانون .

هي وقفة الكاتب العربي في جيلنا ، في زماننا . زمن يبدو لك ـــ من وراء القضبان ـــ سوادا في سواد : فالوطن (وطننا الكبير) تحولت جباله، قممها العالية ، الى نتوءات متقيحة ترزح بثقلها الصخري فوق القلب . وتحولت سماؤه الى لوح عريض من الزجاج الاغبر بلا لون ولا مطر . وتحولت بحاره الى مغارات سحيقة مليئة بالدماء والفطر السام وسمك القرش . وتحولت سهوله ووديانه الى أرض بور عقيم مزروعة بالاشواك والمسامير. تحولت شمسه الى عين للجحيم، وقمره الى بقعة من الدم الاصفر.

وتحولت دنيانا الى غابة هزلية كمهرجان كرنفالي في كابوس : الاسود ترتدي ريش الحمائم ومنقارها ، والعقارب اختارت ذيل الطاووس ووقفته التياهة ، والثعابين تقمصت شكل الببغاء ولسانه ، والذئاب انتحلت صوف الحملان الصغيرة .. ودخلت الطيور والعصافير اللعبة فاستعارت اقنعة النمور والثعالب والتماسيح !

واختلط المشهد بأكمله في رقصة جنونية دعاها الحكماء في كوكب المريخ برقصة الموت .. فلا ريش الحمائم اخفى أنياب السباع ولا ذيل الطاووس أبطل سم العقارب ولا استطاعت الطيور والعصافير ان تلعب دور النمور والثعالب . وعندما احتضن الذئب الحمل وبدأ الرقص على عزف الموسيقى القـادمة من فوهات البراكين والزلازل ، تسللت الى العـروق والشرايين والاوردة رغبة جنسية من نوع جديد غريب ، تنامت على دقات الطبول البدائية التي وصل رنينها خافتا في البدء من كوكب الزهرة ، ثم أسرعت الدقات واحتدمت النشوة .. واذ تصـاعد الفحيح واللهث وبلغ الجميع نقطة الذروة ، كانت الاسود قد أكلت الحمائم والعقارب لدغت العصافير ، وبانت الهياكل العظمية المفتتة للطيور الملونة التي كانت تغني وقد

تمزقت عن وجوهها اقنعة النمور وجلد التماسيح . وسالت سموم الثعابين فوق الارض تغطيها بخيوط لزجة ، وارتفعت من البطون المعقورة نافورة من الدماء الزاهية الالوان كقوس قزح .

وحملت الرياح التي هبت فجأة تنشر الخبر المذهل الى كافة ارجاء المعمورة، حملت معها روائح النتن والعفونة ونثرات من بقايا الجثث والرمم. وأصبحت رائحة «الفساد» هي العطر الذي يملأ الهواء الدامي ، والاريج الذي دونه ينقطع التنفس بالشهيق والزفير .

لعلك — يا اخي — وأنت وراء القضبان لا ترى بعينيك المفتوحتين على آخرهما سوى هذا المشهد . لعلك أيضا لا تشم سوى هذه الرائحة . ولعلك أخيرا تمسك برأس ابرة وتغرسها الى ما تحت الجلد ، لتوقن من ان «الكابوس» ليس حلما ، وانما هو «الحياة الحية» داخلك وخارجك .

ولكن لا تتسرع في «الحكم» كما تسرع غيرك .. بعضنا — مثلا — حين رآك وراء القضبان مكبلا بالقيود ، رأى مشهدا مماثلا لما رأيت .

رأى قطارا ضخما ، ضخما لدرجة لا يتصورها خيال . سائق القطار هو الشخص الوحيد الذي تبقى من حادثة برج بابل . أتذكرها ؟ أتذكر أولئك الناس الذين روت عنهم التوراة ، انهم أرادوا يوما ان يبنوا سلما هائلا يصل الى السماء ، واذا بألسنتهم تتبلبل فيتكلمون عدة لغات في وقت واحد ؟ سائق القطار هو أحد هؤلاء ، فحين سقط البرج — وكان هذا الرجل في اعلاه وكاد يلمس عرش الله — مال مع البرج الهاوي متشبثا به فلم يمت وانما قذف به بعيدا وقد عاش الى يومنا . ولكن ليست هذه هي المعجزة . المعجزة هي انه لم يكن يتكلم «احدى» اللغات التي نطق بها سكان برج بابل ، بل كان لسانه يلهج في وقت واحد بهذه اللغات جميعها ! وكان ركاب القطار ، وهم من جنسيات مختلفة تنتمي الى كافة الاصول والفروع وفروع الفروع البشرية ، يستطيعون فهم الرجل رغم تعدد لغاتهم . كل واحد منهم يسمع لغته الخاصة .

وكانت المشكلة الوحيدة امام السائق هي انه لا يدري على وجه اليقين ، الى أين يتجه القطار . كما كانت الملاحظة الوحيدة على هذا القطار الغريب انه لا يتوقف في محطات معينة ولا يحتاج الى وقود ولا يسير على قضبان ، وله قدرة غريبة على التنقل من الارض الى الجو الى البحر ، فوق الجبال وتحت الماء ، بل وزيارة الكواكب الاخرى من آن لآخر .

وكان القطار مكونا من عدة عربات هائلة . ليست هناك عربة للدرجة الاولى وأخرى للثانية وهكذا كما تعودنا نحن . العربات كلها متشابهة ، ولكنها مقسمة من الداخل الى قسمين : أولهما صغير وضيق ولا يتسع الا لنفر قليل من الناس يرتدون ملابس بيضاء ولكن أيديهم ووجوههم وصدور النساء منهم وأحيانا الافخاذ يشف لونها المتوهج بالحمرة عن لون أزرق تحت الجلد يسري في خطوط رفيعة متقاطعة تكاد لا تبين .

يفصل بين هذه القلة القليلة وبقية سكان العربة ، ســاتر يقال انه حديدي ويقال أيضا انه حريري ، والله أعلم . وقد شوهد السائق يقترب من هؤلاء الناس بين الحين والآخر يسألهم شيئا ما ، وكان يعود دائما الى مركز القيادة وقد ازدادت عيناه قلقا وخيبة أمل . اما بقية ركاب العربة فهم جميعا يرتدون الملابس الزرقاء ، وان اختلفت ألوان جلودهم من الاسود الى الاسمر الى الاصفر . وقد لوحظ ان هناك تشابها مطلقا بين أهل الصف الامامي الصغير في مختلف العربات ، وتشابها مطلقا كذلك بين بقية الركاب الزرق في جميع العربات .

لوحظ أيضا ، ان هناك أفرادا غرباء ، تختلف ألوانهم وثيابهم من آن لآخر ، لا أحد يتبين ملامحهم جيدا ، يتسلقون بحذر بالغ تلك الفواصل الحديدية بين العربات ويدخلون أحيانا من الشبابيك ويسببون ذعرا في الصفوف الامامية من الركاب ذوي الثياب البيضاء ، ويسببون الدهشة والذهول والارتياح وأحيانا التشجيع في الصفوف الاخرى . ولم يلاحظ أحد عليهم انهم يسرقون أو يقتلون أو يزنون ، انهم لا يخرقون الوصايا

العشر ، ولكن مجرد ظهورهم يؤدي الى استنفار الصفوف البيضاء وينجح بعضهم أحيانا في الوصول الى سائق القطار ويهمس في اذنه بشيء ما .

وقد نشبت معارك مروعة بين هؤلاء «الغرباء» والقلـة الامـامية البيضاء ، حين كان يطول ظهورهم المفاجىء ويتكرر في أوقات متلاحقة ، وحين كانوا يتمكنون من الهمس في اذن السائق ، وعلى الاخص حين كان السائق يجيب أحيانا بهزة رأس أو ابتسامة او ارتياح في العينين . على اثر هذه المعارك التي كان يجيء توقيتها بلا موعد محدد ، وعلى نحو غير متوقع، كان وجه السائق يزداد قناعة وطيبة واملا ، ولكن كراهية صامتة لا يعرف أحد كيف يصف مظهرها كانت تدب بشفرة اللاسلكي بين الصف الضيق والصفوف الخلفية . وقد نجحت الصفوف البيضاء أحيانا كثيرة في التحالف رغم عزلة كل منها في عربة مستقلة ، بينما الساتر الحديدي أو الحريري لم ينجح في أن يكون همزة وصل بين أهـل العربة الواحـدة ، بين البيض والزرق . ثم تمكن التحالف الابيض من الايقاع ببعض الافراد الغرباء . وتبين لعين سحرية أن ترى عند الصفوف البيضاء قضبانا حديدية قديمة ، يبدو انها كانت لقطار قديم ، وان ترى سياطا سوداء وسمراء وصفراء رخوة ومشدودة تشبه الى حد كبير ألوان الصفوف الخلفية من ركاب عربات القطار أو القطار القديم . ورأت العين السحرية ان البيض حين يمسكون بالغرباء يقذفون ببعضهم من نافذة القطار ، أما البعض الآخر فهم يحولون عظامه الى قضبان جديدة وجلوده الى سياط جديدة .

ولا يرتفع الصراخ المكتوم في حلوق الصفوف الخلفية ، وتزداد الصفوف الامامية تحالفا مع بعضها البعض ، وتعود خيبة الامل ترتسم في عيني السائق. ويستمر القطار في رحلته غير المفهومة، مما دفع بعض وكالات الانباء الى تسميته بقطار العذاب ، اما العلماء فهم يبذلون جهدهم ليل نهار لمعرفة ما اذا كان هناك كوكب جديد في عالمنا ، وهم يرصدون بعناد وصبر كل ما يجري .

هذا هو المشهد الذي رآه البعض منا وهم يرونك ـ يا اخي ـ وراء القضبان . وهم يقسمون انهم وخزوا أنفسهم بالابر مثلك فأيقنوا ـ هم أيضا ـ ان الكابوس ليس حلما بل هو «الحياة الحية» داخلهم وخارجهم .

اما انا وكثيرون غيري ، فقد حرنا حقا بين كابوس «رقصة الموت» الذي شاهدته أنت وكابوس «قطار العذاب» الذي شاهده الآخرون .

حيرتي ، انا وغيري ، اننا رأينا الرقص والقطار ، رأينا الموت والعذاب، ولكننا رأينا أشياء أخرى .. فقد استطاع احدنا ان يخدع الشرطة ليلا ويسرقك من الزنزانة وانت نائم . كان صديقنا طبيب متخصص في الاشعة الالكترونية . واستطاع الا يوقظك ، لا أنت ولا الحراس . وفي عيادته المجهزة بأحدث اساليب العلم أدرك انك تحلم . وفي لحظات نقل حلمك على شاشة صغيرة .

ورأيناك ـ معه ـ تحلم ! تحلم حلما غريبا حقا : رقصة الموت ذاتها دون كرنفال ودون أقنعة ، ولكن الحمائم قضت على الاسود ، والعصافير حولت الثعابين الى ذكرى . والعجيب ان الرياح لم تحمل الى انوفنا رائحة نتنة ولا الارض فاحت بالسوائل اللزجة ولا البحار تعفنت بالدماء .. وانما رائحة الياسمين والنرجس .

رأيناك أيضا في القطار الذي شاهده بعضنا وقد أصبحت عرباته عربة واحدة اختلطت فيها الالوان والناس جميعا يرقصون ويغنون ويسكرون. حتى سائق القطار كان نشوانا من الخمر ، ولكنه ـ هذه المرة ـ كان يعرف الى أين يتجه .

ثم أخذك الطبيب منا واعادك الى الزنزانة قبل الفجر . وسقطنا جميعا في دوامة الحيرة من جديد . أين العلاقة بين الكابوس والحلم ؟ أين تنتهي رقصة الموت وتبدأ رقصة الحياة ، أين ينتهي قطار العذاب ويبدأ قطار الخمر ؟

أحدنا ، ونسميه عادة «العبقري» ساخرين، صرخ في وجوهنا بغتة :

وجدتها ! فيما يشبه الهذيان قال :

الغابة التي رآها ورائحة الفساد التي يشمها ، تعلمون جميعا مثلي انها ليست حلما . ولكن ما لم يره في اليقظة رآه في المنام . حلمه أيضا الذي رأيناه الآن ليس حلما ، لم يكن صبورا فلم ير خاتمة رقصة الموت . امـا الذين شاهدوا قطار العذاب فقد استعجلوا ولم يروا ان ثمة مقاعد تخلو بين الحين والآخر في الصفوف الخلفية ، هي مقاعد «الافراد الغرباء» ، وانها تعود فتمتليء من جديد حين يتحولون الى سياط وقضبان ، وهم حين يقذفون من النوافذ لا يموتون بل يتصلون ببقية الصفوف الخلفية للعربات الاخرى لاقامة تحالف أزرق في مواجهة التحالف الابيض .

ثم توقف زميلنا فجأة ليستأنف حديثه بلهجة خطابية جادة :

يا سادة انه ترك مكانه في الصفوف الخلفية من القطار ليعمل مع «الافراد الغرباء» في وقت بالغ الصعوبة والعنف ، ومشكلته ثانيا انه مريض بالمشي والكلام أثناء النوم ، فهو حين يحلم يفعل ما يراه دون خشية من البيض وقضبانهم وسياطهم .

اما السائق الذي يتكلم لغات العالم فها هو ذا يشير الي واليكم ، ويغني بصوت الشاعر العراقي في منشوره السري :

« ألقوا القبض على هذا الشاهد غير المرئي اذن .

وليستنطق اطفالك يا وطني »

١٩٧٤/٥/٢٧

حلم رائع .. كابوس ..
سكين .. حرب .. سكين .
كابوس .. رائع .. حلم .
سكين .. حرب .. سكين .

١٩٨٥/٢/١٥

قضية المطران الأخضر

(١)

من السمات الرئيسية في عصر النهضة الاوروبية ، تلك المواجهة الشجاعة التي قامت بين مفكري ذلك العصر والمؤسسة الدينية . ولم تكن الكنيسة مجرد هيكل ومذبح ومعبد للصلاة والطقوس اللاهوتية ، وانما كانت مؤسسة اقتصادية واجتماعية وسياسية ، تمسك بطرف خفي أو معلن، بمقاليد السلطة .

وقد كان ممكنا الرد «النظري» على البابوات المتربعين على عروش الذهب ، بأن المسيح عاش ومات فقيرا وابنا لنجار ، وان تلامذته كانوا من صيادي السمك ، وانه قال أكثر من مرة « مملكتي ليست من هذا العالم »، وان أحدا لا يستطيع أن يخدم سيدين : الله والمال ، وان دخول جمل من ثقب ابرة ايسر من دخول غني ملكوت السموات .

كان هذا الرد ممكنا من الناحية النظرية فحسب ، فقد كان ملكوت الكنيسة أرضيا الى أقصى الحدود : البابا والاساقفة يملكون المقاطعات الشاسعة ومن عليها ، وفي أيديهم وحدهم صكوك الغفران والحرمان على السواء . ومن أراد قيراطا واحدا في الجنة عليه أن يهب عشرات الافدنة وكيلوات الذهب للكنيسة ، فالطريق الى «حرية السماء» يمر بعبودية الارض ، للبابا والملك ، للاساقفة والنبلاء ، للكنيسة والعرش . وهكذا

أصبح الجوع والقهر لغالبية البشر « قوانين دينية » ما دام البابا ظل الله على الارض .

ولكن الرد النظري من صفحات الانجيل لم يكن ليفيد شيئا ، لان «تفسيرها» ظل احتكارا مقدسا للحبر الاعظم والاباطرة الصغار . ومن هنا مضت ثورة عصر النهضة على كنيسة العصور الوسطى في اتجاهين : الاول هو استلهام التراث اليوناني والروماني القديم واعادة بعثه ، والآخر هو نقد الانجيل على ضوء مناهج المعرفة المتوفرة وقتئذ نقدا تاريخيا وفلسفيا واجتماعيا وسياسيا . وقد ابتعدوا تماما عما كان يسمى بالنقد اللاهوتي . كان النقد «من داخل الانجيل» أو «في اطار المسيحية» يصل بهم الى حلول توفيقية ، اما النقد من خارج الحدود المرسومة سلفا ، النقد من داخل المعرفة الانسانية الجديدة التي وفدت مع كشوف العلماء واجتهادات الفلاسفة وتطور وسائل الانتاج وتغير العلاقات الاجتماعية .. هذا النقد كان يصل بهم الى حلول جذرية .

وهي حلول تهز «الثوابت الرواسخ» من القيم والمعتقدات والمقدسات، والصدمات التي أحدثتها انطوت على الاستشهاد بالدم : استشهاد المئات من المفكرين انبياء العصر الجديد ، واستشهاد مئات الالوف من البشر في المجازر التي سميت «محاكم التفتيش» . كان الثمن باهظا ، ولكن النتيجة هي ان عصرا جديدا قد بزغ في تاريخ البشرية بأسرها ، وأصبحت الارض «كروية» رغم أنف الكنيسة ، وتم فصل الدين عن الدولة ، وغيرها من عشرات المكاسب الانسانية التي تتمتع بها الحضارة الاوروبية الحديثة .

ان من ينظرون الآن الى هذه الحضارة ، فتبهرهم الدساتير والقوانين والقيم التي تحكم العلاقات بين الناس ، بين الطبقات وبعضها البعض ، بين الشعب والسلطة ، بين الفرد ومؤسسات الدولة .. ينسون أحيانا كثيرة ان هذه الامتيازات لم تهبط من عل ، وانما كانت ثمرة صراع ضار راحت ضحيته الارواح والاجساد والمقدسات وأغلى ما يمتلك الانسان .

وقد كانت العبرة الاولى لعصر النهضة الاوروبية وما تلاه من عصور، هي ان الانسان مركز الكون ، ثم أصبح في عصر الثورة الاشتراكية أثمن رأس مال . ولقد تغيرت علاقات الانتاج ووسائله منذ عصر النهضة تغيرات عديدة ، وتمكنت الثورة الاشتراكية من استحداث قيم وعلاقات اجتماعية جديدة كيفيا بين البشر . ولكن ظل عصر النهضة هو المصدر الام لكافة الثورات والتغيرات ، هو الاب الشرعي لما يسمى «الحضارة الحديثة» سواء عانت أزمة الاحتضار في الغرب الرأسمالي ، او عانت أزمة الولادة والبعث الجديد في الشرق الاشتراكي .

أين نحن من ذلك كله ؟ أين يقع عصر النهضة في حياتنا ؟ منذ مائتي عام ونحن نكابد أهوال الصراع بين القديم والجديد ، ونحن ننقل منجزات الحضارة الحديثة ، دون ان تترسخ في أعماق ضميرنا الجماعي قيم وتقاليد «النهضة» بل ان اشكال الانتاج تغيرت ، ووسائله تطورت وازدحمت جامعاتنا ومصانعنا وبيوتنا وشوارعنا ، بأحدث الآلات والماكينات ومجلدات المعرفة الحديثة . ومع هذا لا زالت «القيم والتقاليد» التي تحكمنا تنتمي الى عصور سحيقة في تاريخ البداوة والقبلية والعشائرية . أصبح منظرنا هزليا بقيام هذه المفارقة المأساوية الحادة : الديكور المزخرف بأحدث منجزات العصر الصناعي ، يضم في اهابه هيكلا عظميا بلون رمال الصحراء. المثقفون منا يتمزقون — أحيانا — بين شكل حياتهم ومضمونها ، والغالبية تشعر بلذة جنسية في استهلاك «الحضارة» دون انتاجها !

ومن المؤكد ان القيم لا تتبدل غداة تطور الحياة المادية ، انها تحتاج لوقت طويل .. ولكن البطء السلحفائي الذي نحياه في تفكيرنا ومشاعرنا وسلوكنا ، ليس هو البطء الطبيعي، ليس هو البطء العادي المألوف المتوقع، وانما هو بطء مرضي محفوف بالمخاطر . ذلك ان قطار الحضارة قد يتوقف في المحطات لبضع دقائق ، ولكنه لا يتوقف في محطات الموتى ينتظر قيامهم من بين الاموات .

واذا كان شرايبر في كتابه «التحدي الاميركي» يحذر أوروبا من ان ركب الحضارة قد أسرع بعيدا عنها بعشرين عاما ، وعليها ان تختزل سرعة التقدم حتى تلحق بما فاتها والا فمصيرها هامش التاريخ ، فان ارنست مندل في كتابه «الرد الاشتراكي على التحدي الاميركي» لا يلغي هذا التشخيص ، وانما يقدم علاجا اشتراكيا فحسب .

فاذا كان هـذا الكلام الفـاجع عن أوروبا ، مـاذا يكون الامر بشأننا نحن ؟

الامر ، ببساطة موجعة ، هو اننا درنا حول عصر النهضة ولم نعرف جوهره ، درنا حول الاشتراكية ولم نعرف جوهرها .

ان جوهر عصر النهضة هو المواجهة الشجاعة للمؤسسة الدينية ، لا من داخل «النص المقدس» وانما من خارجه ، لا بالنقد اللاهوتي ، وانما بالنقد التاريخي والاجتماعي والفلسفي على ضوء المعرفة التي يوفرها العصر انطلاقا من ان الانسان مركز الكون وليس القوى المفارقة للطبيعة .

وجوهر الاشتراكية هو المواجهة الشجاعـة للابنيـة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتناقض كليا مع علاقات الانتاج الجديدة لا من داخل الابنية المهترئة المتداعية ، لا بالعمل الاصلاحي ، وانما بالعمل الثوري القادر على تحويل الانسان الى «أثمن رأس مال» .

ومنذ بدايات عصر نهضتنا الى الآن ، أخذنا نلف وندور حول هذين الجوهرين دون المواجهة الشجاعة لاغوارهما . هكذا ازدهر في بلادنا الفكر التوفيقي ازدهارا عظيما، ابتداء من الامام محمد عبده الى الامام خالد محمد خالد ، لم نعرف سوى الفكر الوسطي أو ما يسمى ــ حقا ــ بالاصلاح الديني . اما اذا قام شبلي شميل أو طه حسين أو سلامة موسى أو اسماعيل ادهم بمساس الجوهر ، فان مصيرهم القمع والاضطهاد والفرار والانتحار.. والنتيجة انهم لا يشقون «تيارا» جاريا في نهرنا الآسن .

ومنذ تأميمات مصر وسوريا والعراق واليمن الديمقراطية ، عرفت

تطبيقاتنا وادارتنا للتحول الاجتماعي وبلات الحصار من الداخل والخارج، وأهوال التناقض بين الشكل والمضمون الديمقراطي ، وثغرات الذبذبة والتردد ، وانعدام التكافؤ الموضوعي بين القوى الاجتماعية والتعبير السياسي عنها في السلطة .. الى غير ذلك من سلبيات التجربة التي تراكمت فأثمرت لدى البعض تراجعا مريرا عن المنجزات الايجابية ، اما البعض الآخر الذي لا زال حريصا على تطويرها ، فانه يكابد رواسب السنين وأسوار الانبطاح العربي والحدود الملغومة بمتفجرات مشبوهة .

وربما يقال ان المؤسسة الدينية المعاصرة عندنا ليست نظيرا للمؤسسة الدينيـة في «غرب» العصور الوسطى .. ليست لدينا خلافة ولا امارة للمؤمنين ولا ولا .. ولكننا ننسى ان كثيرا من القوانين البرجوازية نفسها حين تصطدم بالشريعة لا تعرف طريقها الى التشريع والتنفيذ ، وان كثيرا من مقومات الطائفية يكمن في رسوخ الركائز الدينية .. وان الامر لا يتعلق بفتاوى الجهات الدينية المختصة فحسب ، بل ان هناك «رأيا عاما» يحول دون التقدم خطوة واحدة ، ايا كانت درجة التعارض بين الملزمات المادية لهذا التقدم والقيم السائدة ، وايا كانت الآثار المحسوسة المترتبة على هذا التعارض، والتي قد تصل بنا الى حافة الهلاك المعنوي والانقراض الحضاري.

وقد ثبت بالدليل الدامغ ان الفكر التوفيقي الذي تجسده الدعوات المتوالية الى «اشتراكية اسلامية» او «اشتراكية عربية» هو فكر عاجز ومفلس معا ، وانه في خاتمة المطاف صياغة تبريرية ، لنظم التفاوت الطبقي التي لا تختار لافتة الدين كواجهة على راياتها عبثا ، وانما لمداعبة تلك «الثوابت الرواسخ» في أعماق الروح العربية .

وخاتمة المطاف لهذا الفكر التوفيقي طريق مسدودة في وجه الحضارة.

وليس امامنا سوى الاختزال المركب لمراحل التخلف الذي أصابنا في الصميم ، وان كانت الهستريا الجماعية تزين لادمغتنا الاخيلة الكاذبة .

لذلك تكتسب افكار المطران اللبناني غريغوار حداد أهمية خاصة

ومضاعفة ، فهو يطرح جذريا كافة المسلمات والبديهيات التي عاش عليها المسيحي العربي قرونا من الزمان ، للتساؤل الثوري . وهو حين يقول ان كتّاب الاناجيل لم ينقلوا الينا كل ما قاله وكل ما فعله المسيح ، فانه يضع الاساس العلمي التاريخي للنص الديني منهجا للمعرفة . وهو حين يقول ان ما وصلنا عبر تلاميذ المسيح وحوارييه قد وصلنا بلغة عصرهم ، فانما يضع الاساس المنهجي للتغيير . والمطلوب عند غريغوار حداد هو تحرير المسيح من المسيحية وتحرير المسيحية من الكنيسة . ذلك ان المسيحية ليست فقط كلمات وأفعال المسيح المنقولة الينا في نصوص قديمة ، وانما هي أيضا تاريخ المسيحية الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . وبالتالي فالمسيحية التي تجسدها الكنيسة هي مسيحية السلطة القائمة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . وحين تتحرر المسيحية من الكنيسة ، أي بزوال «السلطة» الممثلة لها ، يتحرر المسيح من تاريخ المسيحية ويبقى جوهره ... هذا الجوهر الذي نستطيع تغيير لغته القديمة (أي رؤيا التلاميذ القدامى له) الى لغة عصرنا . حينئذ فقط يحيا المسيح حقا، يحيا في لغة العصر الجديد، وهي الاشتراكية.

ولا ينبغي التسرع في وصف غريغوار حداد بالاسقف الاحمر ، فقيادته للحركة الاجتماعية من داخل الكنيسة الكاثوليكية في لبنان ، لم تصبح بعد تيارا فكريا داخل المجتمع الواسع . الرجل يردد بالكاد أفكار عصر النهضة الاوروبية ، ولكن ثوريتها ان تتردد بين جنبات مجتمع يحوم حول المشاكل ولا يواجهها ولا يصطدم بجوهرها .

ان أهمية غريغوار حداد ، انه رغم الثياب الكهنوتية ، استطاع ان يفلت من حصار «النص» فلم يقع في اسار النقد اللاهوتي ، وانه تلفت حواليه حيث الارض والبشر ، فجاء «نقده» من خارج النص مزودا بمعرفة عصرية قادرة على التغيير .

والآثار الاجتماعية المترتبة على دعوة الاب حداد ، عظيمة الاهمية ، والغاء الطائفية ليس أقلها شأنا ، ولكن الاهم هو تحويل افكاره الى تيار

متعاظم لا يخشى «المقدسات» ولا يساوم على التقدم ، ويحول بيننا وبين انتحارنا الحضاري البطيء !

فهل هذا ممكن ؟

(٢)

يقترب حثيثا موعد «السنودس» الكاثوليكي في لبنان ، لمحاكمة المطران غريغوار حداد .

وليس تدخلا منا في «الشؤون الداخلية» للكنيسة ، ان نبدي هنا بضع ملاحظات : اولها ان القضية المثارة ليست اشكالا لاهوتيا محصورا في الكهنوت الاكليريكي ، وانما هي قضيــة عامــة لا تخص — حتى — المسيحيين وحدهم ، ولا لبنان بمفرده ، بل هي قضية المجتمع العربي بأسره.

كيف ؟

ان غريغوار حداد ليس أكثر من «نموذج» لرجل الدين الذي يكتشف في احدى اللحظات الآية الانجيلية القائلة ان السبت للانسان وليس الانسان للسبت أي ان الانسان هو الهدف الاسمى للحياة ، وما عداه وسائل . هذا الاكتشاف هو الذي دفع الرهبان في اميركا اللاتينية الى حمل السلاح والاشتراك في حرب العصابات ضد الاستعمار الاميركي . وحين كانت الابواق الامبريالية تغني في الكنائس التابعة لسفارات الولايات المتحدة قول المسيح «أريد رحمة لا ذبيحة» ، كان الرهبان المقاتلون يردون بحسم ان المسيح أيضا هو الذي قال «ما جئت لالقي سلاما بل سيفا» وهو الذي حمل السوط على صيارفة الهيكل وقلب موائدهم قائلا «بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» .

هكذا كان «الانسان» هو المحور الذي التف من حوله المناضلون في أحراش اميركا اللاتينية وغاباتها سواء كانوا شيوعيين أو رهبانا يرتدون الثياب السوداء . وقد تم ذلك بخروج رجل الدين الى الشارع ، الى الحياة.

وكان اكتشافه التاريخي ، هو انه اذا كان المسيح قد صلب فداء للانسان ، فليس ذلك امتيازا شخصيا له ، وانما لا يصير الانسان «مسيحيا» الا اذا تمثل جوهر المسيح وهو الفداء . ومن ثم كان الموت برصاص المخابرات الاميركية هو الصليب المعاصر . وأصبحت المعادلة في مخيلة الراهب المقاتل واضحة : الامبراطورية الرومانية القديمة التي كانت تهيمن على فلسطين والشرق ، هي الآن الامبراطورية الاميركية ، وكبار رجال الدين اليهود من أمثال «قيافا» هم الآن كبار رجال الكنيسة . والشعب المقهور لا زال كما هو ، والنضال من أجله هو رسالة المسيح المصلوب سواء كان شيوعيا او راهبا ، لا يهم .. ما دام الانسان هو الهدف .

ولا شك ان اركان الكنيسة الكاثوليكية في اميركا اللاتينية قد اهتزت ، وهي تشاهد جنودها من القساوسة والاساقفة تنضم الى صفوف الثوار .. ولكن حين يصبح الموت (وليس التـاج الذهبي ولا الامـلاك الشاسعة) هو اسلوب الحياة عند أولئك الرهبان المقاتلين فانهم لا يهابون «الحرمان» الكهنوتي الذي تملكه السلطة الدينية . انهم يختارون الجوهر ، ويتركون المظهر للاباء العظام . ويكفيهم مجدا انهم حولوا معنى «الدير» من الصومعة المغلقة على «خلاص» صاحبها ، الى العالم الواسع حيث لا يتم خلاص النفس الا بخلاص الآخرين .

وقد عرف تاريخ الاسلام نماذج رائعة لهذا المعنى ، على صعيد الافراد والحركات الجماعية أيضا . لقد أعطى الحلاج للتصوف ــ على سبيل المثال ــ معنى جديدا ، فلم يعد التوحد بين ذات الانسان وذات الله نوعا من الوجد الميتافيزيقي ، بل أمسى كفاحـا من أجل الفقراء حتى الموت . ان عذاب الحلاج ومأساته ، لم تكن ترفا شخصيا كالهلاك الفردي ، وانما كان تجسيدا أمينا لعذاب الناس ومأساة المجتمع . ولم يحدث ذلك الا حين خرج الحلاج من خلوته الروحية الى الشارع ، ولعله أحس بالراحة الروحية في الصلب ، ولكن مصدر الراحة الاكيد انه لم يكن يموت للموت ، بل لحياة

الآخرين . وبموته اتحدت ذاته بذات الله ، فهذا هو المعنى الجديد الذي أعطاه للتصوف : ان وحدة الانسان والله لا تتم الا بفداء الانسان .

ولقد وقفت ضد الحلاج كافة اشكال السلطة الدينية والمدنية ، ولكن نشوته الحقيقية كانت قد بلغت به الذروة في ملاقاة الموت . وهكذا كانت بقية الحركات الثورية في الاسلام ، كالقرامطة وثورة الزنج .. كان خروجها الى الشارع المقهور ، هو قائدها الى تفسير الاسلام تفسيرا ثوريا من شأنه أن يغير واقع المؤمنين المسحوقين . وحين ارادت ترجمة هذا التفسير عمليا على صعيد السلطة ، كانت المذابح والمجازر التي راح ضحيتها شهداء كثيرون .

وفي عصرنا الحديث لم يكن طه حسين ملحدا ، ولكنه كان متأثرا فحسب بجوهر الحضارة الحديثة ، وحين اقترب من بعيد ، من أقدس المقدسات صودر ولوحق وانصبت عليه اللعنات من كل صوب ، خصوصا من الازهر جامعته الاولى . وحين كتب الشيخ علي عبد الرازق «الاسلام وأصول الحكم» ليقول ان الخلافة ليست من جوهر الاسلام حتى لا تصبح «وراثة الملك» من تقاليدنا الدستورية المدمرة .. قامت عليه الدنيا وفصل من هيئة كبار العلماء وصودر الكتاب ولم يسمح للرجل بنشره طيلة عمره. ذلك ان الملك فؤاد الاول كان يريد لابنه فاروق ان يصبح ملك مصر بعد وفاته كما ان الملك فاروق كان يريد لابنه فؤاد الثاني أن يرث العرش العلوي ، الى ما لا نهاية . ووقف الازهر الى جانب الملك ، ووقف الشعب الى جانب المؤلف . وهكذا كان الامـر مـع خالد محمد خالد حين كتب «مواطنون لا رعايا» و «من هنا نبدأ» . لقد رد عليه الشيخ محمد الغزالي في كتابه «من هنا نعلم» متهما اياه بالخروج على أصول الدين ، فجرده الازهر من عضوية هيئة كبار العلماء .

ولم تكن جريمة علي عبد الرازق أو خالد محمد خالد جريمة «دينية» بالمعنى الدقيق فهما من علماء الاسلام والفقه والشريعة الكبار . انهما لم

يخرجا « على » الدين وانما خرجا الى الشارع والانسان والحياة فاشتغلا بالسياسة رغما عنهما .

وما حدث من جانب الازهر ، حدث تماما من جانب الكنيسة المصرية .. ولعل الجيل الجديد لا يعرف ان كاهنا مصريا هو «القمص سرجيوس» كان في طليعة الحركة الوطنية عام ١٩١٩ . وكانت مواقفه السياسية ومجلته «المنارة» من أهم عناصر الوحدة الوطنية التي كافحها الانكليز بكافة الوسائل . وعلى صعيد الكنيسة كان يدعو الى «التقدم» بها خطوات جذرية الى الامام ، لكي تنصهر بحركة المجتمع واحلام الشعب . وكان نصيبه النفي والحرمان ، حتى انه أقام في بعض الاوقات كنيسة خاصة به ــ وهو الممنوع كنسيا من الصلاة ــ احتشدت بها جماهير المسيحيين والمسلمين ، على نحو غير مسبوق . وعندما رشح نفسه لانتخابات مجلس النواب عام ١٩٥٠ سحق منافسه «الوفدي» ، ثم عاد وتنازل مختارا استجابة لزعيم الاغلبية مصطفى النحاس .

والمطران اللبناني غريغوار حداد هو امتداد متطور ، لهذا التراث النضالي بين رجال الدين في عصرنا والعصور التي سبقت .

انه لم يفعل أكثر من انه خرج الى الشارع فرأى ما لم يره غيره من رجال الكنيسة ، ولم يشأ ان ينكر رؤياه ، فأعلن شهادته للانسان . وهي في نفس الوقت شهادة للمسيح .

وحين يجتمع «السنودس» في أواخر هذا الشهر ليحاكمه ، لن يجد ما يقوله ! ذلك انه ليست هناك لغة مشتركة بينه وبين قضاته . ان لغة الانسانية التي يتكلم بها تختلف عن لغة الكهنوت المغلق على النصوص . انه يقرأ الانجيل مثلهم ، ولكن بعين أخرى ليست لهم . وهو يؤمن بالمسيح مثلهم ، ولكن مسيحه غير مسيحهم .

ومن هنا ، فالاغلب انهم سوف يرجمونه هاتفين لقاضي القضاة «اصلبه . اصلبه» والاغلب أيضا انهم حين يرفعونه الى خشبة الصليب ،

ويذيقونه كأس الخل اذا عطش ، ويطعنونه في جنبه الايسر لن يقول سوى « أغفر لهم يا أبتاه لانهم لا يدرون ماذا يفعلون » !

ولكنهم يدرون ماذا يفعلون !

يدرون ان غريغوار حداد حين اختار الصليب على تاج الذهب ، لم يفعل ذلك عبثا ! فالقضية من بعده تظل قائمة وحادة وملتهبة . وكل ما حدث ان زاد عدد الشهداء واحدا .

وهم حين يستعينون ببابا روما على أحد أحبار الكنيسة الوطنية ، انما يفجرون المشكلة كلها.. فقد آن الاوان ليعرف كل مسيحي عربي — بل كل عربي على الاطلاق — ان مقاليد السلطة الروحية في وطنه تمسك بها أيد أجنبية !! وان هذه الايدي حين سطرت وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح ، انما كانت تقوم بعمل سياسي معاد للامة العربية ، أملته عليها اجتهادات كاردينال اميركي !

والمطران حداد لا يتطرق في كافة بحوثه ومقالاته ولقاءاته لهذه المسألة الخطيرة.. ولكنه حين يجلس في قفص الاتهام، سوف يدرك الاهمية العظمى لاستقلال الكنيسة الوطنية — أيا كان مذهبها اللاهوتي — لانهم سيحاكمونه وفق تعاليم البابا ومقررات الفاتيكان ! البابا الذي لا يدري شيئا عن «شعبه» العربي ، كيف يحق له التدخل في شؤونه الداخلية ؟

والمسألة لا تحتاج في يقيني الى بحث تاريخي حول العلاقات «الابوية» بين كنيسة روما وكنائس المشرق ، ولكنها تحتاج الى نظرة سياسية شجاعة، وخطوة دينية جريئة . واذكر انه حين استقلت الكنيسة الاثيوبية عن الكنيسة المصرية — رغم وحدتهما العقائدية الكاملة — ان البابا القبطي رحب بذلك ترحيبا تاما . ذلك ان الكنيسة الوطنية هي ابنة المجتمع الذي تنشأ فيه ، مهما كانت الاصول التاريخية تربط بينها وبين الكنيسة «الام» .

ولست أود الخوض في «امهات» بعض الكنائس العربية ، التي

تنتمي ظاهريا الى الكثلكة او البروتستانتية ، بينما الحقيقـة السياسية المؤكدة هي انها تربط ولاءها بالفاتيكان او الولايات المتحدة او بريطانيا او فرنسا . لست اود الخوض في ذلك ــ رغم اهميته ــ لانه قد بات من الثوابت التاريخية ان المبشرين الاجانب حين كانوا يخفقون في نشر المسيحية كانوا يوجهون نشاط ارسالياتهم وبعثاتهم الى تحويل المسيحيين عن كنيستهم الوطنية الى كنائس جديدة تابعة لاسقف كانتربري او اسقف واشنطن .

وقد نجحت الكنيسة الوطنية في مصر الى حد بعيد في صد هذه الهجمات الاجنبية عليها ، فليس هناك أكثر من عشرة في المائة من اقباط مصر ينتمون دينيا الى كنائس خارج الحدود . وقد حقق هذا النجاح المذهبي ظاهريا ، اندماج الكنيسة المصرية في الحركة الوطنية للشعب المصري ! انها لا تنتظر تعليمات أو توصيات أو قرارات من العواصم الاخرى .

وبالرغم من ان غريغوار لا يثير بمواقفه مسألة استقلال الكنيسة ، الا ان محاكمته تفجر ــ او ينبغي ان تفجر ــ هذه المشكلة الخطيرة .

وهي مشكلـة لا تهم الكاثوليك وحدهـم ، ولا المسيحيين اللبنانيين وحدهم ، ولا المسيحيين العرب وحدهم .. وانما هي تهم العرب جميعـا ، لانهـا تمس جوهر وجودهم القومـي وامنهم الاجتماعي . فالكاثوليـك والبروتستانت ، لا يعيشون في جزيرة مهجورة ، بل هم مواطنون يشاركون من مواقعهم المختلفة مسؤوليات هذا الوطن . والحياة الروحية للانسان هي اعمق طبقات الشعور وارفع مستويات العقل .

ولا يمكن أن تظل هذه الحياة مغلولة بخيوط حريرية تصل بين بيروت والفاتيكان ! وقضية غريغوار حداد تخصنا جميعا لهذا السبب .. لانهـا قضية سيادتنا القومية على حدودنا ، حتى الروحية منها .

اما اذا وضعنا في الاعتبار قضية « السلطة الكنسية » نفسها ، فاننا نكون قد اقتربنا من الحلول الجذرية التي ينادي بها غريغوار حداد .. فالسلم الكهنوتي المتدرج الذي يشبه سلم الجيش وسلم الحزب ، لا علاقة

له بالمسيحية ولا بالانجيل .

وانما له علاقة بالسياسة !

وتلك هي الحقيقة الغائبة ــ او الحاضرة ! ــ التي نلف حولها وندور قبيل واثناء وبعد محاكمة غريغوار حداد .

١٩٧٤

⁄ كولن ولسن جاءنا ليقهر الملل ...

من حق الدكتور سهيل ادريس كصاحب لدار الآداب التي تصدر مؤلفات كولن ولسن ان يدعو الكاتب الانجليزي لزيارة لبنان ، ومن حق اتحاد الكتاب اللبنانيين ان يوجه الدعوة الى اي كاتب يشاء ، لزيارة وطن يغلي في مرحلة انعطاف مصيرية ، حتى ينقل الى قرائه حقيقة ما يدور على ارض الشرق الاوسط .

ومن حقنا نحن ايضا ان نختلف مع تقدير الدكتور سهيل ادريس وتقدير زملائنا في اتحاد الكتاب اللبنانيين ، لان دعوة كاتب غربي في ذاتها شيء هام وتعكس وعيا بضرورة التفاعل بين ثقافتنا وثقافات العالم من حولنا من ناحية وضرورة طرح قضايانا على اوسع نطاق ممكن ، ولكن « الاختيار »مسألة بالغة الاهمية ولا تقل خطورة عن مبدأ الدعوة من ناحية اخرى .

⁄ حين استقبلت مجلة « الطليعة » المصرية كلا من جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار ومكسيم رودنسون عام ١٩٦٧ فالقوا المحاضرات وحاوروا المثقفين والعمال والفلاحين المصريين ، تم ذلك وفق تخطيط حاذق وفهم بصير بطبيعة المرحلة التاريخية التي يخوضها نضالنا ، وطبيعة الكتاب المدعوين.. فسارتر ودي بوفوار ظلا يزعمان انهما يتخذان موقف الحياد من الصراع العربي الاسرائيلي حتى تتاح لهما فرصة موقف التحري الدقيق عن الواقع برؤيته على الطبيعة . وحجم سارتر على صعيد الفكر العالمي كبير

ومؤثر على قطاع كبير من المثقفين العرب . وصورته في مخيلة العصر انه احد اعمدة الدفاع عن الحرية ، وموقفه من حركات التحرر في الجزائر وكوبا وفيتنام لا يشوبه الشك . اما مكسيم رودنسون ، فهو المفكر اليهودي المتحرر من عقدة الصهيونية ، وصاحب الدراسات المستفيضة حول الاسلام ، ايا كانت درجة اتفاقنا او اختلافنا بشأنها ، فأنها تصدر عن عقلية علمية موضوعية تخطىء وتصيب . كذلك دعت « الطليعة » المفكر الفرنسي روجيه غارودي في حوار عميق متعدد الجوانب حول الاشتراكية والحضارة العربية . وقد يكون جارودي على خلاف واسع مع صفوف اليسار الشيوعي في العالم ، ولكن هذا لا ينفي قيمته الكبيرة في طرح المشكلات التي استحدثتها الثورة التكنولوجية في عصرنا وانعكاسها على التحالفات والخصومات الطبقية في المجتمع وانعكاسها كذلك على نقاط الانطلاق النظرية في البحث عن حلول اشتراكية لثورات الطلبة وحركات التحرر الوطني في العالم الثالث .

وليس مهما بعد ذلك ان سارتر قد اتخذ موقفا مناوئا لطموحنا القومي وان دي بوفوار قد اتخذت موقفا مضادا لصراعنا الوطني وان غارودي قد وصل به التنافس مع الحزب الشيوعي الفرنسي الى حدود القطيعة .

ليس كل ذلك مهما ، بل ربما كان ايجابيا من زاوية كشف المواقف وتحديدها ومدى تأثيرها علينا وعلى العالم كله .

ولكن كولن ولسن الذي قد يفسر اقبال القراء العرب على مؤلفاته تفسيرا خاطئا ، ماذا يستطيع ان يأخذ منا وماذا نستطيع ان نعطيه ؟ بعبارة اخرى كيف يمكن ان نتفاعل معه ؟

هذا هو السؤال الذي لا اعتقد ان اتحاد الكتاب اللبنانيين قد فكر فيه حين فكر في دعوة مؤلف «اللامنتمي» ، وهو أيضا السؤال الذي لم يخطر على بال كولن ولسن حين لبى الدعوة ، فالارجح ان جودة توزيع

مؤلفاته في الوطن العربي ، والخيال الغربي التقليدي حول الشرق هو كل ما اهتم به الكاتب الانجليزي الشاب حين فكر في القيام بهذه السياحة الجميلة .. في وقت يصلح لكل شيء الا للسياحة .

ماذا اخذنا من كولن ولسن وماذا اعطينا ؟ ونقطة الانطلاق الاساسية عنده هي ان المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ليست أكثر من قشور لمشكلة اعمق هي الملل النفسي الرهيب الذي يعتور انسان هذه الايام ، والحل السحري لهذه المشكلة العويصة هو اليقظة الروحية الدائمة بالاقبال على الحياة لا بالانسحاب منها .

واول ما نصطدم به في هذا التصور هو التعميم ، فانسان اليوم ، من هو ؟ هل هو البرجوازية الانجليزية الوقورة ام البرجوازية الفرنسية الناعمة ام البرجوازية الامريكية المتكبرة؟ ام انه الانسان الصيني والكوري والتشيكي والسوفيتي ؟ ام انهم الطلاب والعمال والفلاحون في المانيا الغربية واسبانيا والبرتغال وكندا والمكسيك ؟ ام انهم السود في روديسيا وجنوب افريقيا ؟ ام انهم الفلسطينيون في المخيمات ومعسكرات التدريب ؟

من هو انسان اليوم ؟ ان التعميم ليس خطأ لغويا املته حماسة الانشاء والبلاغة ، وانما هو « فكر » يمد جذوره الى كنيسة العصور الوسطى حين كانت تسمي الدنيا كلها بالعالم المسيحي ، ويمد جذوره ايضا الى بواكير السوق البرجوازية التي وحدت العالم — في مخيلتها — تحت راية الرأسمالية . هكذا ايضا يقوم كولن ولسن وفق منهجه النفسي الميتافيزيقي باسقاط شخصي على العالم ، فهو حين يقول « انسان اليوم » او الانسان في عصرنا لا يتصور سوى مجموعة من مثقفي البرجوازيات الأوروبية ، فهؤلاء هم الذين يغشاهم الملل حقا حين تصطدم القيم المثالية في ادمغتهم بانظمة الانتاج المادي التي لا ترحم . اي حين ينعزلون في ابراج من العاج الوهمي ، فتخذل وحدتهم المصنوعة تناقضات الواقع الموضوعي الصارمة . انهم شريحة ضيقة من ابناء وبنات البرجوازيات الاوروبية ، تعكر صفوهم

الرتابة الميكانيكية فـي الانتاج الالي بانسحابهم الـى صومعة الملل ، واحتجاجهم العقلي الباهت على ما يجري ، دون اية محاولة لفهمه من ابوابه الامامية لا من النوافذ الخلفية ، فضلا عن اية محاولة لتغيير « الخطأ » الكامن كالجرثومة في اساسات البناء الاجتماعي ، انهم يتفرجون على المأساة من الطابق العاشر ، يعذبهم فحسب الضجر من ثبات المشهد .

وهم خلاصة السلف الصالح من الرومانتيكيين الذين لاذوا بالطبيعة والريف الأرستقراطي والاكواخ الحديثة على الشواطىء الفاخرة مـن « غول » الآلة و « بطش » الصناعة وضراوة «المدينة» ، الى الوجوديين الذين استشعروا غياب الحرية بمنظار مقلوب فاخلدوا الى الصمت اليائس بما انهم فقدوا الحرية يوم ولدوا ، الى الهيبيين الذين فضلوا « المسيحية الجديدة » على كنيسة المؤسسات فصاغوا صلبانهم من الجنس والهيروين والانسلاخ « العنيف » عن مجتمع الاباء والاجداد .

هذه الحركات كلها اشبه ما تكون بالتشنجات الاجتماعية والانتفاضات الاجتماعية والانتفاضات غير الواعية، انها التجسيد العفوي للخلل .. فقد كان الشعور الرومانسي بصورته الضبابية الغائمة شعورا صحيحا ، اذ كانت الآلة والصناعة والمدنية مصدر البؤس والتعاسة في العالم ، ولكنهم لم يدركوا ان هــذه الآلام التي لا تحد لا تصدر عن الآلــة في ذاتها او الصناعة او المدنية ، وانما مصدرها الاصلي التناقض الجسيم بين علاقات الانتاج ووسائله ، وبين القيم السائدة والعلاقات الاجتماعية الجديدة . لم يدركوا أيضا ان الحل الوحيد لا يكمن في الهروب الى الغابات البدائية العذراء ، بل بالمواجهة الشجاعة لاصل البلاء ، باعادة الاتساق والانسجام بين قوى الانتاج (الآلة والايدي العاملة) وعلاقات الانتاج الرأسمالية القائمة على العمل المأجور وفائض القيمة .

هكذا كان أمر الوجوديين ، فاحساسهم العميق بغياب الحرية كان صحيحا ، لو ادركوا ان النازية هي الشكل الايديولوجي الممتد عن مضمون

اقتصادي هو تعاظم النمو الرأسمالي وبلوغه مرحلة الاحتكار الامبريالي حيث تتناقض شمولية رأس المال العالمي تناقضا جذريا مع الفكرة القديمة للاقتصاد الحر ، وحيث تحل «الشمولية» بالتالي محل «الليبرالية» .. لم يدرك الوجوديون ان الحل الوحيد هو في احلال ديموقراطية الشعب مكان الديموقراطية البرجوازية (التي لم تعد) وفضلوا الهروب الى قضية الوجود والعدم وكأن الحرية ماتت يوم كان قدر البشر هو الموت .

وهكذا ، اخيرا ، حركات العقد الاخير التي انتفضت على مجتمعات الاستهلاك في الغرب ، وعلى فقر العالم الثالث ، وحرب فيتنام .. فهي حركات صحيحة التعبير ، عفويا وتلقائيا ، عن ان الرأسمالية كنظام اجتماعي فقدت الغاية «السامية» ، ولكنهم بدلا من الوعي الثوري راحوا يضربون الرأس في الحائط الاصم ، بالعنف الفردي والهروب الى عالم الحلم عبر الجنس والمخدرات .

هذه كلها شرائح ضيقة بين مثقفي البرجوازيات الاوروبية والامريكية اختارت « الشهادة على العصر » بدلا من الاستشهاد ، رأت الكابوس ولم تحصل على الوعي . اما الشرائح العريضة من المثقفين والعمال والفلاحين فقد اختارت طرقا اخرى ، حاول مركيوز التعبير عنها كما حاول جارودي من منطلقات نختلف معها .. ولكنها لا تنبع من الوهم الميتافيزيقي الذي تصب فيه اجتهادات كولن ولسن . مركيوز وجارودي وغيرهما يصدرون عن الحوار مع الاسس المادية في واقع المجتمع ، ولا يسقطون ذواتهم على الموضوع فيعممون حالتهم على «انسان اليوم» او الانسان في عصرنا .

اما كولن ولسن فيختار نماذج الانطواء القليلة بين المثقفين الذين صادفهم في حياته أو بين الكتب ، ويحاول تعميمها على العصر كله والكرة الارضية كلها ، ويكلف نفسه عناء مذهلا للربط بينها وبين نماذج نادرة عرفها التاريخ الانساني في الواقع والفن ، حتى يطلق القول بعدئذ حيث يتجسد له التاريخ وكأنه صراع الانسان مع الملل .

والملل ــ بغير شك ــ ظاهرة انسانية لا تقبل الانكار . والملل بين المثقفين خصوصا ظاهرة ملفتة . ولكن تفسيرها وصياغتها كأنها نظرية جامعة مانعة ، هو الخطر .

وربما كنا نحن أكثر استشعارا لهـذا الخطر من غيرنا في انجلترا وفرنسا وأمريكا .

ذلك اننا لا نحيا بين جدران حضارة صناعية مترفة ، فغربة البعض منا تكاد تكون بسبب التخلف لا التقدم ، كما اننا لا نحيا بين جدران حضارة ليبرالية او ديموقراطية شعبية ، فغربة البعض منا تكاد تكون بسبب غياب الحرية بأي معنى . كما اننا لا نحيا في مجتمع الاستهلاك الوافر الغني ، فالحق ان التفاوت الطبقي الحاد بين القلة الغنية والكثرة الفقيرة ، يجعل الصراع من أجل الخبز بندا اولاً في جدول الاعمال .

اننا بين مناطق ما يسمى بالعالم الثالث نحيا ــ أو نموت ــ في وطن مجزأ عـلى كافة المستويات : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . لذلك كان نضالنا القومي هو الشكل الوحيد المتوفر لحياتنا اذا شئنا ان نحياها . كما اننا بين مناطق هذا العالم الثالث ، نعاني ويلات الاستعمار الاستيطاني المسمى اسرائيل ، وهي في خاتمة المطاف حصار عسكري مؤيد بترسانة الاسلحة الامريكية ، لاية بادرة تقدم لشعوبنا . اننا بين مناطق ما يسمى بالعالم الثالث نملك اعظم موارد الطاقة في عصرنا ، وهو النفط ، ولكن المفارقة المؤسية هي ان هذا النفط يبيعنا ولا نبيعه، يبني للآخرين مستقبلهم، ويشيد لنا بالذهب الاسود شواهد القبور من التخلف والقهر والمرض والجهل والموت .. اننا بين مناطق ما يسمى بالعالم الثالث مجزأون الى قبائل وشيع وطوائف ، الى قيم بدوية وزراعية وعشائرية ، لا علاقة لها بالعصر ، روحا وجسدا .

من هنا ، كان من الطبيعي ان يشعر المثقف العربي المعاصر بالاغتراب لا بالملل ، كما كان من الطبيعي أن يدرك خشبة صليبه جيدا ، وهي الوعي

الثوري الفاعل : نضالا قوميا وطبقيا وحضاريا وثقافيا في آن .

والبعض منا الذين قرأوا «اللامنتمي» واكتفوا، لم يضيفوا الى وعيهم بأنفسهم أو بمجتمعهم أو بأمتهم شيئا ، ولكن شهوة الثقافة حتمت عليهم قراءته . والبعض الذي أكب على بقية مؤلفات كولن ولسن استهوته لعبة الرطانة المشهورة عند انصاف وأرباع المثقفين .

غير ان الجميع ، هؤلاء واولئك ، يعون من مصادر واقعهم ومشاعل الوعي الثوري في كل مكان ، ان الملل لحظة آنية عابرة لا علاقة لها بحبات العرق اللامعة على جبين الطالب والفلاح والعامل في بلادنا ، ولا علاقة لها بنزيف الدماء غير المنقطع من المغرب الى المشرق ومن الشمال الى الجنوب في وطننا الكبير .

لحظة الملل في حياة المثقفين العرب ليست أكثر من خاطرة شاردة لا تستقر ريثما يستعيدون انفاسهم لمواصلة التحرير الكبير : تحرير انفسهم وتحرير أرضهم وتحرير شعوبهم ، فهذا التحرير وحده هو الذي يهب حياتهم المعنى .

وأغلب الظن ان كولن ولسن لن يفهم هذا الكلام ، لاسباب لا علاقة لها باللغة العربية !

١٩٧٤/٦/١٧

.. [illegible] يضاف الى ما [illegible] .. [illegible]
هو [illegible] - كولن ولسون - [illegible]
ما سوف [illegible] .

قصة حب مجوسية

ربما كنت أول من رحب بالدكتور عبدالرحمن منيف كاتبا روائيا جديدا ، يشق بموهبة واقتدار ، طريقه الخاص والفريد ، ضمن الموجة الجديدة في الرواية العربية بكتابه «الاشجار واغتيال مرزوق» . وباستثناء الفصل الثالث الاخير في هذه الرواية حيث أراد أن يفصح عن مرماه بصورة تقريرية مباشرة ، فانها كانت ولا تزال عملا هاما يضاف بجدارة واستحقاق الى الانجازات التي حققها جيل ما بعد نجيب محفوظ كعلامة فارقة .

ولكن غواية النجاح شر كبير فيما يبدو ، ذلك اني أكاد أوقن ان الرواية الصغيرة الجديدة التي أصدرها الكاتب هذه الايام تحت عنوان « قصة حب مجوسية » ليست أكثر من أوراق قديمة جرؤ عبدالرحمن منيف على استخلاصها من ذاكرة الشباب الباكر أو من أحد أدراج مكتبه وكان قد كتبها قبل «الرواية ــ العلامة» بكل تأكيد جرب فيها التأليف الروائي ونسجها من وحي الخيالات العذبة التي عاشها أبان غربته في أوروبا .

أكاد لا أشك ــ أكرر ــ في ان هذا الحب المجوسي تجربة قديمة طواها النضج في الفكر والتعبير والحياة التي اعطتنا حقا «الاشجار واغتيال مرزوق» ، وهي تجربة جيل كامل ، تجربة كبيرة على صعيد الفكر والجمال معا . أما «قصة حب مجوسية» فليست أكثر من أضغاث أحلام وذكرى جميلة لم تتبلور صياغتها في قالب تعبيري قريب من التكامل .. وانما هي أقرب الى الخواطر الشاردة والتأملات الغضة ، رغم القدرة الواضحة على

استخدام اللغة وتوظيفها ، بل ان هذه اللغة قد أضفت على الموضوع جدية لا تناسبه واحاطته ببريق العواطف المشتعلة حتى ليكاد المرء ان يصدق الكاتب احيانا ، لولا ان الفن الروائي ليس مجرد لغة وارفة الظلال ، وانما هو عالم كامل يتصل داخله بخارجه بخيط رقيق من الذات الخالقة والمحور الفكري الخفي .

ولعل الكاتب يعلم سلفا ان الفكرة المجردة لروايته ، وقد بناها على أساس شامخ من عالم الاغتراب ، ليست فكرة طارئة على الادب العربي الحديث .. فمنذ كتب توفيق الحكيم «عصفور من الشرق» ويحيى حقي «قنديل أم هاشم» وسهيل ادريس «الحي اللاتيني» وعبدالحميد جوده السحار «جسر الشيطان» وتجربة الشاب العربي في الغرب رؤيا فنية أصيلة في الرواية العربية . احدى زواياها الصراع الحضاري بين الشرق والغرب من خلال المرأة والحب والجنس والعقيدة والتكنولوجيا الى بقية القائمة التي لف حولها ادباؤنا وداروا ، ولم يأتوا لنا بثمر كثير .

وهكذا كانت هناك فرصة أمام صاحب «قصة حب مجوسية» ان يخوض غمار التجربة من جديد فيأتينا بشيء جديد ولكنه آثر ان يكتب لنا مذكرات عابثة لفتى عابث ربما كانت جديرة بالحفظ والصون في أحد الادراج كشاهد سافر على مرحلة العبث العقلي والشعوري . اما اصدارها بين دفتي كتاب فقد تم دون مراجعة للنفس ولا روية ، وانما يبدو الامر كله استدراجا من جانب النجاح الاول وجاذبية الشهرة التي كنت اربأ بعبدالرحمن منيف ألا يقع في اسرها بهذه السرعة .

وقد ظننت للوهلة الاولى ان بطل «قصة حب مجوسية» غارق حتى العنق في البحث عن المستحيل ، وليست ليليان في حياته الا ذلك الوهج أو الامل الذي يسطع فجأة ويغيب فجأة ، وليس «الحريم» الذي يحيطه بالجواري الحسان لهارون الرشيد الا الممكن المرفوض .

هكذا تصورت الامر بين الصفحات الاولى وكأنني في صراع بين

الممكن والمستحيل وقد تجسد في رموز من البشر والجنس والحب . ولكن المستوى الرمزي الذي تخيلته لم يكن الا اسقاطا شخصيا هو ثمرة «عدم التصديق» بأن عبدالرحمن منيف يمكن أن يكون احسان عبدالقدوس في غير زمانه . ولكن الواقع الفظ الخشن صدم كافة اسقاطاتي ، واذا بي امام وهم رومانسي ساذج ولده الكبت الجنسي العنيف رغم آيات النرجسية العارمة بالفحولة التياهة وسط بحر من النساء .

أين الرومانسية ؟ بطلنا يصور ليليان «واقعا نائيا» في كوكب لم يكتشفه أحد بعد ، لم يتبادل معها الكلام الا في الصفحة الاخيرة من الرواية . انها بالنسبة له مجرد «وجه» رآه صدفة من وراء الزجاج فيترك كل شيء هائما في حلم دائم وراء العينين والاهداب والوجنتين والشعر . لم يكلمها قط . رغم ذلك فقد كل علاقاته النسائية بسببها . لا شهرا ولا شهرين ، بل سنوات . حتى كان اليوم الاخير ، وعلى محطة القطار واصدقاؤه يودعونه ــ وصديقاته في المقدمة ــ واذا بليليان تجيء ! تجيء وتذهب . يتكلمان للمرة الاولى والاخيرة ، فقد جاءت ــ بالصدفة ــ لتسافر من نفس المحطة الى بلد آخر !! يقول الكاتب ، او البطل (كنت انتظرك منذ آلاف السنين . وعندما امتدت يدي بيأس .. تلاشت تركت في نفسي حزنا لا يمكن ان ينتهي» . وكان قد وصفها من قبل «ليليان وسط القاعة تشع في الظلام والصمت ، والناس مأخوذون بهذا الشعاع الذي يفيض عليهم ، فيرون كل شيء أكثر جمالا ولذة» . وقبل ان يسافر ، وقد رآها «فان غمامة من الحزن الاسطوري تجثم فوق صدري ، تحولني الى بقعة سوداء في وسط هذا الفرح الاخير» . ثم يختتم سجل اوجاعه مصليا «لا أملك شيئا .. ما زالت ليليان شامخة ، راكضة في ذاكرتي ، تتسلق دمي في كل لحظة ، تبكيني تفرحني ، لا .. يا أيها الناس ، انها تنتظرني .. انها تنتظرني في المحطة القادمة .. لا أعرف محطة الترام .. الباص ، ولكنها تنتظر .. في مكان ما تنتظر .. سألتقي بها .. لا تسخروا بالتأكيد سألتقي

بهـــا ! » .

ولم تكن ليليان « ذلك الذي يأتي ولا يأتي لم تكن فكرة فلسفية . ولم تكن نقيضا لجميع اللاتي عرفهن ، فهو لم يعرفها وانما حدث الامر كله ـــ أو لم يحدث ـــ من أول نظرة ! فكما انها ليست فكرة ذهنية ترمز لما هو أكبر ، ليست أيضا امرأة من لحم ودم وعقل وشعور ، ليست تجربة روحية ولا تجربة انسانية ، فمن أين يأتي الحب وكيف تحدث المأساة أو الفرح ؟ انها ، مع توفر حسن النية ، مجرد تهويمة رومانسية بلا معنى ، يتناقض وجودها الفني ـــ فضلا عن غياب وجودها الواقعي ـــ مع بناء الرواية المؤسس فوق دعائم راسخة من عرش هارون الرشيد .

وهنا النرجسية التي تصيب غالبيتنا حين يقيم في احدى مدن الغرب. انه ينام مع هذه وتلك دون سبب واضح سوى انه «هو» يريد ، ويترك الفجيعة في القلوب التي تأكلها الغيرة عليه «هو» الذي لا يبالي . وليس هذا هو المهم ، ولكن المشكلة ان هذه النرجسية لا تتفق مع الرومانسية الخاشعة في معبد الحرمان . فلو ان ليليان كانت المرأة الوحيـــدة التي رفضته لامكن تفسير اقباله النهم على خيالها ، لو ان ليليان كانت المرأة الوحيدة التي فهمته أو اكتشفته أو .. أو أي شيء ، لكان ذلك مبررا ان يترك العالم كله من أجلها . ولكن ليليان ـــ على طول الرواية ـــ مجرد اسم لا يرتقي الى مستوى الفكر والرمز ولا يلتقي بنا في خضم الحياة كالبشر .

هكذا تصبح « قصة حب مجوسية » مجرد تمرينات في اللغـــة ، وهلوسات في الذاكرة . ولولا ان صاحبها قد كتب من قبل « الاشجار واغتيال مرزوق » لما احتاجت منا عناء القراءة والكتابة ، وانما كان لا بد لنا من ان نحذر عبدالرحمن منيف من خطر البحث في الدفاتر القديمة، لان أملنا كبير انه لم يفلس بعد وان روايته الاولى لم تكن بيضة الديك .

١٩٧٤/٦/٢٤

الناقد دليل [illegible] .. للصاحب العمل [illegible] والقارئ .

[illegible]

قفزة في الهواء

ربما كان سارتر هو الذي أطلق على الموجة الجديدة في الرواية الاوروبية تعبير «الرواية المضادة» أو «اللارواية» ، وذلك في المقدمة التي كتبها لاحدى روايات ناتالي ساروت . وكان سارتر يعني بالدقة ان هناك نموذجا جديدا كل الجدة في سماء الرواية الفرنسية على وجه الخصوص لا علاقة له بآيات «التجديد التقليدي» الذي عرفه هذا الفن بعد الحرب العالمية الثانية ، مشيرا بذلك الى روايته «يوميات روكنتان» أو الغثيان كما سميت في الترجمة العربية ـ وكذلك الى رواية «الغريب» لالبير كامي .

كانت الرواية الوجودية آنذاك ثمرة شرعية للانهيـــار الاوروبي وتجسيدا مريرا للشعور بالعبث ، ورغم وفرة العناصر الغنية الجديدة التي طرأت عليها مع هذا المضمون ، الا انها ظلت تراوح في مكانها ضمن الاطر التقليدية للبناء الروائي كاصرارها على الشخصية المتطورة والحدث المتكامل والزمان المحدد . لقد أصبحت الشخصيات أكثر تعقيدا والاحداث أكثر غموضا والازمة أكثر تركيبا ولكنها بقيت الاعمدة الرئيسية للعمل الروائي.

غير انه ما ان بدأت جراح الحرب في الالتئام حتى أقبلت الثورة التكنولوجية الجديدة تغير ملامح العالم والعصر ، تغير معدلات الصناعة والتجارة واشكال الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والقوى السياسية والقيم والافكار . وكان من الطبيعي ان تظهر بثور مجتمع الاستهلاك داخله وخارجه كارتفاع الاسعار الجنوني والزيادة الاسطورية لنسب البطالة

والحروب الخارجية وفي مقدمتها الحرب الفيتنامية . وعبرت الثور عن نفسها في مختلف أشكال الغضب ، في حركات البيتنكس والهيبيين ، في اضرابات العمال وانتفاضات الطلاب .

اما الروائي الغربي الملتحف بالسماء البرجوازية والمفترش ارضها فلم ير سوى نفسه وحيدا معزولا غريبا عن العالم . هكذا لم يتخل ميشيل بوتور وألان روب جرييه وناتالي ساروت عن الشعور الحاد بالعبث واللاجدوى في الرواية الوجودية ومسرح اللامعقول ولكنهم استخدموا أدوات فنية جديدة في السرد والحوار تخلصوا فيها من الشخصية والحدث والزمان ، فأجهزوا على آخر معاقل الفكر الجمالي في الرواية التقليدية لقد أصبحوا الاحفاد الاكثر وفاء لجيمس جويس ومارسيل بروست وكافكا .

اضطرني الياس الديري في روايته «تبقى وحيداً وتندم» الى هذه المقدمة الطويلة نوعا ، لاقول انه ينتسب الى هذه الموجة البعيدة عن شواطئنا أكثر من انتسابه الى أحد التيارات الجديدة التي يضطرم بها بحرنا .. اي انه من أجل التجديد في ذاته ، قفز من فوق واقعنا الادبي قفزة عالية استقرت به في أرض غيرنا ، بحيث انه لم تعد هناك همزة وصل تربط بينه وبين «التجديد» في الرواية العربية .

.. فقد عرفت الرواية العربية على أيدي غسان كنفاني والطيب صالح ويوسف حبشي الاشقر وصنع الله ابراهيم وعبد الحكيم قاسم وحليم بركات وعبدالرحمن منيف وغيرهم مرحلة جديدة من التطور ، أسهم نجيب محفوظ في بداياتها ثم تجاوزته الى آفاق أكثر عمقا ولا تحد . تجديد هؤلاء يخترق قلب الواقع وهو ينشد التقدم خطوة أو خطوات ، لذلك فهو يرتبط بأكثر التقاليد ايجابية في تاريخنا الادبي ، وهو يقيم همزات وصل عديدة بينه وبين القارىء .

وقد كان الياس الديري في اعماله السابقة ــ خصوصا «الطريق الى مورينا» و «الخطأ» ــ من أصحاب هذه المحاولات الجادة والجديدة .

ولكنه في « تبقى وحيدا وتندم» ينتمي الى مـا يمكن تسميته بالرواية المضادة أو اللارواية مما أوقع بعض الزملاء في سوء الفهم حتى انهم نفوا عنها صفة العمل الروائي تماما .

وليس هذا صحيحا ، لان «تبقى وحيدا وتندم» رواية تتخلص من الشخصية والحدث والزمن ، وتعتمد على دعامتين أساسيتين هما التداعي والايقاع . وليس مقصودا بالتداعي ذلك المونولوج الداخلي النابع من أعماق الشخصية والذي يتخطى اسوار الزمن بالفلاش باك المتقطع ... وانما هو التداعي الذاتي النابع من صوت المؤلف وقد اتخذ اسماء كالاشارات الى هذا الجيل او ذاك . ليست هناك «شخصية» على صعيد الرمز المجرد او الواقع الحي ، كما انه ليست هناك «أقنعة» ، وانما هناك «أسماء» تتواتر هنا وهناك و «حوادث» تذكر هنا وهناك من قبيل التدفق الانفعالي لصوت الكاتب الذي يتداعى تداعيا حرا مطلقـا ، لا تداعيا « خاصا » بهذه الشخصية دون تلك. ولان صوت الروائي يظل دائما خارج صفحات الرواية، فان ما قد نحسبه أصواتا داخلها ليست أكثر من اصداء بعيدة للصوت الاصلي .

ترتب على غياب الشخصية والحدث والزمن (رغم اسماء زيان واينانا وحوادث القتل) ان اصبح التداعي القادم من الصوت الخارجي مصدرا لوحدة الايقاع ورتابته ، سواء على صعيد اللغة الشعرية القريبة من لغة التوراة ، او من تسلسل الدفقات الانفعالية الحارة تسلسلا بطيئا لا يرتفع ولا ينخفض بحيث وقع بها في برودة «الاثر» النهائي . لم يكن الايقاع نبضة قلب يختلف عن بقية القلوب ، ولم يكن خفقة حدث مغاير لبقية الاحداث ، ولم يكن بصمة الزمن بين الازمان .. وانما كان الدفقة الشعورية للصوت الواحد القادم من الخارج ، صوت الكاتب . اي انه كان الصدى غير المتوتر والذبذبة غير المتوترة . هكذا بدت الرواية للبعض وكأنها قصيدة طويلة طويلة .

وليس هذا صحيحا . ان «تبقى وحيدا وتندم» عمل روائي كامل ، ولكن صاحبه شيده وفق آخر الانباء الادبية القادمة من الغرب ، لم يأت تجديدا لبنية الرواية العربية القائمة ، ولم يكن مساهمة ضمن الموجة الجديدة في أدبنا الحديث . هكذا جاء قفزة من شاطىء الى آخر لا «سباحة» في بحر واقعنا — الادبي وغير الادبي — المضطرم بالانواء والتيارات .

أين الخطأ ؟

يكمن في ان الكاتب لم يتلمس جذور التجديد الغربي فثمة اسس موضوعية يغلي بها باطن المجتمع الاوروبي وترتوي بها تقاليد الرواية الاوروبية جعلت «من الممكن» للروائي ان يقوم بالضربة القاضية للرواية الغربية الراسخة . هذه الاسس لم تتوفر بعد للرواية العربية ، بالرغم من اصالة تأثرها بالادب الاوروبي . لقد نشأت روايتنا في حضن الرواية الفرنسية والانجليزية والروسية ، ولكنها لم تمض جنبا الى جنب في تطورها ، مع تطور الرواية الاوروبية .

وحين تطورت روايتنا من توفيق الحكيم الى نجيب محفوظ الى ابناء الجيل الجديد الذين ذكرتهم ، كانت تنبض الى جانب تفاعلها مع الرواية الغربية بتراب ارضنا وهموم انساننا . هكذا ، وعلى الرغم من «التجديد» الذي أحدثه الشباب لم تنفصل الرواية العربية عن قارئها وواقعها ونقادها. في « تبقى وحيدا وتندم » حدث هذا الانفصال .

والنتيجة ؟

ان تناقضا جذريا نشأ بين الشكل في رواية الياس الديري و «المناخ العام» الذي تخللها وتسللها واحاطها . فالريف اللبناني والمدينة وطرائق السلوك والجمعية او الحزب والزعيم الى بقية العناصر التي كونت «الجو العام» لا علاقة لها بالشكل الشعري التوراتي المرسل والخالي من الشخصية الفنية والحدث والزمان. هذا هو التناقض بين الشكل والموضوع

ولا أقول بين الشكل والمضمون . لماذا ؟

لان مضمون « تبقى وحيدا وتندم » هو في الحقيقة مزيج من الفوضوية والعدمية ، الاولى بالمعنى السياسي والاخرى بالمعنى الفلسفي الوجودي . هذا المضمون يتسق تماما مع الشكل الذي بناه وفق معادلات الغربة والوحدة والانعزال . اي ان هناك التقاء بين الشكل والمضمون يمزقهما «شرخ» هائل بين الاسلوب الروائي والمناخ كما قلت . لذلك اهتزت البنية الروائية اهتزازات عميقة من الاساس .

ان رواية الياس الديري رواية وحيدة سواء بالنسبة لتطور الرواية العربية او تطور الكاتب ، انها ليست نقطة في السياق وانما هي قفزة في الهواء ، سوف يتعلم منها البعض جرأة الكاتب وشجاعته في استخدام اللغة وتوظيفها .

بل ان الياس الديري نفسه سوف يكون قادرا في المستقبل على عطاء أكثر عمقا في الارض ، وان ارتفعت ثمارها الى اعالي السماء .

١٩٧٤/٧/١

أيام الجواهري ولياليه

الاختلاف مع الجواهري كالاتفاق معه ، ليس مهما ، يبقى الرجل بعد كل شيء ظاهرة قومية بالغة الجاذبية والرسوخ في الضمير العربي العام .

من الطبيعي أن ترى الاجيال الجديدة في شعره نموذجا قديما لا يتنفس بأحلام عصرنا ، ومن الطبيعي كذلك ان يلتف حوله الاباء والاجداد يلتهمون شعره التهاما ويحكون امجاده للصغار كأنه اسطورة .

ماذا سيقول التاريخ بعد ان تبرد ثورة الشباب ، وبعد ان يتوارى الاباء والاجداد ؟

سيقول الكثير! فالجواهري شخصية غنية الجوانب والزوايا كثيرة الاخطاء والانتصارات متعددة الخطوط والدوائر والانحناءات .

ولكن «التاريخ» ، هذا الذي يصره البعض الها لا يخطىء ، أو قاضيا ذا ضمير فحسب ، ليس كذلك .. انه مجموعة من البشر والعصور والبيئات المختلفة ، سوف يجمعون المادة الخام : ما كتب الجواهري وما كتب عنه ، ثم يحاولون غربلة ذلك كله ، لا بأنابيب الاختبار في معمل الكيمياء ، وانما بالروح التي تكشف موقع كل منهم ، الاجتماعي والثقافي والنفسي والحضاري .

أي انه لن يكون هناك تاريخ مطلق ولا قول فصل ولا حكم غير قابل للنقض .. فالتاريخ سياق اجتماعي/تحركه عوامل نسبية فضلا عن القوانين الموضوعية /. وما قد يعتبره شباب اليوم من عيوب الجواهري قد

يراه أحفادنا من مزاياه، وما قد نعده نحن من محاسنه ربما يراه غيرنا من مساوئه ، وهكذا .. والامر ليس مقصورا على «صراع الاجيال» ورؤاها بالمعنى الزمني المجرد ، وانما بالمعنى الاجتماعي الذي قد تحتفل به احدى الطبقات وقد تحاصره في زوايا النسيان طبقة اخرى وهكذا ..

أي ان حكم التاريخ في الجواهري يظل نسبيا ، او هو على اقل تقدير ليس في أيدينا، انه ــ معنا نحن القراء ــ يشارك في صنعه، ولكن المستقبل هو الاكثر جدارة بحمل المسؤولية .

واذن ..

فليبق الجواهري قيد الدرس والنقد والتحليل دون ان يكون ذلك بديلا عن شيء هام : هو الجواهري نفسه ، ماذا يقول ، وكيف يرى نفسه؟.

من هنا كانت الاهمية البالغة للكتاب الذي أصدره الاستاذ فاروق البقيلي تحت عنوان «ذكريات أيامي» يحكي فيه الجواهري على السجية ايامه ولياليه ، خصوصا لياليه ! وأهمية الكتاب في تقديري انه ليس مجرد «سيرة حياة» بالاسلوب التقليدي الجامد الذي يكتبه الادباء عن أنفسهم أو يكتبه عنهم غيرهم . وانما هو ديالوج اقرب الى الدردشة الطويلة التي قد يسهو فيها المتحدث عن أشياء وقد يتذكر اشياء ، لا يدري أحد ايهما أكثر «فائدة» ما نسيه ام مــا تذكره .. فاللاوعي في هذه الاحوال سيد الحكاية .

كتاب فاروق البقيلي ليس حديثا صحفيا عابرا ، وانما هو اشبه ما يكون بتلك الحواريات التي تحتل الآن مكانا بارزا في المكتبة الغربية . المحاورة قد تكون «مواجهة نقدية» بين ناقد وفنان ، لكسر شوكة النقد الاكاديمي الجاف . وقد تكون المحاورة «رحلة حياة» بطريقة الفلاش باك السينمائية ، يرافق فيها الكاتب احدى الشخصيات من الداخل .

وقد اختار البقيلي الطريقة الثانية في رحلته مع الجواهري ، فالكتاب ليس مواجهة نقدية تستلزم من صاحبها ان يجري مع الشخصية حوارا علميا

حول أدبه وقيمه وجمالياته ، وانما هو رحلة في حياة الجواهري الشخصية والشعرية : رحلة تبدو كما لو ان قبطانها هو صاحب الكتاب، ولكن الحقيقة هي ان قبطانها صاحب السيرة .. هكذا كان الجواهري هو البحار العنيد في جوف الظلمات ، وبقي فاروق البقيلي بوصلة عنيدة في التفرقة بين الاتجاه والمتاهة .

.. والحصاد ؟

انها ليست « سيرة حياة » كتبها الشاعر على هواه ، او اخرجها الكاتب كما يراها . انها شيء «بين بين» أقرب الى أدب الاعترافات .. ولكنها من الاعترافات التي تحتمل الصدق والكذب ، كالخلط بين احلام المنام واحلام اليقظة سواء بسواء . حتى «الذكريات» ليست شريطا حساسا مسجلا ــ خافيا عن صــاحب الصوت ــ وانما هي أقرب الى الحقــائق والاوهــام والامنيات التي أخفقت .

ومن هنا بالضبط ، أهمية كتاب البقيلي فهو وثيقة نفسية ــ لا تاريخية ــ لطموحات الجواهري وهزائمه التي تبدو كالانتصارات والالوان المختلفة للواقع الواحــد والنجاحــات التي تمت والتي لم تتم .. حتى «نرجسية» الجواهري في المفردات والاخيلة والتعبيرات والصور وزوايا الرؤية تحمل في ثناياها «وجهــا» من شأنه أن يبــدل في معايير الصدق والكذب والاخلاق .

يبقى الصدق صدقا والكذب كذبا ، ولكن اسلوب الصدق قد يشي بالكذب كما ان اسلوب الكذب قد يشي بالصدق . والحلم قد يكون أكثر حقيقية من الواقع ، كما ان الواقع قد يكون أكثر التواء من الحلم .

هكذا ينبغي أن نستقبل ذكريات الجواهري التيكتبها فاروق البقيلي. انها ليست سيرة حياة تقبل الشك او التصديق ، وليست مواجهة نقدية تقبل الاتفاق او الاختلاف ، وانما هي وثيقة نفسية نادرة تلقي اضواء كاشفة

على احدى الشخصيات البارزة في تاريخنا الادبي الحديث : شخصية لم يكن الشعر في حياتها أهم الاشياء ، كما قد يتصور البعض ، ولا كان الشعب ، ولا كانت الثورة .

انما كانت «حياة» الجواهري نفسها ولا زالت ، أغلى الكنوز التي اقتناها و «عاشها» في هذه الدنيا .

١٩٧٤/٩/٩

الى اتحاد الكتاب السوفيات مع التحيـــات

حتى لا يضيع الرمز في غمرة الاحتفالات بالعيد الاربعين لاتحاد الكتاب السوفيات ، أود أن أنبه الى القيمة العظمى التي توجزها هذه السنوات.. فالحفل الكبير الذيستوزع فيه الفودكا والشمبانيا والويسكي، ليس أكثر من ديكور .. لا ينبغي بأية حال ــ وأيا كانت اناقة الحضور وجاذبيتهم وغرقهم في كرم الضيافة الروسية ــ ان ينسينا جميعا جلال الرمز الذي يجسد نضال الادب السوفياتي لفتح صفحة جديدة فيتاريخ الوجدان الانساني .

فكما ان الاتحاد السوفياتي يمثل التجربة الاشتراكية الاولى في التاريخ ، تجربة البداية الحقيقية لفك الارتبـــاط مع الاغتراب البشري والاستلاب الروحي للحضارة .. فان الادب والفن السوفياتي في جوهره هو السجل الحافل بنبضات المخاض العسير والكفاح المر والاخطاء الفادحة والانتصارات العظيمة والمزالق الخطرة التي واجهتها الشعوب السوفياتية بصبر الانبياء وبطولة الشهداء لفتح صفحة جديدة في كتاب التاريخ .

ولعلنا لا نضيف جديدا حين نقول ان التجربة الرائدة عانت الاهوال وهي تشق طريقها في بحر الظلمات .. كذلك الثقافة والفكر والادب السوفياتي عانى ما لا يطاق في عرف البشر ، وهو يخط بالصواب والخطأ، بالسلب والايجاب ، سطرا جديدا غاية الجدة في حياتنا العقلية والشعورية على السواء .

والمقارنة الظالمة التي يقيمها النقاد الغربيون بين الآداب الروسية الكلاسيكية والآداب السوفياتية المعاصرة ، مقـارنة مشبوهة لا تعرف الموضوعية والعلم .. لان التجربة الادبية الجديدة للكتاب السوفيات لا زالت في ربيع العمر ، وتحتاج الى سنوات طويلة ينضج فيها الجمال والفكر وتستوي في نيرانها الشوامخ ، رغم ان الادب السوفياتي لم يخل من «الكبار» في أي وقت من الاوقات .

كذلك ، فان التركيز على مواضع السلب ــ وهي كثيرة ــ في مسيرة الادباء السوفيات ، وخصوصا في المرحلة الستالينية ، هو تشويه لجوهر التجربة الوليدة .. حيث ان علاقة الاديب بالدولة او المجتمع تتخذ لنفسها صياغة مغايرة الى اقصى الحدود عن العلاقة القائمة في مجتمعات الاستغلال الطبقي . واذا كانت هناك تجاوزات في الماضي او في الحاضر من جانب السلطة او الادباء ، فانها مجرد هوامش على الصفحة الرئيسية حيث أصبح الفنان لاول مرة كيانا بشريا لا سلعة في الاسواق ، وحيث أصبح الفن من القيم الاساسية للتكوين الاجتماعي لا زخرفا او ترفا او من الكماليات .

اننا نحن كتّاب العالم المتخلف ، وخاصة في الوطن العربي ، نحيي الذكرى الاربعين لمولد اتحاد الكتّاب السوفيات ، لا برفع الكؤوس ومراقصة الجميلات ، وانما باستلهام الرمز العميق لهذه الذكرى والالتفاف حول الجوهر الذي قد يختفي عن جو الكرنفالات .

اننـا ، مثلا ، نحيي الكتاب السوفيات الذين ناضلوا الى جانب شعوبهم ــ لا من فوق المقاعد القيادية ــ حتى الموت ، فأمدوا أدبهم بأنفاس الحياة الحقيقية التي بقيت سارية في الاجيال تمنحهم مصل الصمود وتغذيهم بالامل في غد أفضل .

اننا ، مثلا ، نحيي الكتّاب السوفيات الذين عاشوا في ظل الارهاب الستاليني بكافة أشكاله وصوره ورواسبه وامتداداته فلم يكفوا عن الايمان بشعبهم وأقلامهم والمستقبل .. وظلت أعمالهم شموعا مضيئة في عصور

الظـلام .

اننا ، مثلا ، نحيي الكتّاب السوفيات أغنياء البصيرة القادرين على رؤية الحركة في قلب السكون ، والبقعة القاتمة وسط اللوحة البيضاء والنور الضئيل في غمرة السواد الشامل .. اولئك الذين لم يضحكوا على شعوبهم فلم يجعلوا من أدبهم أبواقا ولا من فنهم لافتات ، لم يضعوا الورود حول أعناق تستحق القطف .

ونحيي ، أيضا ، اتحاد الكتّاب السوفيات الذي أرسى التقاليد العظيمة في حماية الكاتب والفنان من الكذب على النفس او على الآخرين.. حتى حين كانت تتعرض هذه التقاليد لاسوأ الاحتمالات ، لم تنطفىء الشعلة ، بل ظلت «ضميرا» باقيا يهجس بالحقيقة مهما اختفت في التيار الجاري تطفو فوقه دائما الاعشاب السامة .

ونحيي ، أيضا وأيضا ، اتحاد الكتّاب السوفيات الذي لم يجعل امتيازات الدولة «عطايا» أو «منحا» بل حقوقا للكاتب والثقافة ..

ولاننا نحمل هذه المعاني في قلوبنا لاتحاد الكتاب السوفيات في عيدهم ، فاننا مثلهم لا نحب أن نكذب .. نتعلم منهم الصدق ونمارسه معهم ونقول لهم : ايها الرفاق الاعزاء ، لا تنسوا — من بهجة القمر وحلاوة العيد — ان بين ضيوفكم هذا العام شخصية مصرية «كبيرة» في السن والمنصب معا : انه الاستاذ يوسف السباعي وزير الثقافة المصرية .. قولوا له — أيها الرفاق — ان مجلة يسارية في مصر اسمها «الكاتب» تصدرها وزارة الثقافة المصرية قد توقفت عن الصدور .. لماذا ؟ قولوا له ان هناك بعض الكتاب اليساريين المصريين كابراهيم فتحي وخليل كلفت وأديب ديمتري لا زالوا وراء الاسوار .. لماذا ؟.

.. ولا تسألوه عن روايتـه «جفت الدموع» — ولو من قبيـل الاستفسار البريء — لانها تهاجم الشيوعية والشيوعيين ! لا تسألوه ، فكرم الضيافة الذي نجيده نحن أيضا ، سوف يمنعكم من ذلك ، وسوف

يحرج رفاقا لكم يرون الرجل على غير حقيقته . لا تسألوه ، ولكن لا تنسوا لحظة واحدة انكم تحتفلون بأقدس الرموز واغنى المعاني .. فعيدكم هو عيدنا ، هو عيد النضال من اجل الاشتراكية هو عيد جوركي الانسان ــ والمؤسس ــ العظيم .

١٩٧٤/٩/٩

الشاعر يموت واقفاً

في الذكرى الاولى لمأساة التجربة التشيلية تلتف القلوب حول المناضل الديموقراطي العظيم الليندي ..

وهذا أمر طبيعي .. فقد بلور الرجل في حياته وموته نموذجا نادرا للبطولة في عصرنا تكاد تشبه من بعيد بطولة الفرسان القدامى حين كانوا يغمدون السيف في صدورهم قبل أن يأسرهم العدو فور وقوع الهزيمة .

والدروس السياسية من التجربة التشيلية كثيرة : في مقدمتها ان الليبرالية البرجوازية تتناقض مع التحول الاشتراكي ، وانه لا بد من اكتشاف صيغة جديدة للتحالف الوطني يتجه بهذا التحول الى آفـاقه الاجتماعية المنشودة بدلا من الجمود المثالي عـلى الصياغة البرجوازية التقليدية .

وفي مقدمتها أيضا ان الشعب الاعزل من السلاح ، لا يستطيع الدفاع عن ثورته أمام جحافل القوات المسلحة ، رغم التفـافه السياسي شبه الاجماعي حول القيادة الشرعية . وفي اللحظة عينها لا خيار امام الثورة من اجراء جراحة عاجلة لمراكز الثورة المضادة في الجيش .. أي لا بد من تطهير صفوفه جذريا من البؤر العميلة للقوى الاجنبية والجيوب الوثيقة الارتباط بالشرائح العليا من الطبقات المعادية .

وهناك دروس اخرى كثيرة ، من المؤكد انها سوف تشغل بال الباحثين

لامد طويل حول التكوين الاقتصادي والهيكل الاجتماعي والعلاقات الدولية ..

ولكن أثمن الدروس قدمه شاعر !

انه بابلو نيرودا ، حتى لا ننسى في غمرة الانفعال الدامي بالمأساة السياسية ..

لم تكن القضية أبدا ، ان الشاعر كان صديقا للزعيم ، أو ان الشاعر كان مناضلا ــ طول الوقت ــ من اجل الحرية .. وانما كانت القضية ولا تزال في رد الفعل العنيف لدى السلطة الفاشية الجديدة من الشاعر .

ماذا صنعوا ؟

أرسلوا اليه ، هو العجوز المريض ، عصابة من ثلة الارهاب راحت تضربه حتى نزف .. ضربوه حتى مات ! ثم امتدت أظافرهم تنهش مكتبه وفراش نومه بحثا عما يكتبه ، واشعلوا النيران في كل الاوراق ثم اطلت عليهم من الجدران ألوف الوحوش الصغيرة استفزت شجاعتهم ، اطلت عليهم أسماء أرسطو وافلاطون وهيجل وماركس وهوميروس وشكسبير وتولستوي ودوستويفسكي، أطلت عليهمأغلفة الكتب ساخرة من السياط، فأشعلوا الثقاب واحرقوها !

لم يكن نيرودا في ذلك الوقت ، يكتب منشورا ثوريا ضد الجنرال! كان يكتب قصة حياته فقط . ربما كان أيضا يكتب قصيدة حب ! ولم يكن فلاسفة اليونان ولا مفكري العصر الاوروبي الوسيط ولا ادباء المانيا او فرنسا ، قد اجتمعوا في منزل نيرودا بهدف التآمر على حكم العسكر .

لماذا ، اذن ، كل هذه الضراوة والوحشية ؟ ألأن قتل نيرودا لا يكفي، بل لا بد من اغتيال الذين خلقوه أيضا ؟

ولكنهم ينسون ، ان نيرودا بموته ازداد حياة ، وان فقدان التراث الانساني لمخطوطة قصة حياته لا يمحو سطور هذه القصة في كل بيت من أشعاره ..

وينسون ان ارسطو وماركس وشكسبير لم يحترقوا مع أغلفة مؤلفاتهم .

وينسون أكثر ان الذي خلق نيرودا هو تشيلي نفسها .. الام القادرة على الانجاب ابدا .

وعلينا نحن أكثر من غيرنا ان نتذكر اثمن الدروس واقدمها على مر التاريخ : وهو ان الفاشية ، دائما ، العدو الاول للثقافة ! ان اغتيال نيرودا هو الرمز المدوي لهذا المعنى . هم انفسهم كانوا يدركون انهم يقاومون الرمز .

ـ "الموقف من الثقافة" ، معيار لا يخطىء .. أيا كانت الاشكال والالوان التي تتمكيج بها السلطة في مواجهة الفكر . قل لي موقف اي سلطة من الثقافة ، اقل لك ماذا تكون وحين تسألني كيف مات نيرودا ، اجيب انـه مات واقفا .

نعم ، لا ينبغي ان ننسى انه حقا مات ، ولكنه مات واقفا .

١٩٧٤/٩/٢٣

١٩٨٥/١٢/١٦

بابلو نيرودا .. تعلمت الرمز من الشاعر .

الفاشية هي العدو الاول للثقافة .

انه حقا مات ، ولكنه مات واقفا .

/ تمثال الناقد المجهول

من الطبيعي في بلادنا ان يكون لكل موسم ازمة .. أزمة الغلاء ، أزمة المواصلات ، أزمة الزواج ، الى بقية القائمة ، ولكن أزمة «النقد الادبي» تنفرد من بينها جميعا بأنها أصبحت أزمة الموسم وكل موسم ..

طبعا ، لم يفكر أحد في أزمة الشعر أو أزمة الرواية أو أزمة الفلسفة أو أزمة علم الاجتماع .. فالنقد هو «الحائط المائل» كما يقال ، والنقاد في ما يبدو هم مجموعة من الارامل والايتام وابناء السبيل ..

والا فما معنى هذه الضجة المزيفة حول ما يسمى بأزمة النقد ، وكأن النقد هو طريقنا الوحيد الى تحرير فلسطين والنقاد هم الذين يرفعون رايات الحل السلمي ؟

من يقرأ غالبية ما كتب عن الازمة الملعونة يشعر كما لو ان هناك مؤامرة خفية يحيكها النقاد في الظلام : اضراب صامت من النقد الجاد ، وتصدير النقد المبتذل الى صدارة الاعلام اليومي والاسبوعي ! هذا هو المخطط الجهنمي الذي يرى البعض ان تنفيذه جار على قدم وساق .

ولا بد ان قراء النقد يقرأون هذا الكلام وعيونهم خارج محاجرها من فرط الذهول ! وقراء النقد في بلادنا ليسوا هم الادباء والفنانين ، فهؤلاء آخر من يعرفون النقد ويقرأون .

أدباؤنا في غالبيتهم يقرأون اسماءهم وصورهم ، يلتقطونها التقاطا من زوايا الأخبار الفنية وأبواب النجوم .. فاذا كان الخبر مناسبا هللوا وكبروا للناقد «الموهوب» في زمن ندرت فيه العبقريات وكادت تنعدم .

اما اذا لم يكن الخبر على ما يرام ، فهكذا الدنيا والله يرحم أيام زمان حين كان النقد نقدا ، اما الآن فقد تولى الهلافيت زمامها . الخبر قد يكون طويلا أو قصيرا ، قد يكون بالحرف الابيض أو الاسود ، قد يكون مرفقا بصورة، وقد لا يكون . تكرر الاسم مرة أو مرتين أو ثلاث ، جاء في المقدمة أو في المؤخرة او في الوسط ، كانت الصورة قديمة او حديثة والبوز ملائما أو مثيرا او مقرفا .. تلك هي المواصفات والمواضعات والتشريعات التي يضعها الادباء بأنفسهم باستجابتهم لها ونفورهم منها ، بالتشجيع والاعراض . أي في جميع الاحوال ، بالاهتمام . والاهتمام البالغ . وهكذا تترسخ ، بوعي منهم أو بغير وعي ، مجموعة من «التقاليد» هم أصحابها أولا وأخيرا .

.. وفجأة يصرخون : أين النقد، ويندبون : النقد في أزمة، وينوحون: وماذا بعد ؟

بينما كان النقد امامهم فلم يروه ، كان ولا زال اقرب من حبل الوريد.

كيف ؟

حين ينسى الاديب العربي ان الناقد هو مدير علاقاته العامة ، وحين ينسى ان الناقد هو مدير مكتبه للدعاية ، وحين ينسى ان الناقد هو مدير فرع الاعلانات بالمجلة او الصحيفة .. حين ينسى اديبنا هذه «الوظائف» التي خلقها أو اختلقها للنقاد ، فانه سيكتشف النقد قريبا منه غاية القرب .

.. فالنقد ليس هو بالتأكيد زاوية «أخبار النجوم» في المجلات الاسبوعية والصحف اليومية ، حتى حين تتحول هذه الزاوية الى أعمدة تعرض الكتب وتستعرض الاحداث والقضايا الادبية ، فانها لا تتنازل عن الصبغة الصحفية «الاستهلاكية» في مجتمعات الاستهلاك و «الحكومية» في مجتمعات التأميم ..

أما النقد فهو أبعد ما يكون عن الصالونات الصحفية ، فضلا عن الكابريهات وخيام السيرك المنصوبة علنا هنا وهناك .

- النقد هو «الكتاب» ، وهو «الدراسة» ، هو البحث المضني الذي

لا يقل مستوى ولا مشقة ولا معاناة عن الخلق الفني ..

هل هذا النقد موجود بيننا ، كمثيله في الغرب ؟ أجيب ، بكل امانة المسؤولية : نعم ! هناك مشكلات لا حصر لها ابتداء من التخلف الحضاري المرعب الذي نعيشه في أدق خلايانا تتنفسه مع الشهيق والزفير ، الى انعدام التقاليد الديموقراطية في اسلوب الحكم العربي ، القهر الذي نحياه ــ ونموته ــ تحت مسامنا في ظل القيم الاجتماعية البالية المهيمنة داخلنا وخارجنا .

هذا كله ، وغيره كثير ، يؤثر سلبا على انتاجنا الثقافي عموما والنقد على وجه الخصوص . رغم ذلك ، أكرر ان النقد الحقيقي موجود بيننا في عشرات الدراسات التي يقرؤها الناس شهريا في مجلات : الآداب وقضايا عربية ودراسات عربية والثقافة العربية ومواقف والاقلام والمعرفة والموقف الادبي والطليعة والطريق والكاتب وغيرها من المنابر الرصينة ، بطول الوطن العربي وعرضه . والنقد الحقيقي موجود ، في عشرات الكتب التي تصدر سنويا في مصر وبيروت وبغداد ودمشق عن دور النشر الخاصة والعامة والجامعات .

ولكن ادباءنا ، في غالبيتهم ، لا يقرأون .. حتى اذا سمع احدهم بمقال عن الشعر راح يبحث عن اسمه بين السطور ، أو هو يقص المقال ويحتفظ به اذا كان المقال عنه ، بكامله ..

والا فتعالوا بنا نتحاسب : كم كتابا صدر حتى الآن عن حركة الشعر العربي الحديث ، عن القضية والافراد معا ، كم مقالا تناول الظاهرة حتى الآن؟ عن السياب ونزار قباني والبياتي ومحمود درويش صدرت كتب كاملة، عن الآخرين تؤلف مجموعة المقالات التي كتبت مجلدات كاملة .

رغم ذلك ، فالنقد ــ يقولون ــ في أزمة ! لانهم أصلا لا يفرقون بين الناقد والبقال .. فهم ليسوا شغوفين بالنقد الذي يدرس ويمحص كأنه في معمل كيمياء ، انه يدعو للملل ولا تظفر منه بكلمة مدح أو سباب . وهم

- في الاغلب ، عديمو الثقة بأنفسهم وباتتاجهم .. فاذا صدر الديوان اليوم ، فهم يريدون الكتابة عنه غدا أو بعد غد أو الاسبوع القادم على الاكثر . ذلك ان تصورهم لوظيفة النقد ، حين يكون راقيا جدا ، هو انه نبات طفيلي متسلق على العمل الفني .

هذا أيضا ، أيها السادة ، ليس نقدا .. الناقد ـ الناقد ، يخطط لعمله النقدي ، كتخطيط الشاعر لقصيدته والروائي لقصته والمسرحي لمسرحيته.. ربما يختار «أديبا» أو بضعة أعمال لهذا الاديب أو عمل واحد . ربما يختار «عصرا» يمتزج فيه الشعر بالقصة بالمسرح ، أو «اتجاها» محددا في هذا الفن أو ذاك ، أو يتناول «قضية» يستشهد لدعمها بهذه القصيدة او ذلك الروائي أو تلك المسرحية ..

هكذا قد يصدر اليوم ديوان هام لشاعر جيد ، ولا يعني به ناقد ما، وقد يصبح هذا الديوان موضوعه بعد عشر سنوات . قد تصدر اليوم رواية فائقة الاهمية لا يتناولها الناقد بالتعليق ، وقد يكتب عنها فيما بعد كتابا كاملا ، وقد يدرجها في تصديه لاحدى القضايا . وربما احتاجت الى هذا التصدي فورا ودون ابطاء .

المهم ان نجيب محفوظ ـ اقرأوا الاسم جيدا ـ لم يصدر عنه كتاب حتى عام ١٩٦٤ ثم صدرت عنه أربعة كتب كاملة خلال السنوات العشر الاخيرة ، بخلاف مئات المقالات المتفرقة والدراسات الجامعية . توفيق الحكيم الذي لم يكن قد كتب سوى «عودة الروح» و «أهل الكهف» و «يوميات نائب» من حيث الاهمية بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٤ صدر عنه كتاب مشترك عام ١٩٣٨ لاسماعيل ادهم وابراهيم ناجي ، وظلت تصدر عنه الكتب والدراسات الى اليوم .

- هكذا الناقد ـ لا مؤرخ الادب ـ يحتاج عمله أولا ، كالفن ، الى قضية ، وتصبح المادة الادبية المطروحة للبحث مجرد حاشية او نسيجا فكريا او موضوعيا .

هذا هو النقد الخلاق ، الذي لا يقرأه ادباؤنا رغم حاجتهم اليه ، فهم يفضلون السندوتشات الخفيفة على تناول الوجبات الدسمة الثقيلة الظل .

ليكن .. فالدراسات البيلوجرافية تفضحهم ، وتقول احداها ان عدد الدراسات النقدية المطبوعة في كتب خلال عام ١٩٧٣ فقط بلغت ١١٢ كتابا عربيا عن الادب الحديث كانت محاورها حول شعر السياب والبياتي وقباني وأدونيس ودرويش وحجازي وعبد الصبور وبسيسو والشرقاوي وحاوي والملائكة والفيتوري ودنقل ومطر وغيرهم وحول مسرح الحكيم والفريد فرج وسعد وهبة ورشاد رشدي وميخائيل رومان ومحمد الماغوط ويوسف ادريس ونعمان عاشور ولطفي الخولي وعصام محفوظ وغيرهم ، وحول روايات نجيب محفوظ واحسان عبدالقدوس والسباعي وغائب طعمة وحنا مينه وسهيل ادريس وتوفيق يوسف عواد وليلى بعلبكي وكوليت خوري وصوفي عبدالله واميلي نصرالله وعبدالحليم عبدالله والطيب صالح وغسان كنفاني وحليم بركات وغيرهم ، وقصص غادة السمان ويوسف ادريس وحيدر حيدر وزكريا تامر وفؤاد التكرلي ونجيب محفوظ وادوار الخراط ويوسف الشاروني وغيرهم وغيرهم . كذلك بلغ عدد المقالات التي وردت فيها هذه الاسماء ١١١٢ مقالا .

من قرأ منكم ــ أيها السادة ــ هذه الدراسات التي تمحورت حول أدبكم ، لا عن الجاحظ أو شكسبير ولا عن ابن المقفع أو موليير ، لا عن ابي العلاء أو رامبو ؟ ربما سمعتم بها ، بعضها ، ولكن من منكم قرأ ما تيسر ؟

قلة نادرة هي التي تقرأ النقد ــ النقد ، من ادبائنا ، ولكن قراء النقد يزدادون مع الايام عددا . وهذا بحد ذاته عزاء لاولئك الذين يفنون اعمارهم في الظل ، في صوامع الفكر الحقيقية ، لا يفكرون بالتمثال الذي بحث عنه مارون عبود في كافة أرجاء الدنيا فلم يجده : تمثال الناقد المجهول !

١٩٧٤

شهادة الشعر في زمن الموت

من المصادفات ما يرتفع في حياتنا وموتنا الى مستوى الرمز ، هكذا يقال عن الازواج والعشاق الذين يموت أحدهم ، فلا يمضي اسبوع مثلا حتى يلحق به الطرف الآخر . انها عند الناس البسطاء علامة الحب الكبير الذي لا يسمح بالفراق .

– وسوف يتخذ الشعراء في المستقبل مأساة شيلي ، من هذه الزاوية، فلم يكد يموت الليندي حتى لحق به صديقه الحميم بابلو نيرودا . وهي زاوية شعرية لامعة تضيف بعدا روحيا محلقا على الوجه السياسي لتراجيديا النضال في أميركا اللاتينية .

ان حياة الليندي وموته أشبه ما تكون بالقصيدة الدامية ، ولعل هذه القصيـــدة هي التي قاربت بين حلم الطبيب الــذي أراد أن يمزج بــين الاشتراكية العلمية والديموقراطية الليبرالية ، وحلم الشاعر الثوري بالمدينة الفاضـــلة .

وموت نيرودا في وقت واحد مع الليندي يضرب المثل من جديد على أن مصير المقاتلين دائما واحد ، أيا كان الموقع الذي مات فيه الليندي هو القصر الجمهوري والموقع الذي مات فيه نيرودا هو المستشفى .

ولقد عاش نيرودا ومات كغيره من الشعراء الثوار، كلوركا وكريستوفر كودويل ، وأيضا كمولود فرعون وغسان كنفاني في ساحة الدفاع عن حرية الانسان . والقاسم المشترك الاعظم بين هؤلاء الشهداء جميعا هو

ـ اتخاذهم «الماركسية» مرشدا للعمل . انها ليست مصادفة بأية حال ، ويجب تأملها بوعي شديد ، فاننا لم نسمع بعد في عصرنا الحديث عن الفنان الذي يقاتل حتى الموت ــ من أجل الحرية ــ بعيدا عن الماركسية .

ـ وأجهزة الثقافة الغربية التي تحتفل بهؤلاء الشهداء العظام ، تنطلق في احتفالاتها من كونهم «عباقرة» لا أكثر ولا أقل .. واذا تصدت لشيوعيتهم أو اشتراكيتهم أو ماركسيتهم فمن باب العتب عليهم والاعتذار للقارىء بأنهم «فنانون أولا» . واجهزة الثقافة الاشتراكية تحتفل بهم كمناضلين سياسيين فحسب ، أي انها تتخذ جانب النقيض ورد الفعل . والحقيقة التي يتعين ابرازها والتأمل فيهـا طويلا هي ان الفكر والفن والسياسة جديلة واحدة في حياة هؤلاء الشهداء وموتهم .

لقد حمل نيرودا السلاح جنبا الى جنب مع رفيقه لوركا في الحرب الاهلية الاسبانية ، ثم عرف النفي والتشرد ، وعمل بالسلك السياسي مرارا. ومع هذا كله (أو بسبب هذا كله ؟) كان شاعرا عظيما بالمقاييس التكنيكية الاكاديمية الصارمة . ومنذ عامين فقط نال جائزة نوبل في الاداب .

فماذا يعني ذلك ؟

يعني ان «الفكر والسلوك» في حياته وموته كانا وحدة واحدة لا تتجزأ ويعني أيضا ان انتسابه للحزب الشيوعي الشيلي لم يكن ترفا .. وانما كانت معاناته في الابداع الفني انعكاسا أمينا لنضاله السياسي . لم تكن «الحياة» ولم يكن «الوجود» في ذهنه ومخيلته ووجدانه اجزاء متناثرة ، يمكن «التخصص» في جزء منها دون الآخر.. وانما كان «شمول الحياة» و «كلية الوجود» هو سر الاسرار في ان عطاءه السياسي لم ينفصل لحظة عن عطائه الفني . وان «الشعر» هو خلاصة التعرف الحميم على الارض والانسان ، وان دفاعه عن شيلي او اسبانيا او فيتنام هو دفاع عن الشــعر .

ولقد مات الليندي دفاعا عن «قصيدة» عمره ..

وكذلك بابلو نيرودا ..

كلاهما قاتل حتى الموت دفاعا عن الشعر ، أي عن حرية الانسان .. وليست مصادفة ـــ مرة اخرى ـــ ان تكون الماركسية هي الراية التي قاتلا في ظلها حتى الشهادة .

١٩٧٤

..تجارب تصوف ومحاولات "توحد" بين مفاهيم الوجود وغاياته .
ولذا كانت مصائر هؤلاء الثوار والابطال وايضا الصوفيين .. واحدة .. (لليل الوجود) .

١٩٨٥/١٢/١٦ .

رسائل واعترافات

١ ـ رسالة الى سولجنتسين :

أنت الآن في بون !

ليكن ..

وغدا في باريس ولندن ونيويورك

ليكن !

فلن تستطيع أن تغير جلدك .. لسانك .. أحلام الطفولة وعذابات الصبا وشقاء الكهولة ، لوعة الهوى القديم وألفة العشق وفرحة الدنيا .

لن تستطيع ..

ولن تستطيع أن تنفي ذاكرتك خارج التاريخ ، وان تنسى لياليك مع دوستويفسكي وتولستوي وتشيكوف وجوجول .

.. ولن تنسى صورة «الفلاح الروسي الطيب» الذي يتأوه من الجوع أكثر من البرد ، ولا صورة «المثقف الحزين الممزق» بين الواقع والحلم !

ولن تنكر !

ان صفحة جديدة في كتاب الانسانية قد فتحتها ثورة بلادك العظيمة، صفحة حاولت ولا تزال ان تغير ملامح «الروسي الطيب» و «المثقف الحزين» .

أقول حاولت ولا تزال !

ولانها صفحة جديدة تماما في كتاب التاريخ البشري ، فالاخطاء كثيرة ومرهقة ومريرة .. ولكنها اخطاء الطريق الصحيح ..

وليس من حقنا نحن الكتّاب تبرير الخطايا ، وليست في حوزتنا صكوك الغفران .. ولكننا مطالبون بألا نفقد الهدف بالوسائل !

ولقد قرأتك طويلا وعميقا ..

وشعرت بأزمتك حتى النخـاع ، ولم أحس قط انك ضد الصفحة الجديدة التي افتتحها وطنك العظيم في كتاب التاريخ الانساني .

شعرت انك تقف اجلالا لهذه الصفحة المجيدة .. ولكن «لغتك» هي التي حجبت عن الآخرين جميعا ، أين يقع موقفك .

قصدت بلغتك «رؤياك» لاخطاء الطريق الصحيح ..

ليست هي اللغة التي تعلمها الآخرون في بيوت آبائهم وامهاتهم ومدارس اساتذتهم وبرامجهم ودنياهم المطمئنة الخاملة الضعيفة البصر .

كلا ، لم تكن لغتك هي لغتهم ، لذلك كان «سوء الفهم» فلماذا انزعجت ؟

هدف واحد يربطك بشعبك ، ولغتان تفصلان بينكما !

واكتشف العدو ــ عدوك وعدو وطنك ــ موقع الثغرة ، فنفذ منها.. تكلم بلغتك كأنه أنت ، وضرب هدفك وشعبك وتاريخك ووطنك والصفحة التاريخية التي افتتحها رفاقك وآباؤك بالدم .. بالدم !

نفذ عدوك من الثغرة ، وأقبلت اللحظة الحربائية في حياتنا حـين تختلط علينا الالوان ونفقد البصر .. صدقت أنهم ــ هناك في الغرب ــ يتكلمون لغتك ، وانك فقدت الاتصال بشعبك ، فانزلقت على المنحدر ، الى صفوف اعدائك وأنت تدري .

تدري أكثر مني انك لن تكون المانيا في بون
ولا فرنسيا في باريس
ولا انجليزيا في لندن

ولا أمريكيا في نيويورك
فمثلك لا يستطيع ..
ولن يستطيع أن يغير جلده ولسانه واحلامه وعذاباته ..
لن يفقد ذاكرته ، لن ينفيها خارج التاريخ !
وستعود يوما ..

حين تكتشف ان خلايا اللحم والدم والعظم في الجسد والروح قد اختارت منذ البدء المضي في «الطريق الصحيح» رغم الاخطاء .. فهذا قدرك وتلك رؤياك ، أما «الطريق الخاطىء» رغم بريق المغريات ، فهو ليس طريقك ولا طريق شعبك ولا طريق الانسانية ..
انه طريق ضد التاريخ !
وستعود يوما ..

حين تلتئم الفجوة بين لغتك ولغة شعبك .
وحين تكتشف ان «العدو» لا يتكلم لغتك .
وحين تطل من نافذة الطائرة العائدة بك الى موسكو ، فترى ــ داخلك ــ الخطأ في قلب الصواب ، وترى انك غلبت ــ ذات لحظة جنونية ــ الوسائل على الهدف !

٢ ــ واخرى الى اتحاد الكتاب السوفيات :

أيها الرفاق ..
لست أظنكم ستنامون الليلة سعداء وقد أقلعت الطائرة المتجهة الى بون تحمل زميلكم في القلم ــ على الاقل ــ سولجنتسين .
لست أظنكم ، لاني موقن بأن كلا منكم سيضع رأسه على الوسادة هذه الليلة سيفكر ويتوجع ، ففي الحنايا العميقة الغائرة في النفس ، هناك صوت داخلي بعيد لا يسمعه أحد ، يدعى «الضمير» ، سوف يتساءل :
ماذا صنعتم من أجل انقاذ الرفيق سولجنتسين ؟

ماذا كتبت عنه تقاريركم ، قبل ان يرسل بمخطوطاته الى الخارج ؟
ماذا قال عنه نقادكم في الصحافة والاذاعة والتلفزيون ؟
ماذا قال عنه مندوبو الحزب منكم لدى السلطة السياسية ؟
كيف قرأتم ما يكتب عنه في الغرب ، بأية عيون ؟
كيف فسرتم حصوله على جائزة نوبل ؟
هل اكتفيتم برفع الاصابع اجماعا على ذبحه ؟
من منكم شعر بالحسد دون ان يواجه نفسه وغيره بهذا الشعور ، فرفع الاصبع ؟
ومن منكم خشي على « منصبه » فلم يغامر بقول الحقيقة التي أبصرها جلية واضحة فيما قرأ لزميله من مئات الصفحات ؟
كم منكم تردد قليلا قبل أن يرفع الاصبع ، وحين رأى كثرة الاصابع المرفوعة ، مات التردد بالسكتة ؟
من منكم حاول أن يقف الى جانب سولجنتسين في المحنة ، لا ضد السلطة ، وانما ضد سولجنتسين نفسه .. يساعده ويأخذ بيده ويقيمه من كبوته على قدميه ، بالحب لا بالسوط ؟
من منكم رأى نفسه في سولجنتسين ، ولكنه كان جبانا ؟
من منكم غذى الضعف في أوصال رفيقه المتعب ، وساعده على السقوط ؟
لن تناموا الليلة ، اذا كان الصوت الداخلي العميق الغور لم يخفت بعد ، انه لا زال يتساءل :
ألسنا نحن حملة الاقلام أكثر ارهابا لبعضنا البعض، من حملة السوط؟
ألسنا نحن السوط ؟
انني لا أطلب من الفريق بريجنيف أن يقرأ كتاب الناقد الماركسي العظيم «جورج لوكاتش» عن سولجنتسين حتى يوقن انه امام كاتب يناضل عن الاشتراكية ، يناضل سلبيات البيروقراطية التي تهددها ..

من قرأ منكم هذا الكتاب وطلب من السلطة ان تضع هذا الرأي
ـ لاحد كبار فلاسفة الماركسية في القرن العشرين ـ في اعتبارها ؟
من منكم لم يكتشف «الخبث المجرم» في كتابات الغربيين حول أدب سولجنتسين ، فصدقهم ولم يصدق نفسه ؟
هل نصدقهم ، أم نصدق أنفسنا ورفيقنا وواقعنا ؟
.. ولن تناموا الليلة !
سوف تقفز أشباح ماياكوفسكي وياسنين وباسترناك لتحيل أحلامكم الى كوابيس ؟
ولن تغفر لكم الاجيال القادمة التي ستعيد «الاعتبار» الى سولجنتسين، لان اعادة الاعتبار بعد الموت ـ أيا كان شكل الاعدام ـ يضع المقصلة في أعناق القتلة .
ولن تغسلوا أيديكم بالماء ، كبيلاطس النبطي ، لانكم لستم أبرياء « من دم هذا البار » .
فسولجنتسين ليس بريئا
ولا أنتم
ولا أنا ...

اعترافات ثلاث غرف نوم

« الغرفة الاولى »

□ ماما .. أين ذهب أبي سولجنتسين ؟
ـ الى حيث لا تريد
□ الى حيث تريدين ؟
ـ لا
□ الى حيث يريد هو ؟

ـ لا

□ الى حيث يريد من ؟

ـ الشيطان !

□ من ؟

ـ الشيطان !

□ من ؟

ـ الشيطان !

« الغرفة الثانية »

□ أهلا بك يا سولجنتسين في بيتك

ـ في بيتي ؟ آه .. أشكرك يا هنريش بول

□ قل لي يا صديقي بصراحة كاملة : ماذا يجمع بيننا ؟

ـ جائزة نوبل !

□ أتسخر ؟

ـ أبدا .. صدقني .. ماذا يجمع بيننا حقا ؟

□ أقول لك: الناشرون والموزعونورجال الشرطة السريونوالعلنيون والقوادون الصرحاء والمستورون والسماسرة الوجهاءوالمشردون و

ـ منذ متى يجمع بيننا كلهؤلاء.. هذه«الاصناف» لا تعرفها بلادي!

□ منذ اللحظة التي هبطت فيها من الطائرة !

« الغرفة الثالثة »

وبالتالي فالشغل بلا مكافأة .

□ ها قد جاء سولجنتسين بنفسه يا زوجي العزيز ، استعد لنشر روايته القادمة !

ـ أنت واهمة يا عزيزتي ، فالممنوع مرغوب .. ليتنا نستطيع بيع النسخ الباقية من كتابه الاخير .

□ كيف كان ذلك ؟

ـ كان الاقبال على سولجنتسين حين كان هناك ، اما الآن فليشتروا سولجنتسين نفسه ، أما كتبه فقد راحت علينا .

□ وعليه صدقني .. دعني أنام

ـ ودعيني افكر في سولجنتسين جديد

□ لن يجيء .. لانه لن ينسى مصير القديم !

لا . . يا صلاح عبد الصبور

أصبح الاستاذ صلاح عبد الصبور – وكيل وزارة الثقافة المصرية – رئيسا لتحرير مجلة «الكاتب» التي استقالت هيئة تحريرها وعلى رأسها أحمد عباس صالح ومحمد انيس ولطفي واكد وكمال رفعت .

واذا كان أكثر التعريفات للمثقف ايجازا هو انه انسان صاحب موقف باعتبار ان «الوعي» مسؤولية والتزام اكثر منه ترفا زخرفيا ، فان صلاح عبد الصبور بقبوله رئاسة تحرير «الكاتب» قد اتخذ موقفا مناوئا لحركة التقدم في مصر ، بل هو اتخذ في الواقع موقفا ضد الثقافة ! ذلك انه لا مجال للتجريد في الحياة الثقافية الراهنة ، ولا للحياد ، ولا حتى للمساومة. ان صلاح عبدالصبور على رأس الكاتب ليس حلا وسطا ، وانما هو اختيار حاسم الى جانب الفئات الرجعية المنهارة التي لم تجد الشجاعة في ان تضع صالح جودت مثلا او انيس منصور او ابراهيم الورداني او مصطفى محمود محل أحمد عباس صالح ورفاقه . ام انها كانت ذكية – هذه المرة – فأرادت للمثقفين الوطنيين أن يضربوا بعضهم بعضا ؟

ليكن ! فوزارة يوسف السباعي لا تعنينا ولكن المشكلة حقا هي صلاح عبدالصبور : كيف يقبل ان يكون «حلا» في أيدي اليمين ؟

ليس المطلوب مطلقا تضامنا «مهنيا» بين زملاء القلم ، لان الصراع الفكري الراهن في الثقافة المصرية هو أكثر التجسيدات وضوحا وضراوة للصراع الاجتماعي والسياسي . ويخوض المثقفون الوطنيون واليساريون

في مصر الآن نضالا بطوليا في غيبة المنابر غير الصحفية . لذلك قلت ان المسألة ليست «تجريدا» ولا تقبل «المساومة» فالمجلة أو الصحيفة في مصر تقوم مقام المنبر السياسي الغائب . والكفاح الديمقراطي الرائع الذي تقوده صحف مثل «الجمهورية» و «روز اليوسف» وتستكمل مدفعيته الثقيلة مجلتا «الطليعة» و «الكاتب» هو الشكل النضالي الفاعل . لذلك كان غياب «الكاتب» بالصورة التي عرفت بها خلال السنوات العشر الماضية هو انقلاب من جانب الثورة الثقافية المضادة على أحد معاقل التقدم والديموقراطية .

وحين يتنازل صلاح عبدالصبور عن صفة «الشاعر» ليبقى على صفة «الموظف» ويقبل تعليمات وزير الثقافة ، فانه لا ينفذ أمرا حكوميا — امام الناس — وانما هو يختار موقفا فكريا وسياسيا ضد الناس .

وربما كانت مشكلة صلاح عبدالصبور قد بدأت منذ ترك العمل في الصحافة واتجه الى وزارة الثقافة للعمل «مديرا عاما» . ولقد كانت اسباب تركه «الاهرام» وجيهة تماما ، فمن يقبل ان يكون مجرد «حلية» في عنق الصحيفة الكبرى بالطابق الخامس أو السادس من البرج الشاهق ؟

لا أحد ..

ولكن «البديل» عند شاعرنا لم يكن الشعر ..!

لعله كان يتصور ان وزارة الثقافة التي نادته مديرا عاما سوف تدوم. لم يدم ثروت عكاشة ولا سليمان حزين ولا بدر الدين ابو غازي ولا عبدالقادر حاتم .. ودخل صلاح عبدالصبور دوامة الترقي والتنزيل معا . شعريا ، بالطبع ، دخل مرحلة المساومات بالتراجع والتخلي .

ولان صلاح شاعر حقيقي فقد تناوبته ازمات نفسية عميقة . حينا يمنعونه من السفر وحينا آخر يمنعون صوته من الراديو والتلفزيون. حتى حين تعاقد مع احدى الجامعات بافريقيا ليعلم حرموه من تنفيذ الاتفاق . لم يكن للسلطة المصرية موقف نهائي منه ، لانه هو في الاصل كان ولا يزال

مترددا . يكتب مسرحية كاملة ضد النظام الناصري ، ثم يكتب قصيدة نائحة بالالم عند غياب عبدالناصر . وهكذا من النقيض الى النقيض في طرفة عين .

– وربما كانت جرثومة التردد قديمة في دماء صلاح عبدالصبور . ولكن مشكلته – بل أقول مأساته – ان زمن التردد انقضى ولم يعد في حوزة أحد القدرة على الوقوف في الوسط !

وحتى ..

عندما يرتفع صلاح عبدالصبور من مقعد وكيل الوزارة الى الكرسي الاول ، فان الدنيا لا تتوقف ..

وسوف يمضي الوزير يوسف السباعي يوما ..

ومن بعده صلاح عبدالصبور أو غيره من «كبار» الموظفين ..

ويبقى الشعر ...

تمضي وزارة الثقافة كلها ..

وتبقى الثقافة ..

ولن تكون هناك فرصة – يا صلاح – لاحد ان يكتب من جديد «عودة الوعي» .

لان «الوعي» لم يكن غائبا .. انه حاضر – مثلا – عند اولئك الذين اختاروا «الاستقالة» بدلا من الانحناء ، واولئك الذين فضلوا شعرك ذات يوم على نثرك بقية الايام !

١٩٧٤/١٠/٢١

– كنت صغيرا (١٨ عاما) وحزنت حزنا عميقا على رحيل الرجل ، على رغم عدم ترددي [illegible] .

لم تعد هناك قدرة لأحد أن يقف في الوسط ؟!!

بدأ العد التنازلي في الثقافة المصرية

صدر عدد اكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٧١ من مجلة «الكاتب» المصرية ، بغير الصفحة الاولى التي يكتب عليها في العادة اسم المجلة وهويتها واسم رئيس التحرير والهيئة المتعاونة معه . ومن الواضح ان المواد المنشورة في هذا العدد ليست اكثر من بقايا المطبعة مضافا اليها بعض المواد المأخوذة من مجلة «لوتس» التي يشرف عليها السيد يوسف السباعي بصفته الامين العام لرابطة كتّاب آسيا وأفريقيا .

ليس هذا كله مهما .. ففي العدد القادم ان شاء الله ـ سوف يتلألأ اسم صلاح عبدالصبور على الصفحة الاولى رئيسا للتحرير وسوف يحتل عبدالعزيز صادق وادوار الخراط مكان هيئة التحرير ، وسوف تزيد المواد اضعافا مضاعفة .. ولا تعود هناك مشكلة على الاطلاق !

لا تعود هناك مشكلة ؟ نعم ، من حيث استمرار المجلة في الصدور والتوزيع والبيع ، من حيث الطبع والنشر ، سوف «تستمر» الكاتب كشقيقاتها «الجديد» و «الثقافة» و «المسرح والسينما» .. ويقال ان هناك مجلة جديدة تسمى «الحرية» أيضا !

ولكن المشكلة ، حقا ، هي ان هذا النوع من الاستمرار لا يعني شيئا لقارىء «الكاتب» . واذا كان بعض الناس لا يفهمون ان لكل مجلة قراءها، فهم يقعون في خطأ فادح اذا تصوروا ان قارىء الكاتب الذي تابعها لعشر سنوات خلت ، سوف يظل هو هو لا يتغير ، وكأن شيئا ما لم يتغير ! قارىء

عباس صالح ومحمد انيس وطارق البشري وصلاح عيسى وعبد العزيز الاهواني ، ليس هو بالقطع قارىء صالح جودت وابراهيم الورداني وعبدالعزيز الدسوقي وعبدالعزيز صادق . لذلك فالتغيير الذي أصاب الكاتب ، سوف يوازيه تغيير في نوع القارىء .

وتلك ، مرة أخرى ، هي مشكلة «سلطة الانقلاب» على الكاتب . انها حين غيرت عشرة كتاب فقد غيرت في اللحظة عينها عشرة آلاف قارىء ! ولن يبقى أمامها سوى مزاحمة اخواتها الاخريات «الجديد» و «الثقافة» و «الحرية» ، لان الاقلام التي تحرر هذه هي بعينها التي ستحرر تلك ! وتصبح القضية هي نصيب الكاتب من قراء زميلاتها العزيزات : كم قارئا ستأخذ من هنا او هناك ؟

ويبدأ العد التنازلي في الثقافة المصرية . فمن يقرأ الملف الشامل الذي نشرته «الآداب» اللبنانية في عددها الاخير ، سوف يشعر بما يشبه اليقين ان مسألة «الكاتب» ليست أكثر من رمز لما يجري في بقية جبهات الثقافة المصرية . لا لان السباعي يقف على رأس المؤسسات الثقافية كالمسرح والسينما والنشر ، رغم ان وجوده يدعم الاتجاه المتدهور في ثقافتنا ، بل لان الوضع الثقافي بأكمله في حالة تنسيق كامل مع بعضه البعض مجسدا — بسرعة مخيفة — البناء الفوقي لهيمنة التخلف الاقتصادي والاجتماعي على كثير من مواقع السلطة .

ولكن هذا البناء الفوقي الظاهر للعيان في أجهزة الاعلام المختلفة ومؤسسات الثقافة بأنواعها والنتاج الفني المطروح للبيع والتذوق في كل مكان .. ليس هو التجسيد الحقيقي لما تفرزه وجدانات مصر وعقولها وما تفيض به احلامها وتهجس به كوابيسها ..

انه ، بالعكس ، مجرد تفصيلة صغيرة اتيحت لها امكانيات التضخم والمبالغة والضجيج والسيطرة على أجهزة الارسال . وهي ، اذا كانت تسجل هبوطا شنيعا في الخط البياني لتطور الثقافة المصرية ، فانها ليست أكثر من

« وثيقة رسمية » لا تدل على الواقع الاشمل للفكر والادب والفن المصري .

أقول ذلك حتى لا نخطىء في التقييم . ان اغلاق «الكاتب» وتهديد «الطليعة» ونفي الاعمال الجادة والعميقة عن خشبات المسرح وشاشات السينما والتلفزيون ، لا تعني بأية حال ان مصر تشهد افلاسا روحيا بعيد المدى .. وانما تعني فحسب ان العد التنازلي قد بدأ ! فالانحطاط الذي يصل بنا الى هاوية القاع يوازيه بصورة خلاقة الميلاد الجديد لثقافة جديدة ..

لا تظهر ارهاصاتها في أدب الشباب وحدهم (وكم من الشباب يكتبون أدبا سلفيا متخلفا في منابر وزارة الثقافة الحالية) وانما تظهر هذه الارهاصات في الرفض النقدي الشامل لما يحدث بأقلام داخل الحدود ، كما تظهر هذه الارهاصات في الايجابية النشيطة الفاعلة التي تمثلها أقلام خارج الحدود: في بيروت وبغداد والكويت والجزائر وباريس ولندن وموسكو وكاليفورنيا ! ان ملف «الآداب» وثيقة حافلة بالرفض من الداخل ، أي انها تعكس روحا أخرى ترفرف بجناحيها على ضفاف وادي النيل غير الروح التي يظهرونها وكأنها الخلاص الوحيد لمصر في أعمال رشاد رشدي وعلي أمين واحسان عبد القدوس ، فاذا تجاوزنا «الرفض من الداخل» الى «العمل في الخارج» أيقنا ان الداخل والخارج مقولة جغرافية يتشبث بها اليمين المصري لعزل مصر عربيا .. فالانتاج الثقافي الذي يكتبه — ويمارسه — المفكرون المصريون المناضلون في كل بقعة عربية ، هو بمثابة « جبهة أمامية » للذود عن شرف الثقافة العربية في مصر وهو امتداد طبيعي للصراع الداخلي . بل ان محمود العالم في انجلترا ولويس عوض في اميركا وأحمد عبدالمعطي حجازي في فرنسا ، لا يقلون فعالية وانتاجا عن غيرهم . ومن الجزائر حيث يوجد ألفريد فرج حتى الكويت حيث يوجد علي الراعي ، تنبض مصر العربية فكرا وفنا يشكل مع «الرفض الداخلي» ارهاصات الثورة الثقافية القادمة غدا .

ان العد التنازلي قد بدأ ، ولا يخيفنا احتلال «الكاتب» من جانب القوى المنحطة في الثقافة المصرية، ولا يخيفنا كذلك تدهور الفيلم والمسرحية والبرنامج الاذاعي والتلفزيوني . فالوصول السريع الى قاع التخلف «الرسمي» هو ايذان ببداية النهاية لعصر قد يذكره التاريخ في سطر واحد يقول «وكان عهد الخصيان» . ويستأنف التاريخ مسيرته الظافرة دون أن يذكر اسما واحدا من هؤلاء الذين يملأون الدنيا ضجيجا .

١٩٧٤/١٠/٢٨

أدب السجون العربية

ليس مهما ان رواية الدكتور شريف حتاته «العين ذات الجفن المعدنية» وجزءها الثاني «جناحان للريح» أبعد قليلا او كثيرا عن الفن الروائي . انها احدى الوسائل ـ الراقية ـ للهروب من الاوراق الخاصة .

وقد كانت المفارقة ـ ولا تزال ـ ان المثقفين العرب في غالبيتهم ، والتقدميون منهم خصوصا ، عاشوا ازهى سنوات عمرهم في السجون والمعتقلات ولكنهم لم يسجلوا هذه المرحلة سواء في أدب الادباء منهم أو في مذكرات السياسيين بينهم .

وأجدني للاسف أقارن مرة اخرى بيننا وبين العالم من حولنا .. فأدب السجون كأدب الحرب كأدب المقاومة من الموضوعات الكبيرة في الادب الانساني . سواء كان ذكريات مباشرة كاليوميات او كان رسائل الى الزوجة أو الصديق أو الحبيبة من وراء القضبان او كان عملا فنيا ، شعرا وقصة ومسرحا .

ولكننا كما نخاف «الفضائح» في أوراقنا الخاصة ونخشى اطلاع الغير على نقاط ضعفنا او حتى قوتنا ، فاننا نخاف السجون وما يمكن ان تجره ذكراها من متاعب . لذلك اختفت من ثقافتنا رائحة القضبان والجلادين والزنازين ، وما تدل عليه وما ترسمه من صورة حقيقية لوطننا وتقاليدنا غير الديموقراطية . حتى عندما أراد الدكتور شريف حتاته ان يسجل ذكرياته عن السجن مضى بنا بعيدا الى العهد الملكي في مصر .

ليكن ، فقد كان عهد اسماعيل صدقي وابراهيم عبدالهادي ، عهد اليد الحديدية والعسكري الاسود . ولكن هذا العهد المدان ــ وهو يستحق التسجيل حقا ــ قد توارى ، وأصبح الضرب في الميت حرام . ان الهجوم على الأقطاع والملك والاستعمار بعد وقوع الثورة مهم ، ولكن الاكثر أهمية هو تشريح الوضع الجديد ومواجهة سلبياته بشجاعة ، ومحاربة الجيوب القديمة والجديدة . هكذا تصبح «السجون المعاصرة» أكثر أهمية من سجون الماضي خاصة وان سجون التجربة الثورية الجديدة كانت ولا تزال حافلة بشتى المتناقضات واغنى الدلالات . انها السجون التي جمعت الباشا والشيوعي والاخ المسلم والوفدي ومن سار في جنازة مصطفى النحاس ، جمعت أيضا بين الطلاب والعمال بين المتهمين والمحامين بين الشاعر والمغني والمستمع، جمعت كذلك بين الناصري وعدو الناصرية بين الحكومة والحزب والشعب والجواسيس وراء أسوار واحدة .

انها أغرب مراحل «السجن» العربي ، فيها مورست أبشع ألوان التعذيب والشذوذ والغواية والموت . وبين دهاليزها الداخلية وكواليسها الخارجية أخرجت مسرحيات دامية منها الكوميديات الهازلة والمآسي الفاجعة ، وصيغت ملاحم البطولة والنذالة ، صهرت معادن النبلاء والحقراء.

وقصة السجون العربية في حياة المثقفين ليست خطوطا مستقيمة أو مثلثة او دائرية . انها قصة انسانية وسياسية عامرة بالمفارقات واللامعقول والاحلام والكوابيس فالبطل داخل السجن قد يصبح نذلا خارجه والضعيف قد يصبح انسانا شريفا ، ومن تيسرت له الحال داخل السجن من خارجه (النقود ، الزوجة ، الحبيبة ، الاطفال ، الزملاء) قد يرتكب الجرائم، ومن تعسرت حاله قد يصبح نبيا ، السجن أحيانا يستخرج بمبضع غير مرئي أحط قاذورات السجين ويستكشف احيانا اخرى انبل ما فيه . اين الحقيقة؟

من هذا السؤال يبدأ الفن العظيم ، فالذين يرسمون «ما حدث» من الخارج وبالعين المجردة ، من الافضل ان يكتبوا مذكراتهم الشخصية

ويتركون الفن . والذين تستهويهم غواية النميمة على الورق فيفرزون أحقادهم في صورة «آراء» عليهم أن يغالبوا النفس الامارة بالسوء وان يتجهوا الى التأليف السياسي بدلا من الفن .

ان المحاولات القليلة النادرة التي أبرزت «السجين» في الادب العربي الحديث لا تفي — حتى — بمهمة التسجيل التاريخية لهذه المرحلة الغريبة والغامضة معا ، والهروب الى الماضي البعيد ممتع ولكنه ليس مهما .

فمن ذا الذي يستطيع ان يجمع بين روح المرحلة وجوهر التحدي ، لا يغفل الذات ولكن دون ان يهدر الموضوع ، ويزاوج بين التسجيل الوثائقي والفن الخلاق ؟ من ذا الذي لا يضيع بين التفاصيل الصغيرة ولا يفقد الاتجاه بمشاعر الثأر أو الانتقام ؟

من ؟

انه ليس واحدا او اثنين او ثلاثة .. انهم عشرات ، أولئك الذين يملكون الحب للحقيقة ولبلادهم ، ويملكون الموهبة في الصدق والكتابة، ولكن متى ..

متى يعلق أحدنا الجرس في رقبة القط ويكتب الفصل الاول ؟

١٩٧٤/١١/٤

اسماعيل المهدوي لا زال حياً ... صدقوني

في منتصف الخمسينات ظهر في الاسواق المصرية كتابان للمفكر والمناضل الفرنسي جورج بولتيزير هما «المبادىء الاساسية للفلسفة» و «المادية والمثالية في الفلسفة» . ولان الكتابين كانا «مجموعة دروس» يغلب عليها الطابع التعليمي ، فقد نالا انتشارا واسعا في صفوف الشباب المتوهج بارادة التغيير ، خاصة وان النضال ضد الاستعمار كان يشارف أبواب مرحلة حاسمة عند مدخل قناة السويس وفي اعتاب باندونج .

وقد أسهم الكتابان اسهاما مباشرا في تخريج أعداد غفيرة من المناضلين الاشتراكيين الجدد . ولعلها قلة هي التي التفتت الى اسم المترجم الذي نقل هذه الصفحات المبسطة عن المادية الجدلية والمادية التاريخية الى اللغة العربية. كان اسمه اسماعيل المهدوي : شاب متوقد بالحماس والمعرفة ، حصل على ليسانس الفلسفة عام ١٩٥٤ بدرجة امتياز (التي لم يحصل عليها أحد من الجامعات المصرية منذ ذلك التاريخ) وفاز بالجائزة الاولى في مسابقة اللغة العربية قبل ذلك بأربع سنوات على صعيد الجمهورية كلها حتى استطاع ان يحصل على مجانية التعليم في الجامعة .

ثم طالع الناس اسم اسماعيل المهدوي مرة أخرى في جريدة «المساء» التقدمية التي كانت منبرا ثوريا في ذلك الوقت . كان يكتب في النقد الادبي والثقافة عموما ، وتميزت كتاباته على الفور بلقطات الذكاء الحاد والحساسية البالغة الارهاف ، والعشق الصوفي للاشتراكية .

ولم يكف عن الترجمة . كان يدري ان «الجهل» هو اعدى اعداء التغيير الاجتماعي . نقل الى لغة سلسة مشرقة رائعة كازانزاكس « الاخوة الاعداء » ومسرحية ألبير كامو عن رائعة دوستويفسكي «المجانين» وكتاب ستيبانوفا عن «كارل ماركس» . وعمل قارئا لعدة سنوات بالدار المصرية للكتب التي كان يملكها لطفالله سليمان . وهي الدار التي أصدرت العديد من المؤلفات المصرية الهامة عن الثورة المصرية ومشكلاتها وكذلك المترجمات الاساسية في الفكر الاشتراكي العلمي . وربما كانت وظيفة «قارىء» لا يعرفها الناشرون العرب ، ولكنها من أهم أركان دور النشر في أوروبا ، فالقارىء هو المسؤول عن اختيار المادة التي تغامر الدار بطبعها وتوزيعها .

وكان اسماعيل المهدوي في ذلك كله مثالا حيا للمثقف الملتزم ونموذجا نادرا للمناضل الذي أعطى نفسه وكل ما لديه لقضية الثورة .

ومنذ بداية عام ١٩٥٩ كان المهدوي مطلوبا من اجهزة القمع الرجعية، ولكنه استطاع الافلات منها حوالي عامين لم يهدأ خلالهما او يتراجع بل نشط أكثر من اي وقت مضى ، وتمكن من تضليل الاجهــزة بمختلف الوسائل ، وعاش حياة مضنية هي صفحات مروعة من العذاب الانساني .

واخيرا امسكوا به .

رأيته لحظات في سجن القناطر اواخر عام ١٩٦٠ حين جاءوا به هو ورفاقه لايام معدودة ثم نقلوهم الى سجن آخر في جوف الصحراء . وبقي اسماعيل المهدوي ثلاث سنوات ونصف في السجون والمعتقلات ، مناضلا جسورا يرهب الارهاب ونفسا شجاعة تشحن بالثقة بقية النفوس .

وفي السجن ، كما في الخارج ، عاش «الصراع» بكل ذرات دمه ، بينه وبين السلطة وبينه وبين رفاقه ، وبينه وبين نفسه . وكانت الحصيلة الختامية لمتغيرات «الداخل» و «الخارج» ان اهتزت أعماقه اهتزازة كاوية. وبعد أن كان واحدا من المنادين باسقاط النظام خرج من وراء الاسوار عام

١٩٦٤ ليدافع عن النظام وينظر لاشتراكية السلطة ويبرر كل ما يجري . وكان قد أصبح محررا في جريدة «الجمهورية» ومجلة «الكاتب» .

ولكن اسماعيل المهدوي لم يكن مرتزقا ولا انتهازيا . انه على النقيض من هذه الصفات تماما ، بل لعله أحد الامثلة النادرة على التفاني في سبيل ما يعتقد والاخلاص لما يراه حقا . غير ان «الاهتزازة» التي شملت تكوينه: المرشح أصلا للتفرد والامتياز ، وقد ضاعفت من هولها المتغيرات السياسية المتلاحقة ، تجاذبت خلاياه الرمادية من اليسار الى اليمين بشدة وعنف . وكما انه كان شجاعا في مواجهة أعتى قراصنة النظام ، كان شجاعا في مواجهة أقرب الرفاق واصدق الاصدقاء .

ولانه ليس مرتزقا ولا انتهازيا فقد أزالت الهزيمة «الغشاوة» الفكرية عن عينيه . واذكره الآن جيدا حين وقف أمام جارودي ــ وكان مدعوا من أسرة الطليعة في الاهرام ــ يفند ادعاءات النظام حول الديموقراطية والاشتراكية ، وأراد الاستاذ كمال رفعت أن يهدىء من لهجته فاعترضه اسماعيل قائلا : لقد كنت تفتح لي صدرك في «الكاتب» حين كنت أردد أفكارا خاطئة ، فليتسع لي صدرك الآن وانا اقول افكارا صحيحة .

أزيلت الغشاوة عن عينيه ، ولكن «الاهتزازة» الداخلية لم تفارق خلاياه العقلية : هكذا وقع فريسة الكلام في زمن الصمت ، وضحية التفرد في زمن "الانسحاق الجماعي". وكان من الطبيعي لتكوينه الحساس المرهف ومزاجه الحاد الانفعالي ، أن يؤدي الى تورم الذات وتضخيم الشخصية وانفلات الموازين من قبضة العقل . واستفحلت عقدة «الاضطهاد» جنبا الى جنب مع «النرجسية» ــ التي لا يخلو منها أحد بدرجة أو بأخرى ــ وأحس اسماعيل المهدوي ان العالم كله ضده يدبر له المؤامرة تلو الاخرى . تحول الواقع في ناظريه الى كابوس سريالي تتشابك داخله وخارجه خيوط العنكبوت . واختلت في عينيه نسب المرئيات والحوادث والازمان والاماكن اختلالا فاجعا .

موضوعيا ، لم يقف أحد بجانبه . كان المجتمع والنظام والرفاق في واد وهو في واد آخر . موضوعيا أيضا ــ وبنفس المقدار ــ كان كل شيء الى جانبه ، فهو ينطق برؤاه الكابوسية عن الخلل الحقيقي في أرض الواقع. لم يكن يكذب . كان يهذي . ولكنه كان صارما .

ولكن من يصدقه ؟ ما دامت أسوار مستشفى الامراض العقلية قد حاصرته دائرة واحدة . لم يصدقه أحد ، ونزلت الفواجع واحدة بعد الاخرى تؤكد صدق نبوءاته ، دون جدوى .

ولم يكفر عن الذنب أحد . ما دام في «المستشفى» فقد انتهى أمره، ولنطلق حسرات الاسف لحظة أو لحظتين ، ولتحاول نقابة الصحفيين مرة أو مرتين ، ثم تنسى الامر كله .. وكأننا لسنا مسؤولين عن المأساة ! تتذكره حين يكتب برسائله من خلف الاسوار العالية الينـا ، ولكن التذكر الذي ينتهي بمصمصة الشفاه .

لم يعد هناك ضمير ..

لن أقول : ليس هناك دولة أو نقابة صحفيين أو اتحاد للكتّاب . وانما ليس هنــاك ضمير .. وكأن خسران مثقف كبـير ومناضل أصيل كاسماعيل المهدوي لا يهز شعرة في الرؤوس التي تثرثر كثيرا عن مآسي المثقفين خارج الحدود .. الرؤوس التي قرأت آلاف الصفحات عن الموت والجنون، عن المعتقلات والمصحات خارج الديار فلم تنم الليالي من كوابيس العــذاب ..

وحين يصدمها «الواقع» بمثل حي كاسماعيل المهدوي لا زال حيا في دنيانا ، فانها تعجز عن نقل أي شيء ..

وكأنها تريد للجريمة ان تستمر الى ما لا نهاية !

ليس من المهم أن نسأل الآن عن المتهم الاول ، فقد تحالفت في صنع المأساة أيد كثيرة . ولكن المهم ان يتأكد الجميع من هذا الخبر الصغير : ان اسماعيل المهدوي لا زال حيا .

فهل نستغرق في الانتشاء بالجريمة حتى يموت ؟ أم ان مواطنا من طراز نادر ــ كاسماعيل المهدوي ــ يستحق خاتمة مغايرة ؟

اننا لا نملك حتى الماء الذي يمكن ان نغسل فيه أيدينا من هذه الخطيئة المستمرة .

لذلك ، فانني لا أتوجه بهذه الكلمات الى نقابة الصحفيين أو جمعية الادباء أو وزارة الصحة في مصر ..

وانما أتوجه أولا الى اتحاد الصحفيين العرب ، وعلى رأسه زميلان لاسماعيل المهدوي هما أحمد بهاء الدين وكامل زهيري .

أتوجه أيضا الى هيئة اليونسكو .. والى اتحاد الصحفيين الدولي في براغ .. والى كل هيئة تستطيع ان تفعل شيئا ، لانقاذ «انسان» كان يوما ما صاحب قلم .

من يدري ؟

ربما حدثت المعجزة !

فلا ينبغي أن نريح ضمائرنا بأن المأساة قد وقعت وانتهى الامر .. ربمـــا ..

فاسماعيل المهدوي لا زال حيا .. صدقوني !!

١٩٧٤/١٢/٩

حقيقة أنا لا أعرف
اسماعيل المهداوي هذا
ولا أتابع [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
٤/٢/١٩٨٥

من نجح ومن سقط ؟
لا شيء لا أحد !

من المفيد ، بالطبع ، احياء التقاليد العربية القديمة ، بشرط ان يكون احياؤها احيــاء لنا لا تكفينا لحاضرنا بأثواب الماضي العريقة الفواحــة برائحة التاريخ . و «[illegible]» العربي القديم الذي بدأ بعثه في مربد العراق وملتقى لبنان ، هو احياء [illegible] من أشكال التراث ، واغتيال عظيم لروح العصر ومضمون الحياة ومعنى التطور !

كان عكاظ ابداعا عربيا أصيلا لشكل الاتصال بين الشعر والجمهور.. حين كان الالقاء والسماع هما همزة الوصل الوحيدة بين الشاعر والناس . وقد كان الالقاء والسماع ، ولا يزالان ، جوهرا لبنائية القصيدة وجمالياتها واهدافها أيضا فما ندعوه بالخطابية والتقريرية والمباشرة ، وما كان يدعوه اسلافنا بالمديح والرثاء والفخر والهجاء ، يوجز في خاتمة المطاف معنى الشعر عند القدماء وقد تجسد في بنية القصيدة ومحتواها واسلوب وصولها الى المتلقين . لذلك قام شعرنا القديم بمهام الصحافة والاذاعة في عصرنا ، وكان عكاظ ــ على سبيل المثال ــ هو المسرح . فالشاعر كان ، الى جانب من الشعر ، ناقلا لاخبار القبيلة او السلطان او العائلة كان صحفيا مواليا أو معارضا حرا ومأجورا مراسلا حربيا وعاطفيا ، خطيبا يستعدي وشاكيا يستجدي . وكان عكاظ برلمانا يتخذ سمت المباراة بين الشعراء ، ولكنه في واقع الامر كان ميدانا للحوار بالكلمة في مختلف شؤون المجتمع

القديم بين كافة الاطراف المتصارعة .

ومضى الزمن ..

تغيرت الدنيا فتبدلت ايقاعات الحياة وصورها ، غاياتها ووسائلها. ولم يفلت الشعر من قانون الحياة الوحيد الثابت ــ أعني التغير ــ فتطور معناه وتطورت وسائله وجماهيره ، ولم يكن فن الطباعة هو الذي أجهز على ساحة عكاظ ، فأصبح الكتاب ــ مثلا ــ هو وسيلة الاتصال الجديدة بين الشاعر والقارىء . ولم تكن الاذاعة أو الاسطوانة هي النقلة الجديدة في تاريخ وسائل المواصلات بين الشعر والجمهور .

بل لم تكن التعقيدات الحديثة في هيكل القصيدة المعاصرة هي التي نأت عن ذلك الشكل القديم ، فأصبحت ــ مثلا ــ تحتاج الى التأني في القراءة والتمهل في التأمل والضنى في الثقافة .

وانما الذي حدث ــ ببساطة بالغة ــ هو ان الحياة قد تغيرت فتغيرت وظيفة الشعر .. فقد أخذ الصحفي والمذيع والواعظ والخطيب والكاتب السياسي الروائي الشيء الكثير من اعباء شاعرنا القديم ، واختفت الى حد كبير أشكال السلطة والسلطان والقبيلة وحلت مكانها قيم واشكال جديدة للعلاقات الاجتماعية تنبع اساسا من طبيعة الانتاج المغايرة للماضي .

شيء واحد تبقى في علاقة الشعر بالحياة هو الحاجة الى الحوار ، هو حتمية الحوار .. وبالرغم من اكتشاف وسائل الاتصـال التكنولوجية الحديثة كالمسجلات الصوتية بأنواعها ، وبالرغم من اضفاء صفة اللعبة المسرحية على القاء الشعر دراميا فوق خشبة المسرح .. فقد كان «الكتاب» هو همزة الوصل الجديدة بين الشاعر والناس منذ أصبح الشعر مرتبطا أكثر فأكثر بدرجة الوعي ونوعية الثقافة .

غير ان اثقال الماضي العريق لا تموت بولادة الجديد . لا تموت في الشعر ولا في الحياة . لا تموت في الشاعر ولا في الجمهور هكذا يبقى

الشاعر القديم «موجودا» في حاضرنا ، لا حاضرا في وجودنا . وهكذا يبقى الجمهور القديم أيضا ، لان حياتنا القديمة نفسها لا زالت تطل علينا بكثير كثير من القيم والعادات والتقاليد او ما نسميه تراثا . قد لا نرى لفظة القبيلة أو السلطان ، بل تصبح الثورة والحزب والقائد هي الاسماء الجديدة .: ولكننا سوف نلمح المديح والرثاء والفخر والهجاء في تضاعيف القصيدة معنى ومبنى ، أي في ما نسميه بالخطابة والتقريرية والمباشرة وما يدعوه غيرنا بالوعظ والارشاد والنواح والاستعداء والاستجداء . وهنا ، بالضبط تبرز الحاجة الى عكاظ جديد يستوعب هـذا الشكل المتخلف ــ والطبيعي ــ من أشكال الحوار .

انه بالغ التخلف عن روح عصرنا حيث لم تعد جماهيرية الشعر تعني اجتماعا جماهيريا ، ولكنه طبيعي للغاية من حيث قدرته على استيعاب هذا النمط من انماط الشعر ولانه يعكس واقعا موضوعيا لا رغبة ذاتية . ولعل الفرق الفاجع بين القديم القديم والجديد ــ القديم ، ان الاول كان ابداعا عربيا اصيلا يناسب العصر ، اما الثاني فهو تكرار وتقليد ينسخ ولا يبدع.. فالمربد العراقي والملتقى اللبناني مظهران بارزان لتخلف حقيقي في حياتنا عموما ، وحياتنا الشعرية خصوصا . بينما صدور مجموعة شعرية جديدة لادونيس أو بلند الحيدري أو البياتي أو محمود درويش أو نزار قباني أو سعدي يوسف أو أحمد حجازي أو أحمد دحبور هو انعكاس لبوادر التقدم في حياتنا عموما ، وفي شعرنا خصوصا .

لماذا ؟

لان فردية الاستقبال قد حلت مكان مهرجانية الاستقبال في تلقي الشعر . لا بسبب صعوبة القصيدة الحديثة وتركيبها المعقد ، بل لان هذا التعقيد مجرد مظهر خارجي يعكس تركيبا جوهريا في مضمون العصر وشكل الحياة . القصيدة الحديثة هي الاستجابة الواعية لهذا الجوهر ، حوارها

مع الانسان لا يتحقق مطلقا بالطقس الجماعي كما هو الشأن ــ مثلا ــ في السينما والمسرح وحفلات الرقص . حتى اذا لم تكن القراءة هي الوسيلة ، واقتصر الامر على الصوت ، فان السماع الفردي للقصيدة الحديثة هو وحده القــادر نسبيا على التفاعل معها . أما القراءة فهي التي تتيح التوحد الشامل مع الشعر الحديث بكافة الحواس والقدرات والمواهب التي يتمتع بها القارىء .

والمفارقة هي ان مفعول القصيدة الحديثة ومردودها بالقراءة او السماع المنفرد ، أعمق وأبقى .. بينما الاستقبال الجماعي قد يترك اثرا في الاذن والقلب ، ولكنه سريع الزوال . ومعنى ذلك بوضوح ان فردية التلقي للشعر الحديث لا تتناقض مع أثره الاجتماعي ، بل ربما كان العكس هو الصحيح فالاثر الاجتماعي الحقيقي للشعر المهرجاني هو الاقل والاضعف والابعد عن الهدف من كتابته .

لذلك يقع النقد الحديث في مأزق خطر حين يتصدى لتقييم النماذج الشعرية التي ألقيت . الناقد يقرأ القصيدة ثم يكتب عنها ثم يلقي ما كتب . أي ان التكافؤ معدوم بين فرصة النــاقد وفرصــة المستمع في التلقي والاستجابة . من هنا قد يصفق الجمهور طويلا لاحدى القصائد ــ وهذا ما حدث في الملتقى الشعري الاخير في بيروت ــ يرى الناقد انها قصيدة رديئة ان صوت الشاعر وطريقة القائه تجعل منه احيانا كثيرة ممثلا ، وتجعل من الجمهور لا اراديا وكأنه في صالة طرب . ان الاستقبال الجماعي يهيء الجمهور لردود فعل عفوية يؤثر فيها الفرد على الآخر تلقائيا . وقد تتدخل هذه العوامل الطارئة والخارجية في صنع معايير للنجاح والفشل . ولا زلت أذكر الجمهور الذي صفق دقائق طويلة ذات ليلة بمجرد ان نطق الشاعر عنوان القصيدة واهداءها !! ولا زلت أذكر أيضا تململ الجمهور وما أصابه من سأم حين كان أحد الشعراء الممتازين يلقي قصيدة جيدة .

هكذا يقع النقد في مأزق خطر ، عنيت النقد الحديث . اما النقد الذي

لا يختلف عن الشعر المهرجاني ، فهو يتسق معه في ابراز التخلف .

لذلك ، فحين تسألني : من نجح ومن سقط في الملتقى الشعري الاخير في بيروت أجيبك : لا شيء ، لا أحد ، فقد كانت احدى مظاهرات التخلف التي لا تنتهي !

١٩٧٤/١٢/٣٠

حوار « الميلاد » بين البطل والجلاد

قال الحارس الاسرائيلي لرئيسه : لا بد انه جن يا سيدي ، ظل طوال الليل يصلي ، اعتذر عن تناول الطعام كالعادة وطلب شمعة ، اعلم انها من الممنوعات يا سيدي ، ولكنه ظل يتمتم بكلمات مدغومة لم أفهم منها شيئا سوى كلمة المسيح . حين فتحت الباب خلسة كانت عيناه محملقتين الى أعلى، رآني فقال كلاما كثيرا لم افهم منه سوى كلمة فلسطين . أعدت اغلاق الزنزانة بعنف ، ولكنه قبل أن يتوارى وجهه عن ناظري ، كان يبتسم بحنان عجيب .

قلت له ذات مرة بصوت عال : اذا كنت تحب الصلاة الى هذا الحد ، لماذا لم تكتف بها خارج السجن حتى لا تشرفنا بهذه الزيارة الطويلة ؟ ظننته لن يجيب كعادته ، ولكنه بصوت هادىء ورصين اجابني : يا بني كنت أصلي ولكنكم لم تفهموا صلاتي ، في القديم كنتم تقدمون القرابين من الحيوانات التي اختارها الرب ، اننا نقدمها الآن من البشر . أحسست سيدي انه يسخر من الهي وأنبيائي وديني فسببته بأقذع الشتائم . أمعن في استفزازي حين قال : تلك صلاتكم ، لقد جن تماما .

أردت أن أتلطف معه فالليلة عيدكما يقول المسيحيون من رعاياه ، فقلت له : المسيح يهودي ، أليس كذلك ؟ قال لي : جاء الى خاصته وخاصته لم تقبله أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا ان يدعوا ابناء الله . لم افهم . سألته : المسيح رسول السلام ، أليس كذلك ؟ اجابني : ما جاء ليلقي سلاما بل سيفا ، وراح يروي لي كيف ان يسوع أمسك بالسوط وطرد الصيارفة

وباعة الحمام من الهيكل وصرخ في وجوههم بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة لصوص . هل هذا حدث يا سيدي ؟ لا شك انه أصيب بالجنون .

كثيرا ما يهذي . وظن انه يستدرجني قبيل منتصف الليل والنعاس يداعب أجفاني حين توقف عن الصلاة فجأة وأتاني صوته الناعم الودود قائلا : ليس مهما أن تؤمن بأن المسيح قد ولد في مثل هذه الليلة منذ حوالي ألفي عام ، وليس مهما ان تؤمن بأن أجداد أجدادك قد صلبوه ، فالشيء المؤكد انك لم تشهد مولده وانك لم تشارك في جريمة صلبه . ليكن المسيح مجرد فكرة ولدت في الضمير البشري ذات يوم ، ضد الرومان المستعمرين وضد الاغنياء من بني اسرائيل . وليكن المسيح مجرد فكرة صلبها الحكام الرومان والاغنياء اليهود . بهذا المعنى لا زال المسيح يولد ولا زال يصلب ، فالرومان أصبحوا اميركانا ، وحنان وقيافا وغيرهما من كبار الكهنة أصبحوا حزبا ، والاغنياء هم الاغنياء لم يتغيروا .. هكذا تنبع ضرورة ميلاد المسيح وهكذا يصلبونه من جديد . ليس مهما ان توافقني على قصة المجوس والرعاة ويوسف النجار والعذراء مريم ، ولكن المهم ان توافقني على قصة «اسرائيل» الراهنة ، منذ أكثر من ربع قرن .

صرخت : ها أنتذا تجيب على سؤال في الدين بكلام في السياسة . انني لا اؤمن بهذه الاسطورة وكل ما تبنيه عليها من افكار . لاول مرة واجه صراخي بصراخ اشد : انني أكلمك عن المسيح الحقيقي فترفض وتكلمني عن الاساطير أيها المولود منذ قرون بعيدة في أوروبا وقد أتيت الى هنا ــ اذا كنت مخدوعا ــ ايمانا بأسطورة . صرخ . صرخ أكثر . تهدجت الكلمات على شفتيه : ماذا تعرف أنت عن هذه البلاد . ما الذي دفعك الى هجر موطنك سوى الوهم الاسطوري ؟ عصف الجنون بهذا «الاب» العجيب . اعترف يا سيدي ان رعشة خفيفة رقصت بأحشائي ، فاضطربت قليلا . ثم أمسكت بسلاحي ونظرت الى الباب المغلق على المطران،

وتماسكت .

قلت له وقد استهواني الحوار الليلي ، لعله يبدد الوحشة قليلا : بيني وبينك لم أدرس التاريخ ، كما انني لست متدينا ، فلا تناقشني بلغة الماضي ولا بلغة الاساطير . الواقع الوحيد الذي أراه وأعيشه واتنفسه الآن هو «دولة اسرائيل» .. أليس هذا هو الواقع ، وما تقومون به ليس أكثر من عمل جنوني ؟ هدأ انفعاله وكأنه يربت على ظهري شعرت به حين قال : يا بني ، هناك الواقع الطبيعي وهناك الواقع المصنوع . كأنه معلم في مدرسة ، راح يشرح : آمن باليهودية كما تشاء ، ولكن هذه الارض هي فلسطين ، انني وانا مسجون بها أشعر حتى الاعماق بأنني انسان حر . تلك هي الطبيعة ، هي التاريخ والبشر والحياة . اما «اسرائيل» فليست هي الواقع ، انها نقيضه في زمن التخلف العربي والاستعمار الغربي . ولكن التخلف لا يدوم والاستعمار يرحل . ويسقط الديكور الصناعي ، ولن يغرق اليهود في البحر .. وانما سيعيشون مع المسيحيين والمسلمين في ظل فلسطين : الدولة التي أصلي من اجلها ، في ليلة العيد أراها قد تجسدت في مولد المسيح وهدايا المجوس ونجم المشرق واغاني الرعاة.. رسل المسيح في عصرنا هم أولئك الذين تسمونهم الارهابيين هم أولئك الذين ينشدون السلام فيحملون البندقية، هم رجال ونساء وأطفال المقاومة الفلسطينية .

عاد الرجل مرة أخرى يا سيدي الى الهذيان . أرجو اعفائي يا سيدي من حراسته ، وابعث له بحاخام واحد جنود الصاعقة بدلا مني لعل الاول يقنعه بشعب الله المختار ، والآخر يقنعه بأن «اسرائيل» هي الواقع الوحيد. اما أنا فأريد ان آخذ كأسا وانام في حضن زوجتي ، ربما كان في الدفء اللذيذ شفائي من جنون المطران ايلاريون كبوجي . لا زال صوته يخرق أذني ويسبب لي ارتجاجا في المخ : افرحوا أيها اليهود وتهللوا فقد ولد لكم اليوم مخلص عظيم هو المقاومة الفلسطينية . أليس هذا جنونا ؟

١٩٧٥/١/٦

انهم يرقصون ليلة رأس السنة ...
أليس كذلك ؟

في الليلة الاخيرة من عام ١٩٧٤ ، وقبيل الثانية الاولى من صباح عام ١٩٧٥ سمعت الكائنات في كوكب الزهرة ضجيجا بعيدا مروعا ، فاتصلت بزميلاتها في كوكب المريخ تسأل عن السبب ، فقيل لها ان الكائنات القمرية استطاعت بما تركه «أحد الغرباء» منذ فترة أن تعرف مصدر الاصوات المزعجة . انه بعينه كوكب الارض و «هم» هناك يحتفلون بأحد أعياد الزمن ! ثم دار حوار عنيف بين سكان الكواكب الثلاثة ــ الزهرة والمريخ والقمر ــ عما يقصده هؤلاء الغرباء بالزمن . ولم ينته الجدل الى جواب مشترك يرضي الجميع . ولكن أجهزة الامن في الكواكب الثلاثة حسمت الامر بأن أصدرت بيانا مشتركا يقول ان المعلومات التي توفرت لديها تؤكد انه كلما تفاعلت بعض الظواهر الطبيعية على نحو مكرور اعطى الغرباء في الارض هذا التفاعل اسما وصفة واقاموا هذه الاعياد الغريبة التي تصلنا منها الاصداء المزعجة . انهم ، مثلا ، حين تتفتح الزهور وينبسط على كوكبهم ما يسمونه باللون الاخضر ، يقولون انه الربيع، وحين تسقط أوراق الشجر يقولون انه الخريف ، وحين تسقط عليهم قطرات الماء والثلج يقولون انه الشتاء ، وحين تسطع عليهم أشعة زميلنا كوكب الشمس وتغمر أرضهم بالضياء يقولون انه الصيف . وهم يجمعون هذه الظواهر الاربعة بطريقة غاية في العجب ويقولون انه «العام» او «السنة» كلما اكتملت دورة هذه

الفصول في حسابهم الساذج . لذلك قال أجدادهم «لا جـديد تحت الشمس» ، وهم يقصدون بالطبع ان لا جديد فوق سطح كوكبهم . ولذلك أيضا يحتفلون بانتهاء العام القديم وبداية العام الجديد ، ولا ندري لماذا .. رغم ان ما يزعمونه بالزمن هو مأساتهم كما يقولون في أديانهم وفلسفاتهم واشعارهم ورواياتهم ورسومهم . انه قد يعني لديهم الميلاد ولكنه في جميع الاحوال يعني الموت .

حينئذ دار الجدل العنيف من جديد ، فما هذه الالفاظ التي يرددونها كالميلاد والموت والاديان والفلسفات والشعر والروايات ؟ ولكن البيان المشترك لكواكب الزهرة والمريخ والقمر لم يخض غمار الخلافات العقائدية حول مدلول هذه الالفاظ . واكتفى بالقول ان ما يسميه الغرباء بالزمن هو ألد أعدائهم لذلك فهم يقيمون طقوس الوداع والاستقبال من قبيل النفاق والاسترحام والتمني وخداع النفس . الزمن عندهم يرادف الموت . هذا «المصير» الذي يخشونه ويرهبونه ويفزعون من وقوعه اقصى درجات الفزع . وهم في هذا الصدد مضحكون ، لانهم يستقبلون ميلاد الاطفال بمظاهرة تبلغ ذروة درجات الفرح ، بالرغم من يقينهم انه بعد يوم او بعد مائة عام سيموتون . وحين يقع الموت يودعونه بمظاهرات اليأس والتعاسة الشهيرة بينهم . ما الفرق بين يوم واحد أو ألف عام اذا كان «المصير» في خاتمة مطافهم واحدا لا يتغير ؟ ولكنهم لا ينتحرون . لا يغتالون الظاهرة العجيبة التي فاجأتهم منذ ملايين السنين ، تلك التي يسمونها «الحياة» . وانما هم يحاولون تفسيرها بالاديان والفلسفات، ويرصدون ذبذباتها بالآداب والفنون ويحاولون تغيير ظروفها للافضل بالعلوم والمخترعات . انهم في مواجهة الموت يبنون الحضارة . لذلك كان الزمن عدوهم وصديقهم في آن. انه لا يرادف الموت فحسب بل هو يرادف الحياة أيضا . ومن هنـا كان احتفالهم بما يسمى رأس السنة هو احتفال بالموت والحياة معا .

غمغمت بعض الشفاه احتجاجا على هذا «الاستلطاف» من جانب البيان

المشترك لما يأتيه الغرباء فوق أرضهم من اعمال غريبة . ولكن أجهزة الامن في الكواكب الثلاثة لم تأبه لاصوات الاستياء ، وراحت تتلو بقية البيان وكأنها لم تسمع شيئا فقالت . ولكن أهل الارض في صراعهم بين الموت والحياة يرتكبون حماقات لا نهاية لها . فلانهم يفهمون الزمن حينا وكأنه الحياة يفرحون ولانهم يفهمونه حينا آخر وكأنه الموت ييتئسون . وليس هذا في ذاته مهما . ولكن فهمهم الغريب لمعنى الزمن وهوية الحياة هو الذي يضفي على هذه المقدمات نتائج مؤسفة . انهم لا يفهمون مثلا ان ميلادهم وحياتهم وموتهم وأرضهم من تجليات الطبيعة وتفاعلاتها اللانهائية .

والطبيعة في ذلك كله لا ترحم ولا تقسو ولا تعرف الخير والشر ، لا تتأمل ولا تفكر ولا تعرف التخطيط والتنفيذ . ليكن هذا الكون لغزا ، ولتكن محاولة اكتشافه هي الطريق الى بناء الحضارة .. بدلا من ان يكون تحدي الموت هو الدافع الوحيد . هكذا قال أحد حكمائهم ، وهكذا يؤمن البعض منهم . ولكن الغالبية الساحقة تترجم عجزها عن حل اللغز بالطقوس والتعاويذ والتمائم ، او بيقين عجيب ان الموت جسر الى حياة أخرى من نوع مختلف . ولقد كان هذا التصور مفهوما ومبررا حين كان سكان الارض أطفالا صغارا . اما الآن وقد استطاع بعضهم ان يركب سفينته الفضائية ويصل الينا ، فان الامر بالغ الخطورة . فايمانهم القديم كان يفسر لهم الى حد ما هذه الظواهر غير المألوفة فراحوا ينسبونها الى المجهول وعبدوه . وكان هذا الايمان يعزيهم عن الفقدان والرحيل المفاجىء لبعضهم . وكان هذا الايمان يتعالى بهم على غيرهم من الموجودات والكائنات ، أما الآن ، فلماذا ؟ يميل البعض منهم الى اجابة مقبولة لدينا ، وهي ان ظروف التخلف القديم في طفولتهم البدائية لا زالت مهيمنة على حياة الرقعة الواسعة من أهل الارض وما احرزه البعض من تقدم لا ينعكس صداه الفعلي على عقول ووجدانات الغالبية. ويستكمل اصحاب هذا الرأي قولهم بأن هناك مصلحة عند أصحاب السلطان في أن يظل الايمان القديم راسخا في صدور الاغلبية

حتى يظلوا على تفسيراتهم العاجزة عن فهم الخير والشر والحق والباطل . انهم بهذا الايمان يتعزون بسعادة الحياة الاخرى عن شقائهم الراهن ويؤجلون ادانة القلة الى اليوم الآخر .

عندئذ علت ذروة الضجيج القادم من الارض الى أوجها ، فابتسم رجال الامن الذين يتلون بيانهم المشترك ، وكانت بعض الاشباح القادمة من الارض والتي اوفدت من قبل في مهمة خاصة قد وصلت ، وبدأت تقدم تقاريرها الى أهل الاختصاص في كواكب الزهرة والمريخ والقمر ، فيما تجمعت كائنات هذه الكواكب تستمع الى نشرة الاخبار .

التقرير الاول

كان نصيبي منطقة شاسعة يصفون لونها بالسواد . رأيت في اطراف منها بقعا بيضاء منفرة كذلك المرض المسمى عند الغرباء بالبرص . كانت هذه البقع قد أتت الى هذه الرقعة من الارض لان اهلها من السود كانوا من الضعف والتخلف بحيث لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم . هكذا عاشوا في ظل الفاتحين من البيض امدا طويلا من الزمن ، حتى أصبحت البقع البيضاء ترى انها صاحبة الحق في ملكية هذا الجزء من الارض ، ومن ثم يتحتم على كل من ولد باللون الاسود ان يصير عبدا .

منذ دقائق في حساب الزمن عند الغرباء ، رأيت السود يرقصون ويغنون ، وشاهدت البيض يرقصون ويغنون . ولكن الرقص الاسود كان همسا في الآذان والعيون ودقا خافتا على طبلة العقل وصمامات القلب كانوا قد احتشدوا في غابة نائية ، رفعوا المشاعل ، امسكوا البنادق والسكاكين. انحنوا على الارض في قبلة هستيرية يستودعونها سرا . في هذا الوقت كان البيض يرقصون في طائرة ، أطلت اعناقهم على بؤرة الضوء في الغابة ، عانقت أناملهم أزرارا ، سقطت على التو راقصات معدنية بين اشجار الغابة.

اندلعت ألسنة طويلــة من اللهب الاخضـر والازرق والاحمر . تحولت الاشجار في غمض البصر الى حشرات ، وتحول السود الى رماد . عاد البيض بطائرتهم الراقصة تحت كواكبنا ، عادوا ليركعوا امام صورة كبيرة لفتاة جميلة وطفل يانع ، مهنئين هذا الطفل بالذات بعيد ميلاده المجيد . لم أفهم، لانني رأيت واحدا من السود كان قد هرب من رقصة النار في الغابة ، رأيته ينحني أيضا لهذه الصورة في مكان بعيد وقد وضع يديه بحنان عجيب على ما يشبه الكرة المعدنية الصغيرة . ثم تلتفت حواليه وراح يتسلل على قدميه العاريتين حتى وصل الى جدار عال نافذته مضيئة . كان في الجانب الآخر بقعتان بيضاوان من تلك البقع التي كانت تركب الطائرة منذ قليل ، وقد اختلط كلاهما اختلاطا عنيفا كأنهما في معركة . فجأة ألقى الاسود كرته المعدنية ، فتلاشت البقعتان البيضاوان في دخــان كثيف وضجيج مروع . هكذا يرقص الغرباء في هذا المكان هذه الليلة .

التقرير الثاني

ودعت زميلي عند مفرق طرق . ذهب هو الى تلك البقعة التي يصفونها باللون الاسود وتوجهت انا في محاذاة خط مائي طويل وسلسلة من الهضاب والوديان والجبال . في هذا المكان منذ أكثر من ستة وعشرين عاما في حساب الغرباء لم يكن هناك هذا الخليط العجيب من «البشر» المستوردين من كافة أرجاء الارض ، من مختلف مواطنهم الاصلية . جاؤوا الى هنا مدججين بعديد من الاسلحة : أولها التخلف المميت الذي كان يدمر اهل البلاد وسيطرة البقع البيضاء التي تشبه مرض البرص كما يسمونه عــلى مقدرات هذا الجزء من الارض . لقد رشحت هذه المنطقة من «العالم» ــ كما يدعون كوكبهم ــ بمصدر جديد للطاقة شمت رائحته من بعيد (في الزمان والمكان) بعض البقع البيضاء المستنيرة بالعلم والتكنولوجيا والمال . وكانت هناك من بين خرافات الايمان القديم اسطورة عنوانها

«شعب الله المختار» أصبحت كالقفاز الحريري الذي يخفي المخالب والانياب . وكان «الوطن» الممتد من محيط في الغرب الى خليج في الشرق قد تمزق الى أوطان صغيرة منذ أمد بعيد . هكذا راحت البقع البيضاء تجلو عن تلك الرقعة الجميلة لتحل مكانها ونيابة عنها بقع مختلفة الالوان والاوطان تجذب خياشيمها رائحة «الطاقة» الجديدة والاسطورة القديمة على السواء .

غير ان البقع التي وفدت منذ أكثر من ستة وعشرين عاما ، ورغم انها تملك اسباب القوة ، لم تستطع ان تغرس اقدامها في الارض ، ظلت في مهب الريح التي تحيطها من كل جانب ، تزداد عزلتها كل يوم وتوشك على الهرب ، فأصحاب الارض الاصليون يزدادون قوة ورسوخا في تربتهم .. ان ما يسمونه بالجاذبية يثبت أقدامهم ، أما الآخرون فيطيرون في الهواء ويطيش صوابهم وهم في حالة انعدام الوزن .

كلاهما ، كان الليلة يرقص ويغني . كانت البقع تمطر اهل الرقعة وابلا من النار ، كانت تتطاير في الفضاء الى اعلى ، الى خارج الديار . وكان اصحاب الارض ينزفون لونا احمر ولكنهم يزدادون تجذرا في الارض في عمق أعماقها كانوا يدخلون . وسوف يأتي يوم — ما دام المشهد هكذا — تتمدد فيه الجذور وينمو الجزع والغصون والازهار . اما البقع الطارئة فلن يبقى لها وجود ، لانها في الفراغ ترقص رقصة الموت . اما الآخرون فيرقصون بالبنادق وأغصان الزيتون .

الحصيلة النهائية

لم تخرج بقية التقارير التي جاءت بها اشباح الزهرة والمريخ والقمر عن هذه الحدود . وبدأت بقية الكائنات تفهم الاصداء التي تصلها من «الارض» : انهم يرقصون ليلة رأس السنة ، بعضهم يرقصون للموت

وبعضهم يرقص للحياة ، ولكن الجميع يرقصون بلا توقف ، بالديناميت والرصاص والصواريخ ، بالقبلات والورود وحرارة الفراش ، جميعهم يرقصون . وكان هناك شاعر في بلد يدعوه أهله بأم الدنيا ، يغني في ركن منزو كأنه يبكي :

« رأيت نفسي أعبر الشارع ، عاري الجسد
اغض طرفي خجلا من عورتي
ثم أمده لاستجدي التفاتا عابرا
نظرة اشفاق علي من أحد
فلم أجد

* * *

هذا الزحام .. لا أحد »

١٩٧٥/١/١٣

قف ! أنت متهم بالشيوعية

اذا كنت موظفا صغيرا تسدد ديونك اول الشهر ويتحملك راتبك حتى الخامس منه ثم تبدأ الديون من جديد فبدأت تشكو الجوع والعري والمرض ..

واذا كنت طالبا يحتاج الامر منك حتى تصل الى الجامعة بأن تسير على قدميك عدة كيلومترات يوميا وان تستأجر ملازم الاستاذ بالليلة من زملائك فبدأت تتذمر ..

واذا كنت فلاحا تزرع الارض ولا تحصدها لان المحصول غالبا مرهون للسداد والفوائد وبدأت تعوي من غول الموت الزاحف ..

واذا كنت عاملا ترقب الغلاء المتوحش بأجر منخفض وبدأت تسأل عن السر .

.. فأنتم جميعا ايها الموظفون الصغار والطلاب والفلاحين والعمال شيوعيون !! حتى اذا لم يخرج البعض منكم في مظاهرة أو اضراب وحتى اذا لم توقعوا بيانا بمطالبكم ولم تتجمعوا في منزل واحد منكم ، فأنتم شيوعيون !!

لم تسمع غالبيتكم عن ماركس وانجلز ولينين ، ولكن هذا كله لا يهم!

.. فالمواطن الصالح يذهب الى عمله في الصباح الباكر وينفذ تعليمات رئيسه حرفيا ويعود الى بيته فيأكل وينام حتى صباح اليوم التالي، وهكذا.. كيف ذهب الى عمله ، كيف مارس هذا العمل ، كيف عاد الى المنزل ، كيف

وجد هذا المنزل ، كيف أكل ، كيف شرب كيف نام كيف استيقظ .. هذه كلها أسئلة خطرة لا لزوم لها . انها أسئلة الشيوعيين .

والطالب المثالي هو الذي يذهب الى المدرسة او الجامعة ويشتري ملازم الاستاذ فيقرأها ويستذكر دروسه ولا يسأل عن المواصلات أو الطعام أو ثمن الكتاب أو محتواه . عليه أن يدرس وينجح في هدوء وصمت دون سؤال واحد من هذه الاسئلة الخطرة التي يسألها الشيوعيون .

.. والفلاح النموذجي يزرع الارض ويحصد المحصول ، ولا يهم أين يذهب القطن والقمح والذرة بعد ذلك ، وانما عليه ان يفلح الارض فقط بصبر أيوب وبغير سؤال خطر كتلك الاسئلة التي يسألها الشيوعيون .

.. والعامل النموذجي هو الذي يتزوج المصنع فينتج وينتج دون سؤال عن الاسعار والاجور وغيرها من الاسئلة «الحمراء » التي يطرحها الشيوعيون .

الشيوعية كفر ودم ، مجازر والحاد ، فوضى ولا أخلاق .

تلك كانت «البذور الاولى» لسياسة العداء للشيوعية ، التي نشطت في ترويجها أجهزة الدعاية الاستعمارية والسلطات الرجعية في بلادنا طيلة نصف قرن . وهكذا أصبح التحرك الشعبي أيا كان اتجاهه السياسي «متهما» سلفا بالشيوعية . واستطاعت صحف واسعة الانتشار ، كأخبار اليوم ، بالاضافة الى منشورات مكتب الاستعلام الاميركي ومطبوعات بعض دور النشر وفي مقدمتها مؤسسة فرانكلين ودار الكرنك ومكتبه الانجلو ان تصور «الجحيم الاحمر» وراء «الستار الحديدي» حيث يعيش الناس حياتهم في معسكرات الاعتقال بالاتحاد السوفياتي والصين الشعبية واوروبا الشرقية . وهكذا أصبح التلويح براية الدين في يد وراية الدم في اليد الاخرى هو العمل السياسي المنظم من جانب الاستعمار والسلطات الرجعية لارهاب الجماهير العريضة من التعبير عن طموحاتها في الاستقلال والديموقراطية والتقدم الاجتماعي .

ولكن جماهير الشعب المصري لم تنطل عليها الخدعة ولم تسقط في الشرك .. لان الحياة علمتهم أن أبعد الناس عن الدين والاخلاق هم الجلادون أنفسهم وان الذين يسفحون دماء الابرياء في الشوارع وأقبية السجون والمعتقلات هم من بيدهم الامر والحكم . وان الذين يتسترون بالدين هم الذين يرفعون السلاح . ولم يحدث في يوم من الايام ان الشيوعيين المصريين رفعوا سلاحا في وجه السلطة ، ولم يقبض على واحد منهم وبيده مسدس ، ولم يسجن أحدهم في جريمة اخلاقية تمس الشرف.

لم يكن الشيوعيون أشباحا في الظلام ، وانما كانوا رجالا ونساء في الجامعة والمصنع والمكتب والمدرسة والشارع والسجن ، عرفهم الناس عن قرب وراحت الدعاية المأجورة سدى .

فما العمل ؟ وتطورت سياسة العداء للشيوعية في مصر الى مرحلة جديدة هي اتهام الشيوعيين بالعمالة للاتحاد السوفياتي ، وان الماركسية نفسها نظرية مستوردة . هكذا أصبحت المسألة الوطنية التي يدور من حولها النضال الوطني المصري منذ أواخر القرن الماضي هي المحور الجديد لابتزاز العداء للشيوعية ، كما أصبح التراث الوطني محور آخر : الاول موجه الى أعرض قطاعات الشعب المناضلة من اجل الاستقلال والتحرر من التبعية ، والآخر موجه الى قطاعات المثقفين .

وكلما وصل الصراع بين السلطة واليسار الى أبواب السجون والمعتقلات نتيجة وصول القضية الوطنية الى مأزق ، أو جمود التقدم الاجتماعي وتراجعه ، فان الحكام يبادرون بتغطية عجزهم السياسي باتهام الشيوعيين في وطنيتهم والتهجم على الاتحاد السوفياتي وغمز النظريات المستوردة .

ولكن واقع الحياة أكبر دائما من الدعاية مهما طال الامد ، ومهما كانت السلطة وراءها .. فحين ارتوت أرض السويس والاسماعيلية وبور سعيد بالدم كان الفدائيون الشيوعيون في مقدمة الشهداء . وفي كل معركة

ضد الاستعمار كان الشيوعيون في طليعة النضال الوطني .

وكان الناس العاديون يقرأون الدم بعيون مفتوحة ويفهمون لغته . وكانوا يقرأون صحف أخبار اليوم ويفهمون لغتها ، حتى من قبل أن يقبض على أحد أعمدتها متلبسا بالعمالة المباشرة للاجنبي . هكذا ، بين يوم وليلة، أصبح أكثر الدعاة ضد الشيوعية ، جاسوسا محترفا لاقوى دولة استعمارية.

ولم يقرأ المواطنون العاديون ماركس وانجلز ولينين ، ولكنهم ادركوا بالفطرة ان العمال والفلاحين والمثقفين في بلادهم ليسوا طبقات مستوردة، وان استغلال أصحاب رؤوس الاموال الكادحين ليس فكرة مستوردة ، وانما هي حقائق دامغة وواقع ملموس . لا تهمنا جنسية الذي اكتشف أساليب هذا الاستغلال واهدافه ووسائل تغييره . ولكن المهم ان واقعنا المؤلم ليس مستوردا ولا طريقة تبديله .

المستوردون الحقيقيون هم عملاء الشركات الاجنبية ، هم الذين يتسلحون بأدوات زملائهم خارج الديار في قهر ابناء الوطن . هؤلاء هم الذين يستوردون كل شيء ابتداء من النظريات حتى الملابس الداخلية .

وسقطت سياسة العـداء للشيوعية في الوحل . ولم يعد النـاس يصدقون . ولم يعد هناك بديل للسلطة سوى القمع والمزيد من القمع . فالطريق مسدود امامها لحل المسائل الجوهرية من تحرير الارض الى الجوع. ولكن السلطة ــ خصوصا في لحظات المأزق التاريخي ــ لا تتنازل عن سياسة العداء للشيوعية .

.. أو للشعب ، فقد أصبحا مترادفين !

١٩٧٥/١/٢٠

حوار النهضة .
شرايين القومية .

ابحثوا عن سر التقاليد العريقة

لا زالت في مصر شواهد ثابتة على الزمـان تدل على ان «النهضة» العربية لا تقوم لها قائمة الا بشرايين قومية ايا كانت الدماء السارية في هذه الشرايين وايا كان اتجاه سيرها . ان دار الهلال ودار الاهرام من الامثلة الباقية على ان اقامة المفكرين والفنانين السوريين واللبنانيين في مصر ، مهما كانت أسبابها الشخصية التي تختلف من فرد الى آخر ، فانها كانت مشاركة فاعلة في احياء الحضارة العربية من نومها الطويل .

ذلك ان الحوار الطويل الذي دارت رحاه منذ أواخر القرن الماضي بين شبلي شميل وفرح أنطون ونقولا حداد ويعقوب صروف من جانب واسماعيل مظهر وسلامه موسى وجمال الدين الافغاني والامام محمد عبده من جانب آخر ، لم يكن سوى حوار النهضة . لم يكن نقاشا دينيا او علميا مجردا ، وانما كان اختبارا لارض الواقع العربي والتراب القديم والحضارة الغربية والاستعمار والفقر وموقعنا — في المستقبل — من ذلك كله .

ولا زالت اعداد «المقتطف» و «الجامعة» و «المقطم» و «الاهرام» و «المصور» و «الاثنين» و «الهلال» تؤرخ لهذا الحوار القومي الشامل لمختلف أوجاعنا .. على مدى قرن كامل من الزمان . بل ان اسماء جورج أبيض ونجيب الريحاني ويعقوب صنوع الى اسمهان وفريد الاطرش ، لم تكن مجرد «نجوم» في سماء الفن المسرحي او السينمائي . وانما هذه كلها رموز لاخصب حوار عربي اتخذ مصر مركزا له لاسباب عديدة .

ولقد كان بين هؤلاء جميعا اقليميون في الوجدان ، ورجعيون في التفكير . ولكن الحصيلة النهائية كانت تفاعلا عميقا بين مصر والمشرق العربي . ولربما احتدمت الخصومة بين الامام محمد عبده وفرح انطون مثلا ، ولكن هذا لم يكن يمنع الامام من كسب الانصار في صفوف اللبنانيين ولا يمنع فرح أنطون من كسب المؤيدين من المصريين . كان الجميع يعيشون في وطن واحد تتعدد فيه الاجتهادات وتتباين الافكار ، ولكن نهضة هذه الامة هي محور ارقهم وصراعهم .

ولعل الاحساس بالامان هو الذي يولد الرغبة في الاستقرار ويبعد تماما شبح الغربة . لذلك شيد اللبنانيون في مصر أكبر دور الصحف والنشر والسينما والمسرح ، لا لان التشريعات كانت تسمح بذلك فحسب ولا لانها كانت مصدرا مربحا للرزق فقط ، وانما لانهم احسوا في مصر بالامان المطلق، ومن ثم تولدت لديهم الرغبة في الاستقرار وابتعد عنهم شبح الغربة . وهكذا لم يكن جورجي زيدان او عادل الغضبان او انطون الجميل أو أسعد داغر أو عزيز ميرزا أو ابراهيم المصري كتابا سوريين أو لبنانيين وانما كتابا عربا في مصر سواء حصلوا على الجنسية المصرية أو لم يحصلوا .

وربما كان الوضع قد اختلف مع ثورة يوليو ١٩٥٢ من ناحية الشكل .. فظلت مصر مركزا للعمل العربي ، ولكن على الصعيد السياسي وفي شخص جمال عبدالناصر ، أكثر منها على الصعيد الفكري في أشخاص الادباء والفنانين .

ولكن مصر ظلت حريصة على تقاليدها العريقة ، فأصبح السياسيون والمناضلون والوطنيون العرب من كل قطر ، يجدون على أرضهم الوطن الحاضر وليس الملجأ السياسي من الوطن الغائب . حتى حين كانت مصر الرسمية تخاصم أو تصالح قطرا عربيا آخر ، لم تكن تعامل الوطنيين العرب ـ اختلفوا معها أو اتفقوا ، اختلفوا مع حكوماتهم او اتفقوا ـ

حسب آخر نشرة لانباء الجو الدبلوماسي . لم تسلم واحدا منهم الى «بلده» لمجرد انها تصالحت مع حكومة هذا البلد ، لانها كانت تؤمن ولا تزال انه في «بلده» بغض النظر عن القطر الذي ينتمي اليه مولده .

انها تقاليد عريقة في مصر لم تخنها أبدا .. لذلك بقيت مجتمعا للوطنيين العرب من كافة التيارات والانتماءات . انها تقاليد راسخة أكبر من الرغبة الذاتية أو الشعور الاقليمي لاي سلطة تذهب أو تجيء .

– ولم يكف الفكر المصري أو الادب والفن عن التفاعل مع محاور النهضة العربية خصوصا في المشرق ، بعد ١٩٥٢ . وكانت «لبنان» بالذات هي مركز النشاط الثقافي المصري خلال السنوات العشرين الماضية ، عن طريق مجلاتها الوطنية والتقدمية وفي مقدمتها «الآداب» و «الاديب» و «الثقافة الوطنية» و «دراسات عربية» و «العلوم» وعن طريق دور النشر الوطنية كدار العلم للملايين ودار الآداب ودار الطليعة . لم يخل منبر واحد بين هذه المنابر من الابداع المصري . وكما انه ليس مهما السبب أو الدوافع التي جذبت الرواد الاوائل من سوريا ولبنان الى مصر ، فانه ليس مهما السبب أو الدوافع التي جذبت الكتابات المصرية الى لبنان . وانما المهم هو التفاعل الخصب داخل العقل والوجدان العربي .

– ليست مهمة كذلك ما تطورت اليه الامور في السنوات القليلة الاخيرة فدفعت بعض الاقلام المصرية الى الاقامة في لبنان او بغداد او الكويت او الجزائر .

وانما المهم ان يثمر هذا التفاعل – بعيدا عن الحساسيات الشخصية والطائفية والاقليمية – دفعة جديدة لمحور النهضة العربية الشاملة .

ولا بد لهذا التفاعل ان يتم في مناخ صحي ، يتوفر فيه الامان فتتولد الرغبة في الاستقرار ويبتعد شبح الغربة ..

والمفارقة التي تحتاج الى تأمل في هذا الصدد ان قطرا عربيا كالعراق يبني هيكله الاقتصادي والسياسي وفقا لشروط التحول الثوري ، يتيح

للتفاعل المصري العراقي اقصى درجات النمو والثبات ..

بينما هناك أقطار تتمتع بالليبرالية السياسية والانفتاح على الاقتصاد الحر ، تضع من الشروط والعقبات والتهديدات ، ما يفسح الطريق واسعا أمام فشل التجربة .

لا ينبغي لبعض اللبنانيين ان يستدرجوا وطنهم الى هذا المأزق ، الى الطريق المسدود في وجه الحرية والحضارة ، في وجه النهضة العربية التي لا مستقبل للبنان الا من خلالها ...

وأسألوا اباءكم الاوائل في مصر ، يروون لكم الكثير عن سر التقاليد العريقة التي رسخها المصريون والسوريون واللبنانيون ، فلم تنل منهــا العواصف والانواء .

ليس بمنطق الدائن والمدين اتكلم ، ولا بمنظور سياسي ضيق الافق.

وانما لانه ليس هناك وقت لندم اولئك الذين يدفعون وطنهم الجميل لان يقوم بدور ضد التاريخ والمستقبل .

١٩٧٥/١/٢٧

المجموعة الثالثة

١٩٧٦-١٩٧٩



حتى لا يباع المثقفون في سوق النخاسة الدولية

من بين الدوافع الرئيسية للحرب في لبنـــان ان القدر المحدود من الليبرالية قد أفسح المجال للصحافة الوطنية ، لان تصبح مع الزمن عاملا فعالا ومؤثرا ومسموع «الكلمة» بطول الوطن العربي وعرضه . حتى عندما كانت بعض الانظمة العربية تصادر الصحف الحرة كانت وكالات الانباء الاجنبية تسارع الى كشف السر وهتك الاقنعة . وتحولت بيروت الى عاصمة للاعلام العربي يهرع اليها كل قلم ضاقت به السبل في بلاده .

وكان الاستعمار والرجعية العربية ــ واللبنانية على وجه الخصوص ــ يظنون ان هذه اللعبة الشكلية سوف تدعم التيارات الفكرية المناهضــة للثورة العربية . ولا شك ان البداية قد أوحت بذلك وبرهنت في كثير من الاحوال على صحة هذا الظن . ولكن أصحاب اللعبة نسوا في غمرة حماسهم ان من يملك مفتاح البداية لا يملك بالضرورة مفتاح النهاية ، فمهما كانت السيطرة على تحركات اللعبة فان التحكم التام في مسيرتها من أصعب الامور اذا لم يكن مستحيلا لا أحد يستطيع ان يتحكم بصورة مطلقة في المفاجآت وردود الافعال غير المتوقعة .

.. وهذا ما كان ، فقد خرجت الصحافة اللبنانية عن قضبان السكة الحديدية ولم تتوقف في المحطات المرسومة لهــا ولم تخضع لحسابات الكمبيوتر ، برزت الاتجاهات الوطنية ومعها الاقلام التقدمية ، وشيئا فشيئا تحولت بيروت الى «بؤرة» ثورية للفكر العربي جنبا الى جنب كونها

«القلعة الاخيرة» للكفاح الفلسطيني المسلح .

وهكذا ولدت التجربة الليبرالية نقيضها ، فكان لا بد من ضربهـا بعنف ودون هوادة . كان لا بد لدعاة الديموقراطية أن يكشفوا عن أنيابهم الفاشية وان يرموا بعيدا بالقفاز الحريري اللامع لتظهر الاظافر العطشى للدماء . كان لا بد من نسف دور النشر والصحف وقتل المثقفين والكتاب والفنانين وان تكف بيروت عن دورها غير المرسوم ، عن صراخها باسم الثورة . كان لا بد من اختفاء لبنان كمنبر للقضية العربية ، قضية التحرير والوحدة والاشتراكية والتقدم .

.. وعندما زرت باريس خلال الشهر الماضي خيل لي كما لو ان لبنان انتقل الى فرنسا ، لا من حيث عدد اللبنانيين المهاجرين ، ولكن من حيث عدد المثقفين العرب الذين لجأوا الى باريس هربا من الجحيم .

وكان السؤال على الفور : لماذا باريس ؟ وجاء الجواب بأسرع ممـا أتصور ، على شاشات التلفزيون وفي الصحف وفي قاعات المحاضرات والمهرجانات والمظاهرات و .. و ..

وكاد يصيبني الدوار لهول ما رأيت وسمعت ، فقد أصبحت باريس مركزا رئيسيا للصراع العربي الاسرائيلي . ومركزا رئيسيا للصراع بين الشرق والغرب .. مركزا لاوروبا لا لفرنسا وحدها ، مركزا اعلاميا خطيرا مؤثرا بغير حدود ! انها ليست فقط بديلا لبيروت ، ولكنها بؤرة تجمع دولي لا مثيل له في أية عاصمة أخرى .. وهي لم تعد مجرد منبر الفكر والحضارة والنور . بل أصبحت أكبر نوادي الاعلام في الدنيا !

وبدأت « المشاريع » تظهـر وتتبلور وتتسابق ، مشاريع العـرب واللبنانيين والمثقفين .. بعض المتخمين ظنوا أنه يمكن شراء الاعلام الفرنسي ذاته ، مباشرة ودون لف أو دوران . تساءل هؤلاء :

ــ ماذا لو اشترينا عددا كبيرا من الاسهم في هذه الجريدة الشهيرة أو تلك ؟ ماذا لو اشترينا احدى قنوات التلفزيون ؟

وعلق أحد الفرنسيين : انهم هؤلاء الامراء العرب ، يستطيعون شراء الماكينات والقصور والنساء : ولكنهم لا يستطيعون شراء فرنسا !

ورغم قساوة التعليق فقد لخص الحد الادنى من الحكم الصحيح على هؤلاء «السذج» الذين يتصورون أنه يمكن شراء نصف «الموند». نصف تأثيرها على العالم ، ببعض الدراهم ! ولكن أحد العرب علق قائلا : ليست هذه هي المشكلة ، فالسؤال الاهم هو لماذا يريدون شراء جريدة فرنسية. ماذا يريد هؤلاء بالذات أن يقولوا للعالم ؟

.. وغيرهم قال كلا، بل لنصدر طبعات فرنسية من صحفنا اللبنانية. أي أن القارىء الفرنسي سيكون مخيرا بين أن يشتري الموند أو الفيجارو أو الاوماتتيه .. أو يشتري جريدة كذا أو كذا أو كذا مما كان يصدر في بيروت العربية . والنتيجة معروفة سلفا . فالمواطن الفرنسي قد يكون مهتما بالعرب أو باسرائيل ، ولكنه مهتم أكثر ببلاده والعالم ، واذا أراد أن يعرف شيئا عنا فهو يفضل معرفته من صحافة وطنه ، أما المواطنون العرب في فرنسا فهم أما سيقرأون الصحافة الفرنسية ذاتها أو أنهم يجمعون اليهـا الصحف العربية بلغتها الاصلية .

وفي لندن كانت «التجربة» على قدم وساق : صحفي لبناني عتيق حاول اصدار مجلته الاسبوعية المشبوهة في لبنان ، بالانكليزية في لندن، فجاءت اعدادها الاولى ــ اعداد الصفر كما يسمونها قبل الصدور العلني والرسمي ــ مسخا مشوها للمجلات الاميركية الشهيرة كالنيوزويك والتايم. وكذلك عمد صحفي سوري متلبنن الى مشروع أكثر ضخامة ، يصــدر جريدة يومية بالعربية ويؤسس وكالة للانباء ، بالاموال الطائلة التي يسخو بها عليه أحد الامراء العرب .

.. ولا تنتهي القصة هنا . فالحق أن هذه النماذج لا تعنيني في كثير أو قليل .

ولكن الذي يعنيني هو هذا العدد الهائل من المثقفين العرب الذين

هرعوا لسبب أو لآخر الى باريس ، وهم هناك ضحية جاهزة وفريسة شهية لاصحاب المشاريع الوهمية والمشبوهة من العرب وغير العرب ، انهم أمام «الحاجة» سوف يتحولون الى عبيد في سوق النخاسة الدولية ، وبينهم طاقات موهوبة وامكانات وطنية خصبة وعقول غنية بالوعي .

.. هؤلاء يرون باريس بديلا لبيروت ، يرونها أيضا «جبهة» لا يستهان بها في الصراع العنيف الذي ستخوضه أمتنا خلال مرحلة طويلة قادمة . يرونها ــ بغض النظر عن ظروفهم الذاتية ــ ساحة لا ينبغي أن تخلو للاعداء وحدهم والجواسيس والمهربين الذين يحملون بطاقات الصحافة والفكر والثقافة والاعلام . هؤلاء يرون باريس في حقيقتها الجديدة ، وهي أنها أصبحت ــ شئنا أو لم نشأ ــ مركزا خطيرا للتأثير ويرون أيضا أن هناك دورا يستطيعون تأديته في هذه الساحة .

.. فمن يلبي نداءهم ؟ من يجمع هذه القوى الخلاقة ويحشدها في مشروع ثوري حقيقي . مشروع يزاوج بين الفكر والاعلام ، بين دار النشر والصحيفة العربية التي تتخذ موقعا اماميا وسط قلاع العدو وبين حصونه التقليدية ، في عقر داره ؟ انها «مخاطرة» جديرة بالنظر ، بل هي فكرة نضالية لا شك في اصالتها وصدقها ونتائجها .. ولو لم يكن هؤلاء هناك ، لكان علينا ارسالهم .

.. وليس هناك وقت ، قبل أن تتبدد احدى ثرواتنا في قاع نهر السين، وقبل أن يباع جزء من روح الامة في أبشع سوق للنخاسة بأموال الخليج.

١٩٧٦/٩/١٥

- (ان من يملك مفتاح [illegible] ليس [illegible] ام يملك مفتاح [illegible])
كانت هذه [illegible] .. لأحمد عبد المعطي حجازي .. [illegible]
منذ خروجه من القاهرة .. ويبدو انه امل يراود جميع القوى التقدمية العربية .

لمن تدق الاجراس ..
في الليل الطويل الدامي ؟

تبدو المفارقة العربية التي نحياها الآن صارخة .. فالوطن الكبير يعاني تمزقا ليس له مثيل منذ الاغتصاب الاول عام ١٩٤٨ والامة بأسرها تكابد أهوالا لم تعرفها حتى في هزيمة ١٩٦٧ والمقاومة الفلسطينية تكتوي بنيران لم تشعر بها في أيلول ١٩٧٠ ورغم ذلك كله فما أبعد المسافة بين آثار حزيران الاول ونتائج الحزيرانات الجديدة المتتالية ، وما أبعد المسافة بين آثار أيلول الاردني ونتائج الايلولات العربية الجديدة .

لا ينكر أحد أن هزيمة حزيران ١٩٦٧ قد باغتت الجماهير العربية بجرعة مركزة من اليأس ، ولكن هذه الجماهير سرعان ما استعادت وعيها وصحتها النفسية وقاومت ، وأثمرت السنوات القليلة التالية للهزيمة ردود فعل ايجابية صامدة تواقة الى التغيير أبرزها ثورات العراق وليبيا والسودان، وحركة الطلاب المصريين . وانعكست هذه الانتفاضات الثورية على الفكر والفن والثقافة العربية ، فأنتج الادباء والمفكرون العرب ونشط المثقفون ـ بالغضب والاحتجاج والفرح والتوتر والقلق ـ نشاطا روحيا فاعلا ومؤثرا لم تخالطه نغمات اليأس أو اللامبالاة الا في القليل النادر الذي يشكل الاستثناء على أية قاعدة .

ولا ينكر أحد أن أيلول ١٩٧٠ قد أدمى قلوب الملايين من الجماهير العربية وأن المقاومة الفلسطينية قد خسرت في هذا الشهر الاسود أجزاء

لا يستهان بها من «جسدها» . ولكن أصداء أيلول القديم كانت في غالبيتها العظمى «روحا حية» أشعلت الامل في الصدور ، وكانت مخاضا لولادة جديدة في الفكر العربي الحديث .

.. اما الآن ، فخريطة الوطن العربي أمـام عيوننا يتغير لونها من الرمادي الى الاسود ويتغير شكلها من النزوع نحو الوحدة او الاتحاد الى الطموح في الانفصال والتفتت ويتغير مضمونها من التحرر والاستقلال والرغبة العميقة في التقدم الى التبعية والاستسلام والتخلف . وتوجز الحرب اللبنانية المأساة كلها في حزيران جديد ممتد يتضاءل جانبه حزيران ٦٧ وفي أيلول جديد مستمر يتواضع جانبه أيلول ١٩٧٠ .

وفي هذا الوقت تماما يتسلل اليأس الى عمق أعماق المثقفين ، بينما يقتحم الوجدان العربي العام الشعور بالملل والغثيان والحيرة والبلبلة واللامبالاة ! وتلك هي المفارقة المأساوية التي نحياها هذه الايام ، فالزمن الذي يحتاج الى المقاومة يغلب اليأس والزمن الذي يحتاج الى الفعل يغلب الانسحاب والانكفاء . والثمرة المرة هي ما يلحظه أي مراقب خارجي من ازدهار مفاجىء للنعرات الاقليمية والعنصرية والغيبية وانفلات شامل للقيم والمعايير ، والضوابط ، واختلاط مروع للاحلام والكوابيس والاشواق المشروعة بالطموحات المحرمة .

— وهنا ، تماما ، تواجه سؤالا كالجبل : وأين المثقفون من ذلك كله ؟ لقد هزتهم في الماضي أحداث تقل كثيرا في ميزان التاريخ عما يجري اليوم لامتنا ، فأين هم ؟ والسؤال ليس عن القصيدة التي لم يكتبها الشاعر الكبير ولا عن الرواية التي لم يبدعها الروائي الكبير ، بل عن الفعل الثقافي الشامل لضمير الامة وروح الوطن .

وقد يجيب البعض بأن ربع المثقفين العرب في السجون العربية والربع الثاني في المنافي الغربية والربع الثالث في المقاهي والبارات يمضغ لحمه بأسنانه ويظن انه يمضغ لحوم الآخرين والربع الاخير يحاول اتقاء السجن

أو الجنون أو الانتحار بالصمت الحكيم ، حتى وان تكلم فهو يقول كلاما يرادف الصمت .

وربما كان هذا كله صحيحا وربما كانت الفاجعة أكبر .. فالانتاج الثقافي العربي هذه الايام قد بلغ من الهزال والضحالة والضعف ، كما وكيفا ، حدا مخيفا بحق ، حدا لم يصل اليه انحدار الخط البياني للابداع العربي طيلة السنوات العشرين الماضية. وهو مؤشر خطير يشير الى أن الضمير العربي في لحظة انكسار حادة وكأن الروح العربية في لحظة احتضار !!

بينما يعلم المثقفون قبل غيرهم أن وطأة ما يجري على أرضنا ليس نهاية التاريخ ، وان عشية الخمسينات من هذا القرن لم تكن أفضل مما يحدث الآن ، وان المد والجزر حركتان متلازمتان ، وان العالم من حولنا يتغير بمعدلات مذهلة ، وان العرب ليسوا استثناء بين الشعوب فتاريخهم كله يؤكد انهم أمة لا تموت .

.. فماذا اذن ؟

لا يمكن أن يكون القصور الاخلاقي أو الانحراف النفسي أو الهموم الفردية هي السبب ، ففي كل جيل وفي كل مرحلة تاريخية هناك القاصرون والمقصرون ، ولكن هناك أيضا الحركة الثقافية النشيطة التي تسبق الرادار في الرؤية ، وتسبق عربات الاسعاف والنجدة والاطفاء في الانقاذ .. انقاذ الروح وانقاذ الضمير وانقاذ المستقبل .

ولا شك ان الموقف العربي العام من الحرب اللبنانية مثلا يدعو الى الذهول ، ولا شك أيضا ان الموقف العربي العـام من خريطة التسوية الاميركية لما يسمى بأزمة الشرق الاوسط ، يدعو أيضا الى الذهول .. فاليأس واللامبالاة يدفعان هذا الموقف بأقصى درجات السلب . ولكن ما يدعو الى ما هو أكثر من الذهول هو موقف أطباء الروح ومهندسي النفس البشرية ، موقف المثقفين العرب .. لا من القضايا المطروحـة وحدها ــ فالبيانات الحماسية والتوقيعات هي شهادات تبرئة للذمة ــ بل من الحالة

النفسية والعقلية التي تحياها الجماهير اليائسة المبلبلة اللامبالية .

.. فاذا كان سرطان اليأس قد وصل الى مخ الامة وقلبها ، فالامر يدعو حقا الى ما هو أكثر من الذهول وأبعد . يدعو المريض الى مساءلة طبيبه ، يدعو الامة الى مساءلة مثقفيها ما اذا كان المرض قد تحول الى وباء لا شفاء منه وبالتالي تصبح الدعوة الى الانتحار الجماعي عملا مشروعا . أم ان هناك أملا في انقاذ الروح حتى وان تعرض الجسد لافدح الاضرار . لقد تعرض جسد الامة العربية على مدى التاريخ القديم والحديث لكثير من العطب ، ولكن هذه الامة لم تفقد روحها في أي وقت .

وليس المطلوب هو محاكمة المثقفين العرب ، فهم ليسوا «خونة» هذه الامة الذين باعوا الارض ومن عليها بالمجان ، ليسوا «غزاة» لبنان ولا جزاري الشعب الفلسطيني ، ليسوا أمراء النفط ، ليسوا لصوصا ولا مقامرين ولا نخاسين ولا جلادين .. لم يسجنوا انفسهم ولم يختاروا منافيهم أو مقاهيهم أو صمتهم !

وليس المطلوب من المثقفين العرب معرفة رأيهم في الامبريالية والاستعمار الجديد والرجعيات المحلية والصهيونية والحرب الاهلية في لبنان ، فبعضهم مات مقاتلا وشهيدا في هذه المعارك .

ـ ولكن المطلوب هو انتشال روح الامة من الوهدة التي تردت فيها ، وانقاذ ضمير الوطن من الهوة الفاغرة فاها .. بعملية فدائية كالمعجزة ــ وقبل أن يفوت الاوان ــ يجب خطف المثقفين العرب من مقاهيهم ومنافيهم وصمتهم ، ووضعهم أمام مرآة أنفسهم ، ليكتشفوا حقيقتهم ، وليستمعوا بآذانهم الى الاجراس التي تناديهم في الليل الطويل الدامي .. وليستفيقوا الى أن «دورهم» التاريخي على مسرح حياتنا لم ينته بعد .. ولا ينتهي أبدا.

١٩٧٦/١٠/١٣

كيف ومتى ولماذا : المثقفون العرب ؟

في اداته لصمت فلوبير أثناء انفجار وانكسار كومونة باريس يقول سارتر ان المثقف مسؤول حتى عن الجرائم التي لم يسمع بها . وعندما توجه بعض الروائيين والشعراء الافارقة الى سارتر مستطلعين رأيه في انتاجهم الادبي قال لهم : عودوا الى بلادكم ومزقوا أوراقكم واشتغلوا بمحو أمية مواطنيكم ! ولعل الملاحظة السريعة على هاتين الفكرتين — مسؤولية المثقف عموما ودوره في العالم المتخلف خصوصا — هو المبالغة، فالمثقف مسؤول عن جرائم الدنيا بقدر علمه وموقعه ، وللمثقف في المجتمعات المتخلفة دور خاص ومتميز ، ولكن حجم هذا الدور مرهون بالاسلوب السياسي لانظمة الحكم .

ولكن أحدا ممن تستهويهم محاكمة المثقفين في بلادنا أو في بلاد غيرنا لا يتساءل عن الجرائم التي ترتكب بحق المثقفين وعن الاحباطات السرية والعلنية التي تسلبهم دورهم وتسلمهم لاقرب شرطي أو أقرب بار أو أقرب مستشفى للامراض العقلية. المثقفون مسؤولون عن شعبهم ومجتمعهم، نعم . ولكن من المسؤول عن المثقفين ؟

تلك هي القضية التي ينبغي مناقشتها بشجاعة وعمق وتجرد . اذا أردنا حوارا حقيقيا — لا مظاهرة سياسية — حول دور المثقفين العرب في لحظتنا التاريخية الراهنة.. وهي بغير شك لحظة «مصيرية» دون تزايد انشائي أجوف. وهي بغير شك أيضا لحظة أحوج ما تكون الى جهود المثقفين وبذلهم ووعيهم

وتضحياتهم ورصيدهم الحي عند الجماهير .

.. وقبل أي حوار لا بد من الاقرار بأن المثقفين العرب هم الذين تحملوا طيلة الربع القرن الاخير عبء التحول السياسي والاقتصادي من مرحلة الظلام الاستعماري والاقطاعي الى مرحلة الانفتاح على الاستقلال والتنمية والتقدم الاجتماعي .. انهم بتعبيراتهم الطبقية المختلفة هم الذين قادوا حركة الصراع ودفعوا الثمن غاليا اغلى كثيرا مما دفعته الطبقات التي عبروا عنها . هم الذين دخلوا السجون والمعتقلات ودفعوا ضريبة الدم وشردتهم المنافي في ظل السلطة الاجنبية ، وهم أنفسهم الذين جاعوا وعذبوا وأحيانا ذبحوا في ظل السلطة الوطنية . رغم ذلك فهم الذين أشعلوا نيران الرفض العربي العام ضد الاحلاف في أوائل الخمسينات ، وهم الذين حملوا السلاح ضد الاجنبي حين أرادوا أن يستعيد موقعه من الجزائر الى مصر الى جنوب اليمن ، وهم الذين وضعوا رؤوسهم على أكفهم دفاعا عن فلسطين، وهم الذين أسسوا هياكل التنمية الاقتصادية وأداروا محركاتها في اتجاه التقدم لمجموع الشعب . وحين وقعت الهزيمة المدوية عام ١٩٦٧ تحملوا أوزارها في صبر وصمت وهبوا يستعيدون الوعي الشعبي المسحوق تحت سنابك الخيل . وهم أخيرا الذين تصدوا ببسالة الانبياء لموجة الاستسلام العربية بعد انتصارات حرب تشرين المجيدة .

وخلال هذه المرحلة الطويلة تمكن بعض المثقفين من المشاركة بأنصبة متفاوتة في السلطة . وقلتهم القليلة هي التي حافظت على جذورها الطبقية وينابيعها الايديولوجية، وكثرتهم الغالبة انفصلت عن هذه الجذور وابتعدت عن تلك الينابيع واكتفت بأن تكون ديكورا زاهي الالوان لصالونات الطبقة الجديدة . أما البعض الآخر من المثقفين فقد تمكنت بعض الانظمة من احتوائهم وتدجينهم بشتى المبررات والمغريات والاحباطات ، حتى فقدوا صوتهم الخلاق وروح المبادرة . والبعض الاخير ظل طريدا يعاني ويلات الانتماء والرفض معا ، منهم من تماسكت روحه وانهار جسده أو العكس،

ومنهم من غامر بالروح والجسد معا . تحت عناوين مختلفة يمكن رؤيتهم ــ لمن يريد أن يرى ــ فوق صلبان المنفى : داخل الذات أو داخل الوطن أو خارج الذات وخارج الوطن . جميعهم دفعوا ضريبة الدم بطريقة أو بأخرى ، حتى الذين شاركوا في السلطة وحتى الذين أمكن تدجينهم ، جميعهم دفعوا ضريبة الدم من ماضيهم أو حاضرهم أو مستقبلهم ، حسب الاختيــار الذي فرض عليهم أو فرضوه على أنفسهم ، لا يهم فالنتيجــة واحــدة .

.. النتيجة هي هذه اللوحة التراجيدية التي تغطي السماء العربية بدموع حبيسة وآهات مكتومة تصرخ أين المثقفون وكأنهم لم يكونوا حاضرين طول الوقت ، أكثر حضورا من الطبقات الاجتماعية التي عبروا عنها وجسدوا طموحاتها . ولا شك أن هناك «غيابا ما» للمثقفين العرب عن المشهد السياسي الساخن الــذي نراه الآن عــلى المسرح العربي . ولكن «التغييب» وليس الغياب ، فالمثقفون هم آخر من ينبغي مساءلتهم عن التغيب . فقد حيل دونهم والحضور ، أغلقت الابواب في وجوههم باحكام، وتلفتوا حواليهم فاذا بهم في مصيدة جهنمية تبدو لمن ينظرون الى الخارج وكأنها الحرية والسلطة والفردوس المقيم .. بينما هي أشر أنواع السجون طالما انها تكتم أنفاس الخلق والابداع والموهبة وتفتح الابواب على مصراعيها للثرثرة والخدر والاحلام الكاذبة .

من المسؤول عن مذبحة المثقفين العرب ؟ هذا هو السؤال الجدير بالتصدي والمواجهة ، فما أيسر محاكمة المثقفين ، وما أصعب الكشف عن وجه المتهم الحقيقي .. حتى ولو ارتدى قناعا من الثقافــة . انه السؤال الجدي الوحيــد لمن كان حريصــا عــلى روح الامــة وضمــير الوطن ، لمن تتسع عيناه بعمق الجرح الغائر في النفس العربية ، لمن يشعر بالنزيف داخله وخارجه على السواء .

ولذلك كانت هناك ضرورة قصوى لعقد مؤتمر عاجل وخطير للمثقفين

وحدهم ، لا لمناقشة المخطط الامبريالي الصهيوني الرجعي ضد الامة العربية ، بل لمناقشة مصيرهم بالذات ، مصير الروح والضمير ، مصير الهوة الواسعة البشعة بين الحلم والفعل ، ليسألوا أنفسهم قبل غيرهم : كيف حدث هذا ومتى ولماذا ، وكيف يمكن خلق النقيض ومتى ولماذا ؟ انهم وحدهم قضاة أنفسهم وقضاة غيرهم ، وهم وحدهم الذين يستطيعون طرح السؤال الصحيح ، فهو نصف الجواب على الاقل .

وهم حين يطرحون هذا السؤال ، لن تتزلزل العروش ولن تتهاوى التيجان ، لانهم لا يملكون السيف بل خفق القلب ونبض العقل . ولكنهم حينذاك سوف يستعيدون أنفسهم وجماهيرهم من وهدة اليأس واللامبالاة. قد لا يغيرون مجرى التاريخ ، ولكننا سنعرف معهم طول هذا المجرى وعرضه ومن أين ينبع وأين يصب . سنعرف معهم كل شيء . والمعرفة هي أولى أدوات الفعل والتاريخ والرجاء .

.. ولعل دور «المعرفة» في العالم المتخلف عموما ، وفي وطننا العربي على وجه الخصوص من أهم الادوات القادرة على التغيير .. حيث يلعب التعتيم الاعلامي الواسع النطاق والامية دورا نشطا في خدمة قوى الردة والاستسلام المتآمرة على مصير أمتنا . ان تفجير الوعي في بلادنا لا يقل أهمية وخطورة عن تفجير القنابل في بلاد غيرنا . ولذلك كان «الوعي المضاد» في جوهره نفيا للوعي .. نفيا للثقافة .. نفيا للمثقفين خارج الحلبة، وتزييف دورهم ، واحلال المهرجين والبهلوانات مكانهم .

فليس صحيحا ان المثقفين العرب لا دور لهم الآن ، أو أنهم تخلوا عن دورهم ، الحقيقة هي أن دورهم مغتصب .. وجلستهم العائلية — أو ما نسميه مؤتمرا — هي التي ستحدد ماهية الاغتصاب التاريخي لدورهم وهوية الذين قاموا بهذا الاغتصاب في السر والعلن ، وما هي أشكال الاغتصاب وألوانه . سيحددون الجريمة والجناة بصراحة كاملة ووضوح مطلق . وسيشيرون الى طريق الخلاص وطوق النجاة . وسيناشدون الشعب

مساعدتهم في استرداد دورهم من الغاصبين . وسيقولون لنا كل شيء عن كل ما جرى لروح الامة العربية وضميرها في أعسر لحظات وجودها . وستكون اعترافاتهم شفاء للنفس واليأس ، ستكون أيضا هي «الفعل» الذي اختفى طويلا تحت الرماد .

.. وسيقولون لسارتر ان جملته ناقصة ، لان المثقف مسؤول عن الجرائم الخفية والظاهرة ، ولكن جريمة الجرائم هي اغتصاب المثقفين وتغييبهم ، كذلك فللمثقف دور في حياة أمته ، ولكن جريمة الجرائم هي اخفاء هذا الدور تحت طبقات كثيفة من الماكياج المبتذل .

.. وسيقولون لانفسهم ولامتهم : هيا الى العمل .

١٩٧٦/١٠/٢٠



.. التغييب .

... الاغتصاب التاريخي

... الماكياج المبتذل .

.. المهرجين والبهلوانات .

.. اليوم التراجيدي الذي [illegible] العربي .

في الطريق الى محكمة بغداد

بعد أقل من اسبوعين تنعقد في بغداد أكبر محاكمة عالمية للصهيونية كفكر عنصري .. فالادانة الدولية التي أصدرتها هيئة الامم المتحدة لا تعدو كونها ادانة سياسية تتعاطف مع المشاعر والمصالح العربية للدول التي صوتت الى جانب القرار الشهير .

اما ندوة بغداد القادمة فهي تقتصر على أكبر العقول المفكرة في عالمنا المعاصر حيث التحليل العلمي وحده هو المعيار الوحيد لامتحان الضمير الانساني .

فالمفكرون القادمون من كافة أرجاء الدنيا ليسوا وزراء خارجية الدول التي ينتمون اليها ، بل هم خلاصة الضمير البشري في هذه اللحظة الحاسمة من لحظات التاريخ .

لذلك فهم ليسوا امـام قرارات يؤيدونها بالاغلبية او يعارضونها بالاقلية ، وليس لاحد منهم حق الفيتو وانما هم سيواجهون أكثر الظواهر عدوانية في التاريخ الحديث ، ليستخلصوا ابعادها الخفية والظاهرة والدلالة الجوهرية التي يمكن العثور عليها بين أكداس الاضاليل واكوام الاكاذيب التي تحجب بها وسائل الاعلام العنصرية في العالم حقيقة الصهيونية كامتداد أكثر تعقيدا للتقاليد النازية والفاشية .

ان الفكر الاوروبي مثلا سوف يتساءل عن أوجه الشبه والاختلاف بين أساليب الفكر الصهيوني وأساليب الفكر الهتلري حين رفع المثقفون

الاورويبون راية المقاومة ضد الاحتلال النازي في كل العواصم الغربية : اسطورة العرق . الجيتو . العسكرتاريا ، الاشتراكية الوطنية ، التوسع ، تصنيف المواطنين حسب العنصر ، الى غير ذلك من سمات تجمع بين أصول الفكر النازي وأصول الفكر الصهيوني .

وسوف يتذكر المفكر الاوروبي أمجاده القديمة حين تجمع فيلق المثقفين الديمقراطيين من شتى انحاء أوروبا ، وحاربوا في اسبانيا صفا واحدا مع المناضلين الاسبان ضد فاشية فرانكو قبيل الحرب العالمية الثانية. وسوف يتذكر أيضا أمجاده القريبة حين وقف بشجاعة نادرة الى جانب الثورة العربية في الجزائر والثورة الاشتراكية في كوبا والثورة العظيمة في فيتنــام .

ولكنه قد يتذكر أيضا ما يسمى زيفا بأزمة "الضمير الاوروبي" التي يعانيها الغرب منذ قتل هتلر بعض اليهود ، هنا لا بد للندوة القادمة من ان تتصدى لهذه الخديعة الكبرى بتأن وصبر شديدين ، لانها خديعة مركبة وليست كذبة بسيطة على الاطلاق انها أولا خديعة اليهود لبعض اليهود في زمن هتلر نفسه وتدلنا أحدث الوثائق المتاحة على ان تعاونا مثيرا كان قائما بين احدى أبرز الدوائر الصهيونية والقيادة النازية وان الكثرة الغالبة من اليهود الذين قتلوا كانت أسماؤهم مدانة ومدونة في قوائم مزدوجة لدى الصهاينة والنازيين على السواء وهي ثانيا خديعة بعض الاوروبيين لاوروبا ذاتها، لانعدد اليهود الذين قتلهم هتلر لا يقارن بالملايين من المسيحيين الغربيين الذين استشهدوا في معارك الحرب العالمية الثانية سواء في أفران الدم أو في ساحة القتال يكفي ما حدث لشعب بولونيا العظيم ويكفي العشرين مليونا من الاتحاد السوفياتي ، وهكذا فان مائدة هتلر وموسوليني كانت عامرة بلحوم وعظام ودماء شعوب أوروبا بأسرها . ولم يكن لليهود قط وضع خاص يتميزون به عن غيرهم ، والخديعة ثالثا ، وقعت من جانب الاوروبيين ضد العرب حين سمحوا بأن يكون ثمن الدم اليهودي هو أرض

ودم الشعب العربي الفلسطيني ، فاذا كانت أوروبا تستعذب الشعور بالذنب وتأنيب الضمير ، فانها لا تملك «التكفير» من جيوب غيرها ، وهي بذلك تكون قد كفرت عن خطيئة وهمية بخطيئة حقيقية ومن المثير حقا ان الضمير الاوروبي لا يشعر بأي ذنب تجاه العرب رغم الحقائق الدموية الدامغة منذ عام ١٩٤٨ الى ١٩٥٦ الى ١٩٦٧ الى وقتنا الراهن ، والخديعة رابعا ، هي خديعة بعض العرب لكل العرب فالانظمة العربية التي ترفع عاليا الشعارات الدينية والعنصرية هي ذاتها التي تدعم الغرب وتهادن الكيان الصهيوني وتستسلم لمخططات أمريكا وهي نفسها التي تدمر النموذج الفلسطيني الديمقراطي ودعوته الى دولة علمانية في الشرق الاوسط تضم المسلمين والمسيحيين واليهود وهي أيضا التي أسهمت في الحرب اللبنانية بنصيب موفور حتى يقال ان التعايش بين الطوائف المختلفة قد فجره العرب بأيديهم.

تلك هي «الخديعة المركبة» التي سوف تتضح في تضاعيف الكلمات ووراء السطور وتحت غلاف الموضوعية والعلم ، اذا لجأ هذا المفكر الاوروبي أو ذاك الى : ــ

● افتعال التفرقة بين الموقف من فيتنام أو كوبا أو الجزائر ، والموقف من الكيان الصهيوني .. فالعنصرية ايديولوجية تغلف موقفا استعماريا ضد حركة التحرر الوطني وموقفا طبقيا ضد التقدم الاجتماعي للشعوب الحديثة الاستقلال ، وموقفا دكتاتوريا ضد الديمقراطية في العالم النامي ، ولا يجوز علميا ــ لا أخلاقيا فحسب ــ أن يتخذ المفكر موقفا حاسما من قضية روديسيا أو جنوب افريقيا . ثم يتخذ موقفا مترددا من قضية فلسطين والكيان الصهيوني .

● افتعال التفرقة بين الصهيونية والكيان الصهيوني ، فاذا أقر الفكر والضمير ان الصهيونية ايديولوجية عنصرية . لا ينبغي فصل النظرية عن التطبيق ، لان الكيان الصهيوني هو التجسيد العملي للفكرة الصهيونية وهنا لا يجوز التعامي عن الهيكل الواقعي الداخلي للدولة الصهيونية .

فالانخداع بالشعارات الاشتراكية والديمقراطية لا تؤيده ظواهر المجتمع العسكري التوسعي الذي يفرق بين اليهود أنفسهم فضلا عن التمييز البشع بين اليهود والعرب .

● افتعال المساواة بين «قوميتين» احداهما للفلسطينيين العرب والاخرى لليهود الصهاينة ..! اما بحجة الامر الواقع الذي دام أكثر من ربع قرن على « تعايش مجموعة بشرية على أرض واحدة ومناخ اقتصادي وسياسي واحد » ومن أصول عرقية متقاربة » ، واما بحجة ان بعض العرب ـ ممن حاربوا الكيان الصهيوني خصوصا ـ لديهم الاستعداد الآن للتعايش مع هذا الكيان .. فليس من العلم ولا من الضمير ولا من التاريخ القول بأن هناك قومية يهودية . وليس من العدل ولا من القانون بأن «ربع قرن» من الامر الواقع هو الماضي والحاضر والمستقبل وليس من الموضوعية ولا من الامانة الاستناد على أكتاف أنظمة عربية مهترئة لا تجسد بأية حال طموحات الشعب العربي الفلسطيني في العودة الى أرضه وحقه في تقرير مصيره .

انني أثير هذه النقاط سلفا لان المفكرين القادمين الى بغداد لمحاكمة العنصرية ليسوا عجينة واحدة ، فهم بالقطع ذوو انتماءات مختلفة واتجاهات متباينة . ولان المطلوب ليس «تعاطفهم» مع القضية العربية او الحق الفلسطيني ، بل المطلوب هو «كلمة العلم» في أخطر قضايا العصر على الاطلاق .. فلعله من المفارقات المؤسية ان عصرنا الحاضر هو عصر الثورات الوطنية والاشتراكية والتكنولوجية ، عصر انتصار الانسان ، ومع هذا فان الفكر العنصري يجد مكانا له في هذا العصر ، بل ويجد تجسيدا عمليا في هذه الكيانات المفتعلة هنا وهناك من جنوب افريقيا الى الشرق الاوسط.

ان عنصرية الفكر الصهيوني لا تسبب جرحا عربيا فقط ، بل هي عار انساني وخطيئة العصر بأكمله ، واذا استيقظ الضمير العربي ذات يوم على ان شعوره القديم بالذنب نحو اليهود هو شعور زائف ، وان شعوره

المعاصر نحو العرب يكاد يكون عنصريا وبالتالي يستوجب «التكفير» فان الزمن المناسب لهذه اليقظة يكون قد فات .. لان التاريخ لا ينتظر أحدا على محطات من الدموع .

.. ولان البشرية التقدمية في العالم أجمع سوف تناضل الصهيونية وكل فكر عنصري دفاعا عن شرفها وحرصا على مستقبل الاجيال القادمة من ان تلتهمها أفران الدم .

١٩٧٦/١٠/٢٧

— حاول البحث في هذه النقطة الهامة التشابه الكبير بين اصول الفكر النازي ، واصول الفكر الصهيوني

[العرق - الاستثنائية - النقاء - التصنيف حسب العنصر] ؟؟؟

ازمة الضمير الاوروبي .. الاحساس بالذنب تجاه اليهود ؟؟

" " " " " " " العرب ؟؟ متى وكيف ؟؟

١٦/١٥/١٩٨٥

المؤتمرات المضادة للحضارة العربية

هل يمكن ان تكون الصدفة وحدها هي التي دفعت احدى الهيئات الاميركية الى عقد مؤتمر ثقافي عربي اميركي مشترك قبيل انعقاد ندوة بغداد العالميـــة عن الصهيونية بأقل من شهر واحـــد ؟ أم ان المعركة بيننا وبين الامبريالية المعاصرة قد اشتد أوارها على الجبهة الفكرية بعد ان نجح الاستعمار ــ لبعض الوقت ــ في احراز المكاسب على بعض الجبهات الاقتصادية والسياسية ؟

والجواب الصحيح هو ان المعركة الايديولوجية بيننا وبين الامبريالية والصهيونية لم تتوقف يوما ، ولكنها في الفترة القادمة سوف تتخذ أبعادا خطيرة ، علينا دراستها بتأن وشجاعة وعمق من الآن حتى لا نجد أنفسنا فجأة في موقف رد الفعل .. بينما المطلوب هو الفعل نفسه دون زيادة أو نقصان . ذلك أن هناك فرقا شاسعا بين الحرب الفكرية للاستعمار ونحن في مرحلة مد تحرري قادر على التحدي ، وبين حربه الفكرية ونحن في مرحـــلة جزر عنيف ترتفع خلالهـــا الرايات البيضاء عاليـــة . انه ــ أي الاستعمار ــ في المرحلة الراهنة يريد أن يسدد الى قلب الامة العربية الضربة القاضية . يريد أيضا أن يثأر من ماضينا القريب ومن كافة المنجزات التي أحرزها هذا الجيل . يريد اخيرا ولعلها أولا أن ينقض على قلعة القلاع في حضارتنا على عمق الاعماق في حياتنا ، اعني ضمير هذه الامة وروحها وارادتها . ان السيطرة على الروح والضمير والارادة هي التكريس النهائي

والشامل للسيطرة على الارض والاقتصاد والمجتمع والسياسة .

لذلك أميل الى القول بأن مؤتمر واشنطن للحضارتين العربية والاميركية الذي عقد ابان النصف الاول من شهر تشرين ١٩٧٦ لم يكن صدفة على الاطلاق أن يسبق ندوة بغداد بأقل من شهر . بل أميل الى التأكيد بأنه بداية «الهجوم الفكري المضاد» للثقافة العربية والحضارة العربية والوعي العربي المعاصر بشكل عام . انه بداية المخطط الاستعماري على الجبهة الايديولوجية والذي يعكس في جوهره الانتصارات الجزئية والمؤقتة للامبريالية والصهيونية على بعض أرضنا وبعض أنظمتنا . ومن هنا كان لا بد من دراسة اعمال هذا المؤتمر الغريب بدقة ميكروسكوبية حتى لا نفاجأ بعدئذ بأشكال أخرى للحرب الفكرية لا تخطر لنا الآن على بال .

ومنذ البداية لا بد من الاقرار بأن أحدا لا يشك في قيمة ونوايا الاساتذة العرب الذين شاركوا في مؤتمر واشنطن ، غير انه من حقنا الشك غاية الشك في « اصالة » هذا المؤسمر ، وبالتالي في « معنى » انعقاده . وللوهلة الاولى يبدو للمرء انه مؤتمر مزيف ومفتعل .. ذلك انه من الوجهة الاكاديمية البحتة يجوز للباحثين ان يعقدوا المقارنات بين الحضارتين العربية والاوروبية أو بين الحضارتين العربية والصينية ، بحكم التفاعل الايجابي والسلبي الذي تم قديما وحديثا بيننا وبين أوروبا ، وبحكم القدم والعراقة التي يتميز بها العرب والصينيون . أما الولايات المتحدة الاميركية فبالرغم من ثرواتها وسلطانها وبالرغم من العطاء الخصب لبعض ابنائها في العلم والادب والفن ، فانها لم تصبح بعد — في عمر الزمن — حضارة متكاملة . واذا تجاوزنا مقاييس التاريخ والعلم قلنا أنها حضارة حديثة العهد جدا للدرجة التي لا يمكن قيام مقارنات — بالاختلاف أو الاتفاق — بينها وبين الحضارة العربية. لذلك كان وليم بارودي أحد الاعضاء الاميركيين في المؤتمر صريحا حين قال « ان العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الولايات المتحدة والعالم العربي آخذة في الاتساع .. ان الحضارة العربية

هي أقدم الحضارات والاميركية هي أحدثها ، والمهم اننا من خلال هذا المؤتمر يجب أن نبحث عن نقـاط الالتقاء واقـامة وبنـاء جسور بين الحضارتين » .

غياب الاصالة عن المؤتمر الاميركي اذن لا يحتاج الى دليل ، ولكنه يبرز المعنى الواضح في كلمات بارودي ، باستثناء استخدامه الخاطىء لكلمة حضارة ، والقصد الحقيقي والمباشر هو كلمة « نظام » .. فالعلاقات الحضارية لا تحتاج الى تعسف او افتعال ، امـا الجسور بين النظـام الاستعماري للولايات المتحدة وبعض الانظمة العربية . فهي وحدها التي تحتاج الى بحث نقـاط الالتقاء ونقاط الاختلاف ، حتى يمكن اقامتها وتشييدها في ضوء المصلحة والافكار معا . واذا كان الاميركيون والصهاينة قد عقدوا المؤتمرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع بعض العرب خلال السنوات الثلاث الماضية ، فقد آن الاوان ــ كما يبدو ــ لعقـد المؤتمرات الفكرية لتمنح «توقيعها الحضاري» على اتفاقيات الاستسلام والتبعية .

وتفضح أعمال المؤتمر الاميركي للمثقفين العرب هـذا المعنى فضحا كاملا . يقول وليام لوكتنبزج في بحث عنوانه «الادراك أو الفهم الاميركي للعَالم العربي» انه بالنسبة للاميركيين « فان العرب أناس يعيشون خارج التاريخ ، ورغم الحضارة العربية التي تمتد خذورها آلاف السنين ، فان جميع المؤرخين الاميركيين وبلا استثناء ومهما كان موضوع البحث لا يذكرون للعرب تاريخا أو حضارة أو تأثيرا على الحضارات الاخرى ، بل ان المؤلفين الذين تناولوا حياة المهاجرين الى الولايات المتحدة كانوا يدرسون جميع الاجناس ما عدا العرب » . هذا الاعتراف الحرفي الخطير ، يعلله الباحث الاميركي بأوهى الاسباب كضعف الاحتكاك بين العالم العربي والولايات المتحدة وكاختلاف التجربتين العربية والاميركية وكالجهل العميق بتاريخ العرب ، وهي أسباب لا تصلح مطلقا لتبرير الخطيئة العلمية

والحضارية المميتة : تجاهل حضارة حـديثة التكوين لاحـدى أعرق الحضارات الانسانية في العالم .

ولكن البروفيسور وليام لوكتنبزج يستدرك قائلا « ان هذا الواقع تغير فجأة في خريف سنة ١٩٧٣ عندما نجح المقاتل المصري والعربي في حرب البترول والطاقة في أن يفرض وجوده على الحياة اليومية في اميركا.. لاول مرة وبصورة فعالة بدأ الاميركي والاميركي المثقف يدرك العـالم العربي .. نجح أول عربي في أن يدخل البرلمان وبدأ الاميركي يعرف الكثير عن الدين الاسلامي . وبينما كان المصري يصور في الماضي على انه معدم فقير ، تغيرت الصورة الى العربي الذي يشتري قصرا في لندن » .

وعلينا ان نصبر طويلا على هذا «الكذب» المتواصل ، فننسى مثلا ارساليات التبشير الاميركية التي شيدت الكنائس والمستشفيات والمدارس والجامعات ودور النشر في طول الوطن العربي وعرضه منذ ثلاثة ارباع القرن ، وننسى أيضا عشرات المعاهد ومراكز الدراسات العربية في أكثر جامعات الولايات المتحدة الاميركية نفسها ، وننسى أيضا عشرات المجلات والصحف وجمعيات الصداقة العربية الاميركية .. علينا ان ننسى هذه المؤسسات جميعها ، التي رفعت حينا راية الانجيل وحينا آخر راية العلم وحينا ثالثا راية المساعدات الانسانية لتخفي تحت ثياب المسيح والاكاديمية والتمريض أهداف الاستعمار القديم والجديد والاكثر جدة . لننسى هذا كله حتى نفتح عيوننا على آخرها ونحن نقرأ للباحث الاميركي ان المقاتل العربي «في حرب البترول» هو الذي فرض وجوده على الحياة الاميركية، أما المقاتل العربي في سيناء والجولان فلا ذكر له ، لان تحرير الارض العربية لا يعني الباحث الاميركي ، أما الذي يعنيه فهو الدفء الذي حرم منه الغربيون اياما معدودة . والعربي الذي دخل الكونغرس هو أميركي من أصل لبناني ، ربما كان السناتور فولبرايت أكثر تقدما منه في الموقف من القضية العربية . والعربي الذي اشترى قصرا في لندن ليس هو ملايين

العرب الرازحين تحت الفقر الذي تسبب فيــه الاميركيون وحلفــاؤهم وأعوانهم .. ومع هذا فهم ينفرون منه ويعشقون صورة العربي لوردا انجليزيا . وهي صورة أبعد ما تكون عن صورة العرب الحقيقيين ، سواء أحبها الاميركيون أو كرهوها .

.. ولعل هذا الكلام كله ـــ رغم خطورته ـــ ليس مهما ، فالاهم ان المثقفين العرب الذين لا يشك فيهم أحد ـــ من حضروا هذا المؤتمر ـــ لم يردوا على هذا الكلام . وقبل الرد لم يتساءل أحدهم عن الدور الاميركي في الوطن العربي منذ أيام المرحوم دالاس ومشروع أيزنهاور لملء الفراغ في الشرق الاوسط وحلف بغداد الى حرب حزيران ١٩٦٧ الى رحلات المكوك لكيسنجر بعد حرب ١٩٧٣ الى مساعي الولايات المتحدة «الحميدة» في الحرب اللبنانية .

لم يتساءل أحدهم عن موقف « الحضارة » الاميركية من الكيــان الصهيوني الرابض في قلب الحضارة العربية . ولم يتساءل أحدهم عن التحالف الاميركي مع بعض الانظمة العربية لفرض التخلف والدكتاتورية والتفريط في الارض والانسان . لم يقل أحدهم ان النظام الاميركيي الراهن هو العدو الرئيسي للحضارة العربية الراهنة .. حضارة الانسان الذي لم يصبح بعد عضوا في البرلمان الاميركي ، ولم يشتر بعد قصرا في لندن .

لم يقل أحدهم ذلك ، لان المؤتمر كان هناك ... في واشنطن .

١٩٧٦/١١/١٠

القــرار

لماذا باريس ؟ ربما كان هذا هو السؤال الحائر على شفاه العديد من قرائي . وهو نفسه السؤال الذي وجهته لنفسي ذات يوم .. من تلك الايام التي تضاعفت فيها قذائف الصواريخ الموجهة من المنطقة الشرقية الى المنطقة الغربية في بيروت حيث أسكن .. ذات يوم من تلك الايام التي انقطعت فيها الكهرباء والماء والخبز ، وأصبح الانتحار البطيء يسري في دمائنا خدرا ، وأصبحت «الصدفة» هي سيدة الحياة والموت معا . أنت تعيش بالصدفة وتموت أيضا بالصدفة ولا منجاة لك في منزل أو في شارع أو حتى تحت القبو .. فاذا لم يلحق بك الموت في قنبلة عمياء ، لحق بك من المرض أو من الجوع أو من الجنون أو من الحياة بلا معنى .. حتى أصبح الامساك بالقلم جريمة ، أضحى عبثا في عبث ، وأمسى خطيئة تحملها على ظهرك بلا بطولة .

في ذلك اليوم الغريب كان لا بد من قرار . كان لا بد من أن أسأل رفاقي على درب الآلام : سمير كرم ونبيل زكي وميشيل كامل ، بعد ان سقط منا «ابراهيم عامر» في مذبحة جريدة «بيروت» منذ وقت قصير . كان لا بد أن أسأل رفاقي المصريين من الكتاب الشرفاء ، أولئك الفرسان النبلاء ، الذين بقوا في ميدان المعركة حتى اللحظات الاخيرة . وكان القرار «الجماعي» ــ أو الحد الادنى من الاتفاق ــ هو الخروج الآن من بيروت، سواء كان خروجا مؤقتا أو دائما ، وأيا كانت الجهة التي سنتوجه اليها .

غادرنا ميشيل الى أوروبا عاقدا العزم على العودة . وغادر سمير ونبيل الى القاهرة ، ثم عاد سمير الى بيروت وبقي نبيل .

في ذلك اليوم من أيام تموز اتخذت قراري الذي يراه البعض مفاجئا وربما غريبا ، وهو الاستقرار مؤقتا في باريس . غادرت في الخامس من تموز الى صور ومنها الى قبرص ومنها الى اثينا . وهناك استقبلت اولادي القادمين من مصر بعد عام من الفراق . رغم تكرار هذا الفراق فانه يحدث دائما كما لو كان للمرة الاولى . فمنذ أربع سنوات القاهم كل عام في بيروت طيلة الاجازة الصيفية . وفي أيلول يعودون الى القاهرة ومعهم قلبي المختطف وروحي الشريدة . هذه المرة تكلمت معهم طويلا ، أكثر من أي وقت مضى حاورتهم في كل شعورهم ان ضياع بيروت هو ضياع لهم أيضا . كانوا يستطيعون البقاء معي ثلاثة أشهر في السنة ، أما الآن فاسبوعان أو ثلاثة على الاكثر .

وفجأة طرحت عليهم قضية «باريس» لماذا لا تكون هي البديل لبيروت ولو مؤقتا ؟ الهام وناهد ووائل — وهدى ، جميعهم يتعلمون في «ليسيه الحرية» بباب اللوق في القاهرة ، أي أن لباريس وقع في نفوسهم لا تشترك معها فيه أية عاصمة اخرى . وكان الجواب — لدهشتي — بنعم، واجماعيا .. رغم ان باريس أبعد من أية عاصمة عربية عن القاهرة ، ورغم انه لن تتوفر لهم أسباب الحياة كما كانوا يستمتعون بها من قبل . ولكنهم قالوا «نعم» بروح واحدة وقلب واحد . لماذا ؟ أجابت الهام كبرى بناتي ان لذلك أسبابا عديدة أولها انه بغياب بيروت لم يعد هناك المنبر الليبرالي الذي يتحملني كلبنان ، وثانيا انه قد آن الاوان لاستعيد نفسي من براثن الكتابة السياسية اليومية واعود الى حقيقتي الفكرية والادبية كناقد (وهي ترى أن هذه هي صفحتي الاولى والاخيرة وغيرها مجرد هوامش في حياتي) . والسبب الثالث انها تستعد لدراسة الطب في باريس ومن ثم فوجودي معها — رغم الشرط المشترك باستقلال كل منا — سوف يساعدها

كثيرا . اما ناهد ووائل وهدى الاصغر سنا ، فكانوا سعداء بأن «الصيف» سيقضونه بعد الآن في فرنسا . واما والدتهم فكان رأيها المثير هو استكمال الدراسة الاكاديمية المنظمة ، ان أحول أحد مشاريعي الفكرية أو النقدية الى أطروحة لنيل الدكتوراه ، أي « بعد أن شاب ودوه الكتاب » كما يقول المثل الشعبي .

وكنت منذ شهور قليلة قابلت الدكتور لويس عوض في بغداد . وكان يحمل دعوة ملحاحة للعودة الى مصر ، كان يسميها «عودة الروح» لان ظاهرة خروج كبار المثقفين المصريين من القاهرة الى عواصم العالم أصبحت ظاهرة سلبية ، أو هي في الطريق لان تكون كذلك . ومن ثم فلا بد من عودة الجميع . ولكن لويس عوض التفت الي وقال : وانت تستطيع قضاء عامين أو أكثر في لندن أو باريس سواء داخل الجامعة أو خارجها .. سوف يكون ذلك مفيدا لك الى أقصى الحدود وكنت أعرف علاقته الوثيقة بالبروفيسور جاك بيرك عالم الاسلاميات الشهير في السوربون ، فاقترحت عليه أن يكتب له . وقد فعل .

وحين عدت الى بغداد في آب ــ بعد عودة الاهل من أثينا الى القاهرة ــ التقيت بالصديقين سهيل ادريس صاحب «الآداب» وأحمد سعيد محمدية صاحب «دار العودة» . بادرني سهيل بأن معه كتاب جاك بيرك الجديد «أصوات العرب في زماننا» وان به تحليلا وتقييما لمؤلفاتي في أربعة مواضيع على الاقل . وكان الامر مفاجأة شاملة لي ، وبالطبع مصدر سعادة خالصة . ولكن «الصدفة هي التي فاجأتني حقا ، فأنا أحمل خطاب تزكية من لويس عوض الى بيرك ، بينما بيرك يزكيني في كتابه أكثر مما استحق . أما سعيد محمدية فقد نبهني بأدب شديد الى ان الكتابة الصحفية يجب أن يوضع لها حد وان قرائي يريدونني ذلك الناقد الذي كتب «المنتمي» و «أزمة الجنس في القصة العربية» و «التراث والثورة» و « شعرنا الحديث الى أين » . هنا كان القرار قد تبلور نهائيا . وأخذت

الطائرة الى باريس .

كان الوقت صيفا جافا ومحرقا ، ولم يكن هناك أحد ممن احتاج اليهم ، فالجميع خارج باريس أو خارج فرنسا كلها . ولكني وجدت محمود أمين العالم ، الصديق والمفكر المصري الكبير ، يقوم عني بكل ما أريد وأكثر . غير انه قال لي انه لا بد من العودة آخر أيلول أو أوائل تشرين لان الامر حينئذ يتطلب وجودي الشخصي كما لا بد من أن أقابل جاك بيرك . وهكذا لم أبق في باريس اسبوعا وعدت الى بغداد .

لم يكن هناك من يعرف قراري بالرحلة الفرنسية الطويلة ، غير الزملاء المصريين في بيروت ، سوى صديقي الدكتور بشير الداعوق وزوجته الكاتبة غادة السمان . وحدهما كانا يدريان انني استعد لاقامة جديدة في عاصمة بعيدة عن الشرق العربي . أما الاصدقاء في بغداد فقد فوجئوا بالفكرة وبعضهم من موقع الحرص على بقائي في العراق ، عارضها . ولكني عدت الى باريس في الثالث عشر من تشرين الاول ١٩٧٦ وقابلت جاك بيرك بعد ١٧ يوما . أي في الاول من تشرين الثاني ، حيث كان يقضي اجازته بعيدا عن باريس بحوالي ٧٠٠ كيلومتر ، في قرية نائية شهدت مولده .

كانّ الرجل رقيقا معي وكريما . وكان محمود أمين العالم قد أدى في غيابي ما يفوق القدرة البشرية على الاحتمال .. فالجوانب الادارية في السوربون دقيقة وبيروقراطية الى أقصى حد ، وتتطلب المتابعة والمثابرة والدقة . سألني بيرك عن «الموضوع» الذي أريد الكتابة فيه . وكان قد وافق عليه من قبل في رسالة قصيرة بعث بها الي عن طريق مدام جراندان سكرتيرته الجامعية . قلت له كل شيء . ثم سألني عن مشاريعي في باريس ومشاريعي الادبية . وحين وصلت الى انني حاليـا مشغول بكتاب عن «النهضة والسقوط في الفكر العربي ــ مصر بين عهدي محمد علي وجمال عبدالناصر» توقف على الفور قائلا بعربية فصيحة : هذا هو ! قلت له : ماذا ؟ أجاب : هذا هو موضوع البحث . اما الموضوع الآخر فيمكنك

انجازه لحسابك الشخصي . وقد أبديت له بعض الاعتراضات «الاكاديمية» على مثل هذا البحث الذي يمكن أن يكون كتابا لا رسالة دكتوراه . غير انه أصر قائلا : انها اعتراضات صحيحة ، ولكنني منك أنت أقبل مثل هذا الموضوع الهام والخطير بغض النظر عن المقتضيات الاكاديمية . أنت لست مبتدئا حتى آخذك بتلك المقتضيات التي أحرص على توفرها في الآخرين. وضرب لي مثلا بشاب لبناني جاءه يقول انه يريد ان يبحث «تطور العرب» فضحك بيرك قائلا للشاب : متى وأين وكيف ولماذا ؟ أي عرب وأي تطور وفي أي زمن ؟ وانتهى الامر بينهما على أن يبحث الشاب تطور « قرية لبنانية في عشرين عاما » !

المهم أن مقابلة بيرك أثلجت صدري، وبذلت الدكتورة جراندان أقصى ما تستطيع لتجاوز المشكلات الادارية ، وعدت الى بغداد في الثالث من تشرين الاول ١٩٧٦ لاجد عاصفة مدوية في انتظاري ..

١٩٧٦/١٢/١٨

القرار المضاد

كان رفض «الاصدقاء» في بغداد للذهاب الى باريس قد تحول الى «قرار» مضاد لقراري بالسفر . وكانت حججهم كثيرة وبعضها وجيه ويدعو للتأمل . واعترف انني عشت لحظات مكثفة مترعة بالقلق ، تذكرت خلالها القرارات القليلة التي أخذتها في خيالي وكان لها أبعد الاثر في مسيرتي الفكرية والادبية والسياسية . فلا زلت أذكر ذلك اليوم الذي غادرت فيه «المعتقل» عام ١٩٦٢ وكان هناك قرار بفصلي من التعليم منذ دخلت السجن. ولكن ، كانت هناك أيضا لدى الكثيرين من زملائي آمال في العودة الى وظائفهم . وقد عادت الغالبية بالفعل . أما أنا فلم أحاول ذلك مطلقا . شعرت انها فرصة للخروج من عنق الزجاجة الادارية ولم أعد الى وزارة التعليم قط رغم المغامرة . فلم أكن قبلها مقيدا بين العاملين في احدى الصحف حتى يصبح لي الحق في العمل صحفيا محترفا . بل كنت ازاوج خلال ست سنوات بين العمل بالتدريس والعمل بالصحافة . ومن ثم فقد كان رفض العودة الى «الحكومة» ــ وهناك مثل شعبي مصري يقول : اذا فاتك الميري تمرغ في ترابه ــ وهو بمثابة مغامرة غير مأمونة العواقب . خاصة لمن كان في مثل حالتي له زوجة وأطفال ، وأنا عائلهم الوحيد . ولكني يومها اتخذت «القرار» . ولا شك أنني مع اسرتي لاقيت الكثير من العسر والهوان ولكن كان قرارا «مصيريا» في حياتي . اتجهت بعده بكامل قواي الى العمــل

الفكري والثقافي وانتجت بعده أهم مؤلفاتي وعشت بعده اخصب فترات عمري .

وكان القرار الثاني في حياتي هو «الخروج» من مصر الى لبنان .. واشهد ان هذه الفكرة كانت تداعب رأسي منذ بدايات عام ١٩٧١ ولكنها لم تختمر الا حين اتخذت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي قرارها الخطير في بداية عام ١٩٧٣ بفصل أكثر من مائة كاتب وصحفي وتحويلهم الى التقاعد أو الى مصلحة الاستعلامات .

في ذلك الوقت كنت مدعوا من جامعة برنستون بالولايات المتحدة للاشتراك في مؤتمر حول الادب ، ومن بعض الجامعات الاميركية الاخرى لالقاء عدة محاضرات حول الثقافة العربية المعاصرة . ورغم «الفصل» من الاتحاد الاشتراكي وبالتالي العمل الصحفي فقد حصلت على تأشيرة الخروج باذن خاص من وزير الداخلية بمساعدة بعض الاصدقاء . ولكني بدلا من السفر الى اميركا توجهت الى بيروت تنفيذا لقراري الشخصي رغم المغامرة، كان لدي احساس غامض بأن لبنان هو المناخ الوحيد الممكن للتعبير عن نفسي وتحقيق وجودي الاكثر شمولا من الذات . ولكنها مغامرة ، وان تكن من نوع جديد . أشد تعقيدا من المغامرة الاولى ، ففي بيروت سأكون بمفردي بعيدا عن أسرتي ، وهو أمر لم اعتده الا في فترات الاعتقال التي أمضيتها وراء الاسوار بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٢ في المرة الاولى ، وبين عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ في المرة الثانية . وفي بيروت «قطاع خاص» يعتمد على الفرد : سواء كان صاحب رأس المال أو الكاتب . وهو أمر لم يعرفه جيلي الذي نشأ وتربى في احضان صحافة الدولة . غير اني اتخذت القرار ونفذته وامضيت في لبنان حوالي ٤٠ شهرا دخلته في ايار ١٩٧٣ وطائرات الجيش اللبناني تضرب المخيمات الفلسطينية وخرجت منه في تموز ١٩٧٦ وراجمات الصواريخ تضرب من كل صوب المخيمات والبيوت والقصور والاكواخ والاشجار والبشر والحيوانات ، حتى الهواء سممته بغازات الاوبئة . ورغم

ذلك فاني فخور بالفترة التي أمضيتها في لبنان ، لقد عشت أعظم تجاربي الانسانية وعايشت اخطر مراحل تاريخنا في أكثر المواقع حساسية . وقد أثمرت هذه التجربة في عقلي ووجداني اعمق بكثير مما اثمرته في كتاباتي. لذلك كان قراري بالتوجه الى بيروت «مصيريا» بكل معنى الكلمة رغم المغامرة .

وحينما غادرت بيروت برا الى صور ومنها بحرا الى لارنكا في قبرص ومنها جوا الى اثينا ثم الى بغداد في الصيف الماضي لم تكن هناك في المخيلة سوى «باريس» لا ملجأ ولا ملاذا بل تجربة جديدة احتاج اليها . فأبواب مصر ليست مغلقة في وجهي وابواب بغداد وغيرها من العواصم العربية والاوروبية مفتوحة في وجهي • وصديقي البروفيسور جـان بروفمـان يحتاجني فيجامعة ليدن بهولندة للعمل فيأكبر مركز للدراسات الشرقية. ولكن لا ، رغبة المغامرة التي تختلف نوعيا عن المغامرتين السابقتين . فما أيسر الحصول على الاطمئنان بين أولادي واهلي في مصر ، وما اعسر الخلاص السياسي باللجوء المقنع الى هذه العاصمة العربية او تلك ، وما أيسر صنع الثروات في هذا المكان أو ذاك .. ولكن لا .

رغم انني جاوزت الاربعين ولست ذلك الفتى أو الشاب الذي يتحمل عناء الحياة الاوروبية وخصوصا في باريس • ورغم ان رصيدي ككاتب عربي ليس شيكا مقبولا للتداول في المحافل الاوروبية . وقد لمست عن كثب خلال زيارتين خاطفتين الى باريس في آب وتشرين الاول ١٩٧٦ بمشقة الحياة وضنى الغربة وصعوبة التأقلم . ولكني وجدت شيئا آخر بل اشياء. وجدت انني جزء من ظاهرة أعم يبلورها ذلك التجمع الممتاز من المثقفين العرب في فرنسا . وجدت ان باريس ليست مركزا للاشعاع الفرنسي او الاوروبي وحده ، بل هي مركز الحضارة الحديثة في أرقى جوانبها وأحطها على السواء . وجدت أن بيروت مجرد «رسم كروكي» لباريس فهي الاصل لهذا المناخ الذي افتقده . وجدت أن قراري الجديد ، الثالث بين قراراتي

الاساسية ، هو امتداد طبيعي للقرارين السابقين ، هو المحطة الطبيعية جدا في رحلة المغامرة التي ندعوها الحياة .

وهو قرار شخصي للغاية رغم أية ملابسات او ظلال او مبررات موضوعية . وليس من الشرف القول بأن الهجرة من التعليم الى الصحافة كانت قرارا نضاليا وان الخروج من مصر الى لبنان كان قرارا قتاليا وان التوجه الى باريس هو العمل الثوري .. فالحق ان المناضلين في الخطوط الامامية ــ داخل مصر ــ هم الاجدر بهذه التسميات السياسية ، دون ان نغمط حق الكثيرين في الخارج من أدوارهم الايجابية في الميدان السياسي. لقد بذل بعضهم حياته نفسها كابراهيم عامر في جحيم الحرب اللبنانية ، وبذل آخرون العرق والدم ليحافظوا على تماسكهم الداخلي وليضيفوا الى الصحافة اللبنانية والفكر العربي وليرفعوا عاليا صوت مصر ووجهها المشرق حين كان البعض يحاول تلطيخه في العتمة والسواد .

ولست أدري ما هو نصيبي من هذا «الدور» الذي لعبه المثقفون خارج مصر في هذه الفترة الحرجة من تاريخنا ، فغيري يستطيع القيام بهذه المهمة والزمن وحده صاحب الكلمة الاخيرة . ولكن ما أدريه ــ بصدق وشرف ودون أدنى محاولة للتواضع الكاذب ــ هو أن قراراتي لم تكن استجابة لدور العبه هنا أو هناك على هذا النحو أو ذاك . بل كانت قرارات شخصية هدفها الوحيد «تحقيق الوجود» سواء تجسد هذا التحقق في دور سياسي أو لم يتجسد ، وسواء تجلى هذا التحقق في الغرام بامرأة أو لم يتجل ، وسواء تمثل هذا التحقق في تأليف كتاب أو معركة ادبية او حتى نزوة فكرية أو لم يتمثل .

انني فحسب أحقق وجودي ، دون اعتبار للنتائج . ولان الحياة في جوهرها «مغامرة مع القدر» فاني لا اشعر بأن قراراتي مغامرات بالمعنى الساذج الشائع ، بل اعدها «مشاريع حياة» بالمعنى الذي قال به سارتر مضافا اليه الالتزام الحار والعميق بمسؤولية الوجود والانتماء الى تجلياته

العظمى في عصرنا : تجليات الحب والحزن والثورة .

انني ذاهب الى باريس اذن ، ومنها أكتب هذه الكلمات التي أحاول فيها ، مع العجز ، أن أكون أمينا مع النفس وفيا للروح مخلصا للعقل صادقا مع الغير .. حتى ولو غضب الآخرون .. أقرب الآخرين الى قلبي .

فهذا أنا

اقبلوني كما أنا أو ارفضوني ، فهذه حريتكم أما حريتي فلا يملكها أحد سواي .

١٩٧٦/١٢/٢٥

لا تنتظروا أحداً .. حتى غودو !

مودة باريس لعام ١٩٧٧ هي « احياء الموتى » كما عبر أحد النقاد هنا عن مجموعة الاحتفالات والمهرجانات التي تقام اسبوعيا لاحد أدباء فرنسا الكبار . وليس المقصود بالموتى موليير أو راسين ولا فولتير أو رامبو ولا بلزاك أو زولا ، بل المقصودون هم على وجه التحديد بيكيت ويونسكو وأرابال وادانوف ولا بأس من اضافة جان جينيه وروبير بلجيه !

هؤلاء الذين تألقت أسماؤهم طيلة الخمسينات في الغرب والستينات في العالم العربي ، أصبحوا «موتى» عند قطاع عريض لا يستهان به من المواطنين الفرنسيين . وصوت النقد هنا ، ليس صدى لنزوة او انفعال شخصي أو مؤامرة اغتياب او نميمة ، ولكنه صوت هذا الاتجاه أو ذاك من الاتجاهات الفكرية والفنية المصطخبة في صفوف الشعب الفرنسي .. قبل أن تنعكس في صفوف النقاد .

ولذلك فكلمات بعض النقاد الذين هاجموا «احياء الموتى» من الادباء ، لا تنفصل مطلقا عما قام به الجمهور نفسه .. فقد كتب على جدران أحد المسارح التي تعرض « لعبة النهاية » لبيكيت هذا السطر بخط واضح يقول « لا تنتظر احدا .. حتى غودو ! » مشيرا الى مسرحية بيكيت الاخرى «في انتظار غودو» . وقد سألت بعض الشباب المتجمهرين حول دار العرض عما اذا كان صاحب هذا السطر يستهدف الرد على تعكير بيكيت ، فأجابني أحدهم : كلا ، فالارجح انه يقصد أننا لا ننتظر بيكيت نفسه ! ذلك انه لم

يعد يعني لنا شيئا ، هو والآخرون ، لقد اكتفوا بأن قالوا لآبائنا من الجيل الماضي ــ أمثالك ! ــ ان الوجود عبث . وهي ليست فكرة جديدة عــلى الاطلاق ، منذ أيام سليمان الحكيم الذي قال «باطل الاباطيل الكل باطل وقبض الريح» الى الشهيد اليوناني المرحوم سيزيف ، الذي راح يرفع الصخرة الى قمة الجبل فلا تلبث ان تتدحرج الى السفح ، وهكذا الى ما لا نهاية دون جدوى . ولا شك ان بعض الافكار الكبيرة تتكرر من عصر الى آخر ، طالما ان جوهر الانسان ثابت . لذلك حين استيقظت فكرة العبث عند الوجوديين كانت يقظة طبيعية بعد الحرب العالمية الثانية . وقد جسدها سارتر وكامي تجسيدا فكريا فنيا عميقا . ولكن الاثنين كلاهما سرعان ما تحولا عن «العبث» الى الالتزام بدرجة أو بأخرى لانهما مع آخرين شعروا بمتغيرات العصر الجديد . أمــا بيكيت ويونسكو وغيرهما فقــد جــاءوا متأخرين ، وبقاؤهم الى الآن هو بالفعل نوع من احياء الموتى ، وموقف علني ضد الحياة . لماذا لا ينتحر هؤلاء الذين يقيمون الزينات لعبث ، حتى يصبحوا على الاقل شهداء الصدق ، شهداء الايمان ، ولو بفكرة خاطئة ؟

هذا على وجه التقريب ، هو مجمل الحوار الذي دار خارج قاعة العرض . اما داخل القاعة ، فكان الصمت والخشوع والمتابعة الحريصة على سماع كل حرف ومشاهدة كل حركة . اي ان ما جرى قبل رفع الستار كان نوعا من الحوار او الصراع بين الاجيال ، اما ما جرى بعد رفع الستار فهو يجسد المستوى الحضاري للمشاهدين . وكأن لعبة النهاية لعبتهم ، لعبة الجميع ، لعبة الموت ، اللعبة الوحيدة الصحيحة !

لماذا كانت تلك المفارقة الصارخة بين الموقف من بيكيت قبل المشاهدة والموقف منه اثناء المشاهدة ؟ ألا يدل ذلك على ان «شيئا ما» غير الفكرة البسيطة من عبث الوجود الانساني ، هو الذي يبقي بيكيت واقرانه احياء رغم موتهم .. أي رغم بعدهم المطلق عن الاضواء والضجيج ، ورغم بعدهم النسبي عن الوجدان الجديد للاجيال الجديدة ؟

وما هو هذا «الشيء ما» ؟ هل هو في مؤلفات بيكيت ويونسكو وأرابال ام هو في الانسان نفسه أيا كان الجيل الذي ينتمي اليه ام في طبيعة كل أدب وفن عظيم ؟

تجيب مجموعة الدراسات التي ظهرت حول رواد اللامعقول في المسرح الغربي الحديث : بأنه ما أكثر الذين كتبوا عن العبث والموت ولم يبق منهم في غربال الفن سوى أقل من القليل ، بعدد أصابع اليدين في العالم كله . وما أكثر الذين كتبوا عن الحرية في الآداب الانسانية المختلفة، ومع هذا فالذي تبقى على طول التاريخ لا يزيد على عشر روايات !

تجيب هذه الدراسات أيضا بأن الادب الحقيقي يشتمل بالضرورة على عنصرين أحدهما مطلق والآخر نسبي . اما المطلق فهو الذي يسبر غور الانسان أينما كان وفي أي زمان ، اما النسبي فهو مخاطبة للعصر الذي عاش فيه الكاتب والفنان ، احتجاجا او انتماء ، رفضا وتمردا ، أو التصاقا وولاء . هذا الجانب النسبي هو الذي يضعف تأثيره عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل .. حتى يصل الامر الى أن لا تفهم الاجيال الطالعة ما كان يقصده الكاتب في زمنه القديم . ولعل هذا هو جوهر الخلاف بين الجيل الغربي الجديد والكتاب الكبار من أمثال بيكيت . فالوجه النسبي لهذا الفنان ـ الشاعر والروائي والمسرحي ـ هو الذي يضيع في غمرة المنجزات والمشكلات الجديدة التي يضج بها العصر ، ويبقى وجهه المطلق ـ في قضية الموت ـ باقيا بقاء الحياة والموت . قد لا ينتظر ابناء وبنات الجيل الجديد غودو ، ولكن لغزه سيظل كامنا في اعماقهم يحرك اقدامهم من تحت الفراش الدافىء الى درجة حرارة تحت الصفر ليشاهدوا «لعبة النهاية» وهم يلعنون صاحبها !

.. على أية حال ، فقد احتلت مؤلفات بيكيت وكتابات يونسكو واجهات العرض للمكتبات الكبرى في باريس ، والى جانبها أشهر الدراسات وأحدثها التي كتبها النقاد .

ذلك كان الحال في دور العرض المسرحية، فقد مثلت «الكراسي» ومعها كلمات يونسكو «نحن نضحك حتى لا نبكي» ، كما مثلت «لعبه النهاية» ومعها كلمات بيكيت «تلدنا امهاتنا على حافه القبر» .. وبين ضحك يونسكو وبكاء بيكيت يكبر اللغز في القلوب الجائعة الى معرفة المجهول، ويصغر الامل في العقول المتخمه بمعرفة «المكلوم» !

١٩٧٧/١/١٥

من الشواربي إلى شارع الهرم
... فيروز لا تمر !

أول ما بحثت عنه الفتاة المصرية القادمة الى باريس هو أشرطة فيروز، وأول ما اشتراه الشاب المصري الوافد الى بغداد ، كان أشرطة فيروز . وعندما وصلت فيروز الى القاهرة لم يستطع شباك التذاكر ان يستوعب العدد المطلوب ، وظلت راديوهات القاهرة ساهرة مع الصوت اللبناني الرقيق ، ثلاث ليال كاملة ..

.. رغم ان كابريهات شارع الهرم لم تغلق أبوابها ، ورغم ازدحـام برامج الاذاعة المصرية بأشهر المطربين والمطربات .

ولكن فيروز تحيي حفلاتها الثلاث وتمضي ، كذلك فان الفتيات والشباب الذين يحصلون على أشرطة فيروز من هنا أو هناك ، لا يتجاوزون الواحد في المليون سواء في القاهرة او في أية عاصمة عربية غير بيروت.

والذين يلهثون وراء صوت فيروز ، هم أنفسهم الذين لا يعرفهم شارع الهرم ولا شارع الشواربي ، بينما تعرفهم جيدا المكتبات والجامعات والسهرات القليلة التي تناقش افلاما لم تسمع بها الرقابة ومجلات ممنوعة واسطوانات جديدة وافكار محرمة .

أفلام لا تحكي عن الغوازي والراقصات اللواتي حكمن الحكام ، ومجلات لا تروي آخر اشاعة رائجة في «الوسط الفني» ، واسطوانات

لا تدغدغ الحواس المخدرة بالكبت ، وأفكارا لا تستهدف فلانا او علانا من سلاطين الحكم .

.. بل أفلام ومجلات وكتب واسطوانات وافكار ، تفتح العيون على آخرها ، على الدنيا الجديدة التي صعدت الى القمر في طريقها الى المريخ . وتفتح القلوب على الدنيا الجديدة التي تحتفل بالحب مباشرة ، لا للحرمان أو الكبت أو القهر أو المرض أو الموت . وتفتح العقول على الدنيا الجديدة التي تخلت عن سحر المخدرات القديمة والجديدة واستيقظت على أن العلم هو الذي يبني وان الجهل هو الذي يدمر .. الروح والجسد والشعور . وأن الحرية هي العين المفتوحة والقلب الذكي والعقل المتوهج .

ولكن القلة المحظوظة من شبابنا العربي ليست محظوظة تماما ، فهي بشريط فيروز ، لا تملك سوى الحلم في جزيرة مهجورة ، محاصرة بلعنة الجحيم الشامل : تأوهات الاذاعة والتلفزيون وتشنجات المسرح والسينما ، وعفن الرمم والجثث التي تسود صحافتنا وثقافتنا وحياتنا . فالشواربي وشارع الهرم ليسا شارعين في مصر ، بل هما نغمة الحياة العربية الراهنة في الفكر والسلوك والقيم والمبادىء والاحلام والكوابيس أيضا .

لذلك تحولت فيروز الى رمز ، أيا كانت معاني الاغاني التي ترددها، فهي رمز الى عالم مختلف عن عالم «هزي يا نواعم» و «تعالي لي يا بطة» و «العيال كبرت» و«علي بك مظهر» وغيرها وغيرها من روائع شارع الهرم التي تقوم في كل شارع عربي ، انها رمز الى عالم مختلف عن واجهات شارع الشواربي المعروفة في كل شارع عربي : على هيئة قيم وعادات وتقاليد وسلوك وافكار وتشريعات وقوانين في الحب والزواج والطلاق والحياة والموت والجوع والثراء . عالم كامل لا علاقة لفيروز به، فهي ممنوعة المرور من الشواربي الى الهرم وبالعكس .

.. وكذلك شبابنا الحر بخياله والمسجون في واقعه بين حلم التغيير وكابوس الدمار !

وهو يترجم الصراع بين فيروز وشارع الهرم ، بالهجرة الى أوروبا ، أو بالانطواء الى حد الكآبة ، أو بالجنون او الانتحار البطيء .

أو .. هو يعشق بلاده حتى الموت ، لا احتجاجا كرهبان الشرق الاقصى . ولا مغامرة السباحين في مياه القطب ، ولا زهدا كنساك العصور الوسطى ، ولا .. ولا ..

بل انقاذا لنفسه من «الفصام» العقلي ، ولبـــلاده من الانقراض الحضاري ، يحل المعادلة الصعبة ، معادلة الحياة الحقيقية الحرة ، بالموت من أجلها .

بالموت يتحقق الحلم لا يعود حلما يصبح هو الحياة .

١٩٧٧/٢/١٩

انحناءة عابرة . . ليست نهاية الطريق

هل صحيح اننا ــ نحن العرب ــ نعود الى الوراء ؟ بل الى ما وراء الوراء كما يقول الاكثر تشاؤما ؟

كثيرون هم «التقدميون» الذين ينظرون حواليهم ويتساءلون بفزع : أليس تمزق العرب آية التخلف ، بدءا من تمزق صفوفهم السياسية وانتهاء بتمزق الشوارع والمجاري والسيارات والتليفونات والصحف ورغيف الخبز ؟ ألسنا في زمن الاستقلال أكثر تعاسة مما كنا في زمن الاحتلال ؟ لقد هبط مستوانا في كل شيء ، في الصحة والتعليم والصداقة والحب والتعبير والعمل وخفة الدم والمبالاة ، والثقافة والذوق و .. وكل شيء ! اننا نعود الى الوراء !

وكثيرون هم « السلفيون » الذين ينظرون حواليهم ويعزفون بخيبة أمل : نعم ، نحن نعود الى الوراء ، ووراء الوراء ، الى زمن الجاهلية ، في بحر الظلمات نسبح بلا هداية ، زادت نسبة الجرائم على نحو مجنون ، غرقنا في الخطايا حتى العنق ، وأصبحت ضمائرنا في المتاحف تنعي مستقبلنا الى المجهول ، الى يوم القيامة ، ضاعت الموازين وأهدرت القيم وباتت المثل العليا تئن تحت الرغام ، تتمرغ في حياة الرذيلة بسعادة الاشرار المحترفين ! اننا نعود الى الوراء .

وكثيرون من الشباب يرفضون كلام التقدميين وكلام السلفيين على السواء ويقولون : اننا لا نعود قطعا الى الوراء ، فالماضي القريب كان عظيما

ورائعا ونبيلا ، ربما كان عدد المثقفين أقل ، ربما كان عدد السكان أقل ، ربما كان الدخل الفردي والدخل القومي أقل ، ربما كان عدد الاهداف أقل. ولكن الامور كانت بسيطة وواضحة ، والصراع لتحقيق ما نريد لا يتوقف: ضد السيادة الاجنبية ، ضد الفقر والجهل والمرض ، ضد القهر والتخلف. ولكننا الآن نناقش أمورا انتهى منها أجدادنا وآباؤنا ، حسموها سلبا وايجابا ، يمينا ويسارا . ونحن لا نبدأ الآن من الخطوة الاخيرة التي انتهوا اليها ، اننا نتصارع حول القضايا نفسها بالافكار ذاتها ، وربما بالتعبيرات والالفاظ التي جرت على أقلامهم .. وليست هذه عودة الى الوراء ، انهـا عودة الى نقطة الصفر . ان التاريخ لا يجري لا يهرول ، كأن الزمن توقف فجأة ، أو كأننـا خارج الجاذبية الارضية نترنح في فضاء أسطوري لا حدود له !

ما الحكاية اذن ؟

أحقا نحن نرجع الى الوراء كما يردد بعض التقدميين وبعض السلفيين؟ أم اننا نراوح مكاننا في حالة «محلك سر» كما يرى الشباب ؟

والسؤال مهم لان الاختلاف بين القناعة والفعل ، يتسبب في عشرات التسلخات التي تظهر على جسد وطننا هذه الايام ، وطيلة السنوات الاخيرة، فمن يرى اننا نتقهقر الى الخلف غالبا ما تقوده هذه الرؤية الى اليأس من العربة الموضوعة امام الحصان . ومن يرى اننا متجمدون في براد الزمن غالبا ما تقوده هذه الرؤية الى اللامبالاة من الحياة والموت معا . فاذا جمعنا اليأس مع اللامبالاة وصلنا الى ذروة المرض الحضاري الخطير ، ما يسمونه بالشيزوفرينيا ، حيث أجسادنا تأكل وتنام وتضاجع وتتنفس ، وأرواحنا «ميتة» بالمعنى الذي قصده غوغول !

والحقيقة هي أنه ليست هناك في قاموس الحياة البشرية ، في موسوعة التاريخ الانساني ، عودة الى الوراء !! فالعودة الى الماضي مستحيلة كالقفز

الى المجهول تماما ، هو الآخر مستحيل . حتى الموت ليس عودة الى الوراء ، ولكنه محطة فردية في قطار جماعي لا يتوقف هو الحياة .

ورغم كافة المظاهر البائسة واليائسة والتعيسة ، فاننا نحن العرب ــ لا نعود الى الوراء !! فالتقدم في حياة الشعوب ، ليس هو المضي في خط تاريخي مستقيم لا ينحدر ولا يتعرج ، ولكنه خط حلزوني يلتوي هنا ويستقيم هناك ، ينعطف يمنة ويتجه يسرة ، ولكنه أبدا يظل في طريقه المستمر .. الى **الامام** .

وهو لا ينحني أو يستقيم بالصدفة أو المزاج أو بقدرة مجهولة، ولكنها الارادة البشرية وحياة الناس العاديين البسطاء هي التي تحرك تاريخهم .. ولذلك فالتقدم ليس ديكورا زاهي الالوان من التكنولوجيا أو القوانين أو أحدث الازياء والمودات أو الرطانة باللغات الاجنبية أو خلع الثياب في عرض الشارع أو أرقام الموازنة العامة للدولة أو الدخل السنوي للفرد . ولكن التقدم بمعناه الحضاري هو الانتقال من عصر الى آخر حتى اذا كان غيرنا قد سبقنا خطوة أو خطوات الى عصر ثالث .

والعرب ــ بكافة طبقاتهم واتجاهاتهم ــ يكابدون أهوال الخطوة الاخيرة في الانتقال من عصور قديمة الى عصر جديد ، يعيشون عذابات هذا الانتقال بذرات دمائهم ، بتمرداتهم وجنونهم وموتهم . ولكنهم يتقدمون ، كما تقدموا ذات يوم بارز في التاريخ . والمرحلة التي نحياها ليست أكثر من انحناءة عابرة في المجرى العام للتطور ، ولكنها ليست انكسارا ، ليست عودة للوراء ، ولا انكبابا على الماضي . وقد عانت غيرنا من الشعوب ويلات هذه اللحظة القاسية .. ثم عبرتها الى مرحلة أرقى . انها مرحلة المخاض السابق على الولادة ، مهما كانت الولادة متعسرة .

غير أن اهمال «الام» باليأس منها أو من المولود ، أو باللامبالاة ، هو الذي يؤدي بنا الى الموت ، فالتاريخ لا يمضي كالعجلة الى الامام بمحرك

مجهول ... ولكنه يمضي كالعربة بالسائق والفرامل واشارات المرور .

وقد وصل العرب بتاريخ الانسانية ذات يوم الى اعظم طرق التطور . وتوقفوا عن المسير ذات يوم طويل آخر . ولكنهم استأنفوا «النهضة» ذات يوم ثالث .. ربما كنا الآن نقاسي آلام نقطة النهاية .. نحو بداية جديدة تماما .

١٩٧٧/٢/٢٦

حبيبتي

عندما خطوت الخطوة الاولى الى باريس ، كنت قد طلقتها ثلاثا ، بشهادة الشهود وأمام القاضي ! لم يكن الطلاق البائن عن كراهية فهي حبي الاول وهي حبي الاخير . ولكني طلقتها في اللحظة التي رأيتها تهدد هذا الحب .

وقد كان حبنا سرا مكتوما عن جميع البشر ، باستثناء القلة القليلة التي لا تتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة ، ممن شهدوا مولد الغرام الكبير وأسهموا في اشتعاله وابقاء جذوته متقدة .

كان حبي لها ولا يزال في الدم والاعصاب وفي أرهف نخاعات العظم وتلافيف الدماغ . أحببتها قبل أن أتزوج ، وكنت أمينا فأخبرت عروسي قبل الزفاف بكل شيء ، وأضفت أنني لن أستغني عن حبيبتي . وفي نشوة أيام الخطوبة قبلت زوجة المستقبل هذا الشرط الغريب .. ربما قالت في نفسها انها قادرة مع الزمن على ان تنسيني الحب الاول . وربما قالت ان الزواج والاولاد سيشغلانني عن هذا الغرام . وربما أدركت ــ ونحن بعد في بداية الربيع ــ ان العمر سوف ينضجني ويجعلني «أكبر» على سنوات الماضي والمراهقة والرومنتيكية .

أقول ربما

ولكن الشيء المؤكد ، هو انها قبلت ! قبلت أن تكون لها «ضرّة» تعرفها واحيانا تراها وغالبا تسهر معها ، وفي جميع الاحوال تحلم بها في

كوابيس اليقظة والمنام ، تعذبها وتتعذب بها .. في صمت اثناء شهر العسل والعام الاول من الزواج ، وعلنا فيما تلا ذلك من ايام واعوام .

وحين أقبل الاولاد الى عالمنا ، انضموا الى امهم بلا تحفظ ، اتخـذوا جانبها دون تردد ، وأصبح «حبي» هو المشكلة الوحيدة التي تقف سورا بيني وبينهم !

وعندما اتسعت دائرة العارفين بالقصة من الاهل والاصدقاء ، تحول الجميع عني الى صف الزوجة والاطفال .. والثقافة أيضا ! قالوا : دعنا من أنك زوج وأب ، أنت رجل مثقف ، عيب عليك !

ولكن حبي كان أقوى . كان قد أصبح جزءا من كياني وتكويني من روحي وجسدي . ولم يكن يفرق بيننا سوى السجن أو المعتقل أو المرض. هكذا «توهم» الجميع ، ولكني أعترف الآن أن حبيبتي كانت تتسلق الاسوار العالية وتزورني . لم يكن ذلك قط احلاما أو هواجس ، ولكنه كان حقيقة حية ، يشهد بها المعتقلون من زملائي ، وكذلك المرضى !

مرة واحدة فقط ، قررت فيها التخلي عن حبيبتي دون التخلي عن الحب ، يوم أن قررت المجيء الى باريس .. قلت ، وقال معي أصدقائي ، انها فرصة العمر لتترك ، وتتفرغ لعملك الحقيقي : الثقافة الجادة العميقة، والانتاج الاكاديمي الرفيع المستوى ، سوف ينسيك حبك وتغرق ، والادق، انك ستنتشل نفسك من الغرق في هذا البحر الذي بلا قرار .

وبدأت رحلة النسيان . في اليوم الاول كنت تائها لا أدري ماذا أفعل. وفي اليوم الثاني كنت دائخا فعلت كل شيء وكأني لم افعل شيئا . وفي اليوم الثالث .. والرابع .. وبدا الامر كأني سأنجح وسأنسى حبيبتي . شاهدت أكبر عدد من أفلام السينما والمسرحيات وقرأت بنهم أكثر بكثير مما تستطيع طاقتي وقابلت أكبر عدد من الاصدقاء القدامى والجدد وحضرت العديد من الحفلات العامة والخاصة . كانت هذه كلها هي مخدراتي الخاصة التي تلهيني عن شيء ما ، خلته مع الايام وقد توارى بالفعل فكنت أصل

آخر الليل الى غرفتي وقد أنهكني التعب فأنام بلا أحلام !

الاصحاب انقسموا بعد ذلك ، بعضهم هنأني صادقا والآخر هنأني متخابثا ، والبعض عزاني بالكلمات الحلوة والآخر عزاني بالافعال المرة . البعض كان شجاعا فقال لي انني هارب عظيم ولكن ما أتعس الدفاع في قضية خاسرة فأنا أهرب من نفسي . والبعض كان جبانا فأتهمني بالجبن ! اما زوجتي وأولادي فلم يصدقوا النبأ ، بل هم لكثرة ما عاشروا حبيبتي حاضرة وغائبة أذهلتهم المفاجأة عن وعيهم حتى كتبوا لي : هذا لا يجوز ! انقلبت الآية حين صار الامر جدا .

واحد فقط التقطني من غمرة الضجيج . واحـد فقط كان أشجع الشجعان . أخذني من يدي ذات يوم ، وراح يجادلني حول جدوى هذا القرار . قال : لو انك اتخذته في ظروف طبيعية لما جادلتك ، لو ان الحب مات بالسكتة القلبية لما جادلتك ، لو ان حبيبتك تخلت عنك لما جادلتك . ولكن هكذا ، تبدو الامور بلا معنى . تعال معي .

أخذني من يدي ومضينا . لم أكن أدري الى أين . ذهبت معه كالمنوم مغنطيسيا الى مكان ما . حبيبتي كانت هناك . تركني معها وخرج . قال لي عبارة واحدة: خذا الآن معا القرار الصحيح. كان قرارا وحيدا.. كان عناقنا الدامع المجنون هو القرار الوحيد .

نسيت أن أقول لك اسم حبيبتي : الصحافة !

١٩٧٧/٣/١٩

أين أنت يا صديقي لأقول لك

مطلوب من شبابنا أن يسير على الزجاج المكسور وأن لا يقول آه ! مطلوب منه أيضا أن يرى نفسه في المرآة فيبصق عليها ! مطلوب منه أن يتعرى في عز البرد ولا يرتجف ، وأن يرتدي الصوف في عز الصيف ولا ترتفع درجة حرارته !

هكذا بدأ الشاب العربي القادم الى باريس لاول مرة حديثه معي صارخا : الى أين تقودوننا من آذاننا ، تفترضون أننا أطفال وتحاسبوننا كما لو كنا شيوخا ، تطالبوننا بما لا تفعلونه وترمون بنا من احدى قمم جبال الالب وتتوقعون اننا سنهبط على أقدامنا واقفين نبتسم !

قلت له : أسلوبك جميل في التشبيه ، كأنك تلقي علينا درسا في البلاغة . حدد معي ما هي المشكلة ؟

أجاب : خذني كعينة لا يقاس عليها ولكن يستدل منها على خطورة المأزق الذي يحياه هذا الجيل . اننا نحيا طفولتنا بين جدران مجموعة من القيم نرضعها من الام والاب والجد والجدة اذا كانا على قيد الحياة . ثم نخرج الى الشارع لنكتشف قيما اخرى لا علاقة لها بما تعلمناه في البيت. ثم ندخل المدرسة لنجد ان الكتاب يعلمنا قيما ثالثة لا علاقة لها بالبيت أو الشارع . نكبر وننضج ونقتحم ميادين العمل ، فاذا بنا نفيق من الاحلام والكوابيس على السواء ، لان قيم المصنع والمكتب والمستشفى والمقهى والزواج ، لا علاقة لها مطلقا بما تلقيناه في الطفولة والصبا وصدر الشباب.

قاطعته ضاحكا : ولكن هذه المراحل مررنا بها جميعا ، نحن وأنتم وآباؤنا ، فما الفرق ؟ ان تطور معنى القيم من بيئة الى أخرى ومن عمر الى آخر ، ليس امتيازا لجيل من الاجيال ولا شذوذا عن سنة الطبيعة . قاطعني بدوره صائحا في غضب : لا ، الفرق كبير ومذهل . ان المسافات بين مراحل القيم في الماضي كانت ضيقة ، وكان هناك نوع من التماسك والاتساق والتدرج بين مرحلة واخرى . أما الآن ، فثورة المواصلات ــ بمختلف معانيها التكنولوجية وغير التكنولوجية ــ قد أسرعت بمعدلات التطور بحيث أصبح القفز لا التدرج هو سنة الطبيعة . أصبحت الهوة واسعة بين «الحقيقة» كما يراها البيت والحقيقة كما يراها الشارع والحقيقة كما نقرأها في الكتاب ونشاهدها على شاشة التلفزيون ونستمع اليها في الراديو / اننا نعيش عدة عصور في عصر واحد /. وبالتالي فالقيم تتصارع داخلنا وخارجنا على نحو مروع لم يسبق له مثيل ، بحيث لم يعد هناك مفر من التمزق والاختلال الذي يؤدي ببعضنا الى الجنون وبالبعض الآخر الى المخدرات والبعض الثالث الى الانتحار ، تحت عناوين مختلفة سوف ترانا على حقيقتنا تحت مسام الجلد . أما الاقنعة التي نرتديها فهي من صنعكم ، احدى قيمكم أن نكذب ونتافق ونركب أربعة أحصنة في وقت واحد . اننا جيل البهلوانات الجدد ، الذين يضعون أحيانا ماكياج الوقار فتظنون بنا الرصانة ونحن منها براء . أنتم قتلة هذا الجيل العربي !

هكذا مرة واحدة ، اندفع كالبركان وخمد فجأة كالموت . ولكن الاتهام المأساوي ظل معلقا في فراغ الدخان بيني وبينه يرسم في الهواء الرمادي حبل المشنقة : لمن تكون ؟ من هو المجرم الحقيقي الذي ضحك على شباب هذا الجيل ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا الخدعة ؟ من هو المتهم الهارب الذي استطاع الافلات حتى سجلت الجريمة ضد مجهول . من؟ من؟ وظل السؤال يؤرقني في اليقظة والمنام ، يطاردني ككابوس مرعب

لا يبدو أنني سأفيق منه .. لان الشاب الذي فجر السؤال كالقنبلة ومضى، لم ينتظر حتى أجيب . كان يريد فقط أن يضع اصبع الديناميت تحت مقعدي وأن يشعل الفتيل تحت بصري وأن يضبط الساعة على ساعتي . كان قد جاء الى باريس للمرة الاولى فرأى عالما آخر ، لا يتدخل فيه مقص الرقيب ولا عيون الفضوليين ولا محرمات الاب والام ولا تعليمات الرئيس ولا.. ولا..

ولكني أردت أن أقول للشاب شيئا آخر قاله بريخت منذ أمد طويل : هناك شيء ما في هذا العالم خطأ . فلا التخلف ــ والتمزق ــ العربي هو خاتمة المأساة ، ولا التقدم الغربي هو الفردوس المفقود . أردت أن أقول له ان كلامه صحيح ولكنه ناقص . اننا لم نبلغ حقا سن الرشد الحضاري ، ولكننا من خلال المعاناة الدامية نولد ونكبر وننضج ، يسقط عشرات ومئات وألوف الضحايا ، ولكننا نسير . بعد موات طويل دام أكثر من ألف سنة استيقظنا من أكفان التاريخ كالمعجزة . وشبابنا ليس كله مجانين ومخدرين ومنتحرين ، بل بينه أيضا الابطال والعباقرة والعظماء من بناة العصر العربي الجديد والذي سيولد غدا . ربما كان المخاض عسيرا ، ولكن الولادة مؤكدة. والغرب الذي يشد البصر في لوعة هو ثمرة الموت والولادة المتتالين في التاريخ الاوروبي ، ثمرة التضحيات الباهظة التي دفعتها في سخاء أجيال بعد أجيال . والتقدم الغربي لا يزال ناقصا ، فهو لم يستطع بعد ان يحل المعادلة الصعبة بين الحرية والعدل . ولست أبالغ مع القائلين بأن الحضارة الغربية تنهار ، ولكني أقول أنها تعاني ويلات القهر في جزء من العالم وويلات القحط في الجزء الآخر . وربما كان المستقبل المذهل حقا هو تفاعل تجربتنا مع تجربتهم بحيث يولد القرن الحادي والعشرون ومعه حضارة جديدة كليا .

أقول ربما

ولكنني أسمع الشاب العربي القادم من باريس لاول مرة يسألني وقد

جحظت عيناه : ولكننا نكون قد متنا ، فما الفائدة ؟ ما معنى وجودي الآن؟

أين أنت يا صديقي لاعانقك بدموعي وهي تقول : اننا نحقق وجودنا كاملا اذا شاركنا في صنع العصر الجديد ، اذا أصبحنا أنبياءه المبكرين . ولا كرامة لنبي في وطنه . أليس كذلك ؟

١٩٧٧/٢/١٦

١٤-١٢-١٩٨٥

- أين أنت يا صديقي لأعانقك بدموعي وهي تقول ... ..

- أنا هنا بدلا منه - أو صديقك - أو ظله كصلاة ودعني أقول لك وأنا أعانقك.

تقول الشعب الآن هذه هي نقطة عجز أمتنا العربية من حاضرها المرير وهي مرة أخرى - للتذكير فقط -

جيل يدفع الثمن من أجل جيل قادم ..

لا

جيل يعي دوره في بناء الحضارة القادمة ..

العيب فينا أم في الزمن ؟

(١)

في القاهرة رأيت المشهدين بنفسي . الاول منذ عشر سنوات على وجه التقريب . وقف الممثل الكبير الذي أبكى آباءنا وامهاتنا وربما أجدادنا وجداتنا ، على خشبة المسرح العتيد بعد هجرة طويلة للفن . صفقت القاعة للقامة المهيبة وهي تنحني للجمهور في جلال وشموخ . وبدأ الفنان الكبير يلقي دوره ، هامسا في البدء ، ثم تدرج الصوت في الارتفاع حتى وصل الى الذروة بجملة بليغة شهيرة راجت مثلا في الماضي . كانت «عبـارة» تخطف الانفاس من المشاهدين كل ليلة وتفجر الدموع وتلهب الاكف ، وفي غمرة الانفعال كان المتفرجون يهبون من مقاعدهم واقفين يهتفون باسم الممثل الكبير ، فيعيد الجملة «الخالدة» مرة ومرات حتى تستريح الجفون وتخمد الاعصاب وتتعزى الضمائر . اما في تلك الليلة التي شاهدته فيها «يعود» الى خشبة المجد ، فقد وصل الكريشندو الى الذروة ، وتوقف الممثل لجزء من الثانية متمهلا ــ ليسمع الدوي المعتاد في الزمن القديم ــ فاذا به يستمع مذهولا الى ضجة من الضحك العالي والصخب العنيف . لم يصدق ما يرى ، فأعاد الجملة الشهيرة ، ولكنه لدهشته البالغة فوجىء بالصمت واللامبالاة، وكأن شيئا خطيرا لم يحدث. وعندما اسدلت الستارة، كان سؤاله لاول الاصدقاء : ماذا جرى للناس ؟ كيف يضحكون لموقف تراجيدي ؟ ولم يجب الصديق . وتهدج صوت الممثل الكبير ، وهو منفعل

لا يفهم : يبدو ان المسرح كان ايام زمان ، كان الناس في الماضي يركعون لي ، اما اولاد اليوم فقد جاءوا للسخرية !

والمشهد الثاني رأيته منذ شهر واحد فقط ، على خشبة ذلك المسرح الذي كان الناس يحجزون فيه مقاعدهم قبل العرض بأيام . وكانت الاعلانات في الماضي تفخر برقم المشاهدين الذين تجاوزوا المليون . وكان التلفزيون يستجدي أصحاب الفرقة نقل مسرحيتهم الى الملايين الذين لا يقدرون على دفع ثمن التذكرة . وكان الضحك يخترق اسوار المسرح الى الشارع ، والبعض يحسد البعض الآخر على انه فاز بثلاث أو أربع ساعات من الضحك المتواصل حتى الاغماء ، و «الاستلقاء على القفا» كما يقول المصريون . كان ذلك في الماضي القريب . أما حين شاهدت أحدث مسرحيات هذه الفرقة الشهيرة منذ شهر ، فقد فاجأني منذ البدء ان المقاعد الخالية منثورة بطول القاعة وعرضها .

ثم بدأ الممثلون ابتزازهم لضحك المتفرجين ، فاذا بالنكات تعانق الهواء ، واذا بالقفشات ترجع الى اصحابها صدى باهتا ، واذا بالناس ينشغلون بالطعام والاحاديث الجانبية ، وحين يضحك أحدهم فلان جاره همس في اذنه بآخر نكتة . وحين كان الممثل يشهر في وجه «الزبائن» جميع أسلحته في الاضحاك ، بعينيه ويديه وقدميه ، ويتبارى مع زملائه في استخدام أكثر الالفاظ بذاءة ، ويتشجع قليلا ويدلي بغمزة سياسية ، فان الناس كانت تضحك ببرود ضحكا غير صادر من القلب .

ولم اسمع النجم الكوميدي اللامع يتساءل عما يستطيع أن يفعل للناس حتى يضحكهم .. لكنني سمعته يسأل زميله عن ضرورة الاسراع في اعداد جدول الرحلات الى بعض العواصم العربية والاوروبية والاميركية ، لعل المصريين هناك لا زالت لديهم خفة الدم وقابلية الضحك !

(٢)

وفي احدى الكواكب البعيدة اكتشف أحـد علماء الفضـاء ان المخلوقات العجيبة هناك تلعب شيئا شبيها بما نسميه نحن سكان الارض بلعبة الشطرنج . وسجل في مفكرته حادثا مثيرا وقع هناك أثناء وجوده بالصدفة . وموجز الحادث ان اثنين من السكان من هواة اللعبة فوجئا بالقطع ــ المصنوعة من الحجر ــ تتحرك وحدها فوق الرقعة . ثم اكتشفا بعد قليل ان القطع تتبادل مع بعضها الكلام بلغة جديدة ، غمضت معانيها على اللاعبين . ولكنهما ادركا مع الوقت ان القطع الحجرية لا تتحرك وفق أوامرهما ، بل ان الجيشين المتقابلين على الرقعة يتحركان هنا وهناك بمحض ارادتهما .. ولم تعد لدى الاثنين من سكان ذلك الكوكب الغريب القدرة على التحكم في تحريك القطع . ولاحظ اللاعبان ان « الحركة » الطبيعية للقطع حسب المسار المألوف للعبة لم تعد منتظمة ، وان حوارا غامضا كالشجار دب بينهم . وتدخل عالم الفضاء القادم من الارض محاولا فهم هذا اللغز . وقد تمكن ــ كما يقال ــ من فهم اللغة الجديدة التي تتكلم بها قطع الشطرنج . وقال لاهل الكوكب ان «روحا» ما قد بعثت في الحجر المصنوعة منه القطع ، وان هذه القطع لم تعد تصلح «لعبة» تتسلون بها ، وأن حوارا يدور بين أفرادها عن المستقبل : هل تعود الى سابق عهدها «قطعا» تحركها أصابعكم ، أم تستمر في «الحياة» أيا كان المجهول ؟

وبينما العالم يتكلم ، توقفت نصف قطع الشطرنج عن الحركة وعادت صفوفا منتظمة في مربعات الرقعة ، عادت قطعا من الحجر . اما النصف الآخر فقد ازدادت فيه الحياة واشتعلت به الحركة ، وأخذ يبتعد قليلا عن الرقعة .. حتى تركها نهائيا ، لا نعرف الى أين !!

(٣)

في هذا الوقت تماما كان البحر يبتلع أحد الشعارات ، وكان الجبل

يلد فوق قمته مدنا جديدة ، وكانت الصحراء تلتهم بعض الغابات ، وكانت الرياح تدفع امامها سفينة بيضاء ضخمة هبطت من السماء كحوض من الزهور .

وكان هناك صوت ناي قادم من كهف يدندن بنغمة حزينة : العيب فينا أم في الزمن ؟

والمثير انه كان صوتا بلا صدى .. في الخارج ، كان الناس يبكون ويضحكون ويتكلمون بلغة جديدة !

١٩٧٧/٢/٢٥

تأخرت « الساعة » ربع قرن !

دائما ، كان يبدو وحيدا . حتى وهو وسط أقرب المقربين وأخلص الاصدقاء يدهمه الشعور بالغربة دون سابق انذار . لم يكن منطويا قط ، ربما كان على النقيض .. فهو حريص على ريادة الاماكن العامة والمنتديات ، والاشتراك النشط في المبادرات الجماعية ، كالرحلات والحفلات والندوات والمحاضرات . ولكن هذه كلها كانت نوعا من «المقاومة» ، كان افراطه فيها دليلا حاسما على بعده الداخلي عنها . كان يخشى أن ينفرد بنفسه ، وهو وحيد . ظل يحلم بأن «الجماعة» قد تقهر وحدته وشعوره المرير بالغربة .. في وطنه !

وفي عيون الاصدقاء بدا لهم دوما «غريبا» وأحيانا كثيرة «مستغربا» .. فهو أول من يشتري كتابا اجنبيا من المكتبات ، واول من يشتري اسطوانة مسجلا عليها أحدث قطعة موسيقية في الغرب ، وأكثر من يتابع الافلام العالمية التي لا تصل بلاده في المجلات الاوروبية والاميركية . وبين أقرانه ظل غالبا ابرزهم في اتقان اللغات الاجنبية . وهكذا كان «وجدانه» و «عقله» خارج الحدود ، وضميره وقدره داخل الحدود .

وكان تواضع الحياة التي يعيشها في بلده يشكل مفارقة أليمة بين فكره وسلوكه .. فاهماله المثير في ثيابه وطعامه ونومه وعمله لم يكن منسقا بأية حال مع أفكاره وأحلامه . لم يكن الفقر وحده هو السبب ، ولم يكن الزهد أيضا وراء ذلك «المظهر» الفوضوي التعيس . ولم تكن

لديه بالقطع «فلسفة» بوهيمية من أي نوع كانت . ولا مجال للقول بأنه لم يتعمد مطلقا الظهور المأساوي لاستدرار العطف أو اتباع سياسة «خالف تعرف» .

كان ببساطة شديدة مهملا في نفسه بالصدفة ، متوهما ان لا علاقة للناس بمظهره . يكفيه ان يتميز بالاطلاع الواسع والفهم النافذ والقلب البصير . بل لعله كان يشعر بالتفوق والحداثة والعصرية .. لان «أوروبا» فيه ، تحت مسام الجلد المتسخ وبين خلايا الدماغ المغطى بالشعر المنكوش، وفي كل خلية من دمه الذي تتناقض فيه كرات الدم الحمراء يوما بعد يوم. أوروبا داخله ، في طبلة الاذن المغسولة بأغاني بول روبسون ، وفي حدقة العين التي تآكلت مع الحروف السوداء الصغيرة ولم يعد لونها واضحا من وراء الزجاج السميك . أوروبا في مخيلته لم تعد جغرافيا ولا تاريخيا ، أضحت معه شيئا واحدا ، يتجول صامتا في ابهاء اللوفر وردهات المتحف البريطاني وقصور فيينا وكاتدرائية سانت بيتر في قلب روما . كل بنات باريس هن بريجيت باردو وكل فتيات ايطاليا هن صوفيا لورين ، يعشق على ضفاف السين وينام في الهايد بارك ، ويمضي لياليه في حانات اثينا ومدريد. ولم يدر قط ، ان اصدقاءه الحقيقيين خيالات مجنحة وافكار مجردة ، من نسيج الحلم .. وأن «اصدقاءه» الذين يراهم ويلمسهم ويناقشهم ، أبعد ما يكونون عن عالمه .. انهم خارج السور العالي الذي بناه لنفسه ، خارج دائرة الذات التي تجسدت في الوطن ولكن روحها تحلق في الغرب . وكان ذكيا بحيث أدرك المفارقة على نحو مقلوب : ظن الجميع يحاصرونه ، وقد كان هو الذي حاصر نفسه ، ظن الجميع لا يفهمونه ، وقد كانت نفسه مصدر الغموض ، ظن الجميع يحترمونه ولا يحبونه ، وقد كان هو الذي أغلق العقل والقلب عن الجميع ، ظن الجميع متخلفين ، وانه هو «السابق» وهو «الامام» .. بينما كان انقسامه تجسيما مخيفا للتخلف .. عن الوطن !

* * *

بعد عشرين عاما او يزيد قليلا ، تحقق الحلم ! قرر صاحبنا فجأة ان يزيل الفصام ويكسر انقسامه الداخلي ويرحل الى بلاد الحلم، الى أوروبا.... أراد أن يمزق الشرنقة التي تحيط عقله وقلبه كالسوار بالمعصم ، أراد أن يقفز سور السجن .

وفي باريس رأيته !

وحيدا ، كما كان وأكثر ..

حزينا ، كما كان وأكثر ..

أكثر كثيرا ، كانت المرارة في عينيه قبل شفتيه ، تعتصر أعماق أعماقه بلوعة صامتة ، تصل به الى حافة الجنون ! كان يظن انه جاء الى «وطنه» الذي يعرف شوارعه وزواياه ونبضه وخفقات شرايينه ، ذلك العالم الذي حفظه عن ظهر قلب من الكتب والمجلات والافلام والاسطوانات ، فاذا بقبضة قاسية تمحو هذه «الصورة» تماما ونهائيا .. واذا به أمام «عالم» جديد يحتاج للاكتشاف من جديد ! ليست هذه هي اوروبا التي قرأها وسمعها وحاورها في السر ، انها عالم آخر يحتاج الى الكشف ، فكيف الطريق ؟ ومن أين يبدأ ؟ ومتى .

قال لي في هلع : لقد انتظرت أوروبا طويلا ، ولكنها للاسف ، يبدو انها لم تنتظرني .

كان يتكلم كما لو كان الحديث عن حبيبته ، ثم نظر في ساعته وقال « يبدو اني تأخرت » . سألته عن موعده ، فابتسم بشقاء كبير وهمس «قصدت انني تأخرت عن المجيء الى هنا ربع قرن» .

.. وعاد ، كما كان ، على أول طائرة .

١٩٧٧/٣/٤

أنت أنت .. ولو تغير فيك كل شيء !

يكره الغرب ! منذ كان صبيا لم يتخذ موقفا وسطا ، فحين قال له والده انه بلغ السن التي ترشحه لدخول المدرسة كأقرانه ، وان عليه ان يخلع عن رأسه الطاقية وعن جسمه الجلباب، تصدى للاب وكأنه رجل ناضج يقول : كلا ، لن أكون أفنديا أبدا ، لن أرتدي البدلة والطربوش . يا ابي ، انني أحبك ، ولكني أحب الجبة والقفطان والعمامة ، الحقني بالمعهد الديني، الله يرضى عليك .

وكان الاب يحب ابنه الوحيد ، ولانه يحبه فقد كان يحلم بأن يصير مهندسا أو طبيبا أو ضابطا ، كأبناء البكوات والباشوات ، خاصة وان الذكاء ينطق من عيني الفتى ، حتى انه بز اصحابه جميعا في «الكتاب» وحفظ القرآن عن ظهر قلب ولم يكن قد بلغ الثامنة من عمره .

ولكنه يكره الغرب ! تفرغ لهذه الكراهية تفرغا عجيبا ، فأصبح يتـأمل غروب الشمس ويكره الغرب ، وأصبح يشيع الموتى الى الجهـة الغربية ويكره الغرب ، وأصبح يستمع الى المثل الشعبي «اللي ييجي من الغرب ما يسر القلب» ويكره الغرب .

ودخل المعهد الديني ، وازدادت كراهيته للغرب ! عرف الصليبيين وما فعلوه بالعرب واحب صلاح الدين / وعرف نابليون وماذا فعل بأبي الهول والهرم الاكبر والازهر وأحب عمر مكرم . وعرف ولسن وكليبر وكتشنر وأحب عرابي وسعد زغلول وجمال عبدالناصر .

وترك المدينة الصغيرة ورحل الى القاهرة ، ليجاور الازهر الشريف متألقا في العمامة البيضاء متخايلا في القفطان اللامع هارعا الى سجادة الصلاة كلما انطلق صوت المؤذن . وفي العاصمة الكبيرة كبر وتعلم وتدفقت موهبته بسخاء في اللغة والبيان ورواية الشعر القديم . وكبرت معه الكراهية للغرب وتعلم أكثر فأكثر أن الغرب هو شر الشرور . يكمن في ثياب الافندية وملابس المتبرجات ، يكمن في اللغة الاجنبية وفي مواد الدستور وبنود القانون ، يكمن في المقاهي والكابريهات والكازينوهات والجامعات والمعاهد والمدارس . انه الشر الذي يتنفسه الناس في الهواء دون ان يشعروا ، ويأكلونه في الصحف والأذاعة والكتب والسينما دون ان يفكروا .

انه الغرب ، وكفى أو حين علم ان بعض النقاد يتهمون محمد عبدالوهاب بأنه يتأثر في موسيقاه بالالحان الغربية لطم وكأنه شاهد حبيبته متلبسة بالخيانة . وحين سمع ان سيد درويش كان يزمع قبيل وفاته أن يذهب الى ايطاليا ليتعلم اصول الموسيقى الحديثة شكر السماء بدموعه انها استعادت روح الشيخ سيد قبل ان تتلوث . اما حين قيل له ان الشيخ رفاعة الطهطاوي والشيخ الامام محمد عبده والشيخ الدكتور طه حسين والشيخ امين الخولي والشيخ خالد محمد خالد ، لا يرون الغرب كفرا ، وبعضهم رأى وعاش في باريس ، واحدهم على الاقل نال أرفع الشهادات من السوربون .. فقد وضع رأسه بين كفيه وبكى متهدجا «اللهم احفظ لي ما تبقى من عقل ، انك السميع العليم يا ارحم الراحمين» .

وقد زغرد الذين يحبونه ذات يوم من أعماق القلب ، حين اعترته نوبة تطور كشعريرة البرد ، ارتجف على أثرها وهو يردد مأخوذا برؤيا لم يرها معه أحد «ليكن . ليكن غربهم لهم ، وشرقنا لنا» وسبح بحمد الشاعر الامبراطوري الذي قال «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي الاثنان» معقبا «اذا كانوا هم أنفسهم يؤمنون بذلك ، فما أجدرنا أن نتمسك

بإيمانهم» . وفتنه العقاد حين قرأ تأييده المطلق لكلمات الشاعر الانكليزي رديارد كبلينغ .

* * *

ومضت الايام ، فأزالت مسحة التعصب ، ولكن الموقف من الغرب ظل كما كان .. لم يعد «كراهية» بل أصبح فلسفة وعلما ونظرية متكاملة الاركان . لم تعد القبعة أو البدلة أو الدستور أو القانون الفرنسي أو قبلة السينما أو اللغة الاجنبية ، هي مصدر «الموقف» وينبوعه. وحتى «التاريخ» تراجع قليلا ، ولم يعد باعثا على الثأر .

بل ..

في احدى اللحظات الحادة في حياة كل فرد ، اتخذ صاحبنا قرارا مذهلا ، هو ان «يقتحم الغرب» وجها لوجه . تعلم لغته ولم يخلع العمامة، تبحر في ثقافته ولم يخلع الجبة ، ركب الطائرة وفي حقيبته سجادة الصلاة.

وفي قلب «الغرب» لقيته ، هناك في قلب القلب ! كان قد سبقني الى هناك منذ عامين فقط . وحين جئت رحت ابحث عنه في المكتبات ومعاهد الاستشراق ومراكز الدراسات العربية والاسلامية ، دون جدوى ! وقلت لنفسي ان «الشيخ» قد تصوف وتدروش ولا بد انه في صومعة بعيدة عن ضجيج المدينة ، وانه متعبد في محراب العلم والدين .

وظللت ابحث عنه حتى نال مني اليأس . وفي اللحظة التي قررت فيها التوقف عن «ملاحقته» التقينا . وكان المستحيل أن أعرفه . ولكنه عرفني. ابتدرني كهل ذابل العينين ولحية مرسلة وبنطلون باهت وصدر عار ورقبة علق حولها شيئا ما ، بحلق جاف وصوت متكسر : أنت لم تتغير ، انت كما أنت ! وحاول أن يبتسم ، ولكن الشحوب ترجم الابتسامة بفظاظة كأن الرجل يختنق . خطفتني المباغتة ثوان ، وكأني في كابوس . هززت رأسي ووجدته هو . تأملني قليلا ، كأنه يتثاءب ، وسأل : ماذا ؟ هل فوجئت ؟

صدقني ، لم أتغير . انه الغرب . وحش كما ترى . انا البرهان . علينا ان نكرهه ، لانه يكرهنا . وانا الدليل . هل ترى ما فعل بي . لم أعد أنا انا كما تلاحظ أليس كذلك ؟

.. ولم يسمعني وأنا أهمس لنفسي : كلا ، بل أنت أنت ، لم تتغير ، حتى ولو تغير فيك كل شيء !!

١٩٧٧/٣/١١

احترق الشهاب .. ولم يعد !

كان من الطبيعي أن يذهب الى أوروبا في ذلك الوقت تماما . كل ما فيه وكل ما في وطنه يدفعه الى هناك ، حيث اللغة التي تعلمها طفلا ، والثقافة التي شربها صبيا وشابا ، وأخيلة الحياة التي راودته في اليقظة والمنام .

كان في البيت والمدرسة يتكلم الفرنسية ، وفي الجامعة ــ حين قرر دراسة الفلسفة ــ استغل معرفته باللغة الاوروبية الثانية في التفوق على أقرانه . حتى وضع كلتا يديه ، في سن القلق والغموض والتمزق ، على مفاتيح المعرفة الاساسية . والاهم من ذلك انه وضع قدمه على أول الطريق الصحيح ..

كان ذلك في الاربعينات ، ووطنه جمرة ملتهبة ، بوادر التغيير الكبير تلوح كالشراع الابيض لقارب صغير يغالب موجات البحر العاتية في تفاؤل الذين رأوا اليابسة من بعيد ..

وغمر الحماس الفتى وهو يمضي في بدايات طريق العذاب الوحيد الصحيح ، وحين أقبلت عاصفة التغيير الكبير كان جنديا باسلا في الكتيبة الاولى التي استدارت حول العاصفة كحزام واق من رصاص الذبول والشيخوخة والموت .

وظل في المقدمة شاكي السلاح ، بالكلمة المنيرة والنبضة الخافقة والزهرة المتلألئة . كان قد استطاع ان يمزج بين عقله الاوروبي ووجدانه الوطني في مركب جديد ، مليء بالاحلام في الغد وما بعد الغد .

.. الى ان أقبلت العاصفة المضادة ! من قلب العاصفة المضيئة بألوان الطيف أتت ، كصاعقة تدمر الاخضر واليابس ، كقطة تأكل ابناءها !

وأقيمت الصلبان والمحارق في الميادين العامة لكل من هتف يوما باسم التغيير الكبير . ولكنه كان قد استطاع ان يفلت ! كان من الطبيعي أن يذهب الى أوروبا في ذلك الوقت تماما ، منذ حوالي سبعة عشر عاما رحل ..

ولم يكن رحيله هروبا الا من المحرقة .

ولكنه لم يكن هروبا من الوطن !

* * *

ظل الوطن في قلبه لؤلؤة لا تباع ولا تقدر بثمن . وظل شريان القلب ممتدا من بين الضلوع الى أرض الوطن في دورة دموية منتظمة ، يأخذ ويعطي .

.. أخذ من أوروبا الكثير .

.. وأعطى للوطن الكثير .

وفي أخذه وعطائه أصبح نجما في سماء أوروبا وسماء الوطن. وحين هدأت العاصفة المضادة للوطن ، انطفأت النار وبقي النور كاشارة من الشعلة الذهبية ان يعود الابن الى الارض . بعد خمس سنوات كان من الطبيعي ان يعود كما كان الامر طبيعيا في الذهاب .

ولكن الابن كان قد صار «نجما» ، رأى نفسه خارج نطاق الجاذبية الارضية ، في فضاء الكون ، أكبر من سماء أوروبا وسماء الوطن ، فلم يعد ! أخطأ التوقيت ولم يعد . نسي في لحظة ما أخذه من أوروبا وما أعطاه للوطن ولم يعد .

لم يعد ، ولكن أين بقي ؟

لم يعد الى الوطن ولم يعد في اوروبا .. فحين رأى النجم نفسه وحيدا خارج مدارات الدنيا كلها ، تقيأ الماضي والحاضر والمستقبل واقتحمت عينيه رؤيا مفادها انه فوق التاريخ !

وفي تلك اللحظة تماما ، التي توهم فيها انه خارج الزمن ، سقط .. دون أن يشعر بلحظة السقوط ، فجاء سقوطه فاجعا لاوروبا والوطن على السواء ! تلك كانت لحظة ارتداده على صباه وشبابه وأوروبا والوطن جميعا ، حين قال ذلك المفتون القديم بالغرب أن أوروبا لا تزيد على الصفر ، وحين قال ذلك المتطرف القديم في نشدان التقدم للوطن ، بأن التغيير يجب أن يكون الى الوراء والخلف !

حينذاك سقط ، وكان سقوطه فاجعا ! وقد اختار التوقيت المناسب للسقوط ، حين عاد الى الوطن في زمن الهجرة من الوطن ، حين «عاد» ورفاقه يذهبون ، حين عاد في ظل أعنف العواصف المضادة للوطن والعقل والحرية وبقية «الآثار» الجميلة في حنايا القلب . عاد ليجد لا أحد ، عاد ليجد لا مكان . عاد دون عودة .

* * *

وهرول عائدا الى أوروبا ، الى باريس . ولكن «الوقت» كان قد فات. هو الذي ألقى بالغرب من النافذة ، وقذف بالوطن من الباب ، فلم يجد «نفسه» ــ بعد ان سقط من الاعالي ــ لا في الغرب ولا في الارض ! وكأنه أحد الشهب التي سرعان ما تحترق في كبد السماء ويواريها الفضاء المترامي في غمضة عين .

لم يعد أوروبيا ولا عربيا ، وتلك مأساته . لن يجوع الى المال فقد اغتنى ، ولا الى المنصب فقد اكتفى .. ولكن اللاانتماء أفقده الوزن ، فلم يعــد .

لم يعد هو هو ، لانه اختار يوما توقيتا صحيحا للهجرة ، ولانه اختار يوما آخر توقيتا خاطئا للعودة ، ولانه بين اليوم الاول واليوم الثاني اختل توازنه فأخطأ سكة السلامة .. حتى اكتشف نفسه في اليوم الثالث خائضا أوحال سكة الندامة .

١٩٧٧/٣/١٨

وداعاً يا ابن « قرية ظالمة »
ووداعاً يا ابن قرية مظلومة

كأنهما على موعد . رغم آلاف الاميال التقيا . رغم عشرات السنين التقيا . لم ير أحدهما الآخر منذ المهد الى اللحد ، ولكنهما في وقت واحد قررا الرحيل عن عالمنا ... وكأنه ليس المكان الصحيح للقاء .

أولهما ، شيخ تجاوز الخامسة والسبعين ، يعرفه الاقلون ويجهله الاكثرون من أبناء الجيل الحالي ، ولكن اسمه يجوب الآفاق شرقا وغربا منذ نصف قرن .. وكان لا يزال في بعثته بلندن طالبا مصريا نابها في طب العظام ، يقرض الشعر ويحاور الفلسفة ويناجي التاريخ . وبين العلم والادب راح يشق طريقا صعبا بالانسان .

وفي أدبنا وأدب غيرنا ، كثيرون هم الاطباء الذين هجروا الطب الى الفن ، وبرزوا في القصة او الرواية او المسرح ، وطبقت شهرتهم الادبية سماء أقطارهم وأحيانا اقاصي الارض .

ولكن الدكتور محمد كامل حسين لم يكن قط من ذلك النوع الذي يعشي العيون المبهورة بالضياء .. فقد ظل امينا للمهنة الانسانية حتى آخر لحظات العمر . ظل واحدا من العبقريات النادرة في عصرنا كله ، في عالمنا كله ، في جراحة العظام . وظل برواية واحدة كتبها منذ عشرين عاما قمة رفيعة ساحقة في دنيا الادب ، تلك هي روايته الباقية على مر الزمان «قرية ظالمة» .

وقد يحلو للدكتور محمد كامل حسين ان يفخر في حياته بكتاب مثل «وحدة المعرفة» أو كتابه الآخر «التفسير البيولوجي للتاريخ» .. ولكن « قرية ظالمة » وحدها هي التي تجعله يفخر بعد موته ، بأنه الكاتب الفريد الذي استطاع في تسجيله ليوم واحد في حياة المسيح ، هو اليوم الاخير، يوم الصلب ، ان يضم جراحات الانسانية كلها في ملحمة من العطاء السخي المتواصل . بقرية ظالمة توحد طبيب العظام الكبير مع الفن والذات والامة والحضارة والتاريخ ، كما لم يحدث قط في سيرة حياة أي كاتب عربي ، وكما لم يحدث في أي عمل أدبي عربي . من هنا تبقى « قرية ظالمة » بعد رحيل صاحبها أكثر حياة مما كانت في حياته ، تبقى الشعلة المنيرة للابد وسط الظلمة الطاغية على الانسان . تبقى الضمير الملتهب بمحبة البشر حتى النفس الاخير .

- قد لا تجد هذه الرواية اليتيمة تلامذة من «الادباء» يقتدون بها ، ولكنها بالقطع ستجد تلامذة من «الناس» يحتذون ضياءها حتى نهاية الدرب، درب الآلام العظيمة. وقد لا تجد «قرية ظالمة» اساتذة من «النقاد» يسلكونها في هذا الاطار أو ذاك من أطر المذاهب والمدارس والاتجاهات الادبية ، ولكنها بغير شك سوف تعثر على أساتذة من «الناس» يرفعون شعلتها جيلا بعد جيل ، علامة رجل كبير ، ظلت نفسه حزينة حتى الموت .

أيها الرجل ، آيتك لن ترحل ، ونبوءتك لن تتكرر .. في شخصك المفرد اجتمع حب الانسان وحب الحياة ، وفي حزنك الكبير معالم الفرح الاكبر فثق ان مسيرتك ستبقى جوهر رحلتنا من بعدك ، وثق ان «القرية الظالمة » ستودع الظلم .. مهما كان ثمن الفداء !

أوليس من المثير ان يرحل الدكتور محمد كامل حسين صاحب «قرية ظالمة» في وقت واحد مع الشاعر الفلسطيني الشاب راشد حسين ابن القرية المظلومة ؟ ذاك كتب عمل عمره عن مأساة المسيح على أيدي بني اسرائيل ، والآخر يجسد الصليب في كل حرف نازف من جسد أرضه ودماء شعبه ،

- على أيدي بني اسرائيل ؟
- أية صدفة ؟

في احدى اغانيه المبللة بالثرى الفلسطيني يصرخ راشد حسين من أعماق القلب الجريح :

حبيبتي اذا رأيت والدي اسأليه
بأي حق
علمني كتابة الشعر
ولم يعلمني القتال ؟

ولعله بمصرعه الفاجع في نيويورك قد اكتشف الجواب ، فالرحلة الطويلة لم تكن عبثا ، وبموته يولد لنا من جديد ! فرغم ان راشد حسين من أعمق الاصوات الفلسطينية وأنبلها واغناها ، الا ان الاسلاك الشائكة حاصرته منذ البداية ، في الداخل والخارج ، حتى ان قلة قليلة هم الذين يعرفون «صوته» !

.. ولكن صوتك يا راشد باق بقاء فلسطين والشعر ، باق بقاء القرية المظلومة حتى بعد أن تفك اغلال الظلم وتفلت ، بعد ان يصبح صوتك هو القاعدة لا الاستثناء .

- حينذاك نلتقي ، نحن الذين لم نلتق في هذه الدنيا أبدا ، نلتقي جميعا في رحاب الانشودة والحلم والوردة المتلألئة على جبين الارض والسماء ، نلتقي مع راشد حسين ومحمد كامل حسين اللذين لم يلتقيا قط ، حيث لا تكون «القرية» ظالمة ولا مظلومة .. وانما تعود «قريتنا» فحسب .

١٩٧٧/٣/٢٥

الى روح الشهيد حسين راشد ومحمد كامل حسين ، وروح قريتنا المظلومة الظالمة ...
تحياتي [illegible] والى النقاد [illegible] حين لا [illegible] من الحب والموت .

[illegible]
٠٥-١٩-١٩٨٤

يا طائر الحزن لا تغرد ...

أعرفك ، من قبل أن تولد أعرفك . كانت الظلمة قد حطت على والديك بعد طول ضياء . كان العز القديم قد ذهب وأتيت أنت ، لترى وتشم وتسمع وتذوق وتلمس الشجرة القديمة وقد انشطر جذعها الى نصفين . أحدهما كتبت الاقدار ألا تعرفه ولا تنتسب اليه . كانت أغصانه خضراء مليئة بالثمر . أما النصف الآخر الذي انبثق أحد أغصانه الجافة الذابلة عنك ، أنت الوردة كالمعجزة ، فقد توقفت عنه عصارة الحياة منذ غرق كل شيء صدفة في عرض البحر .. في احدى السنوات التي سبقت الجحيم الثاني في حياة البشرية المعاصرة ، فألقت احدى حممها بأسرتك على الارض ، وأحيانا تحت الارض .

وجئت أنت ، وعيناك الخضراوان وشعرك الذهبي هو كل ما تملك في الدنيا . بهاتين العينين رأيت ما لم يره أحد . وكلما رويت للاخرين ما تراه لم يصدقك احد . كنت احيانا ترى الماضي الذي لم تشهده بعد ، وأنت في حشايا امك نطفة من ضمير الغيب . وكنت احيانا أخرى ترى المستقبل الذي قد يكون وقد لا يكون . وبين رؤيتك لماض لا يعرفه أحد ورؤيتك لمستقبل لم يحدث بعد ، سقط الحاضر من ذاكرتك ، وأمسيت عند البعض مجنونا وشيطانا وعند البعض الآخر الاكثر تهذيبا صرت حالما خياليا هاذيا وعند البعض الاخير كنت كذابا محتالا تعاني عقدة الفقر وتعوض نقص الجاه .

ولكني أعرفك . لم تكن مجنونا ولا حالما ولا كاذبا . كنت تحيا فقط

بذاكرة الماضي ورؤيا المستقبل ، دون ان تضع للحاضر اعتبارا في حسابات الزمان والمكان . كنت تنظر داخلك أكثر مما تنظر خارجك ، كنت على حق . وكان الناس يرون خارجك أكثر مما يرون داخلك ، كانوا على حق .

ولم يكن من مواهبك اقامة الجسور بين حقك وحق الناس . كانت موهبتك الكبيرة هي الاحتكام للزمن . بمقياس ما كنت الخاسر دائما . بمقياس آخر كنت الرابح دائما .

كنت الخاسر لان الحق يحتاج الى زمن ، يبقى باطلا « حتى تثبت براءتك » . والناس غالبا لا تنتظر ، خاصة وانك في مراحل طويلة من عمرك، لم تكن بالفعل شيئا يستحق الانتظار . وخاصة وللناس أيضا ازمانهم التي لا تحتمل الانتظار .

وكنت الرابح لان الزمن لم يخذلك . ربما كان الربح يوما ، انت وحدك الذي تشعر به ، ولكنه أياما اخرى كان يفرض على الآخرين الشعور به . بل كان الزمن يدخر اياما أصبحت فيها ربحا للآخرين .

ـ وظل الزمن هاجسك الاول ، تحتكم له وهو خصمك ، تطلبه للدفاع وهو ممثل الادعاء ، هو شاهدك والشاهد ضدك . هو انت بين الماضي والمستقبل . الزمن هو صراعك الداخلي الذي لا يراه أحد ، ولا يفهمه سواك . لم يكن قط صراعا ضد الموت . وبالتالي لم تكن تحزن كالآخرين لمرور الايام والأعوام . ظللت ، بالعكس ، تستبق الساعات والسنين . كان صراعك ضد الحاضر .

واحتار الناس اين الوجه واين القناع ، أين الصدق واين الكذب ، أين الحق واين الباطل .. وايا كانت اجتهاداتهم بالسلب أو بالايجاب ، بالكراهية أو بالمحبة ، فقد أجمعوا على شيء واحد هو انك مزدوج تختلط عليك احلام اليقظة بحقائق الدنيا .

.. وقد أدركت بالفطرة ان سلاحك الوحيد في معركة الزمن هو التنقيب المستمر عن «السر» الكامن في اعماقك ، والكشف الدائب عن

الفطرة الجامعة بين الحلم والنبوءة ، وتنقية اللؤلؤة المغمورة من غبار الواقع وأحراش الحاضر . لم تكن تملك أسلحة أخرى ، فأنت بلا مال وبلا سلطان وبلا اسم . وعليك ان تبحر دون ابطاء . وعلى النقيض من صورتك في عيون الآخرين لم تكن «واهما» قط ، فلم تمض أيامك في انتظار السطوة والجاه والنفوذ ، أو في استجدائها أو في شرائها ، لم تكن موهوبا حتى في افتعالها .

كنت واعيا منذ البدء ان معركتك ليست مع الناس ، بل مع الزمن .. فلم تلق بالا وانت بعد طفل الى سخرية الاطفال من ضعة المنزلة التي وصل اليها أبوك ورقة الحال التي كانت عليها أمك . واكتفيت بأن تضع قدمك على أول الطريق ، وان تقبض في يدك على أشهر الاسلحة : ان «تعرف» .

لم يتغير سلاحك وأنت تكبر ، كان سلاحك يكبر فقط معك . ولم يتغير موقف الآخرين منك ، لان الزمن لم يكن قد شهد لك بعد . ازددت «معرفة» فكبر الماضي أكثر وكبر المستقبل أكثر . أعداؤك بوعي وبغير وعي كان سلاحهم الحاضر وحده ، كان سلاحهم «الخارج» وحده ، أقاموا من أنفسهم قضاة لك كلما أوشك الحلم أن يلد ، كلما أوشك الزمن أن يفلت من قبضتهم ، كلما أوشكت أنت أن تولد .

لم تكن تخطط ، فاستغلوا عفويتك وأكاد أقول سذاجتك . لم تكن ترسم ، ولكن مجهولا ما كان يرسم لك ، كان ينقذك في اللحظة المناسبة من شباك الحاضر وطعوم الصيادين . وحين ولدت ذات يوم من ربع قرن ميلادك الحقيقي ، حين ظهر عطاؤك للمرة الاولى ، أداروا ظهورهم هازئين ، وحين ولدت مرة أخرى بعدها بسنوات قليلة أداروا وجوههم حائرين، وحين ولدت مرة ثالثة ــ وكانت المسافة تضيق يوما بعد يوم بين الذاكرة والنبوءة ــ أداروا عيونهم يائسين ، وحين رحت تولد مرة ومرة ومرة ومرات استداروا في مواجهتك خجلين أو مذهولين أو فرحين أو ناقمين .

.. وعندما حدث في احدى ولاداتك الجديدة أن أتحدت الذاكرة

بالنبوءة وأصبح الحاضر هو الماضي والمستقبل وولد الحلم حقيقة الحقائق، دمعت عيناك على أبواب الاربعين التي لم تذهب هدرا .

وبالامس أطفأت الشمعة الثانية فلم تقل : ها هوذا عام آخر قد مضى، ماذا تبقى ؟ بل قلت : ها هوذا عام ربحناه .. تعالي يا بقية الاعوام .

١٩٧٧/٤/١

"ان تعرف" هو اشهر الرسائل .
من هو [illegible] هذا ؟؟
١٥-١٢-١٩٨٥ .

الوجه .. والقناع

(١)

أعرفه . زنزانته دائرة من المرايا . أرضها مرآة وسقفها مرآة . كلما لف ودار لا يرى سوى وجهه . كلما توجه الى تحت أو فوق لا يرى سوى وجهه . أصبح والمرآة وجها واحدا . لم يعد يرى وجوه الآخرين . مع الزمن لم يعد يرى وجهه أيضا ..

لم يعد يرى المرآة ولا الزنزانة . أصبح يراها كل يوم قصرا جديدا . مرة اسمه النفوذ ، ومرة اسمه الشهرة . ومرة اسمه الثورة .. ومرة اسمه الثروة . ومرة اسمه النساء ، ومرة اسمه النضال . وفي جميع المرات أصبحت الزنزانة الضيقة باتساع الارض والسماء ، وهو الشمس والقمر والنجوم البعيدة .

وحين كان «يتخايل» له بالسمع أو بالبصر أن هناك نجما آخر أو قمرا آخر أو شمسا أخرى ، كان يدلك جبهته صارخا من «الحمى» أو التعب أو المؤامرة الخفية التي تحاك ضده في العوالم الاخرى .

.. ويكتفي بالصلاة لوجهه الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد .

وحين كفنوه بالقميص الابيض وذهبوا به الى قصر كبير أبيض وكان الذين حوله يرتدون ثيابا بيضاء ، قال انه في موته «فريد» كما كان في الحياة ، فهو الميت الوحيد في التاريخ الذي يتنفس ويأكل ويشرب وينام

ويصحو ، وهو الميت الوحيد في العالم الذي «يرقى» من قصر المرايا الى قصر القصور ، هناك حيث الكل يصدق انه المشهور الاوحد والثوري الاوحد والغني الاوحد والدون جوان الاوحد ، هناك حيث ملائكة الرحمة وطيور السلام تسبح بحمده وتغني باسمه .

وفي احدى اللحظات خرجت الملائكة والطيور عن مهمتها الاصلية ، غررت به وراحت تنزع عنه ـــ دون رحمة أو سلام ـــ جلد الوجه والصدر والظهر والقدمين ، خلعت له الاذنين والعينين والانف واللسان والاظافر . ظن في البدء انها طقوس الحمام الجديد ، ورغم انه كان مؤمنا بأن جسده لا يعرق ولا يتسخ ، فقد قال انه لا بأس من الاستحمام حتى يتطهر أكثر من قاذورات الهواء الذي تتنفسه «الكائنات» الاخرى المحيطة به. رويدا رويدا بدأ يلتذ بقسوة سلخ الجلد واعتبرها نوعا جديدا من الرياضة لم يخطر له على بال من قبل . ومن فرط اللذة الطارئة ارتخت جفونه شيئا فشيئا ، وراح في سبات عميق .

(٢)

قبل أن تطأ قدمه بداية الدهليز الطويل المعتم المؤدي الى سلطان النوم قال انها المرة الاولى التي « يحلم »فيها كالبشر . تردد في البداية وقال لا باس فلنجرب . لم يتركه السلطان لحظة واحدة امام مملكة الارادة . شعر بجاذبية لا تقاوم تجره الى سراديب موغلة في الظلمة ، لكنه يراها جيدا . قال ربما كانت هذه هي السينما التي يتكلمون عنها . واستولت عليه اللذة تماما وراح يشاهد .. اولا بمتعة ثم باعجاب ثم بدهشة ثم بذهول .

رأى للمرة الاولى في حياته «وجوها» عديدة غير وجهه، بعضها يشبهه وبعضها يقترب من ملامحه وبعضها يبتعد وبعضها يبتعد اكثر ، فاكثر .. حتى راى وجوها ابعد ما تكون عنه . راى بعض الوجوه لها عين واحدة واذن واحدة ونصف انف ونصف فم ونصف لسان وكانها « بروفيل » بالطول ، وبعضها الاخر كانه بروفيل بالعرض ، وبعضها الثالث كانه وجهان

او ثلاثة او اربعة وقد ركبت فوق الاعناق احيانا باتقان واحيانا بغير اتقان. كان الامر نفسه في اللغات التي يتكلم بها اصحابها . لم تكن المشكلة هي تعدد اللغات واللهجات ، وانما كانت في طريقة النطق ، فالبعض كأنه يمثل في فيلم صامت يحرك الشفاه بلا كلمات مسموعة ، والبعض ينطق ارباع الجمل او انصافها او هو ينطق جملتين واحيانا ثلاثة او اربعة في الوقت الواحد وبالشفاه الواحدة التي تنطق جملة واحدة .

ولم يترك له الذهول فرصة التراجع . وظل يرى كالمشدوه . رأى اخرين يسكنون في زنزانات المرايا التي كان يسكن واحدة مثلها ، واخرين يسكنون في قصر القصور الابيض الذي يشبه القصر «الحاضر» فيه الآن . ولهوله راى هناك من هو اكثر ثراء منه ، واكثر شهرة واكثر نفوذا واكثر نساء وأكثر نضالا، وأكثر وأكثر، حتى كاد يغيب عن الوعي. ثم رأى وجوها اخرى بلا نفوذ ولا مال ولا نساء ولا نضال ولا تسكن دائرة المرايا ولا الدائرة البيضاء . راى الاولين « موتى » محظوظين بالتنفس والاكل والشرب والصحو والنوم ، ورأى الآخرين « أحياء » تتفجر عيونهم ومسام جلودهم بالعرق والدم والدموع ، رأى دنيا بها أكثر من أرض وأكثر من سماء واكثر من شمس واكثر من قمر ، وراى نجوما كثيرة بعدد رمال البحر وفي ذروة الذهول راى ما لم يره احد .

(٣)

راى وجهه ــ وكانت الملائكة والطيور قد ادت مهمتها الغريبة ــ لم يعد وجهه القديم ، هو وليس هو كان وجهه . بعد ان سلخوا الجلد القديم والعينين والاذنين والانف واللسان ، راى جلدا بلون آخر وعينين تريان شيئا اخر واذنين تسمعان بطريقة اخرى وانفا يشم رائحة جديدة ولسانا يتكلم لغة جديدة . لم تكن هناك مرآة ليرى هذا الوجه الغريب .

شعر به فقط

ومات !!

١٩٧٧/٤/٨

⸍ الوجه الآخر

من المطالب الهامة التي كان يلح عليها بعض الادباء مطلب « التفرغ » للكتابة ، أي أن يترك الاديب وظيفته الرسمية التي تطعمه خبزا عاما أو عامين أو ثلاثة « يتفرغ » خلالها للكتابة .. وبين تاييد هذا المطلب ومعارضته أثيرت قضية طريفة : هل تحتاج الكتابة الادبية حقا الى التفرغ ؟ اذن ،فكيف كتب توفيق الحكيم معظم أعماله وهو وكيل نيابة ثم وهو موظف في دار الكتب ؟ وكيف كتب نجيب محفوظ جميع أعماله وهو يتدرج في وظائف أجهزة الدولة من سكرتير الى رئيس مجلس ادارة ؟ وكيف أملى طه حسين أعماله منذ كان مدرسا بالجامعة الى ان أصبح وزيرا ؟

⸍ وكان الرد عند المؤيدين لتفرغ الكاتب هو انه لو لم يكن الحكيم وكيل نيابة ومحفوظ موظفا وطه حسين استاذا، لكتبوا أكثر وأعمق وأغنى. ويلتقط المعارضون حرف « لو » ويقولون : بالعكس تماما ، فالوظيفة أو العمل هو «التجربة» التي خاضها هؤلاء الكتاب ، و « لو » لم تكن لديهم هذه التجربة لما كتبوا أعمالهم .. فالمشكلة ليست في « الوقت » الذي تتطلبه الكتابة أو القراءة ، لان مشكلة المشكلات هي «تحصيل التجربة» أولا . وأعظم كتابات الادباء والفنانين في تاريخ الثقافة الانسانية ، هي ثمرة تجاربهم في الحياة . وأصحاب العبقريات جميعا كانوا «يعملون» على نحو ما اعمالا أخرى غير الكتابة ، بعضهم مارس احط الاعمال في السلم الاجتماعي ، والبعض الآخر مارس أرفع المهن ، ولكن الجميع كانوا يعملون،

ولم يعرفوا قط بدعة التفرغ أو الفراغ ، هذه الرفاهية المستجدة التي يطالب بها بعض الادباء الآن .

* * *

على آية حال ، فقد توصل البعض منذ فترة الى مـا يسمونه بالحل الوسط بين الوظيفة الروتينية والتفرغ ، هو العمل بالصحافة . وبغض النظر عن جيل طه حسين والعقاد والمازني ومندور وغيرهم ممن مارسوا العمل الصحفي « الى جانب » وظائفهم ، وكجزء من العمل السياسي أو الحزبي، فان اجيال الخمسينات والستينات ، من الادباء والنقاد ، مارست «الصحافة» كبديل للوظيفة البيروقراطية و «الى جانب» العمل الادبي . بل هي اتخذت الصحافة في البداية منبرا للادب .. فاستغنى يوسف ادريس ومصطفى محمود عن العمل بالطب ، واستغنى سعدالدين وهبة عن العمل كضابط شرطة ، واستغنى لطفي الخولي عن العمل بالمحاماة ، واستغنى صلاح عبدالصبور عن العمل بتدريس اللغة العربية ، وهكذا . ومنذ ذلك الحين عرفت الصحافة أجيالا من الادباء ، أحدهم يكتب القصة والآخر يكتب الشعر والثالث يكتب النقد .

وقد رحبت «الصحافة» بهؤلاء الوافدين اليها من دنيا الادب بحذر في البداية .. فقد كان الشائع ان امثالهم «يتقعرون» في اللغة التي لا يحتملها القارىء الحديث ، وأنهم سيفرضون على هذا القارىء «مادتهم» التي قد يكون الخبر أو التحقيق الصحفي أو النكتة او حتى الفضيحة الاجتماعية، اكثر تشويقا منها واثارة . كما أنهم على صعيد السلوك العملي لا بد وانهم « متعالون » على غيرهم من أبناء المهنـة القدامى الذين يحسبون في عداد «المثقفين» .

ولكن الحذر مع الايام بدأ يتلاشى ، وحلت مكانه فكرة «استغلال»

هؤلاء الادباء . استغلال اسمائهم المعروفة أو نصف المعروفة او التي يتوقع لها ان تكون معروفة .. طالما ان بعضهم منتشر في اجهزة الاعلام الاخرى الاكثر تأثيرا ، كالاذاعــة والتلفزيون والسينما والمســرح . ثم استغلال «حرفيتهم» اللغوية والاسلوبية في «مطبخ» المجلة والجريدة ، فهم الاقدر على اعادة صياغة الكتابات الرديئة أو الركيكة . وشيئا فشيئا قيل لكاتب القصة انه يستطيع كتابة التحقيق الصحفي ، وقيل للشاعر انه يستطيع الرد على بريد القراء ، وقيل للناقد انه يستطيع كتابة التحليل السياسي . وقد «استطاع» معظمهم بنجاح ! وكان النجاح بداية البدايات لان يتحول الاديب الذي دخل الصحافة ليحصل على «التفرغ» الى صحفي يكتب الادب أحيانا . بل تحولت الصحافة شيئا فشيئا الى السيد المطاع ، فقد أثرت في اسلوب الكتابة الادبية شعرا ونثرا ، أثرت في التكنيك وفي اختيار التجارب وزاوية الرؤية والمضمون . وأصبح هناك «أدب صحفي» واختفت تقريبا «صحافة الادب» .

* * *

/ وأصبح الوضع الراهن كما نراه واضحا ، هو ان «الصحافة» أصبحت هي الحرفة الجديدة التي يمارسها الكاتب ، لا مجرد منبر للادب ولا وسيلة للتفرغ ، بل هي حرفة كالطب والهندسة والمحاماة .. فالاديب سابقا أصبح مدير تحرير لاحقا أو سكرتير تحرير او محقق صحفي او محلل سياسي . أمست الصحافة هي الحرفة والادب هواية . واضحى الاديب سابقا في مأساة حقيقية ، يتمنى لو ظل كما كان طبيبا او مهندسا او محاميا او معلما.. يتمنى لو لم يكن «متفرغا» للصحافة !

ولكن الوقت قد فات !

لان الصحافــة ماكينة لا ترحم ، وتكاد تكون النقيض المتطــرف للثقافة ، انها احدى وسائل المواصلات الثقافية ، ولكنها «تأكل» الكاتب

الذي يحترفها ويحترق بها . ذلك ان القاسم المشترك بين الصحافة والادب هو «القلم» . والصحافة زوجة لا تقبل عشيقة ولا تقبل ضرة ، انها في الصراع هي الوجه الرابح .

.. أما «الوجه الآخر» للكاتب فيظل سرا من الدموع، أو صلاة للريح.

١٩٧٩/٤/١٥

دائرة خبيثة تلك التي تقتل الاديب والفنان والمثقف .. فالتفرغ والنصف تفرغ هو
الاكثر والنصف اكثر .. وماذا عنك بالتجارب ؟؟ .. من الصحافة وصل
الصحافة تجربة ذاتية ام موضوعية .. اعتقد ان الصحافة حرفة "[illegible]"
دوماً وطابع واول باول تحت الجرى .. والتجربة لها اخرى
ومناخ اخر ، الطريقة تختلف ..
رحم الله الادب والادباء .
وصبّر قلوبنا على الصحافة والصحفيين .

١٦-١٢-١٩٨٥ .

الوجه الآخر ... أيضاً

هل جنت الصحافة على الادب والفكر والفن ، أي هل جنت على الثقافة الجادة ؟ الجواب نعم ولا .

لم تجن الصحافة على الثقافة ، بل لعلها أسهمت لزمن طويل في تحويل الثقافة من ترف الصالونات الى غذاء يومي للجماهير .. فلولا الصحافة لظل طه حسين ومندور ولويس عوض ومحمود العالم وغيرهم وغيرهم مجرد «أساتذة» في الجامعة ، يؤثرون بالكاد في دائرة ضيقة من طلاب المعرفة «الرفيعة» ! والحقيقة ان الصحافة المصرية ــ مثلا ــ قد احتلت خلال الربع القرن الاخير مكانة الجامعات في القيادة الفكرية . وأصبح الانسان العادي يقرأ للمرة الاولى ما كان احتكارا لطلاب الآداب من نقد أدبي وفلسفة واقتصاد واجتماع وعلم نفس وبقية العلوم الانسانية ، وقد اسهم ذلك بغير شك في رفع مستوى الوعي العام ومستوى الذوق العام .

كذلك كان للصحافة ولا يزال فضل كبير في ابتكار اللغة الحديثة التي تختلف عن اللغة الاكاديمية من ناحية وعن لغة الشارع من ناحية أخرى. انها ليست حلا وسطا ، ولكنها لغة جديدة أثرت على معجم الشعراء ومفردات وتراكيب كتاب القصة والمسرح . أي أن لغة الصحافة قد شاركت في «تحديث» لغة الثقافة .

ولولا كبار الادباء والنقاد الذين عملوا بالصحافة ، لما تم هذا التفاعل الخصب بين الجدية واليسر وبين الفكر العالي والناس البسطاء . ذلك ان

الثقافة العميقة على صفحات الجرائد والمجلات قد اثرت على وظيفتها واتجاهاتها في الشكل والمضمون . وأضحت الصحيفة «منبرا» بحق ، بعد أن كانت أداة للتسلية أو وسيلة لنشر الفضائح أو اسلوبا في الارهاب والثأر والابتزاز السياسي . وارتفعت اللغة الصحفية من مستوى مجلة «الكشكول» و «البعكوكة» الى مستوى رصين يخاطب القلب والعقل معا.

في هذه الحدود نقول ان الصحافة لم تجن على الثقافة. ولكن الصحافة جنت على الفكر والادب حين استدرجت جيلا كاملا من المثقفين لا للعمل كأدباء في الصحافة بل كصحفيين محترفين يكتبون في الادب أحيانا ! لقد استبدلوا حرفة بأخرى ، فبعد أن كانت الثقافة حرفتهم أصبحت مجرد هواية كالرياضة يمارسونها بين الحين والآخر .(ولان «القلم» هو القاسم المشترك بين الادب والصحافة فقد كان الاستدراج سهلا) ولان نجوم الصحافة أكثر لمعانا من نجوم الثقافة فقد كان الاغراء سريع المفعول ، ولان الادب لا يطعم خبزا فقد كان للصحافة كلمتها الاخيرة !

.. وقد كان الخطر ولا يزال على الصحفيين الذين كانوا يكتبون الادب الخالق عظيما ، لان الروائي أو المسرحي أو الشاعر الذي كان يعمل طبيبا أو مهندسا أو محاميا أو موظفا ، كان يحيا تجربة اجتماعية خصبة في المستشفى والمصنع والمدرسة والمحكمة وغيرها من ميادين الحياة . ومنها كان يتخذ مادته التي صنعت أدب نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم وقصص يوسف ادريس الاولى وقصص مصطفى محمود الاولى وقصص صلاح حافظ الاولى واشعار أحمد حجازي وصلاح عبدالصبور ومسرحيات الفريد فرج وسعد وهبة .. وغيرهم ممن خطفتهم الصحافة نهائيا أو لبعض الوقت ، اي الى ان خطفتهم الوظائف العليا في أجهزة الدولة !

هؤلاء كانوا «يغرفون» أدبهم من عملهم الاصلي في الحياة ، أما عندما احترفوا الصحافة او الادارة فقد أصبحت مادتهم ـ اذا خطر لاحدهم ان

يكتب ادبا في وقت الفراغ ! ـــ من أرشيف الذكريات ، أو من تصورات عدسة بعيدة كثيرا عن نبض الواقع الحي . واكتشف بعضهم ـــ بعد فوات الاوان ! ـــ أن التفرغ الذي تحمسوا له او طالبوا به أو حصلوا عليه كان وهما ، وانهم حين ظنوا الصحافة بديلا جديدا للتفرغ ، سقطوا في وهم الاوهام .. فالتفرغ للادب لا يعني فقط الحصول على وقت للقراءة والكتابة، بل يعني أيضا ملء الوقت بالعمل المنتج والتجربة الاجتماعية الخصبة . والصحافة لا توفر الوقت لهذا او لذاك .

انها نقيض الادب تماما ، فهي تتطلب السرعة في كل شيء ، في الحركة وفي الكتابة وفي الاستيعاب وفي المبادرة ، حتى ليكاد الصحفي الحديث أن يكون وحشا أوتوماتيكيا قادرا على التقاط الخبر ومعرفة الحدث قبل أي انسان آخر وكأنه في سباق غير انساني مع الماكينة ، وقادرا على كتابة التحقيق والتحليل السريع والمقال الطويل وتحرير العناوين والتعليق على الصور، وكأنه الانسان الآلي الذي لا ينام.. فالماكينة وحش، وعليه ان يكون وحشا ، والصحيفة حلبة مصارعة ، والبقاء للاقوى . الصحفي المعاصر ليس أكثر من «ثور» والدنيا من حوله ـــ بأخبارها المتلاحقة ـــ كلها خرق حمراء وحراب !!

اين هذا من الفكر والادب والفن الذي يتطلب البطء والهدوء ، يتطلب التأمل والصبر ، يتطلب المعاناة الداخلية العميقة .. عدوه الاكبر هو اللهاث والمطاردة ؟

لذلك كانت الصحافة دائما وستظل في المستقبل لعبة خطرة وسلاحا ذا حدين ، لمن كانت الثقافة هي رسالته في الوجود أو لمن كان يحقق ذاته من خلالها، هناك استطاع ان يجعل من الصحافة سلاحه فلم يخسره الادب، وهناك من اتخذته الصحافة سلاحا ، فخسر نفسه قبل ان يخسره الادب . ولا «وسط» بينهما .

١٩٧٧/٤/٢٢

وجهي الآخر

في العادة لا يعرف الناس من الكاتب سوى «وجهه» الذي يطالعونه في ما يكتب ، خاصة اذا كانت بعض كتاباته تنتسب بصورة أو بأخرى ولدرجة أو أكثر الى العالم الاكاديمي المتخصص . بناء على هذه القاعدة عرفني أغلب الناس ناقدا أدبيا ، والقلة القليلة عرفتني كاتبا سياسيا ... سواء من الدراسات والمقالات المطولة في المجالات الفكرية والادبية ، أو من مؤلفاتي الاولى «سلامة موسى وأزمة الضمير العربي» و «أزمة الجنس في القصة العربية» و «المنتمي : دراسة في أدب نجيب محفوظ» وما توالى بعدها من اعمال نقدية حول الشعر والرواية والتراث .

وحين كان أحدهم «يكتشف» انني كتبت شيئا لمجلة اسبوعية او صحيفة يومية ، كان يعتب علي ويلومني لانني « أضيع » وقتي بلا معنى .. لان هذا الوقت جدير باستغلاله في اضافة صفحة جديدة الى «كتاب» ينبغي تأليفه في هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة «الجادة» !

ولعلني ساعدت على تثبيت صورة هذا «الوجه الواحد» في مخيلة الكثيرين بمتابعتي ــ قدر ما استطيع ــ لاهم القضايا والافكار والشخصيات والاحداث في ثقافتنا المعاصرة ، متابعة تفصيلية حينا وعامة في بعض الاحيان تطلبت ثمانية عشر كتابا صدرت لي حتى الآن .

* * *

ولكن الحقيقة هي ان لي وجها آخر هو الصحافة ، وهي في حياتي وجه أصيل وليس طارئا . وهي لم تستدرجني من الادب ـ كما فعلت مع الكثيرين ـ ولكنها كانت البداية .. بمعنى انني لم أكن أديبا اتخذ من الصحافة منبرا ، ولم أكن أديبا «يعمل» في الصحافة ، بل كنت ولا أزال صحفيا .

عشقت الصحافة في مرحلة الصبا وكنت من قرائها المدمنين . وحين تخايلت لي الموهبة في الصغر اتخذت من الصحافة هوايتي في المدرسة ، سواء في جرائد الحائط أو في المجلات الفقيرة التي أصدرناها ونحن بعد طلاب . وأذكر ان استاذ اللغة العربية الذي كون «جمعية أدبية» في المدرسة ، قد أعجبته احدى «رواياتي» ـ التي لم أنشرها قط ـ وخصص مبلغا من الميزانية لطبعها في كتاب ، فأخذت النقود مع زملائي وأصدرنا عددا واحدا من مجلة ! وأذكر انني حين «تجرأت» وراسلت بعض المجلات الاسبوعية في القاهرة ـ من المدينة الصغيرة التي كنت أسكنها ـ حرصت على ألا أكتب في الادب ، بل عما يجري في مدينتي من حوادث وجرائم وطرائف وأعاجيب ! أي انني اقتحمت عالم النشر بالخبر والريبورتاج ، والمقابلات . وكانت أول «وظيفـة» احترفتها هي «مراسل صحفي من الاقاليم» . وكانت أول «بطاقة عمل» أحملها وأفرح بها هي بطاقة المراسل الذي تطلب صحيفته من الجهات المختصة تسهيل مأموريته !

وعندما كبرت وذهبت الى القاهرة لم أقتحم عاصمة الصحافة العربية ككاتب أو كأديب (في جعبته الكثير من الشعر والقصص والنقد !) ... فلم يكن هذا النوع مطلوبا من شاب صغير يغازل حبيبته بكلام منظوم يسميه شعرا ، أو يحكي بأحلام المراهق ما وقع له من غرام وانتقام ويسميه قصة، أو يسب فلانا من الكتاب الكبار ويسمي ذلك نقدا . لم يكن هذا كله مطلوبا . لذلك دخلت صحافة القاهرة من الباب الخارجي كأي مراسل من

الاقاليم حصل على «ترقية» فأصبح «محررا» في العاصمة .. لا أديبا أو مثقفا على الاطلاق .

ولذلك دخلت الصحافة من أول السلم ، دخلتهـا كصحفي تحت التمرين ، ثم كصحفي عامل .. مارست كتابة الخبر والتعليق الصغير والتحقيق الصحفي ، وأعادوا لي ما أكتب مرارا وتكرارا . نزلت الى المطبعة ودخلت مملكة الاخراج الفني وسكرتارية التحرير . كتبت عن الصحة والتعليم ومصلحة التليفونات والفنون ومصلحة السكة الحديد ، عن جلسة البرلمان وخطبة الرئيس وزيارة الملك ومؤتمر وزراء الخارجية . في كل الاقسام عملت بدأب وفرح معا . كانت الصحافة قد تحولت في حياتي الى «حرفة» ، تماما كما اتجه زملائي لاحتراف القانون أو الطب أو الهندسة.. فأنا لم أحترف شيئا ثم تفرغت منه للصحافة ، كما حدث للبعض ممن «انتقلوا» اليها من الادباء . كلا ، كانت الصحافة ولا تزال حرفتي .

أما الفكر والادب والثقافة الجادة ، فقد مضت في خط مواز لا يتناقض مع حرفتي ، خط لا أجد له تعبيرا أصدق من «الهواية» .. فالثقافة في حياتي ليست «مهنة» ، انها من ناحية تحقيق للذات ومن ناحية أخرى رسالة . وكلا الناحيتين لا تعطل الحرفة كما أن الحرفة لا تعطلها . بل لعل الصحافة أسهمت في تكويني الفكري والادبي على نحو ما من الانحاء ، ساعدتني في بلورة الاسلوب الذي أخاطب به الناس ، وفي اتساع القاعدة التي أخاطبها ، وفي تلمس النبض الحي لمشكلات الحياة ، وفي ان اكون ــ حين أكتب الفكر والادب ــ وثيق الصلة بينابيع هذا الفكر والادب لا معزولا في برج من العاج .

ولا شك أنني لو كنت «معزولا» لانتجت ضعف انتاجي ، ولكان هذا الانتاج أكثر دقة من الناحية الاكاديمية البحتة ، ولكنني اشك كثيرا في ان «العزلة» كانت ستمنح هذا الانتاج طعم الحياة .

انني لم أحاول قط اقامة «معادلة» توازن بين الثقافة والصحافة ، لانني لم اشعر قط بأي تناقض بين الحرفة والرسالة ، أو بين العمل والهواية، أو بين الوظيفة الاجتماعية وتحقيق الذات . بل لعلي أعترف صادقا أن التفاعل بينها جميعا قد أثمر التكامل بين الوجه .. والوجه الآخر !

١٩٧٧/٤/٢٩

/ « أبناء الشيطان »

« هل أنت رياضي جيد ؟ » .

تقرأ السؤال وتستغرب . والذي أعطاك الصفحات الاربع ــ تحت هذا العنوان ــ يمسك بآلته الموسيقية ويعزف . زميله يغني . زميله الثالث يبتسم مادا يده لك ، لتعطيه فرنكا أو اكثر أو أقل .

« هل أنت رياضي جيد ؟ » .

تقرأ البيان وتدهش ، لانه مكتوب بالعربية ، جارك الفرنسي أخذ نسخة بالفرنسية ، جارك الاميركي في المترو ناوله أحد الشبان الثلاثة نسخة بالانكليزية . وكأن «الفرقة الصغيرة» تعرف جنسيات الركاب ولغاتهم سواء تكلموا أو صمتوا .

« هل أنت رياضي جيد ؟ » .

تقرأ الكلمات وتذهل . اذا أجبت بنعم ، ومهما كانت لعبتك المفضلة ، فأنت من أنصار الحرب ، ومن أبناء الشيطان .. فالرياضة هي الاعداد غير المباشر للحرب ، الاعداد النفسي والجسدي ، فهي رذيلة محققة ضد سلام البشرية . وسواء كنت تلعب الغولف او البنغ بونغ أو كرة السلة أو كرة القدم أو السباحة فضلا عن المصارعة والملاكمة ، فأنت اذن ــ شئت ام لم تشأ ــ مقاتل تحت السلاح في جيش ضخم من كافة ارجاء المعمورة ضد الانسانية والروح والحضارة !

« هل أنت رياضي جيد ؟ » .

تقرأ وتفهم للمرة الاولى ان «الاخلاق الرياضية» عكس ما تعلمت طول العمر هي الشر المطلق ، لانها اخلاق التنافس والمباراة ، ولانها ــ أيا كانت اللعبة ــ في النهاية تقسيم للعالم والانسان الى معسكرين متقابلين لا يلتقيان ، بل يتقاتلان طول الوقت ، يرفضان التعادل ويفضلان الربح لاحد الجانبين والخسارة للآخر .

ليس ذلك فقط ..

بل الرياضة في جوهرها تنمية للجسد وتقوية ، وقوة الجسد تحدث دائما على حساب الروح ، الرياضة اذن ضد الروح ، ومن وحي الشيطان ضد الله .

اذا كنت رياضيا فأنت ابن الشيطان ، واذا لم تكن فأنت من « أبناء الله » .. فانضم اليهم واكتب الى العنوان التالي .

ورغم انني لست رياضيا ، الا انني لم أكتب الى العنوان اياه ..

فأمثال هذه البيانات المثيرة ، تخفي عادة أهدافا مريبة .. والا فما معنى هذه الحملة الصليبية ضد الرياضة ؟ وما علاقة الجسد والروح معا بالصيغة التبشيرية الواضحة في البيان الغريب ؟

* * *

.. وما علاقة الحكاية كلها بحكاية أخرى سبقتها بعشرين عاما حين ظهرت جماعة «الادفنتست» التي تدعو الى عبادة الله يوم السبت بدلا من الاحد ؟ وما علاقة الحكايتين بحكاية «شهود يهوه» اسم الله عند اليهود ؟

القاسم المشترك الاول بين هذه الحكايات كلها هي انها تداعب قلوب الشباب ، وتغازل تكوينهم الغض بالافكار المثيرة والسلوك الاكثر اثارة. القاسم المشترك الثاني هو انها تلعب دائما على الاوتار الثلاثة «المال والجنس والدين» حيث تداعب جوانب النقص في هذا القطاع أو ذاك من الشباب . القاسم المشترك الثالث انها جميعا وبغير استثناء «صناعة أميركية» !

.. وهي الصناعة التي تتشكل في كل بلد حسب عاداته وتقاليد أهله، فالغيتار في مترو باريس وحفلات الرقص في لندن ، والبريد الى العالم الثالث ، ودور العبادة في الوطن العربي و .. و ..

وتصلك في النهاية دعوة لان تكون ابنا لله ، وانك كنت ابنا للشيطان طول الوقت .. وقد تصدق ان الرياضة وغيرها هي الشيطان ، ولكنك من الصعب ان تصدق ان اميركا ــ دون غيرها ــ هي الله !!

١٩٧٧/٥/٦

"..." و "شهود يهوه" وجماعات اخرى كثيرة ودعوة تتناوب وتتناسل [illegible]
من المجتمعات الغربية والامريكية خاصة .. وتنفق الكثير من الاموال [illegible] والهدف
والقصد والغاية هي ان الروح والحرية والعدل في امريكا .. امريكا [illegible]!

١٩٨٥-١٢-١٧

✓ يموت الشاعر ... ويبقى « النهر الخالد »

برحيل الشاعر المصري الكبير محمود حسن اسماعيل تكون الروماتيكية المصرية قد طوت آخر اعلامها في فن الشعر .

وقد كان صالح جودت ومحمود حسن اسماعيل هما العلامتان الاخيرتان في ساحة الشعر الروماتيكي المصري .. ولكن «السياسة» أكلت صالح جودت من قبل أن يموت ، فأصبح مجرد شاعر مناسبات يغني لكل سلطان من ناحية ، كما أصبح مجرد مقاتل ضد التجديد في الفكر والشعر والحياة من ناحية أخرى . لذلك جاءت خاتمته أبعد ما تكون عن بدايته الجميلة العذبة برفقة جماعة أبوللو .

اما محمود حسن اسماعيل فله شأن آخر ، فالرجل ظل وفيا لاصوله الاولى التي تجمع بينه وبين علي محمود طه وابراهيم ناجي والهمشري وغيرهم من قادة الحركة الرومانسية في الشعر المصري الحديث . ظل محمود حسن اسماعيل وفيا لهذه الاصول التي كونت في ذلك الوقت ما يسمى مجازا بجماعة أبوللو (مجازا لانه كان من هؤلاء من لم ينشر قط في مجلة أبوللو) كما انها أسست ما يسمى مجازا أيضا «رابطة الادب الحديث» .. لانه كان من بين أعضاء هذه الرابطة التي قادها الدكتور أحمد زكي أبو شادي من لا ينتمي الى تيار الحداثة في الادب .

غير ان محمود حسن اسماعيل بأعوامه السبعة والستين يوجز باصالة نادرة ما طرأ على الشعر والحياة منذ كانت «الاصول الاولى» الى رحيله عن

دنيانا في الكويت حيث كان يعمل في أخريات أيامه خبيرا ثقافيا في حكومتها .. فالرجل قد ازدهر مع ديوانيه «أين المفر» و «أغاني الكوخ» وكان ينشر قصائدهما في «رسالة» الزيات . ولم يزدهر قط حين نشر ديوان «الملك».

وكان كمعظم الرومانتيكيين المصريين وغيرهم ــ خاصة شعراء المهجر من اللبنانيين والسوريين ــ يعشق الحب والموت والطبيعة والشعر ، وهي المحاور الرئيسية في شعره أبان مرحلة الازدهار .

ولكن بينما انعكس «طب» الدكتور ابراهيم ناجي على شعره ، وكذلك «هندسة» المهندس علي محمود طه ، بالاضافة الى ثقافتهما الاجنبية .. فقد انعكس «التراث» على محمود حسن اسماعيل ، وهو الشاعر الذي تخرج في كلية دار العلوم ، على مفرداته وتراكيبه وصوره وموسيقاه ، فاستحق ما قاله عنه محمد مندور من انه «وحش الشعر» .

وانصافا للحقيقة والتاريخ ، فان هذا الوصف ليس مقصودا به الجزالة وحدها أو سخاء اللغة ، بل كان الدكتور مندور يقصد في الاساس هذا التفجر الوجداني العفوي السيال بالاخيلة والنغم كهدير الشلالات من أعلى قمم الجبال .

واذا كان الموت المبكر لعلي طــه وابراهيم ناجي قد وضع خاتمــة رومانسية لمرحلة تاريخية كاملة .. فقد اتيح لمحمود حسن اسماعيل ان يشهد مرحلة ، ولعلها مراحل ، جديدة تماما ، فلم ينزو الرجل عن الشعر ولم يطلب حق اللجوء السياسي خوفا من الموجات الجديدة ولم يرتد ثياب الحرب ضد غيره أو دفاعا عن نفسه . بل ربما كانت محاولاته القليلة في كتابة «الشعر الجديد» رمزا حنونا الى أنه من «الآباء» الذين يباركون «الابناء» ولا يقاتلوهم .

أي انه لم يفهم «العطاء» على انه مجرد الاستمرار في مغالبة الزمن ، بل آمن ايمانا عميقا بأن ما اعطاه في الماضي هو «ممتد» على نحو من الانحاء

في الحاضر ، حتى اذا اختلفت الاشكال والرؤى من جيل الى جيل ومن عصر الى آخر .

ولا شك ان ايمانه صحيح ، فكما ان الرومانتيكية المصرية قد استفادت من الكلاسيكية السابقة عليها ، عادت هي الاخرى فأثرت في موجات «الحداثة» التالية لها . ولعلنا نلمح آثارا من محمود حسن اسماعيل في شعر محمد عفيفي مطر ، وهو أحد أبناء الجيل التالي لحجازي وعبدالصبور . ولكن الاهم هو الآثار التي لا ترى ، والتي تحمل أعظم معاني العطاء : القدرة على الاستمرار في الآخرين والقيمة التي تتجاوز زمانها الخاص الى كل زمان .

وربما كان محمود حسن اسماعيل نفسه لا يدرك «الاثر» الذي تركه في تاريخنا الشعري ، وربما كان الكثيرون لا يعرفون عنه سوى انه شاعر «دعاء الشرق» و «النهر الخالد» ، فقد آثر الرجل ان يمضي الفترة الاخيرة من عمره في هدوء الظل ، وان يودعنا في شيخوخة نبيلة ، بكل الكبرياء .

١٩٧٧/٥/١٣

القدرة على الاستمرار في الآخرين والقيمة التي تتجاوز
زمانها الخاص الى كل زمان .
غالي شكري

كم من الجرائم ترتكب
باسمك أيتها « الحداثة »

كان الدكتور طه حسين يعرف جيدا ان آلافا قبله كتبوا عن الشعر الجاهلي . وكان الدكتور محمد حسنين هيكل يعلم تماما ان عشرات «الروايات» كتبت قبل «زينب» وان مئات سوف تكتب بعدها . وكان توفيق الحكيم يعلم ان العديد من المحاولات قد بذلت قبل ان يكتب مسرحية «أهل الكهف» . وكان ميخائيل نعيمة يدرك ان بدايات النقد العربي الجديد قد سبقت تأليفه لكتاب «الغربال» . وكان بدر شاكر السياب على يقين من ان الارض معبدة أمامه لكتابة الشعر الحديث . وكان محمد الماغوط يعي التجارب التي قادته الى رؤياه النثرية لكتابة الشعر .

كان هؤلاء الرواد ، من مختلف الاجيال ، في الادب العربي الحديث، يشعرون بأنهم يضعون حجرا في بناء ضخم هو «الروح» العربية ، هو «الوجدان» العربي ، هو «العقل» العربي . وكانوا يبنون ، وهم على وعي نافذ بأن ما يبنونه هو جزء من كل ، انهم يضيفون الى من سبقوهم ، وان البناء سيظل ناقصا حتى يأتي من بعدهم . كانوا يرون الثقافة العربية كائنا حيا لا ينتهي بناؤه ، بما أضافوه هم أو غيرهم .

لذلك كانوا «أصلاء» في تواضعهم ، وفي تقييم ما أبدعوه من أعمال رائدة ، لم يروها قط وكأنها الالف والياء ، البداية والنهاية . بل رأوها مجرد « لبنة » سواء في الاساس أو في الطوابق العليا .

ولكن الاجيال الجديدة التي ظهرت خلال السنوات العشر الاخيرة ، تسلك باسم الحداثة والتجديد سلوكا مختلفا . وباستثناءات نادرة في ميداني القصة والشعر نلاحظ ظاهرة عامة مشتركة تبدو «اخلاقية» للوهلة الاولى ، ولكنها في صميم «التكوين الادبي» عندما نمعن النظر .

تلك هي ظاهرة «الغرور» والتعالي ، فما أن ينشر احدهم مقالا حتى يبدأ مقاله الثاني بكلمة «قلنا» . أما مقاله الثالث فيزدحم بالاشارات الى مقاليه السابقين ! وكأن موضوعه الفريد ليست له من مصادر او مراجع سوى ما دبجه يراعه من قبل .

والنتيجتان المتلازمتان لمثل هذه الكتابة «الحديثة» هي ان المقال «العبقري» لن يعدو كونه تجميعا مشوها لافكار الآخرين ، وانه بالتالي عصارة فوضوية فقيرة لجهود السابقين دون أية اضافة أو ابداع حقيقي .

وفي القصة أو الشعر ، المصيبة أفدح .. فما ان يظهر شاعر كبير كأدونيس له تجربته الخاصة مع اللغة ، كانعكاس أصيل لتجربة روحية أشمل ، حتى يصطف وراءه طابور طويل من صغار النظامين ، فينهبون «تراكيبه» وأحيانا «لغته» . ويظنون باسم الحداثة أنهم فتحوا آفاقا جديدة. وهم لم يفعلوا أكثر من نزع القشرة وحسبانها الثمرة . يأخذون المظهر دون الجوهر ، لانه ليس جوهرهم . ليست التجربة تجربتهم . وتكون النتيجة هي تلك «المسوخ» البشعة التي تسيء للحداثة والتجديد ، وتعزز موقف الكلاسيكيين .

انه الفرق بين الاصالة والزيف ، بين لوحات بيكاسو الحقيقية والذين «يجيدون» تقليدها ، لدرجة الاحتراف .. فما أن ظهرت بعض قصص يوسف ادريس وزكريا تامر وفؤاد التكرلي وادوار الخراط ، تحمل في ثناياها نكهة العصر الجديد ، بكل ما فيه من غموض وتعقيد ، حتى ظهر الكثيرون من المحيط الى الخليج ، ممن يلغون عنصر الحكاية أو تطور الشخصية دون أن تفرض «تجربتهم» هذا الالغاء ، وبغير ادراك للوظيفة الفنية التي يؤديها

هذا التكوين القصصي الجديد .

لمــاذا ؟

لان هؤلاء «الصغار» ــ موهبة لا سنا ــ لم يستوعبوا تراثهم ولم يتمثلوا تجربتهم ولا تجربة عصرهم .. بل هم أرادوا «اختصار الطريق» باسم الحداثة ، فأفسدوا انفسهم وهم بعد في بداية الطريق .

١٩٧٧/٥/٢٠

حوار « يجمع » العرب ولا يتواضع أمام الغرب !

ينشط في فرنسا ، اليوم ، حوار عربي أوروبي ، لا علاقة له بالنفط والطاقة والصناعة المتطورة ورأس المال المالي . رغم ذلك ، ربما كان هو الحوار الاكثر جدوى ، بل ربما كان هو الحوار الحقيقي .. لانه لا يلتمس «تبادلا في النفع» بل «تفاعلا في الخلق» . ذلك هو الحوار الفكري والثقافي والحضاري الذي يتخذ أشكالا متعددة ، كندوة مونبلييه وندوات الكوليدج دي فرانس وندوة المعهد الكاثوليكي ومعرض الحضارة الاسلامية ، وقبل ذلك ندوة جامعة فانسان .

والملاحظة الاولى على هذا النشاط هو ان «الاستشراق الفرنسي» هو صاحب المبادرة الى اقامة هذا الحوار الواسع . والملاحظة الثانية هي ان «الاسلام وحضارة الغرب» هو المحور الرئيسي الغالب على هذا الحوار .

.. والحقيقة هي ان فرنسا من بين دول الغرب هي المؤهلة أكثر من غيرها للقيام بهذا الدور ، فالنهضة العربية الحديثة قد ارتبطت منذ فجرها الباكر في ثلاثينات القرن الماضي بالفكر الفرنسي . ولعلي لست من القائلين بأن «الحملة الفرنسية» في ذاتها هي التي أوقدت شعلة النهضة ، ولكني من القائلين بأن الاتصال العربي الفرنسي ــ الذي تعددت أشكاله ــ هو العامل الفكري الحاسم في بلورة مسار النهضة العربية .. خاصة وانه قد أتيحت لتيارات الثقافة الفرنسية ، سبل الاستمرار والتفاعل والتأثير في الثقافة العربية الحديثة ، في مختلف ميادينها النظرية والفنية .

اننا لن نجد ثقافة « أجنبية » أخرى ــ غير الفرنسية ــ كان لها هذا الاستمرار وهذا الحجم في التأثير .. منذ رفاعة الطهطاوي في «تخليص الابريز في تلخيص باريز » وترجماته للدستور والقانون الفرنسيين ، الى جمال الدين الافغاني والامــام محمد عبده في « العروة الوثقى » التي أصدراها في باريس ، الى الدكتور محمد حسين هيكل في تأليفه أول رواية مصرية «زينب» وترجمته لكتاب «اميل» لجان جاك روسو ، الى طه حسين والسوربون والشعر الجاهلي وديكارت ، الى توفيق الحكيم و «عصفور من الشرق» و «عودة الروح» الى حسين فوزي ويحيى حقي ومندور ، الى موجات التجديد الرومانتيكية والحديثة التي حمل لواءها شعراء المشرق في سوريا ولبنان ــ وخاصة نزار قباني وأدونيس على اختلاف طريقهما ــ وكذلك الرواية والمسرح في المغرب العربي ، وخاصة في الجزائر على أيدي محمد ديب وكاتب ياسين ومالك حداد .

.. وايا كانت جوانب السلب والايجاب في نتائج هذا التفاعل والتأثير المستمر ، فالحقيقة التي لا شك فيها ان الثقافة الفرنسية تنفرد بهذا الدور وهذا الحجم ، رغم الروافد الاخرى التي لا شك أيضا انها قد تركت بصماتها عــلى العقــل العربي والوجدان العربي ، كالثقافتين الانكليزية والروسية .

ولم يكن التأثير الفرنسي، في أية لحظة، مقصورا على الجانب الفكري والثقافي ، معزولا عن الحركة الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي . ولم يكن أيضا «ارسالا» بغير استقبال .

.. فشيوع الافكار الليبرالية مثلا ، شارك في صياغة المؤسسات السياسية العربية ، وشارك في صياغة بعض برامج التربية والتعليم، وشارك في صياغة حركة تحرر المرأة . كما ان ذيوع بعض الافكار الفنية ساعد في استنبات البذور الاولى لفنون الرواية والمسرح والقصة القصيرة والنقد ،

ولم يسلم الشعر ، رغم احتفاظه بالعمود الخليلي من رياح الرومانتيكية الفرنسية .

وكما ان البعثات العربية الى فرنسا لم تنقطع يوما ، فان البعثـات الفرنسية الى بلاد العرب لم تنقطع هي الاخرى .. واذا استثنينا الاعمال الكبيرة التي رافقت حملة بونابرت ، كالسفر الضخم الذي وضعه علماء الحملة بعنوان «وصف مصر» وكالاكتشاف التاريخي لحجر رشيد الذي قام به شامبليون ، فان جيشا كاملا من كبار المستشرقين والعلماء الفرنسيين قام ولا يزال يقوم بدرس تراثنا القديم والوسيط والحديث ، في مقدمة الراحلين منهم : بلاشير ، وهنري بيريس ، وبوركهارت ، ولويس ماسينيون، وقنواتي . وفي طليعة الاحياء : جاك بيرك ، ومكسيم رودنسون ، ومونتي، واندريه ميكيل ، وأركون ، وجاك جومييه . بعض هؤلاء وغيرهم هم الذين يقيمون الآن جسورا جديدة للحوار بين حضارة الغرب والعرب ، خاصة تراثنا الاسلامي .

.. أي ان ما قصدت قوله هو ان الحوار العربي الاوروبي هو في الاغلب حوارنا مع فرنسا ، وفي الاغلب أيضا هو حوار موصول الحلقات، وفي الاغلب أخيرا هو حوار يتجاوز « التبادل في النفع » الى « التفاعل في الخلق » .. فهو لا يقتصر على مظاهر الحضارة الخارجية واشكالها الماديـة المباشرة كمفاوضات الطـاقة والتنمية وحوارات الفقر والغنى والتقـدم والتخلف، بل هو يتجاوزها الى لب اللباب ، الى جوهر الحضارة .

ومن هنا كان اختيار «الاسلام» محورا فكريا لاهم المناقشات الدائرة الآن بين المثقفين الفرنسيين والمثقفين العرب ، لانه أولا ، هو الحضارة التي تجمع العرب ولا تفرق بينهم ، فكم كان هينا أن تكون الحضارة المصرية القديمة أو الحضارة السومرية أو الحضارة الفينيقية هي محور الحوار . وكم كان يسيرا أن تكون الديموقراطية الليبرالية أو الاشتراكية هي محور الحوار . ولكن هذه كلها ــ ورغم أهميتها ــ لا تجمع العرب . ان اختيار

«الاسلام» محورا رئيسيا للحوار الفرنسي العربي الواسع ، هذه الايام ، يبرز هذه الدلالة الهامة ، وهي ان اي نقاش حضاري مثمر بين الغرب والعرب لا بد وان ينطلق مما يجمعهم في اطار واحد .

أما الدلالة الاخرى ، فهي ان اختيار الاسلام يعني ضمنا اختيار أزهى عصور الحضارة العربية ، واستبعاد أزمنة الانحطاط .. اي ان الطرف الآخر يبدأ حواره مع مراكز قوتنا لا مواطن ضعفنا . انهم يعلمون أكثر من غيرهم ان عصر الازدهار الاكثر تألقا في تاريخنا العربي ، هو فجر الاسلام .. حين كانت أوروبا تغط في سبات القرون المظلمة . وهم بذلك يقيمون جسرا قويا للحوار ، لا ينطلق من التعالي من جانبهم ولا من مركبات النقص من جانبنا ، بل هم يتلمسون جوانب «التكافؤ» بيننا وبينهم .

وهكذا ..

فهم لا يختارون ماضينا السحيق حتى لا يفرقون بيننا ، وهم لا يختارون حاضرنا الطازج حتى لا يفرقون بيننا وبينهم. لذلك كان «الاسلام» نقطة اللقاء الحضارية الجديرة بأن تكون محورا رئيسيا للحوار الجديد .. القديم !

١٩٧٧/٥/٢٧

من أنور المعداوي إلى فدوى طوقان
... مع تحيات رجاء النقاش

نعم ، هي صفحات مجهولة من الادب العربي المعاصر ، كما قال الناقد رجاء النقاش على صدر كتابه حول أنور المعداوي . وهو كتاب قديم جديد. قديم لان مادته الخام كتبت قبل حوالي ربع قرن ، وهي مجموعة الرسائل التي بعث بها الناقد المصري الراحل أنور المعداوي الى الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان في أوائل الخمسينات . وهو جديد لان هذه الرسائل — وهي قطعة من الادب الرومانتيكي الرفيع المستوى — ترى النور للمرة الاولى .

ولا شك ان هذا الكتاب الجيد لرجاء النقاش ، هو كتاب هام لاكثر من سبب .. فهو أولا يقتحم عالما مجهولا في الادب العربي الحديث ، هو عالم الرسائل الشخصية للادباء . فالمحاولات القليلة التي سبقته أو تلته كانت في الاغلب محاولات فقيرة وعاجزة ومبتورة ، لانها تمت باشراف مواهب صغيرة أو قدرات عقيمة أو غايات تجارية . أما محاولة رجاء النقاش فهي تجربة نقدية حقيقية ، لكاتب ومؤرخ أدبي ، مثقف وموهوب .

والكتاب مهم ثانيا ، لانه عن ناقد تألق نجمه في سماء الادب المصري بل والعربي الحديث خلال فترة قصيرة نسبيا ، وسرعان ما انطفأ الشهاب في عمر الربيع . وهو ليس ناقدا عاديا ، سواء بفطرته المصقولة بالخبرة ، أو باخلاقيته الشجاعة المبتكرة .. فقد كان أنور المعداوي طيلة حياته نموذجا للضمير المتقد ، وبطلا لمأساة هذا الضمير في عالم بلا قيم . ولاسباب كثيرة

لا يكاد يعرف عنه الجيل الجديد شيئا ، فجاء كتاب رجاء ليقدم بعضا من هذه الصفحات المضيئة المجهولة في تاريخنا الادبي . ولا أقصد هنا رسائل المعداوي ذاتها ، بل الدراسة اللامعة التي مهد بها الناقد الوفي لهذه الرسائل .

وهذا الكتاب مهم ، ثالثا ، للاشارات الذكية التي علق بها المؤلف على جميع الرسائل .. فقد استكمل بها الثغرات التي يمكن أن تظهر في المخيلة أثناء القراءة ، من حيث الوقائع والتواريخ والشخصيات والاحداث التي تشكل خلفية العصر ، فكرا وفنا . أي انه أضاف الجانب الموضوعي الى الملامح الذاتية لوجه المعداوي وفدوى على السواء .

لهذه الاسباب وغيرها ، جاء كتاب رجاء النقاش ليسد نقصا مثيرا في المكتبة العربية ، على الاقل بالتوجيه الذي تحمله ثنايا الكتاب الى هذا النوع من الدراسات ، والى هذا النوع من الصفحات المجهولة .

وربما كانت «الريادة» في أمثال هذه الموضوعات هي التي تستوجب بعض الملاحظات التي يستحقها الكتاب وكاتبه ، لان اهمالهما لا يحقق غايتهما معا .

أول هذه الملاحظات تخص «المنهج» الذي عرف به رجا ءالنقاش ناقدا، والذي تعثر في هذا الكتاب تعثرا ملحوظا .. فالكاتب هو أحد نقاد الاتجاه الاجتماعي في الادب العربي الحديث . وفي المقدمة الهامة التي مهد بها للرسائل ، لم يستطع التخلي عن جوهر هذا الاتجاه . ولكن «القضية» التي أثارها وأختارها محورا للبحث فرضت عليه بعض زوايا التحليل النفسي ، فكانت النتيجة اختلالا ظاهرا في صلب الدراسة والهوامش بين المقدمات والنتائج . ويبدو ان الناقد قد تصور أن المشكلة النفسية تتطلب بالضرورة تحليلا نفسيا . ولو كان الامر كذلك لما كان لدى أي ناقد اتجاه محدد أو منهج ، بل أصبح الناقد يتشكل منهجيا من عمل أدبي الى آخر أو من ظاهرة أدبية الى أخرى ، حسب تكوين هذا العمل أو الظاهرة .. فهو ناقد نفسي

مع قصة نفسية وهو ناقد رمزي مع قصيدة رمزية وهو ناقد اجتماعي مع مسرحية اجتماعية ، وهكذا يصبح الناقد تابعا للعمل الادبي ومجرد رد فعل.

بينما الحقيقة هي أن أية ظاهرة أدبية قابلة لان تخضع لتفسير اي منهج ، فالظاهرة النفسية يمكن تفسيرها اجتماعيـا ، وبالمثل الظـاهرة الاجتماعية يمكن تفسيرها سيكولوجيا . وإذا كان الناقد كبيرا وصاحب مدرسة ، فهو يختار الظواهر والاعمال التي تدعم اتجاهه بالشواهد ، ويتجنب الظواهر والاعمال التي تخدش بناءه الفكري .. فهناك نقاد رمزيون يعتمدون فقط على الاعمال الادبية ذات الطـابع الشعائري أو الاسطوري . وهناك نقاد نفسيون يقتصرون في تحليلاتهم الادبية على الاعمال ذات الطابع النفسي . وقد أراد رجاء النقاش في كتابه أن يزاوج بين الاتجاهين الاجتماعي والسيكولوجي ، فخانه التوفيق .

- والنقطة الثانية هي ان «الكشف» الذي ألجأ الناقد الى التفسير النفسي ، ليس من « الحقائق المؤكدة بما لا يدع مجالا للشك » .. فالمحور الذي يجمع تحليلات رجاء النقاش لرسائل المعداوي ، هو أن الناقد الراحل كان مصابا بالعجز الجنسي . ولكن هذا «الاحتمال» ليس مؤيدا على طول الكتاب ــ وخاصة من الرسائل التي هي مادته الخام ــ بأية أدلة قاطعة ، بل هي في الارجح قرائن ضعيفة .. فالعزوف عن الزواج او اختلاط بعض الوقائع في ذهن المعداوي أثناء روايتها للمؤلف ، ليس من أدلة الحسم والحزم . وهناك اصدقاء عديدون للمعداوي ــ لا تقل أهمية عن صداقته لرجاء ــ يؤكدون ان الرجل كانت له علاقات حميمة ناجحة مع النساء .

ولعل التصور الاقرب الى التصديق ، هو ان المعداوي كان فارسا رومانتيكيا ، فتى عصره تماما : يعشق «عذاب الحب» حقا ، يعشق الموت والطبيعة والتفرد ، ولكنه يعشق المرأة أيضـا ، على طريقة الرومانتيكيين في كل العصور . أو «كراهية الجسد وعشق الروح» وغيرها من المعاني الدارجة . وصفحات المعداوي المجهولة (رسائله الى الشاعرة فدوى)

بالاضافة الى ادبه ونقده لا تؤكد هذه المعاني الشائعة، فضلا عن خلوها خلوا مطلقا من أي برهان على العجز . بينما تشكل هذه الفكرة «المحتملة» وليست المؤكدة أساس الكتاب الذي أقام عليه المؤلف كتابه .

والنقطة الثالثة هي أن الناقد لم ينصف المعداوي ، حين اقتصر على نشر رسائله ــ وهو في رحاب الله ــ ولم ينشر ردود فدوى طوقان أطال الله في عمرها . وفي هذا الصدد هناك قضيتان ثابتتان : أولاهما أن الشاعرة هي التي أعطت رجاء رسائل المعداوي ، والثانية هي أن المعداوي قد أعاد ردود فدوى اليها عندما انتهت علاقتهما ، أي ان رسائلها في حوزتها . لذلك كان الامر على الصعيد الاخلاقي، يتطلب نشر رسائل المعداوي وردود فدوى معا . كما أن الامر على الصعيد الادبي ، كان يحتم ذلك ، حتى تكتمل صورة العصر، وتتكامل دلالات الرسائل.. فلربما كان العيب في الشاعرة لا في الناقد الراحل . وربما لم يكن العيب فيهما ، بل في الظروف . ربما ، من يدري ؟ ولكن المؤكد هو ان الاقتصار على رسائل المعداوي هو ظلم له وليس انصافا للادب .

على أية حال ، فان ما يستوجب ذكر هذه الملاحظات هو أهمية كتاب رجاء النقاش وأهمية أنور المعداوي .. وكم كنا نود أن نضيف أهمية فدوى طوقان .

١٩٧٧/٦/٣

اود ان اقرا الكتاب كاملا .. فقد تناولت "ردود" النقاش
بعض الرسائل ولا بد من انتظار الكتاب كاملا .

١٩-١٢-١٩٨٠

الأزمة نعم ... أما الانحطاط فلا

من بين ركام اليأس التي يهيلها كبار المفكرين العرب على أمتنا هذه الايام تبرز قضيتان خطيرتان :

القضية الاولى هي التشكيك في أنه كانت لنا «نهضة» منذ القرن الماضي وبدايات القرن الحالي ، فليست مجموعة الافكار الجديدة عند الطهطاوي أو الامام محمد عبده ، الا افكارا «اصلاحية» لا يجوز ان ندعوها بفكر «النهضة» .. ذلك ان هذا الجيل ـ عند اصحاب هذا الرأي ـ لم يتناول «الجذور» كما حدث ذلك للمرة الاولى في النهضة الاوروبية.

والحقيقة ان هذه القضية لا تثير اشكالا تاريخيا بقدر ما تثير اشكالا منهجيا .. فاذا لم يكن ما جرى في الفكر العربي خلال المائة والخمسين سنة الاخيرة تفجيرا لنهضة ، فماذا يكون اذن ؟ والاشكال المنهجي هو قياس «الفكر العربي الحديث» بمقياس النهضة الاوروبية الاولى . وهو القياس الذي يتجاهل في ظني ، الفروق الحاسمة بين «المؤسسة» الكاثوليكية في الغرب ، والاسلام في بلاد العرب . كما يتجاهل طبيعة المرحلة التاريخية التي وقع فيها الاحتكاك بين بلادنا والحضارة الحديثة التي اتخذت لاسباب عديدة مركزها الحالي في الغرب .

ان « الجذور » المقصودة بالتناول ، هي الدين والقيم والبنى الاجتماعية وهياكل العادات والتقاليد . والمقطوع به هو ان النهضة الاوروبية واجهت «الكنيسة» كمؤسسة اقتصادية واجتماعية وسياسية

ارتبطت بالاقطاع كنظام اقتصادي وبالامبراطوريات كنظام سياسي وبمحاكم التفتيش كنظام فكري يحرق الفلاسفة والعلماء أحياء ، ويبيـع صكوك الغفران لعامة المواطنين حتى يحصلوا بمقدار ما لديهم من ذهب على الارض أمتارا في جنة السماء ، ويفتح صدور البشر بالخناجر باحثا عن همسات الضمير والنوايا !!

تلك هي «الجذور» التي واجهتها النهضة الاوروبية بشجاعة الفكر الجديد والكشوفات العلمية الجديدة والتنقيب ، في تراث الاقدمين الوثني.

ولا تشابه هذه كلها «جذورنا» في شيء . لعلها كانت من احدى الزوايا على النقيض : تخلفت الحضارة العربية الاسلامية عن عصر ازدهارها الذهبي في فجر الاسلام فانحط العرب .. وتدهورت حياتهم حتى أمست نهبا للامبراطورية العثمانية ومن بعدها الاستعمار الغربي بأشكاله وألوانه. ومن هنا كان «قهر التخلف» بالعودة الى الاصول وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها مع الزمن ، و «قهر الاجنبي» بالانفتاح على العالم الحديث واللحاق بركب الحضارة الانسانية ، هما جناحا «يقظتنا القومية» و «نهضتنا الحديثة» .. دون تعصب أعمى للماضي ، ودون مركب نقص ازاء الجديد. وذلك هو المحور العام لافكار الطهطاوي والبستاني والافغاني ، ومن جاءوا بعدهم في مختلف الاقطار العربية . ذلك هو محور نهضتنا نحن لا نهضة غيرنا . ذلك هو القانون الرئيسي للنهضة العربية الحديثة ، الذي لا يتناقض في جوهره مع القوانين العامـة للنهضـات ، ولكنه يختلف في مساره وتفاصيله اختلاف «الخصوصية» التي تميز تاريخنا وتراثنا وحاضرنا جميعا .

والدليل الثابت عـلى صدق هذه «المعادلة» التي اكتشفها الرواد الاوائل ــ والتي تطورت مع الايام وأصبحنا نسميها بالاصالة والمعاصرة ــ هو ان الذين تلفعوا بالتراث القديم وحده لم يتركوا اثرا عميقا في مجرى تطورنا ، وكذلك الذين تلفعوا بآيات الحضارة الغربية وحدها ، لم يتركوا

هم أيضا أثرا بارزا على جبيننا الحضاري . ولعل أهمية هؤلاء وأولئك كانت في «حوار» أصحاب المعادلة بين التراث والعصر معهم .. وهي المعادلة التي لا تزال منذ الثلث الاول من القرن الماضي الى الثلث الاخير من القرن العشرين ، محورا أساسيا لاي بحث جاد عن هويتنا الحضارية المعاصرة .

وهنا ، بالضبط، تجيء النقطة أو القضية الثانية، الا وهي تصوير أزمة الفكر العربي الراهنة وكأننا بازاء أحد عصور الانحطاط .

ولست أريد الضياع في متاهة الألفاظ ، ولكنني أفرق دون تردد ، بين الازمة والانحطاط . ومرة أخرى أقول ان الاشكال هنا منهجي ، فقياس تطورنا الراهن بمقاييس التطور الغربي الحديث ليس جائزا بأية حال . ومن ثم فلا يجوز لنا ان نغفل ما أحرزه العرب طيلة القرن الماضي من انجازات في درء التخلف وقهر الاجنبي معا . وهي انجازات كانت مجرد «أحلام» عند جيل الرواد .. فعلى مختلف الاصعدة المادية ، تغيرت الهياكل الاقتصادية والبنى الاجتماعية والانظمة السياسية . وقطعنا شوطا لا يستهان به في طريق الاستقلال الوطني والتنمية . وعلى مختلف أصعدة الثقافة ، فكرا وفنا ، حقق آباؤنا وأساتذتنا وأجيالنا المعاصرة في القصة والشعر والمسرح والنقد والفكر الاجتماعي ما كان مجرد «بشائر وضمائر» بدائية في أذهان وأخيلة رواد النهضة .

رغم ذلك كله ، فالاعمى وحده هو الذي ينفي الانكسارات والانتكاسات والهزائم المتلاحقة التي ألمت بالامة العربية مشرقا ومغربا شمالا وجنوبا ، وهي في طريق درء التخلف وقهر الاجنبي ، أي وهي في طريق «النهضة» . ولا شك اننا نعاني في الوقت الحاضر من احدى عثرات هذا الطريق الوعر . ولكن ، يبقى الفرق كبيرا ، بين السقوط في حفرة ، والخروج التام عن حدود الطريق واتجاهه العام . تبقى امكانية «النهوض» من الكبوة أملا في استئناف الرحلة، اما الخروج عن معالم الطريق الرئيسي فيرادف الضياع . وهذا هو الفرق الخطير بين الازمة والانحطاط .

١٩٧٧/٦/١٠

المؤتمر المطلوب فوراً

برقية الدكتور سهيل ادريس لروابط واتحادات الادباء العرب ، بمناسبة زيارة يوسف السباعي لأسرائيل ، برقية مهمة ، أصابت في شيء وأخطأت فيأشياء. والبرقية في ذاتها ليست هي«الهدف» بل التيار الفكري والسياسي الذي أفرزها وعبرت عنه .

البرقية تطالب باقصاء السباعي عن الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب، لا بسبب الزيارة وحدها بل لان الانتخابات الاخيرة التي جاءت به امينا عاما، هي انتخابات مزورة ، على حد تعبير الدكتور ادريس . وهذا مطلب لا أعتقد ان أحدا سوف يعارض الزميل بشأنه ، بل لعل البعض يضيف سببا أهم : وهو ان السباعي لا يمثل الادباء المصريين أنفسهم ، فما بالك بالادباء العرب ؟

ولكن الجزء الآخر من البرقية هو الاهم والاخطر ، اذ يطالب سهيل ادريس بنقل المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب العرب ، من القاهرة الى « أية عاصمة عربية أخرى أدانت زيارة السادات » .

وهي الدعوة التي لا تنفصل عن بعض المظاهر التي رافقت زيارة السادات لاسرائيل، كحرق العلم المصري وتحطيم المراكز الثقافية المصرية ــ فضلا عن السفارات والقنصليات ــ وكذلك الدعوة الى سحب الاعتراف بمصر كدولة ، وكعضو بجامعة الدول العربية ، ومـا ينبنيعلى ذلك من المطالبة بنقل مقر الجامعة الى عاصمة أخرى ، وتطبيق قانون «المقاطعة»

عليها .. مما ينتهي في خاتمة المطاف الى اعتبار مصر «اسرائيل ثانية» في الشرق الاوسط .

وهي دعوة خطيرة بكل معنى الكلمة . واذا كان من الممكن تبرير الانفعالات العفوية للجماهير التي حرقت وحطمت الاعلام ومراكز الثقافة، فانه يستحيل تبرير المواقف القيادية والفكرية المسؤولة ، والتي تأتي برقية سهيل ادريس تجسيدا مكثفا لها .

... وملعونة الايام السوداء التي تضطر المرء لان يقول بأن مصر ليست ولن تكون ، اسرائيل . وملعونة الايام السوداء التي تضطر المرء لان يصرخ بملء حنجرته ان مصر شيء ورئيسها شيء آخر ، وان شعب مصر شيء ونظامها السياسي شيء آخر .

ملعونة الايام ، لاننا كنا نظن ان هذه كلها بديهيات لا يجوز فيها الحوار .. فالعلم المصري رمز لمصر لا لرئيس الجمهورية ولا لنظامه السياسي . واذا كان يوسف السباعي لا يمثل الكتّاب المصريين أو العرب، فان الثقافة العربية في مصر ليست هي السباعي .. هناك المئات من الكتّاب المصريين الشرفاء وقفوا ضد «الارتداد» من سبع سنوات لا منذ سبعة أيام! وتحملوا في سبيل ذلك كل صنوف التعذيب والسجن والتجويع والتشرد والنفي . هؤلاء الذين يبدأ تاريخهم الحديث من رفاعه الطهطاوي ومحمد عبده وعبدالله النديم الى طه حسين والعقاد ومحمد مندور الى محمود العالم وأحمد حجازي وأحمد فؤاد نجم .. هم الذين يمثلون أعرق تقاليد الثقافة العربية في مصر ، تقاليد الكفاح ضد الاستعمار والقهر ومن أجل الاستقلال والديموقراطية . هؤلاء وغيرهم مئات الاحرار ، هم الذين يمثلون روح مصر وضميرها ، عقل مصر ووجدانها ، شعب مصر وترابها .

نعم ، مصر ليست اسرائيل ولن تكون ، حتى اذا ذهب رئيسها ورئيس ادبائها الى اسرائيل .. فهذه النقطة السوداء هي عار الافراد وليست بأي مقياس عار الوطن والشعب والثقافة . مصر هي قلعة العرب الاولى رغم أنف

الذين وضعوا انوفهم في الرغام .

لذلك ، ففي فورة الغليـــان لا ينبغي أن ننجرف ، بل واجبنا عـــلى العكس ، أن نقوّم المشاعر الخاطئة ونهذب الانفعالات الجامحة .. فالمساواة بين مصر واسرائيل لن تخدم سوى اسرائيل ، وعزل مصر عن العرب لن يخدم سوى اعداء العرب .

ومصر لم تصبح بين يوم وليلة أرضا بلا شعب أو ثقافة أو مفكرين عرب أصلاء ، مصر لم تخل ساحتها لحظة واحدة من النضال والمناضلين حتى نشطب عليها تماما ونهائيا وكأنها قصر مهجور يسكنه فقط اسالادات وحاشيته .

كلا ، أيها السادة .. ففي ظل عبدالناصر العظيم نفسه ، ثار الشعب المصري على الهزيمة عام ١٩٦٨ وانفجر الطلاب والعمال والمثقفون في انتفاضة لم يشهد أي قطر عربي لها مثيلا ، وهي الانتفاضة التي أنجبت بيان ٣٠ آذار البشارة الاولى بدولة المؤسسات والديموقراطية وسيادة القانون وتصفية المعتقلات .

وبين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ كانت الهبة الجماهيرية العظمى التي تحالفت فيها أوسع قطاعات الشعب العربي في مصر ، من الطبقة العاملة والحركة الطلابية والادباء والفنانين .. انها «الهبة» التي دفعت النظام الى فصل ١١١ كاتبا وصحفيا وطنيا من أعمالهم في أبشع مجزرة للثقافة والمثقفين عرفها العرب المعاصرون . ومن ناحية أخرى كانت «الهبة» التي دفعت النظام دفعا الى حرب ١٩٧٣ .

وفي يناير ــ كانون الثاني ١٩٧٧ قام الشعب العربي في مصر بمختلف طبقاته الوطنية وفئاته المنتجة وفي طليعته المثقفون المصريون بما كاد يشكل «ثورة جديدة» ، لم يعرفها أي قطر عربي باستثناء لبنان .

ومأساة البعض منا انه بلا ذاكرة ، يستقبل انفجارات الشعب المصري بالهتاف لحظتها ، ثم ينسى ... فما ان يزور رئيس الدولة او رئيس الادباء

اسرائيل ، حتى تصبح مصر بلا شعب ، ولا ثقافة ، بل السادات والسباعي وبيغن وموشى دايان !! تصبح مصر ، في غفلة من الوعي ، اسرائيل !!

واذا كنا نملك الذاكرة الوطنية ، فمن حق شعب مصر وثقافته هذا السؤال : لماذا ثار عام ٦٨ و٧١ و٧٥ و١٩٧٧ لماذا ؟

من أجل مصر ، بغير شك . ولكن من أجل مصر عربية ، أي من أجل فلسطين .. فلو كان الشعب المصري أو مثقفوه اقليميين ، لما ثار على الهزيمة، ولما دفع بلاده الى الحرب ، ولما تحدى الكتّاب المصريون أجهزة الامن يوم استشهد غسان كنفاني وساروا في مظاهرتهم الصامتة ، ولما شارك المثقفون المصريون الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية في «الحرب» حتى استشهد أحدهم ــ ابراهيم عامر ــ رمزا وتذكيرا .

* * *

اما بالنسبة للزيارة السوداء ورحلة العار ، التي فاجأت بعض العرب وقال البعض الآخر انها لم تفاجئهم ، فانها كانت تتويجا لعديد من المراحل، تابعها الشعب العربي في مصر ومثقفوه خطوة خطوة ، بالرفض والمعارضة، منذ «الانقلاب» الذي وقع بالغياب المريب للرئيس عبدالناصر ، الى «الثورة المضادة» التي أطاحت بالجناح الناصري من الحكم ليلة ١٤ ايار ١٩٧١ ، الى محاولة العودة بالاقتصاد المصري الى فلك النفوذ الاستعماري ، الى التحالف مع الولايات المتحدة ، الى محاولة ضرب النظام الوطني في ليبيا، الى اتفاقية سيناء المنفردة ، الى المساهمة في تصفية المقاومة الفلسطينية وحصار الحركة الوطنية اللبنانية الى ... أورشليم . لم تكن «فلسطين» في كل هذه المراحل غائبة عن الوعي الوطني والقومي المصري ، بل كانت هناك في وفاة عبدالناصر ومذبحة أيلول ، وكانت هناك في اتفاقية سيناء ومذبحة لبنان .. وكان المصريون بطلائعهم المثقفة يرفضون ويعارضون من هــذا المنطلق الذي وحد المصير العربي بين مصر وبقية الاقطار العربية .

ان نضال الغالبية العظمى للمثقفين المصريين طيلة السنوات السبع

الاخيرة كان من اجل «عروبة مصر» ، فقد كانت الشيفرة السرية والراية المرفوعة ، لكل مطلب طالبوا به وكل تحرك تحركوه ، داخل كل زنزانة دخلوها ، وفي كل منفى تشردوا اليه . عندما وقفوا ضد نتائج حرب ١٩٧٣ كانت فلسطين قبلتهم ، وعندما وقفوا الى جانب القوى الوطنية في حرب لبنان وكانت فلسطين محرابهم ، وعندما يقفون اليوم ضد الزيارة السوداء ورحلة العار ، فان فلسطين كعبتهم .

لم يفاجأوا ، كغيرهم ، بمضمون السادات مهما اتخذ اشكالا حربائية .. ولم يقولوا انهم «كانوا» يعرفون طيلة الوقت .. بل مارسوا المعرفة فكرا وسلوكا ونضالا مستمرا لا هوادة فيه .

لذلك كله ، مصر ليست اسرائيل ولن تكون . ولذلك وغيره ، مصر شيء ونظام رئيسها شيء آخر . وأي خلط في الاوراق يهدد الجميع بالضياع ، بل التمييز الدقيق والتقاط الشعرة الرفيعة هو المنقذ من الضلال.

ان تغيير السباعي ، بل منع السادات ، كان يستوجب النضال منذ سنوات ، منذ الخطوة الاولى للانحدار .. لا بعد أن وصل هذا أو ذاك الى السفح . بل أقولها بمنتهى الالم ، ان الذين خلطوا الاستراتيجية بالتكتيك وعاملوا النظام المصري (السياسي والثقافي) بمرونة السلم في زمن الحرب .. قد شاركوا الى حد كبير في وصول الامور الى الحد الاسود الذي وصلت اليه . كما انهم – للتاريخ – شاركوا في تضييق الخناق على رقاب المثقفين الوطنيين في مصر .

وباستثناء العراق الذي فتح أبوابه على اتساعها لهؤلاء المثقفين ، وباستثناء لبنان الذي فتح صدره رحبا لهم .. فانني أقولها جهرا ، ان صفوة العقول المصرية المناضلة من أجل عروبة مصر ، لم تلق حائطا قويا تستند اليه ، سوى كفاءاتها الحرفية ومواهبها الفنية المهنية التي قد تطعمها خبزا ، ولكنها لا تدعمها نضالا .

... بل ويأتي اليوم من يحاول سلبها حق «الوجود» وكأن السباعي

هو الثقافة المصرية ، وكأن السادات هو شعب مصر . لقد كنت أتصور ان يطالب البعض باستبدال السباعي بلطفي الخولي مثلا ، وان يدعو البعض شعب مصر الى تغيير نظامه السياسي ... ولكني لا أتصور مطلقا ان يحرق علم مصر الذي يمثل شعبها أو المركز الثقافي المصري الذي يمثل ثقافتها .

* * *

لا ينبغي أن نفكر اليوم بعواطفنا السطحية ، بل لعلنا أحوج ما نكون الى «اعادة نظر» جذرية في توظيف مشاعرنا لخدمة عقولنا ، وليس العكس.

ان ما حدث ، الاسبوع الماضي ، هو أبشع من كل الكلمات والنعوت التي وصف بها .. ولكنه في الحقيقة استمرار لخطوات سبقته بكثير . وفي الحقيقة أيضا هو الطريق المنطقي لفكر محدد ونظام سياسي ليس «مصريا» بالفطرة والطبيعة .. بل هو اتجاه وهوية تكتسبهما طبقة معينة وايديولوجية معينة وفقا لمصالحها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ولذلك ، فالترجمة العملية لادانة الخطوة الساداتية (لا المصرية) لا تكون كما فعلنا في حرب ١٩٧٣ سرعان ما اتحدنا وسرعان ما تفرقنا ، بل بالدراسة العميقة لاسس «النظام» الذي وصل الى الهاوية .. وكيف يمكن مساعدة شعب مصر في تغييره ، وكيف يمكن دعم طلائع هذا الشعب الفكرية والسياسية ، وما هي الحقائق الاصلية والاصيلة للصراع العربي الاسرائيلي ، وما هي الوسائل العملية لتوحيد القوى القومية المعادية للاستعمار والصهيونية .

ولا بأس من تكرار الاسئلة البديهية : ما هي الاهداف في المرحلة الراهنة ، ما هي الوسائل ؟ ما هي الاستراتيجية ، وما هو التكتيك ؟ من هم الحلفاء ومن هم الاعداء ؟

وهي أسئلة قد يجيب عليها مؤتمر قمة قومي تقدمي ، وقد يستجيب لها تشكيل جبهة عربية قومية تقدمية من المحيط الى الخليج .. ولكن ألا يستدعي الامر أيضا قيام جبهة ثقافية عريضة ، ومؤتمر فكري عربي شامل؟

لا لمناقشة الزيارة السوداء او رحلة العار ، بل للتخطيط العلمي الدقيق الذي يستوعب «المفاجأة» ويتجاوزها الى ما هو أبعد وأعمق ، ليستقبل المفاجآت القادمة ، بصمود أكبر وصلابة أقوى .

الى مثل هذا المؤتمر يجب أن ندعو ، لأن اسقاط السباعي لا يحتاج الى مشقة البرق ، فما يمثله السادات هو الاخطر اليوم وغدا وبعد غد . وهو الذي يحتاج الى الحوار الفكري الواسع والترجمة السياسية العملية جنبا الى جنب .

هناك ستجدون شعب مصر ، بعقله المناضل طيلة العصور ، هنـاك ستجدون مصر بوجدانها الحر مدى التاريخ .

ولا تخطئوا الحساب ... لان مصر هي التي ستحسم ، وشعبها هو الذي سيقرر .

١٩٧٧/١٢/٢

مؤتمر لا مظاهرة

على مدى ربع قرن، في أقل تقدير، والمثقفون العرب يلتقون ويتلاقون هنا وهناك ، في هذه العاصمة العربية أو تلك ، وأحيانا في عواصم الغرب حتى الولايات المتحدة . أدباء ونقاد ، روائيون وشعراء ، مفكرون في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة . كلهم ، يجتمعون ويناقشون ويوصون ، وأحيانا يقررون . ثم ينتهي كل شيء قبل أن يجف المداد على الورق . والاغلب أن تكون النتيجة ، في جميع الاحوال ، أحد أمرين : اما أن يتحول المؤتمر أو الاجتماع أو الندوة الى «مظاهرة سياسية» لحساب الدولة المضيفة ، أو «جولة سياحية» بين آثارها القديمة ومؤثراتها الجديدة . وبما أن «الدولة المضيفة» تتغير من عام الى آخر ، فان المواقف الفكرية للمثقفين العرب تتابع التغير هي الاخرى .. أو يتبنى كل «وفد» موقف دولته السياسي ، فلا يحدث تناقض بين «الوفود» في زمن الوفاق العربي الرسمي ، وتتسع التناقضات الى حد التمزق في أزمنة «الخلاف الرسمي» أيضـا .

أي أنه في مختلف الظروف والاحوال ، يبقى الفكر العربي ، تابعا بشكل أو بآخر ، للقرار السياسي للسلطات العربية . ومن هنا يمكن تفسير انعدام الوزن والتأثير والفعالية لقرارات المثقفين العرب وتوصياتهم الدورية، التي باتت أقرب الى الديكور السنوي لمسرحية معادة .. لا ابداع فيها ولا خلق ، لا قيادة لها ولا ريادة منذ حرم اصحابها انفسهم بأنفسهم نعمة

« الاستقلال » عن السلطة . بل أخشى أن أقول أن التقرب أو الاقتراب من سلطة ما أصبح مع الزمن معيارا لرفعة المثقف ومكانته .

والمبررات لهذه «الضعة» التي وصلنا الى حضيضها كثيرة وجاهزة لاي واحد منا يبحث عن الاعذار : فالمثقف العربي أصبح موظفا كأي موظف آخر في الدولة ، أي انه من الناحية الادارية ، خادم في ديوان السلطة . واجهزة الاعلام الحديثة أضحت أعلى صوتا وأكثر ضجيجا من أصوات المثقفين جميعا . وأجهزة القهر في وطننا الحزين تدربت على فنون المسخ والتشويه الداخلي والخارجي ، فضلا عن المطاردة حتى الجوع والموت . والامية الراسخة التي تزداد انتشارا مع الايام تؤازر الدولة في الموقف ضد الثقافة والمثقفين . وهكذا يجد المثقف العربي نفسه وحيدا في عراء مطلق . وسرعان ما يجد نفسه منجذبا بمغريات البقاء والسلامة والامن ، لان يسند ظهره على حائط السلطة .. أي سلطة .

لذلك ، بالضبط ، كانت النتائج التي أسفرت عنها مختلف مؤتمرات المثقفين ، حبرا على ورق .. أم أقول انها كانت «فعلا» مضادا لجوهر الثقافة حين زينت عروش السلاطين بأفخر الاشكال والزخارف والالوان المختلفة اختلاف الفصول وأنظمة الحكم ، وكرست الدور القديم لسيف المعز وذهبه . أي انها «بادرت» الى التخلي عن «الاستقلال» و «القيادة» ــ ومن ثم التأثير والفعالية ــ منذ خشعت ، بصورة أو بأخرى ، للسيف أو للذهب أو لكليهما معا .

وتعالوا نبحث عن قضية واحدة توصل فيها المثقفون العرب الى قرار فاعل. ماذا بشأن «حرية الفكر والتعبير» مثلا، ومن المشرق الى المغرب هناك عشرات المثقفين المسجونين أو الصامتين عنوة أو المحبوسين في مستشفيات الامراض العقلية ، أو الهائمين على وجوههم في الطرقات ، أو الذين يخدرون وعيهم بمزيد من الاغتراب والاستلاب والقسوة على الذات حتى الانتحار أو الجنون او الغرق في العقاقير المدمرة ؟ أين هي ، بطول الوطن العربي

وعرضه ، دار النشر العربية التي لا تذل الكاتب ، مهما كانت افكاره ، وتوفر له الحياة الكريمة دفاعا عن هذه الافكار ؟ بل أين هي الصحيفة التي يتسع صدرها ، بلا وجل ، لقلم «غير مسنود» على هذا الحائط أو ذاك ، سوى حائط الفكر وحائط الثقافة وحائط المعرفة .

دعوة ليبرالية ؟

بين الوطنيين ، لم لا ؟ بين التقدميين ، لم لا ؟ من ذا الذي ينكر أن هناك خلافات لا تحصى بين هؤلاء وفي صفوف أولئك ؟ ومن ذا الذي أوتي العصمة من البشر، حتى يصادر «أخطاء» الآخرين لحساب «صوابه» المطلق؟ وأين هو «الرأي الواحد» الذي خلق حضارة أو أنقذ ثقافة أو بنى أمة ، في التاريخ الانساني كله ؟

العكس هو الصحيح ، فحين كان باب الاجتهاد مفتوحا في تراثنا العربي ، قدمت الحضارة الاسلامية أزهى عصورها ، وأعطت «الانسان» في كل مكان أسخى عطاء . و «السلطة» ليست اختراعا حديثا ، ففي فجر نهضتنا الحديثة ــ منذ أقل من مائتي عام ــ كانت هناك سلطة وسلطة قوية، ورغم ذلك كان لنا رفاعة الطهطاوي . ومنذ أقل من مائة عام كان لنا محمد عبده . ومنذ أقل من نصف قرن كان لنا طه حسين . وكانوا مع عشرات غيرهم ، «موظفين» لدى الخديوي والسلطان والملك ، وفي ظل الاحتلال الاجنبي المباشر لبلادنا .. وقد عرفوا الجوع والنفي والتشريد والمطاردة والسجن وتلويث السمعة ، ولكنهم ايضا كانوا أقوياء .

وبالنسبة لظروف عصرهم ، فقد اتخذوا قرارات صعبة ، فرضوها على حكوماتهم وعلى الرأي العام ، وأصبحت من بعدهم «تقاليد تاريخية» أشهر من اسمائهم ذاتها ، أصبحت «معايير» يقاس بها تخلفنا أو تقدمنا . أصبحوا علامات بارزة في جدار الزمن ، لسبب بسيط أنهم كانوا «مستقلين» دون فقدان الهوية أو الانتماء لتيار أو لحزب في السلطة أو المعارضة ، ولانهم كانوا «قادة» مهما علت مراكز الحكام وارتفعت سلالم الحكم .. فلا تعارض

حقيقي ، جوهري واصيل ، بين الاستقلال الفكري والانتماء السياسي . ولا تناقض حقيقي ، جوهري وأصيل ، بين القيادة الفكرية والانضباط الحزبي. والدعوات الاجتماعية الكبرى في عصرنا وكل العصور كانت ثمرة هــذا الزواج بين الاستقلال والقيادة ، استقلال الفكر وقيادة الرأي العام ، رغم الانتماء المؤكد لعباقرة الضمير البشري لتيارات واحزاب وحكومات وحضارات مختلفة .

ورغم أن نسبة الامية في زمن محمد عبده وقاسم أمين وعبدالله النديم وعباس العقاد وطه حسين كانت ساحقة ، الا أن «تأثيرهم» المباشر في المجتمع هو الذي أثمر الانتفاضة العرابية وثورة ١٩١٩ وما رافقتهما من منجزات «مادية» كالبرلمان والجامعة وحرية المرأة والتصنيع ، ومنجزات «معنوية» تستعصي على الرصد كالاستقلال والعلمنة والديموقراطية .

فهل كان آباؤنا أفضل منا ؟ وهل كانت ظروفهم خيرا من ظروفنا ؟

أتساءل ، لانني رغم المرارة المترسبة عاما بعد آخر من مؤتمرات المثقفين العرب ، أكاد أقول اننا لم نكن بحاجة الى « مؤتمر فكري شامل » كما نحن الآن ، وقبل غد . رغم الخيبات المتوالية من ندوات الادباء واجتماعات المفكرين ، فاننا ــ بالحق والعدل والانصاف الفاجع ــ أمام لحظة فاصلة في تاريخنا العربي المعاصر ، لا ترتهن نتائجها بمؤتمر سياسي لبعض الدول ، بقدر ما ترتهن هذه النتائج بموقف «العقل» العربي المعاصر. وليس هذا العقل فردا أو جماعة ، ليس حزبا أو دولة أو تيارا ، بل هو مجموعة الافراد والجماعات والتيارات التي تستشعر حجم الخطر الــذي تواجهه الامة العربية الآن ، للمرة الاولى في تاريخها الحديث . وهو خطر استراتيجي شامل لكافة البنى الحضارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي أرساها أجدادنا وآباؤنا وجيلنا على مدى قرنين من الزمان . هذا الحجم للخطر يجمع ولا يفرق . يجمع كل من يرى بوضوح هذه اللحظة ، أن التحدي الصهيوني للارادة العربية ، قد دخل مرحلة جديدة كيفيا ، لم

نعرفها طيلة الاعوام الثلاثين التي مضت على تأسيس الكيان الصهيوني رغم حدة الصراع والحروب الاربعة ، ولم نعرفها بالطبع قبل هذا التاريخ . ويمكن وصف هذه المرحلة الجديدة التي بدأت رسميا بزيارة رئيس أكبر دولة عربية لاسرائيل، بأنها مرحلة «الهجوم المضاد» حسب التعبير العسكري الشائع ، وان كان المقصود هو «الهجوم الحضاري» .

فرغم الحروب الاربعة وويلاتها ، ورغم تجزئة الوطن العربي الى حدود سياسية كرسها الاستعمار الاجنبي أساسا ، العثماني والاوروبي ، بالاضافة الى التخلف العربي العام من آثار عصر الانحطاط الطويل ، فان الموقف العربي الرافض للتجسيد العنصري الصهيوني في «دولة اسرائيل» كان ولا يزال موقفا حضاريا صامدا على «ارادة أمة» تشكل نقيضا متطرفا للعنصرية اليهودية . وهو التناقض الذي يرمز اليه باستحالة التعايش بين « الامة » والجسم العنصري المتوسع كالسرطان .. ذلك ان «تأسيس» الكيان الصهيوني في قلب الامة العربية يترجم التعايش فكريا وعمليا بالسيطرة الحضارية الشاملة على مقدرات العرب الاقتصادية والاجتماعية . أي أنه نقيض التعايش الذي كان قائما بين العرب واليهود في مختلف أرجاء الارض العربية قبل تأسيس الدولة اليهودية ، فبهذا التأسيس تحول التعايش الذي كان الى «صراع حضاري» اتخذ شكلا عسكريا أكثر من ربع قرن . وما وقع الآن من جانب رئيس مصر ، هو اتاحة الفرصة لهذا الصراع أن يأخذ مداه الاقتصادي والاجتماعي والفكري . وهو الامر الذي لم يكن قائما من قبل. انها مرحلة كيفية جديدة ، تهدد «العربي» في صميم وجوده المادي والمعنوي ، أو ما عبرنا عنه بالوجود الحضاري لامة .

فالاغتصاب الصهيوني لارض فلسطين كان اغتصابا « بالامكان » لاراض عربية أخرى ، لا لاسباب أمنية أو جغرافية ، بل لان الاغتصاب في حقيقته ومنذ البدء كان مشروعا سياسيا لاغتصاب الحضارة العربية ذاتها ، الوجود العربي نفسه . ولعل الصهاينة هنا أكثر ايمانا بالامة العربية

من بعض العرب ، وان كان الايمان المضاد .. فهم يدرون أكثر من غيرهم أن أرض فلسطين لا علاقة لها بجنة عدن ولا اساطير التوراة ، بل هي مجرد «نقطة ارتكاز» جغرافية حسنة الموقع على الخريطة العربية ، اذ هي تشق بالعصا الامبريالية الغليظة الوطن العربي في موضع القلب وترسخ تفتته الاقليمي امادا طويلة . هذا التفتت يواكب التخلف ويدعمه ويقضي على أية دعاوى تقدمية في التطبيق ، انه لا يسمح عمليا ببناء الديموقراطية ولا الاشتراكية ولا العلمنة في أي قطر عربي على حدة .

ومن هنا كان الوعي الشعبي العربي، بل واللاوعي أيضا، بابعاد الوحدة العربية سليما في جوهره . ولم تكن المعوقات والنكسات بسبب «اسرائيل» دائما أو «الاستعمار» ، بل بسبب سوء الوسائل أيضا ، والامتيازات الفئوية أو الفردية أو السلطوية أيضا وأيضا . ولقد كان هذا الوعي سليما في ادراك البعد الحضاري لقضية تحرير «أرض» فلسطين ، أي تطهيرها من مركز الوثوب الصهيوني على مقدرات «الانسان» العربي ، فلسطينيا كان أو مصريا أو مغربيا ، أينما كان «من المحيط الى الخليج» . ولقد كان هذا الوعي سليما أخيرا ، لانه لم يفصل قط ولا في أية مرحلة ، بين تحرير الارض وتحرير الانسان . فالقضية لم تحاصر يوما في عمق وجدانه أو فوق سطحه ، بأسوار الجغرافيا والتاريخ وحدهما .. بل كذلك بقاعدة الحاضر وآفاق المستقبل .

ولم يحدث قط ــ كما يقول المفكر الفرنسي مكسيم رودنسون ــ أن نظر العرب الى اليهود وكأنهم الشيطان ، فالتاريخ العربي مليء باليهود الذين وصلوا الى اعلى مراكز السلطة العربية . ولكن العرب نظروا بالفعل الى «اسرائيل» وكأنها الشيطان . وهي رؤية صحيحة رغم مجازية التعبير ، فالترادف بين الدين والسياسة في صياغة الدولة الصهيونية ، هو عدوان حضاري على الشعب العربي ، في تاريخه وحاضره ومستقبله جميعا .. هو «الثورة المضادة» الرئيسية للامة العربية كأمة . ولذلك فهي تهديد اصيل

لمختلف طبقات هذه الامة في وجودها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.
ومن هنا أقول أن مختلف التعبيرات الفكرية من هذه الامة ، مدعوة اليوم وقبل غد ، الى مؤتمر يختلف شكلا ومضمونا عن أي مؤتمر سابق للمثقفين العرب .

يختلف في الشكل ، بمعنى أنه مؤتمر افراد لا مؤتمر وفود ، أفراد يمثلون أنفسهم واتجاهاتهم الفكرية لا حكوماتهم وانظمتها السياسية . ويختلف في المضمون بمعنى أنه ليس مؤتمرا حرفيا متخصصا في الادب أو الاقتصاد أو التاريخ أو الاجتماع ، ولكنه مؤتمر للفكر الاستراتيجي يواجه مصير أمة ويتحمل مسؤولية حضارة .

.. فليس مطلوبا منه أن يوصي أو يقرر ، بل أن يعرض ويشخص ويواجه الشعب والحكام معا . ليس مطلوبا منه أن يحاكم أو يعاقب ، بل أن يحلل ويستخلص ويواجه الامة والانظمة معا .

ان مؤتمر العقل العربي في لحظة «تاريخية» للمرة الاولى تكتسب فيها هذه الكلمة مدلولها الحقيقي ، بعد أن استهلكتها الديماغوجية زمنا ، وبعد أن استنفدتها اجهزة افراغ الكلمات من مضمونها .. فلقد تعقد العواطف العربية مؤتمرات عديدة تلعن فيها وتسب ، حتى يحصل فيهـا المؤتمرون على راحة الضمير وشهادات البراءة . ولقد تعقد المصالح العربية مؤتمرات عديدة تتباكى فيها وتنوح ، حتى يحصل المؤتمرون على تمديد ولاياتهم وتجديد كراسيهم . ولكن هذا كله شيء ، ومؤتمر العقل العربي شيء آخر .

وليس أحد وصيا على أحد ، وليس أحد بحاجة الى شهادة في الوطنية من أحد ، حتى أن جدول أعمال مثل هذا المؤتمر ومكان انعقاده ونظامه ، لا يحتاج مني ولا من غيري الى مقترحات سابقة . على قناعة راسخة بأهميته القصوى وضرورته التي ترتفع الى مستوى الحياة والموت . أما شكليات الدعوة والمدعوين ، فسوف تنبثق تلقائيا من صميم الحوار الواسع الذي

ندعو اليه .. قبل الخطوة الاولى لانعقاد المؤتمر .

وهو الحوار الذي لن يهدم الانظمة ولن يغير الحكومات ولن يسترد فلسطين أو سيناء أو الجولان . ولكنه ينبغي أن يجيب على مجموعة التساؤلات التي تثيرها «الخطوة الاخيرة» للنظام المصري :

● ما هي أبعاد التحدي الصهيوني لامتنا العربية في المرحلة المقبلة اقتصاديا ، أو ما عبر عنه البعض باشارتهم الى تحالف ما يسمى العبقرية الاسرائيلية والمال العربي ؟

● ما هو حجم التحدي الصهيوني لوطننا العربي في المستقبل المنظور اجتماعيا ، أو ما عبر عنه البعض بامكانية التعايش بين «الدولة» اليهودية و «الشعب» العربي ؟

● ماذا تكون الانعكاسات الوجدانية والعقلية ، أي الفكر والثقافة والفنون ، لمرحلة الهجوم الصهيوني على الحضارة العربية ، أو ما هي التنازلات الشعورية والذهنية المطلوبة من القلب والعقل العربي .. في برامج التعليم والاعلام والانتاج الثقافي عامة ؟

● كيف يمكن شن «هجوم عربي معاكس» للهجوم الصهيوني ، ما هو برنامج هذا الهجوم وما هي أسلحته ، ما هي استراتيجيته وما هو تكتيكه ، ما هي أرض الصراع ، نوعيتها وهويتها وطبيعتها ، أفكارها ومنابرها وحركتها ؟

● ما هي اشكال ومضامين «المسؤولية» الملقاة على كاهل الجيل العربي الراهن ، قبل أن تولد الاجيال الجديدة وقد صار التحدي الصهيوني واقعا كدولته ذاتها . من هم أطراف هذه المسؤولية المصيرية التي تقينا شر الانقراض المادي والمعنوي لامد غير منظور؟ وكيف تتجسد هذه المسؤولية، فكرا وعملا ؟

هذه وغيرها كثير ، مجرد محاور وأمثلة ، للعديد من الاسئلة التي ينبغي وضعها في رقعة الضوء الساطع للفكر العربي ، أي وضعها تحت

سلطة الحوار الحر الطليق من كل قيد ، حتى تتحدد من جديد مفاهيم الوطنية والاستقلال والقومية والديموقراطية والعلمنة والمصير الحضاري وغيرها من تساؤلات مبهمة وغامضة .. ويمكن أن تزداد ابهاما وغموضا اذا توقف «الفكر» عن العمل تحت سيطرة العواطف أو هيمنة السلطة .
ثم لا تعود خطوة النظام المصري (في المستقبل القريب) مفاجأة ، لان ما خفي سيكون اعظم المفاجآت ، عندما يصبح (من الطبيعي) أن تتحول الى دويلات طائفية والى أسواق من المادة الخام والايدي العاملة الرخيصة .

ثم ...

هذه وغيرها «رؤوس مسائل» للنقاش الواسع، قبل الخطوة الاولى الى مؤتمر العقل العربي المعاصر ــ القائد المستقل ــ الذي سيكون بانتظاره أن يطرح الاسئلة بشجاعة وان يجيب عليها بشجاعة أكبر ، وأن يواجه بها نفسه والجميع بشجاعة أكبر وأكبر .. في حجم التاريخ .

١٩٧٧/١٢/٩

« فتحية » قالت لي .. ولكم

يعرض الآن في باريس فيلم عنوانه «نحن يهود عرب في اسرائيل» لمخرج يهودي من أصل مغربي اسمه ايغال ندام . وكان هذا المخرج قد هاجر من وطنه الاصلي (المغرب) الى اسرائيل ، ثم عاد فهاجر الى فرنسا . والفيلم ، على الصعيد السياسي ، يمثل وجهة نظر الغرب الاوروبي الراهنة، حيث يدعو في النهاية الى قيام دولة فلسطينية تعترف مع غيرها من الدول العربية بالحق الاسرائيلي في الوجود والامن والحياة الطبيعية مع«جيرانها».

لكي يصل المخرج بمشاهديه الى هذه النتيجة وهذا الايحاء وهذه القناعة ، ترك الكاميرا في ما يشبه «الموضوعية والحياد» تتجول بين اليهود العرب الذين هاجروا من أوطانهم الاصلية خلال الاعوام الثلاثين الماضية، وكذلك بين الفلسطينيين العرب الذين بقوا في أراضيهم رغم كارثة ١٩٤٨ والذين «ضم» الاحتلال الصهيوني أراضيهم الجديدة (الضفة الغربية وقطاع غزة) في هزيمة ١٩٦٧ .

وهو يحاول أن يقول ان لا تعايش « وطني » بين الفريقين . هنــاك تعايش انساني ، عاطفي ، اجتماعي ، اقتصادي ، ولكن لا تعايش سياسي من أجل المستقبل . ولنلاحظ جيدا أن هؤلاء عرب وأولئك عرب ، ولكن الاولين يهود والآخرين مسيحيون ومسلمون . فكم وكم يكون الامر بين اليهود الاسرائيليين (أي القادمين من الشتات الغربي والشرقي) والعرب القائمين منذ البدء والقادمين بعد الحرب ؟ ذلك هو السؤال الخفي والمتعدد

المراحل ، الذي يطرحه بذكاء ايغال ندام ، فاذا كان التعايش ــ الوطني ــ مستحيلا بين اليهود العرب والفلسطينيين العرب . فهو أكثر استحالة بين اليهود الاسرائيليين والعرب العرب . من هنا كان الحل الممكن الوحيد ، من وجهة نظره ، هو الدولة الوطنية لهؤلاء والدولة الوطنية لاولئك ، بغير اكراه أو كراهية ، حتى يصبح التفاعل الصحي بين الجيران ممكنا .

ورغم ان الفيلم تسجيلي ، بمعنى انه لقطات واقعية من الحياة اليومية لهذا المجتمع المتعدد اللغات والعادات والاصول ، الا ان ايغال ندام اراد ان يكسبه نوعا من «الروائية» حين ربط بين اللقطات بقصة حب بين شاب عربي وفتاة يهودية . وقد عارضت اسرة الفتاة هذا الحب معارضة قوية ، ولكنهما تزوجا في نهاية الامر . والمشاهد يقع في خطأ فادح اذا تصور هذا الزواج رمزا عاطفيا لزواج سياسي بين العرب واليهود .. فالكاميرا لا زالت تتجول بنا بعيدا عن هذا «الاستثناء» الى «القاعدة» العريضة من الافراد والعائلات ، حيث تصل آذاننا أنغام الاصل العربي عند العرب وألحان الفولكلور اليهودي عند اليهود ، وحيث تصافح أنوفنا روائح المطبخ العربي المختلفة تماما عن الاكل اليهودي . وحيث تلامس عيوننا ألوان الثياب العربية واشكالها المتباينة نهائيا عن الملابس اليهودية . وهذا كله قبل «الكلام في السياسة» الذي يشد انتباهنا الى الحد الاقصى عندما نلتقي بفتحية .. الفتاة الفلسطينية المخطوبة لشاب عربي والتي ستتزوج قريبا . ترد على أسئلة الكاميرا : سأتزوج هنا ولن أغادر أبدا . سأنجب أولادا هنا ولن أغادر أبدا . هذه المصانع كانت بساتين ، اقتلعوها ، ولكنها أرضنا ، لن نغيرها ابدا . أولادي من دمي العربي سيكونون عربا ، لسانهم العربي لن يقتلعوه ابدا . اسرائيل استعمار ، والاستعمار يرحل ، اما نحن ــ أبناء الارض ــ فلا نرحل أبدا .

نلتقي أيضا بالرجل العجوز الفقير الذي يواجه الكاميرا بشجاعة نادرة قائلا : لا تصدقوا أي عربي ترونه على شاشة التلفزيون الاسرائيلي يقول انه

راض وانه مرتاح وانه سعيد . هذا النموذج ، اما انه في رعب يتكلم أو أنه بالرشوة يتكلم . أما الحقيقة فلا مكان لهم ــ أي الاسرائيليين ــ بيننا ، هم شيء ونحن شيء آخر .

* * *

هذا الفيلم ، رغم أنف انتماء مخرجه اليهودي ، قدم دليلا على أن «الخطوة الاخيرة» للنظام المصري ، ليست هي الكلمة الاخيرة في كتاب فلسطين ، ولا هي الفصل الاخير في ملحمة النضال العربي . وهو فيلم ، يوجه للمثقفين العرب ــ دون أن يقصد مخرجه ــ خطابا هاما . فتحية على وجه الخصوص ، هذه الفتاة الفلسطينية البسيطة ، تقول لي ولكم كلاما هاما . والعجوز العربي الفقير ، يقول لي ولكم كلاما هاما .

كلاهما يقول ان «الواقع» الحقيقي الاصيل هو ذلك العقل الذي يفكران به وذلك القلب الذي ينبض بين الضلوع ، وتلك الارادة الصامدة في العروق ، وذلك الوهج الذي يلمع في العيون وحبات العرق . هنا يبدأ التاريخ الحقيقي والجغرافيا الحقيقية ، هنا المصير الاستراتيجي والحضارة. فتحية تقول لنا : خــذوا كلماتي واصنعوا منهــا الامــل ، خذوا كلماتي وانسجوا منها برنامج العمل . والرجل العجوز يقول : هذا جسدي ، خذوا كلوا منه كلكم ، وهذا دمي اشربوا منه كلكم ، يسفك عنكم وعن كثيرين، يعطي لمغفرة الخطايا . هذا اصنعوه لذكري . فتحية لم تكن سوى فلسطين، والعجوز لم يكن سوى العربي المصلوب .

وهما معا ، أكرر ، يخاطبان المثقفين العرب .

* * *

فالمرحلة الراهنة توحي باليأس العميق ، والاغتراب حتى الجنون . رغم بساطة الاسئلة تتعقد الاجوبة تعقيدا تراجيديا أليما . لا أحد يرضى بخطوة السادات المعادية لحلم فتحية والمضادة لآمال العجوز . ولا أحد يرضى أيضا بمستوى الرد العربي الفوقي على خطوة السادات ، لانه لا

يرتفع الى مستوى الارادة عند فتحية ولا الى مستوى الصمود عند العجوز. ذلك ان الرد العربي الفوقي لا ينطق بلسان فتحية او لسان العجوز ، لا يستطيع حتى لا أقول انه لا يرغب .

وليس مهما السؤال كيف وأين ولماذا ، فالاهم أن القادر الحقيقي هو «المثقف» العربي الرافض لان يكون صدى للصوت ، المثقف القائد المستقل ، المثقف القادم من عمق اعماق الشعب فلا يخسر بهذا الانتماء الوحيد سوى قيوده ذاتها . وما أكثر القيود على العقل والقلب ، وما أبشعها حين تكون من الحديد والحرير معا .

كذلك ، فليس امام المثقف العربي الجدير بهذا الاسم في هذه المرحلة بالذات ، الا ان يسترد العقل والقلب ــ فتحية والعجوز ــ أي أن يسترد نفسه من القيود بمختلف أنواعها ، ليهب نفسه مرة واحدة ، لهذه الامة وهذه الارض وهذه الحضارة ، اي لما هو باق .. وان يخلع عن عنقه كل ما هو زائل سواء كان قلادة من ذهب المعز أو ربطة تنتهي بسيفه .

فلم يعد هناك وقت ، امام المثقف الجدير بهذا الاسم ، لان يصبح مبررا أو مفسرا أو شارحا للقرارات الفوقية أيا كان مصدرها .. بل أصبح لزاما عليه ، ليحقق وجوده نفسه ويكسبه معنى ، بدلا من الانتحار الواقعي أو المجازي ، أن يسترد زمام المبادرة ، ويقفز من فوق الحدود المصطنعة والحواجز المصنوعة ، ليقول تلك هي كلمة العقل العربي لا كلمة العرش العربي ، وذلك هو صوت الشعور العربي لا صوت النظام العربي . هذا هو برنامج الحضارة العربية المعاصرة في مواجهة الهجمة البربرية الجديدة .

ولا سبيل لذلك الا بمؤتمر شامل للمثقفين العرب ، تنحصر مهمتــه في النقاط التالية :

● البحث العميق في الواقع العربي الراهن ، على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية ، بغير تزويقات العواطف أو زخارف الاهواء العارضة . بل لعل المطلوب في هذه النقطة هو فتح الجراح

على آخرها ، حتى نتعرف ، حقا لا مجازا ، على قاذوراتنا قبل معرفة ايجابياتنا .

● ليس المطلوب بناء على النقطة السابقة هو «لوحة سوداء» عن أمتنا ، بل العكس هو معرفة حقيقتها . ومن بين أهم هذه الجوانب ، هو الكشف عن مكامن القوة بين ظهرانينا . وهي «القوى» التي قد تخفي عن العين المجردة أحيانا ، القوى الطبيعية والقوى المكتسبة ، القوى الموروثة والقوى المحتملة . و «القوى» هنا ليس تعبيرا رياضيا يعتمد الحساب والمنطق الشكلي ، بل هو مجموعة التراكمات الايجابية المتفاعلة مع بعضها البعض ، مما يمكن أن تؤدي الى تغير كيفي في البنية الاجتماعية ، اي العلاقات والقيم .

● بعد القيام بهذا المسح الاستراتيجي للواقع الخام ، مطلوب تصور فكري خلاق كترشيد ديناميكي لهذا الواقع بحيث يصبح استخدامه ــ بكامل امكانياته ــ ممكنا في الصراع الدائر . وهو تصور متعدد الزوايا والمستويات ، ولكن حصيلته هي «الرؤية الاستراتيجية للنضال العربي».. أي ان معطيات المسح الشامل يجب بلورتها ــ في ضوء علم المستقبل ــ ضمن اطار نظري وتطبيقي معا ، يصلح برنامجا للعمل في المدى الطويل والمدى القصير على السواء .

● البحث العميق في واقع العدو المتعدد الاقنعة ، دون أوهام أو أوهام مضادة .. أي دون الوقوع في حبائل المبالغة والمبالغة المعاكسة . اي أن المطلوب هو نظرة موضوعية تتخلى عن الرواسب الذاتية او الجماعية بهدف الوصول الى صورة اقرب ما تكون الى الدقة لتكوين العدو وجبهاته وأساليبه وقواه الراهنة والمحتملة واهدافه المباشرة وغير المباشرة .

● تشخيص «الوثبات» أو المفاجآت أو القفزات التي يعدها «العدو» في المستقبل المنظور ، خاصة على الصعيد الحضاري الشامل سواء داخل الوطن المحتل او حتى داخل بعض الاقطار العربية ، واحيانا في العالم

الخارجي . وهي الوثبات التي ستتخذ اشكالا تربوية وتعليمية وتثقيفية واعلامية ، بالاضافة الى التحالفات والخصومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطارئة .

● تحديد الصورتين ــ العربية والمعادية ــ تحديدا واضحا وحاسما ، مهما كانت النتائج الاولية في مصلحتنا او مصلحة العدو .. فالاهم هو ابراز الصورتين دون انحياز عاطفي مسبق ، حتى يمكن تحديد أرضية الصراع ووسائله وبلورة مناخه تحديدا عمليا قابلا للتنفيذ .

● تهيئة ذلك كله ، بلا ايجاز ، في «مشروع عمل» حضاري عربي ، تواجه به علنا الامة العربية بمختلف انظمتها وحكامها وشعوبها وهيئاتها وقياداتها الرسمية والشعبية . ويطرح على الجميع دون استثناء ، حتى يتولى كل مسؤوليته ومسؤوليته في حرب تتجاوز الاسوار «الشرعيةالمعتمدة» ضد عدو مسلح باللاشرعية ، وعلى جبهة واسعة سعة العالم .

هذه النقاط المحصورة هنا ، ليست في النهاية أكثر من اجتهاد يخطيء ويصيب ، يحذف منه ويضاف اليه بما يمكن ان ينتهي اليه الحوار الواسع السابق على انعقاد المؤتمر .

* * *

ان هذا المؤتمر الذي لن تكون مهمته عـلى الاطـلاق ، الادانة أو القصف العشوائي ، بل تحديد فعالية العقل العربي المعاصر ، ليس مؤتمرا عاديا أو تقليديا .. فليس المطلوب هو اجتماع عشرات من المثقفين العرب ليصدروا بيانا وكفى المؤمنين شر القتال . بل هو مؤتمر للصمود العقلي والحضاري في مواجهة غزوة عقلية وحضارية كاسحة بدأ مرحلتها الجديدة «فرد» عربي . ولذلك فهو ، أولا مؤتمر للدراسة والبحث والاستقصاء الدقيق . وهو ثانيا ، مؤتمر فكري خلاق يهدف الى وضع استراتيجية للعقل العربي في صراعه الراهن . وهو ثالثا ، مؤتمر دائم الانعقاد لانه سيتابع الانجاز ولا يتوقف عند اعتاب الاشارة او الاشادة ، الادانة او المحاكمة ،

تبرئة النفس أو راحة الضمير .

انه مؤتمر «غير عادي» لاننا نمر بلحظة غير عادية في حياتنا ، ليس زخرفا لحاكم ولا ديكورا للنظام ، بل دفاعا عن حضارتنا المهددة بالانقراض وانسانها المهدد بالفناء المادي والمعنوي معا .

ولعل هذا المؤتمر «الحقيقي» قد تأخر طويلا ، في غمرة الكرنفالات السياحية التي وسمت لقاءات المثقفين العرب دائما بأنها حبر على ورق . ولكن انجاز الشيء ولو تأخر بدلا من اعدامه نهائيا .. خاصة وان فتحية قالت لنا في فيلم لمخرج يهودي ، تذكروا جيدا ، انها لن تغادر الارض وان أولادها سيظلون عربا ، وخاصة ان العجوز العربي قال لنا لا تصدقوا التلفزيون الاسرائيلي ، وغدا يقول : ولا التلفزيون المصري ، وبعد غد ماذا يقولّ ؟

اذا لم نسارع الى تجسيد هذه الكلمات في عمل متصل لا ينقطع للعقل والقلب ــ وهما أضعف الايمان ــ دفاعا عن النفس .. فاذا انتحر العقل العربي المعاصر ، حقا أو مجازا ، ماذا يعود للعرب ؟

١٩٧٧/١٢/١٦

أقر وأعترف انني لست كاتباً

لا أدري ما اذا كان من حقي أو من حق القراء عليّ ، أن أروي هذه القصة ، ولكن الذي أدريه هو انني لم أشعر قط في حياتي بالمرارة كما شعرت بها هذا الاسبوع . والقصة تبدو في ظاهرها شخصية . ولكنها في الحقيقة قصة كل كاتب عربي اضطرته الظروف أن يعيش بعض الوقت خارج وطنــه .

.. فقط علمت من بعض الاصدقاء حين قدمت الى باريس بهدف هذا النوع من الاستقرار المؤقت ، أن هناك قانونا فرنسيا يسمح للكاتب الاجنبي أن يمارس عمله ــ أي الكتابة ــ فوق الاراضي الفرنسية .. طالما يستوفي الشروط . وهي اثبات ممارسته لهذه الحرفة ، وحصوله على شهادة من مصلحة الضرائب تفيد أنه قيد نفسه ضمن دافعي الضرائب في شريحة المهن الحرة . وبعد اتمام هذه الاجراءات يحق للكاتب الاجنبي ان يحصل على «بطاقة اقامة» طويلة الاجل ، من أربع الى عشر سنوات. وفي خانة «المهنة» تمنح الشرطة لحامل هذه البطاقة لقب «كاتب» .

وكان طبيعيا أن اتوجه بصفتي كاتبا عربيا يمارس المهنة منذ ربع قرن الى ما يسمى بسكرتارية مساعدة المفكرين (الاعمال الحرة) فقدمت لهم أوراقي ونماذج من مؤلفاتي وشهادات تزكية من بعض المفكرين الفرنسيين الذين يعرفونني . ثم اجتمعت لجنة التحكيم واقرت تسجيلي كاتبا اجنبيا مقيما في فرنسا ، واعطتني افادة خطية بذلك .

أخذت الافادة وتوجهت الى مصلحة الضرائب الكائنة في الحي الذي أسكنه ، وقد تزودت من جديد بأوراق اضافية ، كعقد ايجار البيت وما يثبت انني لا زلت امارس الكتابة فلست متعطلا او عاجزا عن هذا العمل . ولست في حاجة الى وصف « السعادة » التي ارتسمت على محيا مأمورة الضرائب الفرنسية الجميلة ، وهي تستقبل اجنبيا يتطوع بالتبليغ عن نفسه كأحد دافعي الضرائب . وبسرعة مثيرة نقلت البيانات اللازمة واعطتني افادة جديدة تؤكد فيها انني كاتب اجنبي يمارس عمله في باريس ، وانني قد أشهرت ذلك للسلطات الفرنسية المسؤولة .

وهكذا أصبحت معي ورقتان ثمينتان : الاولى من الجهة المتخصصة مهنيا في اثبات الحرفة والاعتراف بصحتها ، والاخرى من الجهة المتخصصة ماليا في انني لست متهربا من مشاركة المواطن الفرنسي في دفع الضرائب.

وتوجهت فرحا الى المركز الرئيسي للشرطة حتى احصل بموجب الافادتين ــ الوثيقتين ، على بطاقة الاقامة ككاتب . وقــد تهللت اسارير السيدة العصبية العجوز ،وهيتتفحص الاوراق قائلة بين الورقة والاخرى « جيد .. جيد جدا » ثم نقلت بعض البيانات الى جانب طلب الاقامة ، واختفت عدة دقائق .

عادت بعدها وقد زالت ابتسامتها واحتدت عصبيتها وهي تقول بحزم «مستحيل» . ولم افهم فكررت وكأنها تهم بالقاء الاوراق في وجهي « مستحيل يا سيد ، لان قرار اول تموز ١٩٧٧ بعدم منح بطاقات عمل للاجانب ، قد شمل الكتاب والصحفيين والفنانين أيضا » .. وبدافع العطف منحتني الاقامة شهرا واضافت بدافع الدقة «للرحيل» !

أي انني بعد ان انتظرت اذنا بالاقامة حده الأدنى اربع سنوات ، أصبحت مطالبا بالرحيل بعد ثلاثين يوما !!

* * *

ولم يكن ثمة بد من «التواضع» في طلب مدة الاقامة ، وفي تحديد

السبب الذي أقيم من أجله في باريس .

وعدت أدراجي الى الجهات التي طلبت منها قبلا أن تعترف بي ككاتب أجنبي في باريس .

ذهبت الى سكرتارية مساعدة المفكرين وطلبت منها الغاء قيدي كاتبا اجنبيا . . نظروا الي بدهشة بالغة مستفسرين : كيف ؟ ألست كاتبا عربيا ؟ ولا تزال ؟ قلت لهم : نعم ، ولكن يبدو علي ان اختار بين عملي ككاتب والاقامة في باريس . انني لا استطيع ان اكون كاتبا مقيما في بلادكم . هذا هو القانون . فغروا أفواههم حيرة، فقد كان الظن هو ان «شهادتهم» تساعد على الاقامة وليس العكس . قلت : كلا ، بل انني عدت اليكم اطلب شهادة معاكسة ، هي انني لست كاتبا ، ولن أكون ، طالما بقيت في فرنسا . ضحكوا معلقين : بالطبع هذا مستحيل ، فلا نستطيع أن نعطي شهادتين متناقضتين ، فأنت بالنسبة لنا وفي ضوء الوثائق التي فحصناها ، كاتب ، حرفتك الوحيدة هي الفكر . كل ما نستطيعه هو الغاء قيدك في سجلاتنا بناء على طلبك ، اننا نبتغي مساعدتك . لذلك سنعطيك افادة تلغي الافادة السابقة شكلا ، لا مضمونا .. أي انك لن تعود مقيدا ضمن جدول العاملين بالمهن الحرة من الكتاب الاجانب في بلادنا .

وقد كان

أخذت الافادة المعاكسة ، وتوجهت الى مصلحة الضرائب . غابت الابتسامة عن الوجه الجميل هذه المرة . وفي تهذيب شديد قالت : لقد اثبت لنا من جهة فرنسية انك «تعمل» بالكتابة في باريس ، ولا نملك اثبات العكس ، خاصة وان هذا يعني انك لن تدفع ضرائب . كل ما نستطيعه هو أن نأخذ «صورة» من الشهادة التي معك الآن لنشطب اسمك من سجلاتنا. واذا سئلنا من أية جهة ــ كالشرطة مثلا ــ سنقول لهم ذلك .

* * *

ومن جديد توجهت الى المبنى العتيق للشرطة . وقفت في طابور الغرباء

حتى جاء دوري . لم تكن هناك السيدة العجوز العصبية . في مكانها كانت فتاة جميلة ابتسامتها تمنح الاطمئنان .

قلت لها القصة كاملة ، وابرزت الشهادة «الجديدة» التي معي ، والتي تلغي قيدي كاتبا أجنبيا في فرنسا . واستأذنت صاحبة الوجه الخجول كأنها شرقية بضفائرها الطويلة . دقائق وعادت . قدمت لي ورقة بيضاء لاكتب عليها « أقر واعترف انني لست اعمل بالكتابة في فرنسا » ووقعت ، حتى استطيع الحصول على «اقامة» متواضعة الزمن ولاسباب مؤقتة أكثر تواضعا . وألغي الامر بترحيلي بعد ثلاثين يوما .

* * *

ولم أتنفس الصعداء ، بل تحول القلق الى غم والخوف الى مرارة .

والحق ان فرنسا كبلد مكتمل السيادة له كل الحق في اصدار القوانين التي يراها في مصلحته القومية .. مهما قلنا أنه منذ هيرودوت اليوناني الى ميشيل بوتور الفرنسي لم تخل مصر ولا اي بلد عربي آخر من الادباء والكتّاب والمفكرين الاجانب الذين لم تحرم عليهم بلادنا «العمل» بالفكر والادب والثقافة . مئات الصحفيين من شتى أنحاء العالم يعملون في الوطن العربي بسهولة ويسر دون أية عقبات . مئات الاساتذة يعملون في جامعاتنا بترحيب حار ومغريات بلا حدود .

بل ، ومهما قلنا ان حركة الثقافة الفرنسية لم تكن في أي يوم منذ عصر النهضة حركة «فرنسية» محض .. فألمع اسماء المسرح المعاصر في فرنسا هم صامويل بيكيت الايرلندي ويويجين اونسكو الروماني وارابال الاسباني وجورج شحادة اللبناني وكاتب ياسين الجزائري . وفي الفنون التشكيلية بين بيكاسو الاسباني وشاغال الروسي هناك مئات الفنانين «الاجانب» . وهي النسبة ذاتها في السينما والرواية والشعر وغيرها من فنون وعلوم العصر .

ولم تكن هذه الظاهرة في أي يوم عيبا ، لان معناها هو ان فرنسا

مناخ خصب يساعد على الخلق والابداع والنمو والازدهار . ومعناها أن فرنسابلد الحرية، لانها تحمي الفكر الحر والمثقفين الاحرار من اي بلاد اتوا. وقد كان الرئيس جيسكار ديستان صادقا تماما حين وصف اللغة الفرنسية بأنها لغة الحرية . فالمقصود بهذا التعبير ليس هو الحروف والالفاظ وقواعد النحو ، بل المقصود هو مناخ الحياة ذاتها .

ورغم تحفظاتنا الشديدة على طرد العمال الاجانب بالجملة ، بسبب ما يقال عن الأزمة الاقتصادية والبطالة والتضخم ، فاننا لا نستطيع فهم القانون الذي يشمل الكتاب والفنانين والمفكرين من حق العمل .. فهؤلاء لن يتجاوز عددهم المئات بأية حال ، ولن يصيب الاقتصاد الفرنسي بالعطل ولا الادباء الفرنسيين بالبطالة . التشريع هنا خانه التوفيق لانه يحرم فرنسا احدى ميزاتها التي تتباهى بها بين الامم كقلعة للحرية وحصن للاحرار . بل هو يحرمها ذلك التفاعل الاستثنائي بين ثقافات العالم وحضاراته المتنوعة . وهو التفاعل الذي انبثقت عنه دوما حركات التجديد وموجات الابداع في فرنسا .

* * *

مهما قلنا هذا او ذاك ، فان فرنسا تمارس أحد حقوق السيادة وهي تصدر القوانين الخاصة بالحد من الهجرة .. وقد يطالب بعضنا معاملتها بالمثل سواء في منح تأشيرات الدخول أو في تصاريح الاقامة . وقد يرى البعض الآخر ان بلادنا أحوج الى كل طاقة عمل مهاجرة ، يدويا كان العمل أو ذهنيـــا .

ولكن الاهم في حالة الكتّاب والفنانين والصحفيين هو ان نقاباتنا واتحاداتنا لم تفكر قط في أوضاعهم خـــارج الحدود ... فليس هنـــاك بروتوكول واحد ينظم العلاقات الثقافية والفنية والصحفية بين العرب والغرب على هذا الصعيد . الصحفي العربي في أوروبا وأميركا اما انه مراسل احدى الصحف أو سائح ولا خيار ثالث .. كأن ينتوي مثلا تأليف

كتاب عن أحد البلدان يتطلب منه الاقامة في البلد الاجنبي سنوات. والمفكر العربي في أوروبا وأميركا اما انه استاذ بالجامعة أو سائح ولا خيار ثالث.. كأن ينتوي تأليف بحث علمي أكاديمي يتطلب منه البقاء في البلد الاجنبي سنوات . والفنان التشكيلي أو الموسيقي اذا تواجد في الغرب ، فهو اما انه يعرض مجموعة من لوحاته أو يعزف بعض مقطوعاته ، واما انه سائح ولا خيار ثالث .. كان ينتوي استلهام الطبيعة والبيئة والحضارة الجديدة خطوطا وألوانا وأنغاما تتطلب الاقامة في هذا البلد الاجنبي سنوات .

و «العلاقات الثقافية الخارجية» ادارة حكومية في وزارة الاعلام أو وزارة التعليم أو وزارة الثقافة في كل بلد عربي . وهي القناة (الرسمية) الوحيدة لتوصيل وترحيل الكاتب أو الفنان أو الصحفي الى بلد أجنبي . أما النقابات والاتحادات المهنية فلا نشاط لهما مطلقا في هذا الميدان . بينما هي الجهات الوحيدة القادرة على حماية كتابنا وفنانينا وصحافيينا في الخارج ، بالاتفاق مع النقابات الغربية والاتحادات المهنية النظيرة لها في الغرب على قواعد مشتركة تساعد الكاتب (الاجنبي) أو الفنان أو الصحفي على العمل حرا في أي بلد يشاء . وهذا هو التفاعل الحضاري الحقيقي بين ثقافات الامم المختلفة .

وأرجو ألا أكون بحاجة الى القول الى أن الوجود الفكري والفني والصحفي العربي في الغرب ، مفيد لبلادنا وللغرب في وقت واحد .

انه مفيد لبلادنا ، رغم أية اختلافات في الرأي قد تقوم بين المغتربين والباقين داخل الحدود .. فالمغتربون يقدمون الثقافة والفن والصحافة العربية لعالم لا يعرف عنا شيئا تحت سطح السياسة . وهم سيعودون يوما بخبرتهم الجديدة الى بلادهم التي ستجني من تجاربهم فوائد غنية . ونقابة الصحفيين العربية او اتحاد الكتاب العرب ليس مؤسسة حكومية كما نفترض ، بل مؤسسة مهنية عليها واجبات نحو اعضائها اينما كانوا . وبين أهم هذه الواجبات رعاية الذين تغربوا وحمايتهم من «الترحيل» خلال أيام

أو ساعات ، رغم انهم لا يحملون مسدسا ولم تعرف عنهم تجارة المخدرات!! انهم لا يحملون سوى القلم أو الفرشاة ولا يهددون أمن قطة أو كلب . ومع ذلك فهم مطالبون باستخدام هذا القلم للاقرار بأنهم ليسوا كتّابا ، حتى لا يطردوا أو يطاردوا .

الوجود الثقافي العربي مفيد للغرب أيضا ، وعلى كافة الاصعدة بدءا من الاقتصاد وانتهاء بتدريس الادب العربي في الجامعات الفرنسية .. فالمجلات والصحف العربية في باريس ولندن «تنفق» أموالا في فرنسا وبريطانيا وليس العكس ، ومحرروها لا يتسببون في أية بطالة للصحفيين الفرنسيين او الانكليز لانهم يتقاضون مرتباتهم من مؤسسات عربية .. فهذه المؤسسات ، بمعنى ما ، تساعد بقدر ما تستطيع ضد التضخم والبطالة في الغرب .. لانها تصرف مالا قادما من خارج حدود أوروبا داخل عواصم هذه القارة ، ولانها تستخدم بعض الموظفين ــ بحكم القانون لا بحكم الحاجة ــ من أهل البلد المضيف . هذا على الصعيد «المادي» البحت . أما على الصعيد المعنوي ، فأكبر المستشرقين يعترف بأن العرب أكثر قدرة على تعليم أدبهم من الغرباء على هذا الادب . ومن ثم فهم يستفيدون منا أكثر مما نستفيد منهم . ومع هذا فنحن لا نقول أكثر ولا أقل من ان التفاعل الحضاري بين الشعوب لا يتم بغير الثقافة والاعلام ..

.. ومع هذا أيضا فاننا لا نلوم أحدا غيرنا ، فنقاباتنا واتحاداتنا المهنية هي المسؤولة عن وضع كاتب عربي يسجل في أوراق رسمية انه ليس كاتبا.. حتى لا يطرد من البلاد التي اضطرته الظروف للاقامة المؤقتة فيها خلال ثلاثين يوما ، من تاريخه !!

١٩٧٧/١٢/٣٠

لا تخطئوا الحساب مرتين

أصبح في حكم المقرر ، بل ومن الضروري والعاجل ، انتخاب أمين عام جديد للادباء العرب ، خلفا للامين العام السابق السيد يوسف السباعي.

ومن الملاحظ على الصعيد السياسي ، أن الذين أخطأوا تقييم النظام المصري الراهن طيلة سبع سنوات ، «فوجئوا» بخطوته الاخيرة ، ومن ثم كان رد فعلهم هو «الانفعال» الذي سرعان ما يبرد مع الايام .

والملاحظة نفسها تكاد تنطبق على الموقف من الامين العام السابق لاتحاد الادباء العرب السيد يوسف السباعي ، حتى أن عزله جاء نتيجة مباشرة لزيارته القدس كصحفي مرافق لرئيس الجمهورية ، لا لسبب أو أسباب أخرى .. تجعل من مرافقته للرئيس أمرا طبيعيا لا ينبغي لاديب عربي أن «يفاجأ» به حتى لا يتوقف رد فعله عند حدود «الانفعال» •

وما ينبغي أن يحذره الأدباء العرب ــ المفترض فيهم انهم خلاصة العقل والوجدان العربي ــ هو تكرار الاسباب التي فرضت ظاهرة سلبية على اتحادهم خلال عشرين عاما .. ولقد أثمرت هذه الظاهرة عدة عوامل منها :

● المناخ «الرسمي» الذي نشأ فيه اتحاد الادباء العرب واستمر عقدين من السنين .. فقد تسببت هذه «الرسمية» في عرقلة الاهداف الاصلية لاي اتحاد للادباء • تشكيل الوفود ومواقفها ، انتخابات المكتب الدائم وامانته العامة ، ظلت تخضع عشرين عاما لاعتبارات «السلطة» التابع لها هذا الوفد

أو ذاك ، تناقض أنظمة الحكم العربية أو اتفاقها ، دون مراعاة لابسط القواعد المهنية والفكرية والنقابية التي ينبغي أن تصنع الحد الادنى لاتحاد عام للادباء .. فقد كانت الاعتبارات «الحكومية» هي سيدة الموقف دائما، بحيث أهدرت المصالح الاساسية للادباء العرب كما أهدرت حرية الفكر والتعبير . وهو الوضع الذي ابقى قرارات جميع المؤتمرات وتوصياتها حبرا على ورق .

● كان من أهم ثمرات هذا المناخ «الرسمي» في تكوين اتحاد الادباء العرب هو غياب الديموقراطية ، فانعدمت العلاقة العضوية الواجبة الوجود بين أي عضو في الاتحاد (أي أديب عربي) والمستويات القيادية . ولم تعد هناك فائدة للمؤتمرات العامة الا المسامرات السنوية التي تتاح لبعض من يسعدهم حظ الاختيار في عضوية وفد من الوفود . كما أدى غياب الديموقراطية على عدم القدرة في تغيير الامين العام كل هذا الزمن .

● وتسبب ذلك ، بالتداعي ، في «نهب» الادباء العرب من جانب الناشرين وفي حرمانهم من أعمالهم أو حرياتهم من جانب بعض الدول .. التي لم يشكل «الاتحاد» عنصرا ضاغطا عليها بسبب عجزه عن الاستقلال وعدم ممارسة الديموقراطية داخله ولانه لم ينجح في تشكيل «رأي عام» قاعدي يواكبه بالدعم والمساندة . ظلت مواقف الاتحاد عامة وبعيدة عن التأثير .

✓ ولست أعتقد أن اتحاد الادباء العرب ــ وهو يشبه من الناحية القانونية النقابات المهنية ــ يملك الوثائق التي تجيب على الاسئلة التالية :

١ ــ من هم الادباء المسجونون في قضايا حرية الرأي بالاقطار العربية .. وما هي الضغوط التي مورست للافراج عنهم ؟

٢ ــ ما هي الاقتراحات والمداخلات التي انجزها الاتحاد لمصلحة الادباء في علاقاتهم بدور النشر العربية ، والتي يلزم فيها المؤسسات المختلفة بصيغة ما تلتزم بها التزاما تعاقديا لا تضيع بموجبه حقوق الاديب ؟

٣ ـ ما هي المؤلفات التي أصدرها الاتحاد من ميزانيته من ابداع الادباء الشباب وذوي المواهب الجديدة ، وما هي المنابر التي خصصها للجميع دون اعتبار للمعتقد السياسي . أليس من المعيب أنه اتحاد بلا مجلة أسبوعية أو شهرية ؟

٤ ـ ما هي المساعدات التي تلقاها اديب ما في محنة الفقر أو الجوع أو المرض أو التشرد من الاتحاد العام ؟

والحقيقة أنه ما أسهل «الاجتماع» حول القضايا «العميقة» كعلاقة الفن بالعلم وعلاقة الادب بالتاريخ وعلاقة الجمال بالتكنولوجيا / وما أيسر «التظاهر» حول القضايا «الثورية» كموقف الثقافة العربية من حركة النضال ضد الاستعمار والامبريالية والاستعمار الجديد والصهيونية وغير ذلك . ولكن ما أصعب «العمل» لحرية أديب مسجون أو مشرد أو جائع أو مضطهد من أجل آرائه السياسية . ألم تستطع ميزانية الاتحاد طيلة عشرين عاما أن تفتح دارا للنشر وأن تفتح أبواب مجلة غير خاضعة للحكومات؟ كلا، لم تستطع . ولم تستطع بالتالي أن تفتح زنزانة مغلقة على موهبة عربية . بل حين أغلقت مجلة «الكاتب» في مصر ، وبعدها مجلة «الطليعة» كان «الامين العام» لاتحاد الادباء العرب هو الذي أنجز البادرتين .

على أية حال ، فليكن انتخاب امين عام جديد مناسبة لتغيير جذري في «مضمون» الاتحاد لا في شكله .. فلربما كان قانونه الاساس ولائحته لا يشوبهما شيء . ولكن لا سبيل لخلق اتحاد مهني للادباء العرب ، الا اذا استطاع أن يتحرر من اسلوب البيانات والمظاهرات ، والا اذا كان اتحادا للادباء العرب لا لبعضهم ، والا اذا كان اتحادا ديموقراطيا تحكم فيه الاغلبية وتتنفس من خلاله الاقلية ، والا اذا كان اتحادا «للادباء» لا أشباههم أو الذين شبه لهم وفرضتهم ظروف سياسية لا علاقة لها بالادب .

ان الاديب العربي المعاصر هو أكثر الادباء في العالم حاجة الى «اتحاد» يأوي اليه ويحميه ويلوذ به ، لانه في الحقيقة يعيش «في ذروة

الوحدة» على حد تعبير طاهر بن جللون .. والتماسك الظاهري للبعض لا ينفي حقيقة الاغتراب لحد الجنون . ان «العمل» وحده هو الذي ينقذ الاتحاد من البوار والعقم .. فالبرقيات والاجتماعات المكيفة الهواء والمطلية بدهون النفاق والمآدب السخية على حساب الشعوب والصور الاستعراضية في الصحف والبلاغة البلهاء في الاذاعة والتلفزيون ... ليست كلها من «العمل» في شيء . فالعمل كل العمل ينبغي أن يجند لخدمة الاديب العربي، لانه المنتج الوحيد للادب العربي .

واذا كان الحدث الآني هو الاستعداد لانتخاب امين عام جديد ، فلا شك أن التقليد المستقر ـــ أي انتخاب كاتب عربي من مصر ـــ يجب أن يستمر ، وخاصة في هذه الظروف التي حاول فيها النظام المصري أن يصور العرب كما لو كانوا ضد مصر . والحقيقة ان العرب بما فيهم الاغلبية الصامتة من المصريين، هم ضد النظام وليسوا ضد مصر أو شعبها. والحقيقة أيضا أن مصر تمثل عند العرب جميعا مركزا استثنائيا وثقلا خاصا ـــ على غير ما يدعي الاعلام الساداتي ـــ ومن بين أهم العوامل والعناصر والمكونات لهذا المركز وذاك الثقل هو الثقافة .. فلاسباب عديدة اتخذت الثقافة العربية المعاصرة منذ عصر النهضة في بواكير القرن الماضي الى الجيل الراهن نقطة ارتكاز لها في مصر وبؤرة تفاعل ، كان ثمرتها هذا السياق الممتد والمتطور والمتكامل من الافكار والقيم والمناهج واشكال التعبير . وقد ظلت دوما نقطة ارتكاز قومية ، تداخلت في بلورتها ثقافات الاقطار العربية المختلفة . ولا زالت مؤسسات «الهلال» و «الاهرام» و «دار المعارف» من الشواهد الحية على تاريخ الفكر العربي في مصر سواء الخديوية أو الملكية أو الجمهورية . مسرح جورج أبيض ومسرح الريحاني ومسرح فريد الاطرش ، مجرد رموز لذلك التفاعل الخصب الخلاق الذي جرى على أرض مصر : من رفاعة الطهطاوي الى أديب اسحق ومن شبلي شميل الى محمد عبده ومن مارون نقاش الى توفيق الحكيم ومن فرح أنطون الى طه حسين

ومن نقولا حداد وخليل مطران الى المازني والعقاد، ومن مي زيادة والزهاوي الى شوقي وحافظ ابراهيم ومن روز اليوسف وبديعة مصابني وآسيا وماري كويني وماري منيب واسمهان الى سيد درويش وأم كلثوم ومحمد عبدالوهاب . ومن عادل الغضبان وعبدالله القصيمي وغائب طعمة فرمان وعبدالوهاب البياتي ومحمد الفيتوري وكاظم جواد ومحي‌الدين فارس ومحي الدين محمد ومحي الدين اسماعيل وتـاج السـر الحسن وجيلي عبدالرحمن الى محمد مندور ونجيب محفوظ وعبدالرحمن الشرقاوي وغيرهم من ابداعات مسيرة النهضة العربية الحديثة التي اتخذت من مصر موقعا قياديا طيلة قرنين من الزمان .. ان هذا التاريخ المتميز هو للعرب وليس عليهم ، فلا يستطيع فرد أن يطأه ولا حدث أن يمحوه . ولو كان هذا هو السبب الكامن وراء اختيار الادباء العرب الدائم لكاتب مصري ، لكان رمزا عظيما . ولو غاب هذا السبب عن وعيهم الراهن ، لارتكبوا خطأ أعظم .

والسبب الثاني الذي يدعو الى الابقاء على تقليد انتخاب الامين العام الجديد من بين الادباء المصريين ، هو عدم وصم الثقافة العربية في مصر وكأنها كانت دوما ولا تزال يوسف السباعي ، فاذا سقط لسبب ما سقطت هذه الثقافة .

كلا ، فالثقافة المصرية لم تكن يوما يوسف السباعي ولا ما يمثله ولا من يمثلهم .. فحتى الذين انهاروا من «الكبار» لم يكونوا على شاكلته . وشتاينبك سقط في امتحان حرب فيتنام حين مجدها ولعن الثوار ، ولكن هذه النهاية الفاجعة لم تلغ ولن تمحو انتاجه الادبي العظيم الذي مجد فيه الانسان والعمل والحرية . وسيظل هذا الانتاج فاعلا في الاجيال التالية لموته ، بما يختزنه من شحنات قادرة على الاشعاع ، رغم أنف النهاية الفاجعة. كذلك الامر مع ريتشارد رايت وهوارد فاست واندريه جيد ، وغيرهم ممن باعوا انفسهم في خاتمة الطريق أو انهم ضلوا الرؤية أو خذلتهم قدراتهم .

وهو نفسه الامر مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف ادريس (من الكتاب المصريين) الذين بنوا طيلة أعمارهم اهرامات مشرقة بضياء الفكر والفن .. فاذا كانوا قد انطفأوا الآن أو منذ زمن ، فانهم لا يملكون اطفاء الشعلة بل المشاعل التي أوقدوها يوما. ومهما كانت فجيعتنا فيهم دامية ، فاننا لا نستطيع الغاءهم من التاريخ الادبي لبلادنا في فورة الغضب . بل ان تراثهم نفسه يدينهم ، وهو جزء لا سبيل لبتره من تراثنا العقلي والوجداني .

أما اذا تركنا الموتى يدفنون موتاهم ، فان الاحياء جديرون بكل عناية لابقائهم على قيد الحياة .. فلا مصلحة لعربي في توقف قلب مصر عن النبض أو عقلها عن الخلق والاخصاب والمقاومة . ومثقفو مصر «الاحياء» رغم العذاب والرعب ، والذين رفضوا السجود لاصنام البطولة الجوفاء من القيم ، هم الغالبية الساحقة .. داخل مصر وخارجها . من لطفي الخولي وأبو سيف يوسف واسماعيل صبري عبدالله وفؤاد مرسي الى ابراهيم سعدالدين وعبدالمنعم الغزالي وابراهيم عبدالحليم ، ومن رفعت السعيد وخيري عزيز وحسين شعلان الى صافيناز كاظم وأحمد عباس صالح وعلي الراعي وسعد التايه وسليمان فياض . ومن كمال عبدالحليم ومحمد مستجير وزكي مراد ومراد وهبة ووليم سليمان وطارق البشري ومحمد عمارة ورجاء النقاش وصلاح عيسى وأحمد فؤاد نجم وزين العابدين فؤاد الى محمود العالم وميشيل كامل وأحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر وغيرهم عشرات بل مئات من المقاتلين عن الثقافة الوطنية والفكر القومي في مصر. هؤلاء جميعا يسجلون بحضورهم في الداخل ونضالهم في الخارج ان راية المقاومة لم تنكس ، وان علم النهضة لا زال خفاقا ، وأن شرايين قلب مصر عامرة بالدم الاصيل النقي ، وعقلها الخلاق لم يختل ولم يصبه الشلل ولم ينكسر .

حرصا على هذه المعاني والقيم فلينتخب الادباء العرب كاتبا مصريا

للامانة العامة لاتحادهم . واحذروا المنافقين الذين يقولون في الخارج عكس ما آمنوا به في الداخل . واحذروا أولا وأخيرا .

● حكم التاريخ الذي لا يتوقف كثيرا عند «ردود الفعل» العاطفية، ولكن يتوقف طويلا عند «أفعال» العقل ... فالاقتصاص من السباعي ينبغي أن يكون لمصلحة الادب العربي في مصر ، وفي كل أرجاء الارض العربية.

● وحكم الشعب العربي في مصر الذي لم يفهم في الماضي حرصكم على تثبيت السباعي وقد يتفهم اقدامكم على عزله ، ولكنه لن يفهم بكل تأكيد اعتباركم له وكأنه الوحيد الذي يمثل الثقافة والادب في بلاده .

● وحكم الادباء المصريين داخل الوطن وخارجه ، فاذا كانوا هم الذين عانوا الويلات من سلطة السباعي طيلة ربع قرن ، فان عزله يعني لهم ضمن أشياء كثيرة .. أن تعيدوا لهم الاعتبار .

.. ولقد أبلغت

فلا تخطئوا الحساب مرتين .

١٩٧٨/١/٦



نحو اتحاد ديمقراطي للكتاب العرب

يبدو أن «النواة» الاساسية لاتحاد الادباء العرب الحالي ، قد تجاوزها الزمن ، نظرية وتطبيقا .

الجانب النظري هو أن «الاتحاد» لم يكن يوما بين «الأدباء» ، بل بين «أدباء الدول» .. فباستثناء اتحاد الكتاب المغربي واتحاد الكتاب اللبناني واتحاد أدباء البحرين ، نشأت بقية الاتحادات التي تشكل في النهاية «الاتحاد العام» في أحضان الانظمة والحكومات . وهكذا ، ظهر كل اتحاد قطري وتطور حسب الظروف السياسية في بلده ، فاذا كان البلد محافظا ولد الاتحاد محافظا واذا كان البلد تقدميا ولد تقدميا . وأقبل الاتحاد العام في التطبيق كحاصل جمع هذه الاوضاع القطرية وكأنه جامعة الدول العربية على صعيد أدبي .

وتلك كانت «جرثومة» الشلل التي أصابت «مؤسسة» العرب الادبية منذ بدايتها .. ولكن الذي حرم هذه البداية من الاعلان عن نفسها، هو المناخ الوطني العارم طيلة الخمسينات ، فقد أسدل هذا المناخ الحماسي ستارا كثيفا على مقومات ومكونات الاتحاد . وكانت الثمرة الاولى لذلك هو اختفاء «وجوه» الادب وظهور «الاقنعة» .. فقد أصبح كل أديب مضطرا لان يقول بغير ما يؤمن به ، لهذه الدرجة أو تلك ، حتى يساير التيار الغالب، كما اضحت تركيبة الوفد أو المؤتمر أو الهيئة الادارية أو المكتب الدائم ، ثمرة توازنات وعلاقات قوى ، لا صلة مباشرة أو حقيقية بينها وبين الادب .

وتتيجة هذين العاملين تداعت مختلف السلبيات وتراكمت آثارها في ما نسميه بتحول القرارات والتوصيات الى حبر على ورق ، وتحول المؤتمرات الى مظاهرات سياحية .

* * *

فاذا كانت الفرصة الذهبية تلوح الآن لتغيير حقيقي ، ينبغي أن تتجه نحو الاساس ونعالج الامور برؤية جذرية لا تتوقف عند سطوح الاشياء. فليس المطلوب أن نقيم مهرجانا بمناسبة اليوبيل الفضي لاتحاد الادباء العرب ، بل المطلوب أن نحتفل بعيد ميلاده الاول . ولكنه الميلاد الحقيقي.

هل هذا ممكن ؟

.. أن ننسى السنوات العشرين الماضية وأكثر ، من عمر هذا الاتحاد العجوز والذي لم يولد بعد في آن ، ونشرع في بناء اتحاد جديد ؟

أو ، هل هو ضروري ؟

.. فهناك أصوات تقول أن الادب عمل فردي ولا يحتاج الى تجمعات أو اتحادات أو نقابات ، لان هذه كلها لن تثمر «موهبة» ولن تلد «قلما» ولن تكتب قصة أو مسرحية أو قصيدة .

والجواب أنه اذا كان ذلك جائزا في البلدان المتطورة والتي لا يحتاج فيها الاديب الى أية حماية (يوفرها له القانون) سواء بالنسبة لحرية الفكر والتعبير أو بالنسبة لحق المعدة في الطعام وحق الجسد في المأوى ... فانه ليس جائزا على الاطلاق بالنسبة للاديب العربي الذي هو في العراء وحيدا أعزل بلا حماية . الغالبية الساحقة من أدبائنا ليسوا جواهرجية بل يتعاطون السياسة بشكل أو بآخر، وبالتالي فقضية الديموقراطية تعنيهم في الصميم.. لانه في مواجهة آرائهم وافكارهم (لا نشاطهم أو مسدساتهم) هنـاك «الدولة» بجيشها وقوى أمنها وسجونها وأدوات تعذيبها الحديث . والذين يشردون في المنفى هم الاسعد حظا (أم الاسوأ ؟ لا فرق) .

والغالبية العظمى من ادبائنا لا يقتاتون من الادب ولا من غيره .. واذا كان كتاب واحد في الغرب يقيت مؤلفه أعواما طويلة ، فان عشرات الكتب لاديب عربي كالعقاد او طه حسين تتركه بعد عمر طويل أو قصير ، مديونا أو يكاد .

من هنا كان لا بد من «اتحاد» نقابي يحمي حقوق هذه «الاقلية» التي أدركها داء الادب ، يحميها من غوائل الزمن ومن «الديموقراطيين العرب» على حد سواء !

أما السؤال الثاني ، فكيف ؟

والجواب أن يكون هذا الاتحاد للكتاب لا للادباء وحدهم ، وللادباء عامة ، لا لادباء «الشعب» أو أدباء «الثورة» وحدهم .. فهناك أدباء فقط، على الصعيد المهني ، ومن يحب أن يشتغل بالسياسة فليتوجه الى الاطـار المناسب أي الحزب أو التنظيم حتى لا تختلط الامور ويذهب ضحيتها الادب والقــراء .

اتحاد للكتاب ؟ نعم ، فالفصل بين المفكر الاجتماعي والكاتب الروائي ممكن حين يكون الاتحاد «أكاديميا» بمعنى أن تكون هناك رابطة للمؤرخين وثانية للجغرافيين وثالثة لعلماء النفس ورابعة للفلاسفة وهكذا .. يلتقون فيها كمنتدى علمي . أما الاتحاد المهني أو النقابة ، فيجب ان تكون بوتقة تفاعل بين مختلف العلوم الانسانية ، وبين الذين يمارسونها «كتابة» في الصحف أو المؤلفات ، طالما أن مصالح أصحاب القلم المشتركة . وفي معظم بلاد العالم المتحضر لا يفصلون بين المفكر والكاتب والاديب على صعيد المهنة ، بل هم أحيانا يضيفون الفنانين كالموسيقيين والرسامين وغيرهم . أما نحن فنطالب باتحاد للكتّاب فقط ولا أكثر ، أي لجميع الذين يمارسون «الكتابة» كحرفة .. فليس معقولا أن يكون عضوا في الاتحاد من كتب قصيدة واحدة في حياته ولا يكون زميلا له مؤلف اجتماعي أصدر عشرات الابحاث ومئات المقالات .

ممن يتكون الاتحاد ؟

من اتحادات شعبية مستقلة عن أجهزة الثقافة والاعلام التابعة للانظمة الرسمية حتى لا تخضع لهزات الحكم أو ابتزازات الحكام ، لا لمغريات السلطة ولا لتهديداتها . ومن الممكن ، لرأس المال الفرعي والرئيسي أن يتكون بأكثر من وسيلة ليس من بينها ميزانية الحكومات .. كاقتطاع واحد بالمائة من ريع كل كاتب من المنبع أي من دور النشر والصحف والاذاعة والتلفزيون ، وكاشتراط الاشتراك الشهري ، وكتأسيس دار نشر تابعة للاتحاد في اطار شركة مساهمة ، وكتأسيس مجلة ثقافية اسبوعية للاتحاد، وكفتح باب التبرعات غير المشروطة . ان نجاح اتحادات مستقلة فرعية في المغرب والبحرين ولبنان ، لهو دليل على امكانية نجاحها في بقية الاقطار ، ثم تتويج هذا النجاح في «اتحاد عام» هو ثمرة هذا الاستقلال الاصلي ، رغم مصاعبه .

ان مثل هذه «النشأة» كفيلة بأن يأتي الاتحاد القادم مرآة حقيقية لحركة الثقافة العربية ، ولتعبيراتها المتنوعة .. وكفيلة أيضا بتحويل هذا الاتحاد الى «اداة ضغط» بأن يصبح له صوت ، ولا يبقى مجرد صدى .. لان مثل هذا الاتحاد هو الذي سيخلق «رأيا عاما» مواكبا له مستقلا به عن الرأي الرسمي .

وأخيرا لماذا ؟

والجواب ، ليصبح هذا الاتحاد هو الاطار الديموقراطي الصحيح لتفاعلات الفكر العربي المعاصر بتياراته المختلفة .. فتكون هناك مصلحة مهنية مشتركة بين الجميع هي حرية التعبير وحقوق التأليف . وتكون هناك الحوارات الخصبة خارج دائرة الشعارات والشعارات المضادة ، حوارات حول الادب والفكر والثقافة وعن الادباء والمفكرين والمثقفين . وتختفي الرايات التي تحجب وراءها مواقف الدول ، وتختفي الاقنعة التي تحجب

وراءها مواقف الزعماء ، وتختفي الابواق التي تحجب وراءها مواقف السلطة . تصبح هناك الثقافة وحدها ، والفكر وحده ، والادب وحده .

حينذاك تغتني حضارتنا بالتنوع في الآراء والافكار والتجارب ، وتزول الحساسيات المزيفة من وحي الحدود الاقليمية أو الرواسب الشوفينية أو المصالح الضيقة .

تصبح هناك مصلحة الكاتب وحده وافكاره وحدها ، وبالحوار الديموقراطي الخلاق تبدع الثقافة الجديدة ذاتها في اصالة حقيقية ومعاصرة مؤكدة .

* * *

وعلى ادبائنا وكتّابنا أن يثقوا بأنفسهم ، أكثر مما هم في حقيقة الامر .. فالنرجسية التي يسهل ملاحظتها على غالبيتنا ، ونهش اللحم المتبادل على أرصفة المقاهي العربية ، هما عنوان فقدان الثقة بالنفس ...

فالظن ، أن الانظمة والحكام لديهم القدرة على الاستغناء عن الكتّاب والادباء ، ليس أكثر من وهم . ولكن المهم هو اثبات أن هؤلاء الكتّاب «قوة» ليست بالضرورة في مواجهة قوة الحاكم ، كما انها ليست بالضرورة جزءً من قواه . بل هي قوة مستقلة تستوحي ثقلها من الضمير العربي ومن مصالح الثقافة العربية في استقلال كامل ، بحيث لا يصبح المثقفون «حيلة» في عنق هذا النظام أو «مشكلة» في عنق ذاك .. بل يصبحون «قوة» لها أثرها الفاعل هنا وهناك بالسلب والايجاب ، كأية مؤسسة «رأي عام» في البلاد .

بقيام مثل هذا الاتحاد ، سوف تزول تلقائيا العناصر «الشخصية» من حياة الكتّاب العرب ، سواء كانت نرجسية الافراد أو نهش لحم الآخرين أو غيرها من أمراض العصر العربي في الثقافة . سيكون هناك النقيض : العمل الدائب المستمر لا المظاهرات ، العمل الصبور المخلص لا

المناورات ، انقاذ الادب من بوار الشعارات ، وانقاذ الادباء من العقم أو الانتحار أو الجنون أو المنفى أو السجون .

ولن يتم ذلك الا بنشأة «ديموقراطية» للاتحاد ، لا بتعديل أحد بنوده أو لائحته ، لا بترميمه أو اصلاحه ، بل بخلقه من جديد ، بابداعه من جديد بأذرع الادباء وعقولهم ووجداناتهم ، لا بسيف المعز أو ذهبه .

١٩٧٨/١/٢٠

الصيد الألماني في مياه الفكر العربي

ما يفكر فيه بعضنا همسا واحيانا علنا ، يتحول على أيدي «الآخرين» عملا وتخطيطا وتنفيذا .. وهكذا تثبت القوى المضادة لامتنا العربية أنها تملك دائما زمام المبادرة . وانها الاسرع والاقدر على المواجهة .

ولنبدأ القصة من أولها ، حيث تؤكد مختلف الظروف والملابسات أن الفكر العربي المعاصر حين ينتقل الى حيز التنفيذ ، فانه يقوم بدور «رد الفعل» شبه العفوي ، لا بدور «الفعل» الموجه .. وتلك هي الثمرة المرة التي جنيناها من زمن الشرح والتبرير والاندماج في السلطة .

والقصة تقول اننا من هذا المنبر طرحنا ، ثم طرح غيرنا في منابر أخرى فكرة الحاجة الملحة الآن وقبل غد ، الى مؤتمر غير عادي للمثقفين العرب ، للعقل العربي بمعنى أدق ، يتناول فيه بالنقد والتحليل والتقرير حاضر هذه الامة ومستقبلها . مؤتمر لا يعالج زيارة السادات للقدس كواقعة جزئية منفصلة عن سياق التاريخ ، بل يعالج مقومات الوجود العربي واحتمالات «الانقراض» المادي والمعنوي الذي تهيئه القوى المضادة لنا على كافة الاصعدة والمستويات. مؤتمر يكاشف فيه عقل هذه الامة وجدانها بالحقائق العارية من الماكياج ، تكاشف فيه القيادة الفكرية ــ قيادة الضمير العربي المعاصر ــ مختلف القواعد الشعبية لهذه الامة ووجوهها السياسية المعارضة والموالية على السواء . مؤتمر يحدد دون مواربة مكامن الصديد الساري في شرايين دمائنا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كما يحدد دون مواربة

ايضا طريق الخلاص ، بكل مـا يعنيه ذلـك من متغيرات ومسؤوليات والتزامات ، أيا كانت مصائر الافراد او الافكار او الاحزاب او الحكومات أو الانظمة .. فاللحظة التي نحياها بحق ، ربما كانت للمرة الاولى ، تستحق أن ندعوها لحظة «تاريخية» ، لانها ببساطة هي اللحظة التي نكون فيها أو لا نكون .

اذا تناسينا الحماس الفوري الذي رافق هذه «الدعوة» سواء من المثقفين انفسهم أو من القراء أو من الحكومات ، فاننا سنلاحظ أن البرود التدريجي قد دب في أوصال الفكرة حتى ماتت تقريبا .

ولكن شيئا مثيرا قد حدث في الخفاء ، ثم أصبح علنيا هذه الايام ، وسيصبح أكيدا بعد اسابيع على الاكثر . وهو أن «جهة ما» تقع على خريطة الكرة الارضية بين تل أبيب في الشرق الاوسط وبون في الشمال الغربي من أوروبا وواشنطن عاصمة اميركا الشمالية ، قد «تلقفت» الفكرة المطروحة للحوار بين العرب .. فاذا بها ـــ بقدرة قادر ـــ تصبح فكرة مطروحة بين العرب والاسرائيليين والاوروبيين والاميركيين . وبدلا من ان تكون بمثابة خط الدفاع الاخير عن «وجود» الامة العربية ، أصبحت خط الدفاع الاول عن الوجود العربي الاسرائيلي .

كيف ؟

منذ نهاية العام الماضي ، وبالتحديد غداة فشل لقاء الاسماعيلية بين الرئيسين بيغن والسادات ، بدأ المستشار الالماني الغربي هلموت شميدت نشاطا شخصيا مكثفا للحيلولة دونتدهور الموقف بين «مصر» و«اسرائيل» فطار الى اسوان ، واتصل بالرئيس كارتر الذي خرج عن برنامج رحلته ليلتقي الرئيس المصري والمستشار الالماني .

وليس مهما بعدئذ أن «وساطة» هلموت شميدت و « ضغطه » على اسرائيل واميركا لم يسفر عن شيء .. فالاهم ان المستشار الالماني كان يبحث لنفسه عن «دور» ما في الشرق الاوسط ، شأنه في ذلك شأن بعض الزعماء

الآخرين الذين لم يروا في أحداث بلادهم أي دور يلعبونه ، فزحفوا الى القاهرة وتل ابيب ــ قبل وبعد زيارة السادات للقدس ــ باحثين عن دور بالاصالة أو الوكالة . هكذا فعل شاه ايران ، وهكذا فعل تشاوشيسكو ، مهما تناقضت الوسائل أو الغايات . فالشاه بدوره الخليجي ، يستهدف الوصول الى القرن الافريقي مرورا بالشرق الاوسط .. أي ليحتفظ لنفسه بموطىء قدم بارز في الخريطة الاستراتيجية الاميركية في هذه المنطقة . أما الزعيم الروماني الذي انفرد عن مجموعة الدول الاشتراكية في الاحتفاظ بعلاقات قوية مع اسرائيل طيلة السنوات العشر الماضية ، فقد كان بحثه الدائم عن «دور» في الشرق الاوسط ، نوعا من التقرب للولايات المتحدة لا نوعا من الاستقلال عن موسكو . لان «تيتو» مثلا مستقل تماما عن السوفيات ولم يعرف عنه التعاطف مع اسرائيل .

أي «دور» اذن يمكن أن يكون للمستشار الالماني السابق براندت .. يتميز عن الدور الفرنسي مثلا او الدور النمسوي ؟ اذا كان تشاوشيسكو يزعم انه يلعب دورا في استقلال عن موسكو ، فلا يمكن لبراندت أن يدعي الاستقلال عن واشنطن . وهذا هو أول الخيط في القصة المثيرة التي لا زلنا في بدايتها .. فبعد ان اخفقت «المساعي الحميدة» للمستشار الالماني ــ الحالي قام زميله السابق الذي لم يعرف عنه «التخصص» في الفكر والثقافة والحضارة ، بالدعوة الى مؤتمر فكري هو الاول من نوعه ، يجمع بعض «كبار» المثقفين العرب والاسرائيليين والاوروبيين الغربيين والاميركيين ، للتشاور «الخلاق» حول مستقبل التعايش العربي اليهودي بعد مبادرة الرئيس المصري .

وقد كان المقرر أن يبدأ المؤتمر المذكور في برلين الغربية هذا الاسبوع (فالمانيا الاتحادية هي الدولة المضيفة ، ويبدو أيضا انها أرض محايدة !) لولا بعض العقبات الروتينية التي أدت الى تأجيل المؤتمر شهرا .

والى بعض المدعوين من مفكري غرب أوروبا والولايات المتحدة

المعروفين دائما بالانحياز لاسرائيل (وفي مقدمتهم البروفيسور هنري كيسنجر) فقد دعي بعض الاساتذة العرب في جامعات اسرائيل وأوروبا الغربية وأميركا ، وكذلك بعض الادباء والكتّاب والباحثين العرب في الاقطار العربية منهم : احسان عباس ومحمد سيد أحمد ولويس عوض وبطرس بطرس غالي وحسين فوزي ويوسف ادريس وشارل مالك وغسان تويني ومجدي وهبة وسيد ياسين ويوسف الخال وفؤاد زكريا وابراهيم النجار وبدوي عبداللطيف .

ومن الطريف ان بطاقة الدعوة التي أرفقت بقائمة المدعوين ، قد حددت اسماءهم الثلاثية واحيانا الرباعية (التي قد تختلف فعلا عن أسماء الشهرة) وبجانبها نوع العمل والعنوان .. مع ملاحظة تقول أن «برنامج الحوار مفتوح» أي ، بعبارة أخرى ، ليس هناك جدول اعمال .

ولا بد من الملاحظة الدقيقة على هذه «التفاصيل» الهامشية ، لان دراستها بعمق توحي بالجهة الحقيقية الداعية لهذا المؤتمر ، والهدف الحقيقي من انعقاده .

وسوف نسلم جدلا منذ البداية ، بأن جميع الاساتذة العرب والاسرائيليين والاوروبيين والاميركيين هم من خيرة علماء العصر ومن أكبر مفكريه (رغم ان المرء لا يملك نفسه من التساؤل عن أهمية حضور شاعر كيوسف الخال أو روائي كيوسف ادريس وعما يمكن أن يجمع بينهما وبين ابراهيم النجار عضو المكتب السياسي لحزب الكتائب اللبناني وبدوي عبداللطيف مدير جامعة الازهر ؟) . ولكننا سنسلم جدلا بأن أصحاب هذه الاسماء من جهابذة أهل الرأي في عصرنا .

ولكن هل يعقل ، والحوار يدور حول الصراع العربي الاسرائيلي أو العكس التعايش العربي اليهودي ، ألا تضم هذه الاسماء أمثال عبدالوهاب الكيالي وأسعد رزوق وصبري جريس وعبدالقادر ياسين ومحمود درويش وأديب ديمتري وصادق جلال العظم ومنير شفيق وفايز صايغ والهيثم

الايوبي ومحمود عزمي ومكسيم رودنسون ومايكل آدمز وجاك بيرك وغيرهم عشرات من المتخصصين في هذا الصراع أو ذاك التعايش ، بل وغالبية هؤلاء من أصحاب «القضية» الاساسية بصفتهم مفكرين فلسطينيين؟ كيف يمكن استبعاد الذين تفرغوا طيلة اعمارهم لدراسة وفهم القضية المطروحة للبحث ؟

ربما كان لويس عوض شيخ النقاد العرب الاحياء ، ولكنه بالتأكيد ليس واحدا من المهتمين أصلا بالصراع أو التعايش العربي الاسرائيلي ولا بالقضية الفلسطينية . وربما كان مجدي وهبة أفضل استاذ عربي للغة الانكليزية وآدابها ، ولكن الرجل لا يمكن أن يزعم انه فكر يوما بمشكلة العرب واليهود . وربما كان احسان عباس من أبرز الباحثين في الادب العربي القديم والحديث ، وهو فلسطيني ، ولكن لم يعرف عنه «الانشغال» بالهم الفلسطيني . وربما كان يوسف ادريس هو أكبر قصاص عربي ، ولكنه لم يكتب قصة واحدة في حياته عن فلسطين أو اليهود . وفؤاد زكريا استاذ فلسفة كبير للدرجة التي لم تفسح له مجالا في «تأمل» حول القضية المطروحة للنقاش .

واذن فما الذي استبدل المتخصصين بغيرهم ، ومن الذي أحل هؤلاء مكان أولئك ؟ من هي الجهة التي وضعت هنري كيسنجر استاذ التاريخ والعلوم السياسية الى جانب حسين فوزي استاذ علوم البحار والموسيقى ؟

قبل الجواب أبادر على الفور قائلا ان من يختار كيسنجر وشارل مالك يستحيل عليه اختيار الكيالي أو رزوق أو درويش .. فقد كان استبعاد هؤلاء وغيرهم من المتخصصين واصحاب القضية الاصليين ، طبيعيا الى أبعد الحدود . وهذه هي الاشارة الاولى الى هوية المؤتمر المذكور، وطبيعة الجهة الداعية اليه .. فقد وقع اختيارها على من ايدوا مبادرة الرئيس المصري تأييدا مطلقا ، أو الذين تتوسم فيهم التأييد المطلق ، أو الذين تود توريطهم في هذا الاختيار لمجرد انهم في الفكر السياسي ضد المرحلة الناصرية او من

غلاة الدعوة الديموقراطية الليبرالية .

ومن ثم لم تكن هناك حاجة الى «التخصص» وتكفي هذه الاسماء «الكبيرة» لاستكمال حرقها أو احتوائها . وطالما أنه لم يكن هناك تخصص، فلا ضرورة لجدول اعمال ، فلن تكون هناك مناقشة جادة بل مجرد الجمع بين الاسماء العربية والاسرائيلية والغربية يعتبر كافيا كغطاء فكري يؤصل مبادرة السادات ويصل بها الى النتائج الفكرية والنفسية المتوخاة .. حتى ولو لم يصدر عن المؤتمر سوى بيان ختامي مشترك .

ماذا تكون اذن الجهة التي تتستر وراء ويلي براندت في الدعوة النشطة الى مثل هذا العمل ؟

علينا حين نجيب أن نتذكر التاريخ . أن نتذكر مثلا «مؤتمر روما للادب العربي الحديث» عام ١٩٦٠ الذي جمع بين الوجوه اللامعة المتمردة في أدبنا جنبا الى جنب مع بعض الوجوه اليهودية والاميركية . وكان المؤتمر برعاية ما سمي « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » التي كانت تصدر مجلة «حوار» في بيروت . وسرعان ما كشفت المخابرات الاميركية أوراقها شبه الدورية ، وأعلنت انها تمول هذه «المنظمة العالمية لحرية الثقافة» ومجلاتها في اللغات المختلفة ومن بينها «انكاونتر» الانكليزية و «حوار» العربية .

وعلينا أن نذكر «مؤتمر الادب العربي الحديث» الذي عقد في واشنطن في صيف ١٩٧٦ وجائزة الرواية التي أسستها شركة موبيل اويل (هكذا مباشرة لا احدى الجامعات الاميركية مثلا) في القاهرة العام الماضي؟

فهل علينا أن ننتظر عاما او عشرة أعوام حتى تطلع علينا النيويورك تايمز أو الواشنطن بوست بقائمة جديدة لمداخلات المخابرات المركزية في الثقافة العربية وتقول لنا في المانشيت : أن مؤتمرا فكريا «حضاريا» يتم في برلين الغربية تحت رعاية المستشار السابق براندت وبتمويل الوكالة الاميركية الشهيرة التي وضعته في صدر قائمة عملائها منذ عام ؟

هل ننتظر ام اننا سنقرأ الاسماء الثلاثية والرباعية والعناوين الدقيقة لنقول ان هذه الجهة دون غيرها قد حصلت على «قوائم» ثابتة (لم تخطىء الا في وظيفة بطرس بطرس غالي الذي أصبح منذ حين وزيرا .. غير ان هــذا الخطأ نفسه يدل على قدم القوائم وثباتها ، وانها على هذه الصورة هي قوائم أجهزة أمنية) .. وان هذه الجهة لم تصنع مؤتمرها على هذا النحو عفوا ودون تفكير ، بل هي استهدفت :

● أن تعتمد على بعض الاسماء المستقرة لديها والتي لا سبيل الى الارتياب في ولائها .. والامثلة لا تحتاج الى ذكر .

● ان تجذب الى دائرتها بعض الاسماء التي وافقت على الانفتاح المصري الاسرائيلي لترسخ فكرها أكثر فأكثر .

● ان تورط بعض الاسماء الصامتة أو المحايدة أو غير المشتغلة اساسا بالفكر السياسي والاجتماعي .

● ان تجعل الحوار عاما دون تفصيل أو تخصيص تحت عنوان فضفاض هو «الحوار الحضاري» حتى لا تتصدى لجوهر النزاع أو حقائق الصراع أو أصل المشكلة .

● ان ترسخ في الرأي العام العربي والعالمي أن ثمة «تيارا» فكريا شاملا يؤيد السادات ، مصريا وعربيا ودوليا .. وان مبادرته كانت «ريادة عملية» لهذا التيار الذي عثر فيها على «المناسبة» التي يعلن فيها «الحقيقة».

● ان توقت للمؤتمر في مناخ تعثر المفاوضات المصرية الاسرائيلية حتى تمنح اي حل منفرد بين مصر واسرائيل «شرعية فكرية وحضارية» فتدفع زخم هذه المفاوضات .

● ان تسرق من الضمير العربي ومن العقل العربي «مؤتمره» الذي كان واجب الانعقاد قبل زيارة القدس وبعدها .

* * *

ورغم كثرة المؤتمرات الشعبية والقومية والتقدمية التي يعقدها العرب

هذه الايام بسخاء عجيب ، فان المؤتمر الوحيد الذي يمكن أن يكون جادا ومثمرا لا زال ممتنعا عن الانعقاد .

ألانه مؤتمر «العقل» لا مؤتمر الشعار أو الشعور أو الشعر ؟ ألانه مؤتمر يحتاج الى التعب الحقيقي والضمير الحقيقي ولا يحتاج الى كاميرات التصوير أو الخزائن .. فيصبح مهدور الدم حتى يتقدم العدو فيذبحه أمام أعيننا وببعض أيادينا باسم مؤتمر مضاد يعقدونه ، بعد شهر واحد ، في برلين ؟

١٩٧٨/٢/١٧

الازدواجية الثقافية و « العدمية القومية »

(١)

كان الظن السائد هو أن مثقفي شمال افريقيا ممن يتكلمون ويكتبون بالفرنسية ، سوف تتطور بهم الامور ــ بعد استقلال وطنهم ــ تطورا يحل «الاشكال التاريخي» الذي خلقه الحضور الاستعماري في بلادهم لزمن طويل .

كان الظن أن عقدين من الزمان يكفيان لابداع «الحل» اللغوي والحضاري لازمة هؤلاء الذين تربوا في احضان الفكر الغربي ــ الفرنسي خصوصا ــ لغة وحضارة ..

فلقد استقبل العرب في كل مكان أعمال محمد ديب ومولود فرعون ومالك حداد وكاتب ياسين ، مترجمة الى العربية «على أمل» أن يقرأوا لهؤلاء وغيرهم في العربية مباشرة دون وسيط . وكانت كلمات بعض هؤلاء المبدعين حول معاناتهم الداخلية ، لانهم يخاطبون بني قومهم بلغة اجنبية، مصدر تعاطف شديد وألم مماثل من القراء العرب .

وكان الظن أخيرا أن قيادة «التعريب» في الشمال الافريقي لن تكون مجرد قرار سياسي من السلطة ، بل ستكون قرارا قوميا شاملا يقود تنفيذه الادباء والمفكرون والفنانون انفسهم .. وخاصة أولئك الذين لا يعرفون العربية . لان التعريب في جوهره ليس انجازا لغويا محضا ، بل هو انجاز

وطني في المقام الاول .. اذ يعيد الى الجسد الممزق «روحه الواحدة» .

ولو أخلص هؤلاء المفكرون والكتاب لقضية «ولائهم» الرئيسي لشاركوا في التجربة الوطنية وامتزجوا بها لحد الالتحام .. بحيث ما كنا نجد أنفسنا معهم لا نزال في نقطة الصفر ، أو ما هو ادنى . فالحقيقة انه طالما أن هذه المشاركة العقلية والوجدانية والعملية لم تحدث ، فقد كان «النقيض» رابضا ، يأكل البراءة الاولى ويلتهم المبررات الاولى ، ويرسخ بدلا منهما ذلك «التدهور» من الازدواجية الثقافية الى «العدمية القومية».

ان «الرجاء التاريخي» لكتّاب شمال أفريقيا المتكلمين بالفرنسية، كان حده الاقصى هو العودة الى الينبوع القومي ، أي الى اللغة العربية التي يتعلمها المستشرقون انفسهم في سنوات معدودة . وكان حده الادنى هو الانصهار في البوتقة العربية ، مصيرا ومسارا . ولكن الذي حدث واقعياء لغالبيتهم ، هو نوع من «اليأس التاريخي» .. فقد استسلموا «للامر الواقع» وبعد ان كانت الهجرة الى اللغة الفرنسية ضرورة تاريخية للحاق بركب العصر وانقاذ الموهبة ، أضحى التوحد مع اللغة نوعا من «اللجوء الحضاري» الدائم .. وهو «لجوء» وليس اكتسابا أصيلا لحضارة أخرى.

ماذا يترتب على هذه «الحالة» الفريدة ؟

لنقل أولا أنه في ظل التخلف العربي المعاصر ، هناك ثلاثة أحوال رئيسية للشخصية «العربية» : الاولى منفية خارج التاريخ ، أغلقت على نفسها باب التراث ، وأحكمت اغلاق النوافذ المطلة على العصر ، فهذه الحالة أو «الشخصية» هي في حقيقتها «لاجئة» الى زمن الاسلاف. وهناك الحالة التوفيقية أو الجدلية التي تحاور المعاصرة من موقع الاصالة ، فهي تحتفظ بشخصيتها القومية المرتبطة بالزمن الجديد ، وتصل بين جذورها وفروعها بخيط حضاري لا ينفصم . وهناك أخيرا «الحالة» النقيض للحالة الاولى ، أي تلك التي تهاجر نهائيا الى زمن غيرها فتلجأ اليه من زمنها الخاص ، القديم والجديد على السواء .

وهنا نعيد السؤال : ماذا يترتب على هذه الحالة الفريدة ؟

والجواب نطالع نموذجا له في حديث ادلى به الكاتب المغربي عبدالكبير الخطيبي لزميله الطاهر بن جللون نشرته صحيفة «لوموند» الفرنسية بتاريخ ١٥ شباط الجاري ، وأحب أن أؤكد على ان هذا الحديث المطول والاستثنائي (فلم يجر مثله لكاتب فرنسي في الصحيفة ذاتها) هو مجرد مثال على هذه «الازمة» التي لم تعد كذلك .. بل أمست شيئا قريبا من المأساة . مأساة من يخسر شخصيته الاصلية ، ولا يكتسب الشخصية الاخرى ويؤمن في الوقت نفسه انه ربح الشخصيتين .

وتلك هي الحالة التي يعبر عنها عبدالكبير الخطيبي ، بوضوح تام .. فهو يرى في حديثه المشار اليه أن فرنسا ستموت ، ولن يبقى منها سوى «لغتها» . هذه اللغة التي لم يجسدها ولن يبقى منها سوى ذلك التيار الادبي الممتد من المركيز دي ساد الى جان جينييه . أما فرنسا كحضارة، فهي لم تكن الا «استعمارا» وشرا خالصا سوف ينتهي وتنتهي معه فرنسا ذاتها. وتبقى اللغة الفرنسية وحدها ، كانجاز قابل للديمومة . ومن ناحية اخرى فهو يرى ان العرب ، كحضارة وكأمة مرشحة للانقراض المادي والمعنوي ، ولن يبقى منها سوى «الافراد» الذين ربحوا رهان المستقبل .. ذلك ان الصراع الحضاري الراهن لن يسمح للتخلف الا بمزيد من التخلف حتى التلاشي .

والنتيجة المنطقية لعبدالكبير الخطيبي ، هي أن ثمة قطاعا من المثقفين ــ يمثله ــ هو الوريث الشرعي لاجمل ما في الحضارة الفرنسية ، وهو لغتها ، وهو أيضا الوريث الشرعي لاجمل ما في الحضارة العربية ، وهو هذا القطاع الصغير من مثقفي شمال افريقيا الذين يكتبون بالفرنسية . وعلى أنقاض فرنسا الاستعمارية والعرب المتخلفين ، سوف يقوم «بناء» جديد يتجاوزهما معا .

ان هذه «النتيجة» بالذات ، تصل بنا الى الحدود التي انتهت اليها رحلة

المزدوجي الثقافة والانتماء ، فقد انتهى بهم «الامر الواقع» الى العدمية القومية .

.. فمن ناحية ، ليس صحيحا ان فرنسا مجرد بلد استعماري شرير ، وليس صحيحا أيضا أن فرنسا الاستعمارية هي سبب كل المصائب التي أحاقت ببعض العرب .

فرنسا ، أولا ، لم تكن الامبراطورية الاستعمارية الوحيدة في العالم، بل كانت جزءا من نظام عالمي .. كما ان معظم دول العالم على مدى التاريخ الانساني ، قد عرفت «استعمار» الشعوب الاخرى .

وفرنسا ، ثانيا ، ومنذ عصر النهضة الى عصر التنوير الى العصر الحديث ، وأيضا منذ الثورة البرجوازية الكبرى وفتوحات نابليون الى كومونة باريس ، هي أبرز قيادات «الحضارة الحديثة» .. وليس صحيحا أن ما يتبقى من فرنسا هو الماركيز دي ساد وجان جينييه بل يتبقى منها «حقوق الانسان» و «العقد الاجتماعي» ، يتبقى فولتير وروسو وديدرو وبلزاك وفلوبير واميل زولا ومالرميه ورامبو وبودلير وفاليري ، فضلا عن راسين وموليير ، وفي عصرنا سارتر وكامي وبوتني وغيرهم مئات من كبار المفكرين والفنانين الذين ألهموا الضمير البشري كله .

وفرنسا النابليونية ذاتها ليست «فتوحات استعمارية» فقط ، بل فتوحات حضارية أيضا وليس مما يفتقر الى المغزى ان علماء الحملة الفرنسية على مصر هم الذين استقدموا معهم «المطبعة» وهم الذين كتبوا السفر التاريخي «وصف مصر» . وكان شامبليون هو الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة من «حجر رشيد».. فضلا عن الدور العظيم للفكر الفرنسي في نهوض الفكر العربي منذ القرن الماضي ، وما أسهم به من تحديث «اليقظة» القومية والديموقراطية في بلاد العرب .

وفرنسا ، ثالثا ، لا تزال مثالا بارزا على الدولة الكبيرة ـ رغم أية تحفظات على النظام او السياسات المتغيرة ـ التي أفلتت من قيود الماضي

وأوهام المجد الاستعماري القديم .. وأصبحت تقود «أوروبا» نحو واقعية جديدة تحترم استقلال الشعوب الاخرى ، وان تميزت عن بقية اقطار اوروبا باشعاعها الحضاري المتجدد وحرصها على التراث الديموقراطي بحيث لا تزال باريس «عاصمة النور» كما كنا ندعوها في الماضي ، فعلى أرضها تتفاعل تيارات الفكر والفن في العالم ضمن اطار من «الحرية» لا يتوفر في أية عاصمة أخرى . كما ان فرنسا المتطورة نحو الاشتراكية ، تختلف كثيرا عن «ذكريات التاريخ» / والحقيقة انه ليست هناك فرنسا واحدة ، فبعض الجوانب تموت فعلا حسب مشيئة التطور الذي يصنعه ابناؤها .. ولكن فرنسا الشعب والتراث العريق ، لا زالت قادرة على العطاء والحياة ، ربما أكثر من اقطار اوروبا كلها /

ومن ناحية اخرى ، فالعرب ليسوا حضارة منقرضة ، بل حضارة نامية رغم أنف الاهوال والصعاب والتخلف والكوارث والهزائم .. ولا ينبغي لاحدى اللحظات المرة في تاريخ العرب ان تصبح هي التاريخ وهي الزمن. لقد عرفنا العديد من عصور الانحطاط كغيرنا ، ولكننا عرفنا ايضا عصور الازدهار . واذا كنا من مائتي سنة نعاني مخاضا حضاريا عسيرا ، واذا كنا في الوقت الراهن نكابد مشقة أليمة للنهوض من الكبوات السياسية والاقتصادية ، فان «الحل» لا يكون بالاستسلام ، بل بالمقاومة .

ان الفكر العربي الحديث لا يتدهور الا في جانب منه «يستحق» حكم الزمن ، ولكن هذا الفكر باصوله ومنجزاته المعاصرة يؤكد اننا أمة لها مستقبل في العطاء لا في الاخذ فحسب . ولكن عطاء الذين «يتعبون» و «يكدحون» لايجاد الصيغة القادرة على التفاعل بين التراث والعصر ، بين الاصالة والحضارة الحديثة .. اما الذين اختاروا الوقوف فوق أنقاضنا وانقاض غيرنا ليعلنوا بنرجسية لا مثيل لها انهم ورثة الجميع ، فهم يعلنون موت انفسهم .

.. فازدواجية الثقافة عند عبدالكبير الخطيبي وبعض زملائه ، أمست

مع الايام «ثقافة واحدة» هي الثقافة الفرنسية التي يلعنونها كرد فعل على ضياعهم بين الولاء للغرب والانتماء للعرب. والحقيقة انهم لم يبلغوا مستوى «الاكتشاف» المبدع للصيغة القومية والحضارية التي تجمع بين الشخصية الوطنية وثقافة العصر .. بل لان القضية ليست مطلقا قضية «لغة» بل ما هو أعمق ، فقد تنازل امثال هؤلاء المفكرين عن هويتهم القومية قبل تنازلهم التدريجي عن لسانهم . واذا كانوا قد نجحوا في اكتساب اللسان الفرنسي فانهم لم ينجحوا في اكتساب الشخصية الفرنسية . لذلك كان رد فعلهم المتطرف هو العداء للعرب والفرنسيين معا .. وهم يعبرون بذلك عن حقيقة موضوعية ، هي انهم بالفعل ليسوا عربا ولا فرنسيين ، انهم مجموعة من « الضائعين » الذين ضلوا الطريق الى حقيقتهم .. فاختاروا الماركيز دي ساد رائدا لهم ، أما جان جينييه فهو بريء منهم .

انها نهاية مأساوية بالغة البشاعة والحدة والعنف ، لانها تجسد «المدى البعيد» الذي وصلت اليه هذه الحالة النفسية الفاجعة ، من التمزق الثقافي والوطني الى العدمية القومية .. ويقيننا ان هؤلاء لم يضيفوا شيئا الى الفكر العربي لانقاذه من التخلف ولم يضيفوا شيئا الى الفكر الفرنسي لمنعه من التقدم . لذلك يحاولون «اثبات الوجود» بأكثر الادعاءات شذوذا، ولفتا للانتباه .

١٩٧٨/٣/٣

(٢)

● وصلنا من السيد عبدالكريم الخطيبي في المغرب تحت عنوان «بيان حقيقة» الرسالة التالية :

« لقد نشرت جريدة لوموند الفرنسية في عدديها الصادرين بتاريخ ١٤ و١٥ فبراير (شباط) ١٩٧٨ استجوابا اجراه معي أحد الصحفيين . وقد

ارتأى السيد غالي شكري اثر ذلك تخصيص مقال عني نشرته مجلة الوطن العربي عدد ٥٥ (٣ ــ ٩ مارس ، آذار ١٩٧٨) . غير ان المقال من بدايته الى نهايته جاء مليئا بالكذب والافتراء املاه عليه سوء نيته وتحامله الاعمى . لذلك أود أن أوضح للقراء الكرام النقط التالية :

١ ــ ان الاستجواب الذي نشرته جريدة لوموند قد تعرض لعدة مشاكل تتعلق بالمصير العربي في الامس واليوم. واجمل هذه المشاكل ما يلي:

ــ مسألة معنى الانحطاط بعد القرن الخامس عشر .

ــ مسألة الدين واستخدام السياسة في الدين .

ــ مسألة الجنس والتحليل النفساني .

ــ الفكر العربي وموقفه ازاء الغرب .

وفي النهاية وضع علي المستجوب سؤالا عن رأيي في فرنسا .

ولم يتعرض السيد غالي شكري في مقاله سوى لهذا السؤال الاخير دون ان يفهم اجابتي عنه . وانكشف لي انه لا يحسن فهم اللغة الفرنسية وقد أدى به ذلك الى الوقوع في اخطاء جسيمة في تأويلاته .

٢ ــ ان السيد غالي شكري يعلم جيدا ان القارىء العربي ليس عليه بالضرورة الاطلاع على جريدة «لوموند» لذلك كان لا بد من اعطاء خلاصة عن الموضوع المنتقد قبل مباشرة عملية النقد ذاتها ، وايراد بعض الجمل والعبارات التي وردت على لسان المؤلف المنتقد . وهذه طريقة متعارف عليها ولم يكلف السيد غالي شكري نفسه عناء احترامها .

٣ ــ اننا لا نجهل مثل هذه العادات السيئة . فبعض المثقفين المصريين يعتبرون انفسهم « العقل المفكر » للعالم العربي أو وريد الحياة للعالم العربي ويعتقدون انهم مكلفون ــ ولست أدري من طرف أية رسالة الهية ؟ ــ بالكلام باسم كل العرب وانهم ملزمون بتلقين باقي العرب دروسا في العروبة والقومية .. ان على السيد غالي شكري أن يفطن الى :

ــ ان هذا العهد قد ولى، أعني عهد«أبناء الاهرام المصنوعة من الورق».

ــ وان يعلم ان النزعة الفرعونية قد أصبحت اليوم هراء .
ــ وان العالم العربي يتكون من عدة عديدة من الاقطاب ، في الفكر وفي الثقافات وفي الممارسة المجتمعية والسياسية ..
ــ وان مختلف هذه الاقطاب يجب ان تعرف وتدرس بطرق جدية قويمة قبل اصدار الاحكام عليه انطلاقا من مركز وهمي اسمه مصر .
ان جهل هؤلاء المثقفين لا يعادله شيء سوى حماقتهم حين يرغبون في تلقيننا نحن المغاربة دروسا . لسنا بحاجة الى تلقي أية دروس سواء من العرب او من غير العرب . فبالامس كان المستعمر هو الذي يقوم بذلك واليوم نرى السيد غالي شكري يتصدى لهذه المهمة : انه يدافع عن فرنسا ويهاجم عربيا آخر باسم فرنسا • هل فرنسا بحاجة لمن يدافع عنها ؟ ألا تدافع جيدا عن نفسها ؟ ان كانت فرنسا في حاجة الى دفاع السيد غالي شكري عنها ، فما عليه الا ان يبدأ أولا بتعلم اللغة الفرنسية جيدا قبل مباشرة الدفاع ، كما عليه أن يزور المغرب حتى يتعرف جيدا على المغرب .

عبد الكريم الخطيبي

□ الى هنا ينتهي النص الحرفي الكامل للاخ المغربي ، لا عملا بحرية النشر ــ فالحقيقة كما سنرى ان الرد لا علاقة له بالموضوع الذي أثرته في مقالي السابق ــ بل لانها نموذج جديد يؤكد ظاهرة الاستغراب العربي».
وكان حريا بصاحب الرد ان يكون صاحب اللغة التي كتب بها رده ، فالمستشرقون الاوروبيون يتعلمون العربية ويتقنونها في عدة سنوات .. والاحتجاج المستمر بأن الاستعمار الفرنسي هو سبب ازدواج اللسان عند بعض المثقفين المغاربة لا ينفي مسؤوليتهم في الهرب المستمر من تعريب لسانهم فضلا عن تعريب ثقافتهم . وكان حريا بصاحب الرد الذي يكشف دون ان يقصد عن شدة اعجابه باللغة الفرنسية لدرجة معايرة الآخرين بعدم اتقانها ، ان يتعلم لغة وطنه أولا .. فنحن لا نزعم اننا رضعنا الفرنسية من

اثداء امهاتنا ولا من افواه الاستعمار ، ومن ثم فلن نجيدها ذات يوم كاجادة الاخ الخطيبي لها .. وليس هذا مصدر شقاء لنا ، لان اللغة الاجنبية بالنسبة لنا مجرد «نافذة» على العالم الخارجي ، نتعلم فتحها مع الزمن . ولكن الشقاء الحقيقي هو ما عبر عنه الكاتب الجزائري الراحل مالك حداد حين قال « سرقوا لساننا ولم يسرقوا قلوبنا ، ولكننا نعاني الاهوال من تلك المسافة بين القلب واللسان » . الخطيبي ينكر هذا الشقاء بل لعله سعيد حتى يعاير الآخرين بعدم اجادتهم للغة .. اجنبية ! ولا يعاير نفسه بالنسبة للغته .. القومية .

انني فخور بأنني كاتب عربي القلب واللسان والعقل والوجدان وسأظل كذلك مهما تعلمت من لغات «أجنبية» التي لم اتفاخر باحداها يوما ـ الانكليزية مثلا وهي لا تقل اهمية عن الفرنسية ان لم تزد ـ ولم أعاير الخطيبي مثلا أيضا بعدم معرفته بها مطلقا . لان انعدام معرفته للعربية هو المأساة بعينها . اما اجادة الفرنسية فواجب نحو النفس ، لا نحو الامة ، نحاول القيام به . وحين نتقنها تماما سوف نبرق للاخ الخطيبي باللغة الوحيدة التي يعرفها .

وليس هذا كله ، للاسف ، مهما .. فالاهم ان الاخ الخطيبي يرد على مقال لا يخصه الا عرضا ، فلم يكن هدفي للحظة واحدة ان اتصدى لما قاله في «لوموند» (وهو الاستجواب الذي أجراه معه الطاهر بن جللون الكاتب والشاعر وليس أحد الصحفيين كما وصفه استخفافا في رسالته) . لم يكن همي اذن الرد على ما قاله في «لوموند» فما قاله ليس من الاهمية التي تستحق التعليق . ولكني كنت أناقش الازدواجية الثقافية التي تقود الى العدمية القومية ، واتخذته مثالا لقلة نادرة من مثقفي المغرب العربي ، أولئك الذين لا يريدون من فرنسا سوى لغتها ومن العرب سوى سحنتهم ليعلنوا بعد ذلك انهيار فرنسا وانحطاط العرب ، وليرشحوا انفسهم ورثة الايجابيات في الحضارتين ، والمعاول المؤهلة لتحطيم سلبياتها . وهي الحالة

التي تؤدي بفصام هؤلاء المثقفين الى الحد الاقصى فلا يصبحون فرنسيين ولا عربا .

هذه هي القضية التي أناقشها ، وقد جاءت رسالة الخطيبي تأييدا فاجعا لوجهة نظري فيها .. فهو يصب جام غضبه على مصر والمصريين والفراعنة الاقدمين الذين لم يدافع عنهم أحد ولم يشفع بهم أحد ولم يتسلق على مسلاتهم العالية في ميادين أوروبا أحد . ولكن الخطيبي أراد ان يفصح لاشعوريا عن عدائه للعرب لا لمصر ، وللعروبة لا للمثقفين المصريين .. «فبعضهم» الذي يشير اليه هو الذي قدم كتابه عن الرواية في «الطليعة» المصرية ، وكانت المرة الاولى التي يذكر فيها اسمه على الاطلاق داخل مصر. وهذا البعض هو الذي فعل الشيء نفسه بالنسبة للشاعر المغربي العظيم عبداللطيف اللعبي حين نقلنا ديوانه «شجرة الحديد المزهرة» كاملا الى العربية في «الشرارة» اللبنانية . وهذا البعض هو الذي أصبح جسرا خلال عشرين سنة وربما أكثر بين الادب العربي خارج مصر والقراء المصريين .. فعرفهم بعبدالكريم غلاب والطاهر بن جللون ومولود فرعون وكاتب ياسين ومحمد ديب والطاهر عبدالله من أقطار المغرب وعبدالسلام العجيلي وحنا مينه وزكريا تامر وخليل حاوي وادونيس والسياب والبياتي والملائكة وغيرهم عشرات من أقطار المشرق .

ان هذا «البعض» هو المثقفون «العرب» المصريون الذين يعرفون اهرامات الجيزة كمعرفتهم لمملكة تدمر السورية والبتراء (مملكة الانباط) والحضر العراقية وقلعة صيدا واعمدة بعلبك في لبنان .. ولكنهم يعرفون أكثر حاضرهم ومستقبلهم «العربي» ولا يعرفون حياة لهم خارج هذا الحاضر والمستقبل . ولا يستفزهم مطلقا التهجم على مصر من اعداء العروبة، بل يزدادون وثوقا في «عروبة مصر» لا أكثر .. فمن ينكر مصر وينعتها بأوصاف يأنف من استخدامها الاستعماريون كالقول انها «اهرام من ورق» أو «مركز وهمي» هم غلاة المعادين للامة العربية . ولن نلجأ الى ألوف

الابحاث التي كتبها المثقفون العرب من غير المصريين في وصف مصر كمركز حضاري للامة العربية .. فلن يقتنع الاخ الخطيبي في الاغلب بهذه الكتابات طالما انها شهادة من العرب . ولكننا نحيله فقط الى آخر بيان أصدره المثقفون العرب في لبنان حول اجراءات السادات الاخيرة بحق المعارضة الوطنية والقومية له ، حيث يقولون : « ان مصر ام العرب شاء حاكموها ام ابوا ، وكتّاب مصر وادباؤها وصحفيوها الذين يتعرضون الآن لحملة شرسة قوامها الاضطهاد والارهاب هم طليعة كتّاب أمة العرب وسوف يظلون أوفياء لرسالة هذه الامة يدافعون عن شرفها ومطامحها وآمالها في التقدم والحرية والعدل » .

هذه شهادة غيرنا في مصر والمثقفين المصريين ، وهي لا تفيد الاخ الخطيبي في شيء .. ولكني اوردتها فحسب لاقول له ان صوته ليس عربيا وليس مغربيا أيضا .. فالمغرب هو أحد القلاع العظيمة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية . وهو لا يمثل الثقافة او المثقفين المغاربة لان غالبيتهم الساحقة تؤمن بمصر العربية ودورها المركزي في حياة أمتنا ، وتؤمن بأن الحاضر العربي للمغرب له جذوره في الماضي وفروعه في المستقبل ، وان لا حياة للمستغربين الذين فقدوا هويتهم بين الانتماء الثقافي للغرب والانتماء القومي للاقليم .. فهذه الازدواجية الثقافية وهذه العدمية القومية سوف تصبح من مخلفات الماضي وذكريات «الضائعين» من ضحايا الاستعمار والنرجسية والشوفينية .

هؤلاء الذين يبنون شخصيتهم على اساس «سلبين» ، سلب غربي وسلب عربي ، فسرعان ما يتحطم البناء .. لانه لم يؤسس على صخر ايجابيتين في الغرب وعند العرب على السواء .

نعم ، لسنا كالنعامة نضع رؤوسنا في الرمال ونقول مع المعقدين ان الغرب هو الشيطان والشر المطلق .. فلاننا خالون من عقدة النقص نقف ضد فرنسا الشرطي في افريقيا ، كما وقفنا ضدها في فيتنام والجزائر .

ولكننا نقف مع فرنسا الحرة التي تقف بأكبر مفكريها معنا ضد نظام السادات ، لانها فرنسا فولتير وروسو وديدارو . اننا مع فرنسا بلزاك وزولا وفلوبير ورامبو لا مع فرنسا المركيز دي ساد التي يهيم بها الخطيبي . هناك أكثر من فرنسا لا فرنسا واحدة ، كأي حضارة أخرى وأي مجتمع آخر وأي أمة أخرى .

ولاننا لسنا معقدين ولا انتهازيين لا نطلب من فرنسا «لغتها» ونرفض كل شيء آخر .. وانما نطلب منها الديموقراطية والاستقلال عن اميركا وعدالة النظرة الى القضية العربية والابتعاد عن ذكريات المجد الاستعماري. هذا ما يهمنا نحن العرب من فرنسا . وهذا كله لا يحتاج الى «لغتها» بالمعنى الاستاطيقي للغـة بل الى «الحوار» باللغات الاقتصـادية والاجتماعية والثقافية .

هل هذا «دفاع» عن فرنسا ؟

.. بل عن فرنسا العربية ان جاز التعبير عن جزء من فرنسا .

.. لا عن العرب الفرنسيين بكل تأكيد .

ورغم انني لست محتاجا لمعرفة «المغرب» العربي قلبا ودما وعقلا ، فانني احتفظ بحقي في دعوة الاخ الخطيبي لزيارة القطر الشقيق .

١٩٧٨/٦/١٧

[illegible]

« البعض » ... لا يريد أن يكون وحيداً

مع فصل ١١١ صحفيا وكاتبا مصريا عام ١٩٧٣ ، بدأت أول هجرة جماعية للمثقفين المصريين في تاريخنا الحديث ، ان لم يكن في التاريخ المصري كله . غالبيتهم اختارت عواصم العالم العربي والقلة القليلة اتجهت الى الغرب . ولكن بعد حرب لبنان تغير التوزيع الجغرافي قليلا ، فنزح الكثيرون الى أوروبا .

غير ان هذا «الخروج» الجماعي من مصر في ذلك التاريخ ، لا ينفي ان خروجا من نوع آخر سبقه وخروجا من نوع ثالث تلاه . فاذا كان موقف السلطة ، هو السبب الرئيسي لهجرة ٧٣ فان هناك اسبابا اخرى للهجرات السابقة واللاحقة ، من بينها البحث عن وضع مادي افضل او الرغبة في مواصلة العمل بعد بلوغ سن التقاعد كما هو الحال بالنسبة للعشرات من أساتذة الجامعات . ومن بينها اليأس من التصالح مع النظام وبلوغ خاتمة الطريق المسدود للمساومة .

على ان اختلاف الاسباب لم ينف الظاهرة الجديدة كليا على الثقافة المصرية ، وهي نزوح مجموعات كبيرة من الادباء والكتّاب والصحفيين والفنانين الى خارج البلاد . ورغم تباين العلل الشخصية والمبررات الموضوعية ، وفي موازاة التطورات السياسية المصرية ، اتخذت «الظاهرة الجديدة» عنوانا شاملا لا يفرق بين كاتب وآخر أو بين فنان وآخر ، هو « المثقفون المصريون المضطهدون في الخارج» .

والحقيقة ان هذه التسمية ظلمت الكثيرين ومعهم الثقافة ، ولكنها مع الزمن أمست واقعا لا سبيل للفرار منه . أمست «هوية» الجميع دون تفرقة بين المضطهد الحقيقي والتاجر الحقيقي والسائح الحقيقي ، بين المنتفع من الاضطهاد والخاسر ومن هو بين بين .

ولان «الظاهرة» حقيقية وليست مفتعلة ، رغم انعدام التجانس في تكوينها ، كان لا بد من مواجهتها والتكيف معها ... فمن غير المعقول لهذا العدد الاستثنائي من الكتاب والفنانين ان تمضي حياتها على أساس فردي مغلق عن مصائر الآخرين ، فسواء أراد الفرد أو لم يرد هو بالنسبة للسلطة المصرية والعالم جزء من ظاهرة أعم . وهو يعامل من الجميع في ضوء هذا المعيار .. واذن فمن الطبيعي ان تتخذ الظاهرة شكلا أرقى يتناسب مع هذا المعيار ، أي اكتشاف الحدود الدنيا التي «تجمع».هؤلاء «المهاجرين» في اطار مشترك .

والامثلة على تجمعات المثقفين المنفيين في التاريخ الانساني لا تحصى.. ومنذ القرن الثامن عشر كانت باريس ــ على سبيل المثال ــ ملجأ وملاذا لتجمعات متعددة الاتجاهات والجنسيات من روسيا ، وافريقيا ويوغوسلافيا واسبانيا وايران . تتغير العصور ومعها التجمعات والاتجاهات والجنسيات التي تغيرت الظروف في بلدانها ، فيعود فريق ويهاجر فريق آخر ، وهكذا . غير ان القاسم المشترك بين هذه التجمعات التي عرفها تاريخ الآداب والفنون في أوروبا ، يمكن حصره في هذه النقاط .

● ان المنفى الثقافي هو مجرد «فرع» ممتد من «الاصل» الذي هو الوطن ، هو «الداخل» .. وان كتّاب «الداخل» وفنانيه ومثقفيه ، هم خط الدفاع الاول، وطليعة العمل. وفي ظروف القهر الديموقراطي هم الفدائيون الحقيقيون والمناضلون الحقيقيون والضحايا الحقيقيون . وعلى صعيد الفكر والابداع والعطاء هم المنتجون الرئيسيون للادب والفن والثقافة ، لقربهم القريب من ينابيع العطاء ومعايشتهم اليومية لتفاصيل الحياة .

● ان المنفى الثقافي هو «حالة طارئة» والعودة الى الوطن هي الحالة الدائمة . لذلك ثمة فرق جوهري بين من «يستقرون» في الخارج ولو باللاوعي (أي يحيون حياتهم الفعلية على أساس الاستقرار) والذين يعيشون منفاهم على أساس انه الاستثناء وانه مجرد مرحلة انتقال . والخلط بين الفريقين يزيف الظاهرة ويقلل من نبالتها ويجعلها قابلة للاحتواء في نطاق «الجاذبية» أيا كانت . ان منهج التفكير بمقدماته وسياقه ونتائجه يختلف تدريجيا حتى ليصبح علامة فارقة بين الذي اضطر للهجرة ويعمل للعودة وبين الذي استطاب المنفى لدرجة التوحد معه . المنطلقات تختلف ، والنتائج أيضــا .

● ان المنفى الثقافي ليس حزبا سياسيا معارضا من الخارج ، بل هو الى جانب الاهتمام الثقافي بالسياسة تجمّع مهني وابداعي وانساني. لذلك، كانت دور النشر والصحف ، ومجموعات الحوار الادبي والفني، والشروط الانسانية للحياة في المهجر ، هي الاهداف القريبة والمباشرة لكل تجمع ثقافي في الخارج .

اما البيانات السياسية فهي تخضع لحرية الفرد في التفكير ، لا لانتسابه الى التجمع (الذي هو في النهاية ليس حزبا) . كما يخضع التوقيع على أمثال هذه البيانات للهوية التنظيمية لكل مثقف ، اذ لا بد من الافتراض بأن الجميع لا ينتمون بالضرورة الى تنظيم واحد في الداخل وان جمعهم المنفى في الخارج . ان صدور مجلة وابداع رواية وتوفير اقامةأو عمل لمثقف في المنفى ، هو «النشاط الرئيسي» لاي تجمع .

● التجمع ليس وحدة ميتافيزيقية بين الناس ، وليس قرارا علويا ، بل هو ليس سلطة . من هنا كانت اوروبا في القرن الماضي وحتى اليوم تموج بالتجمعات الوطنية في مختلف عواصمها دون ان يجمع احيانا بين التجمع الايراني في باريس والتجمع الايراني في لندن والتجمع الايراني في روما سوى الاتصال والتنسيق . أما التوحد الشامل الكامل أو الجامع

المانع فهو غير موجود ، واذا وجد نوع من الارتباط الديموقراطي بين تجمعات جنسية واحدة في عدة عواصم ، فهو «حاصل جمع» وليس «اتحادا واحدا» . والحكمة في ذلك ان المشكلات الحية الملموسة تختلف من منفى الى آخر ، رغم ان ما يجمع المهاجرون من «مبادىء» أكثر مما يفرقهم .

● التجمع عمل ديموقراطي ، وأكرر للمرة الثالثة انه ليس حزبا . وهو أقرب الى مختبرات الابداع منه الى التنظيم السياسي . وهو لا يقف عائقا أمام الانتماء الحزبي ولكنه ليس مرادفا له او امتدادا . انه امتداد فقط للعمل الوطني في الداخل وخط دفاع معنوي في الخارج وفي ضوء هذه «الديموقراطية» ولان المثقفين ليسوا هم الادباء وحدهم ، فالتجمع يصبح بيتا للجميع ، للصغار والكبار ، للكاتب والصحفي والمصور والنحات والموسيقي والممثل والمخرج ... فهو ليس تجمعا مهنيا بالمعنى الضيق ، ولكن بالمعنى الثقافي الأشمل الذي يسمح لتفاعل ربما تعذر لاسباب كثيرة في الداخل ، تفاعل يؤدي الى جانب وحدة المصائر ، الى وحدة الفنون ، والى جانب صراع الاجيال ـ بالحوار الخلاق واستيعاب متغيرات العصر ـ هناك وحدة الوطن .

* * *

هذه مجموعة من الخواطر ، تثيرها في الذهن ، تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ مصر الحديث ان لم يكن تاريخها كله ... وهي تلك التجمعات من الكتاب والفنانين المشتتين في أرجاء العالم الاربعة ، بعضهم توحد بالمنفى فلم يعد له من مصر سوى السحنة ، وبعضهم خرج للبحث عن الوضع الافضل ، وبعضهم لم تفده المساومة .. والبعض الاخير يترقب يوم العودة . وحتى يعود لا يريد ان يكون وحيدا .

١٩٧٨/٣/١٧

خط الدفاع الأول

دائما ، يثار التساؤل حول «الداخل» و «الخــارج» في أزمنــة الاضطهاد والقهر . والسؤال الواحد يثار بأكثر من طريقة وأكثر من وجهة نظر . ولكن أخطر الصياغات هي التي تنطلق من الداخل وكأنه مقطوع الصلة بالخارج ، أو العكس ، تلك التي تنطلق من الخارج وكأنها منقطعة الارتباط تماما بالداخل .

قال بعض من هم في الداخل ذات يوم : ان الذين خرجوا من المثقفين المصريين في زمن المحنة انما هم «هاربون» من السفينة الغارقة الى شاطىء الامان ، الامان في لبنان ، والامن في بغداد ، والدنانير في اقطار الخليج . قالوها شعرا ونثرا ، همسا وعلنا . وحين كان «الادب» والذوق يسيطران على اسلوب الاتهام ، كانت الدعوة توجه المرة بعد الاخرى «للعودة» حتى لا تترك الساحة الثقافية في مصر نهبا لفرسان اليمين والارتداد . وكان «القلق» يشكك بعض القلوب الطيبة ، في ان الذين يخرجون لا يعودون . ويضربون المثل بالعديدين ممن استقروا في عواصم الغرب .

وقال بعض من هم في الخارج ذات يوم آخر : ان «الخارج» هو النضال الحقيقي ، حيث هاجرت صفوة العقول والمواهب التي كان يمكن اغتيالها في ظلال الصمت ، أو في ظل الهيمنة الساحقة لاركان اليمين في مختلف أجهزة الاعلام والثقافة .. ذلك انه بات محتوما على من ارتضى البقاء في الداخل أن يختار بين السجن والصمت والمسايرة . ولا خيار آخر

سوى الموت جوعا او قهرا أو ذلا وسوى الجنون باشكاله المختلفة وألوانه المتعددة . أما «الخروج» فهو ينقذ النفس والثقافة معا وقد يسهم في فضح اللعبة كلها ، سواء بالهجرة الجماعية في حد ذاتها أو بما يمكن ان يتاح للمثقف المهاجر من أدوات النضال ووسائله . وبعض البعض قال ان الذين بقوا في الداخل اختاروا أهون الحلول وأيسرها ، فهم يكسبون سمعة «الصمود» ولا يخسرون «أرباح» الخارج .

و «الحقيقة» ليست ضائعة بين الطرفين ، ولا في مكان ما يتوسطهما.. فالرأيان كلاهما يخطيء خطأ فادحا ، فليس كل من في الداخل مضطهد يحمل هوية النضال بمجرد بقائه ، وليس كل من في الخارج يحمل هوية النضال مع بطاقة الهجرة .

فالمناضل ، هو كذلك ، سواء في الداخل أو في الخارج ، بقدر ما يعطي لا بقدر ما «يتكلم» عن النضال ، الا أننا بعد هذا التحفظ ، لا ينبغي ان نساوي بين الفريقين كأنهما خصمان يسعيان للصلح .. فالحق ان خط الدفاع الاول عن الثقافة العربية في مصر ، يتكون أولا وأساسا من اولئك «الصامدين» حقا لا مجازا «داخل» الوطن . ان قصيدة واحدة لامل دنقل أو أحمد فؤاد نجم أو سمير عبدالباقي أو محمد سيف أو سيد حجاب وقصة واحدة ليحيى الطاهر عبدالله ورواية واحدة لمحمد يوسف القعيد ومقالا واحدا لمحمد عودة أو حسين عبد الرزاق أو حسنين كروم أو فريدة النقاش ، وخطابا سياسيا واحدا لخالد محي‌الدين أو لطفي الخولي ، هو «أفعل» مئات الاضعاف من قصائد جميع الشعراء المنفيين ومقالات جميع الكتّاب المهاجرين .. فاذا كان «التغيير» الممكن قادما من داخل مصر ، فان مثقفي مصر الصامدين هناك ، هم الذين يصنعونه على صعيد الوعي .. واذا كان هناك مائة أديب وفنان ومفكر مصري خارج البلاد ، لا تصل كلماتهم الى داخلها ، فان هناك مئات الكتّاب والفنانين لا يزالون بالصوت والصمت يقاومون «الحياة» الماثلة أمام أعينهم والتي يتنفسونها مع القهر والسجن

والجوع ، مقاومة فعلية تسهم في بلورة التغيير المقبل وتشكل قواه القادرة على أحداثه . ان عشرات الاخبار والتعليقات والرسوم غير الموقعة في جريدة «الاهالي» أو موقعة بأسماء مموهة ، والاستقبال المذهل الذي تلقاه من الجماهير ، تصوغ عنوان التغيير المقبل . ان برنامج العمل المضني لحزب التجمع الوطني الوحدوي ، هو الذي يكتل صفوف التغيير رغم عوائق الحزب الحاكم والاحزاب المناوئة . ولا مقارنة بين ذلك كله وبين أية تظاهرات وتجمعات في الخارج ، يمكنها في الحد الاقصى من العمل ، أن تكون خطا مساندا، خطا اعلاميا في الارجح ينير بصيرة الرأي العام العربي.

ولكن يبقى الامل والعمل هناك ، في الداخل ، وداخل الداخل . أما «الخارج» فلا معنى له اذا لم يكن امتدادا للداخل ، للاصل . وحين يكون صدى للصوت الاصيل ، فانه يؤدي واجبه وأكثر . أما اذا فكر يوما ولو للحظة ، أن يكون «البديل» أو حتى موازيا للداخل ، فانه يخنق نفسه في شباك الوهم ، ويسيء الى جوهر الثقافة الوطنية ومناضليها في خط الدفاع الاول .

والذين خرجوا ليسوا هاربين من المعركة أو مهاجرين أو سياحا أو مرتزقين بقدر عطائهم للداخل ، وبحجم السياج الذي يصنعونه لحماية الذين بقوا في الداخل . هذا العطاء وذلك السياج هما «المعيار» الوحيد ، والمبرر اليتيم لمنفاهم. وفي هذه الحدود، ربما أصبح البعض منهم «حاضرا» في الداخل ، أكثر كثيرا من الذين لم يبق منهم هناك سوى الجسد . غير أن المقياس الحقيقي يظل دائما هو الحضور النضالي للثقافة العربية داخل مصر .

ولربما كانت الثغرات داخل الاجهزة الثقافية المصرية الراهنة أكبر من أن تتسع لمشاركة الوطنيين الشرفاء ، لسيطرة العناصر والبرامج المؤيدة للثورة المضادة . وربما كان انجراف بعض الاعلام لدرجة السقوط في وهاد النظام مثيرا للاشمئزاز أكثر من الاسف . ولكن هذا لا ينفي ان «الانتاج»

الثقافي العربي في مصر ما زال يعطي بسخاء ، وهو الانتاج الرئيسي لعطاء الثقافة المصرية ، اذا قيس كما وكيفا بأي عطاء قادم من خارج الديار . كما أن هذا لا ينفي كذلك ان الجسم الرئيسي للحركة الادبية المصرية سليم ومعافى ، بغض النظر عن الاسماء التي تهاوت أو الاسماء التي برزت . فالهدم والبناء في الثقافة المصرية هو «عملية اجتماعية» دائمة المدوالجزر والنمو . غير ان جذورها وفروعها وتربتها تبقى هناك في «الارض الطيبة».

لذلك يخطىء بعض المثقفين المصريين في «المهجر» حين يؤسسون ويسلكون وكأنهم البديل أو هم الصوت وغيرهم الصدى . انهم بذلك يبددون «معنى» وجودهم في الخارج وينفونه في قوقعة التشرذم الاعمى والسلبية لدرجة الجمود ، ويعزلون في الوقت نفسه زملاءهم في الداخل ، أولئك الذين يتوقعون شيئا مختلفا لا يضاعف آلامهم ، شيئا شبيها بخط الدفاع الخلفي .

كذلك يخطىء بعض المثقفين العرب الذين يتصرفون وفق الوهم ذاته .. يظنون أن مصر قد انتهت ثقافيا ولم يبق منها سوى المنفيين .

هكذا يلتقي بعض هؤلاء واولئك على وراثة «القاهرة» التي لم تمت.. ولن تموت . وليفهم الجميع ان موتها المفترض ، هو موت لأبنائها في الخارج أكثر مما هو موت للمقهورين في الداخل ، وانه موت لاشقائها وأطرافها أكثر مما هو توقف للقلب .

١٩٧٨/٣/٢٤

الوطن ... يضيق

منذ ثلاثين عاماً ، والوطن يضيق . وكلما ارتفعت الشعارات « من المحيط الى الخليج » ضاقت رقعة الارض . والمثقف ــ خصوصا الاديب والفنان ــ يتأثر كأي مواطن آخر بهذا «الضيق» المستمر لرقعة الوطن . حتى ولو كانت حدوده الاقليمية ثابتة منذ «الاستقلال» وبعيدة آلاف الاميال عن «الارض» التي ضاقت ... في اقصى المشرق أو في أقصى المغرب ، في اقصى الشمال أو في أقصى الجنوب ، ، لا يتبدل «الشعور» بأن شيئا ما قد اختطف أو نقص او انتزع ، شيئا ما غامضا .

.. قد يعرفه «الفلاح» مباشرة حين يهجر الارض عنوة ، تلك التي كانت بيته وصلاته وسر أسراره . وقد يعرفه «التاجر» الذي تعرقلت فجأة في وجه بضائعه سبل المواصلات . وقد يعرفه العامل وصاحب «المصنع» الذي اندثر . وقد يعرفه «الموظف» الذي لم يعد مكتبه قائما ، وقد يعرفه أكثر وأكثر ذلك «الجندي» الذي نجا من الموت باعجوبة .

قد يعرف هؤلاء جميعا ذلك «الشيء الغامض» معرفة مادية محسوسة، أكثر كثيرا من أي روائي او شاعر او مفكر . بل هم اضافة الى هذه المعرفة المباشرة ، يعانون الاحزان وأهوال الذكريات والدفء الذي أصبح جبلا من الثلج .

ولكن «لوعة» المثقف تختلف ، لوعة الكاتب والفنان هي حاصل جمع اللوعات كلها ، مضافا اليها ما لا يرى وما لا يسمع وما لا يخطر على قلب

بشر .. فهو ابن الفلاح والعامل والموظف والتاجر والجندي و «شيء آخر»، هو الذي يجعله ــ كلما ضاق الوطن وعلت الشعارات ــ يستشعر كالرادار شيئا ما غامضا ، تنطوي عليه رؤية الارض التي تضيق . فالمثقف ليس مجرد وكيل احدى الطبقات او المندوب الرسمي لاحدى الشرائح ، بل هو أيضا «رؤيا» تتسع وتضيق بما يطرأ على «الوطن» من اتساع وضيق .

انه لا يرى «الوطن» قطعة الارض التي «كان» يزرعها الفلاح ، ولا المصنع الذي «كان» يملكه صاحبه ويعمل فيه العامل ، ولا الثكنة العسكرية التي «كانت» تحمي الديار ، ولا جهاز الدولة الذي «كان» قائما داخله مكتب الموظف ، ولا رأس المال المتجول الذي «كان» التاجر يستثمره .. بل ولا مجرد الحكايات والاساطير العابقة في كل حفنة تراب تحت شجرة أو فوق شاطىء أو بجانب مقبرة ، ولا حتى ذكريات بنت الجيران وتباشير الصبا وبواكير الشباب .

المثقف العربي ، دون ريب ، يشعر بذلك كله . ولكن «رؤياه» للوطن أعمق واعرض واطول . انه يرى «التاريخ» لا كماض ذهب بل كحاضر ومستقبل ، يرى «الحضارة» لا كأبنية من الحجارة والاسمنت ولا كحفريات مليئة بالذهب ، بل كمعنى للوجود . يرى أخيرا «الانسان» لا كنفس وجسد أو كفرد ومجتمع وحسب بل كقيمة تلتقي عليها وفيها ومن خلالها الحضارة والتاريخ .

ولان المثقف كذلك ، فصدره يضيق أكثر من اي مواطن آخر حين يضيق الوطن ، يشعر وكأنه العرض ــ لا الارض ــ الذي انتهك ، يحس وكان تاريخه يتضاءل وكان حضـارته تتوارى وكان قيمــة القيم اضحت كأوراق الخريف الذابلة . قد يشعر الحاكم انه مسؤول عن الدولة ، ولكن المثقف يرى نفسه مسؤولا عن الكون فكم بالاحرى الوطن ، وقد اضحى تاريخ الارض وسماؤها ما ومن عليها تاريخه الشخصي ، وأمسى هو روح الاشياء . وقد يشعر القائد العسكري انه مسؤول عن جنوده ، ولكن المثقف

يرى انه مسؤول عن القائد نفسه . مسؤولية لم يكلفه بها أحد ولم يطلبها منه أحد . وقد يشعر رجل الدين انه مسؤول عن معبده ورعاياه ، ولكن المثقف يرى انه مسؤول عن الشيخ والكاهن والكنيسة والمسجد رغم انه ليس مبعوث العناية الالهية . مسؤوليته تولد معه كما لا تولد خلايا بقية البشر ، تولد في تلك اللحظة المرابطة خارج الزمن ، حين يدرك المحسوسات من حوله ومن داخله بعين اخرى غير العيون . يدرك الاحجام والنسب والأيقاعات والالوان على نحو غير مألوف للحواس الخمس . ويرتبط في هذه اللحظة بالوطن ارتباطا استثنائيا «يعبر عنه» بالنغم والريشة والقلم والازميل . ولكن يبقى «الجوهر» شيئا مغايرا للتعبير ، شيئا غير قابل للتعبير ، بالتجسيد أو التجسيم أو التصميم . هذا الشيء الغامض ينفرد به المثقفون المبدعون الذين تتهاوى قلوبهم في حشاياهم عندما يضيق الوطن ... يشعرون وكان ارواحهم هي التي ضاقت بأجسادهم وان هذه الاجساد ضاقت بأرواحهم . يكابدون اختناق الموت .

بعضهم يهاجر ، وهو داخل الوطن الضيق ، هجرة الى داخل الذات ، يقوم بما يشبه عملية «اللجوء الوجودي» الى داخل النفس هربا من الجحيم و «الآخرين» . والبعض يهاجر وهو أيضا داخل الوطن الضيق ، الى حلم باتساع العالم في عملية تشبه «اللجوء الحضاري» . كلاهما يهرب من «الانحطاط» ، من زمن الهاوية ، من الضيق المستمر لرقعة الوطن حتى لا يبتلعه الفراغ والعدم . كلاهما يقفز فوق «المعطى» الى الممكن والمستحيل، الى التوحد مع الذات بديلا للتوحد مع التاريخ ، أو الى التوحد مع «الآخر البعيد» بديلا للتوحد مع الحضارة .

والقليلون القليلون هم الذين يواجهون عاصفة آخر الزمان ، هم الذين يحملقون في قاع الهوة ، لا يقفزونها ، لا يتخطونها ، لا يتجاوزونها، ولكنهم يبتهلون للريح ونبع الماء ان يكونوا «حاضرين» مهما طال الحصار، ليعيدوا الارض الى الارض والناس الى الناس والتاريخ الى التاريخ والحضارة

الى جذورها ، ليصلوا ما انقطع وليبنوا ما تهدم بدءا من الجسور ونهاية بعمق اعماق الروح .. حتى يعود «الوطن» واسعا كما كان .

اين الصواب واين الخطأ لا صواب ولا خطأ فالجميع يحلمون حلما ويرون رؤى. ولكنهم وحدهم الذين يحلمون ويرون ويحدسون ويهجسون. وسوف نقرأ بعد حريق الجنوب اللبناني الذي ضيق الوطن أكثر من أي وقت مضى ، وسوف نسمع ونشاهد ونلمس ونعانق احلاما ثلاثة في الفكر والادب العربي الحديث ، فلا تفزعوا .

سوف نقرأ الحلم الغامض المعقد القادم من تلافيف الذات المهاجرة الى الداخل ، وقد اضطرب في قصائده ورواياته وملاحمه وموسيقاه واغانيه كل شيء : الوزن ، الصورة ، اللفظة ، السياق ، الايحاء ، وسوف نسمع الحلم الغامض المعقد القادم من وراء البحـار ، يزيد حطام الفن حطاما وانقاض الفكر انقاضا .

وسوف نشاهد الحلم الغامض المعقد القادم من هاوية الحضور او حضور الهاوية لا فرق ، كأنه يبعث «غودو» عربي ينتظره الجميع بلهفة المشتاق ووجد المتصوف .

.. فلا ينتابكم الذعر ، ولا ترددوا الاسطوانات الممجوجة عن التشاؤم الاسود والغرق في المجهول واللعب على العبث .

فالفرق بينكم وبين «الرادار» انه يلتقط الهول قبل وقوعه ، ولا تكرروا مأساة زرقاء اليمامة ، فالوطن يضيق حتى ليكاد بعضنا ... ان يبصره !

١٩٧٨/٣/٢١

نفرتيتي الفلسطينية

باستثناء عبدالوهاب البياتي ومحمد الفيتوري ، ربما لم يتح لشاعر عربي معاصر ان يعايش مصر ، كما عايشها الشاعر الفلسطيني معين بسيسو ... فقد أتيح له أن يحيا في ذرات دمها بدءا من شجونها المظلمة وانتهاء بكافتيريا الطابق الثاني عشر في مؤسسة «الاهرام» . تسكع في ترابها وتصعلك مع حرافيشها حتى توحد جلده بعظامها المسحوقة . وطيلة وجوده فيها تعرض كأي مثقف مصري للعنات الاغتراب ووثبات الامل ، لم يشعر في لحظات المجد بأنه يكرم من صاحب البيت كضيف ، ولم يحس في هوة الجحيم بأنه مطارد كأجنبي .. بل ظل دوما يتنفس العطر ويزفر الحمم كأي «ابن بلد». دخل المعتقل حين دخله المصريون، وخرج معهم صامدا كالقليلين، وترك الديار حين فعل الكثيرون . وربما كان الشاعر الوحيد الذي أصبح بيتا له من الشعر أكثر شهرة من اسمه ، أثناء حرب الفدائيين المصريين على ضفاف القنال في بداية الخمسينات . حينذاك أنشد «أنا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيقي في السلاح» . وقد تحول البيت الاول من هذه القصيدة الى شعار جماهيري اكتسح الحيطان والمظاهرات والمهرجانات خلال فترة الغليان العارمة السابقة على ثورة ١٩٥٢ . ونسي الناس صاحب القصيدة التي بقي منها بيت واحد من الشعر .

وطيلة اقامته في مصر ، لم يكتب معين بسيسو الا عن فلسطين . كتب عن فيتنام والكونغو وكوبا ، ولكنه في الحقيقة لم يكتب الا عن حيفا ويافا

والقدس . قصائده الكبيرة كانت عن فلسطين ، وحين تحول الى المسرح الشعري ، كان يؤسس في واقع الامر المسرح الفلسطيني . ولو تبقت له «ثورة الزنج» وحدها ، لكفاه .

وحين خرج الشاعر من مصر ، كتب عنها . كتب أولا «دفاتره» النثرية التي أراها أكثر شعرا من بعض شعره . ثم كتب مؤخرا قصيدته التي أسماها «نفرتيتي» والتي نشرتها مجلة «الكاتب الفلسطيني» في عددها الاول . هذان العملان هما ثمرة تلك المعايشة الحارة لقلب مصر من داخل الشرايين والخلايا ، فرؤياه لا تطل على سطوح الاشياء بل تنفذ من قشرة الارض الى جوهرها .

ومعين ينجح دائما ، شاعرا ومسرحيا وناثرا ، حين تكون هناك هذه «المسافة» بينه وبين القضية التي يتناولها بالتعبير . وهو يخفق دائما حين تنعدم هذه المسافة ويتوحد بالحدث الآني ، فيصبح مجرد شاعر مناسبات، يقوم بدور المنشور الدعائي الصاخب ، أو مجرد معلق تحريضي متحمس في أبواق الاذاعة . وقد تحسب له هذه المناسبات والمنشورات والتعليقات في باب النضال السياسي ، ولكنها تحسب عليه بالتأكيد في باب الفكر والفن. وسوف تظل هذه القضية على أية حال ، بغير حل ، اذ يصعب السؤال في أزمنة المحن عن ولاء الفنان ، للجماهير أم للجمال ... أم ان التناقض مفتعل أصلا ، وهو يجد جوابه التاريخي في المواهب الكبيرة ؟

* * *

في «دفاتر» معين بسيسو لا نلتقي بقضبان السجن التي نشاهدها في السينما ، ولا بذكريات الامس التي تبدو اشباحا معلقة في فضاء الحلم ... بل بكوابيس الوجود والعدم في مجتمع يولد ويموت كل لحظة . فلسطين كانت هناك في كل سطر ، ولكن مصر هي «الرؤيا» . مصر «المعذبين في الارض» ومصر الممتدة الاذرع لعناق المستحيل . مصر التي تنام احيانا حتى ليظن بها الموت فاذا بها حين تستيقظ من السبات تأمر الجبل أن ينتقل

فينتقل . مصر المتناقضات اللامعة في مرآة مصقولة ، ومصر الاتساق المذهل لا في بناء الاهرام بل داخل النفس. مصر التي لا تتنكر لماضيها حقا، ولكنها تبذل الدم دفاعا عن المستقبل ... دماء الفلاح في الارض ودماء العامل في المصنع ودماء المثقف في السجون ودماء الجندي على الحدود . مستقبلها ليس حلما في انتظار غودو ، ولكنه فعل الديمومة الذي يغير وجه الحياة... من البطش الى الحرية ، ومن الظلم الى العدل ، ومن الانكفاء على الـذات الاقليمية الى رحابة الانتماء العربي .

هذه «المحاور» لم يسردها معين بسيسو ، بل جسدها انماطا بشرية متفردة في الفكر والسلوك ، واحداثا نابضة بسر الحياة ، فجاءت في جملتها عملا فنيا رغم واقعية «التذكير» وخلقا فكريا رغم طزاجة المناسبة .

وفي هذا الاطار اقبلت قصيدته «نفرتيتي» التي كان من الممكن في زحمة «المناسبات» وما أكثرها هذه الايام ، ألا تتجاوز كونها اهزوجة مدح أو هجاء ، صرخة حب أو حقد ، هتافِ فرح أو جرح . ولكن معين لم يتعجل ولم يستسهل ولم يتوقف عند الحدود الآمنة ولا فوق الاطلال . ليس معنى ذلك انه خرج على الزمان والمكان . كلا . ولكنه بدلا من أن يكون أسيرهما حورهما معا ، وبدلا من ان يقيس طول النيل وارتفاع الهرم ، دخل قلب «نفرتيتي» ففيه كل الزمان وكل المكان .

واذا كانت أهمية «دفاتر» معين بسيسو انها درس في الشعر وهي المكتوبة بالنثر ، فان أهمية قصيدته الجديدة انها درس في الفكر لا في الشعر . انها استبصار عميق الدلالة لمصر ، في وقت أحوج ما يكون فيه الجميع «للايمان» . نفرتيتي الشاعر الفلسطيني ليست هي مصر المصريـة بل هي مصر ــ فلسطين ، مصر العرب ، لذلك فهي مصر ذاتهـا لا مصـر «الآخرين» . لذلك كانت قصيدة معين بمثابة «فعل ايمان» مفقود ، هي قانون ايمان قادر كالسحر على ولادة المعجزة ، باستعادته من براثن اليأس أو العرق أو اللامبالاة .

.. وقلب مصر ساعة حائط الزمن
عقرباها ذراعان يضمان الوطن
يخرج الآن من آنية الزهور
من حواصل الطيور
من مدرسة القبور
جنود مصر

ويدور بنا الشاعر الذي يعرف مصر شبرا شبرا ، على كل الواجهات فلا يرى «شارعه» حيث تراه العيون القصيرة النظر . ولكن الايمان يحتاج الى فعل مساو له ، يحتاج الى معاناة الوجد واهوال الطريق :

يا مصر انا يوسف الفلسطيني
وأنت في البئر نخلتي
وأنت نافورتي
جدلتها حبلا
أيها النيل الذي يطفو على وجهي سيفا
آه ما أبعد حيفا
آه ما أقرب حيفا
أرى البرق على جرحي تجمد
وأرى البرق على صوتي تجمد
وأرى البرق على اسمي تجمد
ثم اصعد
ثم اصعد

حينذاك يدرك الشاعر « شارعه » الذي لا يمضي فيه الكثيرون ولا يرونه في مصر . فمصر شارعان ، أحدهما وهم سريع الزوال والآخر باق بقاء الحياة .. هذا الآخر ، هو الذي يمضي بمصر نحو مستقبلها الوحيد الممكن ، وغيره سراب . وكأني بالشاعر يصلي من أجل الذين يخطئون «الطريق» انهم لا يخطئون في حق مصر ، بل هم بمضيهم في شارع السراب ، انما يستحثون الخطى نحو الهاوية . يضرع معين بسيسو لكل من له عينان أنْ ترى :

ما اجمل المومياء في التابوت
ترفض أن تموت
ويبتهل لمن تخونهم الذاكرة :
وورق البردي في انتظار قصيدة مصرية
تكتبها بندقية
تلك كانت نفرتيتي الفلسطينية هي التي تتكلم ، وكأن مصر تتحدث **عن نفسها .**

١٩٧٨/٤/٧

وهو الذي تنام حتى يظن بك الموت فإذا بك حين تستيقظ من الثبات تأمر الجبل فإذا هو يتحرك .

ما أجمل المومياء في التابوت .
ترفض أن تموت .

✓ الضمير اسمه امرأة

شهد حفل توزيع «الاوسكار» هذا الاسبوع ، حدثا استثنائيا في تاريخ الجائزة ، فقد فوجيء المدعوون من الفائزين والنقاد ، بدائرة بشرية تحيط الباب الخارجي لمكان الاحتفال ، وتحمل لافتات تقول « ردغريف وعرفات قصة حب كاملة» . ولم تكن اللافتة عنوانا لفيلم ، لان اللافتة الاخرى كانت تفسر الامر بهتافها «فانيسا ومنظمة التحرير الى جهنم» . وهكذا فهم الناس على الفور ان المشهد المثير وربما الاول من نوعه ، هو حفل استقبال آخر ، للممثلة البريطانيا فانيسا ردغريف ، أقامتها رابطة الدفاع اليهودية ضد الفنانة اللامعة التي اخترقت حاجز الصوت الصهيوني باقدامها على انتاج فيلم «الفلسطيني» الذي تقوم فيه أيضا بدور الراوية.

والمفارقة ان فانيسا لم تربح جائزة الاوسكار هذا العام عن فيلم «الفلسطيني» بل كأحسن ممثلة ثانوية في فيلم «جوليا» الذي تقوم فيه بدور احدى فتيات المقاومة السرية ضد النازية حيث تنشط بتهريب اليهود الى خارج المانيا ! لم تصفق الصهيونية لهذا الفيلم ، بل بادرت « رابطة الدفاع اليهودية» في اميركا الى دعوة ستوديوهات هوليوود الى مقاطعة ردغريف ومنعها من تمثيل أية أفلام أخرى .

ولم تسكت المرأة الانكليزية ذات الاربعين عاما ، فعلقت في كلمتها وهي تتناول التمثال الصغير المغطى بالذهب (الجائزة) بأن شكرت مجتمع هوليوود الذي «وقف ضد حفنة صغيرة من المشاغبين الصهاينة الذين

يشكل سلوكهم اهانة لليهود في جميع انحاء العالم» . واستطردت «انني أحييكم وأشكركم ، وأتعهد بمواصلة نضالي ضد اللاسامية والفاشية» ثم أضافت «لقد صنعت كما تعلمون فيلما بعنوان (الفلسطيني) واعتقد انه يسهم في تفهم ما يحدث هذه الايام» الى ان قالت «ان هذا الفيلم يجب عرضه على شاشات التلفزيون حيث يستطيع ملايين المشاهدين ان يحكموا عليه بأنفسهم . انني واثقة من ان الشعب الاميركي يريد ان يعرف الحقيقة. انني أعارض الصهيونية وأقف الى جانب جميع اليهود الذين لهم تاريخ في الكفاح ضد الفاشية والقهر» .

وقد اعترض تشارلتون هستون ـ الرئيس السابق لاكاديمية الافلام السينمائية والفنون والعلوم التي توزع جوائز الاوسكار ـ على اشتمال خطاب ردغريف آراء سياسية ، كما اعترض على المتظاهرين ضدها للسبب نفسه ، وأضاف « لقد عملت مع فانيسا ، انها فتاة سياسية ، لكنها فتاة موهوبة جدا » .

ولعل هذا التعبير الاخير لهستون هو المدخل الطبيعي لرؤية هذا «الحدث» .. فالرجل يعترف بأن فانيسا «فتاة سياسية» ويستدرك شبه آسف «ولكنها موهوبة جدا» ، وكأن الموهبة تتعارض مع السياسة ، وكأن أفلام هوليوود كلها ليست سينما سياسية ، وكأن الولايات المتحدة ذاتها ـ قبل بريطانيا ـ لم تلد أمثال ردغريف ، كالممثلتين العظيمتين جين فوندا وانجيلا ديفيز .

ولكن الجديد الذي فاجأت به فانيسا ردغريف العالم كله هو انها تجاوزت الحدود المسموح بها .. فلقد لمعت زميلتاها الاميركيتان في زمن التمرد الاميركي على حرب فيتنام ، وأزمات الشباب ومأزق العنصرية ، فكانتا بمثابة الاستجابة الطبيعية ، وان تكن مدوية ، لمحنة الضمير العام . ولكن الممثلة البريطانية لا تستطيع الزعم بأنها في سلوكها وفكرها السياسي والفني تعبر عن الضمير العام في بريطانيا او في الغرب فضلا عن الولايات

المتحدة . ان الحد الاقصى لدفاعها السينمائي هو انها ضد النازية مع اليهود ، وضد الصهيونية مع الفلسطينيين . ولكن استقامة المعادلة لا تخفي «ضمير الغرب» ، وهي ان الصهيونية ليست أكثر من نازية جديدة .

هذه النتيجة «المنطقية» كما تفهم فانيسا المنطق ، تقودها الى «انتاج» فيلم «الفلسطيني» . وأكرر كلمة «انتاج» .. فلو انها ارتضت ان تمثله فقط ، لكانت بذلك بطلة عربية تستحق تمثالا من الذهب بحجمها الطبيعي. وربما كنت موقنا من ان بعض ممثلاتنا العربيات الشهيرات يرفضن الآن القيام بهذا الدور . ولكن ردغريف ليست مجرد بطلة عربية ، لانها بادرت «بانتاج» الفيلم ، وأكرر الكلمة للمرة الثالثة .

هنا ، لا تحتاج الى تمثال من ذهب يكلف البعض اموالا طائلة ، بل تحتاج الى ما هو أبسط وأكثر تواضعا ولا يكلف قرشا واحدا . تحتاج منا الى القول بأنها جسدت في شخصها المفرد «الضمير الانساني المطلق» الذي لا يقيم وزنا للزمان والمكان ، للمصالح والرواسب ، للرائج والسائد، بل يخترق جدران التاريخ ليرى ما هو أبعد من اللحظة العابرة ، ليرى ما يشبه الغيبي والمجهول ، وكأنها رؤيا جان دارك. فالحقيقة ان مجموعة القيم التي تربت عليها فانيسا ونشأت في احضانها وتنفست نسيمها مع كل شهيق وزفير ، لا تؤدي بها الى الطريق العربي نحو فلسطين .. فابتداء من الكنيسة الانكليكانية وانتهاء بالحزب الشيوعي البريطاني ومرورا بعشرات الالوان الفكرية الانكليزية ، ليس هناك ما يقود فانيسا نحو هذا الطريق «الآخر» الى القدس . لذلك فهي أشبه ما تكون بالمعجزة في عصر لا يعرف المعجزات، وفكرها أشبه ما يكون برؤيا في زمن لا يعرف السحر . انها «الضمير» وقد تجسد في امرأة .

... ولانها ترتفع الى مستوى النبوءة كزرقاء اليمامة ، فانها لا تعرف معنى الربح والخسارة ، أو هي ، على العكس ، تعرف انها رابحة على طول الخط وخاسرة على طول الخط . لقد ربحت صدقها المطلق مع النفس ، وان

دفعت الثمن غاليا .. على النقيض من بعض العرب الذين خسروا الصدق ، ودفع الوطن اغلى الاثمان ..

وفانيسا ردغريف لن تعبأ بأصوات الذين سيصفونها بالجنون ، لان «الصوت الآخر» يملأ كل أذنيها . وهي لن تعبأ بالقائلين انها كافرة ويعدون لها المحرقة . «فالايمان الآخر» يملأ كل حياتها ... لقد سبق لهم أن صنعوا ذلك فعلا لا مجازا بجان دارك ، فمات الجلادون وعاشت قديسة الاستقلال. رحل الانكليز وعاشت فرنسا .

والفرق بين الممثلة البريطانية و «الممثلين» العرب من أهل السياسة انها لا «تشتغل» بالسياسة ، ولكن بالسينما .. بينما يشتغل هؤلاء بالسينما ويتوهمون انهم يشتغلون بالسياسة .

والفرق الآخر انها «انتجت» فيلما عن الفلسطيني ولم «تمثل» ... بينما يشتغل هؤلاء بالتمثيل طول الوقت ولا يعرفون الانتاج .

والفرق الاخير ان فانيسا ردغريف هي «ضمير» الذين لا ضمير لهم .. وما أكثرهم في بلاد العرب قبل بلاد الغرب ..

١٤/٤/١٩٧٨

« مؤسسة الحرية الدولية »

ليس قبيحا ان يحتفل الناس بالحرية وهم يجرعون كؤوس الويسكي والشمبانيا ، ويتابعون بعيون مفتوحة ايقاعات الرقص الشرقي . وليس مثيرا ان يحتفل بعض الناس بالحرية في احدى قاعات فندق ميناهاوس بالقرب من اهرامات الجيزة . وليس عيبا ان يقيم هذا البعض «مؤسسة» للحرية، لا في مصر وحدها ولا في الوطن العربي وحده، بل في العالم أجمع.

ليس قبيحا ولا مثيرا ولا سخيفا ان تكون «الحرية» عروس النيل والصحراء هذه الايام ، لان سكان الوادي الاخضر واهل الرمال الصفراء من احوج البشر الى «مؤسسات» تحمي حرياتهم .. وقديما قال عنا «المغرضون» ان بلادنا ارض النبوءات لان أهلها مثقلون بالخطايا .

ولكن الغريب والذي يدعو الى أكثر من الدهشة ، هو مجموعة الملابسات التي أحاطت نشأة «مؤسسة الحرية الدولية» في القاهرة ... فالسيد صلاح الشاهد رئيس مجلس ادارتها هو أحد اساتذة فن «التشريفات» والبروتوكول في العالم العربي . ولكن الرجل لم يعرف عنه سواء في ظل الملك او في ظل الجمهورية اي اهتمام سياسي فضلا عن الشغف بالدفاع عن الحرية . كذلك الدكتور ابراهيم عبده استاذ الفن الصحفي المعروف ، فان اهتماماته السياسية في السنوات الاخيرة لم تخرج عن بضع كتب تهاجم الناصرية ، وانه كان اول مصري يطلب علنا الصلح المنفرد مع اسرائيل . ولكننا لم نسمع عن الرجل انه ذاد عن الحرية في

عصور «الارهاب والبطش» التي يندد بها الآن .

ومما يثير الاستغراب والعجب هو الاطراف غير المصرية المشاركة في «المؤسسة» الجديدة ، وخاصة الطرف غير العربي وهو الولايات المتحدة الاميركية .

... فلو ان رجلا كخالد محمد خالد ، مثلا ، هو رمز هذه المؤسسة لكانت القضية اقرب الى الفهم .. فهو الرجل الذي وقف وحيدا عام ١٩٦٢ أمام الرئيس عبدالناصر في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، ليقول «لا» سواء عن صواب أو عن خطأ . ولو ان رجالا كالفيلسوف الراحل برتراند راسل أو جان بول سارتر ، كانوا من رؤوس هذه المؤسسة لاطمأنت النفس وارتاح الضمير . ولو كانت هيئة العفو الدولية هي الجهة صاحبة الرعاية للمؤسسة الجديدة لكنا فهمنا اكثر مما ينبغي .

ولو ان «المؤسسة الجديدة» بكامل هيئتها قد احتفلت بتدشينها على نحو جديد ، بأن اقتحمت السجون العربية ومعتقلات التعذيب سجنا سجنا ومعتقلا معتقلا ، وواجهت اولياء الامر في مصر وبلاد العرب والعالم كله بما شاهدت وسمعت .. لكان علينا ان نسحب استغرابنا ونعتذر عما بدر منا من عجب .

ولكن دهشتنا تزداد ، حين نربط بين المداخلة الاميركية بشأن « مؤسسة الحرية » الجديدة ، والمداخلة التي سبقتها بعام حين أعلنت شركة موبيل اويل عن جائزة للقصة المصرية شكلت لجنة تحكيمها من بعض الادباء المصريين كواجهة وطنية .. فالامر يبدو الآن غزوا سافرا للعقل والوجدان العربي . وهو غزو لا يتعظ البعض من نتائجه المباشرة .

ففي الماضي القريب كانت هناك منظمة تدعى «المنظمة العالمية لحرية الثقافة» مقرها باريس .. تعقد المؤتمرات وتصدر المجلات والنشرات في أرجاء العالم الاربعة . وعام ١٩٦٠ كان نصيب العرب من هذه المنظمة ان عقدت لهم مؤتمرا في روما حول بعض قضايا الادب العربي الحديث ، وفي

مقدمتها قضية الالتزام والحرية . واتضح من اختيـار الاسماء العربيـة والاجنبية المشاركة ، وجملة المناقشات التي حدثت ، ان القصد من الاجتماع أو الندوة سياسي مائة في المائة .. فقد كان الاتجاه السائد ضد الالتزام فجـا وأكثر سذاجة من القـائلين بالالتزام ، وكان التنديد بالاشتراكية وافتعال التناقض بينها وبين الحرية محورا رئيسيا .

ولم تكد تمضي سنوات معدودة حتى ظهرت جريدة «الواشنطن بوست» وفي صدر صفحتها الاولى مانشيت عن نشاط وكالة المخابرات المركزية التي تمول بعض الجامعات ومراكز البحث العلمي والمنظمـات الثقافية . وكانت «المنظمة العالمية لحرية الثقافة» في أول القائمة ، هي ومطبوعاتها العربية كمجلة «حوار» العربية و «انكاونتر» الانكليزية .. ويومها توقفت «حوار» عن الصدور ومات رئيس تحريرها توفيق صايغ بعد شهور في مصعد معلق باحدى جامعات اميركا . ويومها ايضا استقال رئيس تحرير « انكاونتر » الشاعر والكاتب البريطـاني المعروف ستيفن سبندر . ويومها كذلك ضجت الصحافة العربية من هذا النشاط لاجهزة الامن الاميركي .

وليس الامر مقصورا علينا وحدنا، فلم يفلت منقائمة الاتهام النشرات الدورية التي تنشرها الصحافة الاميركية عن نشاط المخابرات . مجلس الكنائس العالمي .. الذي زعم في بياناته الاولى انه ضد الشيوعية والالحاد، تماما كما قال الدكتور ابراهيم عبده عن «مؤسسة الحرية الدولية» في القاهرة ، ثم تبين ان المجلس المذكور كان وراء «الوثيقة» التي أصدرها الفاتيكان لتبرئة اليهود المعاصرين من دم المسيح . ولم تكن الوثيقة شهادة دينية بل موقفا سياسيا الى جانب اسرائيل .. فالصهيونية ليست بعيدة عن هذا المعقل الايديولوجي للكنائس المسيحية ، والذي تموله ، كما نشرت «الواشنطن بوست» وكالة المخابرات المركزية في الولايات المتحدة .

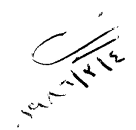
والقضية الآن ، بالنسبة لنا نحن العرب ، ليست مطلقا قضية يسار

ويمين وايمان والحاد ، بل هي قضية ثقافتنا الوطنية وحضارتنا القومية المهددة بغزو كاسح من الاجنبي فضلا عن العدو .. فالحماس الذي تبديه شركة نفط اميركية كموبل اويل للرواية المصرية هو حماس مشبوه ، لان علاقة النفط بالادب لم يتوصل اليها العلماء بعد . والحماس الذي تبديه أميركا وبعض العرب لتأسيس «الحرية» في مصر هو حماس أكثر من مشبوه .. فحريتنا تنبع من نضالنا نحن عنها وبكشف السماسرة المحترفين في ضربها ، ولا تحتاج الى محامين من الصحراء او من وراء البحار ... كما لا تحتاج الى فن التشريفاتي الاول في البروتوكول ، ولا الى بيان الصحفي الاول في شجاعة الدعوة الى صلح منفرد مع اسرائيل . ولا تحتاج اخيرا الى «عشاء» فاخر بين النيل والاهرام تتخلله ايقاعات الرقص الشرقي .

حريتنا تخصنا ، تخص جماهير هذا الشعب من المحيط الى الخليج ، كما ان ثقافتنا ملكنا ولا تهم احدا غيرنا ... سواء جعنا أو تشردنا أو تعذبنا أو نفينا أو دخلنا السجون ، فان ضمائر العالم المتحضر التي تناضل معنا لا تحتاج هي الاخرى الى «مؤسسة» ترفع اسم الله بيد ، والكأس باليد الاخرى ، وكلتاهما مشدودتان بخيوط مرئية للعين المجردة الى القبضة الحقيقية لمخرج مسرح الدمى ، واسمه الحقيقي وكالة المخابرات الاميركية.

أم ان البعض يشتاق لقراءة اسمه في القائمة المقبلة التي ستنشرها «الواشنطن بوست» ذات يوم ؟

١٩٧٨/٤/٢٢



بطاقة يبحث عنها المواطن العربي

لم تكن علاقتي ودية يوما بجفاف العمل الاكاديمي بمعناه الفقهي الشكلي ، وان عشقته كمنهج في البحث والتفكير. كنت أرى ، ولعلي لا أزال ، أن الافكار تحتاج فعلا الى الدقة والتدقيق ، ولكنها بنفس المقدار وأكثر تحتاج الى الحرية والانطلاق . وكنت أفرق ــ ولعلي لا أزال ــ بين «المفكر» و «الدارس» أي بين الخلق والابداع من ناحية والجهد والاجتهاد من ناحية أخرى .

وكنت أعرف ، ولا ازال ، انها مشكلة بلا حل . كنت أرى امامي أصحاب الافكار الكبيرة وقد انطلقوا في كتاباتهم على سجية اقرب ما تكون الى روح الفن ، لا تحتشد صفحاتهم بالهوامش والشرح على المتون ، صافية رغم عمقها العميق صفاء البلّور . وكنت أرى أمامي عديمي المواهب وقد امتلأت كتاباتهم بالاشارات والاستشهادات وكأنهم لا يستطيعون المضي خطوة بغير « عكاز » من انجاز الآخرين يستندون عليه ، بل وكأنهم لا يثقون في ما يقولون فيقسمون بشرف غيرهم .

ولكن ما أراه شيء و «التقاليد الجامعية» شيء آخر .. وهي تقاليد ليست قادمة من فراغ ، بل هي تعميم لخبرة انسانيـة واسعة في البحث العلمي . وأية جامعة تحترم نفسها لا تفترض سلفا ان طلابها هم من أصحاب المواهب الذين سيضيفون الى السابقين من «الاساتذة» . بل هي تفترض ــ ولها الحق ــ ان أمانة البحث العلمي تتطلب ، الى جانب الموهبـة ان

وجدت ، جهدا صارما في التوثيق .. حتى لا يسرق بعضهم البعض الآخر، وحتى لا يعتاد الباحثون الشباب على اليسر في بداية حياتهم . ومن كان منهم عقيما فلقد يفيد بجهده ارشيف المكتبة واما صاحب الموهبة فلن يخسر شيئا بل قد يربح عملية «التنظيم الفعلي».

هذا هو المصدر السطحي «للتقاليد» الاكاديمية .. ومع ذلك فكم من الجرائم ارتكبت باسمها . كم من الحريصين عليها في بلادنا «اجتهدوا» في سرقة جهد الآخرين ومنابرهم وثمار ابداعهم . يحتفلون في كتاباتهم بالزي الاكاديمي الوقور احتفالا لا تنقصه الشعائر والطقوس ، وهو ــ أحيانا ــ ليس أكثر من قناع يخدع القارىء عن جرائمهم في سرقات لا تغتفر .

الا ان هناك مصدرا آخر للتقاليد الاكاديمية أكثر عمقا ، وهو «الحضور التاريخي للثقافة» .. فالبحث أيا كان موضوعه ، لا ينبغي أن يكون مرآة لثقافة صاحبه وحدها ، بل أن يكون حوارا مع العصر ، ومع التاريخ . ينبغي أن يكون حلقة موصولة بغيرها من الحلقات ، لا مونولوغا. ولا يتصور المرء كتابا عن نجيب محفوظ أو بدر شاكر السياب أو عن احدى قضايا الفكر والفن وكأن مؤلفه هو الالف والياء أو هو آدم النقد والثقافة . وليس هذا صحيحا رغم انه ــ في بلادنا ــ يحدث .

يحدث الامران معا : البحث العقيم الذي يحوّل الاطار الاكاديمي الى كهنوت يرهب ولا يقنع ، والبحث المغرور الذي يقدم نفسه على أنه بداية الكون وآخره . والمواهب الفكرية الحقيقية ضائعة بين الذين يسرقونها علنا باشارات مكتوبة توهم بالصدق والامانة ، والذين يسرقونها سرا باغفال ذكر أي مصدر ولو من قبيل معارضته .

بل ويتعرض البحث الاكاديمي في اللغة العربية ، لمشكلة اخرى ، لا يعرفها غالبا البحث العلمي في بلاد أخرى . انه يولد عندنا احيانا بعملية قيصرية ، كاضطرار الاستاذ الجامعي لان «يؤلف» بحثا للترقي من مرتبة الى أخرى . وكاضطراره لان يطبع محاضراته في «ملازم» تباع للطلاب .

والاضطراران كلاهما يبدوان تطفلا على جوهر العلم وروح الثقافة . فالمفكر الغربي اذا كان استاذا باحدى الجامعات ، فانه لا «يؤلف» تحت ضغط هذه الظروف . انه يكتب في موضوع ما لانه يريد الكتابة في هذا الموضوع وبالاسلوب الذي يناسبه وفي الوقت الذي يحدده ، أما الترقيات فليست بندا في جدول أعماله ، ولا تفيد الطلاب . ولكن النتيجة النهائية هي « بحث علمي » يضيف الى المعرفة سواء اضافت اليه درجة مالية او لم تضف . اما في بلادنا ، فأغلب المؤلفات الجامعية التي تكتب خصيصا لهذا الهدف أو ذاك ، فانها تكتسي الثوب الاكاديمي حقا ، ولكنها تخلو من الروح ولا تضيف شيئا . لذلك كانت معارك الفكر في جامعاتنا القديمة وجامعات الغرب الحديثة هي معارك العقل والقلب . بينما المعـارك في جامعاتنا العربية الراهنة فغالبا ما تدور حول «كرسي» .

أو انها تنتقل الى «الصحافة» . وهذه مشكلة أخرى . فلسبب ما لا زالت الكتابة في الصحافة من جانب المفكرين أساتذة الجامعات شيئا يدعو للرهبة أو الخوف أو الخجل . ذلك ان الصحافة شيء والفكر شيء آخر. ولم تكن الامور على هذا النحو في بلادنا قبل ربع قرن . كان «الاساتذة» هم الذين يكتبون في الصحف ولا يتحولون من باحثين الى صحفيين . وليست الامور على هذا النحو أيضا في البلاد الاخرى ، فأكبر الفلاسفة ــ لا الاساتذة ــ يكتبون في الصحف ولا يتحولون في عيون قرائهم أو جامعاتهم الى صحفيين .

وصحيح انهم في الغرب لا «يلجأون» الى الصحافـة الا كاجراء استثنائي ، كأن يبدي المفكر أو الفيلسوف رأيا في موقف تاريخي يعني الانسانية كلها أو حدث مصيري في حياة العالم . ذلك ان «الجامعات» و «دور النشر» و «مراكز الابحاث» هي القيادة الفكرية في العالم المتطور. أما في بلادنا ، وأتكلم عن الوقت الحاضر ، فقد تحولت الجامعات الى مدارس ثانوية (عالية) ولا علاقة لها بالمعنى القيادي للجامعة .. حيث الفكر

الحر والعقل ومختلف الاتجاهات تتصارع من اجل «الحقيقة» لا من أجل الوزارة أو «الكرسي» أو رئاسة القسم وعمادة الكلية .

وقد احتلت الصحافة العربية منذ حوالي ربع قرن مكانة الجامعات في القيادة الفكرية .. حتى «الاساتذة» أنفسهم غامروا وكتبوا في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية والأذاعة والتلفزيون .

اما الآن فقد ضاع الفكر الجديد بهذا الاسم ، بين صحافة لا تريده وجامعات تنفر منه . وأصبح المفكر العربي ضائعا بدوره ، وحيدا ، يبحث عن هوية ... لا علاقة لها ببطاقة الاقامة ولا بطاقة السفر ، بل بطاقة الحرية.

١٩٧٨/٥/٢٠

لا تحت خيمة .. ولا فوق بئر

التقيت منذ فترة بالناقد الفرنسي رولان بارت وكانت المناسبة «عربية» تماما ، فالمحتفل به كاتب عربي والمضيف هو البروفيسور جاك بيرك . قال لي بارت أنه يأسف لانه ليست لديه فكرة واضحة ولا غامضة عن الفكر العربي المعاصر ، وان هذا تقصير منه أو من غيره أو من الجميع، ولكنها الحقيقة .

ليس مهما بعد ذلك ما تشعب اليه الحديث .. فالاهم انه بعد يومين خرجت علينا صحيفة «باري ماتش» بمقال طويل لروجيه غارودي ــ المفكر الفرنسي المترجم كاملا وأولا فأول الى العربية ــ قال فيه ان مجموع الاسئلة التي طرحها على نفسه وعلى فرنسا وعلى العالم طيلة ثلاثين عاما قد عثر لها على جواب ، فجأة ، في احدى التجارب السياسية العربية المعاصرة . وقد أرفق مقال غارودي بصورة له تحت خيمة في الصحراء .

وكان غارودي منذ أكثر من عـام أصدر كتابا عنوانه « حـوار الحضارات » هو مجموعة محاضرات ألقاها في جامعة طهران . وينتهي فيها الى ان الحضارة «الغربية» الحديثة قد أفلست ووصلت الى نهاية الطريق المسدود ، وان الاسلام المعاصر يشكل أحد جسور الانقاذ لمواصلة التطور الانساني .

ومنذ اسبوع صدر لجاك بيرك كتابه «عربيات» أو «آفاق عربية» كما يجب أن يسميه ، وهو حوار طويل أجرته معه سيدة لبنانية لحساب

سلسلة تصدرها دار ستوك مع مشاهير العالم في مختلف مجالات المعرفة والعمل . وفي هذا الكتاب ــ كما هو شأن بيرك في جميع كتبه عن العرب ــ عرض حي وعميق لمشكلاتنا وقضايانا وهمومنا . ولكنه عرض نقدي لا يجامل الحق ولا يزيف الحقيقة .. فهو معنا كمشروع حضاري متصل الحلقات ، ولكنه يتوقف بقسوة ــ من أجلنا ــ عند أخطائنا وخطايانا .

هؤلاء الثلاثة : بارت وغارودي وبيرك ، يمثلون عدة نماذج رئيسية للعقل الغربي في موقفه من «العرب» . الاول ليس على الخط ، لا من الخارج ولا من الداخل ، ويمثل رغم ذلك الغالبية العظمى من المفكرين الاوروبيين ، مهما علت «صيحات» الاعلام المرئي والمسموع عن أزمة الطاقة وأزمة الشرق الاوسط والحوار العربي الاوروبي ورمسيس الثاني واهرامات الجيزة وزيارة القدس .. انهم يتابعون هذه الاشياء كلها بعين واذن المواطن العادي الذي يهتم وقد لا يهتم بما يسمع ويشاهد الا من قبيل الفضول . أما «العقل» فاذا كان سياسيا فهو يفكر في القوتين الاعظم خارجيا والقوى السياسية المتصارعة داخليا . واذا كان عقلا فلسفيا فهو يفكر في منجزات التكنولوجيا الحديثة وأثرها على نظرية المعرفة ، واذا كان مفكرا اجتماعيا فهو يفكر في اثر هذه المنجزات على البنى الاجتماعية. واذا كان ناقدا أدبيا أو روائيا او شاعرا فهو مهتم بعلم الجمال من الاغريق الى ناتالي ساروت . ولا شيء غير ذلك .

ان بارت الذي بدا «أقلية» في الجلسة العربية ، يمثل الاغلبية في الجلسة الاوروبية . على عكس بيرك مثلا ، الذي بدا «أكثرية» في الجلسة العربية ، بينما هو رمز لما هو أقل من الاقلية في مجتمع الفكر الفرنسي والغربي عموما .. انه في خاتمة المطاف صفحة أخيرة في كتاب الاستشراق الذي ألفه الغرب في عصور مختلفة لظروف وملابسات ، نشهد الآن مرحلة أفولها . والاستشراق بسلبياته وايجابياته لم يكن كتابا مقروءا في الغرب الا في أضيق الدوائر والحدود . كان ولا يزال في مرحلته النهائية ــ على

الصعيد العام ــ أشبه بالعلوم الاثرية النادرة التي يقبل عــلى مطالعتهــا المتخصصون .

أما غارودي فهو يمثل ظاهرة جديدة كليا . انها أبعد ما تكون عن «الجهل المطبق» بالعرب عند الغالبية ، وأبعد ما تكون عن «العلم» لدى الاقلية من المستشرقين .

ولكننا لا نظن ان الاسئلة التي طرحها على نفسه وفرنسا والعالم خلال ثلاثين سنة قد عثرت عــلى جوابها في هذه التجربة التي يشير اليهــا .. فأسئلته غالبــا ما كانت نظرية وماركسية في الشطر الاكبر من حيــاته ، وخليطا من الماركسية والمسيحية في شطرها الراهن . وهي أسئلة من طبيعتها ألا تجد جوابا في مجتمع عربي اسلامي معاصر لانهــا من حيث الاصل والمنشأ والتطور ، أسئلة خاصة بأوروبا وحضارتها .

ان التقييم الموضوعي الامين لاحدى التجارب ليس أمرا محرما على أحد وليس حكرا لاصحاب التجربة .. ولكن المبالغة في المدح كالمبالغة في الذم تعني اختلالا في الميزان يرجح كفة اللاعقل واللامنطق واللافكر .

ولا شك اننا بحاجة لان يعرف «الغرب» عنا شيئا غير النفط حتى لا نصبح فريسة الجهل عند ناقد كبير كرولان بارت ولا أسرى الاقلية التي يمثلها جاك بيرك . ولا شك اننا بحاجة الى الحوار الحضاري العميق بين الاسلام ومنجزات العلم المعاصــر لنضيف جديدا الى أسلافنا من رواد النهضة العربية الحديثة ولكن لا هذا ولا ذاك يمكن ان يتم بكتاب يصور نظاما ــ في ايران مثلا ــ وكأنه منقذ البشرية من هلاك الحضارة الحديثة.

.. وانما يمكن لهذا الحوار ان يتم بأمر واحد وحيد، هو اللقاء الندّي الحر بين العقل العربي الاسلامي ، والعقل الغربي المعاصر ، لا تحت خيمة ولا فوق بئر ، بل بعيدا بعيدا عن الموائد المعطرة برائحة النفط .

١٩٧٨/٥/٢٧

مغامرة المستقبل ... والرهان على الماضي

جبرا ابراهيم جبرا وعبدالرحمن منيف واميل حبيبي أبرز العلامات الرئيسية في التجديد الروائي العربي الراهن . مع غيرهم ، وهم قليلون ، يشكلون موجة الحداثة في الرواية العربية الجديدة .

قبلهم ، محاولات «كمية» لنجيب محفوظ ، لم تصل ابدا الى درجة التغيير الكيفي ، سواء في البنية الروائية أو في الرؤيا . ولم يكن مطلوبا من نجيب محفوظ أو سواه من الرواد ان يظلوا «روادا» الى الابد ، فالكاتب ، مهما عظم شأنه ، لا يتجاوز مقتضيات التاريخ .. وهو حين يكف رسميا عن العطاء ، فان ذلك لا ينفي عن عطائه القديم صفة الديمومة والاتصال عبر الآخرين ممن يجسدون مرحلة جديدة من نبض العصر .

بعدهم ، أي بعد جبرا ومنيف وحبيبي والآخرين ، محاولات «كمية» للشباب الحديثي التجربة والعمر والثقافة . وهي محاولات تتسم بكل صفات التجارب الاولى ، فبصمات الغير واضحة في تضاعيفها ، ولكنها عند أصحاب المواهب تتخذ اشكالا عديدة في التخفي ، ربما عنهم هم أنفسهم. والبصمة تختلف عن التأثر وعن سريان الموروث سريانا لا واعيا. والتجارب الاولى هي صراع الانا مع الآخر ، حتى تولد ويتسنى لها النضج .

اما جيل غادة السمان والطيب صالح وغسان كنفاني وجبرا وحليم بركات وعبدالحكيم قاسم ومنيف ومحمد يوسف القعيد وغالب هلسا واميل حبيبي ، فهو الجيل (مهما تفاوتت الاعمار والخبرات والمواهب

والتكوين الاجتماعي) الذي أحدث التغيير الكيفي في الرواية العربية .. بعد جيل نجيب محفوظ ، وقبل الجيل المقبل .

هو الجيل الذي ينجز ما سبق للشعر ان انجزه قبل ربع قرن .. فالشعر العربي «الحديث» والفنون التشكيلية العربية اسبق من «الرواية» العربية الجديدة بعقد من الزمان على الاقل . ولهذا السبق أسبابه التاريخية والاجتماعية والتراثية والفنية . ولكنهما معا ــ الرواية والشعر الجديدين ــ يؤكدان عدة ظواهر مشتركة في «الحداثة العربية» .

يؤكدان أولا ان «الريادة» في عصرنا ليست «فردية» تنسب، تبسيطا، الى أبي تمام او كوليردج أو أبوللينير أو رامبو أو مايكوفسكي أو أحمد شوقي .. ان ريادة الشعر العربي الحديث كريادة الرواية العربية الجديدة هي ريادة «جيل» يكمل بعضه بعضا ويظل ابدا قابلا للتكامل ، لا بمعنى النقص السلبي بل بمعنى العطش الدائم لامتلاك الروح .

يؤكدان ثانيا ان «الجيل» ليس فترة زمنية محدودة بالمقاييس المعتادة كعشر سنوات أو عشرين سنة ، بل مقياسه الاهم هو الرؤيا .. فما بدأه السياب في الشعر مثلا ليس بعيدا جدا عما ينجزه سعدي يوسف ، وما بدأه حجازي مثلا ليس بعيدا جدا عما ينجزه أمل دنقل . وفي الرواية تتكرر الظاهرة . لذلك فان ريادة البياتي والحيدري والملائكة لا تنفي مطلقا ريادة محمود درويش او ادونيس .. رغم الاسبقية الزمنية لفريق .. فالجيل الفني تتكامل ريادته في نطاق الرؤيا ، لا في حدود الزمن التقليدية .

ويؤكدان ثالثا انجيل الشعر والرواية فيالادب العربي«الحديث» هو جيل عربي، لا بالمعنى الايديولوجي لتعريف القومية.. فربماكان خليل حاوي قاميا عربيا وادونيس ليسكذلك، وربما كان تيسير سبول وأمين شنار ــ في الاردن وفلسطين ــ لهما «انتماء» يختلف قليلا أو كثيرا عن انتماء يحيى الطاهر عبدالله وادوار الخراط في مصر او الطاهر وطار في الجزائر من حيث مفهوم «الوطن» ومعنى «الامة» .. أقول ربما ، ولكن الظاهرة

الجديدة هي انه كما ان الجيل الحديث يتكون زمنيا من انتماءات متباعدة في الزمان ، فأنه يتكامل من انتماءات متباعدة في المكان .. فهو جيل «عربي» وليس مصريا او سوريا او عراقيا . في الماضي القريب كان الكلام ممكنا عن رواية مصرية واخرى لبنانية ، وكذلك عن الشعر . اما اليوم فلا سبيل — فني — لمثل هذا الكلام .. فالموجة الحديثة «عربية» من ألفها الى يائها ، سواء آمن بعض ابنائها بالعروبة ام لم يؤمنوا ، بل وسواء تحدثوا في أعمالهم عن مشكلات عربية أو لم يتحدثوا .. كان يسرف أحدهم في الحديث عن الذات والهم الفردي أو بيئتـه الضيقة ، فالرؤيا الروائيـة الجديدة — كما هو الحال في رؤيا الشعر — لم يعد تفسيرها ممكنا في اطار «الاقاليم» العربية .

وهما يؤكدان ، رابعا ، ان «النمط الحضاري» في التعبير هو سيد البناء الروائي والشعري ، جمـالا وفكرا ./ فرغم تناقضـات الاصول الاجتماعية والينابيع الايديولوجية لهذا الجيل ، الا ان «وضعه» بين حجري الرحى على مختلف المستويات ، هو محور رؤياه .. انه الانسان «الممزق» بين وعد الحرية ووهم العدل ، بين روح العصر وجسد الماضي ، بين كرامة الفرد المهدرة وتعميم شعار «الجماعة» الملوث بالدماء / ليس معنى ذلك انه لم يعد هناك يسار ويمين ومتفرعات كل منهما ، ولكن القياس الايديولوجي المبسط اصبح عسير المنال .. فالفروق التي كانت واضحة بين أعمال غائب طعمة فرمان وعبدالملك نوري وحنا مينة وعبدالرحمن الشرقاوي من ناحية، واعمال السباعي وعبدالحليم عبدالله وشكيب الجابري وعبدالقدوس من ناحية ثانية ، لم تعد هي الفروق التي تميز بين يوسف حبشي الاشقر في لبنان وكاتب ياسين او مالك حداد في الجزائر . اضحى المعيار أكثر تركيبا ونسيج الفكر — الجمال ، أمسى أكثر تعقيدا .. بحيث باتت «سوسيولوجيا الفورم» هي النافذة الوحيدة المطلة على عقل المبدع

ودقات قلبه . ولو اننا قمنا بعملية صعبة ، هي الجمع بين وليد مسعود ومرزوق وسعيد ومصطفى وغيرهم من رجال ونساء الروايات العربية الجديدة ، لشعرنا على الفور اننا بازاء « وجه واحد » تتكامل ملامحه وتتعمق وتزداد تألقا .. اذا لم تخدعنا الصنعة الروائية باحداثها ووظائفها وحركاتها ، واذا لم نخدع أنفسنا باسقاط سيكلوجي للذات او للخارج عموما على «داخل» العمل الفني . وهو الامر الذي كان مستحيلا وقوعه في الماضي القريب .. فالعلاقة بين أحمد عبدالجواد في ثلاثية نجيب محفوظ وبطل «الشراع والعاصفة» لحنا مينة وبطل «البيت الكبير» لمحمد ديب ، كالعلاقة بين أحدهم وأي بطل روائي لدوستويفسكي أو بلزاك . بل اننا لا نستطيع استكشاف «المبرر» لحضور «سوسن» في ثلاثية محفوظ و «ناتاشا» في «باسمة بين الدموع» لعبد السلام العجيلي ، معا في زمان واحد أو مكان واحد .

وضع الرواية العربية الجديدة ، كما كان الشعر الجديد ولا يزال ، مختلف أشد الاختلاف . انها لا تعلن نديتها للرواية الغربية بل تعلن الميلاد الصحيح لفن «الرواية» كابداع مستقل عن الحكاية والتاريخ والتحقيق الاجتماعي . كما انها تعلن ميلاد الرواية «العربية» فلا قيمة لاية مقارنة بينها وبين الرواية في الغرب . يكفي ان روايتنا نحن قد ولدت . وهي تعلن أخيرا ميلاد الرواية العربية «الجديدة» اي هذه التي أحدثت تغييرا كيفيا في التعبير الروائي عن الوجدان العربي الحديث . سبقتها مقدمات وتلتها تجارب ، ولكنها هي «التغيير» ذاته .

* * *

واذا كانت هذه الفروض التي أطرحها صحيحة (ولا سبيل للتحقق من صحتها الا بامتحان الاعمال الفنية ذاتها) فان ما سينبني عليها ليس قليلا : فسوف نضطر الى الغاء مشكلات نقدية كاملة تصبح لغوا اذا اعيد

تكرارها ، وسوف نضطر الى طرح أسئلة جديدة لم تكن قائمة من قبل .

ان «الفن» شعرا أو رواية لم ينتظر الجواب ، بل أقبل على المغامرة وراهن على المستقبل .. فهل يتخلف النقد مراهنا على الماضي ؟

١٩٧٨/٦/٣

مشكلات «التاريخ» ومعضلات «المستقبل»

اذا سألنا «ما هو التاريخ» فكأنما نسأل عن «المحرك الاول» للوجود، أي ذلك السؤال الملغز الذي يتجدد دوما تجدد الحياة ... بلا جواب ، فالعلوم الانسانية تتقدم بخطى سريعة وتتشابك وتتعقد ، بحيث ما كان من المسلمات بالامس لا يعود هكذا تماما مع فجر اليوم التالي .

/ من الاسئلة الفرعية ، مثلا ، على هامش التاريخ : متى يصبح «الحدث» تاريخيا ؟ اي متى يصبح «مادة» قابلة للبحث التاريخي ؟

في تاريخنا القومي نستطيع ان نطبق السؤال النظري ، على المرحلة الناصرية ــ كنموذج ــ هل يستطيع «المؤرخ» ان يتصدى لها الآن .. أم ان كل ما يكتب حولها منذ سنوات لا يزيد عن كونه تحليلات سياسية مع أو ضد ؟

ومن باب أولي ، هل تصلح المرحلة التي بدأت بغياب عبدالناصر الى اليوم ، مادة للمؤرخ ، أي للاستقصاء/والتنقيب/والتصنيف/والتبويب/ والفرز/والتوصيف/، فضلا عن الحكم والتقويم ؟

ان أي رد على هذه التساؤلات لا بد وان يتضمن جوابا محددا على السؤال ــ الام ، ما هو التاريخ ؟

فاذا كان التاريخ هو رصد مجموعة الوقائع السياسية في مرحلة ما وتحليلها ، فان ذلك من شأنه ان يتطلب بعض الضمانات : فهل وثائق هذه المرحلة كلها متوفرة ؟ ان بلدا كبريطانيا لا تفرج خزائنه في وزارة الخارجية

عن وثائقها الا بعد نصف قرن من عمر هذه الوثائق .. التي لا تهم تاريخ الانكليز وحدهم ، بل مختلف الدول التي تدخل معها بريطانيا في مفاوضات أو معاهدات ، أي الطرف الآخر في الوثيقة .

ومنذ فترة قرر مجلس الشعب المصري أيضا قرارا مماثلا ، لا يجوز بحكم القانون الاطلاع على وثائق الدولة الا بعد ثلاثين عاما .

بالاضافة الى ان جانبا من الوثائق «شفوي» غير مكتوب ، فما يهمس به مسؤول عربي في اذن زميله او اذن وزير خارجية اميركا ، يختلف احيانا كثيرة عن «خاتمة المطاف» المسجلة على أشرطة او ورق . بينما هناك احتمال ان هذه الهمسات هي الوثيقة التاريخية ، اما ما هو مسجل فليس أكثر رمزية من التوقيع نفسه .

وفي اطار تاريخنا القومي أيضا ، هناك «العدو» الذي تربض في خزائنه أهم وثائق الاتصالات السرية والعلنية بين بعض العرب وبينه ، وهو لن يتبرع بها خدمة للعلم والعلماء وللتاريخ والمؤرخين ، لاية جامعة أو مركز للبحث العلمي .

فكيف يمكن ان يتصدى المعاصرون للتاريخ المعاصر ؟ انها اشبه بالمهمة المستحيلة . ويكاد في ضوء هذا المفهوم للتاريخ ان تظل مهمة المؤرخ محصورة في «الماضي» البعيد .. لا علاقة له بالحاضر ، وبالتالي لا يستطيع أن ينير كثيرا ظلمة المستقبل .

ربما قيل ، يكفي انه يضيء ظلام الماضي الذي قد يفسر الحاضر ويتنبأ بالمستقبل . ولكن الحقيقة هي ان الاقتصار على رصد «مجموعة الوقائع السياسية» يحاصر المؤرخ غالبا في دائرة السلطة والحكم وفي اطار منهجي لا تصل الاستفادة منه الى أكثر من القول الشائع «التاريخ يعيد نفسه» . وهو « قول مأثور » ولكن لا علاقـة لـه بالعلم .. حيث اذا لم نستطع اكتشاف «القوانين» المضمرة في الظاهرة التاريخية ، لا يصبح ممكنا لاي مؤرخ من هذا النوع الزعم بأن بحثه ينير الحاضر أو المستقبل . وانما

سيكون عمله في الاغلب «متحفيا» .

من هنا كان جواب العلوم الانسانية في عصرنا ، وفي مقدمتها علم الاجتماع ، على هذا السؤال المزمن ، مغايرا .. يستوعب في ثناياه متغيرات العالم الحديث بدءا من تعريف السياسة ذاتها الى ثورة المواصلات ، الى معنى الماضي والحاضر والمستقبل . لقد تغيرت وسائل البحث العلمي وتغيرت أهدافه ، ومن ثم لم يعد التاريخ هو «الماضي» وحده ، ولم يعد محوره « مجموعة الوقائع السياسية » وحدها ، ولم تعد مادته هي (الوثائق) المتوفرة او حبيسة الادراج والصدور .

لقد أصبح المؤرخ المعاصر أكبر من أن يكون أمينا لمكتبة أو متحف أو ارشيف . أصبح كما كان «المؤرخ» دائما على مدى العصور ، رغم فوارق الازمنة والتطور ، حين يبحث عن الحقيقة الانسانية في الموال الشعبي والعادة الاجتماعية والنكتة والعمل الادبي والسلوك البشري والاحزاب العلنية والمنشورات السرية واقتصاديات الانتاج والاستهلاك وطرق التربية والتعليم وقيم الثقافة والجمال والاخلاق وادوات التعبير في كل منها ومظاهر تجسدها في الحياة اليومية للافراد والمجتمعات . أصبح المؤرخ مفكرا حضاريا لا مسجلا مزودا بميكروفون حساس لاصوات الماضي .

أصبح «التاريخ الاجتماعي» هو التاريخ الذي قد يحتاج الى الوثائق السرية والآثار المطمورة والهمسات المحبوسة ، ولكنها لم تعد مادته الوحيدة للمعرفة «التاريخية» . بل أصبح البحث الميداني لجزئيات المجتمع، والصحف اليومية وحتى الشائعات ، من المواد الاساسية للبحث التاريخي الاجتماعي . وأصبحت «وجهة النظر» التي تغربل ذلك كله هي الاداة الرئيسية لاستكشاف القوانين الفكرية والاجتماعية التي تحرك التاريخ نحو المستقبل . لذلك أصبح «علم المستقبل» جزءا لا ينفصل عن «التاريخ».

وأصبح فرعا هاما من فروع «علم الاجتماع» جزءا لا ينفصل عن

« التاريخ » .

لذلك ليست مفاجأة ان يكون هنـاك من كتب عن بواكير المرحلة الناصرية منذ عشرين عاما ، وتأتي الوثائق الآن لتؤكد ما كتب .. فالمؤرخ لم يعد محتاجا الى شهادة عيان او شهادة من الورق ، فالعصر يطالبه ــ على عكس المفاهيم الكلاسيكية ــ بأن يكون «حاضرا» في قلب الحدث . فاذا استعصى عليه ذلك للبعد الزمني فعليه ان «يستحضر» الحدث داخله . ومن هنا كان المحقق الصحفي العظيم في عصرنا هو الروائي الكبير والمؤرخ الكبير معا .. ذروة الخيال واحشاء الواقع معا . وليس مهما ان تبرهن الايام على عكس ما ارتآه المؤرخ المعاصر ، فحتى ما سيثبت خلوه من الحقيقـة الجزئية هو جزء من الحقيقة الاشمل .. فالمعلومة غير الصحيحة تشير في وجهها الآخر الى معلومة صحيحة . ان «الاعلام المصري» في حرب ٦٧ مثلا كان «كاذبا» ، ولكنه في كذبه كان يشير الى «حقيقة» أخرى .

والتاريخ ليس كتابا مقدسا ونهائيا، فهو يعيد كتابة نفسه على الدوام.. وما يعد اليوم «كتابا في التاريخ» هو مجرد مادة للمؤرخين القادمين ، ستعاد صياغتها وتتكامل ــ أو لا تتكامل ــ مع الزمن .

فالتاريخ الحقيقي هو الحياة ذاتها . ولن ننتظر الموت حتى «تؤرخ» للحياة ، بل نعيشها ونموت ليعيشها غيرنا من بعدنا على نحو آخر ، وهكذا.

ان الدعوة الى «الانتظار» على الحدث التاريخي حتى «ينضج» هي بطاقة «نعوة» للتاريخ .. فكل حدث في أي وقت صالح لان يكون مادة تاريخية ، كأي كلمة في اللغة ، تصلح بذاتها ان تكون مفردة في بيت من الشعر . ولكن الاهم هو كيف يعالج الحدث معالجة تاريخية ، وكيف تتحول الكلمة ، أية كلمة ، الى شعر .. فالانشاء السياسي ليس تاريخا سواء كتب عن الماضي او الحاضر . والتحريض السياسي ليس تاريخا سواء كان ضد الفراعنة الاقدمين أو مع الفراعنة المعاصرين .

أزمة الأزمات ... يا وطني

ما ان تفتح مجلة ثقافية هذه الايام الا وتطالعك «أزمة الفكر العربي» في كل صفحة ، سواء كانت عنوانا رئيسيا او هامشيا ، موضوعا او فكرة ، كلمة مكتوبة او نقطا سوداء فوق حروف بيضاء .

والمثير للدهشة ان وكلاء النيابة والقضـاة الذين يحاكمون الفكر العربي ، هم المفكرون العرب أنفسهم . والاكثر اثارة ان المحاكمة ليست ، مثلا ، من باب النقد الذاتي ، بل كل مفكر يتهم الآخر ، وكل اتجاه يتهم نظيره ، وكل تيار يتهم ما يقابله .. ولسان الحال أشبه ما يكون بالدفاع عن النفس ، فأنا على صواب وغيري على خطأ ، ولو ان الجميع ، نعم الجميع ، اندرجوا في التيار الذي أمثله ، لما كانت هناك أزمة في الفكر العربي المعاصر .

وهكذا ، فالمحاكمة تتم غيابيا ، والحكم فيها مؤجل الى أجل غير مسمى .. حتى يقع «حادث» سياسي في أقصى المشرق او أقصى المغرب ، في الشمال او الجنوب ، فيقدم جوابا لا يخطر على بال كل الاسئلة ، ويقدم اتهاما يشمل القاضي والمدعي العام والمحامي جميعا وبغير استثناء . فالازمة الحقيقية هي «المحاكمة» ذاتها ، وجوهرها الثابت هو ادعاء العصمة للذات، ونسب «الجريمة» الى الآخرين .

هل معنى ذلك انه ليست هناك «أزمة» في الفكر العربي المعاصر ؟ الجواب البديهي : كلا ، فطالما ان المجتمع العربي يعاني اهوال ازمة الازمات

في تاريخه الحديث ، فمن الطبيعي ان ينعكس ذلك بأشكال متعددة تبدأ من البساطة الى التركيب ، في مرآة الثقافة العربية الراهنة . اي ان «الاصل» ليس هو الفكر ، بل المجتمع وأنظمة الحكم ، والمجتمع ليس حاصل جمع الافراد ، بل هو علاقات الانتاج الاجتماعي ، هو محصلة توازن القوى بين الطبقات الاجتماعية ، والازمة الاجتماعية المعاصرة في الوطن العربي ، ليست أزمة طبقة بعينها أو وسيلة انتاج محددة ، بل هي أزمة المسافة الهائلة بين قوى الانتاج ووسائله . وهي المسافة التي تجسدها مجموعة «القيم» في الفكر والسلوك . لذلك فهي أزمة شاملة ، وليست جزئية او عابرة .

الوجه الآخر للعملـة انها «أزمة حكم» لا بمعنى السلطة السياسية وحدها وانما بمعنى الجهاز الاجتماعي للدولة العربية المعاصرة .. فنحن لم نستورد الحكام كافراد ، بل أثمرتهم ظروفنا نحن وعوامل تطورنا الداخلي. ونظام أي حكم لا يبدأ بالقصر وينتهي عند اعتابه ، بل هو يبدأ من القمة وينتهي بشرطي السير، مرورا بمئـات الاجهزة والمؤسسات والعلاقـات والافكار والمشاعر والرواسب .. فكما ان المجتمع هو هيكل الانتـاج والخدمات ، كذلك نظام الحكم هو جهاز الدولة البيروقراطي الضخم ، بمن يتربع على قمته ومن يقبع عند السفح . ولذلك أيضا كانت أزمة الحكم كأزمة المجتمع هي أزمة شاملة ، وليست جزئية أو عابرة ، ليست أزمة فرد أو مجموعة أفراد على قمة السلطة ، بل هي أزمة المسافة الهائلة بين جهاز الدولة وغاياته . وهي المسافة التي تجسدها مجموعـة «المبـادىء» في الوعي واللاشعور والتي تحرك الموظف والمعلم والنائب والمدير والخفير والوزير وقاطع الطريق جميعا .

مجموعة القيم الناشئة عن المسافة الاولى بين قوى الانتاج ووسائله (أزمة المجتمع) هي التي تشكل «الاساس» و «القاعدة» لازمة الفكر

العربي المعاصر .. فهذا الفكر ليس مونولوغا داخليا عند المفكر ، كما انه ليس حوارا مع الاشباح ، بل هو حوار مع المسافتين المروعتين ، اي مع الوسائل والغايات ، مع ازمة المجتمع وازمة الحكم .

والمفكر العربي كطبيب النفس لا يخلو ولو قليلا من المرض النفسي الذي يعالجه ، فهو ليس بعيدا عن هيكل الانتاج ولا عن جهاز الدولة، سلبا وايجابا . انه ليس كائنا ميتافيزيقيا معلقا في الفضاء ، ليس خارج الازمة ولا خارج المحرقة .. وبالطبع فهو ليس شهيدا ، بل هو قاتل وقتيل . ولكننا نظلمه ظلما فادحا بلا معنى حين نضع رأسه على منصة الاتهام ، وكأنه الالف والياء في أزمة الحياة العربية المعاصرة . انه جزء منها لا ينفصل ، ولو سكن المريخ ، جزء من الأسباب وجزء من السياق وجزء من النتائج . ولكنه بالقطع ليس العنوان الرئيسي ولا الوحيد .

من هنا كان «الافتعال» هو أول سمات الالحاح على ما يسمى بأزمة الفكر العربي .. وهو الالحاح الذي يدفعنا للتساؤل ، متى خلا الفكر ــ أي فكر ــ من الازمات ؟ أليس هو كالحياة ذاتها الدائمة التأزم والتجدد ؟ ولو اننا راجعنا ملفات الفكر العربي الحديث من فجر النهضة الى اليوم ، ألن تطالعنا «الازمات» في تعبيراتها المختلفة وصياغاتها المتنوعة وتركيباتها المتعددة ؟ وأليس هناك قدر من «الكذب» حين يصرخ البعض منا هذه الايام «الازمة!» ثم نفتح المجلات الادبية خلال ربع قرن فنجد الصراخ ذاته .. فمتى كنا بلا ازمات ؟

وأليس نوعا من «الانكار» الذي يشوه الوجه الاكثر انارة في حياتنا، أن نتجاهل منجزات حقيقية في ثقافتنا المعاصرة ، في مختلف فروع الفن والمعرفة ؟ أليس الغاء لعقلنا وضميرنا وفكرنا كله ، حين يلغي بعضنا الآخر وحين ينفي أحدنا الآخر ؟

على السؤال الاول أجيب بأن الثقافة العربية المعاصرة ، بمختلف

مدارسها واتجاهاتها، وفي خط مضاد لتدهور «المجتمع» و«نظام الحكم» قدمت شيئا يخترق قلب الازمة .. فالمسرح التجاري والسينما الرخيصة والدعوات الاقليمية المزدهرة في بعض أقطار الامة العربية ، ليست هي الوجه الاصيل ولا الحقيقي للفكر العربي والفن العربي . ان مئات العروض واللوحات والافلام والمؤلفات القادمة من بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وتونس وطرابلس والرباط والكويت ، تقول ان هناك «وجها آخر» للثقافة العربية .. يشبه مع الفارق ذلك «الوجه الآخر» الذي اعطاه دوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف وترجنيف للقرن الروسي التاسع عشر في ظل القيصرية ذاتهــا .. فالثقــافة ليست مرآة مصقولة للواقع ولا هي عدسة فوتوغرافية ، بل هي خلق للواقع الجديد من أحشاء الواقع القديم وانقاضه، خلق واكتشاف .

وبهذا المعنى يمكن القول بضمير مستريح ان الفكر العربي المعاصر لم يتخلف عن مسؤولية الازمة الشاملة التي يعانيها الوطن والمواطن ، وانه قد عالجها بقدر ما اتيح له من الضوء ، وانه كان في ذلك أحد أبرز الشواهد على اننا أمة لا تموت .. فاذا علقت به بعض الشوائب والنقائص والثغرات، فذلك لا يعني انه «الازمة» ، وانما يعني اتصاله الوثيق وارتباطه الذي لا ينفصم بتراب هذه الارض . اننا في حقيقة الامر نعايش تباشير فجر جديد لنهضة جديدة ، على عكس كافة المؤشرات السياسية والاقتصادية .

لماذا اذن يقلب بعضهم ــ وما أكثرهم ــ الصورة ، حتى لتبدو سوادا في سواد ؟ لان هذا البعض النرجسي المغرور حتى المرض ، ليس لديــه استعداد لتأمل «الرأي الآخر» فضلا عن التفاعل معه .. فادعاء العصمة والصواب المطلق ، هو في الحقيقة ، انعكاس غير مباشر لسيطرة «الصوت الواحد» في أنظمة الحكم . فرغم اية شعارات يرفعها هؤلاء الذين لا يرون غيرهم ، ورغم تناقضهم مع الانظمة احيانا ، فانهم «نموذج» لاحد جوانب

الازمة ، وهو رفضهم الداخلي لفتح باب الاجتهاد . يظنون انفسهم الشمعة الوحيدة ، وهم جزء من الرياح التي تطفىء كل الشموع .

.. وطوبى لمن يرى الضوء الخافت في يد غيره ، ويسارع الى اشعال شمعته اذا كانت لا تزال تحتفظ بقليل من الزيت .

١٩٧٨/٧/١٥

التدهور نعم ... لكنه الصعود أيضاً

ألف دليل ودليل على «تدهور» الثقافة العربية ، قالوا لي معاتبين . فالقضايا التي نوقشت منذ قرن لا زالت كما هي ، وكأننا أهل الكهف ، فلم تتقدم خطوة واحدة على الطهطاوي أو محمد عبده أو طه حسين . بل وما كان يعد من البديهيات يناقشونه في وضح النهـار ، أصبح من المحرمات التي يهمس بها الناس على وسادة الليل . وانتهى ، نعم ، انتهى عصر العمالقة، فلم يعد المفكر الجديد يملك أية سلطة على الرأي العام في ظل السيطرة المروعة لاجهزة الاعلام • وأصبح كل من لديه «كلمة حق» اما في السجون او في المنفى او في مستشفى الامراض العقلية او تحت وطأة المخدر او في غياهب الصمت . فهل ذلك كله يبشر بأية «نهضة» في المستقبل المنظور ؟

والعتاب رغم قسوته مهم، حتى وان اختلفنا في تقدير الامور . ويختتم المعاتبون «الصورة السوداء للثقافة العربية» كما يسمونها بتعليق يقول : نعم هناك نهضة وسقوط في تاريخنا ، ونحن الآن في احدى مراحل السقوط المدوي . بعضهم يؤرخ لهذا السقوط بعشر سنوات أي انه يقرنه بهزيمة ١٩٦٧ والبعض الآخر يراه منذ ربع قرن أي مع الانتفاضات العسكرية التي شملت العالم العربي، والبعض الاخير يمتد به التاريخ الى منتصف الثلاثينات عشية الحرب العالمية الثانية . فلا يرى من النهضة سوى فجرها الاول في القرن الماضي .

ولا شك اننا حين نتلفت حوالينا نكتشف دون عناء كثيرا من الظواهر

التي يشير اليها هؤلاء على انها خيوط النسيج الاسود لثقافتنا المعاصرة . ولكننا حين تتخذ صورة شاملة للثقافة العربية ، ينبغي الحرص على التقاطها كاملة من ناحية وفي حركتها من ناحية أخرى .

وسوف نكتشف حينذاك ، انه بعد عصر الانحطاط الطويل الامد بين انهيار الدولة الاسلامية الاولى وسقوط الخلافة العثمانية، لم تعد «النهضة» في حياتنا مرحلة بعينها ولا السقوط ، بل منذ يقظتنا القومية الحديثة ، نلاحظ ان النهضة والسقوط يتداخلان في المرحلة الواحدة بشكل مثير . غاية ما هنالك ، ان أحد وجهي الصلة يغلب على المرحلة حينا ، فيختفي الوجه الآخر تحت السطح ، ولكنه لا يزول ... فمرحلة حكم محمد علي مثلا هي « النهضة الاولى » وهي أيضا السقوط الاول . والمرحلة ما بين سقوط دولة محمد علي وحتى الاحتلال البريطاني لمصر هي مرحلة تدهور ، ولكنها مرحلة « النهضة الثانية » أيضا ، عرفت الثورة العرابية والاصلاح الديني وتحرر المرأة وبقية محاور النهضة . وثورة ١٩١٩ وما ظهر حواليها من ثورات عربية ، هي « النهضة الثالثة » ، ولكنها السقوط الثالث أيضا من هزيمة العرابيين الى توقيع معاهدة ١٩٣٦ مع الاحتلال . والاربعينات الذهبية من هـذا القرن في مصر والعراق على وجـه الخصوص ، حيث ارهاصات التجديد والحداثة ووحدة الفنون هي ذاتها اربعينات القهر والطغيان والفساد والهزيمة العربية الاولى في فلسطين ، والمقدمة الاولى أيضا لثورة تموز ١٩٥٢ .

وهكذا ، فليست هناك « عصور » أو « مراحل » للنهضة واخرى للسقوط ، تقوم بينها الحواجز بما يشبه تطور الغرب منذ خمسة قرون ، وانما تتداخل النهضة والسقوط في حياتنا الفكرية والسياسية على السواء تداخلا معقدا لا سبيل لتبسيطه وتجزيئه ، والقول بعدئذ ها هي الصورة الثقافية لجيلنا .

كلا ، فهذا الجيل رغم انف القهر والعدوان الاجنبي والاستبداد

الداخلي والمطاردة ، هو الذي احيا الشعر العربي بعد موات محقق ، وهو الذي أقام الاركان الاساسية للمسرح العربي الجديد ، وهو الذي شيد أعمدة السينما العربية الجديدة ، وهو الذي عانى ويلات الخلق الروائي الجديد ، وهو أيضا ــ رغم أنف الطغيان والجنون والعواصف ــ الذي تجاوز أفكار الاولين ولم يخضع للمحرمات .

ولم يعد لدينا «طهطاوي» واحد ، بل مئات ، وربما ألوف والارجح ان أحدا ممن ينعون الثقافة العربية الحديثة لا يسمع بهم ... لان العصر الذي أثمر الطهطاوي كان عصرا بسيطا ينجب الفرد ويلد النبوءة الفردية .

اما عصرنا فهو عصر فريق العمل ومراكز الابحاث والدراسات الميدانية ومعاهد البحث العلمي والجامعات . ان اربعين كتابا نقلها الطهطاوي الى العربية بمفرده ــ وقد أدت دورا رياديا لا ريب فيه ــ يستطيع نقلها الآن ، وأهم منها بكثير وأشد تعقيدا ، فريق عمل من المترجمين العرب في عــام واحد . ورحلة الطهطاوي الى باريس التي سجلت في أهم اعماله ، أضحت الآن رحلات أكثر تشابكا وغنى ، يقوم بها يوميا عشرات المثقفين العرب ، احيانا دون ان يتجشموا عناء السفر . تجديدات الامام محمد عبده في الفكر الديني أساس بالغ الاهميــة ، ولكن المثقفين العــرب المعاصرين والمعاصرين جدا بنوا فوق هذا الاساس ألوف الطوابق وناطحات السحاب الفكرية ... ما لا يخطر على بال محمد عبده ولا على بال عصره . شكّ طه حسين وعلمانية سلامة موسى واعتداد العقاد وغيرها من « الامثلة البارزة » على عظمة رواد النهضة أصبحت بالفكر والفعل من الذكريات الجميلة ، قياسا الى ما تقدمه مئات البحوث والاجتهادات من مناهج وتيارات تغييرية، لا تقل في مجموعها شجاعة وريادة وعمقا عن منجزات الرواد ... وتتفوق عليهم أحيانا ، اذ لم ننس فوارق المناخ السياسي بين السلطة ايامهم والسلطة أيامنا .. لقد تراجعت غالبيتهم العظمى أمام أخف الضغوط ، وتزلزلت عقول البعض الآخر ، فلم يعد طه حسين الى ديكارت مرة أخرى ، ورفض الشيخ

علي عبد الرازق ان يطبع كتابه « الاسلام وأصول الحكم » الا بعد وفاته وبعد مضي أربعين عاما على وفاة الملك فؤاد .

اما في عصرنا ــ وفي ظل أبشع مراحله الاخيرة وأكثرها طغيانا ــ فقد ناقش المفكرون العرب تاريخنا كما لم يناقشه غيرهم من قبل ، واصطدموا بأنظمة الحكم في بلادهم كما لم يصطدم غيرهم من قبل ، وابدعوا في مختلف الآداب والفنون ، مـا يتجاوز توفيق الحكيم ونجيب محفوظ والجواهري وبدوي الجبل وغيرهم من «العمالقة» الاحياء ، فضلا عن الذين أصبحوا في ذمة التاريخ .

ان أية «شجاعة» في ماضي هؤلاء لا تقارن بشجاعة اي شاعر معاصر في السجن أو في المنفى أو سراديب الغربة داخل الوطن . ان أي «تأصيل» قاموا به باسم التراث لا يقارن باحيـاء التراث الذي قـام به المبدعون المعاصرون لا في تحقيقاتهم ودراساتهم فحسب ، بل في بعث القديم حيا في قلب قصيدة أو رواية أو مسرحية . ان أية «معاصرة» نادوا به باسم الحداثة والتجديد والحضارة ، لا تقارن بانقلابات التحديث الخلاق التي قادها المعاصرون من جيلنا والاجيال الجديدة ، في مناهج الفكر وميادين الفن على السواء .

لكن القضية هي ان البعض منا ــ بسبب الشيخوخة الواقعية أو الذهنية ــ لم يعد يرى سوى الماضي ، فاذا التفت صدفة الى الحاضر لا يقدر الا على رؤيته شبحا أسود ، اما المستقبل فلا يراه على الاطلاق طالما ان القدم قريبة من حافة القبر ... هؤلاء يبصرون ما «كان» على انه البداية والنهاية.

والقضية من جهة اخرى ، ان البعض منا لا يميز بين طبيعة العصور المختلفة ، فعصر «الفرد» الذي كان يبدو فيه «عملاقا» قد انتهى في العالم كله ، لا في بلادنا فحسب ... والناس في الغرب لا يولولون على «عصر الرجال» كما يدعوه بعضنـا ولا يتباكون على اطلالهم الفكرية كما يفعل بعضنا الآخر . انهم يقرأون مئات من تولستوي ومئات من بلزاك ومئات

من شكسبير ، عظمتهم انهم ليسوا تولستوي ولا بلزاك ولا شكسبير ، بل ابناء وبنات العصر الجديد دون زيادة أو نقصان . بل «العلم الطبيعي» نفسه أصبح أنبياؤه من مفكري العصر وجنوده المجهولين ، فأضحى التلفزيون والسينما من مقومات الفكر الجديد الذي لم يخطر على بال شوامخ الفكر القديم . التلفزيون والسينما ليسا مجرد «آلات» تقرب المسافات ، ولا مجرد «شاشات» تعكس صور متحركة ، بل هما جزء لا ينفصل عن حركة الفكر والخلق ، العقل والوجدان .

والقدماء يظلون أبدا عمالقة ، ولكننا في «العصر العملاق» نصافح أحفادهم بطريقة جديدة .. أحيانا لا نعرفهم ولا نراهم ولا نسمع بهم ، لكنهم موجودون بطريقة أخرى . فاذا لم ير البعض « نهضة » الثقافة العربية المعاصرة ، ولم ير سوى « السقوط » فعذره ان تقدم العمر (الواقعي أو الذهني) يضعف البصر والسمع . وتلك طبيعة الاشياء .

١٩٧٨/٧/٢٢

نحن ... و « النموذج » الآخر

كثيرون من ادبائنا يحزنون بينهم وبين أنفسهم ، وأحيانا يطفح الكيل فيعلنون حزنهم على الملأ من ان «العالم» لا يعترف بهم ، أو انهم لم يصلوا بعد الى «العالمية» التي تفسح لهم مجـالا واسعا عـلى المسرح الثقافي «الانساني» ، سواء في شكله الرسمي كنيل الجوائز الدولية ، أو في اشكاله غير الرسمية كالترجمة الى اللغات «الحية» .

وبين ادبائنا أيضا من يفرحون غاية الفرح حين تشير الى اسمائهم مقالة مستشرق بأحرف لاتينية أو سلافية ، ويصل ببعضهم الفرح الى حده الاقصى حين تترجم له ، احدى دور النشر «الاجنبية» عملا ما .

وقبل الاقـامة المؤقتة في الغرب كانت لنـا وجهة نظر في هـذه «المصطلحات» كلها : العالمية ، الانسانية ، اللغات الحية ... الخ . وبعد الاقامة المباشرة لفترة طالت نسبيا في أوروبا ، يتأكد للمرء ان ما كان هاجسا لديه هو أقرب الى حقائق العلم ومعطيات الواقع الموضوعي . فلست أرى — بكل اخلاص — معنى لحزن الحزانى ولا مبرر لفرح الفرحين .

هذه حيثياتي بايجاز غير مخل :

● أن أوروبا أو الغرب عامة ليس هو «العالم» . ولقد شاع هذا التعبير مرتين في التاريخ : المرة الاولى حين «استوردت» أوروبا المسيحية من الشرق الاوسط ، وسمت نفسها «العالم المسيحي» . كان المصطلح يقصد تحديدا ذلك الجزء من العالم الذي يخضع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية

والاقطاع الاوروبي معا . بينما كانت هناك «مسميات» أخرى في الشرق والجنوب والشمال ، حذفت من القاموس الغربي لمجرد انها لا تخضع «للنموذج» الاوروبي في الفكر المسيحي .

والمرة الثانية بدأت مع نشأة الرأسمالية حيث أصبح «العالم» هو سوقها ، وأصبحت أوروبا هي «النموذج» الاجتماعي للتطور الحضاري والنهضة ، وأمسى كل جزء من العالم الشاسع في حجم الكون يقاس بمدى قربه أو بعده عن هذا «النموذج» .

وكان من الطبيعي ان يقع المثقفون في أجزاء عريضة من العالم قدر عليها «التخلف» الذاتي والموضوعي (أي بفعل عوامل التفكك الداخلية وعوامل القهر الاستعماري الاجنبي) في هذا الخطأ المزدوج : الاقتناع بصحة المعيار الاوروبي على أنه «النموذج» العالمي أو الانساني ، ومن ثم الاستفسار حزنا : متى نصبح عالميين ، أو الصياح فرحا اذا ترجمت لاحدنا دار نشر غربية عملا ، ها نحن ذا أصبحنا عالميين ، فلماذا لا نحصل على جائزة نوبل أو غيرها من جوائز المجتمع الدولي ؟

● ان تصديق الادعاء الغربي بأن أوروبا (وأميركا معها) هي «النموذج» هو المأساة بعينها ، فهو تأكيد من جانبنا بصواب مسيحية «العالم» القديم ورأسمالية «العالم» الجديد . وتجاوز التخلف لن يكون مطلقا بطلب انتساب الى «نموذج» الآخر ، وانما يخلق «نموذجنا» نحن ... فالعالم قديما وحديثا أكثر اتساعا من أوروبا وتاريخها وثقافتها ... هناك عوالم ، على مر التاريخ ، لا حصر لها ، و «نماذج» ثقافية لا تقع تحت حصر . وليس هناك خلق من العدم ، لا بالنسبة الينا ولا بالنسبة اليهم ، فكما أخذوا عن ألف ليلة وليلة واساطير الشرق القديم ، وكما أخذوا عن التوراة ذاتها التي لا تخصهم أصلا ، وعن الانجيل نفسه الذي لم تؤلفه حضارتهم ، كما أخذوا الموسيقى والعمارة وأحيانا التراجيديا والرقص والنحت عن الفراعنة والسومريين ، كما أخذوا عن ابن خلدون وابن رشد

والفارابي ، يحق للذين «تخلفوا» عن ركب الحضــارة ان يتفاعلوا مع ميراثهم وميراث غيرهم من دون عقد أو مركبات نقص . ومن دون «نسخ» أو «تقليد» لنموذج «عالمي» معاصر ، هو في الحقيقة «نموذج غربي» وليس عالميا بأي معنى . انه نموذج « خــاص » في التطور الاجتماعي والثقافي ... ومحاولة نسخه أو القرب منه هي محاولة كاريكاتورية تدعو الى السخرية لا الى الاحترام ، فالبعد عن الاصالة هو بعد عن «الخلق» الذي هو بدوره بعد عن «العالمية» . أي ان العكس هو الصحيح تماما ، فمحاولة «التقرب» من النموذج الاوروبي تجربة محكوم عليها سلفا بالابتعاد عن العالمية الحقيقية ، فلا هي تجربة أوروبية ولا هي تجربة عربية أو صينية أو هندية . انها ليست تجربة على الأطلاق ، اذ هي تخلو من معاناة الاكتشاف للنموذج الخاص .

● ليس معنى ذلك ، انه ليست هنــا عالمية في الثقــافة ، وأحب أن ادعوها «انسانية» . هناك ثلاثة معاني : الاول هو الجانب «العام» في كل نموذج أو تجربة من أي مكان في العالم ، أي محصلة الخبرة البشرية في هــذا الفرع أو ذاك من فروع العلوم الانسانية أو الانواع الادبيــة ... فالانغلاق داخل التراث الذاتي أو المحلي او الوطني او القومي هو تنكر للانتماء الانساني وانسلاخ مستحيل الخلق عن الاسرة البشرية ، وكأننا في أحسن الاحوال «غيتو» عنصري أو حفريات حضارية أو آثار منقرضة .

والمعنى الثاني هو مخاطبة «الهم» الانساني في هذا الكون ، باعتبار الانسان هو كنز الكنوز في هذه الدنيا ، وهو بين الموجودات قيمة القيم .

والمعنى الثالث هو نقيض التجريد الذي يتوهمه البعض ذروة العالمية، فالتخصيص العميق هو المقدمة الاولى غير المتعمدة الى العالمية ... تولستوي كتب أدبا روسيا في عمق أعماق الارض الروسية ، دوستويفسكي كتب أدبا روسيا في عمق أعماق الروح الروسية ، تشيكوف كذلك .

وثلاثتهم علموا أوروبا ، فعندما يحفر الانسان في قاع أرضه الوطنية

يصل بالضرورة الى سماء العالم ، لا سبيل الى «العام» ـ لا العالمي بالمعنى الاوروبي ، العام الانساني ـ الا عبر الخاص جدا والبالغ الخصوصية حيث يلتقي البشر في خاتمة المطاف عند كينونة واحـدة لا تفرق بينهـا الجغرافيا ولا التاريخ ، لا الازمنة ولا الامكنة . فالاداب العظيمة التي تجاوزت الزمان والمكان ليست آدابا «مطلقة» بل هي آداب نسبية غاصت في وحل الزمن وطينة المكان حتى العنق وما فوق العنق ، فاخترقت قشرة الارض وسطعت في ضوء الشمس ، تبعث الحرارة والنور لكل البشـر وكل الازمنة .

● الكثير من آدابنا العربية وفنوننا ليس «عالميا» . بهذا المعنى ... لا بالمعنى الاوروبي ، بل بسبب اقترابه احيانا من النموذج الاوروبي . ان العلامات الثلاث السابقة للطريق نحو «العالمية» ـ أي الانسانية أكرر ـ لا علاقة لها بالمركز الجغرافي أو اللغة.. فأكثر من ٩ر٩٩ من كتّاب «الغرب» المعاصر ليسوا عالميين ، وأكثر من ٩ر٩٩ من الذين يكتبون بالفرنسية او الانكليزية غير معترف بهم في بلادهم نفسها ، يقرأهم الناس في المترو ويتركون كتبهم على المقاعد ، لمجرد التسلية وملء الفراغ . وهناك ملايين من الصينيين لا يعرفون من كتاب فرنسا سوى مالرو ، وينسى ملايين الهنود الشاعر الانكليزي رديارد كبلنغ عن ظهر قلب ... فاللغات «الحية» ليست هي فحسب لغات الامبراطوريات الاستعمارية ، والعالم ليس هو لنـدن وباريس وموسكو ونيويورك .

ـ ونحن بعيدون عن العالمية بقدر ابتعادنا عن القـاهرة والخرطوم وبغداد ودمشق وبيروت والرباط وطرابلس والجزائر ، ونحن بعيدون عن العالمية بقدر ابتعادنا عن أسرار اللغة العربية وكنوزها المخبوءة ، ونحن بعيدون عن العالمية بقدر ابتعادنا عن «الهم» الانساني أينما كان .

وقد يكون بيننا ـ واعتقادي انه موجود ـ من تتوفر فيه كل صفات العالمية الحقيقية ، ولم يكتب اسمه قط بالحروف اللاتينية في أية صحيفة

أو كتاب «عالمي» . وبيننا أيضا من يترجمون الى لغات أجنبية عديدة ، ولا علاقة لهم بالعالمية من قريب أو من بعيد ..

ولا شك ان بعضنا ممن نقلت اعمالهم العربية الى لغات أخرى يستحقون ذلك عن جدارة لا تقل عن استحقاق أقرانهم من أبناء هذه اللغات ... لكني استبعد « اللغة » ذاتها كشرط لعالمية الادب وانسانية الثقافة ، كما استبعد « البيئة » أيضا . وهما الشرطان الوهميان اللذان يبرزهما الاعلام الثقافي الغربي ، وكأنهما مبرر العالمية الوحيد ، وهما أيضا الشرطان الوهميان اللذان ينجر وراءهما بعض ادبائنا ومثقفينا . والخدعة كامنة في «النموذج الغربي» الذي يستميت الغربيون في تسويده حتى يظلوا هم السادة ، فاعتمادهم هذا النموذج ، معيارا ــ سواء بالجوائز أو الاعلام او المؤتمرات ــ وهم يعلمون يقينا ان القرب منه كالابتعاد عنه انسلاخ عن الاصالة والمعاصرة معا ، هو استمرار في الاستعمار الثقافي والابقاء علينا في دائرة التخلف .

ان تعدد النماذج الثقافية هو المشروع الانساني الوحيد الجدير بالايمان والخلق والابداع ... اما التقوقع بين جدران البيت القديم أو محاكاة بناء البيت الاوروبي ، فهما الطريق المزدوج ، الى الضياع .

١٩٧٨/٧/٢٩

ساخارنسكي لم يخرج عارياً في الشتاء

من حق اليسار الفرنسي ان ينافس اليمين الفرنسي في الهجوم على الاتحـاد السوفيـاتي . ومن حق اليسار الفرنسي أن يثبت للبرجوازية الفرنسية حسن نواياه تجـاه الحريات الديموقراطية . ومن حق اليسار الفرنسي أن يعلن بألف لسان ولسان انه ليس معاديا للسامية .

ولكن الترجمة العملية لهذه الحقوق ضلّت طريقها في التظـاهرة الصاخبة التي نظمها اليسار الفرنسي ... الى الصهيونية مباشرة ، أي الى العنصرية والفاشية ، وبقية القيم التي قامت التظاهرة أصلا ، كما نفترض ، ضدهـا .

كيف ؟ كيف يبدأ عمل بهدف محدد لينتهي الى الهدف المضاد ؟

الحقيقة ، ان السؤال على هذا النحو ليس صحيحا ، فعندما نكتشف تناقضا من هذا النوع الصارخ ، علينا التدقيق في ما اذا كانت المقدمـة صحيحة ام لا . اي ، هل صحيح ان «هدف» اليساريين الفرنسيين منذ البداية ، يناصر الحرية ويعادي العنصرية ؟

والجواب نجده في « التظاهرة » التي نظمها ، والتي تقدمتها صفوف الحزب الشيوعي فصفوف المنظمات الشيوعية المتطرفة ، فصفوف الحزب الاشتراكي ، وختمتها التنظيمات اليهودية الموالية للصهيونية من دون لف او دوران .

ماذا يمكن ان يجمع بين هذه الصفوف ، على الرغم من ان هتلر لم يبعث حيا ولا قامت جحافل النازية بغزو فرنسا الاسبوع الماضي ؟

لقد جمع هؤلاء ــ للاسف نقول أم للتأمل ؟ ــ حكم سوفياتي على كاتب يهودي يهاجم العرب ويدعو للهجرة الى اسرائيل ويدين سياسة بلاده في هذا الصدد ، حتى ليصل الى خاتمة ايديولوجية جديدة علينا هي ان الاشتراكية أحدث اختراع معاد للسامية ، وانها النازية الجديدة . وهو لا يحتفظ بهذه الافكار لنفسه ولا يهمس بها لاصدقائه ، بل هو «يناضل» من أجلها ... بالتظاهر وتنظيم الاضرابات والاعتصامات والمؤتمرات الصحفية للمراسلين الاجانب ..

ونحن مع حرية أي كاتب ناشيء او مغمور في ثلوج القطب ، حتى لو خرج عريانا في الشوارع . ونحن مع حرية اي سياسي ولو كان هاويا من أقصى الجنوب ، حتى ولو خرج مرتديا الصوف أو الفرو في درجة حرارة الغليان .

ولكن السيد ساخارنسكي لم يخرج عاريـا في الشتاء ولا ارتدى المعطف الموسكوبي في الصيف ، بل ذبح الحرية في شوارع موسكو وراح يصلي على دمائها المنزوفة من قلوب العرب وشرايين فلسطين .

واذا كان يقال عن سولجنتسين انه «كاتب» منذ روايته الاولى «يوم في حياة ايفان» وأن «كوزنتسيف» «كاتب» منذ كتب « ليس بالخبز وحده» وانهما قد انشقا عن عصا الطاعة الستالينية (بعد موت ستالين) .. وقد تلقفهما الغرب لانهما من الكتاب (على الرغم من ان اعمالهما المنشورة داخل روسيا أفضل أدبا وفكرا من أعمالهما الدعائية المنشورة في الغرب).. فان أحدا من كبار المتخصصين في الادب الروسي ، لا من القراء العاديين فحسب ، لا يعرف من يكون السيد ساخارنسكي الذي اعترف فخورا بصلاته الودية والاكثر من عميقة مع سفارة الولايات المتحدة في بلاده .

هنا ، وهنا فقط ، كان القانون السوفياتي مضطرا الى احالته الى المحاكمة . تماما كما حدث مع «رفاقه المنشقين» من قبل ، فقد كانت الدعاية الغربية تصورهم وهم بالداخل على انهم «ماركسيون ديموقراطيون» ، ثم

يتبين بعد رحيلهم انهم يدعون الى اعادة الكنيسة الارثوذكسية والنظام القيصري ، وأحدهم على الاقل طالب الرئيس الاميركي بتحرير بلاده من نير النظام الراهن بل وتحرير اوروبا الشرقية كلها ، بالحرب . ومع ذلك ، فان هذا الكاتب لم يخرج من روسيا الا بناء على طلبه ، ولو كان هناك وقال هذا الكلام لكان من الطبيعي ان يقدم للمحاكمة ... فليست القضية هنا قضية حرية فكر وتعبير بل حرية ان يكون المواطن خائنا لوطنه ، يتعامل مع مخابرات اجنبية ويطالب بلدا آخر بشن الحرب على بلاده .

وهذا ما حدث مع السيد ساخارنسكي ، فقامت قيامة اليسار الفرنسي دفاعا عن حرية الفكر (لم نسمع ان الكاتب عرض فلسفة جديدة ضد النظام) ... ولا يمكن لليساريين الفرنسيين ان يتبجحوا بالقول انهم يعرفون الرجل كاتبا أو أديبا أو شاعرا ، فكل رصيده هو انه جرؤ على مهاجمة النظام ، ومدح اسرائيل علنا ، وانه جرؤ على التخابر مع سفارة اميركا في موسكو سرا . ولا يدري المرء أين هي الحرية وأين هو الفكر في «الدفاع عن الصهيونية ؟» .

ومأساة ساخارنسكي وأمثاله انهم يكبرون عدة شهور لا اكثر ، فحتى حين يرحلون الى الغرب سرعان ما ينكشفون ، فهم ليسوا كبارا كما صورتهم أجهزة الاعلام ولا هم معارضة لها وزن كما أوهمتهم اجهزة المخابرات . بل هم ليسوا أكثر من أدوات في الحرب الباردة .

ومأساة اليسار الفرنسي وأمثاله أفظع ، فهم يقفون على أرض واحدة مع الرئيس كارتر مطالبين بحقوق الانسان ... فاذا بهذا «الانسان» هو الانسان الصهيوني وحده ، هو الانسان العنصري وحده ، هو الانسان المضاد للانسانية وحده . أما حين يختفي ثلاثين ألف مناضل حقيقي في سجون الارجنتين ، واما حين يسقط تل الزعتر وتكمم أفواه المئات من المثقفين العرب ، واما حين يذبح «الرفاق» في أقبية تعذيب العالم الثالث كله ... فلا تسير تظاهرة شيوعية واحدة في شارع من الحي الثالث عشر

في باريس ، ولا تجرؤ الاوماتنيه او ليبراسيون او روج عــلى كتابة مقــال صغير يحتج على ضياع الحرية والاخاء والمساواة في لبنان أو أرض فلسطين أو بلاد الارجنتين . بل يتصدى للدفاع عن مذبحة الحريات في مصر رجال ليسوا محسوبين عــلى اليسار بل ينتمون الى أعرق التقاليــد الليبراليــة للبرجوازية الفرنسية .

لمــاذا ؟

لان «العنصرية» مناخ اجتماعي يستطيع التسلل الى أية ايديولوجية وأي تنظيم .. واليسار الفرنسي ، أو قطاعات لا بأس بحجمها منه ، حين ينافس اليمين تربح البرجوازية ولا يخسر اليمين . وحين يجامل الصهيونية تربح اسرائيل ولا تخسر العنصرية ... فهو «يسار» اوروبي اولا . وأوروبا تسمع «عن» العالم الثالث وعن العرب ، لكنها تسمع نفسها وعنصريتها أكثر . انها تستمتع بالدفء من نفط العرب ؟ وتتظاهر يسارا ووسطا ويمينا حين تسجن موسكو عميلا صهيونيا .. ضد العرب .

١٩٧٨/٨/٥

ان العنصرية مناخ اجتماعي يستطيع
التسلل الى اية ايديولوجية واي تنظيم

الأسئلة القديمة والأجوبة الجديدة

هل صحيح ان سؤال النهضة الاولى في تاريخ العرب الحديث ، لا يزال قائما .. وان العرب تخلفوا عن الجواب أكثر من قرن ونصف القرن . وان الاسئلة تراكمت جيلا بعد جيل من دون جواب يقيني حاسم .

وهل صحيح اننا في محاولة اختزال الزمن ، طوينا عصور غيرنا من دون التبصر بحدود زماننا ، ففقدنا الآخرين ولم نربح أنفسنا ؟

وهل صحيح اننا «استسهلنا» استهلاك الحضارة من دون محاولة انتاجها فخسرنا السباق التكنولوجي ولم نكسب الفكر ؟

وحتى لا نضيع في متاهات التجريد : ماذا كان السؤال الاول لنهضة العرب في القرن الماضي ؟ الجواب البسيط هو «التخلف» .

وبهذا المعنى ، يظل السؤال قائما .

وكان جواب الرواد هو الآخر بسيطا كالسؤال ، فالبعض رأى في « العودة الى الينبوع » خلاصـا من الانحطاط . وحجتهم في ذلك كانت واضحة ، فالتدهور الذي أصاب الدولة الاسلامية ، كان بسبب «العوامل الخارجية» ولا علاقة لها بالنبع الاسلامي الاول .

والعودة الى هذا النبع هي بداية الطريق الى النهضة الوحيدة الصحيحة.

والبعض رأى في «الاتجاه نحو الغرب» منقذا من الضلال ، بحجة ان اعادة اكتشاف الكهرباء او اختراع البارود مضيعة للوقت ... واننا اذا شئنا التقدم علينا ان نبدأ من نقطة النهاية لا من نقطة البداية .

ولما كانت «العودة» كالقفز الى الامام ، كلاهما يستحيل على صعيد المجتمع والتاريخ ، فقد برز هامش عريض لرواد الوسط التوفيقي الذين حاولوا الربط بين العودة الى الينبوع والاتجاه نحو الغرب .

وقد ظلت هذه «الصيغة» مركز جذب لاكبر العقول العربية طيلة القرن الماضي وبدايات القرن الحالي .. سواء بتفسير الاسلام تفسيرا عصريا أو بتفسير العصر تفسيرا اسلاميــا . ولكن النتــائج العملية للاخذ بهذه الصيغة ــ وقد جرت محاولات تطبيقها على الحياة اليومية لاعرض قطاعات البشر ــ كانت أولا هذه الثغرة الواسعة بين الفكر والسلوك ، وكانت ثانيا هذه الفوضى المخيفة بحضور عدة أزمنة في زمن واحد مما خلق من الامة الواحدة أمما ومن الشعب الواحد شعوبا ومن الطبقة الواحدة طبقات ، على صعيد الوعي والارادة والوجدان .

.. فالمسافة هائلة بين «العقل» العربي الذي يقبل غالبا (أي باستثناء جماعات صغيرة متطرفة كجماعة التكفير والهجرة في مصر) التطبيقات التكنولوجية للعلم ، ولكن «الوجدان» العربي يرفض غالبا التفكير العلمي في الممارسة والسلوك . هناك انفصال بين ما يجري في المختبر أو المعمل وفقا لمعادلات رياضية «يفهمها» الذهن العربي وتجيد «حلها» العين او اليد العربية ، ومــا يجري في مراكز الجهــاز العصبي من المخ العربي حيث مستويات الشعور هي التي تفرز العواطف وتحرك الارادات وتصوغ الوعي وتشكل السلوك وتدرب الممارسة .

هذه الهوة بين الاستهلاك الحضاري ان جاز التعبير وانعدام التفاعل الفكري مع معطيات الآلة أو الماكنة ، هو الذي يوقف نمو العقل من ناحية، ويخلق التناقض بين المعرفة والفعل من ناحية ثانية ... فلا نشارك مطلقا في تطور الحضارة الانسانية .

... والمسافة أكثر هولا بين «العقول» العربية للامة الواحدة والقطر الواحد والطبقة الواحدة والطائفة الواحدة ، بحيث لا تعود هناك «لغة»

توحد الارسال والاستقبال ... على الرغم من أنف الابجدية الواحدة، ليس هناك المصطلح الحضاري الواحد ، فتفهم كل جماعة نصا واحدا بلغات متعددة اي بمفاهيم مختلفة ومن ثم يكون هناك التشرذم لا التعدد والتمزق لا التنوع ...

بالتعدد والتنوع في اطار المصطلح الموحد، تكون هناك الديموقراطية.

أما بالتشرذم والتمزق فليس هناك سوى التعميم والتبسيط والتجريد الذي يتسق مع بدائية العقل البدوي أو الزراعي أو العشائري أو القبلي ... ولا علاقة له بالربع الاخير من القرن العشرين .

وتلك ، في ظني ، هي مسؤولية ــ لا أزمة ــ الفكر العربي الحديث منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى اليوم ... حيث ان سؤال النهضة الاولى قد احتاج في ظل المتغيرات الداخلية للعرب والخارجية للعالم الى أجوبة جديدة تلبي معطيات الواقع الجديد .

فلربما كان جواب الرواد ممكنا في زمانهم ، سواء كان جواب القلة التي تطرفت باللجوء السياسي الى السلف الصالح او جواب القلة التي تطرفت باللجوء الحضاري الى الغرب ، أو جواب الغالبية التي حاولت ان تقيم جسرا ذهبيا بين القديم والجديد .

ان الجواب المنتظر هو الجواب الرابع الذي يعيد النظر اصلا في المعادلة التي فرضتها ظروف القرن الماضي وبدايات القرن الحالي ... معادلة التراث والعصر ، العرب والغرب ، الاسلام وأوروبا .

هذه المعادلة التي استقطبت البعض على يمينها والبعض الآخر على يسارها ووضعت قطار نهضتنا على قضبان الوسط ، لم تعد هي معــادلة عصرنا العربي . فالاختيار لم يعد بين العودة الى الينبوع او القفز الى الامام أو التوفيق بين نقيضين أو تزوير احدهما باسم الآخر او اخفاء أحد الوجهين بقناع الآخر .

معادلة الجواب الرابع ماثلة في واقعنا المعاصر من دون تزوير ، في

المسافتين الضاريتين بين الفكر والسلوك من جهة ، وبين الفكر والفكر من جهة أخرى . مسافة الشيزوفرينيا الجماعية ، والمسافة البابلية بين أبناء الامة والوطن والشعب الواحد .

ردم هاتين المسافتين هو المقدمة الاولى للمعادلة الجديدة حيث لم يعد التطور في خلال الثلاثين عاما الماضية هو التعلق باهداب التاريخ او رداء الغرب . لقد أصبحنا أمام المستقبل وجها لوجه من دون سلاح من الماضي أو سلاح من الغرب ومن دون جسر وهمي بينهما .

أصبحنا نحن «المعاصرين» في مواجهة الثغرة الواسعة ، والفوضى المخيفة ، لا نملك لعبور الاولى وتنظيم الثانية ، تراثا او غربا ... فأي كلام عن الاشتراكية والديموقراطية والعلم والايمان ، يظل لغوا ديماغوجيا ، اذا لم نكتشف الحد الادنى الذي يوحدنا والمصطلح الحضاري الذي نستطيع بواسطته حل المعادلة الجديدة وتقديم الجواب الرابع ... حينذاك لا نضيف للرواد فحسب بل للمستقبل ايضا .

١٩٧٨/٨/١٢

لا تعيدوا تراثنا الينا

ما أسهل ان نفتح معاجم السباب للاستعمار القديم والجديد الـذي سيستجد ، والذي نهب من بين ما نهب ، كنوز حضاراتنا القديمة .

والغرب لا يكذب ، فالمسلات الفرعونية تقف في أكبر ميادين باريس وروما ولندن ، شاهدا لا يدحض على الجريمة .

ومتحف اللوفر الفرنسي والمتحف البريطاني وكل قاعة آثار في أوروبا وأميركا تحمل بصمات المتهم .

بل ودور الكتب في العالم كله تحتوي كنوزا من المخطوطات الاصلية، بالهيروغليفية والسومرية والعربية ، وغيرها من لغات المشرق والمغرب العربي مما لم يتكلمها اجداد الفرنسيين او الالمان او الانكليز او الطليان او الاسبان.

نهبونا اذن ؟

نعم ومليون نعم . فليردوا تاريخنا الينا . تقول اليونسكو مشكورة ، ويرد معها النداء كل عربي غيور على تراثه وماضيه .

لكني أرجو أن يفتح لي البعض صدورهم ـ خصوصا في مصر ـ حين اعترض ... على عودة امجادنا الينا في ظل النظرة الحالية الى مسألة التراث .

وسوف اعترض مرتين ، لا مرة واحدة .

* * *

المرة الاولى ، هي اعتراض مادي محدد اوجزه في النقاط الآتية التي

آخذ شواهدها من مصر أساسا :

● يقول جميع خبراء الآثار بغير استثناء ، الوطنيون والاجانب ، ان « عدد » القطع الاثرية في المتحف المصري وحده ، تكفي لانشاء مائة متحف كبير في طول مصر وعرضها . اي تستطيع كل مدينة مصرية تقريبا ان يكون لها متحفها الوطني ...

بالاضافة الى ان «عدد» التماثيل الضخمة ، يكفي لتوزيعه على أربعة آلاف قرية مصرية . انقل هذا الكلام مباشرة عن تقرير هيئة اليونسكو الدولية ، وهيئة الآثار المصرية .

وعلى الرغم من ذلك، فهذا العدد الكبير والذي يكاد يكون الوحيد من نوعه في العالم ، محكوم عليه بالسجن المؤبد في زنزانة المتحف المصري الضخمة ، وفي أقبية التعذيب على وجه التحديد حيث لا يستطيع أهله أنفسهم أن يروه ، وان كان من الممكن دائما «تهريبه» .

ان هذه الكميات الهائلة المكدسة من آثارنا في حيز مكاني ضيق أحالت «العرض» في المتحف المصري الى مهزلة تشكيلية تتقزز العين من رؤيتها .

ولولا «السياح» الذين يأتون من آخر الدنيا وراء «الحلم» ، لما أفاق من هذا الكابوس أحد .

اننا نحرم انفسنا بهذا الواقع المفجع حرمانا مثلثا :

نحرمها من ثروة حقيقية يمكن الحصول عليها اذا توزعت هذه المكدسات متاحف متعددة (حبذا لو ضم متحف كل مدينة آثار المنطقة الاقرب اليها) .

ونحرم شعبنا نفسه من التعرف الحميم على ماضيه معرفة ممكنة من دون عناء السفر الى القاهرة (حتى أهل القاهرة لا يزورون المتحف) ولا عناء الدخول الى المتحف اذا زرعنا بعض التماثيل في بعض الميادين أو المنشآت العامة حيث تعتاد العين على رؤيتها ، ويدفع الفضول الى السؤال عنها .

ونحرم الآثار نفسها من طول العمر والبقاء ، اما بالفساد الممكن نتيجة الاهمال ، واما نتيجة الاغراء الطبيعي بالسرقة .

وهنا تجيء النقطة الثانية ، فقد دلت تحقيقات نصف قرن في مصر وحدها ، على ان «المسروقات الاثرية» التي قام بها الاجانب مباشرة وعددهم أقل من القليل ، والتي قام بها المصريون لحساب الاجانب وهم الاغلبية ، والتي قام بها المصريون مباشرة لحسابهم وهم قلة ذات وزن (حيث يصل الاتهام أحيانا الى كبار المسؤولين عن مصلحة الآثار انفسهم) .

... دلت التحقيقات على ان هذه المجموعات الثلاث تشكل العمود الفقري لتجارة موسمية شائعة ، أي انها لكثرتها واعتيادها أصبحت عملية شبه مشروعة . واذكر انني ، شخصيا ، دخلت بيت أحد كبار الكتاب المصريين ، واذا بي أجد في الصالون مومياء كاملة لطفل ــ أمير ، من المملكة المصرية القديمة ، ونصف مومياء لسيدة من العصر نفسه .

وحين سألت مذعورا من ان القانون يحرم اقتناء الآثار ، أجابني صاحب البيت بأنه أخذ ايصالا من البائع (وهو سمسار تحف يشتريها من بعض أبناء الجبل في الصعيد) بأن هذه الاشياء هدية منه لا سلعة مباعة . والقانون لا يحرم الهـدايا . وقد طلبت منـه أن يسلمها للمتحف ، فهي كالجريمة التي نعلم بها ولا نبلغ عنها ، فاستطرد قائلا : اما انني سأدخل في سين وجيم ، واما انهم سيأخذونها لانفسهم .

وهكذا ، فآثارنا مستباحة في بلادنا بين السجن المؤبد أو الاعدام أو صالونات الافراد في مصر او الخارج .

والاعتراض الثاني ، فكري ... فلقد ظل البعض منا ، داخل مصر وخارجها ينادي بأن الحضارات القديمة اندثرت وماتت ولا معنى لبعثها من جديد .

وحين أمر جمال عبدالناصر بالافراج عن تمثال رمسيس الثاني وتثبيته في ميدان باب الحديد ، أتهمه البعض بالاقليمية والشوفينية . وربما كان

هذا السبب في ان بقية التماثيل بقيت في الحبس الاثري الى الآن .

وكان الزميل أحمد بهاء الدين مصيبا حين وصف هذه الدعوة آنذاك الى « الغاء » جزء من تاريخنا ، بأنها مراهقة فكرية . فأمثال هذه الحساسيات من «التاريخ» تعني نقصا ما في الشعور القومي . اما الخالون من العقد ومركبات النقص ــ كالاخوة في العراق ــ فهم لا يجدون غضاضة من تسمية احدى محافظاتهم القديمة بابل أو نينوى ، ويبعثون بمختلف الوسائل انجازات آشور وسومر . فالعروبة مع التاريخ ، ولا تلغيه . وليست صدفة ان الذين هاجموا رمسيس وسخروا من عربته الحربية في الماضي القريب ، هم أنفسهم الذين يهاجمون عروبة مصر الآن . فالعروبة الحقيقية تنوع وغنى وتعدد وخصوبة وعمق حضاري ...

اما الذين يتوهمون ان شعوب هذه المنطقة ولدت مع الفتح الاسلامي فقط ، فهم اعداء العروبة من الجهلة والعنصريين والذين يريدون تصويرنا بأننا بلا جذور يتغنى بها العالم .

وليس من حق هؤلاء بالذات ان يتحمسوا لاعادة تراثنا الموزع في عواصم العالم ، لانهم ببساطة لا يرونه تراثهم ... انها بالنسبة اليهم مجرد «مناسبة» لفتح قاموس الشتائم في الاستعمار والغرب ، وما أيسر استخدامه .

فاسترداد تراثنا من الآخرين يجب ان يسبقه الوعي بقيمة هذا التراث، قيمته المادية وقيمته الفكرية على السواء . اي اننا قبل ان نفكر في مطالبة فرنسا ، مثلا ، بخلع المسلة الفرعونية من ميدان الكونكورد بباريس حيث يراها الملايين سنويا ... يجب ان نكون اعددنا لها الساحة والنصب الذي ستقام عليه في القاهرة او دمشق أو بغداد أو الجزائر أو طرابلس . وقبل ان نسحب كنوزنا من اللوفر او المتحف البريطاني يجب ان نكون بنينا المتحف الذي سيستقبلها في المنصورة او اسيوط او اللاذقية او البصرة او الرباط .

وقبل ان نضم صوتنا الى اليونسكو التي بادرت مشكورة بندائها الى العالم لرد الآثار القومية الى مواطنها الاصلية يجب ان «نؤمن» نحن أولا ، بأنها آثارنا التي لا تدر ربحا فقط ، ولا جمالا فقط ، بل هي شهادة ميلادنا الحضارية أولا وأخيرا .

... والا ، لا تعيدوا أيها الاجانب تراثنا الينا .

١٩٧٨/٨/١٩

١٩٨٥/٢/١٤م

في الطريق إلى اوبسالا

ماذا يمكن لمؤتمر دولي في علم الاجتماع أن يقدم لنا نحن شعوب العالم المتخلف ؟

المؤتمر عقد من ١٤ الى ١٩ من هذا الشهر في مدينة اوبسالا السويدية وقد دار هذا السؤال في مخيلتي بصفتي أحد المشاركين في أعماله .

ان مؤتمرات الادب والفلسفة التي تكاد تقتصر على كونها حوارا فقهيا بين المتخصصين ، قد تفيد البحث الاكاديمي الصرف ، ولكن «تأثيرها» لا يتجاوز هذه الدائرة الضيقة الى مدار الاهتمام الواسع .

أما مؤتمر لعلم الاجتماع ، فأمره يختلف ، أو ينبغي أن يختلف . فالبحث الاجتماعي يمس كيان «الانسان العادي» في عصرنا .

والثورة في مجال الابحاث الاجتماعية تمس كيان «الانسان المتخلف» في هذا العصر . لذلك كان مستحيلا ، أن تنغلق الدائرة الاكاديمية لمثل هذا المؤتمر على مجموعة من «العلماء» و «المتخصصين» بل لا بد لهذه الدائرة من أن تتسع لتشمل في تأثيرها الهدف المباشر من اللقاء ، وهو « الانسان العادي المتخلف» .

هذا الاتساع الذي أرجوه قبل انعقاد المؤتمر ، لا يعني مطلقا الابتعاد عن المناخ الاكاديمي المفترض ، من حيث البناء العلمي للابحاث . وانما أقصد بالاتساع هوية المشكلات المطروحة للبحث ووسائل مناقشتها .

واعتقد ان اهم نقطتين يجب ان يتصدرا اهتمام الباحثين العرب في

مثل هذه المؤتمرات هما :

● الموقف من « المناهج » الرئيسية التي يطرحها علم الاجتماع اليوم، وهي في اطارها العام لا تخرج عن ثلاثة : المنهج الماركسي بتنويعاته المختلفة ، والمنهج الانكلو سكسوني بتياراته المتباينة ، والمنهج الفرنسي باجتهاداته المتنوعة . ولا شك ، ان كل باحث عربي تلقى علومه عن الغرب، أو في بيئته الوطنية نقلا عن أساتذة متأثرين بالغرب ، سوف يكون منحازا لدرجة او لاخرى بهذا المنهج أو ذاك .

لكني اعتقد ان الابداع العربي في هذا المجال تتوفر له كل الشروط والامكانيات .

ولعلي أكون واضحا حين لا أصف هذا الابداع بالتوفيق بين المناهج «العالمية» الراسخة ، وحين لا أصفه أيضا بالخلق من العدم . ان علم الاجتماع بحد ذاته ، على الرغم من تاريخه العريق ، يعد الى الآن «علما» وليدا ، يتطلب المزيد من الاجتهاد والاضافة . وهو ليس كالعلوم الطبيعية أو حتى العلوم الحضارية كالفلسفة والنقد الادبي يحتاج الى مستوى ونوعية حضاريين حتى يمكن ان يثمر في بيئة ما ، فمادته الخام هي الفرد والمجتمع في أي بيئة كانت ، مهما بلغ مستواها وأيا كانت نوعيتها .

والعرب ابتداء من «مقدمة ابن خلدون» في أقصى المغرب الى كتابات علي الوردي في العراق الى أفكار أنور عبدالملك من مصر ، لهم تراثهم السوسيولوجي النظري واجتهاداتهم في التطبيق عبر مئات من الاساتذة والباحثين والعلماء . ومن ثم فقد يستطيع أحدنا ان يتأثر بأي منهج انساني، أينما وجد في الغرب أو الشرق ، وبهذه الجزئية أو تلك من هذا المنهج أو ذاك .

ولكن من دون ان ننسى لحظة واحدة : ان المادة الرئيسية لاي «علم» سوسيولوجي هي « خصوصية » الزمان والمكان والانسان . فالمادة الاجتماعية العربية هي بذاتها عنصر منهجي أصيل . كذلك فان تراثنا المتصل

والمتراكم من البحث الاجتماعي ، هو عنصر منهجي آخر .

ولا ريب في ان هذين العنصرين «كامنان» في أي عقل اجتماعي عربي كان ، ولكن في غمرة الحوار مع «الآخر» أو في غمرة البحث نفسه، لا بد ان يرتفعا من اللاشعور الى مستوى «الوعي» بأنهما الاساس لاي محاولة منهجية كانت في بناء علم اجتماع عربي معاصر .

● النقطة الثانية ، هي الموقف من «النماذج» الاجتماعية المطروحة في المؤتمر . فعلى الرغم من ان اشكالات السوسيولوجيا في العالم المتخلف تكاد تكون هي الموضوع الرئيسي ... الا ان الاشكال الحاضر سلفا في ابحاث المتقدمين عن المتخلفين ، ينبغي ان يراجع مراجعة شاملة .

ولا ريب اننا نفيد أكثر كثيرا من ابحاث الغربيين عن مجتمعاتهم ، سواء على صعيد المنهج (وهو الاهم) او على صعيد الواقع الاجتماعي المشتبك بالضرورة بواقعنا، طالما اننا نحيا في عالم واحد يصغر ــ بثورة المواصلات ــ يوما بعد يوم .

و «ربما» نفيد من نظرات البعض الى واقعنا ، ولكن مع « الحذر » الكامل من ان يتحول المؤتمر الى شيء شبيه بالحوار بين الشمال والجنوب (الدول الفقيرة ، والدول الغنية ، الدول المتطورة ، والدول النامية) او الحوار العربي الاوروبي (حيث المقايضة بين التكنولوجيا والخامات الاولية).

ان الترجمة العلمية لهذه المحاذير هي : ان النموذج الغربي للتطور ليس هو النموذج الوحيد ، ولا ينبغي أن يكون . واتخاذه قياسيا للنمو او النهضة هو دعوة مستحيلة لان نكون صدى للتطور لا صوتا ، وان يبقى النموذج سيدا طالما هو المعيار .

كذلك ، فعلى صعيد «العلم» الاجتماعي المحض، يصبح الفقر أو الثراء أو التكنولوجيا او الخامات مجرد زوايا لمعالجة الخلل في بنــاء العــالم المعاصر ، لا موقفا سياسيا أو اقتصاديا يؤدي الى الربح او الخسارة .

* * *

اننا نستطيع أن نغتنم جميعا ، من أية جهة أتينا أمثال هذه المؤتمرات، على ثلاثة مستويات : الاول هو «العلم» حيث يمكن للاضافات المتنوعة المصادر والاجتهادات المختلفة التجارب ان تمنح السوسيولوجيا المعاصرة جديدا على صعيد المنهج. والثاني هو «مجتمع» كل منا حيث يمكن بالتفاعل الخلاق بين الافكار ان تستفيد مجتمعاتنا المحلية في التطبيق العملي .

والثالث ، هو «العالم» الشقي بتناقضاته وأوجاعه الاجتماعية بسبب الاختلال الحضاري المزمن من عصور الانحطاط والاستعمار معا .

تلك كلها «مكاسب» للجميع سواء توجه البعض منا الى اوبسالا من أقصى الجنوب أو أقصى الشرق . اما الوافدون من الغرب او الشمال ، فلا يحتاجون غالبا الى مزيد من المكاسب .

١٩٧٨/٨/٢٦

الصورة من أوبسالا

لم تكن هذه المدينة الصغيرة التي تقع وسط السويد تقريبا لتحلم بأن غزوا من مثقفي العالم سوف يقتحم هدوءها بهذه الكثافة التي بلغت أربعة آلاف نسمة بين عالم وباحث وأستاذ وصحفي ... فالمدينة نموذجا للاصالة السويدية بعراقة أبنيتها وعادات أهلها الذين يأوون الى بيوتهم حوالي السادسة مساء ، وتصبح الشوارع مهجورة كأننا في حالة «حظر التجول». حتى جامعتها تنتمي الى القرن الخامس عشر ، اذ تأسست في العام ١٤٧٧ وقد توسعت في القرنين التاليين ، لكنها احتفظت بطابع القرون الوسطى في شمال أوروبا .

ولقد كان الظن السائد في المدينة شبه الجامعية (تحتل أبنية الجامعة ومساكن طلابها أكثر من نصف أوبسالا) ان المؤتمر قد اختارها لهدوئها ، وبالتالي فهو «مؤتمر أهل العلم» الذين لا يتجاوز عددهم المئات (وقد عقد المؤتمر السابق منذ أربع سنوات في امستردام ولم يتجاوز أعضاؤه المئات فعلا) ... حيث يحتاج النقاش العلمي المحدود الدائرة ، الى مناخ يلائم البحث الاكاديمي المتخصص .

لكن «حلم» أوبسالا تبدد مرتين : الاولى مع الاعداد الهائلة التي وفدت منذ صباح السبت (١٢/٨/١٩٧٨) اذ فاقت كل تصور مسبق وتجاوزت امكانيات جهاز الجامعة ، ووضعت المدينة الصغيرة امام مسؤولية ضخمة . وهي اعداد المساكن اللازمة لهذا الحشد غير المألوف

أو المتوقع .

وتبدد الحلم للمرة الثانية ، حين فوجىء السويديون ــ أبناء وبنات البلاد الباردة ــ بأن المؤتمر على الرغم من شرعيته الاكاديمية ، قد تحول الى ميدان قتال حقيقي ، لا وراء الكواليس فحسب ، بل على خشبة المسرح ذاتها ، وامام الجمهور .

لقد فوجئوا بأن علم الاجتماع ليس أكثر من مناسبة لصراع الفكر العالمي كله ... بعدما تفرع الى ما لا يحصى من العلوم : السوسيولوجيا السياسية والاقتصادية والزراعية والطبية والثقافية والعسكرية ، في ظل الرأسمالية وفي ظل الاشتراكية وفي ظل الانظمة الممتدة بطول وعرض العالم الثالث ولم يحدث الا نادرا ، ان دار الحوار لوجه العلم والحقيقة ، بل ان الغالبية الساحقة من «أوراق العمل» كانت أوراق الاجهزة الدولية للتخطيط الاستراتيجي في هذا البلد او ذاك المعسكر أو تلك الكتلة .

ومن ثم لم يكن المؤتمر حوارا بقدر ما كان صراعا مكشوفا بين هذه المخططات واهدافها . وبدا ما يسمى بالعالم الثالث وكأنه «حقل تجارب» سوسيو ــ ايديولوجية ... على الرغم من الكلمات المثيرة التي افتتح بها وزير الثقافة السويدي جان ايرك وكلسن التي أشار فيها الى أزمة العالم المتقدم . وهي الاشارة التي ترجمها بعض الغربيين انفسهم ترجمة سوسيولوجية حين قالوا بأن ثالوث «الانتحار ــ الشذوذ ــ الجنون» يشكل أعلى نسبة له في أكثر المجتمعات تقدما بالمعنى الغربي للتقدم .

وكانت أول ظاهرة للصراع في المؤتمر ، وهي ليست ظاهرة شكلية بأية حال ، ان ٩٩٫٩ في المائة من الاوراق المقدمة كانت باللغة الانكليزية ، وقد فرض ذلك سلفا ان تصبح الانكليزية هي «سيدة الكلام» ... بينما تحولت الروسية والالمانية والفرنسية والاسبانية والايطالية الى لغات ثانوية يتكلم بها أصحابها في ما بينهم .

اما في أروقة المؤتمر ومناقشات البحوث ، فقد كانت الانكليزية

وحدها اداة التعبير بين الجميع .

ولم يكن ذلك تعبيرا صحيحا عن «توازن القوى الاجتماعي» بين أعضاء المؤتمر .. فاللغة الاسبانية ، مثلا ، تتكلمها اميركا الجنوبية كلها بالاضافة الى جزء من اوروبا . واللغة الفرنسية يتكلمها جزء كبير من افريقيا وجزء من كندا وتجيدها بعض الدول الاشتراكية كرومانيا وبولونيا ، بالاضافة الى فرنسا ذاتها . واللغة الروسية تجيدها معظم الدول الاشتراكية بالاضافة الى الاتحاد السوفياتي . لكن «علاقات القوى السياسية» هي التي فرضت الانكليزية ، مما يعد مؤشرا سوسيولوجيا لا يخلو من المغزى على صعيد العالم ... فلا يكفي ان تكون الولايات المتحدة ، وبريطانيا والهند وبعض افريقيا ، يتكلمون الانكليزية لتسود لغتهم سيادة رسمية ، اذ كان لافتا للنظر ان اجهزة الترجمة الفورية ليست بالقدر الكافي الذي يتناسب مع «حجم» المؤتمر .

بينما كان ملفتا أكثر هذه النشرة التي وزعت على الصحفيين أعضاء بعض الوفود دون غيرها على هذا النحو :

● الولايات المتحدة (٥٠٠) ● السويد (٣٠٠) ● كندا (٢٥٠) ●انكلترا (٢٠٠) ● ايطاليا (١٥٠) ● فرنسا (١٥٠) المانيا الغربية (١٥٠) ● هولندا (١١٠) ● بولونيا (١٠٠) ● الاتحاد السوفياتي (٩٠) ● واليابان (٨٠) .

والملاحظة الاولى ، هي انه من المستغرب ان تصدر ورقة رسمية عن «أكبر عشرة وفود» ، فالطبيعي ، أن يصدر بيان عن جميع الوفود .

والملاحظة الثانية هي غياب الصين عن المؤتمر غيابا كاد ان يكون تاما ونهائيا ، لولا وصول ممثل عن هذا البلد الآسيوي الكبير في اليوم قبل الاخير . والملاحظة الثالثة ، هي ان ثمانية من الاقطار المذكورة في الاحصاء من المعسكر الرأسمالي، بينما هناك بلدان فقط من العالم الاشتراكي، وليس من بلد واحد من العالم الثالث . والملاحظة الاخيرة والاهم ، ان هذه

«الاحجام» لا تعبر مطلقا عن «حجم علم الاجتماع» في هذه البلدان ، سواء من حيث درجة تقدمه أو مادته أو علمائه . بل هي أحجام أملتها المخططات الاستراتيجية للمؤتمر ، ودرجة القرب أو البعد من هذه المخططات . ما لم تذكره الاحصائيات هو ان عـدد «اليهود» ـ بغض النظـر عن الوفـد الاسرائيلي ـ في وفود الدول العشر يشكل بحد ذاته «وفدا صهيونيا» موزعا تحت رايات مختلفة ، ولكن حاصل جمعه يجعله أكبر الوفود عـلى الاطلاق .

* * *

كانت الثغرة في الجدار العربي معدة سلفا : فالاقطار العربية لم تعلم بأهمية المؤتمر الا في «خلال» انعقاده ، وحين علمت كان الوقت كالعادة قد فات . ونقطة الضعف الثانية هي «العرب المستغربين» أي أولئك الذين أدت بهم الازدواجية الثقافية (عربية ، انكليزية أو عربية ، فرنسية) الى العدمية القومية ، بحيث باتوا فاقدي الهوية الحضارية يسهل استخدامهم كواجهات وطنية لهويات أجنبية . والنقطة الثالثة هي عدم ادراك غالبية العرب الذين حضروا للعبة السياسية الكبرى في المؤتمر ادراكا كافيا ، يتطلب التنسيق والمتابعة والتخطيط .

هذه كانت على وجه الاجمال جوانب «الثغرة العربية» الجاهزة سلفا أمام الوجه الصهيوني المتعدد الاقنعة . فماذا حدث ؟

حدث ان المدة القانونية للمفكر الاجتماعي المصري د. أنور عبدالملك، كنائب لرئيس الاتحاد الدولي لعلم الاجتماع ، قد انتهت . ولما كانت اللائحة لا تجيز انتخاب أي عضو في أي موقع أكثر من مرة (أربع سنوات) كان لا بد من تخطيط عربي مسبق لان يحل مكان البروفيسور المصري أي باحث عربي آخر من مصر أو غيرها ، حتى لا يبقى المكان القيادي الوحيد في الاتحاد الدولي شاغرا من العرب .

وبينما تغيبت أكثرية الاقطار العربية أصلا ، فان العدد القليل منهـا

تمثل بشخص واحد . وكان الوفد المصري برئاسة الدكتور عاطف غيث رئيس قسم الاجتماع بجامعة الاسكندرية ورئيس الجمعية المصرية لعلم الاجتماع . وهو «الاستاذ» الذي أبرق باسم نادي هيئة التدريس بالجامعة الى الرئيس السادات يطالبه فيها باعادة النظر في اجراء الاستفتاء الشهير ضد الحريات . وهو نفسه الذي واجه الرئيس المصري بعدئذ في مشـــهد تاريخي لا ينسى أذيع على الهواء اذاعيا وتلفزيونيا ونشرت الصحف بعض مقتطفاته ، حيث أصــر عــلى الانعكاس السلبي للاستفتاء عــلى المسألة الديموقراطية في مصر . وقد ترشح عاطف غيث لملء المقعد الذي خلا بانتهاء مدة أنور عبدالملك .

غير ان الجميع فوجىء في اليوم التالي ، باسم زميلة مغربية هي الدكتورة فاطمة مرنيسي وقد رشحت نفسها هي الاخرى . ولم يكن ذلك ليفاجىء أحدا ، فمن الممكن التنسيق مع الاستاذة المغربية ، بحيث يتنازل أحد الباحثين العربيين لزميله المتوقع له الفوز أكثر . لكن هذا التنسيق لم يحدث أبدا . وبشكل شخصي سئلت الدكتورة فاطمة عن الموضوع ، فألقت في وجوه الجميع بقنبلة مسيلة للدم لا للدموع ، اذ نفت نفيا قاطعا علمها بالموضوع برمته ، وانها لم ترشح نفسها قط .

وفي جلسة الانتخاب التي تقتصر على (رؤساء الوفود) قام أستاذ أجنبي ليرشحها ، كذلك ترشح عاطف غيث . وكانت النتيجة ان فاز كلاهما بنصف عدد الاصوات ، فسقطا معا .

* * *

وحين رويت القصة للدكتورة مرنيسي صرخت بأنها لم ترشح نفسها ولا تدري عن الموضوع شيئا . لكن «السر» لم يبق سرا ... فقد كان المطلوب هو «اخلاء» المقعد من العرب باجلاء عبد الملك قانونا واحتلاله من جانب غير عربي قانونا أيضا .

وكانت اللعبة الصهيونية هي تدبير الاجلاء والاحتلال بصورة شرعية،

فرشح وجها عربيا لم يستأذنه في الترشيح أحد ، في مواجهة وجه عربي ، حتى يسقط الاثنان كمرحلة أولى .

ولم ترشح الصهيونية اسرائيليا للمقعد الشاغر حتى لا تصبح اللعبة مكشوفة الى هذا الحد . لكنها في انتخابات اعضاء المكتب التي لم يتقدم اليها العرب أعطت اسرائيل مقعدا ، للبروفيسور جوزيف بن دافيد ، اذ ظهرت النتيجة النهائية لانتخابات اللجنة التنفيذية الجديدة على النحو الآتي من الوفاق :

● ممثل السويد ــ رئيسا ،

ممثل بولونيا ، الولايات المتحدة ، البرازيل (نواب الرئيس) .

● الهند ، كندا ، اسبانيا ، الاتحاد السوفياتي ، ايطاليا ، المجر ، شيلي ، نيجيريا ، (أعضاء) اما ممثلو اسرائيل ، الولايات المتحدة فقد انتخبوا كأعضاء مساعدين .

وهكذا تمثلت علاقات القوى الدولية بين المعسكرات الرئيسية الثلاثة : الرأسمالي والاشتراكي والعالم الثالث . وهكذا سيطرت الصهيونية على مطبخ مهم للفكر الاستراتيجي العالمي . وبعض هذا راجع الى الغياب العربي عن هذا المؤتمر بالشكل المفروض والمطلوب معا .

١٩٧٨/٩/٢

⁄ الحصار في الزمن المنسي

(١)

⁄ «أين المخرج» ـ بفتح الميم ـ هكذا اختتم رسالته ، متسائلا في مرارة «الى متى تطوينا صحائف هذا الزمن المنسي ؟ » .

كان مثلنا أحد أولئك الذين ضاق بهم صدر الام في لحظة اختفت فيها عقارب الساعة وانمحى الزمن . توجه الى الخال وابن الخال والعم وابن العـم .

ومرة أخرى ، ضاقت الصدور . كان الجميع في «المأزق » وكان الجميع أمام «الاختيار» .

⁄ لم يكن اختيارا حين تختفي عقارب ساعة العالم ، وينمحي الزمن . كانت الظلمة هي القائد والليل هو المسيرة ... فعاد صديقي الى صدر الام الضيق ... وهجر الآخرون أحضان الأخوال والاعمام الى الاغراب .

لم يكن اختيارا .

كان الحصار .

حصار الحنان والغضب لمن اختار ان يضع رأسه عـلى صدر الام ويستريح .

وحصار الاخوال والاعمام والاغراب لمن اختار ان يحفظ رأسه من الحنان والحنين .

(٢)

انه السجن الحديث : هو البيت والمنفى معا . هو صدر الام المزروع بالمسامير وقلب العالم المفروش بالزيت وأعواد الثقاب .

انه السجن العصري ، عليك ان تنكر نفسك حتى تتعرف عليك أمك، وان تتنكر حتى يعترف بك الاغراب .

ولا خيـــار .

بل هو الحصار .

فحتى اخوتك ، لا يعرفونك ... سواء كنت ترضع ثدي الام أو كنت تشرب عرق زوجها الجديد أو كنت تأكل على موائد الاخوال والاعمـــام والاغراب .

لا يعرفونك .

بعضهم تصلبك ذاكرته .

وبعضهم تصلبك عيونه .

وبعضهم تصلبك عقارب ساعته .

فأنت المصلوب أينما كنت .

.. وأين ، أين المخرج ، بفتح الميم ، يا صديقي .

(٣)

ـ لا تحدثني عن مهد الطفولة وشقاوة الصبا واحلام الشباب . لقد تمرغت كلهـــا في صحائف الزمن المنسي . أضحينا في اليم ولا منجاة ... سوى العودة الى الرحم .

● الموت ؟

ـ لعله الحياة من يدري ؟ قوارب النجاة كلها من الورق . انها قوارب الغرق . الشاطئان كلاهما سراب . ليس امامنا ولا وراءنا ولا حوالينا سوى المحيط اللانهائي . الموج أقوى من عضلات اذرعنا . واقدامنا اقصر من ان تجد لها مكانا في القاع حتى ترتفع هاماتنا فوق سطح الماء .

● أنت تحلم ، فحتى لو كانت لديك القدرة الاسطورية على السباحة الابدية، فالى اين ؟ واذا استطعت بمعجزة ان تقف وسط المحيط فالى متى ؟
ـــ هذا هو السؤال ، فأين المفر ؟

(٤)

بدأت عقارب الساعة تتضح ، وتضيء رغم الظلمة ، وكانت تشير الى ان زمن الاختيار قد ولى ، واننا دخلنا رحاب الزمن المنسي .

خارج الزمن التقيا من جديد . كان صدر الام قد أرضعه دما أسود ، وكان الآخر قد رضع من قلب العالم الماء والهواء .

كان زمن التراجع قد مضى

وكان الجميع قد خسروا الرهان

فمن أراد ان يزيل غضب الام وارتدى ثياب زوجها الجديد زادهـا غضبا وألما في العمق .

ومن حاول مسح آلامها وراح يعري زوجها من ثيابه ، من أشواكه التي يحيط بها صدرها لتنزف بدلا من الحليب دما ، لا تعرفه .

كلاهما في مصيدة واحدة ذات بابين .

من أي نسيج صنعت الشباك ، وكيف ؟

(٥)

أين الخطأ ؟

كان سؤال الشيخوخة المبكرة . من يفلس ، يبحث في دفاتره القديمة. يتألق الماضي وتتوهج الذاكرة . علامة الشباب الوحيدة ان يلد مخاض الحلم سؤال المستقبل .

هل هو الجيل المخدوع أم الجيل الضائع أم الجيل الخائب ؟

قيل له أن صدر الام ارحم وانك اذا ارتديت ثياب الزوج الجديد فسوف تخدعه وتقتله ذات يوم . ولكن زوج الام لم تخدعه الحيلة ، بل لعب والزمن الى جانبه ، حتى اصطبغت بعض الجلود الطرية ببعض ألوان

الثياب . ولم يقتله أحد .

وقيل له ، ان الاخوال والاعمام سوف يساعدونك ، فاذهب . ودارت رأسه بنشوة القربى . ولكنه فوجيء مرتين : حين وجد ان بعضهم أنسباء وأصهار زوج الام ، وان الجميع يبغون استخدامه لوراثة الام . وان احدا لا يفكر فيه ولا في الام .

وقيل له ، ابحر الى البعيد تصبح أقرب من القريب ، تحرر من زوج الام والاخوال والاعمام ، واعمل كما كنت دائما لامك وحدها . ولكنه اكتشف بعد حين ان الزوج والاقارب جميعا هناك في أثواب مستعارة . يكتب الرسائل الى أمه فيمزقونها او يزورونها حتى لا تصلها «كلمته» . يبعث لها من رصيده في بنك الحب فيسرقونه ويضيفونه الى بنك الحقد .

هو وهم « واحد » تفرقت بأوصالهم الرياح وبعثرت أشلاءهم طائرة مجنونة بلا قائد .

أين الخطأ ؟

سؤال الشيخوخة المبكرة لجيل العذاب ، جيل الذاكرة المتوهجة والحلم المنطفىء .

(٦)

ربما كان «كابوسا»، فحاول ان تدعك جبهة السماء وان تفتح عيون الأرض .

ربما كان كابوسا ، فحرك أذرعتك بطول الماضي وعرض المستقبل .

ربما كان كابوسا ، واستطعت ان تخترق الحصار الى قطار الاختيار .

ربما كان « ممكنا » ان تعانق « المستحيل » .

١٩٧٨/٩/٢

« الحمل الكاذب في أدب الكاتب »

لو أتيح للجرجاني أو ابن قتيبة أو قدامة بن جعفر أن يقرأ الادب العربي المعاصر، لالف كتابا ضخما بعنوان «الحمل الكاذب في أدب الكاتب» بلغة ذلك الزمان .

.. فمن الظواهر اللافتة في أدب الجيل الجديد تلك «النفخة الكاذبة» التي توهم بأن شيئا ما خطيرا يوشك على الولادة ، وان صاحبه من الخصوبة بحيث سيعطي العالم شيئا لا يخطر على البال . ولكن الوهم سرعان ما يتبدد عند التعرف على وزن الوليد المنتظر ولون عينيه ودرجة حرارته وطراوة جلده .

فباستثناءات نادرة تضيع غالبا في الزحام ، يلاحظ القارىء الصبور أن ما يسمى بجيل الرواد في الشعر العربي الحديث لا يزال يطبع انتاج الجيل الحالي بسمات لا تخطئها العين ولا الاذن ... فاذا استبعدنا مؤقتا المفردات الوافدة من الحرب اللبنانية ومتغيرات الصراع العربي ـ الاسرائيلي، فاننا سنفاجأ بهيكل الصورة الشعرية التي بناها الخمسينيون للثورة المصرية والجزائرية ، أو نفاجأ بالتركيب الشعري الذي أبدعه الجيل التالي للمقاومة الفلسطينية والثورة العراقية . بل ان الايقاع الموسيقي نفسه لا يتخلى عن المقومات الرئيسية لقصيدة «الرواد» سواء جناحها المعتدل حيث تسود التفعيلة الخليلية ومعطياتها ، أو جناحها المتطرف عند اتباع ما يسمى خطأ بقصيدة النثر . أما حكاية «التدوير» فليست أكثر من حيلة زخرفية أكثر منها نمطا للايقاع الداخلي .

وليس معنى ذلك ان الشعر الحديث لا يتطور ، ولكن المعنى الخطير انه لا يزال يتطور بشكل رئيسي على أيدي بناته الاوائل ، ومعهم قلة نادرة من الشعراء الشباب. غالبية الجيل الحالي، «فينتفخون» بالحمل الكاذب... حيث يتمخض الجبل فيلد فأرا . مواهبهم أضعف من طموحاتهم ، وقدراتهم أضعف من أحلامهم . وهم في البداية يعطون «بيضة الديك» رغم ايهامهم أسواق النشر ومحرري الصحف ، بأنهم الدجاجة التي تبيض ذهبا .

والرواج المصطنع لعنة ، تصيب صاحبها باطمئنان عجيب على انه قد «وصل» فيتخلى دون ان يدري عن معاناة الابداع ومكابدة الخلق ، ليتحول في النهاية الى «نجم» اجتماعي ، يعامل «الادب» كمناسبة للظهور ، وسلعة مناسبة للكسب .

وهي ظاهرة اجتماعية ــ ثقافية ، تدعو للفزع . فما يحدث للشعر يجري على ساحة القصة القصيرة والرواية . واذا استبعدنا هياكل التجربة الاجتماعية لجيل الخمسينات والستينات ، فسوف نفاجأ بأن التركيب القصصي أو الروائي عند ابناء الجيل الجديد يراوح مكان الذين سبقوه . ان تغيير الاحداث أو الحوادث أو الاسماء ، لم يغير قط من بناء الاقصوصة أو الرواية. وكأن شيئا لم يحدث في «الفن» رغم كل ما حدث في «المجتمع». وكما في الشعر كذلك في القصة ، فالكاتب الشاب يستطيع الآن ان ينشر دون صعوبات الزمن الماضي . والمعلقون الصحفيون «يحتاجون» الى الكتابة عنه ، مدحا أو ذما ، سدا للفراغات التي يملؤنها . ومع الايام تبدو الكذبة وكأنها حقيقة ، ويصبح أشباه الادباء وكأنهم من كبار الادباء . وما دام الغير يصدقهم فهم يصدقون أنفسهم ويعاملون الثقافة وكأنها ديكور باهر للعيون والاسماع فقط .

وهذه مأساة ، فالنتيجة ان الخدعة تصبح «ماركة مسجلة» ويضطر الشاعر أو القصاص لان يؤسس جهازا شخصيا للاعلام .. يطارد الصحف والاذاعات باخباره وصوره ، ويلاحق الباحثين بانتاجه ... ومع الايام ينسى

شقاء الكتابة وأهوال الفن ، وتمسي متعته الوحيدة هي مطالعة صوره في الجرائد وسماع صوته في الراديو وقراءة التحقيقات أو المقالات التي تكتب عنه أو يكتبها عن نفسه .

وهي ليست محنة أخلاقية أو أزمة أدبية ، ففي كل جيل نابغون اثرياء بالعطاء الحقيقي والخصب . ولكن مأساة هؤلاء ان عجلات الآخرين تدوسهم في الطريق ، فلا أحد يسمع اصواتهم التي لا تستغيث ، ولا أحد يقرأ لهم أو عنهم لانهم ليسوا نجوما في سماء الصحافة أو المجتمع انهم الصامتون دائما ، المنطوون ابدا .

وهنا تأتي مسؤولية النقد ومشكلته معا ... فالنقد الحقيقي ليس مرادفا للصحافة ولا انعكاسا «للمجتمع الادبي» . النقد العظيم هو الذي لا يكتب تحت أضواء الكذب الاجتماعي ولا يتواطأ مع العرف السائد او الاشاعات. فلعل أكثر الادباء بعدا عن الأضواء هو أقربهم للحقيقة الادبية . ومهمة النقد هي اكتشاف الحقائق اما «تأصيل» ما تقوله الصحف واعادة صياغته في أسلوب أكاديمي براق فهو مزايدة على الكذب ، بالمشاركة فيه من أوسع «الابواب المحترمة» .

وقد تتعارض مسؤولية الناقد هنا مع طبيعة الصحافة المولعة بالشائع والمستقر ، أكثر من اهتمامها باكتشاف الحقيقة . ولكن هذه المشكلة لا حل لها الا بالاختيار المر : بين معانقة الحقيقة ولو في الظل ، أو الصلاة على جثمانها تحت ظلال المشنقة .

ولان النقد في خاتمة المطاف هو المرآة المصقولة لوجدان الامة ، فانه وحده الذي يستطيع الا يكذب على التاريخ ، اذا اهدى الاجيال المقبلة صورة دقيقة الملامح لوجدان عصره الادبي .

وحينذاك لن نزعج الجرجاني ولا ابن قتيبة ولا قدامة بن جعفر بايقاظ أحدهم من نومه الطويل ليكتب عن «الحمل الكاذب في أدب الكاتب» .

١٩٧٨/٩/٩

الضمائر الثلاثة ... والأزمنة أيضاً

منذ ربع قرن عرفتهم . ما أبعدهم الواحد عن الآخر ، وما أقربهم . ما أبعدهم عني وما أقربهم . لكني على الحافة الحرجة بين الصبا الباكر وصدر الشباب ، أضاءوا الحلم واطفأوا الذاكرة . كل على طريقته .

(١)

أولهم أخذني على جناح البرق الذي يطوي المسافات ويلغي الموت . أخذني بلمسة ساحر الى «الدنيا» وكأني لم أكن فيها من قبل . في «خبزه ونبيذه» اكتشفت عالما كالرؤيا . وفي «الثعلب» تجول بي في طبقات الجحيم والمطهر والفردوس ، على نحو مغاير لسلفه العظيم دانتي .

كان اغنازيو سيلوني هو خبزنا في زمن كنا نشم فيه رائحة الرغيف أكثر مما نأكله وكنا معه سكارى الفرحة والفقر والالم .

وكان سيلوني ــ الطلياني ابن البلد ــ يطل من حنايانا ليجفف دموعا لا تنبثق ، وليكوي ضلوعا لم تحترق ، وليزرع شموسا في ليل يختنق فجره . كانت أزقة روما وحاناتها وشوارعها وعاهراتها الفاضلات وأشلاء رجالهـا المنثورة عـلى مائدة الحرب ، هي الخبز الذي تجوع به البطون المطحونة والنبيذ الذي تعطش منه الأرواح الميتة .

كان سيلوني شمعة الحرب في مهب الريح المجنونة . وحين مات هذا الاسبوع ، أحسست في قاع النفس بأن الريح ماتت وبقيت الحرب . كان ضميرا لزمان الرعب . بموته يبقى الضمير ، ويبني زماننا خيمة جديدة ليأس العصر الجديد .

(٢)

لم يكن «الثاني» يعرف البرق والرعد وانفلات الضوء المزمجر في شهوة المطر . لم يكن حزينا . كان يرى الكرة تدور في ثبات الرقم . كانت الامور لديه في وضوحها البريء ، حتى انه لم يسمع عن الضباب في بلاد الثلج .

كان يسمع موسيقى الزهور ، ويمسك بالسيف ليقطع قالب الزبد . لم يكن الامل يخفق بين الضلوع ، بل كان اليقين يستبدل دينا بدين .

وكم كان عذابنا واهابنا الغض وتوهجات حلم الصبا ، تحتاج كلها الى راحة الايمان ... في أحضان «العلم» .

في « جان كانابا » استعدنا أجنحتنا الطرية من هول التحليق، ورحنا نتام على وسادة ستالينية ناعمة تدغدغ حواس مراهقتنا وتهدينا مفاتيح الكون . كان سارتر قد دق أبواب اطمئناناتنا بعنف وغمس دماءنا في وحل القلق المضني ، فأقبل مواطنه كانابا ليسحب الدماء المعذبة في أنابيب زجاجية مستقيمة الاستدارة .

استبدلنا قدرا بآخر ، حتمية بأخرى ، رجـاء في الفردوس المفقود بموعد مع الفردوس المستعاد . مع كانابا لم نشعر بلظى الجحيم المستعر تحت الجلد ، الا لغيرنا . كانت الوسادة الستالينية الناعمة تغطي عيوننا أكثر مما تغطي أقدامنا . وكانت تعزل عنا البرودة والحرارة أكثر مما تحمينا من الصيف والشتاء ، وكأننا خارج منطقة الجاذبية . وكان كانابا أحد ضمائر الصواب والخطأ ، وأحد كهنة الخلاص من الخطيئة الاصلية .

وعاش كانابا ، ونحن معه ، حتى وخزته الاشواك التي اخترقت وسادة ستالين . عاش ونحن معه حتى رأى ما ظنه الضوء الوحيد ، فاذا به احدى درجات الظلمة . عاش ونحن معه ، حتى رأى « مفتاح المفاتيح » يغلق الابواب على الفراديس الضائعة .

ولكنه بقي ضميرا لعصر مات قبل ان يموت هو منذ أيام ، ضميرا لجيل

كف عن العطاء منذ زمن ، ولكنه شهادة لا تموت لعذاب جيلنا .

(٣)

و «الثالث» هو ابن «البلد» . عباس أحمد . أنت لا تعرفه . هو أحد رموز الشرف في بلادي . أحد أبناء جيل الاربعينات الذين صاغوا بالحلم والفعل مقدمات الضوء المكسور في وجدان وطني .

مات عباس أحمد أيضـــا ، ولم يترك لهواة التسجيل الوثائقي سوى رواية يتيمة اسمها « البلد » . يعرف الناس رواية «الارض» لغيره ، و « الحرام » لغيره بل و « يوميات نائب في الارياف » . واقلهم يعرفون « البلد » هذا الكنز الفني الجميل ، واللؤلؤة الوحيدة لصاحبها .

ولكن عباس أحمد ليس هو «البلد» وحدها . انه قصتها أيضا . هو أحد عناصر المشهد التاريخي لمصر الجديدة ، في انتصارها وانكسارها معا. ولكنه بين أفراد جيل العذاب ، كان أكثرهم قربا من نضارة الحلم . وضراوة الكابوس . في زمن الثورة صنع النجوم ولم يكن نجما ، وفي زمن الثورة المضادة اكتفى بالموت احتجاجا .

ولكنه يبقى في «البلد» وغيرها مما لم يكتبه ضميرا يتوهج اشراقا مع الفجر القادم... فعباس أحمد لم يمت في العديد من الومضات التي تتولد كل يوم من رحم مصر ... رغم تعسر وتعثر كل ولادة جديدة للتاريخ .

١٩٧٨/٩/١٦

شمس الضباع

(١)

تواجهك صورة عبدالناصر وصورة القرآن الكريم ، تسبقها الولادة المتعسرة ، فتموت الام في مشهد الالم التاريخي ، ويتصاعد الموج فيضرب الرمال الصفراء .

والامين في حانوته يرتب الدنيا المحيطة به بعد «الاستقلال» ، فاذا كل ما يجري هو ترتيب البيت لاستقبال الاستعمار الجديد .

الصيادون في تلك المنطقة النادرة من الشاطىء التونسي للمتوسط ، يصارعون المجهــول من الفجر حتى الغروب ، فتمتلىء الشباك «خـيرا» يبيعونه مطمئنين الى النوم والعشاء .

والطاهر الذي فقد زوجته اثناء الولادة ، يتزوج من جديد حتى لا يفتقد ابنه ذراعا حانية ، ويشرع في «الضحك» من جديد ، وتمضي الحياة.

العمدة كان أحد ابطال المقاومة ، وكذلك الحاج ابراهيم ، وهما الآن «يرتاحان» من العذاب القديم .

وتمضي الحياة .

(٢)

فجأة، يمخر عباب البحر الهادىء قارب ارستقراطي تحرسه الهليكوبتر في السماء الصافية .

وينزل « الخواجات » الاوروبيون سائلين عن العمــدة . يعاينون

الشاطىء . يدفعون نقودا . يبنون فندقا . يصبح العمدة مقاولا ، والحاج ابراهيم مقاولا للمقاول ، ويتحول الصيادون الى اجراء ...

تتغير «الدنيا» : تغلق المحلات الصغيرة أبوابها ، البقال واللحام والمقهى ، فقد أصبح «الفندق» والكازينو وحمام السباحة هو العالم الجديد . يأتون اليه من أقصى المغرب ليركبوا الجمال وليصوروا المصلين وليصوروا أنفسهم وهم يناولون قرشا لشحاذ .

ويحاول «الاجراء» الاحتجاج على هذا «الخراب» الشامل ، حيث لم يعد لهم من خيار سوى العمل للفندق او الموت جوعا . يتمردون يوما فيأكلون الحصى . وحين تحاول النسوة الاقتراب من الشاطىء ، يضربن ، وتثور نخوة الرجال لحظات سرعان ما تنطفىء .

واحد فقط ، حول تمرده الى «حياة» هو الطاهر ... راح ينير العيون المغمضة ويعري العمدة والحاج ابراهيم من ثياب المقاومة ... فاقبلت «الشرطة الوطنية» وأخذته الى حيث اختفى عن كل العيون .

(٣)

ظل « الامين » صامدا طول الوقت ، يرى ويحاور ويفكر ولا يستطيع أن «يفعل» شيئا ... جرحه النازف في السجن هو «الطاهر» خلقه على صورته ومثاله ، ففعل دون ان يفكر .

كان «الامين» هو القلعة الاخيرة ... جاءه العمدة والحاج ابراهيم ليساوماه على الجرح : أغلق الدكان وانضم الينا ، الى ساحة «الفندق» تعال وسوف نفرج لك عن الطاهر . اترك القديم وتعال الى الجديد . تعال . تعال . كان جرحه ينزف . أوقف النزف . وذهب .

وخرج الطاهر من السجن . توقف نزف الامين . كان يقف امام محله الجديد المرصع بالفولكلور التونسي ، يرطن بالفرنسية والانكليزية ويرتدي الثياب المزركشة بألوان الطيف . وصل الجرح الى العين . لم يصدق الجرح، ولكن العين رأت . تعانق الجرح والعين . أي عناق ؟ الجرح يسأل : هل هذا

هو ثمن الدم ؟ لم تجب العين .

عاد الطاهر الى «القديم» ، الى دكان الامين السابق ، الى العين التي كانت ترى . كانت صورة عبدالناصر قد انحنت ، وتوقف صوت القرآن الكريم .

أخذ الطاهر يقلب في الذاكرة والحلم ، ذكريات الماضي وحاضر الايام الآتيــة .

(٤)

فتح بابا ، كفوهة الجحيم
فتح بابا على قاع الظلمات

فاذا به يرى الجنون في رجل ، جنون القاع الذي سكنه شهران، ولو استمر لودع العقل الى الابد .

وهكذا، كان على الجرح ان يختار. كان على الطاهر في زمن الاستقلال أن يختار . بين الامين المنكسر والجنون .

وكانت شمس الضباع تشرق عــلى فندق الاستعمار الجديد عــلى الشاطىء التونسي للمتوسط .

(٥)

ماذا فعلت بفيلم رضا الباهي (شمس الضباع) ، للمخرج التونسي ؟ شاهدته ؟ نعم ، ولكني شاهدت فيه ، لا تونس وحدها ، بل مصر ولبنان ، وكل قطر عربي ودع الاستعمار القديم ليبني الفندق الجديد ، وليحصل البعض على ثمن المقاومة دما من ابناء الارض والبحر والسماء ، ليشاركوا «الخواجا» من أسفل درجات السلم في نهب الجرح من العين وسلب العقل من القلب .

انه الفيلم «العربي» الاول الذي يحرضنا على ان نرى انفسنا في المرآة ولو مرة واحدة .

١٩٧٨/٩/٢٣

مشكلته انه ضد فرعون

حين فهمت من نهاية فيلم « شمس الضباع » بأن المخرج التونسي رضا الباهي يضع « بطله » امام الاختيار الصعب بين الرضوخ أو الجنون، لم أتصور قط انه ستصلني هذه الرسالة «المروعة» من كاتب مصري شاب..

قصته في الحياة هي أعظم مؤلفاته الى الآن . كان شرطيا عاديا ، ترك «الخدمة في الحكومة» الى العمل الحر منذ ست سنوات ، ظل يدرس خلالها حتى وصل هذا العام الى نهاية المرحلة الثانوية . قرأت له عام ١٩٧٤ مقالا بعنوان «فلاح السبع آبار يكتب عن درس حرب فيتنام» فشد انتباهي للوهلة الاولى الى موهبة غير عادية لكاتب خبر الدنيا من «الاعماق السفلى» على حد تعبير غوركي .

وصلتني منه هذا الاسبوع الرسالة التالية ، التي انشر نصها الحرفي دون أي تدخل الا في ما يخص اسمه وعنوانه ، بناء على طلبه . رسالة تخاطب «ضمير العالم» الذي قد يفيق على «معنى ما» يلازم انفتاح النظام المصري الراهن على «العدو» ، بينما يغلق باب مستشفى الامراض العقليـة على «المواطن» . هل ثمة علاقة بين الباب الذي دخلت منه «اسرائيل» مصر ، والباب الذي يخرج منه «العقل المصري» ؟ لنقرأ الرسالة أولا :

«أكتب لك من أرهب مكان في العالم ، يفوق كل خيال تصوره كتّاب الرعب ، هو عالم مستشفى الامراض العقلية بالخانكة التي أعيش فيها معرضا للموت ، لاي سبب ، حتى ولو كان اكتشاف امر هذه الرسالة لك.

ولا عقاب . لا قانون ولا ضمير كل هذا ، لانني كتبت في أوراقي الخاصة أعارض المبادرة . ولانني كتبت قصة عن آلام أم قتلت طفلتها في مذبحة «بحر البقر» . كان ذلك عند المباحث العامـة جريمة ، ومعارضة لكل القوانين ، حتى لو كان القرآن يقول غير هذا ، وفي نظر الاطباء النفسيين هو الجنون .

واليك القصة في أول آذار (مارس) الماضي من العام السابق ١٩٧٧ ذهبت لاعيش في حي الشيخ زايد ، وأخذت بيتا بناء على توصية من سكرتير المحافظة عام ١٩٧٥ . غير اني وجدت هناك عشرات الشقق تؤجر للقمار ولغير المستحقين ، فكتبت عنها للسيد المحافظ . كان يملك هذه الشقق أعضاء في حزب الوسط الحاكم، فأخفوا أوراق سكني (معاملاتي) ليصبح وجودي في البيت غير شرعي . كنت في هذا الوقت أدرس للثانوية العامة ، فتأمل واقع الفقراء أمثالي وهم مضطرون لان يعيشوا كل عشرة في حجرة ، هكذا ألقوا بي في الشارع .

وبدأت محاولة «شرائي» لكن الفقير لا يملك غير شرفه . حاولوا التهديد ، حتى ان مقاولا من كبار لصوص التموين والاخشاب والحديد ذهب الى منزلي ليقتلني في وضح النهار . يشهد على ذلك الجيران . أرسلت برقية استغاثة لرئيس النيابة يوم ١٩٧٨/٥/٢٠ الساعة الخامسة مساء ... فما كان من المباحث الا ان جاءت في الثانية صباحا لتقتحم منزلي بعد منتصف الليل دون اذن من النيابة وترتكب من الجرائم في طريقة تفتيش ما تفوق الخيال .. مزقت قصصي ورقة ورقة .. مزقت فراش الاطفال .. لم ينتظروا الزوجة وهي بملابس النوم أن ترتدي ثيابها الكاملة . ويقبضون علي . اذهب الى السجن ، ثم الى ... مستشفى الامراض العقلية .

تصدر التعليمات لدكتور يدعى أحمد نايل قطري ، أقدم له رقم جلوسي في الثانوية العامة وشهادة تقدير أدبية في «القصة» التي نجحت في احدى المسابقات ... ولكن ، هنا في مستشفى الخانكة قسم للمهمين ، يعامل

فيه القاتل بكل احترام .

اما السياسي فيسلكون معه ــ حتى الاطباء ــ مختلف الوسائل التي تؤدي الى الموت او الجنون الحقيقي . انه مريض بمعارضة الحكومة ، ودمه حــلال .

وأولادي وزوجتي ؟ انهم مطرودون ومطاردون ، فهم لا يملكون الاوراق التي تثبت ان المنزل لهم... ما رأيك في البحث عن «مشتري» لاسرة كاملة : ثلاث بنات وامهم ، مصابون جميعاً بمكروب «حب الوطن» حتى يكون العرض امينا .. على ان يكون سفير مصر هو أول من تتوجه اليه.. لجمع التبرعات لهذه الاسرة حتى تجد ما تقتات به .

هذا كله يتم في ظل «سيادة القانون» فيذهب المحامي للنيابة ، يقولون له «لا قضية هناك» . ولكن ماذا عن الانسان المسجون في ذلك المكان الرهيب ؟ يجيبون « لانه متهم » . بماذا ؟ يجيبون : بموجب المحضر رقم ٤ أحوال أمن الدولة لعام ١٩٧٨ الاسماعيلية . غريب ، فقد قلتم انه مريض ، لماذا هو مريض ؟ ما هو الجنون في انسان يسجل افكاره حتى ولو كانت ضد فرعون ؟ ما هو الخطر ؟ أجابوا من دون ان ينطقوا : العقل ان يكون الانسان اخرس واعمى واطرش .

ولكن هل هناك امة يمكن ان تعيش او تتقدم اذاكان هذا هو «العقل» فيها ؟ سؤالي لك ، ولكل عربي وكل حر في العالم .

والآن، كيف أحمي أولادي من التشرد ، بينما احيا واموت في باستيل الربع الاخير من القرن العشرين مع الفارق الشاسع بين جنة الماضي وجحيم مصر ؟ هنا القتل لكل من يفتح فمه . القاتل مريض ، والقتيل مريض ، ولا عقاب . الطبيب هنا سجان بغير قلب . الصدمات الكهربائية تعطى بأيدي المرضى . تصور ، ان الطبيب هنا لا يرى المريض أكثر من دقيقتين بعد سبعين يوما تمتد الى سنتين ، داخل عنبر مغلق ليل نهار .

ولكن في مصر ــ أم العجائب ــ كل شيء معقول » .

هكذا تنتهي رسالة صديقي الذي قد لا يدري ان له زميلا كبيرا ، ربما في غرفة مجاورة ، منذ عشر سنوات هو الكاتب اللامع اسماعيل المهدوي ... ربما لا يدري أيضا ان المسرحي الموهوب نجيب سرور قد زار هذا المكان ــ بالقوة والقهر ــ عديدا من المرات .

ولكنه يدري بالقطع ، أكثر منا جميعا ، ان عقل مصر لا يموت ... بينما عشرات الفراعنة لم يعد يذكرهم أحد .

١٩٧٨/٩/٣٠

ر.ن

اقرأ هذا الكلام يوم ١٩٨٧/٨/١٩

بعد ان تم الإفراج عن "اسماعيل المهدوي" في [illegible] ويحاول

جريدة [illegible] [illegible] الأدوات الأدبية والبائس .

تعليق ..

زنزانة [illegible] [illegible] كتبها [illegible] فوق الحائط

" [illegible] كيف [illegible] "

تصحيح التاريخ

يخطىء من ينكر ان الفكر العربي الحديث يواجه تحديا تاريخيا ، بعد ابرام معاهدات دولية واقليمية تعزل مصر عن الامة .

فلقد كانت خطوة الرئيس المصري الاخيرة ، خطوة فكرية لا عملا سياسيا فحسب . ونادرة هي «الاحداث» التي ترتفع الى مستوى «الفكر» سواء كانت أحداثا عظيمة أو أحداثا مشينة . النـازية والفاشية مثـلا ، بحربيهما، كانتا «فكرا» لا عملا سياسيا أو عسكريا فقط. كذلك «الثورات» الكبيرة في التاريخ ، كالثورة الفرنسية أو الثورة الروسية . انها «أفكار» الى جانب كونها أفعالا كبيرة .

وربما لا يكون السياسي قائد الثورة أو الثورة المضادة مفكرا عـلى الاطلاق ، لكن فعله السياسي يتحول بمجرد حدوثه الى فكر .

وهذا ما حدث بالضبط في بلادنا منذ زيارة الرئيس المصري للقدس الى اتفاقيات كامب ديفيد. ان هذا الحدث المستمر من قبل الزيارة المعكوسة (أي منذ انقلاب مايو ، ايار ١٩٧١) الى الصلح المنفرد في ١٩٧٨ يشكل في جوهره وتفاصيله على السواء تيارا فكريا ، لا مجرد مجموعة من الاحداث المتتابعة .

يمكن ايجاز ملامح هذا التيار في ما يلي :

● ليست هناك «حتمية تاريخية» معزولة عن ارادة الانسان ووعيه... اذ يمكن للتاريخ أن يعيد نفسه فعلا بشكل كاريكاتوري، فالسادات لا يعود

بالتاريخ المصري الى ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، بل الى عهود عباس وسعيد ، الى مرحلة ما بعد سقوط دولة محمد علي . اما عهد فاروق فقد شهد اشتراك الجيش المصري في حرب فلسطين ، كما شهد أول تجمع عربي رسمي يتخذ «القاهرة» مقرا له . اما الآن فالعكس هو الصحيح ، حيث أصبح «واقعا» ان الجيش المصري لا يشترك في حرب العرب . كما ان العرب «يتجمعون» خارج القاهرة . لذلك فالتاريخ لا يعيد نفسه تماما ، ولكن بعض صوره تعود بشكل كاريكاتوري . وحتمية التقدم الى الامام مرهونة بموازين القوى المحلية والعربية والدولية ، وليست قانونا غيبيا .

● الاقليمية هي الملمح الثاني حيث تزدهر في مصر الساداتية ازدهارا لم تعرفه في ذروة ازدهار «الدعوة» الاقليمية . وهي ليست مرتبطة بازدهار اقتصادي لاحدى الطبقات ، كما حدث في الماضي للطبقة الوسطى مثلا، لان قاعدتها الاجتماعية الراهنة تتسع للعديد من الطبقات والفئات . وانما هي مقترنة بالمخطط الاستراتيجي الاجنبي ، أي انها عملية مستوردة أساسا ، وليست نباتا أصيلا . منذ حوالي قرن كان أحمد عرابي زعيم الثورة ضد الخديوي ومحمود سامي البارودي رئيس الحكومة وعبدالله النديم خطيب الثورة يدعون الى «الوحدة» مع المشرق فور انتصارهم . وكان «الغرب» هو الذي تدخل بالسلاح لاسقاطهم واسقاط الدعوة معهم .

● ليس من سبيل لفصم عرى الثالوث المقدس «التحرير الوطني» و «التنمية» و «الوحدة القومية» ... وما ان يتم الارتداد عن احدها حتى يتهاوى المثلث جميعه .

وهكذا فان الثورة المضادة في مصر شاملة للارض والانسان ، بالفاعلية النشطة لمن لا يملكون «الانتاج» اي تلك الفئة غير المرتبطة بالجذور . فالطفيليون من السماسرة أو المرتبطين بالاحتكارات الاجنبية لا جذور لهم في الارض ، وهم مرتبطون أصلا وفرعا بالاجنبي ، لذلك فلا مصلحة لهم في التحرير ولا التنمية ولا الوحدة .

● الديمقراطية هي همزة الوصل الرئيسية بين التحرير والتنمية والوحدة القومية ، وبالتالي فان أولئك الطفيليين لا يستطيعون ولا يملكون السماح بها ... لانها تعني في خاتمة المطاف حماية المصالح الاساسية لمجموع الشعب التي تتناقض جوهريا مع مصالحهم . ومن هنا كانت الليبرالية حلما يستحيل استعادته .

● الثورة المضادة في مصر ، لذلك ، ليست ثورة (مصرية) مضادة ، بل ثورة عالمية مضادة للعرب (في مصر) . هكذا يصبح الالتحام العضوي بالعدو القومي ـ اسرائيل ـ والعدو الطبقي ـ الامبريالية الاميركية ـ مع الشريحة الطفيلية المحلية كتابع وخادم هي قوى الثورة المضادة .

ومن هنا ، يصعب ويسهل تصحيح التاريخ ، فليس التاريخ بحد ذاته خطأ ، ولكن الخطأ التاريخي ممكن . يصعب تصحيحه لفرط اتصاله بخارج الحدود ، ويسهل تصحيحه لهذا السبب نفسه ، لان الارض وجذورها تبقى هي الام لكل تصحيح .

* * *

تلك هي «الافكار» التي يطرحها عزل مصر عن العرب ، وهي تتحدى الفكر العربي الحديث على نحو لم يسبق له مثيل . أما تحديها «المادي» في مجالات الاقتصاد والاجتماع والسياسة فأمره مفهوم . ولكن التحدي الفكري يظل جوهر المسؤولية الخطيرة التي يتحمل عبئها المفكر العربي المعاصر .../مسؤولية «الابداع» والخلق والاكتشاف ، لقوانين الحركة التاريخية وهو الابداع الذي من شأنه أن ينير ولو شمعة واحدة طريقا من الظلمة طوله أكثر من ألف ميل .

١٩٧٨/١٠/٧

زمان النهضة ومكان السقوط

يطرح «السقوط» أسئلة أكثر تحديا من زمن النهضة .

مثلا ، هل يمكن لمرحلة السقوط أن تثمر فكرا أو فنا ناهضا ؟

مثلا أيضا ، هل يمكن لمكان خارج بيئة السقوط ، أن يثمر شيئا فاعلا داخلها ؟

* * *

والجواب من التاريخ سهل ، ولكن من المجتمع صعب .

في التاريخ الحديث لن نجد أكثر ظلاما من المجتمع القيصري في روسيا . هو ذلك المجتمع الذي وصفه دوستويفسكي وصفا ملحميا في كافة اعماله الروائية ..

وهو «النظام» الذي كاد فيه دوستويفسكي أن يقدم رأسه .. وفي اللحظة الاخيرة أقبل رسول القيصر حاملا «العفو» .

لكن هذا العصر نفسه هو الذي أثمر دوستويفسكي عملاق فن الرواية وفكرها ، وهو الذي أثمر تولستوي العظيم ، وهو الذي أثمر تشيخوف عملاق المسرح والقصة القصيرة .. وهو الذي أرهص في اعمال بيلنسكي وتشيرنشفسكي ودوبرليوبوف وهرزن بمقدمات «النهضة» الروسية التي تجسدت في الثورة .

والتاريخ نفسه يقول انه باستثناء غوركي وشولوخوف وباسترناك ـ وهم امتداد للقرن الماضي على نحو ما ـ لم يعرف مجتمع «الثورة» أدباء

كبار في هذا الحجم الذي ترك بصمته على الآداب الاوروبية والانسانية كلها .

وليس معنى ذلك ان الارض الروسية قد أصبحت عاقرا ولم تعد قادرة على انجاب المواهب . بل لان «الثورة» ، من ناحية، قد حلت بعض المشكلات التي عالجها الادباء من قبل فلم يعد المجتمع هو نفسه الذي كان .

ولان دولة «الثورة» من ناحية أخرى ، جعلت المجتمع أكثر انضباطا من ذي قبل ، بحيث فقد الفنان جانبا كبيرا من حرية الابداع .

في مصر، الوضع يختلف تماما، فلقد توقف نجيب محفوظ عن الكتابة منذ بداية الثورة عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٥٩ أي سبع سنوات، حين رأى الواقع الاجتماعي يتغير امامه ويلغي مشروعاته الروائية التي كان يزمع تحقيقها .

لكنه بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٦ قدم أهم اعماله على الاطلاق وأكثرها خصوبة ، ونقدا للمجتمع الجديد ... لانه ليس هناك «مجتمع نهائي» أو «مدينة فاضلة» تحققت . وعين الفنان أكثر من عين المفكر قادرة دوما على التقاط الاسود في قلب الابيض والسلب في قلب الايجاب .

هكذا كان المسرح المصري طوال المسافة الزمنية بين منتصف الخمسينات ومنتصف السيتينات ، عاش عصره الذهبي وسط التناقضات المريرة التي انتهت بهزيمة ١٩٦٧ . اعطى من الاسماء (مخرجين وكتاب وممثلين) ومن الصيغ الجمالية والافكار ، ما يعد مرحلة جديدة كيفيا تجاوزت مسرح توفيق الحكيم .

كذلك الامر في النقد والقصة القصيرة . فالعقد الخامس والسادس من هذا القرن عرفا للمرة الاولى في التاريخ الادبي لمصر الحديثة جيلا من النقاد والمتخصصين أكثر من غيرهم والذين اكبوا على بناء «العصر الادبي» كأفضل ما يكون البناء . انهم جيل الثورة . حتى الموجة الجديدة في الشعر الحديث ، والموجات الهادرة من كتاب القصة القصيرة الشباب الغاضب ، هم ثمرة انكسارات الثورة وانتصاراتها على السواء .

مع بداية عصر السقوط وقع العكس تماما ، في ظل دولة ترفع الشعارات الليبرالية ، على نقيض دولة «الثورة الروسية» .

بدأت مصر تعرف للمرة الاولى في تاريخها كله ، هـذه « الهجرة الجماعية » لصفوة المثقفين ، الى عواصم الشرق والغرب وما بين بين . كما عرفت «هجرة داخلية» من الكتاب والفنانين الذين صمتوا او اعتكفوا او توقفوا عن الانتاج او دخلوا السجون ومستشفيات الامراض العقلية . اي انه أصبح هناك نوعان من المنفى في الداخل والخارج .

وكان من الطبيعي أن «يهبط» مستوى الانتاج الثقافي ونوعيته في مختلف مجالات الفكر والفن . اي ان السقوط الادبي مضى في خط مواز للسقوط السياسي .

وكان ابرز معالم السقوط الثقافي هو ارتداد «الكبار» على تاريخهم وتاريخ البلاد .

وكان الملمح الثاني هو ازدهار الاقليمية لدرجة الشوفينية . وكان الملمح الثالث هو «تلميع» فقراء الموهبة وادعياء الثقافة من الصغار الذين لم يكونوا شيئا في يوم من الايام . ولكن بما ان الساحة قد خلت من الفرسان ، فقد غطى ضجيج هؤلاء على الآذان .

واذن فقد عرفت مصر ــ على نقيض التجربة الروسية ــ النهضة في ظل الثورة ، وادركت السقوط مع شعارات «الدولة الليبرالية» .

ولكننا نظلم ــ رغم الاعتراف بذلك كله ــ ضمير مصر وعقلها ، اذا اعتبرنا الهذيان الفكري والفني الراهن في مصر هو «ثقافتها» . انه ثقافة الثورة المضادة المنتصرة حتى الآن . ولكنها مجرد «وجه واحد» لظاهرة متعددة الوجوه .

وهنا نصل الى السؤال الثاني ، اذ هل يمكن للهجرة بشقيها الداخلي والخارجي ، ان تشكل وجها آخر للثقافة المصرية في عصر السقوط ؟

لقد كتب دوستويفسكي أعظم أعماله «داخل» روسيا لا خارجها ،

كذلك تولستوي وتشيخوف وترجنيف .

وفي تاريخنا نفسه تتكرر الظاهرة على نحو مغاير قليلا .. فلقد توجه طه حسين وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل الى «أوروبا» وأقاموا فيها طويلا ، ولكنهم لم يبنوا دعائم الادب المصري الحديث الا «داخل» مصر . بينما سافر الشيخ الطنطاوي الى روسيا مبكرا ولم يعد ، وكان موهوبا لدرجة تشي بعطاء لا يقل خصوبة عن عطاء المعلم الاول رفاعة رافع الطهطاوي الذي أخذ كل ما يستطيع من الغرب وعاد .. فأصبح رائدا للنهضة .

وقد تم بناء هذه النهضة من محمد علي الى جمال عبد الناصر في ظل أنظمة معادية للديموقراطية والعدل الاجتماعي ، وطيلة ثلاثة أرباع قرن من هزيمة العرابيين الى جلاء الانكليز عام ١٩٥٦ ، في ظل القهر الاجنبي المباشر.

فماذا عن المهاجرين المعاصرين؟ هل يكون مصيرهم كالشيخ الطنطاوي — ومصير الثقافة معهم — ان يكون كمصير الطهطاوي وطه حسين والحكيم وهيكل ، ومصير النهضة معهم ؟

هذا هو التحدي «الخاص» الذي يواجه الفكر المصري الحديث ، بالاضافة الى ما سبق ان ذكرناه في العدد الماضي من تحديات «عامة» تواجه الفكر العربي الحديث .

وفي تقديري ان الصيغة الجديدة المطلوبة ان تكون موضع التفكير الخلاق والابداع الحقيقي ، تتجاوز الشيخين الطنطاوي والطهطاوي ... حيث لم يعد في ظل متغيرات العصر اللاهثة مجال للتفكير الجغرافي المحدود. بعبارة أخرى ، لم يعد هناك «داخل» او «خارج» بالمعنى القديم . حتى ان الهجرة الداخلية أقبلت موازية للهجرة الخارجية ، والمنفيان امسيا منفى واحدا .

لكن هذه الصيغة لا ينبغي ان تبقى « وهما نظريا » أي مجرد ايديولوجية ، بل هي تحتاج الى معاناة التجربة والاكتشاف... سواء بتوحيد

الداخل والخارج توحيدا عمليا ، أو بتعريب الثقافة المصرية أكثر من أي وقت مضى ، او بالمشاركة المصرية الفعالة في الانتاج الثقافي الانساني المعاصر . و « أو » هذه التي كررتها مرتين انما اقصد بها الحركة الجدلية للمتغيرات في الزمان والمكان . لكنها لا تنفي التأكيد على أهمية «الحضور» المثلث للمثقفين المصريين في الداخل وفي «الوطن» العربي وفي العالم .

بمثل هذا الحضور « قد » نضيف شيئا لم تعرفه التجربة الروسية ولا التجربة المصرية من «العروة الوثقى» للافغاني ومحمد عبده .. الى اليوم، ذلك ان ما تضيفه الثورة المضادة في مصر لم يعرفه الزمن الروسي ولا بقية الازمان .

١٩٧٨/١٠/١٤

/ نهاية « الثقافة والاعلام »

لم تكن في عهد الملك الراحل فاروق وزارة للثقافة ولا للاعلام . ولم تكن في عهد والده المرحوم فؤاد الاول وزارة للارشاد القومي ولا مجلس أعلى للفنون والآداب . ورغم ذلك ترعرع جيل طه حسين والعقاد والمازني وتوفيق الحكيم ولويس عوض ومحمد مندور في ظل ظليل منشجرة الحكم شبه الليبرالي حينذاك ....

ولا زال الناس يذكرون تلك المعركة الضارية التي واجهت طه حسين لانه أصدر كتابه « في الشعر الجاهلي » عام ١٩٢٦ ، وكانت «أم الدنيا» هاجت وماجت قبلها بعام لان الشيخ علي عبدالرازق أصدر كتابا عن «الاسلام وأصول الحكم» . وحين «عاب» العقاد في الذات الملكية ــ لانه هدد بتحطيم أكبر رأس في الدولة اذا مست الدستور ــ لم يكمل الحكم بسجنه تسعة شهور .

ورغم ان العقاد سجن وان كتابي طه حسين وعلي عبدالرازق صودراء الا أن «انقسام الرأي» في الشارع والبرلمان والصحافة والجامعة والازهر، جعل من مصر حينذاك منارة للعقل وحرية الفكر حتى ان المفكرين والادباء السوريين واللبنانيين اختاروها دون غيرها من بلاد العرب للاقامة ، فرارا من السلطنة العثمانية ، وليؤسسوا في القاهرة والاسكندرية علامات باقية على مر الزمن للثقافة العربية الحديثة والاعلام العربي المعاصر . كانت مصر «خلية نحل» من الشعراء والممثلين والزعماء الاحرار من قيود الشرق

واستعمار الغرب .

وفي العهد الناصري ، كانت هناك وزارات للثقافة والاعلام ومؤسسات للفكر والفنون ، وعلى الرغم من ان كثيرا من الادباء والصحفيين تعرضوا للسجن بسبب معتقداتهم السياسية ، الا ان المرحلة الناصرية شهدت نهضة فكرية جديدة ساعد على تثبيت اركانها قرار مجانية التعليم حتى المستوى الجامعي وقرار التفرغ للادباء والفنانين وتأسيس «قطاع عام» في المسرح والسينما كان من شأنه ان خلق أجيالا من الرجال والافكار . وكانت أيضا «نهضة عربية» لم تعرف الاقليمية قط ، فكنت تشاهد الادباء العرب في القاهرة ، أحيانا أكثر من المصريين . وقد أسهم هذا الحضور العربي في بلورة الوجدان القومي لدى ادباء مصر وفنانيها وأغنى بالتفاعل الحر كثيرا من التيارات والاتجاهات وأخصب العديد من الرؤى .

وكانت مصر في كلا العهدين ــ الملكي بلا وزارات للثقافة والاعلام والناصري بهذه الوزارات ــ منفتحة عربيا على العالم الخارجي والحضارة الحديثة ... كان كل جيل من محمد علي الى جمال عبدالناصر يهدي الاجيال الجديدة ثمرات الغرب من مونتسكيو على يدي الطهطاوي الى أرسطو على يدي لطفي السيد الى جان جاك روسو على يدي هيكل الى سوفوكليس وسارتر وأندريه جيد على يدي طه حسين الى صامويل بيكيت على يدي لويس عوض ... بالاضافة الى أدباء الشرق الاشتراكي وكتابه وفنانيه .. الذين تعرف عليهم الجمهور المصري على خشبة المسرح في الاوبرا ، كما استمع اليهم شعرا كما حدث مع يفتوشنكو .

أي ان نهضة مصر ظلت دوما نهضة عربية منفتحة على العالم ، سواء كانت هناك وزارات متخصصة أو لم تكن .

عهد الرئيس السادات جرب الفكرتين معا ، فقد استمرت معه وزارتا الثقافة والاعلام ، ولكن بعد ان « لجأ » المثقفون في غالبيتهم الكيفية لا الكمية ، الى الخارج ، او الى ذوات نفوسهم المنطوية في الداخل . فأصبحت

هناك « وزارة » بغير اعلام و « وزارة » بغير ثقافة .

من هنا يضطر المرء الى انصاف الرئيس السادات حين بادر في التشكيل الحكومي الاخير بالغاء الوزارتين .

ذلك ان وزارة الاعلام التي كانت تشرف على الاذاعة والتلفزيون والصحف سوف تصبح في القريب بلا عمل ... لان الاذاعة ستعود «أهلية» والتلفزيون سيصبح «شركة مساهمة مصرية أجنبية» والصحف ستعود ولكن الى غير أصحابها الاوائل . أما وزارة الثقافة فكانت بلا عمل فعلا خلال السنوات الاخيرة . اذ ان السينما رحلت عن الديار مع أموال الاستثمار الاجنبي ، ولم يقصر المسرح بل سبقها الى السوق .

وهكذا ، أصبح النظام الجديد صادقا مع نفسه ، حين ألغى الوزارتين. ولكنه أبعد ما يكون عن الصدق ، حين يصور الامر للعالم الخارجي وكأنه « جزء متحضر من العالم الغربي الليبرالي » حيث لا وزارة للاعلام واحيانا لا وزارة للثقافة (باستثناء فرنسا) فالحقيقة ان هذا الالغاء للوزارتين لم يأت نتيجة قناعة ليبرالية ، بل العكس هو الصحيح . انه استكمال موضوعي للبناء الدكتاتوري المحكم الصنع .

لماذا ؟ لان هذه الوزارات المتخصصة نشأت في بلدان ما يسمى «العالم الثالث» المستقلة حديثا ، كعنوان للاستقلال الوطني للثقافة القومية ، حيث تيسر الانتاج الفني لمنتج الفن كما تيسر على الجمهور العريض تلقي هذا الفن .. كانت بديلا متقدما عن «جهد الافراد» في العهود الماضية .

اما الآن ، فان الغاء هذه الوزارات في واقع الامر ، هو تكريس لتبعية الاعلام الرسمي وهو ان الثقافة السائدة والابتعاد عن الغذاء الروحي للجماهير العريضة ... فبعد الهجرات المتوالية للمثقفين المصريين والصمت الشامل لاهم رموزهم في الداخل ، لم تبق سوى ثقافة الكباريهات المسرحية والسينمائية التي تلائم أذواق الطبقة الحاكمة . وهي أذواق فجة لا تحتاج أصلا لاي ابداع .

ان هذا الالغاء هو قرار صحيح موضوعيا لا ديمقراطيا ، لانه في ظل سيطرة «الصوت الواحد» على السلطة ، كان طبيعيا ان ترفع الدولة الدعم التقليدي الذي كانت تقدمه للمؤسسات الثقافية التي لا تستهدف الربح .

انها هنا ، كما رفعت الدعم بشكل تدريجي عن أسعار السلع التموينية الاساسية للشعب ، ترفع أيضا الدعم عن رغيف الخبز الثقافي ... وتترك السوق لقانون الغابة : البقاء للاقوى . والاقوى في مصر الراهنة هو «أحمد عدوية» لا أحفاد طه حسين. الاقوى أيضا هو موسى صبري لا أحفاد العقاد. والاقوى كذلك فايدة كامل ــ المطربة زوجة وزير الداخلية ــ لا أحفاد رفاعة الطهطاوي .

هكذا ، لا تحاكي ثقافة مصر السادات العهود الملكية السابقة ، لان الآية انقلبت في الربع الاخير من القرن العشرين وهاجرت الثقافة المصرية الى بلاد العرب وعواصم الغرب ، وأنطوت الثقافة المصرية في الداخل بين مجلة رشاد رشدي ومجلة عبدالعزيز الدسوقي ... فلم يعد العرب حاضرين ولا الحضارة الحديثة ، بل ثقافة تحضير الارواح بالسلة ، ومناجاة أرواح الموتى بالرسائل الى القبور .

ولم يعد الموتى بحاجة الى وزارات كانت تنسب في الماضي الى الاعلام والثقافة ... فقد أصبح الاعلام هو صوت الرئيس والثقافة صورته ...

ورحم الله ملوك مصر السابقين وعهودهم ، التي منها تعلمنا «النهضة» رغم أنف السقوط .

١٩٧٨/١٠/٢١

من الفيشاوي ... إلى الهورس شو

ما وقع لمقهى الفيشاوي في القاهرة منذ سبع سنوات ، وما وقع لمقهى الهورس شو في بيروت منذ سبعة أيام ، يكاد يلخص البداية والنهاية لمرحلة كاملة في تاريخ الثقافة العربية المعاصرة .

.. فمنذ سبع سنوات توكلت بلدية القاهرة على الله ، وقالت انهـا ستحول حي « سيدنا الحسين » الى حي معماري حديث ، فراحت تحفر الشوارع وتهد الابنية وتقيم الاعمدة حتى وصلت المعاول الى أشهر مقهى في مصر هو مقهى الفيشاوي .

وبديهي ان الاسم هو لصاحب المقهى القديم، الذي استطاع ان يكسب مقهاه مذاقا تاريخيا ، بحضوره الشعبي في قلب «سيدنا الحسين» ... وهو الحي الفاطمي العريق الذي نطالع اسراره في احدى أروع اعمال نجيب محفوظ ، وهي ثلاثية « بين القصرين ــ قصر الشوق ــ السكرية » وكلها شوارع صغيرة تكاد تكون أزقة في الحي الاسلامي الشامخ . ولكن نجيب محفوظ لم يلتقط هذه الاسئلة كمجرد لافتات مضاءة بالنيون لنكتشف خلفها « شيئا آخر » ، بل هو تعمدها عمدا كتكوين اجتماعي لتاريخ مصر الحديث بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٤ . وسوف نلاحظ ان «الزمن» هو بطل الثلاثية ، وان الحوار بين التراث والعصر هو الصراع الدرامي فيها ، رغم ان «الثلاثية» أبعد اعمال نجيب محفوظ من حيث الشكل عن التجريد .

ونحن لا نجد مقهى الفيشاوي في أضخم روايات محفوظ ، رغم انه

محله المختار ... ولكنه ـ في الواقع الحي ـ يكاد يكون المعادل الطبيعي لعمله الفني . فرغم انه بشعبيته الحارة الدافقة بالحياة ، كان يمكن ان يتحول الى «فولكلور» يجذب حاسة الشم لدى السياح الاجانب الذين يتوجهون بحب استطلاع عارم الى الحي العتيق ، الا انه في الحقيقة تحول على العكس من ذلك الى بيت دائم للمثقفين ، من كافة الاتجاهات ، يلتقون فيه مع غروب الشمس ويودعونه قبيل الخيط الاول من ضوء الفجر .

ورغم ان القاهرة مليئــة بمقاهي المثقفين بدءا من « ريش » وسط العاصمة وكذلك «لاباس» فضلا عن «نايت آند داي» في الطيب الذكر «سميراميس» ... الا ان «الفيشاوي» تميز بينها جميعا ، بابتعاده عن «نهار» مقهى ريش «ارستقراطية» سميراميس . ويذكر المصريون ذات يوم ان أحمد بهاءالدين خصص مقاله الاسبوعي بأكمله دفاعا عن «لاباس» الذي كانت البلدية قررت هدم البناء الذي يقع فيه . ويذكرون أيضا ان البلدية تراجعت عن التنفيذ حين علم المسؤولون بقيمة المكان كملتقى للمثقفين والسياسيين العرب .

ولكن «الفيشاوي» لم يجد احدا يدافع عنه ، وهو الذي ضم مختلف الاجيال العربية من الكتاب والصحفيين والمناضلين واللاجئين ، يتحاورون ويختلفون ويجتهدون ويختصمون ، ثم يشربون الشاي الاخضر على أنغام صوت ام كلثوم . ومنهم من لا يحب الشاي ولا ام كلثوم ولا صورة « الفيشاوي الكبير المعلقة في صدر المكان ولا المرايا والبخور التي تعبق بالحي ... ولكن أقدامهم تقودهم الى المقهى في اليوم التالي . لم يجد الفيشاوي احدا يدافع عنه ، وكان الحصن الأول ، فما ان شرعت في جدرانه معاول الهدم وتشوهت معالمه ، حتى بدأت بقية الحصون تنهار الواحد بعد الآخر ، فهدموا سميراميس وتلاشى «نايت آند داي» وهدموا البيت الاثري لهدى شعراوي ـ زعيمة حركة تحرير المرأة ـ والذي كان معرضا دائمـا للفنانين ، وهدموا المكتبات وحولوهـا الى بوتيكات ، وحـرقوا الاوبرا

وحولوها الى «موقف تاكسي» وهدموا سور الازبكية الذي كان ملجأ الفقراء من عشاق المعرفة وحولوه الى واجهات عرض لاحدث منتجات كريستيان ديور وبيير كاردان .

ولم يكن صدفة ان تشويه «الفيشاوي» كان البداية لمختلف هذه التحولات . ولم تكن صدفة ان هذا التوقيت ـ منذ سبع سنوات ـ قد انسجم تماما مع الاحداث ... فلم يعد هناك المثقفون العرب والاحرار العرب والثوار العرب الذين يذهبون الى «الفيشاوي» ، فحتى انه لو بقي على حاله كما كان لظل خاويا يندب من بناه ... لقد هاجر بعض المثقفين المصريين ولم يعد يحج الى القاهرة المثقفون العرب ، بل اضحى السياح الاميركيون والاسرائيليون وحدهم هم الذين يتوجهون الى حي « سيدنا الحسين » . ومن ثم لم تعد هناك ضرورة للفيشاوي الا كذكرى ، أو كشاهد على قبر الثورة العربية في مصر .

بعد سبع سنوات « يتحول » الهورس شو في بيروت من بؤرة ثقافية مشتعلة بالفكر الى محل لبيع «الشاورما» . كان المقهى اللبناني استكمالا غير مقصود لفيشاوي الحسين . فاذا كانت الثورة في القاهرة حينذاك ، فان نسمة الحرية الوحيدة كانت في لبنان . ولست أراهما كالكثيرين نقيضين . فالقاهرة وبيروت في طيلة عشرين عاما كانتا تكملان بعضهما بعضا . وقد أدرك العدو الحقيقي للعقل والوجدان العربي هذا «المغزى» العميق رغم التعارض الظاهري ، لذلك كانت ضربة واحدة لكليهما ... فليست صدفة على الاطلاق ان تكون نهاية الفيشاوي اولا والهورس شو اخيرا . وكأنه ـ هذا العدو ـ قد تخلص في سبع سنوات من الجسر الممتد بين الرمزين اللامعين في تاريخ الثقافة العربية الحديثة .

كان الهورس شو في شارع الحمراء نقيضا سطحيا للفيشاوي ، فهو المقهى المودرن الذي يحتل مكانا بارزا في أفخم شوارع العاصمة اللبنانية. وبالتالي فهو عنوان «مجتمع الاستهلاك» . وكم نال الهورس شو من لعنات

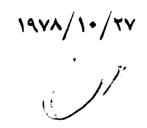
الذين يبكونه اليوم ، كانوا يسبونه وهم يعشقونه ، بل اتخذه البعض في أدبهم وفنهم ديكورا للسخرية من ازدواجيــة المثقف العربي المعــاصر وبورجوازيته وعنعنته وغير ذلك من مفردات تتكاثر بازدياد عدد رواده .

ولكن الحقيقة لم تكن كذلك . كان الهورس شو امتدادا لبنانيا للفيشاوي المصري . كلاهما ملجـأ عربي للعقل والوجدان . وكنت في الهورس شو ترى معظم الوجوه التي تطالعك في الفيشاوي ، وكان المقهيين يقتسمان العمل والنفوذ والمسؤولية .

ماذا فعلت الثورة المضادة في مصر ؟ نجيبك باختصار مركز انقاض الفيشاوي في سيدنا الحسين . ماذا فعلت الحرب في لبنان ؟ يجيبك الآن بائع الشاورما في الهورس شو . فلم تكن الثورة المضادة هنا ولا الحرب الاهلية هناك الا وجهين لعملة واحدة : الوجه الاول للاستعمار الاميركي والوجه الآخر للامبراطورية الصهيونية . كلاهما ادرك أكثر من بعض العرب ان الارادة العربية يجسدها العقل العربي والوجدان العربي ، أي الثقافة العربية ... لذلك كان عليهما تدمير الثورة في القاهرة وما يشبه الحرية في بيروت . وكان الغاء الفيشاوي في مصر والهورس شو في لبنان بمثــابة الرمز .

... لان الثورة المضادة في مصر ليست ثورة مصرية ، ولا الحرب الاهلية في لبنان حربا لبنانية ، بل هما جناحا الثورة العالمية المضادة للعرب ... في مصر ولبنان .

١٩٧٨/١٠/٢٧



لصوص « النقد »

كنت أحد « قراء » دار المعارف بالقاهرة . وهي الدار الوحيدة التي كانت في ذلك الوقت تأخذ بالنظام الغربي في أسلوب اختيار منشوراتها .. أي انها تخضع لقرار «لجنــة القراءة» التي تفحص المخطوط وتقول رأيها «الاستشاري» قانونا ، ولكنه الرأي الذي يؤخذ به عرفا .

وذات يوم وصلني من دار المعارف مخطوطان نقديان عن الرواية والمسرح في أحد الاقطار العربية . استوقفني هامش منقول عن كتاب سبق لي أن قرأته . وضع المؤلف بين قوسين سطرا واحدا من المرجع المذكور . وحين استأنفت القراءة اكتشفت انه لم يضع بين أقواس ثلاثين صفحة كاملة ومتصلة من الكتاب الذي أوهم القارىء بأنه أخذ عنه سطرا واحدا . وبدأت أشك في بقية الكتاب ، فعدت الى المصادر المذكورة في الهوامش ، فاذا بي أمام عملية سرقة مذهلة .. «فالمؤلف» لم يفعل سوى انه قام بتجميع لآراء الآخرين ووصل بينها دون عناء يذكر .

وقد صدمني ان «الكاتب» فعل ذلك في المخطوطين كليهما ، وهما في الاصل أطروحتان للماجستير والدكتوراه .

من هو «الاستاذ» أو «الاساتذة» الذين قرأوا هاتين الاطروحتين وأجازوهما ، ليصبح صاحبها بعد ذلك أمينا على «عقل» و «ضمير» طلابه من شباب الجامعة ؟

وقد فوجئت بعد هذا الحادث بعامين فقط ــ وكنت قد رفضت نشر

الكتابين واقر زملائي في لجنة القراءة التقرير الذي أعددته في هذا الصدد — بأن المخطوطين قد عرفا طريقهما الى النشر في بلد عربي آخر . وليس مهما اسم «الدار» التي لا تحترم نفسها فلا تقرأ المخطوطات التي تقدم اليها بعين علمية متخصصة . ولكن المشكلة ان هذين الكتابين المزيفين عرفا طريقهما الى القراء ، وغالبيتهم لن تراجع الآراء والاستشهادات ولن يخطر ببال أحد ان ما يقرأه لا يحمل بصمة «المؤلف» بل هو رأي الآخرين .

اما المأساة الحقيقية ، فهي انني لم أكن ادري ان «السرقة» قد أصبحت أمرا شائعا وموضة كل موسم .. فمنذ عهد قريب قرأت كتابا عن الرواية العربية ، واذا به مجموعة صفحات مغتصبة اغتصابا من كتب أخرى وقد ألصقها صاحبها بقلب مرتعش وأيد مفككة فجاءت «كرنفالا» من الفن الذي يدعونه «البوب ارت» القائم في التشكيل على أساس المونتاج شبه العفوي لمواد لا «تجاور» بينها في الطبيعة .

ومنذ أيام فقد وصلني كتاب من مصر عن «الالتزام في الادب» فوجدت صاحبه لم يلتزم بالحد الادنى من الامانة والخلق العلمي : كم هائل من الهوامش والمقتبسات التي لا ربط بينها على الاطلاق سوى كلمة «الالتزام» التي تعني عند جدانوف شيئا مختلفا تماما عما تعنيه عند أراغون.

والسرقة في «الادب» مشكلة حقيقية ، ولكنها في «النقد الادبي» كارثة ، لانه «رأي» وليس حكاية او شخصيات يمكن المقارنة بينها في رواية لعبدالرحمن الشرقاوي (الارض مثلا) وأخرى للروائي الايطالي الراحل اغنازيو سيلوز (فونتامارا) مثلا ، أو رواية لاحسان عبدالقدوس (لا أنام) وأخرى لفرانسواز ساغان (صباح الخير أيها الحزن) . فالمقارنة في الرواية والمسرحية والشعر أكثر يسرا بما لا يقاس من المقارنة بين النقد و «النقد» .

لذلك «يجدد» اللصوص النقد هذه الايام ، تجديدا لا يستطيع معه «الخبير» ان يبرهن بالدليل القاطع على ان العملة مزيفة .

● فبعضهم لا ينقل عن الآخرين نقلا حرفيا ، بل نقلا فكريا (من فكره لا من الفكر) فهو يعيد صياغة ما كتبه الآخرون في لغة لا علاقة لهم بها . ومن ثم يصعب الحسم بأنه سرق شيئا .

● والبعض الآخر « يهندس » سرقته بالاصالة والتضمين والشهادة والاستشهاد ، حتى يخيل اليك انك امام جهبذ العصر والاوان .. فهو يحشو الهوامش بأثقال من الكلمات الكبيرة والمصادر الاكبر ، دون ان يعود الى واحد منها .

● والبعض الثالث لا يكلف نفسه عناء النقل المزخرف بالمراجع ولا اعادة الصياغة ، بل هو «يترجم» من العربية أو اليها .

في العربية يترجمون بأمانة ورداءة معا ، ما سبق ان كتبه الاوروبيون، وهم مطمئنون الى ان أحدا لا يقرأ ، على العكس هناك من سيمتدح هذه النظرات الجديدة والاصيلة . وفي اللغات هناك اعداد بلا حصر لاطروحات مترجمة بكاملها عن مؤلفات العرب.. ممن لا يكتبون الفرنسية او الانكليزية. ويعتمد صاحب الاطروحة احيانا ، الى ان البحث لن ينشر وبالتالي لن يراه أحد . والذي يعنيه هو الحصول على «الدكتوراه» من مستشرق يتصادف انه لم يقرأ في هذا الموضوع او ذاك «كل» ما كتب فيه .

والنتيجة هي مذبحة حقيقية لكافة القيم واهدار مميت لكرامة العقل. والنتيجة الثانية هي ان تاريخنا الادبي سيكون في جانب كبير منه كاذبا .. لان الاسم المطبوع على غلاف الكتاب العربي لا يعني بالضرورة انه يدل على مؤلفه الحقيقي .

وقديما ثار النقاد العرب على أكبر الشعراء لانهم «لطشوا» ايقاعا او صورة من السابقين عليهم أو المعاصرين لهم .

وحديثا ثار النقاد العرب على أكبر المسرحيين والروائيين الذين تأثروا بالقالب الغربي في القصة والدراما ، لانهم لم يفرقوا بين الاقتباس والاختلاس .

ولكن احدا ، لا في العصور القديمة ولا في العصر الحديث ، تطوع للكلام عن السرقة في النقد .. وكأنه الفرع الوحيد المحصن ضد السطو أو انه غير قابل للنهب والسلب . بينما هو في الحقيقة ، عكس ذلك تماما : هو « الجدار الوطني » يسرقونه في وضح النهار فلا يصرخ ، وان صرخ فلا أحد يجرؤ على تبليغ الشرطة الادبية ، بل يتفرج الجميع على أحدث المشاهد المسلية في السيرك : الناقد الذي يفترض فيه انه يكشف السرقات، يفوز بالجائزة الاولى في مسابقة اللصوص المحترفين .

١٩٧٨/١١/٣

الموت يدق أبواب طيبة

(١)

في شباط ، فبراير الماضي كان النذير تونسيا . تشكل على هيئة «رجل في الاربعين» خرج من بلاده منذ عشرين عاما . لم يبتعد . كانت الشعلة المقدسة في الجزائر ، فالتهب في أتونها حتى العظم . انتصرت الثورة فتوجه الى القاهرة . كانت الدنيا «عربية» . ومهرجانات الفرح الازرق تطل من علياء النجم القطبي . شرب كأس الاسطورة ومضى . لا تدوم النشوة في القلب سوى لحظات . في دمه يغلي الفعل . الكلمات تذوب مع الشعاع الاول . وانفجر بعيدا .

رحل الى باريس ليرى «الوطن» من وراء الاسوار . لم ينقطع الحبل السري ، والمخاض عسير . أخذ ينشب الاظافر في الجدران الصماء ويكتب تحت أقبية المترو قصيدة حب . تلونت الحائط الاسطوانية بلون ابيض سرعان ما جف تحت تيارات الهواء الساخن والبارد .

عاد الى دمشق . العقل يحترق بأبخرة مضغوطة لا ترى . وخيط الغروب يمتد في الشرايين المذبوحة . عيناه لا تنكفيء فوق الوهج، ولكنهما محمرتان دون دمعة .

أمسك بالقلم وراح يغني بصوت لم يعرفه . اجتمع حوله الرفاق من كل صوب . يستطيبون الصوت الوادع الحزين ، المتفجر من شدة الاعياء.
في بيروت كان للهزيمة طعم آخر له مذاق الرماد ، في القاهرة ــ مرة

آخرى ــ كان لها مذاق الطين ، في بغداد كان النجم البعيد قد اقترب ، لم يكن شهابا سريع الزوال ، فاستكانت الفرحة بين الضلوع المكوية .

وعاد الى باريس ، ليرى «الوطن» بآمال وهدايا مجوس المشرق في طريقهم الى بيت لحم . ولكن هيرودس كان قد ذبح أطفال السنتين فما دون، وأفلت المسيح الفلسطيني بأعجوبة الدهر السحرية ... ولكن الطريق الى مصر لم يعد ، لان جثث الاطفال سدته حتى الافق .

وكان هو طفلا دون السنتين ، فلم يصدق انه مذبوح . ظلت رأسه تجوب الآفاق «العربية» من المشرق الى المغرب ، وبقي جسده في باريس بانتظار المعجزة .

وحين تبدت الارتعاشة التونسية وكأن المعجزة قادمة ، كان السحاب الاسود قد غطى وادي النيل ، ولم تمطر السماء هذا العام .

وكان لا بد للرأس العاشق أن يستسلم للجسد المتعب .

دعاني الطاهر عبدالله الى العشاء في منزله تلك الليلة . في الصالون كان الرفاق والذئاب يتحلقون حول الجثمان النائم وفي فمه بصقة على العالم .

أكل البعض من مائدة الموت السخية .

اما انا فخرجت مع البعض الآخر نترجم النذير التونسي ، ترجمة «عربية» صحيحة .

(٢)

وكانت الترجمة في مصر على وشك الانتهاء ، على هيئة «رجل في الاربعين» . أقلعت به الرياح نحو نجم المشرق منذ عشرين عاما . كان الموج قد حاصر القارب الاخضر على شاطىء الوطن ، فأمسك بأول قطعة من الخشب وابحر حتى وصل الى الشاطىء الآخر . كان قادما من الجحيم باحثا عن الفردوس المفقود في بلاده . نسمات الحب انعشت القلب المحزون ، وانسام الثأر اينعت في حديقة العقل المسجون .

وفي لحظة كالبرق المستحيل ، رأى الحلم يتحــول الى كابوس ، والفردوس جحيما من نوع جديد .

ولانه أحد أحفاد الاب كرامازوف ، فقد وفر لعنة المجهول وغامر بالابحار من جديد . وفي كل مكان كان يجد اللعبة في الانتظار . وراح يسأل سارتر في عتاب مجنون : أين أنت ؟ في « الايدي القذرة » ؟ ام في «نيكراسوف» ؟ وأجابه سرفانتس في «دون كيخوته» .

ومنذ قرأ نجيب سرور هذه الرواية ، وهو يصارع طواحين الهواء بفروسية العصور الوسطى .

ومن بودابست ، عام ١٩٦٤ ، كتب لي ولرجاء النقاش ، انه قد تعب ويريد العودة .

وعــاد

كما كان وأكثر .

كانت عيناه قد ازدادت أبصارا للنقطة السوداء في طبق الحليب الابيض . مع الايام ، رآها تتسع حتى أصبحت طبقا من الحليب الاسود .

ولم يشرب

راح يروي عطش العمر بالنار المتعددة الالوان ، وراح يستريح في ظل الحرف الاشقر .

بين النار والحرف سقط نجيب سرور في احدى الطواحين القديمة ... تلقفته مروحتها وراحت تلف به رياح كل العصور .

وكلما داخ وانبثقت من عينيه نقطة دم هاربة من عروق الشمس ، أخذوه الى هناك .

... لانه رفض ان «يمثل» قالوا انه ممثل ، ولانه رفض « حكمة القوادين » قالوا انه مجنون .

والحقيقة هي انه « رفض » فقط ... رفض ان يكون ما ارادوه له ، ولبلده والدنيا ، اعتقلوا جسده في المصحات والسجون . وبالتدريج ،

انفصل الرأس الطيب عن الجسد المتعب . وكأنه المترجم لوصية النذير التونسي ، راح يكتب كما لم يكتب من قبل . في الصحو والمنام كان يكتب، بالهذيان والوجد والصلاة والسباب راح يكتب . كان في سباق . كان لا بد ان ينتهي من « الترجمة العربية الصحيحة » .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧ رأيته . كان كل ما فيه قد تغير ، بعد سنوات الفراق الطويلة ، الا نجيب سرور ذاته . وكانت أرض مصر حبلى بالعجائب .

اما اعجوبته ، فانه حين اختتم الترجمة ، ولم يكن قد رأى اخاه منذ ربع قرن ، ذهب اليه في «دمنهور» في اليوم الاول من الاسبوع الاخير من الشهر الماضي ... ليموت .

يقال ان كلمة دمنهور عربية ، وهي كلمتان في الاصل « الدم » و «النهور» أي الانهار . ويقال انها كلمة عربية فرعونية «الدم» و «هورس» ابن اوزوريس الذي انتقم لمصرع أبيه اله الخصب المصري القديم من عمه « ست » اله الشر .

أيا كان الامر، فقد مات نجيب هناك ليقول: اقرأوا الترجمة قبل فوات الاوان .

(٣)

وقرأنا الترجمة العربية الامينة في موت ياسين الحافظ . هنا تصبح الترجمة والسيرة كلمة واحدة . سيرة الجيل العربي الذي شاهد حلمه ينتحر مرة ومرتين والى ما لا نهاية من المرات التي لفظ فيها أنفاس الومضة ، تتألق فجأة وتغرق في كثبان الرمال السوداء .

ياسين الحافظ ، ليس مجرد مثقف سوري أو « رجل في الاربعين » تمزق بين حجري الرحى ، بل هو شهادة جيل اودع سره في حبات البلّلور المنتشرة بعرض السماء بين محيط وخليج . كان عليه ان يكون جسرا من الدم بين اليأس الشامل والامل الغامض .

وكان الحافظ يعرف انه سيموت . لكن ، هل كان يدري ان السرطان ليس في دمه وحده ، بل لقد أصبح هو الدم ، يسري في حياة جيل كامل ، وهل ذهب الحافظ ، وهو موقن بأنه قد اودع «السر» في أيد أمينة قادرة على قتل السرطان ؟

ام ان الموت يدق أبواب طيبة ، ولم يكن الطاهر عبدالله ونجيب سرور وياسين الحافظ ، الا شهود العيان ، الذين أكلهم الوحش عند مدخل المدينة؟

... بل لقد أصبح الوحش داخلها .

... بل لقد أصبح الوحش هو المدينة .

فأين ، أين الخلاص ؟

١٩٧٨/١١/١٠

أخطر الغزوات المستحيلة

عندما كان اليهود قبل ثلاثين عاما خلت ، مواطنين عراقيين أو مغاربة أو ليبيين أو تونسيين أو مصريين أو يمنيين ، لم تكن ثقافة المثقفين منهم محصورة في الغيتو ، بل كانوا شركاء المثقفين العرب في النوادي والصحف ودور النشر وحتى التنظيمات الحزبية .

بعد الهجرة الى «اسرائيل» اختلف الامر تماما .

ولم يقصر المثقفون العرب ، كما يظن ، في التعرف على الثقافة العبرية ... خصوصا الفلسطينيون من أمثال غسان كنفاني ومحمود درويش ، والمصريون من أمثال ابراهيم البحراوي ، والسوريون من أمثال هاني الراهب صاحب أطروحة الدكتوراه عن « الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية المعاصرة » .

في أعمال هؤلاء وغيرهم ظهرت حقيقة «الثقافة اليهودية الجديدة» بعدما انهالت جوائز نوبل لابراز المغمور من هذه الثقافة .

والملاحظة الاولى على هذه الثقافة الاسرائيلية الجديدة ، انها «عودة الى الغيتو» أي عكس ما كان متوقعا على طول الخط .. واتكلم هنا عن اليهود العرب ، كغيرهم من يهود العالم ، فحين اشترك هؤلاء في صنع التيارات الثقافية حسب بيئاتها الاصلية ، لم يكونوا في الغيتو الثقافي . في التيار الديموقراطي المعادي للنازية والفاشية كانوا ليبراليين ، في التيار الاشتراكي المعادي للرأسمالية والاستعمار كانوا ماركسيين واممين

وتروتسكيين . وليس من الصعب ان نجد « أعلاما » منهم في كل وطن ، لهذا الاتجاه أو ذاك .

بعد الاحتلال الاستيطاني لارض فلسطين ، لم يعد الامر كذلك . أصبح «البحث عن هوية» نبشا في جذور التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون . وكأنهم استبدلوا الغيتو الاجتماعي بالغيتو الثقافي . بل ساهمت «الدولة» في بلورة قيم هذا الغيتو في اشكال عملية طليعتها التوسع العسكري داخل الاراضي العربية والاضطهاد العنصري للفلسطينيين الذين لم يغادروا بلادهم .

هكذا ، أصبح الغيتو الثقافي مع الزمن تجسيدا عقليا ووجدانيا للحنين التوراتي الى «صهيون» وتبريرا شعوريا ولا شعوريا للحرب وتمثلا واعيا وغير واع لاصول الفلسفة النازية ، فايديولوجية الجلاد أمست عقيدة ، الضحية .

ولم تعد هناك ، بالتالي ، أية مساهمة يهودية في الثقافة الانسانية المعاصرة ، الا من جانب الذين لم يهاجروا الى «اسرائيل» وفي أحوال نادرة. ومن هنا تجيء جائزة نوبل للادباء اليهود ، كما لو كانت تعويضا دوليا عن هذا الغيتو .

فالتناقض بين الحلم الصهيوني وتجسيده هو الاطار العام لازمة الثقافة العبرية الجديدة .لكن التناقض بين قيام الدولة والغيتو الثقافي هو جوهر الازمة ... فالاشعاع الاسرائيلي خارج الحدود ، هو العسكرية اليهودية لا الثقافة .

ومن هذه النقطة بالذات ، ينبغي الالتفات الى الاهمية القصوى التي يعلقها الفكر الصهيوني المعاصر على «السلام» المصري ـ الاسرائيلي ، والى الشرط المدرج في اتفاقيات هذا «السلام» حول التعاون الثقافي بين مصر واسرائيل .

ولا شك ان النظام المصري قد يسر الامور لحل ازمة الثقافة اليهودية،

سواء بغسل الدماغ الجماعي الذي تنشط أجهزة الاعلام المصرية بشأنه ليل نهار ، أو بتفكيك أوصال المؤسسات الثقافية حتى لتصبح وحدات قطاع خاص تخضع لقانون الاستثمارات الاجنبية بما فيها الدولة العبرية ، أو بتعديل برامج التعليم في المدارس والجامعات والمعاهد بما طرأ على العلاقات المصرية الاسرائيلية الرسمية من تطورات .

هذه كلها من قبيل «تسيير الامور» ، لكن جوهر الحل ليس مرهونا فقط بهذه التيسيرات الرسمية ، وانما ساعة الصفر الحقيقية ، هي في لقاء الثقافتين المصرية والصهيونية .

ان الادباء والفنانين الاسرائيليين ، لم يغيروا في أية حال محاور تفكيرهم ومشاعر وجدانهم ، التي تربوا عليها منذ قيام الكيان الى الآن ... بل هم سينظرون الى «السلام» مع مصر ، وكأنه النافذة التي فتحت فجأة في جدار المستحيل ، حيث يمكن بعدما تسكت المدافع ، ان تنطلق أخطر الغزوات على الجبهة الثقافية . أي حيث يمكن معالجة «الازمة» التي يعانيها المثقف الاسرائيلي في عمق أعماقه، بأن تتيسر له وسائل «الاشعاع» الفكري الى جمهور عربي كبير ... فلن يقتصر التوريد الاسرائيلي على المنتجات الاقتصادية ، بل سيسبقها ويواكبها ويلحق بها تصدير الفكر .

فهل يمكن حقا للعنصرية الصهيونية ، مهما تزيت في أردية الفكر وأثواب الفن ، أن «تلتقي» مع الثقافة العربية في مصر ؟

الجواب القاطع ، هو انها يمكن أن «تغزو» الاسواق الثقافية المصرية، لكنها لم تستطع اللقاء مع الفكر والادب المصري . من الممكن ان يترجم بعض المصريين بعض الادباء الاسرائيليين ، ومن الممكن أن تعرض الفرق الاسرائيلية على خشبات المسرح المصري ، ومن الممكن ان يشترك مصري واسرائيلي في انتاج فيلم سينمائي أو حلقات تلفزيونية . بل ومن الممكن أن تتبادل الاذاعة والصحافة هنا وهناك التحيات والعلاقات .

غير ان هذا كله يبقى على السطح ... فاتفاقيات كامب ديفيد والسفراء

المصريون في تل ابيب والسفراء الاسرائيليون في القاهرة وقوافل التجار والسياح لم ترغم «الابداع» العربي في مصر ولا «الخلق» ولا العقل ان يكتب قصيدة أو روايـة او مسرحية ـ لموهبـة حقيقية ـ تلتقي فيهـا الايديولوجية العبرية مع ايديولوجيات الثقافة العربية في مصر .

فالايديولوجيتان ، نقيضان لا يلتقيان . بل العكس هو الصحيح، وهو أن ساعة الصدام لا مفر منها ... فالاساسيات الاصيلة في الرواية المصرية والمسرح المصري والشعر المصري والفكر المصري ، هي اساسيات التراث العربي الاسلامي المنفتح على الحضارة الانسانية بكل مقوماتها المعاديـة للعنصرية الدينية والشوفينية العرقية . والاساسيات الاصيلة في الروايـة اليهودية والمسرح الاسرائيلي والشعر الصهيوني ، هي اساسيات التراث العبري ، تراث التوراة والغيتو . ويستحيل على هذين النقيضين ان يلتقيا ، بل هما في مسارهما الخارج على ارادة السلطة ، سوف يؤكدان العكس تماما : وهو ان «الاتفاقات» السياسية زائفة لا تصوغ عقل هذه المنطقة من العالم ولا وجدانها العميق ، وان مختلف «الاجراءات» الدبلوماسية ليست الا قشرة سطحية تغطي عالمـا آخر من الاختلاف الجـذري بين ماضيين وحاضرين ومستقبلين، وان «اسرائيل» جسم غريب ومزور في هذا الوطن الممزق، لا يتمتع بالحد الادنى من مقومات اللقاء الروحي مع بقية الاجزاء .

وتعود « أزمة » الثقافة اليهودية الى بدايتها ، بل تصل الى ذروتها ، حيث لا يعود أمامهـا سوى الاختيار بين الغيتو الذي يحميـه المدفع أو «الاشعاع» الذي يقوض أركان «الدولة» فيعود اليهود العرب الى بلادهم الاصلية ، والغربيون الى أقطارهم ... حيث يستطيعون هناك فقط ان ينفتحوا من جديد على العطاء الانساني اما غزو عقل مصر العربي فهو أخطر الغزوات ... وأكثرها استحالة .

١٩٧٨/١١/١٧

نعم ... تحية لطه حسين

كما في السياسة والاقتصاد، كذلك في الثقافة. فما يجري من محاولات مستميتة ومستحيلة معا ، لاستغفال الزمن العربي في مصر ، بتجميده أو الغائه او نسيانه شيء يختلف تماما عن الايحاء بعودة الزمن الى الوراء .

ولم يفطن الى هذا الاختلاف سوى المثقفين . في السياسة ، ظن البعض ان الاتجاه نحو الغرب ورفع لافتات الديمقراطية يعني العودة الى الوراء . ولم يكن هذا صحيحاً ... فالوراء لم يكن هو الملكية والاستعمار وحكومات الاقلية فحسب، بل كان نضالا متواصلا ضد العرش والاحتلال والدكتاتورية أيضا، وكان مشاركة في الحرب العربية ضد الكيان الصهيوني الوليد آنذاك. وفي ظل هذا «الوراء» كانت الشعارات المصرية تتراوح بين الجلاء بالدماء ولا مفاوضة قبل الجلاء . وفي ظل هذا «الوراء» كان ممكنا لحزب الوفد الديمقراطي ان يحكم سبع سنوات ونصف السنة ، وان تتكون اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ، وان تصدر الصحف وتزدهر الاقلام في موجات تقدمية هادرة بالجديد .

في الاقتصاد، ظن البعض ان الانفتاح غير المشروط على رؤوس الاموال الاجنبية وتحرير رأس المال الخاص من أية قيود مركزية او بيروقراطية او تخطيط او تنمية ، هو عودة الى «الوراء» .

ولم يكن الوراء هكذا ابدا ، كان الاستعمار متربعا على عرش السلطة نعم ، لكن الشرائح الوطنية المصرية كانت تناضل من اجل السيطرة علـى

موارد البلاد وحرية القرار . ورغم الحضور المكثف للاحتكارات الاجنبية كانَ «الانتاج الوطني» هو الذي ينمو في احشاء المجتمع ، وليس الطفيليون على الانتاج . لذلك ، كان ممكنا للنواب في البرلمان المصري في العام ١٩٥٠ ان يطالبوا بتحديد الملكية الزراعية ، وكان ممكنا للثورة ذاتها ان تقوم .

ما جرى ويجري في مصر ، على صعيد السياسة والاقتصاد ، ليس عودة الى الوراء ، لان «بيع مصر» من جانب السلطة المحلية لم يحدث مطلقا في تاريخ مصر الحديث . ان المحاولات المستميتة والمستحيلة معا والتي تجري على قدم وساق هي اخراج مصر من «التاريخ» نفسه ، الى منطقة انعــدام الوزن . وهي ظاهرة استثنائية فريدة لا سبيل الى مقارنتها بأي ماض •

وحدهم ، المثقفون الذين رأوا أنفسهم فوق ساحة أخليت من الفرسان، هم الذين يحاولون عبثا اعادة عقارب الزمن بالعنف غير الدموي . وقد اختاروا رمزا لا يقبل التأويل ، هو طه حسين الذي رحل عن عالمنا منذ خمس سنوات تماما . فكما ان المراجعة السياسية تناولت حكم عبدالناصر بعد وفاته ، كذلك المراجعة الفكرية والادبية تتناول الآن تراث طه حسين بعد وفاته .

ومن يقرأ الصحف والمجلات والكتب المصرية هذه الايام يشعر ، كما لو ان مصطفى صادق الرافعي ومحمد فريد وجدي ومحمد خضر حسين لا زالوا احياء ... ولا زالت السراي الملكية والسفارة البريطانية تثيران اللغط وتستفزان المشاعر ضد هذا الشيخ الشاب الذي تلقى علوم السوربون ، وأقبل على بلاده ليسهم مع غيره في تحريرها من الاساطير والاوهام .

واعني به طه حسين .

ففي ذكرى رحيله هذا العام ، صدر كتاب للسيد انور الجندي الذي لا يعرف عنه التفكير والابداع او البحث ، بل هو رجل تخصص في جمع مختارات من الصحف القديمة حول موضوعات اغنت الفكر العربي الحديث بالمعارك ، ليصدرها في مجلدات يكتب اسمه على أغلفتها . فاجأنا السيد

الجندي اذن ، بكتاب عن طه حسين ، لا فضل له فيه سوى فضل النقل عن الرافعي ووجدي وخضر وغيرهم من الاقدمين الذين هاجموا طه حسين منذ أكثر من نصف قرن واتهمه بعضهم بالزندقة والمروق، لمجرد رأي ارتآه لا في الدين ــ وهو خريج الازهر المتعمق في علوم الاسلام، ومن بعد فهو صاحب «الفتنة الكبرى» و «الوعد الحق» ــ بل لرأي في الشعر القديم .

جمع السيد الجندي نتفا من خصوم طه حسين وأضاف من عنده جديدا للمرة الاولى هو ان «الاستعمار الكافر» قام بتزويج طه حسين من فرنسية في أثناء اقامته في باريس . وان هذه الفرنسية هي التي قادت طه حسين الى الكفر .

وهو كلام لا يحتاج الى رد ولا الى تعليق ، لانه «ابتذال» لا يرقى الى مستوى الرد والتعليق . لكنه يشكل مع غيره ظاهرة تدعو الى التأمل . ففي مجلة «الثقافة» التي لا زالت تصدر رغم الغاء الوزارة المسماة باسمها ، ينشر المحقق اللغوي المعروف محمود شاكر سلسلة من المقالات ضد طه حسين تشكك هي الاخرى في اصالته وفي مصادره على السواء ... حتى انه لو كان طه حسين حيا لوجد من يقدم فيه بلاغا الى النائب العام ، ليعيد التحقيق معه حول كتابه الذي صدر لمرة واحدة « في الشعر الجاهلي » والذي صدر معدلا في عدة طبعات « في الادب الجاهلي » . ولو كان طه حسين حيا لتقدم أحد « العلماء » باستجواب الى وزيري التعليم العالي والتربية والتعليم ، لان كتب طه حسين من البرامج المقررة في المدارس والجامعات . وربما امتد التحقيق ــ لو كانت هناك وحدة عربية ــ الى وزراء الثقافة والاعلام ودور النشر بطول الوطن العربي وعرضه .

لكن طه حسين وفر على النائب العام والصحافة والبرلمان ووزير الداخلية متاعب التحقيق والاعتقال ، فرحل عنا مع نهاية حرب اكتوبر ١٩٧٣ وبداية «الانفتاح» منذ خمس سنوات . وان لم يمنع هذا الرحيل سياسيا مخضرما كفتحي رضوان ان يخصه بفصل في كتابه الجديد ــ القديم «أفكار

الكبار» . وأقول انه فصل قديم ، لانه كتاب آخر للمؤلف نفسه صدر منذ عشر سنوات بعنوان « عصر ورجال » وضع فيه هـذه الخطوط الاوليـة للانتقام من مرحلة النهضة فقال وكرر القول ان رجالها ليسوا سوى مترجمين وملخصين لغيرهم من مفكري الغرب ، وانهم لم يدافعوا عن أفكارهم حتى النهاية . وهو في «أفكار الكبار» لا يضيف جديدا . والطريف ان فتحي رضوان معجب باسلاميات طه حسين لكنه يعدها «النهاية» ولا يتوقف ، مثلا ، عند كتاب من أخطر ما صدر في تاريخ الفكر المصـري الحديث هو «مستقبل الثقافة في مصر» عام ١٩٣٩ .

ومن المفارقات ان رضوان رجل سياسي ، ومع ذلك ينسى فضل «الوزير» طه حسين بين العامين ٥٠ و١٩٥٢ وكيف ان الرجل الذي أطلق شعار العلم للمواطنين كالماء والهواء ، هو نفسه الذي نفذ الشعار حين تولى السلطة ، فقرر مجانية التعليم ورفع سن الالزام .

أيا كان الامر ، فقد أصبح طه حسين بعد رحيله هدفا لما يشبه المؤامرة، فأحدهم يشكك في ايمانه والآخر يشكك في اصالته والثالث يشكك في نضاله ، من مواقع مختلفة «اتفقوا» على ألمع الرموز في تاريخ الادب العربي الحديث .

وطه حسين لا يحتاج مني ولا من غيري شهادة في الريادة والاصالة والتجديد ، ومجرد «المناقشة» في ما يمثله هذا الرجل لنا ولثقافتنا من قيم ، هو استدراج لنا الى «الوراء» ، فالحاضر والمستقبل ينتسبان الى طه حسين وغيره من النهوضيين العرب ، لكنهما ينتميان في الوقت نفسه الى قضـايا جديدة ومشكلات جديدة وثقافة جديدة ، هي الاجدر بالمناقشة .

اما هذه «العودة» الى جو العشرينات ، بكل ما له وما عليه فهي تعني: اظلام عصر منير في تراثنا الحديث وتحطيم القيم التي بناها ، وجرنا الى نقطة «الصفر» كما لو كنا نولد ثقافيا اليوم . لقد اتخذوا من طه حسين رمزا فقط ولكنهم في الحقيقة يقصدون هدم أروع التقاليد الفكرية السارية في عروق الاجيال . ... ولا تقبل الزوال .

١٩٧٨/١١/٢٤

٧ العودة إلى الأصول

أعتقد ، ربما عكس الكثيرين ، أن الفكر العربي يملك من الخصائص الديناميكية ما يجعله في حالة «اعادة نظر» مستمرة ، لمختلف المسلمات أو ما كان من المسلمات في الماضي القريب . ومعنى ذلك انه رغم أية ارتدادات او انتكاسات او انكسارات ، فان «باب الاجتهاد» العربي مفتوح دائما على صعيد الفكر .

وينشط العقل العربي غالبا ، بعد الهزائم والاحداث الكبرى ، ليفتش في أعماق النفس ــ فردا كانت أم جماعة ، نظاما أو مجتمعا ــ عن الاسباب الدفينة لما حدث وما يمكن أن يحدث فضلا عما ينبغي تغييره حتى تستقيم مسيرة التاريخ .

وقد كان انفصام عرى الوحدة المصرية السورية عــام ١٩٦١ اول الاحداث السلبية الكبرى التي استدعت الكثير من المراجعة الفكرية العميقة لدى معظم المثقفين العرب . وقد ربحنا من هذه المراجعة ضرورة الانحياز للديمقراطية في أي عمل قومي ، لان القهر لا يوحد . وربحنا اكتشاف ان لا تعارض بين العدل الاجتماعي والديمقراطية ، بل ان الرقابة الشعبية والمشاركة الواسعة في صنع القرار ، كفيلان بحماية الوحدة من اعدائها . غير ان أهم الايجابيات كانت ــ رغم الانفصال ــ بقاء فكرة الوحدة في مكانها المقدس من الوجدان القومي ، فلم يهتز الايمان رغم المأساة .

وكانت الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ تتويجا مريرا لكارثة الانفصال ،

فاستدعت بدورها مزيدا من المراجعة للمسلمات واعادة النظر في الابجدية الفكرية . وثار بطول الشارع العربي وعرضه أعمق حوار شهدته المنطقة بين عـامي ١٩٦٧ و١٩٧٠ . بمختلف اللغـات الاقتصـادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية كان الحوار . كانت الثورة العراقية عام ١٩٦٨ حوارا مع الهزيمة ، كذلك كانت الثورة الليبية عام ١٩٦٩ . كانت انتفاضة الطلاب المصريين حوار مع الهزيمة ، كذلك كانت حرب الاستنزاف . وكانت المقاومة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٥ قد مهدت للحوار الجديد ، وبعد الهزيمة استأنفته على نحو جديد .

ولم يختلف الفكر العربي عن التفاعل مع هذه المتغيرات المتلاحقة ، بامعان النظر في مـا يجري ... وعـادت الى السطح قضيـة الديمقراطية والاجراءات الاجتماعية والقرارات الفوقية . واستجدت مصطلحات الدولة العصرية والتحدي الحضاري .

لكن «الانفصال» الذي توجته الهزيمة عاد ليطل في أيلول ١٩٧٠ برحيل عبدالناصر عن مصر ورحيل المقاومة الفلسطينية عن لبنان . واحتدم الحوار بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة ، فشهدت الساحة حركات العمال والمثقفين والطلاب في مصر حتى عام ١٩٧٣ ، حيث أقبلت حرب أكتوبر المجيدة لتضع نقطة على السطر لا على الحرف .

لذلك سرعان ما انقشعت الغيمة عن جذور الانفصال القديم ، فاذا بالثورة العالمية المضادة للعرب ، من خارجهم ومن داخلهم على السواء ، تنقض على مصر ولبنان معا . وهكذا أقبلت اتفاقية سيناء الثانية (مقدمة الصلح المنفرد) والحرب الاهلية اللبنانية ــ الفلسطينية وجهان لعملة واحدة هي الانفتاح على استراتيجية الاحتكارات العالمية والاستيطان الصهيوني ، فرفعت الحوار ــ أو انحدرت به ــ الى مستوى جديد أو المستوى الاخير، مستوى الوجود العربي أو الانقراض العربي .

هنا أيضا لم يتخلف الفكر العربي عن الحوار السلمي المسلح ، بل حين

كانت تسكت المدافع ، كانت تدوي الايديولوجيات • كانت زيارة القدس واتفاقيات كامب ديفيد والمعاهدة المنتظرة هي «الاطار» العام لفكر الثورة المضادة ، أما «الجوهر» فقد تجلى للمرة الاولى ــ منذ انفصام عرى الوحدة المصرية ــ السورية ــ في التجرؤ على فكرة الوحدة ذاتها ، وما كان من المقدسات أصبح مهدورا .

هكذا ، استيقظت من الاكفان أفكار لا علاقة لها بالمراجعة واعادة النظر ، لان علاقتها الرئيسية ظلت دائما في جوف التاريخ الاستعماري للمنطقة حين سادت «النظرية العنصرية» كتبرير ايديولوجي للتفرقــة بين العرب وتجزئة بلادهم .

● في الحرب اللبنانية استيقظت «القومية» اللبنانية وكأن الغرب الذي رسم الحدود يستطيع ان يصوغ الامم والقوميات على هواه . وكانت جرثومة التناقض بين المفهوم القومي و «الطائفة» تنمو حتى أصبح بعض الذين يرفعون شعارات العلمنة والديمقراطية و «القومية» هم أنفسهم الذين يرفعون راية الدين ، وكأن هناك «قومية مسيحية» أو ما شابه ذلك . أنه الفوضى الذهنية والوجدانية المخيفة التي تعمى عن رؤية التناقض بين الشعار والممارسة والحقيقة .

● في زيارة القدس المحتلة ، استيقظت «القومية» المصرية من رقاد طويل . وأصبح من الممكن لمصر ان تكون (كسويسرا) محايدة بين العرب واسرائيل (توفيق الحكيم) وان تكون القوميــة العربيــة كالصهيونية كالنازية نظرية عرقية مدمرة للاقليات (يوسف عوض) ... بل وأصبح الاسلام نفسه ضد الامة العربية والقومية العربية (الشيخ الراحل عبدالحليم محمود والشيخ الحالي عبدالمنعم النمر) فالقومية العربية لدى هذا الفريق مؤامرة استعمارية ضد الوحدة الاسلامية . ولم يتكرم أحد هؤلاء بالقول ما اذا كانت هناك مؤامرة صهيونية ضد العرب المسلمين وغير المسلمين أم لا.

● بعد التضامن العربي في بغداد والميثاق القومي المشترك بين سوريا

والعراق ، استيقظت لـدى البعض خارج بغداد ودمشق فكرة « الامـة السورية » و « المتحدات القومية الاربعة » : قومية الجزيرة العربية وقومية الهلال الخصيب وقومية وادي النيل وقومية المغرب العربي .

وهي الفكرة التي قـد يفهم المرء لماذا يتبناها غـير العرب من كبار المستشرقين في فرنسا ــ كالبروفيسور جاك بيرك الذي يرددها كثيرا ــ ولكن يستعصي على الفهم ان يرددها بعض العرب ... وكأنهم يبررون ، من حيث يدرون او لا يدرون ، انعزال مصر الاضطراري . وكأنهم يلتمسون ، بقصد أو بغير قصد ، الاعذار لارتداد النظام المصري عن عروبة البلاد . وكأنهم ، وهذا هو الاخطر ، يعتمدون ويروجون تفسيرا لوحدة سوريا والعراق لا يخطر ببال البلدين ... بل العكس ، فهذه «النواة» مقدمة لاستعادة مصر وكل قطر الى الوحدة القومية . ان الميثاق القومي المشترك هو الرد الايجابي الاول ، عـلى الصعيد الرسمي ، عـلى انفصالية الثورة المضادة ، وليس بالقطع دعما لها .

ان هذه المجموعة الشوفينية من الافكار «القومية»، قد خلطت الاوراق الفكرية في الحوار العربي المعاصر خلطا يثير البلبلة والفوضى والاضطراب. فبعد «الانفصال» بسبعة عشر عاما كاملة يتبين ان هدف الثورة العالميـة المضادة لم يكن فقط فصم عرى الوحدة المصرية السورية ، بل الغاء التفكير، مجرد التفكير ، في الوحدة القومية العربية . هكذا يلتقي القومي المصري بالقومي اللبناني بالقومي السوري ، مهما اختلفت النوايا ومصادر الاجتهاد.

وهكذا يصبح أكثر من ضروري للمفكرين «العرب» العودة الى الاصول في الوقت الراهن، لا مراجعة المسلمات واعادة النظر في المتفرعات.

وأصل الاصول هو أننا أمة واحدة .

١٩٧٨/١٢/١

أهل الكهف

« من أتى بعد شوقي وحافظ في الشعر ؟ ومن بعد أم كلثوم ؟ ومن سيأتي بعد محمد عبدالوهاب ؟ لقد ظهر في مصر محمد التابعي ومصطفى أمين وعلي أمين وروز اليوسف واحسان عبدالقدوس وهيكل .. ولكن من ظهر في ظل الديمقراطية الموجهة والحرية المسؤولة ؟

* * *

.. لا أحد »

الكلمات لصحفي عتيق ، لا يمكن ان يكون في واد والعالم في واد آخر . وقد شاء ان يصوغ أفكاره في حوار مع طرف آخر « ضد الحرية »، فكان جوابه ان الحرية في الماضي هي التي أثمرت عمالقة الفكر والثقافة والفن ، وان غيابها هو أثمر عصر الاقزام ، أو الاصغار .

ولم يكن الكاتب في حواره مع الطرف الوهمي ديموقراطيا ، فقد تصور وصور «موقفا من الحرية» لا يسمع به أحد سواه . فرض على مخيلتنا رأيا يعادي الحرية وراح يناقشه دفاعا عنها حتى يضمن تعاطف القارىء سلفا ... فمن ذا الذي يمكن ان يتعاطف مع اعداء الحرية ؟

ولكن المشكلة هي ان جاذبية الدفاع عن الحرية لا تصمد طويلا أمام التفكير فيما يقصده فعلا صاحب الدفاع . خصوصا ان المشكلة أكثر تعقيدا من التبسيط الشديد الذي عمد اليه في تصوير القضية .

فلا أحد يظن ان روسيا القيصرية كانت تتمتع بالحرية التي يتغنى بها، حين انبتت دوستويفسكي وتشيخوف وتولستوي . ولا احد يظن ان اميركا المكارثية كانت تتمتع بالحرية رغم ازدهار شتاينبك وهمنغواي وآرثر ميلر. ولا أحد يظن ان فرنسا في ظل الاحتلال النازي كانت تتمتع بالحرية رغم

تألق سارتر وكامي وميرلوبونتي والوار واراغون .

وقس على ذلك ، فالقهر المروع لحقوق الانسان لم يمنع الادب والفن والثقافة من التقدم .

ومع ذلك فالمعادلة لن تكون ابدا هكذا: الابداع هو وليد الدكتاتورية، والثقافة العظيمة وليدة الفقر والجوع والظلم .

كلا ، ليس هذا صحيحا بأي مقياس . فالحرية تبقى هي المناخ الانسب لضمير الكاتب وروح الفن . ولكن غيــابها النسبي او المطلق لا يعني بالضرورة أفول الثقافة وسقوط الفكر الذي قد يتجلى احيانا في «النضال» من أجل الحرية . فالمسألة ، بالنسبة للآداب والفنون ، أكثر تعقيدا من ايجازها المخل في حضور الحرية او غيابها .

ولكن اقتران أمثلة بعينها ــ كمحمد التابعي ومصطفى وعلي أمين بقضية الحرية ، يفصح عن ان صاحب الدفاع عن الحرية لا يقصد ذلك ، بل يقصد الدفاع عن عصور معينة تمت الى « الماضي الذهبي » .. فهو في الحقيقة دفاع عن عصر السلاطين والملوك والاغوات . وهو عصر لم تعرف فيه مصر ــ مثلا ــ الديموقراطية الليبرالية خلال الفترة بين عامي ١٩١٩ و١٩٥٢ (أي طيلة ٣٣ عاما) الا اربع سنوات ونصف حكم خلالها حزب الوفد . اما السبعة والعشرين عاما ونصف الباقية ، فقد ألغي فيها الدستور مرتين وحل فيهــا البرلمان عدة مرات وألغيت معظم امتيــازات الصحف والمجلات ، ودخل المثقفون السجون بالعشرات ، وعرفت المعتقلات أحد منجزات التعذيب على يدي « العسكري الاسود » .

لم تكن هناك « حرية » اذن ، بل من الواجب ان نقول العكس ، وهو انه رغم دكتاتورية العصور الماضية، كان هناك أحمد شوقي وحافظ ابراهيم. واحيانا ــ للتاريخ نقول ــ ازدهر البعض بفضل الدكتاتورية نفسها ، لان افكارهم كانت تخدم الطبقات صاحبة المصلحة فيها ، والعرش ، والاستعمار نفسه .

ولا أحد ينكر ان مسألة الديموقراطية لم تحل في عهد الثورة ، وان تجاوزات مريرة ضد العقل والضمير وقعت . ولكن في ظل هذا المناخ المعقد، ازدهرت بعض الاسماء التي استشهد بهـا صاحب الدفـاع عن الحرية ، كاحسان عبدالقدوس وهيكل .. فأهم الاعمال الادبية لاحسان ظهرت خلال السنوات العشرين الاخيرة . كذلك الامر بالنسبة لنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم . ومن المفيد التذكير بأن أغلب هؤلاء «نقدوا» في اعمالهم وضع الحريات في حياة عبد الناصر . أي انه من جديد يتأكد ما يشبه القانون ، وهو انه رغم الدكتاتورية يمكن للثقافة الحرة ان تشق طريقها في الظلمة ، وان تصل الى الناس وان «تزدهر» أيضا .. بل وتتولى الدولة نفسها بأجهزتها الواسعة الانتشار والنفوذ ، عملية التوصيل .

وقد يكون ظهور شوقي وحافظ وغيرهما من أعظم الامور ، ولكن وصول شعرهم وفكرهم الى اعرض قطاع من القراء ، ما كان ليتم الا بفضل القطاع العام في النشر والمسرح والسينما وغير ذلك من منجزات حقيقيـة للثورة أتاحت للمحرومين من نعمة الثقافة ان يتذوقوا الفن الرفيع . وهو الامر الذي لم يكن متوفرا في «الماضي الذهبي» . ولعل التفكير في سطوع «نجم» أدبي أو فني يجب ألا يلغي التفكير في «القارىء» أو «المشاهد» الذي يتوجه له هذا الادب والفن .

يبقى اننا في الغرب لا نسمع أحدا يصيح : من جاء بعد شكسبير ، الا اذا كان الصائح قد انقطع عن الدنيا ولم يعد يحيا الا في كهف العصر الاليزابيتي .. اما من يعرفون جون ازبورن وهرلود بنتر ، فيستغربون السؤال ويعتبرونه مزحة .

والامر يختلف في بلادنا ، فاذا تساءل أحدهم عمن جاء بعد شوقي أو محمد التابعي أو أم كلثوم ، فاننا لا نستغرب السؤال بل نستعيد قراءة مسرحية قديمة لتوفيق الحكيم عنوانها «أهل الكهف» .. ونضحك طويلا، رغم انها «مأساة» .

١٩٧٨/١٢/٧

ضريبة البطولة

هل أصبح داخل بعض المثقفين العرب «دكتاتور» صغير ، لا يطيق رأيا « آخر » سواء بالموافقة او الاختلاف ، ويتصور نفسه الصواب المطلق والحكم النهائي ، ولا راد لحكمه كأنه مشيئة القدر ؟ هو الالف والياء ، ما كان هناك قبله ولن يكون هناك بعده ؟

وهل ضاقت «القمة» بحيث لم تعد تتسع لغير «الاوحد» في الشعر والرواية والمسرح والفكر السياسي والنقد والفكر الاجتماعي و ... وكل شيء تقريبا ؟

قبل محاولة الجواب لا بد من الاقرار بحقيقتين :

● الاولى هي ان تضخم «الانا» ليس مرضا عربيا كما يشيع ذلك خصوم العرب من العنصريين ، كما انها ليست من جوهريات «البرجوازية الصغيرة» كما يرى «هواة» التحليل الاجتماعي . كذلك فان تضخم «الانا» ليس مرضا في جميع الاحوال .

بل هي ظاهرة نفسية ــ اجتماعية ، عرفتها جميع الشعوب ، وكان اكتشافها وتوصيفها في البداية من الغرب وعن الغرب . وهي ظاهرة ليست خاصة باحدى الطبقات دون غيرها ، وان تميزت بها بعض الشرائح في بعض المجتمعات في بعض لحظات التاريخ. وبالتالي، فلا ضرورة للتعميم ، الا في حالة واحدة هي « الفنان » . وهي ليست حالة مرضية بشكل عام ، بل هي تعبير معقد عن ذلك «التمايز» الذي يشعر به المبدعون ازاء

غيرهم من الناس . وقد تصل الحالة الى حد المرض في نماذج محددة ، ولكنها لا تصلح للقياس .

● الحقيقة الثانية : هي ان المثقف العربي على نحو خاص ، قد عانى خلال ربع القرن الاخير ويلات اشكال الحكم التي تناوبت الظهور ، أكثر كثيرا مما عانته الطبقات التي كان يصوغ أحلامها وطموحاتها وأهدافها . وأكثر كثيرا من «الدور الموضوعي» المرسوم للمثقفين عموما في دورة الانتاج . وأكثر كثيرا مما عاناه زملاؤه في مختلف بقاع العالم الحديث .

كان المثقف العربي ــ بالمعنى الشامل للثقافة ــ مطالبا خلال عقدين من الزمان واكثر ، ان يقود بنفسه خطة التنمية ، وان يقود بنفسه عصر التنوير، وان يدفع ثمن النهضة والتحرير الوطني عرقا ودما في ساحات القتال من أجل الديموقراطية وفي جبهات النضال ضد الاحتلال ، وفي ميادين الصراع ضد الثوابت الراسخة من أكداس التخلف ، لذلك دفع ثمنا استثنائيا ، وأحيانا مجانيا ، في ظل مختلف مضامين السلطة واشكالها بدءا من سلطة الاجنبي الى سلطة الاقطاعي الى السلطة الوطنية ذاتها .. وكم قاسى المثقفون العرب من هول التناقض بين الغايات والوسائل واتساع المسافة بين الاهداف والاساليب حتى انهم كابدوا في كثير من المواقع تمزقا مريرا بين الواقع والحلم ، وبين الشعار والضمير .

* * *

هاتان الحقيقتان لا تؤديان الى الظاهرة الخطيرة التي تجتاح نفسية المثقف العربي اليوم في زمن الاحباط .. فلقد كان المتصور ، ان الجرعة المحسوبة من النرجسية لن يتضاعف أثرها حتى لتصبح «سما» يغرق فيه المثقف حتى العنق . حتى أن « أفعل التفضيل » لم يعد مجرد مصطلح نقدي خاطىء ، بل قناعة لدى الكل يلغي بها الواحد «الآخر» فهو ليس الافضل فقط بل الوحيد .

وهي قناعة ضد العمل نفسه ، بالاضافة الى الواقع ... فلقد تشعبت

الحيـاة وتفرعت أدوات الكشف والتجارب ، بحيث لم نعـد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب في عصر «الفرد العملاق» ، بل فريق العمل العمـلاق . ليس ذلك في النقـد الادبي أو البحث الاجتماعي أو الفكر السياسي ، بل في الابداع الفني أيضا ... فلم يعد ممكنا ظهور شكسبير واحد او دوستويفسكي واحد أو متنبي واحد أو نجيب محفوظ واحد أو جواهري واحد أو مايكل انجلو واحد .

لقد أصبح ممكنا تجاوز هؤلاء جميعا طولا وعرضا وعمقا ، ولكن عبر « المجموعة » و « التيار » و « الحركة » و « الموجة » و « الجيل » فالذين يبحثون عن بلزاك جديد ولا يجدوه ، عليهم أن يبحثوا عن أعظم منه وأروع في أكثر من بلزاك . والذين يبحثون عن هيغل جديد او سارتر ولا يجدونه، عليهم ان يكتشفوا من هو أعلى من هذين الفيلسوفين شأنا ، في تيارات وحركات وموجات متوازية ، ومتقاطعة ومتشابكة على نحو غاية في الكثافة والتعقيد . بل ان بعض التحقيقات الصحفية في العالم الحديث ، والتي يجريها في القطب الشمالي او في جنوب افريقيا فريق عمل من المحررين والمصورين، هي في حقيقتها «رواية جديدة » لم يعرفها « الادب » من قبلها. ان مصطلحات كالادب والثقافة ذاتها تتغير رغما عنا واحيانا بلا وعي منا . ومشكلتنا مع الظواهر الجديدة اننا نتعامل معها بالمعايير القديمة ، فاما ننكرها أو لا نراها أو لا نباركها كما لو كنا آلهة الاوليمب وكهنة معبـد أبولو .

لذلك يبدو المثقف العربي الذي يتوهم لحظة أنه «الاوحد» في الفكر أو الثقافة أو السياسة أو الفن ، في وضع يجمع بين المهزلة والمأساة ، فهو أبعد ما يكون عن حساسية العصر الجديد وقوانينه المختلفة كيفيا عن العصور الماضية . فهو في الحقيقة اذ يلغي الآخر يلغي نفسه والثقافة معه .

وعندما يصبح المثقف العربي «وحيدا» ، فانه يتحول الى دكتاتور كاريكاتيري ، لان مملكته ليست من هذا العالم ، بل من نسيج الوهم ...

فهو حين ينفي الجميع ، انما ينسى «الاصل» في مأساته شخصيا . ينسى أنه يقلد « الجلاد » الذي سقاه كأس المر حتى الثمالة . وينسى أن الهزيمة الحتمية هي مصير أعتى الجلادين مهما طال به العمر ، هزيمة الدكتاتور والتجربة معا .

ويحز في نفس المرء ان تكون المقولة السيكلوجية صحيحة ، وهي أن الضحية نسخة جديدة عن جلادها ، اذا ما اتيحت لها الفرصة . ولكن الفرق شاسع بين دكتاتور حقيقي يملك مقاليد السلطة ، ودكتاتور من ورق ... يكرس بأوهامه المريضة قيم التخلف والقهر والطغيان التي سبق ان ناضل ضدها .

ولكن يبدو أن هذه ضريبة العربي الحديث في صراعه البطولي ضد قوى الظلام ... أن تتضخم «الانا» عند بعض مثقفينا لدرجة المرض ، وان ينمو داخلهم دكتاتور صغير ، لدرجة الانتحار .

١٩٧٨/١٢/١٤

عندما يتكلم أبو الهول

منذ حوالي مائتي عام حاول المرحوم بونابرت ان يقتل تمثالا حجريا ضخما وان يدمر مقبرة هائلة ، بالجزء الصحراوي المتاخم لمدينة «الجيزة» شرقا . وقــد تمكنت «الحضارة الحديثة» من ان تكشط جزءا من أنف التمثال الحجري وجزءا من السقف العلوي للمقبرة .

ولم يكن التمثال الحجري الغريب ، لاحد حكام مصر السابقين أو المعاصرين للقائد الفرنسي «المظفر» . بل كان «كولاج» من وجه انسان وجسم حيوان . وبالرغم من ان المقبرة الهائلة ، كانت لاحد الفراعنة ــ ويسمى خوفو ــ الا ان جثمان الملك الراحل ، لم يكن هناك ، حتى نظن ان طلقات المدفع كانت تستهدف السرقة .

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن حملة الغرب (الفرنسية) على مصر ، لم يتوقف المؤرخون عند الهدف من هذه الجولة العسكرية ضد الحجــارة المصرية القديمة ... فلا يستطيع المرء ان يغمط نابليون (الجبار) حقه في انه كان رجلا ذكيا ، وانه لا يمكن ان يأتي مثل هذا العمل المثير عن غضب من وثنية المصريين القدماء ، او لرعبه من شكل ابي الهول ، او لانه كان يريد بناء كازينو محل الهرم الاكبر .

التفسير الحقيقي اعطاه الفرنسيون انفسهم ، وعلى نحو يسجل الى اليوم موقف (الغرب) من مصر ، ايا كان اللون الغربي فرنسيا او بريطانيا أو اميركيا ... ففي ساحة المعهد العلمي العريق الكوليدج دي فرانس في

باريس ، تمثال يبعث على الاشمئزاز يصور العالم الفرنسي شامبليون الذي اقترن اسمه بحجر رشيد حيث استطاع ان يفك رموز اللغة الهيروغليفية المكتوبة على هذا الحجر . ولكن شامبليون ، كما حكى لنا الرواة ، لم تكن له أدنى علاقة بأبي الهول ، فلم يحدث ان تعارفا او انهما دخلا في معركة انتصر فيهــا العــالم الفرنسي . ولكن التمثال الذي يتصدر الكوليدج دي فرانس ، يصور هذا الرجل وقد وضع قدمه ـــ نعم قدمه ـــ على رأس أبي الهول . هكذا .

هل يمكن ان يكون الكشف العلمي انتصارا على الحضارة ام كسبا لها؟ وهل يمكن ان يكون المعنى هو ان شامبليون أرغم ابا الهول على الكلام بعد طول صمت فنطق «الهيروغليفية» ؟ وهل يمكن لابي الهول الا ينطق الا اذا ديس بالاقدام الغازية ؟

الجواب في تقديري ان هذه الاحتمالات كلها ليست صحيحة ، وانما التمثال الفرنسي يوجز بقصد او دون قصد لا يهم ، جوابا مستمرا على سؤال قديم هو : لماذا ضرب بونابرت ابا الهول والهرم الاكبر مقبرة الملك خوفو .

قبل الاستطراد لا بد من التذكير بأن الحملة الفرنسية حملت معها الى مصر وزارة ثقافة كاملة من مطبعة وعلماء وخبراء ، وانجزت مسح وادي النيل في أضخم سفر مكتوب حتى الآن اسمه «وصف مصر» . يتخذ البعض هذا الحدث للتدليل على «حضارية» الفتح الغربي ، ويتجاهلون عمدا الوجه الآخر للعملة ، حين صوبت المدافع الفرنسية الى مقبرة اثرية وتمثال قـــديم لوحش انساني .

والحكاية ببساطــة هي ان مصــر المملوكية لم تكن تناسب الغزو الامبراطوري للبرجوازية الاوروبية الصاعدة . وكان لا بد من «تحديث» البلاد المفتوحة ، حتى تصبح أرضا صالحة لهذا الغزو . ولم يكن « وصف مصر » عملا لوجه الله والحضارة ، بل كان مسحا جغرافيا اجتماعيا تاريخيا،

يقوم به الفاتح الغربي لمصلحة الوافد الفرنسي او غيره من الوافدين اللاحقين .

أما ضرب ابي الهول ومقبرة خوفو فهو الموقف الحقيقي من الحضارة ... فالهرم الاكبر أحد شهود التاريخ . وهو ليس تاريخ الملك القديم ، بقدر ما هو تاريخ الفلسفة والدين والرياضة والمعمار القديم، اي تاريخ«الانسان» في هذه المنطقة من العالم . وقد أراد الغرب ، ولا يزال يريد منذ طلقات مدفع نابليون ، أن ينفي انسان هذه المنطقة خارج التاريخ ، أن يسلبه تاريخه بتعبير أدق .

أبو الهول في المخيلة الشعبية يرادف الصمت . والصمت حالة انسانية لا علاقة لها بحيادية الجمادات . لذلك لم يكن ابو الهول في عيون بونابرت حجرا أصم . بل الصمت مرسوم على الشفاه ، والانف عنيدة الكبرياء ، والنظرة الى الافق تحاور المستقبل .

وهزم نابليون في مصر والشرق كله وانتهى به الامر سجينا في جزيرة نائية . وبقي ابو الهول في مكانه لا يتزحزح ، صامتا حقا ، ولكن نظرة عينيه تثقب المجهول .

ومن مفارقات التاريخ ان الاسد الفرنسي المهزوم ، هو الذي تنبأ بقيام مصر العربية على يدي « رجل الاقدار » محمد علي ، وكأنه استشف القانون والقانون المضاد ، فمصر عربية او لا تكون .

وفهم الغرب حكمة بونابرت بعد وقت قصير ، فأسقطوا محمد علي منذ أكثر من قرن ، وحين نهضت مصر العربية من تحت الانقاض في حرب « السويس » اسقطوا عبدالناصر منذ أكثر من عشر سنوات في سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة .

وبقي ابو الهول صامدا ، لا يتكلم حقا ، ولكنه يستبصر البعيد . لم تسقط دموعه ، رغم الزلازل والبراكين التي فجرتها ارض الهزيمة . لم يصرخ والدنيا كلها من حوله نباح .

* * *

... وهذا الاسبوع وقع حادث غريب . قال علماء الآثار ان قشورا بدأت تسقط من حول عيني ابي الهول . ربما يفكرون في ارساله الى فرنسا كما فعلوا برمسيس الثاني ، للعلاج .

ولكن أبا الهول سيرفض . فرمسيس كان ملكا قال كل ما عنده ومات. اما ابو الهول فلم يتكلم بعد .

ولكننا تلقينا البشارة ، فالقشور المتساقطة ، ليست أكثر من دموعه المختزنة طيلة العصور . وسقوطها هكذا فجأة ، يعني انه سيتكلم .

وحين يتكلم أبو الهول ، فان الامر المؤكد ان شامبليون سيجد نفسه في تمثال جديد يؤدي التحية للتاريخ والحضارة .

١٩٧٨/١٢/٢١

والله زمان يا سلاحي

قرر الرئيس السادات ، ضمن مبادراته الاستثنائية في تاريخ رؤساء الدول ، تغيير النشيد الوطني المصري ، من موسيقى وكلمات «والله زمان يا سلاحي » الى موسيقى وكلمات «بلادي بلادي» .

والقرار ، ككل قرارات الرئيس ، بلا حيثيات ، ولم تحدث بشأنه أية مشاورات . ولكن المصادر القريبة من القصر الجمهوري تطوعت ، كعادتها، بتقديم المبررات الكافية : فسيد درويش علامة وطنية بارزة في تاريخ الموسيقى المصرية وفي تاريخ ثورة ١٩١٩ على السواء . ومؤلف الكلمات هو الزعيم الوطني الكبير مصطفى كامل . وبالمناسبة ، فهو مؤسس المرحلة الثانية من «الحزب الوطني المصري» الذي يتخذ الرئيس السادات اسمه لحزبه الجديد .

ولكن هؤلاء المقربين من الرئيس المصري يتجاهلون السؤال الآخر ، وهو : لماذا يتغير النشيد الراهن ؟ فلا أحد يظن ان المعركة ، أصلا ، بين الفنان العظيم سيد درويش والسيدة ام كلثوم ، فكلاهما في ذمة التاريخ .

ولا أحد يظن ان المعركة قائمة بين مصطفى كامل والشاعر صلاح جاهين صاحب « والله زمان يا سلاحي » ، فالاول زعيم سياسي توفاه الله منذ سبعين عاما ، والآخر شاعر ورسام لا زال حيا يرزق من الصحافة والانتاج السينمائي والاذاعة والتلفزيون وتأييد الرئيس السادات .

والحقيقة هي ان ليس من مصري واحد . ولا من عربي واحد يعترض

على عظمة الشيخ سيد ومصطفى كامل ونشيدهما الباقي بقاء مصر والعرب . وربما كان الارجح هو ان الموسيقار العظيم والزعيم الوطني الراحلين ، هما اللذان يحتجان من القبر على هذا «التمسح» باهدابهما التاريخية و «انتحال» اسميهما . فالسيد درويش الذي اعطى روحه للثورة وللعمال والطلاب والكادحين ، وحارب الثراء والاحتلال الاجنبي حتى لفظ انفاسه ، لم يكن يحلم بأن يتخذ اسمه ودمه عنوانا للثورة المضادة ولحنا للتفريط في الارض والانسان . ومصطفى كامل . الشاب الرومانتيكي المقاوم للغرب ، لم يكتب «بلادي بلادي» اعترافا بالعدو ، بل دفاعا عن الارض والعرض الى ان مات .

ولم يحلم يوما بأن يتخذ اسمه ودمه رمزا لعصر الانفتاح على اسرائيل والانكفاء عن العرب والمسلمين .

كلاهما ـــ سيد درويش ومصطفى كامل ـــ يباركان « والله زمان يا سلاحي» لانه النشيد الممتد كالشريان من قلبيهما الى قلب مصر . وهما يباركانه أكثر وأكثر لانه أصبح مع الزمن نشيد أكثر من بلد عربي ، لم يعد نشيدا محليا بل نشيدا قوميا شاملا . لماذا ؟

ولد نشيد « والله زمان يا سلاحي » في غمرة بطولات الشعب العربي في مصر ضد اعتى قوى العدوان الاجنبي عام ١٩٥٦ على اثر تأميم قناة السويس . أيامها ، اكتشف شعب مصر ، بالنار والدم ، وجهه العربي ، وحسمت الثورة المصرية موقفها في البحث عن هوية . حسمت اختيارها القومي ، واختيارها الاجتماعي ، وتبلورت في الداخل والخارج ملامح النموذج الرائد لتطور شعوب « العالم الثالث » واكتسبت مصر زعامتها العربية والدولية بالنضال المثلث الجبهات ، ضد الاستعمار العالمي ، والاقليمية المحلية ، والفئات العليا من الرأسمالية .

وامضى الغرب خمس سنوات في التخطيط لضرب مصر : من الداخل بتصفية الوحدة القومية الاولى في العصر الحديث ، عام ١٩٦١ . وبعد خمس سنوات اخرى ، من الخارج : بهزيمة ١٩٦٧ . وانتظر ثلاث سنوات

أخرى ليقبض الثمن .

منذ ثماني سنوات وهو يقبض الثمن .

تغيير النشيد القومي ، كتغيير اسم وزارة الحربية الى وزارة «الدفاع» مجرد رمز لقسط من الثمن . فالمصريون لا يفرقون بين « بلادي بلادي » و« والله زمان يا سلاحي » كعدم تفرقتهم بين الحرب والدفاع ... فهم لا يحاربون الا دفاعا ، ولا ينشدون للسلاح الا تطهيرا «للبلاد» وتحريرا للوطن .

ولكنهم ، وهم لا يفرقون بين النشيدين ، يدركون مغزى التغيير .

والتغيير ليس مقصودا به فحسب المرحلة الناصرية التي اقترنت بنشيد « والله زمان يا سلاحي » ... بل المقصود هو ان يفهم الذين استخدم ضدهم السلاح ، ان البعض قرر ان يقول لهذا السلاح وداعا . المقصود ايضا هو ان تمحو الذاكرة الشعبية هذا السطر المضيء في تاريخ مصر ، السطر الدموي البطل ، تمحوه من الوجدان تماما ... حتى لا يبقى حاضرا سوى زيارة القدس واتفاقيات كامب ديفيد .

كما فعلت ثورة يوليو تماما حين حاولت ان تمحو من الذاكرة الوطنية ثورة ١٩١٩ وما سبقها من تاريخ مجيد للبطولات القومية ، هكذا يحاول النظام الراهن ان يلغي تاريخا آخر بالقفز الى الماضي .

ولكن الوجدان العربي في مصر لا ينسى ويتذكر حسب التعليمات ، قد يغيرون له اسم مصر ذاتها ، شوارعها ومدنها ، وحتى رايتها ، قد يعودون بها الى اللون الاخضر والهلال والنجوم الثلاثة . قد يغيرون برامج التعليم ــ التي شرعوا في تغييرها فعلا ــ فتصبح «اسرائيل» صديقا و «فلسطين» عــدوا .

غير ان الناس البسطاء لا زالوا يسمون شارع ٢٦ يوليو « شــارع فؤاد » ولا زالوا يقولون « شارع سليمان باشا » . وفي الوقت نفسه يقولون « ميدان التحرير » و « كوبري الجلاء » ... فهم يضيفون الى

تاريخهم ولا يحذفون منه ، حتى ما كان منه رمزا للاستعمار أو الملك أو الباشا . انهم يكتبون تاريخهم بطريقتهم ، أي بالطريقة الوحيدة الصحيحة ، لانهم ، هم لا غيرهم ، الذين صنعوا هذا التاريخ بأمجاده وخطاياه . لذلك فهم لن ينسوا « والله زمان يا سلاحي » كما انهم لم ينسوا «بلادي بلادي» في أي وقت ... وسينصحون الحكومة في نكاتهم وهمساتهم ، تعليقا على القرار الجديد ، أن تتخذ من المطرب أحمد عدوية واغنيته المعروفة « السح الدح امبو » نشيدا وشعارا يرضي حلفاءها الجدد ، لانه الاكثر تعبيرا عن هوية المرحلة ولا علاقة له من قريب او بعيد بوطن عربي لن يموت ويدعى... مصـر .

عن الكتاب ... والحضارة !!

أكثر من قطر عربي يعنيه في الكثير ان يقيم معرضا سنويا للكتاب . فالمعرض من ناحية « جهاز اعلامي » جيد التوصيل عن الدولة المضيفة . ومن ناحية اخرى هو سوق جيـد للعملة الصعبة ، وفرصـا لا تعوض للسوق السوداء و .. و ..

لكن لبنان وحده من بين جميع الاقطار العربية ، لا يقيم معرضه السنوي للكتاب ، لهذه الاسباب ... فهو ليس محتاجا الى جهاز اعلامي اضافي ، فبيروت على الرغم من أنف الحرب ما زالت مركز الاعلام العربي الرئيسي ، ولبنان نفسه لا يحتاج نظامه الى « دعاية » وهو ما يزال تحت الانقاض ، فهو أحوج الى الرعاية لا الى الدعاية . وبيروت مركز للعمـلات الحرة فلا علاقة لها بسوق سوداء أو حمراء . ولبنان على الرغم من صواريخ السنوات الاربع لم يحرق الكتب عنـد درجـة ٤٥١ فهرنهيت في مكتب « الرقيب » .

لذلك ، فحين يقيم اللبنانيون معرضا للكتاب ، فأنهم لا يقيمونه لاي سبب خارج الكتاب . ولذلك أيضا ، فان المعرض الذي يقيمه سنويا النادي الثقافي العربي اللبناني ليس معرضا بل عرسا للكتاب واحتفالا حضاريا .

وتشاء المفارقات ان يكون الامر عكسيا تماما في معرض القاهرة الـدولي الاسبوع المقبـل ... حيث سيتم القران السعيد بين الاقتصـاد الصهيوني والرأسمال الطفيلي المصري للمرة الاولى ، عن طريق الكتاب .

وذلك بموافقة الحكومة المصرية على طلب الناشرين الاسرائيليين بعرض انتاجهم في المعرض المصري .

أي انه سيصبح مشروعا ورسميا و «ديموقراطيا» الى أقصى الحدود، ان يتسنى للقارىء المصري ــ دون حدود او سدود او قيود ــ الاطلاع على منجزات الفكر العبري وابداعات الادب الاسرائيلي وعطاء الثقافة الصهيونية. وكلها ، بتنويعات مختلفة ، عزف يهودي منفرد على اللحن العنصري المضاد للعرب وفلسطين ومصر ، في الماضي والحاضر والمستقبل .

وفي الوقت نفسه لن تسمح « ليبرالية » النظام المصري لمؤلفات بعض الكتاب المصريين أنفسهم ــ فضلا عن الكتاب العرب ــ من ان تنال حظوة العرض جنبا الى جنب مع الكتاب الاسرائيلي ... فالكاتب المصري أو العربي عموما الذي يحب مصر وفلسطين ، لن ينال هذا الشرف .

لذلك ، سيفاجأ القارىء المصري بأن يشتري رواية لبنت دايان أو مذكرات والدها او ذكريات غولدا مائير، أو كتابا عن تحضير الارواح بالسلة لانيس منصور او كتاب « البحث عن الذات » في العربية والعبرية معا . وقد يتصور القارىء المصري نفسه في كابوس ، ولكنه سيتأكد بعد حين انه ليس كابوسا ، بل هو معرض ... ضد الحضارة ، ضد الكتاب .

* * *

بينما تقول لنا نتائج معرض النادي الثقافي في بيروت شيئا مختلفا :

● تقول لنا ، أولا ، ان شعبا مقهورا بالصواريخ والحواجز ، شعبا صغيرا في العدد ، خرج منه سبعون ألفا يشترون الكتاب «العربي». فليس صحيحا المثل القائل ان المصري يكتب واللبناني ينشر ... فاللبنانيون في عشرة أيام أثبتوا انهم الناشر والكاتب والقارىء رقم واحد في العالم العربي ، صحيح ، ان القاهرة ودمشق وبغداد والكويت ، تكتب وتنشر وتقرأ أيضا ، لكن هذا الرقم القياسي في زمن الحرب ، يمنح بيروت المرتبة الاولى .

● تقول لنا النتائج ثانيا ، ان «الحرية» هي لب لباب الوجود اللبناني، فلم يحدث حظر على اي كتاب لمثقف عربي من المحيط الى الخليج ، من اليسار الى اليمين مرورا بالوسط ، بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو المذهب أو الايديولوجية . كانت الحرية هي الراية والشعار والممارسة ، فلم يمنع كاتب أو كتاب ولم يقهر رأي أو مفكر . كان كل شيء معروضا بـلا تمييز أمام القارىء ، وعليه ان يختار ما يريد لا ما يراد له .

● تقول لنا النتائج ثالثا ، ان « الوعي » الذي يشير اليـه احصـاء السبعين ألفا من زوار المعرض و «الحرية» التي تشير اليها ضوابط العرض بلا رقابة ، قد أثمرا «اختيارا» حاسما الى التيار الفكري الاكثر تقدما : من التراث كان كتاب «القرامطة» الاكثر مبيعا ، وكتاب «النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية» . عن لبنـان كان كتاب «حرب لبنان» الذي يسجل صورة الحرب المأساوية، جنبا الىجنب ديوان شعر نزار قباني فيحب بيروت . عن الصراع العربي الاسرائيلي كان كتاب مؤسسة الدراسات الفلسطينية الذي يسجل زيارة رئيس أكبر دولة عربية لـ «اسرائيل» . أي «لبنان والعرب والاسلام التقدمي» كان الاختيار الفكري الحر للقارىء اللبناني من دون ضغط أو اكراه .

● تقول لنا النتائج رابعا ، ان الكاتب غير اللبناني المقهور في وطنه ــ وخصوصا الكاتب المصري ــ كان حاضرا في معرض بيروت ، على الرغم من غيابه عن معرض القاهرة ، أو بسبب ذلك الغياب . وكأن بيروت رغم كل ما تهدم في أبنيتها المادية لا زالت الملجأ والملاذ للفكر العربي الحر ... لا باريس ولا غيرها من عواصم الدنيا بقادرة أن تكون بديلا حقيقيا لبيروت . لمـاذا ؟

لا يمكن ان يكون السبب مجرد «شطارة» تجارية، كما يشيع باشوات مصر السابقين والجدد ، ولا يمكن ان يكون السبب «ليبرالية التعـدد الطائفي» بعد انهيار هذه الليبرالية في سنوات الحرب .

وانما يكمن السبب الحقيقي في الانسان نفسه ، الانسان العربي في لبنان ، ذلك الشعب المفطور على محبة الحرف وعشق الحرية واحتراف الحضارة .

١٩٧٩/١/٤

بعد الجد أولاً .. هذا صحيح مائة بالمائة
الانسان اللبناني هو المفصل الأول .
هو الحضارة العربية بعد زواجها بروح العصر .

١١/١٢/١٩٨٥ .

النور والظلام في الفكر العربي

من سبق من ؟ سؤال غريب يهواه بعض المثقفين العرب ممن يهتمون بتاريخ الفكر العربي الحديث ، في مختلف فنون الادب ، كان السؤال يطفو على السطح بين حين وحين .

وللوهلة الاولى ، يتخذ السائل سمت القاضي العـادل ، الذي يرفع الظلم عن أحدهم بالتأكيد على انه سبق الآخرين — من المشهورين — في هذا الميدان او ذاك . وللوهلة الثانية يتخذ السائل سمت المؤرخ المنصف الذي يكتشف المغمورين أو المجهولين ممن لم تتح لهم أضواء الشهرة والمجد .

في الشعر الحديث ، مثلا ، دارت رحى معركة عقيمة ، حول بدر شاكر السياب ونازك الملائكة : أيهما أسبق في استخدام التفعيلة الواحدة أو ما سمي حينذاك بالشعر الجديد .

وكاد الامر ان يتحول في بعض الاحيان ، الى نكتة ، فلم يكن احد من رعاة الشعر ومؤرخيه مع بدر أو نازك أثناء كتابة الاول قصيدة « أزهار » وكتابة الثانية لقصيدة « كوليرا » عام ١٩٤٧ . ولم يكن أحد من هؤلاء الرعاة من سعاة البريد حتى نكتشف لماذا سبقت هذه القصيدة زميلتها في النشر . ولم يكن أحد من العاملين في المجلة التي نشرت ، حتى يحيطنا علما بمزاج رئيس التحرير او سكرتير التحرير أو عامل المطبعة ، وغير ذلك من العوامل التي من شأنها أن «تحسم» من سبق من ؟

وكان الحل السعيد لدى البعض هو «اكتشاف» ان لا بدر ولا نازك

ولا الحيدري ولا البياتي كان أحدهم «الاول» ... بل هناك فلان المصري أو اللبناني الذي كسر عمود الشعر الخليلي في الثلاثينات أو العشرينات. ومن يدري فربما امتدت «الكشوف» الى «كسور أثرية» تبقت من العصور القديمة.

هذه «الهواية» وهذا «الهوى» بمن هو الاول ، أو من سبق من ، لا علاقة له بالتاريخ ولا بالثقافة من قريب أو بعيد . فحين اكتشف البعض في مصر فجأة ان هناك كتابا عن الاشتراكية لمصطفى حسنين المنصوري يسبق كتاب سلامة موسى ، وكتاب نقولا حداد ، فضلا عن كتابات شبلي شميل وفرح انطون، لم يكن هذا «الاكتشاف» ليغير من تاريخ الفكر العربي الحديث.

من المفيد اكاديميا بغير شك ان تكون لدينا خريطة واضحة لتطورنا الثقافي في أدق تفاصيلها ، وكل «معلومة» جديدة مطلوبة دائما لتصحيح الخريطة بالحذف والتعديل والاضافة . لكن هذا شيء ، و «تاريخ الافكار» شيء آخر .

... فمثلا ، ليس مهما على الاطلاق ان نعرف من سبق الآخر في تجديد الشعر ، نازك أم بدر ، فالاهم ان يقال ان أواخر الاربعينات من هذا القرن كانت تغلي بتجديد الحياة العربية والثقافة العربية والشعر العربي ، وان «جيلا كاملا» قد استجاب لهذا الغليان بأن انجز هذا التجديد ، وان هذا الجيل « حركة اجتماعية ــ ثقافية » وليس مجموعة افراد عاشوا وماتوا فنيا أو حياتيا بين تاريخين محددين . يجب ان ننظر الى «التاريخ» بعد مائة سنة على الاقل ان لم يكن أكثر ، لا ان نطلق عليه الاحكام والتصنيفات ونحن لا زلنا في بدايته ... ان «الريادة» في الشعر الحديث ، على سبيل المثال ، ليست لقبا لفرد ولا توصيفا لعامين او ثلاثة ، بل هي « حركة جيل » متصلة لم تنته بعد ، بحيث اني اعتبر شاعرا كسعدي يوسف او محمود درويش من «الرواد» رغم انهما لا ينتميان ــ عمرا ــ الى ذلك الجيل الذي تنسب اليه تقليديا صفة الريادة .

كذلك الامر في «الفكر» ، فليس المهم ان المنصوري ألف كتابا باكرا

في الاشتراكية ، فالاهم ان كاتبا كسلامة موسى «استمر» في هذه الدعوة التي استجابت لها افواج من الشباب الطالع حينذاك ، وانه «ناضل» عن فكرته بالالتحام المباشر مع التجربة الاجتماعية للشعب العربي في مصر . ومن هنا ، فريادته ليست لانه كتب عن الاشتراكية كتيبا صغيرا عام ١٩١٢ بل لانه اسس حركة « اجتماعية ــ ثقافية » نمت وتطورت وتجاوزت صاحبها طوال خمسة وستين عاما .

وما نقوله عن الشعر والاشتراكية ينطبق على بقية ميادين العلوم الانسانية ورموزها الرائدة في تاريخ الفكر العربي الحديث ... اما حين يتصور البعض انهم « يفاجئون » الرأي العام باكتشافات جديدة تدور كلها حول « من سبق من » ، فانهم لا يفعلون ذلك مرضاة لله والحقيقة والاكاديمية ، بل هم لا يخرجون على ثلاثة انماط :

● الاول اقليمي ، كذلك «الاكتشاف» القائل ان مصريا أو لبنانيا سبق الشعر العراقي في التجديد . ربما كان ذلك صحيحا من ناحية البحث الاكاديمي الصرف ، ومن دون نسبة بأكمله الى جهد لويس عوض وعلي أحمد باكثير ، بل اساسا الى محمد فريد ابو حديد . لكن هذا التجديد لم يتم انجازه بشكل رئيسي ولم يتحول الى «حركة» الا في العراق أولا . لذلك كان الافضل هو البحث عن الاسباب التي تقودنا الى «خصوصية العراق الشعرية» بدلا من الاوهام الاقليمية العقيمة ، خصوصا ان الشعر الحديث، بعد انطلاقته العراقية، تحول الى «حركة عربية» خالصة ، لا فضل فيها لعربي على عربي الا بقدر ما يضيفه من عطاء وابداع . ان الرواية والمسرح والنقد والسينما ازدهرت أولا أساسا في مصر ، اما الآن فهناك رواية عربية جديدة لا جنسية اقليمية لها ، يكتبها جبرا ابراهيم جبرا وعبدالرحمن منيف وغادة السمان وحيدر حيدر والطاهر الوطار وغيرهم . كذلك الامر في الفنون التشكيلية ، فقد ازدهرت لاسباب موضوعية وحضارية عريقة في القاهرة وبغداد ، لكنها الآن تزدهر في العديد من

العواصم العربية السينما الجديدة خارج مصر ، هي السينما العربية التي تكسب احترام العالم ... بينما كانت العاصمة المصرية من أقدم العواصم التي ولد فيها هذا الفن ، وهكذا ...

● السبب الثاني طائفي ، «فالاكتشافات» المفاجئة لبعض الاسماء المجهولة في تاريخنا الثقافي ، ليست منزهة أو بريئة من الحساسيات الطائفية التي قد تعثر في الحفريات القديمة على بعض الآثار ، فتبالغ في أهميتها وتكبير أحجامها ، لعلها تغطي على القيمة الحقيقية والمستمرة للآخرين ممن لا ينتمون الى هذه الطائفة او هذا المذهب أو ذاك الدين .

● السبب الثالث هو التشكيك في « تاريخنا » وقيمه الاساسية الثابتة ، بقصد زحزحة هذه القيم عن مكانها في عقولنا ووجداننا القومي .

ومن هذا النوع ، كتاب «عصر التنوير العربي» الصادر حديثا لفاروق أبو زيد في بيروت ... فلو ان المؤلف تواضع قائلا ان كتابه عن «ارهاصات مجهولة في تاريخ الفكر العربي الحديث » لكان ذلك شيئا مهما ومطلوبا ، لكنه قال حرفيا « من شأن هذه الصفحات ان تدعونا لاعادة النظر في كثير من المعلومات والآراء المعروفة والراسخة في تاريخ الفكر العربي الحديث » فمثلا محمد قدري المستشار القانوني لمحمد علي في حكم الشام ، أصدر كتابا «في التمدن» يسبق به لطفي السيد في العقلانية . وهي المعلومة الوحيدة التي كان جديرا بالمؤلف ان ينقلها بصورة مختلفة ، بأن ينشر الكتاب المذكور كاملا مع مقدمة . اما كلامه عن أديب اسحق وقاسم امين وعبدالله النديم وسليم البستاني ورفاعة الطهطاوي والشيخ علي يوسف ، فليس فيه أي جديد على الاطلاق ومؤلفات هؤلاء الرواد موجودة ومحققة ولا تحتاج الى «عناء الكشف» ... فضلا عن «التشكيك» الذي يثير الغبار فقط فيحول النور الى ظلام ... فهذا الكتاب ، بقصد او بغير قصد ، يتوافق مع الحملة الراهنة في مصر على عصر التنوير العربي الحقيقي ، باطفاء المصابيح القليلة المضيئة والبحث عن مصابيح مهشمة لا زيت فيها .

لبنان ... العقيدة والشهادة

صديقي اللبناني الذي توجع من كلمات الباشا العجوز فكري اباظة عن لبنان ، والباشا الجديد انيس منصور عن اللبنانيين ، له بعض الحق ، وليس له كل الحق .

له بعض الحق ، لان فكري اباظة الذي لا يرى في لبنان الا مصرفا كبيرا وفي اللبنانيين مجرد تجار شطار ، ينسى ان البناء الذي يقيم فيه منذ نصف قرن يدعى «دار الهلال» . وان هذه الدار لم يؤسسها اي باشا أباظي، بل شيدها اللبنانيان اميل وشكري زيدان . وعلى الرغم من ان «دار الهلال» انجاز لبناني ، الا انها ظلت منذ تأسيسها منبرا عربيا ومدرسة عربية في فكرنا الحديث ، احتل فيها الادباء والمفكرون المصريون مكانا بارزا ... بينما كانت المجلة الثانية في ذلك الوقت ، لبنانية أيضا هي «المقطف» التي أسسها يعقوب صروف . اما المجلة الثالثة السابقة عليهما ، فكانت «الجامعة» لفرح أنطون .

وفي هذه المنابر كلها ، لم يكن اللبنانيون تجارا ولا شطارا ، بل هم قدموا اعظم الخدمات لفكر النهضة العربية الحديثة ، كما اسهموا اروع المساهمات في رعاية الكتاب المصريين والثقافة المصرية .

وكانت «دار الهلال» في الزمن القديم وزارة ثقافة كاملة ... فكانت تنشر من المجلات الاسبوعية الباقية «المصور» و « الكواكب» و «حواء» ومن المجلات والمطبوعات الشهرية «مجلة الهلال» و «روايات الهلال»

و «كتاب الهلال » .

ولقد تكون هناك تحفظات على التاريخ الفكري لهذه المنشورات ، لكنها تحفظات على مواقف المصريين قبل غيرهم ممن كتبوها وحرروها . كما انها التحفظات التي تجوز على بقية المؤسسات المصرية غير اللبنانية .

وسوف يسجل التاريخ دائما ان ابرز انتاج المصريين والعرب عامة طوال نصف قرن ، قامت بنشر «نصفه» على الاقل «دار الهلال» ... سواء كان هذا الانتاج فنيا أو فكريا ، محليا أو مترجما . وقد كان جورجي زيدان هو الذي أصدر مسلسله الروائي عن الاسلام ، بينما كان فكري اباظة نديم الملوك ينحني امام الملك شاكرا رتبة الباشوية فاذا كان يرى في اللبناني تاجرا ، فانه يكفي هذا التاجر فخرا انه بنى مؤسسة شاهقة للصحافة العربية والفكر العربي .. لولاها لما عرف أحد عن الاباظيين انهم يتقنون شيئا غير طبخ العدس .

ولصديقي اللبناني بعض الحق أيضا في توجعه من الباشا الجديد انيس منصور الذي يتذكر فقط من «سرقوا» كتبه في لبنان بتزوير طبعاتها. وعلى الرغم من ان اللبنانيين ليسوا جنسا من الملائكة ، الا ان المنصور أنيس يعلم قبل غيره ان سادة التزوير في لبنان من الايراني الى المصري ، لا يزيفون طبعات كتبه «المقدسة» وحدها ، بل كتب العرب جميعا .

ولا نريد ان نقول لانيس الحكام والمنصور على المحكومين ان القارىء العربي ليس محتاجا لتحضير الارواح بالسلة ولا محتاجا لمترجماته المشوهة ليعرف المخلوقات العجيبة التي بنت اهرامات الجيزة ... ولكننا نقول له ان الدار التي يجلس على عرش رئاستها تدعى «دار المعارف» . ولا بد انه كان يرتدي البنطلون القصير حين كان يقرأ في الاربعينات مجلة «اقرأ» ومجلة «الكتاب» وبقية منجزات التراث العربي والمصري والاجنبي الذي «غامر» بنشره اللبنانيون شفيق ونجيب متري ، ومعهما الشاعر عادل الغضبان ... فشيدا بذلك دار نشر بالعربية في الشرق .

ولربما يفخر الانيس غير المنصور انه صاحب مجلة «اكتوبر» التي يحررها الرئيس السادات ، لكنه ينسى ان عاموده اليومي ينشر في جريدة تدعى «الاهرام» التي مضى قرن على تأسيسها بأيدي جبرائيل وبشارة تقلا وأنطون الجميل . وهم لبنانيون ... أم لعلـه يضيف المؤسسة الصحفيـة الكبرى الى جملة الاهرامات التي بناها الاشباح القادمون من الكواكب الاخرى .

* * *

لصديقي ان يتوجع من أمثال هذين «المصريين» اللذين يتجرأن عـلى لبنان واللبنانيين . ولكنه لا يملك الحق في تجاوزهما الى المصريين عامة أو المثقفين المصريين على وجه العموم ، والا أصبح من دون ان يدري أو يقصد، مثل هذين «الكاتبين» . فهو يجب أن يعلم ان رأي أمثالهما في لبنان يطابق رأيهما في مصر ذاتها .

كما يجب ان يعلم ان لهما نظائر من اللبنانيين ، فالشوفينية ليست مقصورة على شعب دون آخر . ويجب أن يعلم أيضا ان المنجزات اللبنانية في مصر تمت في مصر دون غيرها ، ومع المصريين دون غيرهم ... فلا فضل للبناني على مصري أو العكس الا بما اعطاه لـ «الفكر العربي» . ويجب ان يعلم أخيرا ، انه كما ان المثقفين المصريين مدينون للبنان بالمنابر الحرة ، فانهم في المقابل لم يتنكروا للبنان ساعة المحنة لدرجة الشهادة ... ولن يتنكروا له في المستقبل لدرجة العقيدة .

١٩٧٩/١/١٨

⁄ للحرية ... هوية لبنانية

صديقي غير اللبناني متأثر من انني أكاد افرد صفحة مستقلة للبنان في كتاب الحريات العربية . سألني سؤالا «احراجيا» بلغة اهل المنطق ، أيهما أفضل ، أولئك الذين «يتمتعون» بالحرية ، ام الذين «يناضلون» من أجلها؟ اولئك الذين ولدوا في قصر مفتوح النوافذ على الجهات الاربع ، أم الذين ولدوا في زنازين السجون العربية الاربع والعشرين ؟ لقد دفعنا نحن المثقفين العرب ثمن الحرية سلفا من أرواحنا ودمائنا وقوت اطفالنا ولا زلنا دائنين لم نحصل عليها بعد ، اما المثقف اللبناني فقدموا اليه الحرية على طبق من الفضة واحيانا من الذهب ، فأيهما أفضل وعمن تدافع ؟

كان السؤال «كبيرا» و «منفعلا» . ولو كنت لبنانيا ، لربما كان أكبر وأكثر انفعالا . ودعوت صديقي ان يشاهد معي في هدوء الفصول الآتية :

(١)

في أواخر القرن الماضي وفي أواخر القرن الحالي ، أي على مدى قرن ــ وأكثر ــ من الزمان نقرأ مشهدا «لبنانيا» واحدا يتكرر : المفكرون والكتاب والصحفيون اللبنانيون يغادرون لبنان الى ارجاء العالم الواسع: القاهرة ان امكن (ومن المفارقات ان ذلك كان ممكنا في عهود الخديو اسماعيل والخديو توفيق والخديو عباس حلمي الثاني والسلطان ثم الملك فؤاد والملك فاروق ، ولم يعد ذلك ممكنا في عهد الرئيس السادات) والا فأوروبا .

ماذا نسمي هذه «الهجرة» اذا لم تكن من اجل الحرية ؟ تجارة ؟ البقاء في بيروت لا يقل ربحا ولا يزيد خسارة ، فالامان يتوفر لمن يملك ، والسلع التجارية غير الصحفية أكثر ربحا واقل خسارة . و «اللجوء» الى القاهرة في الماضي ، أو الى باريس ولندن في الحاضر ، لم يكن ظاهرة فئوية خاصة بأصحاب الصحف ، بل ظاهرة عامة شملت الكاتب والمفكر والمحرر... فهو « لجوء الى الحرية » لا الى المصرف الذي لم يغلق ابوابه في بيروت .

وطبعا ، لا فضل لمن اختار المنفى على من اختار البقاء في بيروت ، سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ، الا بقدر ما اعطاه للحرية ... فالذين صمدوا داخل السجن المحترق والذين نفوا أنفسهم الى سجن الغربة يشكلون معا ظاهرة واحدة لا اسم لها غير الحرية .

وبقاء الصحافة اللبنانية الى الآن ، على الرغم من الاعاصير ، في الداخل أو في الخارج هو « الامل » في ان لبنان لا يموت ، على الرغم من مظاهر الموت . انني أصدق تماما ان احد اهداف الحرب ــ لا أحد اسبابها ــ كانت الصحافة . ولانها لم تحترق ، فان ذلك يعني ان لبنان لا زال حيا .

صحيح ان اكثر المثقفين العرب دفعوا ثمن حريتهم سلفا ، ولكن صحيح أيضا ان المثقف اللبناني دفع الثمن مرة واحدة وعلى نحو مكثف لم يشهد له التاريخ مثيلا ، وبالنيابة عن العرب في كثير من الاحيان .

(٢)

اذا كانت مصر ذات الاربعين مليونا من البشر ، قد دفعت مائة ألف شهيد ثمنا للاستقلال الذي ما كادت تحرزه حتى فقدته ، فان لبنان ذي الثلاثة ملايين دفع حوالي نصف هذا الرقم .

واذا كان المعلقون والمحللون السياسيون قد ضاعوا تماما في محاولة توصيف الحرب اللبنانية ، فلانهم نسوا او تناسوا العدو الحقيقي الحاسم في هذه الحرب وهو «اسرائيل» . فاسرائيل لم تكن موجودة حين نال اللبنانيون «استقلالهم» عام ١٩٤٣ . لذلك كان الاستقلال عن الامبراطورية

الغاربة ـ فرنسا ـ استقلالا هشا ومؤقتا وشكليا . لذلك أيضا كانت حرب السنتين او الثلاثة او الاربع ، هي حرب الاستقلال اللبناني للمرة الاولى . ولكنه الاستقلال الذي يرادف عروبة لبنان ووحدته .. فبعد ان كان حاصل جمع « لاءين » للعرب والغرب ، أي استقلالا مزيفا ضد الطبيعة والتاريخ ، كان يصبح في جحيم الحرب استقلالا حقيقيا له مضمون عربي ، لا «وجه عربي » ووحدة وطنية لا « ليبرالية طائفية » .

من هنا تبطل التسميات غير الموفقة او المقصودة : حرب «قذرة» لمجرد ان بعض ممارساتها كانت كذلك كالعديد من الحروب المعلومة والمجهولة . حرب لبنانية ـ لبنانية ، لمجرد ان العدو غير اللبناني قد ارتدى قناعا لبنانية. حرب لبنانية ـ فلسطينية لمجرد ان عروبة لبنان قد ترجمت في ميدان القتال ترجمة صحيحة . وهي ذاتها عروبة دمشق التي جمعت الجندي السوري بالعراقي بالمغربي بالاردني بالفلسطيني في ساحة واحدة . لكن المشكلة هي ان البعض تعامل مع القناع كأنه الوجه . بينما الحرب في مختلف مراحلها كانت حرب لبنان العربي مع الكيان الصهيوني : فمصر السادات ، واسرائيل والولايات المتحدة هي الثالوث غير المقدس الذي شن حربه الوقائية على لبنان واللبنانيين ، ومن خلالهم على «الحرية اللبنانية» .

... فحين برهنت الحرية في خلال ثلاثين عاما من الاستقلال الشكلي انها تدعم وتغذي وتطور التيار الاكثر عصريا وتقدما ، حين تمردت الحرية على الديكور الذي صنعوه لها وراحت تقوم بدورها من أجل الشعب لا من أجل السلطة ، تحول الذين كانوا يتغنون بها الى نازيين وفاشت .

وقبل الانسان العربي في لبنان هذا التحدي ، ودفع من روحه ودمه ما لم يدفعه أحد منا .

(٢)

للحرية العربية هوية لبنانية ، لان ايمان اللبنانيين بحريتهم وحربهم

الاسطورية من أجل هذا الايمان ... لم تكن في أي وقت لسبب «لبناني» فقط .

حين هاجر اللبنانيون بحريتهم الى القاهرة والاسكندرية كانت المعارك الفكرية والسياسية بين بعضهم البعض وبينهم وبين المصريين هي التي «حررت» الفكر العربي ووضعت بذور «النهضة» .

ومنذ أطلق طه حسين عام ١٩٥٤ صيحته الشهيرة « لقد انتقل مركز الثقافة العربية الى بيروت » لم يعد هناك كاتب عربي ذو قيمة وايا كان اتجاهه الفكري ، الا وينشر في بيروت وتناقش مؤلفاته في بيروت وتقوم المعارك حوله في بيروت . حتى انتقل بعض الكتاب العرب بأنفسهم الى بيروت . وبعضهم لم يتركها في اتون الحرب . وحتى الصحافة اللبنانية في المنفى لم تتخل قط عن تقليدها التاريخي العريق ، فهي صحافة العرب وحرية العرب .

.. ولا يمكن ان يكون ذلك كله صدفة

.. ولا يمكن ان يكون تجارة

.. ولا يمكن ان يكون هواية

فماذا يكون يا صديقي ؟

١٩٧٩/١/٢٩

ديمقراطية العزف المنفرد

من الشائعات المبتذلة التي يتداولها المثقفون العرب في لحظات اليأس، ان النظام المصري في ظل السادات ، هو أكثر الانظمة العربية ديموقراطية .

وحين «تتهذب» الشائعة قليلا ، يتساوى النظام المصري مع غيره من النظم ، فالحريات مشنوقــة بطول الشارع العربي وعرضه من المحيط الى الخليج .

وخطورة أي شائعة في ترديدها وتداولها وتكرارها انها تتحول مع الزمن الى ما يشبه الحقيقة . وخطورتها الثانية انها قد تتوسل بجزء من الحقيقة لتنسف الحقيقة كلها ، أي انها أحيانا تكتسي بثوب الحق لتنشر الباطل .

* * *

... فالنظــام المصري في جوهره العميق ، ليس أكثر النظم العربيــة ديموقراطية ، ولا هو يتساوى مع هذه النظم .

ولن ندخل في لجــاج عقيم حول تعريف الديموقراطية ووظيفتها واشكالها وغاياتها . لكننا سنبحث فقط عن « المعيار » الذي نقيس به الامور ، حتى نستقر على رؤيا واضحة لما يجري .

الشق الاول من المعيار المصري ، أي اننا يجب ان نقيس «الحريات» التي «يتمتع» بها المواطن اليوم بالحريات التي عرفها في تاريخه الحديث . ولا مرجع لنا في ذلك سوى الدستور والقانون والممارسة السياسية . وفي

هذا السياق سوف نلاحظ :

● ان دستور ١٩٢٣ الذي حكم البلاد في العصر الملكي الاستعماري حوالي ثلاثين عاما يمنع العيب في الذات الملكية ، ولكنه يبيح تكوين الاحزاب واصدار الصحف وحق الاضراب والتظاهر . وطبعـا ، زورت الانتخابات فيظل هذا الدستور وحل البرلمان وقمعت التظاهرات وصودرت الصحف ، كما يحدث في أي «صراع» من أجل الحرية والسلطة . لكن النتيجة النهائية ، كانت ارساء مجموعة من التقاليـد الثقـافية والفكرية والسياسية ، ازدهرت في ظلالها نشاطات مختلف الاتجاهات ازدهارا بلغ أوجه في الاربعينات من هذا القرن . نعم ، دخل المثقفون السجون ، لكن لعدة ايام او اسابيع أو اشهر ، وفي أوضاع تمثل الحد الادنى من المعاملة الانسانية . ونعم حوكم العقاد وطه حسين وعلي عبدالرازق وسلامة موسى. لكن هذا لم يمنع تواصلهم مع الاجيال وانتشارهم وتأثيرهم في مجتمعهم و «انقسام الرأي» حولهم وولادة الفكر التنويري والتحريري الجديد .

● القانون جاء تفصيلا للدستور ، وقد انتهك مرارا لدرجة استضافة مواد جديدة استحدثها اسماعيل صدقي باشا لمعاقبة أهل الرأي اذا نظموا أنفسهم في هيئات تعمل لقلب نظام الحكم بالقوة المسلحة . أي اذا تحول الرأي الى مسدس . وفي اطار هذا القانون (الدكتاتوري) لم يهدر دم أي مثقف ولا كرامته ، فقد كان هناك القضاء والنيابة والمحاماة تمثل سلطة مستقلة عن سلطة الدولة ، فلم ينفذ القانون عمليا الا في احوال نادرة وفي أخف عقوباته وزنا . وحين فتح «كوبري عباس» على الطلاب في احـدى التظاهرات ، واستشهد منهم سبعة ، كان العد التنازلي للنظام قد بدأ ، وأضحت صفة الطغيان والدكتاتورية والاستبداد هي الصفة التي لازمته حتى سقط ... على الرغم من انه عام ١٩٥٠ ، وفي ظل الدستور نفسه والقانون ذاته ، عاد حزب الاغلبية الشعبية ليمسك بمقاليد الحكم .

وحتى لا ننسى ، فقد تم ذلك كله تحت راية العرش والاحتلال .

نحن الآن في العام ١٩٧٩ ، حيث لا ملك ولا باشوات ولا استعمار . ومع ذلك فقد أصبح ممكنا لرئيس الجمهورية ان يطرد النواب من البرلمان اذا «عابوا» في الذات الجمهورية ، وان يمنع مئات الكتاب والادباء من التعبير أو الاجتماع او السفر او العودة ، وان يرسل جنوده الى حزب شرعي ليعتقل مطبعته وكوادره ، وان يدفع صحف البلاد كلها للنطق بلسانه وصورته ، وان يدفع الاقلام يوم ميلاده لتكتب انه لم يكن صدفة انه ولد في يوم واحد مع المسيح واينشتاين .

وهذا ما لم يحدث ــ للامانة والتاريخ ــ لا في عهد الملك فؤاد او فاروق أو المندوب السامي البريطاني . وبالطبع ، لم يحدث في عهد جمال عبدالناصر ، مهما كانت التحفظات الديمقراطية على ذلك العهد وهي كثيرة ودامية ... لكنها اقترنت على الاقل بمنجزات لا تقبل الشك ، كان من شأنها على الاقل أيضا ، ان المثقفين حينذاك كانوا يفضلون السجون على المنفى . واذا كان عبدالناصر يساريا لدى البعض فقد أتاح لمثقفي اليمين في قمة السلطة الفكرية والادبية مكانا بارزا وواسعا .

واذا كان يمينيا لدى البعض الآخر . فقد أتاح لمثقفي اليسار ان يعبروا عن أنفسهم علنا وبدرجات متفاوتة للمرة الاولى في تاريخ البلاد .

لكن رئيس النظام المصري الراهن شاء أن يهدم ليبرالية العهد الملكي ومنجزات العهد الناصري معا ، فأضاف الى الدستور من القوانين المعادية للديموقراطية ، ما لا يعرفها سوى دستور المرحوم فرانكو والسيء الذكر سالزار ... يمنع من الكتابة مصطفى أمين بالامس ، وأحمد بهاء الدين اليوم لا فرق . يحضر بسرور زفاف قريب لاحمد سلطان المتهم برشوة اميركية تبلغ ثلث مليون دولار ويزج بسرور أكبر حسين عبرالرازق الى سجن طره لانه كتب أو روّج أو طبع كلمات تزعج شاه ايران . بينما كان الشعب المصري هو الذي حمل الشيخ العجوز محمد مصدق على الاكتاف منذ ثمانية وعشرين عاما .

... فالوضع «الديموقراطي» في مصر الآن ، لا ينبغي مقارنته أساسا، الا بتاريخ الديموقراطية المصرية ذاتها لا بغيرها من الاوضاع في الاقطار العربية . وحينذاك نقول انه أكثر الانظمة المصرية دكتاتورية منذ العهد التركي المملوكي الى الآن .

... اما أفضليته أو مساواته بأي نظام عربي آخر ، فانه غفران لابشع الخطايا التي لم يرتكبها اي نظام آخر حتى الذين أيدوه ... فأية ديموقراطية في الصلح المنفرد مع العدو ، وكسر أو سجن أو نفي أي قلم لا يبارك دكتاتورية العبور الى «اسرائيل» ؟

١٩٧٩/٢/٢

أكثر من رامبو عربي

في العدد الاخير من مجلة «مواقف» فاجأني اسمه .

منذ أمد بعيد لم اقرأ شيئا لصاحب هذا الاسم : سركون بولص .

كان ذات يوم ، شاعرا .

وبين الشعراء ، كان ذا صوت مميز ، مثقل بأوجاع الروح وآلام الجسد .

وبينهم أيضا ، كان مجددا في أوتار العزف وطرق الاداء وتلوين النغم وتجسيم الايقاع .

لم أره في حياتي قط . ولكنني حين سألت عنه في أواخر الستينات ، وكنت أزور بيروت للمرة الاولى ، قيل لي انه اتى من وطنه ، ولم يبق في لبنان أكثر من ستة أشهر ، وانه سافر بعدها الى الولايات المتحدة حيث انقطعت به العلاقة الى اليوم ... اي منذ أكثر من عشر سنوات ، لم يعد يسمع عنه أحد .

وحين سألت عن ملابسات قصيدته المنشورة مؤخرا ، فهمت انها قصيدة قديمة عثر عليها أحد اصدقائه بين أوراقه الخاصة .

وفهمت أكثر ان سركون لم يعد يكتب الشعر ، وانه أصبح يمارس مهنا أخرى أبعد ما تكون عن أوجاع الروح ، وان كانت أقرب ما تكون الى آلام الجسد .

* * *

وانبثقت في ذاكرتي على الفور اسماء اخرى ... في مقدمتها الروائي المصري عـادل كامل ، ذلك الذي كتب في الاربعينات قصـة « مليم الاكبر » ومسرحية « ملك من شعاع » . مؤرخو الادب المصري الحديث من كافة الاتجاهات يقولون لو ان عادل كامل استمر في التأليف الروائي ، لكان أطول قامة من نجيب محفوظ ، فبداياته أهم واعمق من بدايات محفوظ .

والروائيان الرائدان صديقان لبعضهما البعض... ولن يتكلف القارىء عناء كبيرا في اكتشاف أحد وجوه عادل كامل في ثلاثية « بين القصرين » لنجيب محفوظ ، ووجه آخر في روايته الاحدث « الشحاذ » . واذا استطاع أحدنا أن يجمع بين الوجه الاول والوجه الاخير ، لتبين له انه يقرأ المقدمة والخاتمة .

مقدمة كاتب موهوب يعد في شبابه بأسخى العطاء ، والخاتمة ، محام لامع بالغ الثراء لم تعد له أدنى علاقة بالفكر والفن مـن قريب أو بعيد ، سوى الذكريات .

وهو الامر نفسه الذي تكرر لشاعر وكاتب مجدد هـو ابراهيم شكر الله ، فقد أصبح موظفا كبيرا في الجامعة العربية . وحين يعود المرء الى صفحات قديمة لهذا الفنان الموهوب ، فانه يصعب عليه ان يتخيله بيروقراطيا كبيرا يفهم كثيرا في الملفات والاضابير والترقيات والدرجات المالية . وقد كان بالامس ، يفتش في أسرار اللغة ودهاليزها الرؤى وآفاق القلب وحنايا الضمير البشري .

كيف ؟ كيف يحدث هذا «الانتحار الفني» بغتة ودون سابق انذار ؟

* * *

تلوح لي صورة زميلي وصديقي الناقد السوداني الاصل محيي الدين محمد الذي عاش في مصر زهرة عمره ، وكأنها تومىء لي بالجواب .

بين الخمسينات والستينات كان نجما لامعا بين أبناء جيله من النقاد الشباب . ولكنه تميز بيننا جميعا ، بأنه بنى نفسه لبنة لبنة ، اقتحم الخضم

بساعديه القويين وارادة من فولاذ . وفي فترة بالغة القصر ألم بثقافة واسعة عميقة قلما توفرت للذين جلسوا في قاعات الجامعة ومدرجاتها . واكتشف داخله عينا فنية بصيرة ليست لاحد ، وذوقا جماليا مبدعا ولدته الفطرة والسليقة ورعته القراءة الدؤوبة المثابرة . واكتشفناه من بعد ، قلما جريئا نافذا الى الجوهر دون لف أو دوران .

كان أسبقنا الى معرفة التيارات الجديدة المتصارعة في الخارج . كان مغامرا في بحار مجهولة لنا . حين يكتب «رمادية الرواية الحديثة» يضحك البعض في سره ، وحين يكتب «تحرير جيل من الوهم» ينزعج البعض الآخر علنا . وحين يكتب عن شاعر فنزويلي او روائي من البيرو ، تتصوره يترجم ما لم يقرأه أحدنا .

ولكن كتابه الوحيد «ثورة على الفكر العربي المعاصر» سيظل شاهدا لا يدحض على انه لدينا ناقد موهوب حتى العظم ومثقف نادر في عصر التكنولوجيا .

وفجأة اختفى محيي‌الدين محمد من حياتنا الثقافية . لعله في البلد العربي الذي اختاره محلا للاقامة والعمل ، لم ينقطع يوما عن الثقافة . غير انه اختفى عن العطاء . لعله لم يتوقف لحظة عن الكتابة لنفسه ، ولكنه انقطع عن «الآخرين» . وفقدنا ، وهو بعد حي ، قلما جميلا وصادقا وشجاعا ... في وقت هدد فيه البعض قراءهم بالاختفاء ونشروا على الاسطح «مناديل وداع من مسافر» ، ولكنهم لم يسافروا قط ... كسفر محيي‌الدين محمد الذي طال أكثر من عشر سنوات .

* * *

لماذا ؟

● احتجاجا ذاتيا مخلصا على ان «الكلمة» لم يعد لها دور في هذا العصر ؟

● احتجاجا على ان «الكلمة» لا تطعم طفلا ولا ترعى زوجة ولا تمنح

مـــأوى ؟

● احتجاجا على ان «الكلمة» لا تدفع جلادا ولا تغلق سجنا ولا تمنع بغض ؟

● ام ان البعض منهم ــ لدى الشامتين فيهم والرابحين من اختفائهم ــ قد اعطى «بيضة الديك» ، وهو في الحقيقة عقيم ؟

* * *

لا أحد يدري ...

كان رامبو ، الشاعر الفرنسي العظيم ، عبقريا بمقياس عصره وكل العصور . اعطى في التاسعة عشرة من عمره ما لم تعطه اجيال كاملة .

وذات لحظة قرر ان يصبح تاجرا للرقيق في افريقيا . من الشعر الى تجارة الرقيق مرة واحدة حتى مات .

ونحن ليس لدينا رامبو واحد في العبقرية ، ولا في تجارة الرقيق . ولكن لدينا أكثر من رامبو عربي في الاختفاء المفاجيء والمبكر . انهم لا زالوا احياء يرزقون ، فاسألوهم معي : لماذا ، وكلنا في الفقر والسجن الكبير ، سواء ؟

جيل كامل ... وعين واحدة

كلمات يحيى حقي عن « الثورة الادبية الجديدة » قد لا تجد آذانا صاغية في المشرق . وقد لا تصل آذان المغرب ، وربما تضيع وسط الزحام في شوارع القاهرة . مع ذلك ، فهي كلمات تستحق أن نذيعها بين الناس سرا وعلنا ، بالميكروفون ان أمكن وبالمنشور ان لم يكن ممكنا .

يحيى حقي يقول اننا بازاء ثورة أدبية جديدة قادمة هذه المرة من المغرب . عماد هذه الثورة هو اللغة . ونسيجها هو التعريب . والفكرة هي ان لغة جديدة ينحتها المغاربة والتوانسة والجزائريون من صميم تجاربهم المتميزة عن تجارب أهل المشرق، أي باحتكاكهم الصدامي مع اللغة الفرنسية.

ويستطرد يحيى حقي قائلا أن المشرق قد نام واستنام لمنجزاته التاريخية في ميدان اللغة ، ولم يعد يفكر في استحداث ثورة جديدة ، بعد عصر النهضة . وكأنه مطمئن الى أنه ليست هناك مشكلة تؤرقه من هذه الناحية، فركن الى الكسل والتكاسل ، حتى تبدو اللغة المشرقية وكأنها ستدخل عصر انحطاط جديد .

أما اليقظة الجديدة، فهي مقبلة من المغرب، حيث كانت هناك «مشكلة» ولا تزال ... فالصراع مع اللغة الفرنسية في اطار التعريب ، قد أثمر ويثمر لغة جديدة أقرب ما تكون الى الثورة الثقافية .

في هذا السياق ، قد تكون لنا ملاحظات أو تحفظات عـلى كلمات يحيى حقي ... فالتعريب ، مثلا ، ليس معركة لغوية فقط يخوضها «الادباء»

أو «المثقفون» في المغرب والجزائر وتونس . بل هو ، أولا ، معركة سياسية واجتماعية يخوضها «المجتمع» المغربي والتونسي والجزائري .

كذلك ، فقد لا يكون يحيى حقي على معرفة دقيقة بما يجري في المشرق على الرغم من قربه القريب من مصر ، لانه يتابع فقط ما تيسره وسائل الاعلام . فالحقيقة ، ان هناك أكثر من مشرق على الصعيد الثقافي : المشرق الرسمي أو مشرق الحكومات بثقافته السلطوية ، والمشرق الشعبي بثقافة الشارع غير المعترف بها . وهناك المشرق الصحفي بلغته التي توارثها وطورها عن عصر النهضة ، وهناك المشرق الادبي بلغاته المتعددة تعدد الاجيال المعاصرة . فاذا كان يقصد هذا المشرق الاخير ، فلا ريب أنه يشتمل على لغة كلاسيكية قديمة ، وأيضا على لغة رومانتيكية وسيطة . لكنه كذلك يشتمل على لغة ثورية جديدة في انتاج عشرات من المواهب الشابة في الشعر والرواية والمسرح والنقد . وهي المواهب التي أشك شكا شديدا في أن يحيى حقي « على علم » بها ، وبما يجري من خلالها في ميدان اللغة .

أما التحفظ الثالث ، فهو أن ملاحظة يحيى حقي على الثورة اللغوية الجديدة في المغرب العربي ، لم تقترن بشواهد أدبية أو ثقافية محددة . فالتعريب في هذه الاقطار ، كما انه معركة سياسية أو اجتماعية ، فانه في الوقت نفسه معركة حضارية شاملة . وهي معركة تعبر عن نفسها في الادب أساسا ، سواء منه المكتوب بالفرنسية أو المكتوب بالعربية .

وحتى نصبح أكثر تحديدا لا بد من تسجيل بعض النقاط التي أراها أجدر من غيرها بالنقاش :

● لا شك مطلقا في ان ثمة ثورة ادبية جديدة في المغرب ، لكنها ليست مجرد ثورة في اللغة ... اللغة احدى ادواتها واحدى خاماتها . غير أن هناك عناصر اخرى في تكوين هذه الثورة . أنها أساسا ثورة في الرؤية الحضارية للوطن وقد انعكست في اشكال التعبير وبنى الفن وزفرات المجتمع .

● التعريب عمل ثوري حقيقي . لكن تعريب العمل الاجتماعي يختلف عن تعريب العمل الادبي ... فبين الذين يكتبون بالعربية ، مشرقا ومغربا ، من هم «محافظون» و «سلفيون» ، لا على الصعيد الاجتماعي أو السياسي أو الفكري فقط ، بل على صعيد اللغة ذاتها . ومن ثم يجب التمييز في مجال الادب بين لغة ولغة ، لا علـى أساس جنسية المفردات ونوعيـة التراكيب فحسب ، بل على أساس الرؤيا التي تجسدها كل لغة .

من هنا كانت الثورة الادبية الجديدة في المغرب العربي هي ثورة الادباء الشباب بشكل عام ، والمرتبطين منهم بمجتمعهم وعصرهم بشكل خـاص .

لقد انتهى الزمن أو كاد ، الذي كانت فيه الكتابة المغربية لمجرد كونها بالعربية .. عملا ثوريا . وأصبحت هناك مقاييس جديدة تستلزم الاهتمام بنسيج اللغة ورؤياها وما تضيفه الى بقية عناصر العمل الفني .

● لا ينبغي أن تنظر الى أقطار المغرب العربي وكأنها حديثة التعريب ، أي منذ الاستقلال الى اليوم ... فهذه الاقطار ذات مخزون من الحضارة العربية الاسلامية هو بحد ذاته «تراث» عريق يسري في الشرايين من دون وعي ... فليست المشكلة مجرد صراع مع اللغة الفرنسية أو الاستعمار الغربي . هذا هو الجانب السلبي من القضية . اما الجانب الايجابي ، فهو الدور الحضاري الرائع الذي لعبته أقطـار المغرب العربي منـذ الفتح الاسلامي . وهو الدور الذي يبقى على الرغم من أي استعمار بمثابة «الجذور» العميقة الغور والتي لا يصيبها الجفاف .

● لا ينكر أحد أن هناك عزلة ثقافية تفصل بين المشرق والمغرب ، على الرغم من مختلف الجهود التي تبذل في خلالها المؤتمرات الادبية والمهرجانات الثقافية ... عزلة سببها الرئيسي معاملة الكتاب أو المجلة هنا وهناك ، وكأنها في أحسن الاحوال سلعة كمالية يمكن الاستغناء عنها ، وكأنها في أغلب الاحوال مدفع رشاش أو شحنة مخدرات .

ما لم تنته هذه العزلة المفروضة فرضا ، لن تستقيم المعادلة بين المشرق والمغرب ، ولن يأخذ التفاعل الضروري مجراه الطبيعي بين التجربتين .

وسيظل أديبنا الكبير يحيى حقي يقول كلاما صحيحا ، لكنه ناقص... فالثورة الادبية الجديدة هي ثورة «عربية» في المشرق والمغرب معا ، وهي ثورة جيل كامل لا يريد له البعض أن يرى ... الا بعين واحدة .

١٩٧٩/٢/٢٣

ملعون ذلك اليوم

من الاخطاء الصغيرة ، لكن المثيرة ، لصديقي اسماعيل المهدوي ، أنه في أواسط الستينات شن هجوما غريبا على مبدأ ترجمة أعمال دوستويفسكي عن اللغة الفرنسية . وأذكر أن الذي تصدى لفكرته أيامها الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ... فقد دافع بحماس بالغ عن المترجم والترجمة ، على الرغم من أنه حينذاك لم يكن يعرف الفرنسية .

لماذا ؟

لان المترجم كان سامي الدروبي .

وفي تقديري أن هذا السبب وحده كان كافيا لحسم المعركة التي تشعبت في ذلك الوقت حتى جاوزت حدود المسألة المباشرة ... قيل ، مثلا ، أن بعض الترجمات عن الروسية ، وقد صدرت في موسكو ذاتها ، بالغة الرداءة . وقيل أيضا في صيغة سؤال : اذا لم يكن لدينا مترجمون عن الروسية هل ننتظر ونحرم أنفسنا من أعمال تشيكوف وتولستوي وبوشكين المترجمة الى الفرنسية والانكليزية ؟

وعلى الرغم من ان هذه الحجج والردود صحيحة في معظمها ، الا أن اسم سامي الدروبي وحده كان في ظني هو الرد الحاسم والاكثر اقناعا .

لماذا ، مرة أخرى ؟

لانه لم يكن مترجما ، ولو أراد لانكب على أشياء لا علاقة لها بدوستويفسكي أو تولستوي أو برغسون أو أيفو اندريتش أو كروتشه .

ولو أراد ، لاصبح مليونيرا في قليل من الاعوام . ولو أراد أيضا ، لتفرغ للكتابة لا للترجمة ، ولاصبح أحد أبرز المشاهير في التأليف العربي المعاصر.

لكن سامي الدروبي لم يبتغ المال ولا الشهرة . لذلك ، لم يكن قط مترجما محترفا على الرغم من أنه أحد أعظم المترجمين .

وتعالوا نتفحص هذا الكلام .

ان الترجمة ، أي ترجمة ، حين تصبح اختيارا شخصيا ، لا تعود مجرد اجادة للغة أجنبية ، بل تصبح فنا وخلقا واكتشافا ، وجزءا أصيلا من الذات شأنها في ذلك شأن أي ابداع .

ولقد كان «الاختيار» الرئيسي لسامي الدروبي هو دوستويفسكي وتولستوي ، قام بنقل أعمالهما الكاملة في دأب ومثابرة وصبر تنوء بحمله اللجان والمؤسسات ووزارات الثقافة . فاذا عرفنا أن الرجل لم يكن محتاجا ليترجم ، ولو كان محتاجا لترجم أشياء اخرى ... واذا عرفنا ان الرجل كان مثقلا بأعباء اعماله الرسمية ، السياسية والدبلوماسية ، لاقتربنا من سر هذه «الرهبنة» في معبد الجمال . لم يكن دوستويفسكي وتولستوي الا جزءا لا ينفصل عن ذات سامي الدروبي. لقد رأى نفسه فيهما على نحو من الانحاء. ومن هنا ، لم يكن نقله لاعمالهما الى لغتنا ترجمة ، بل عطاء للنفس وتحقيقا للذات وتجسيدا عميقا «لوجوده» الشخصي . لقد «كتبهما» ولم يترجمهما، أو هو بدلا من أن «يكتب» رأى فيهما الخلاص والفرح ... فكانت الترجمة هي ذاتها «الكتابة» لا تنتظر تكليفا من أحد ولا تحميسا ولا تشجيعا ، بل كابد فيها معاناة الخلق ، فقد توحد مع الكاتبين في عملية ابداعية واحدة .

وحين نعرف من كان دوستويفسكي وتولستوي في تاريخ الابداع البشري يجب أن نعرف في اللحظة الاخيرة عينها ، أي «فنان» كان سامي الدروبي ، على الرغم من أنه لم يكتب رواية واحدة .

الوجه الآخر لمحراب الفن كان «الامـة » التي ينتمي اليهـا ، فهو بترجماته أضاف الى العربية رصيدا بالغ الثراء من الالفاظ والمعاني والتراكيب

والاخيلة والايقاع ، قلما توفر لنا من بعض الكتاب المنشئين أنفسهم . وهو ، بذلك ، حصل من دوستويفسكي وتولستوي وبرغسون وكروتشه وأيفو اندريتش أدباء في العربية لا أدباء أو فلاسفة أجانب . ان عبقريته في التوليد والاشتقاق لا تتم فحسب عن معرفة عميقة بأسرار اللغة الفرنسية ، بل كانت خلقا للعربية وتثويرا لقواعدها الاصيلة .

والسبب أنه اذا كان «باختياره» الرئيسي للآداب التي ترجمها قد حقق ذاته «الفنية» ، فأنه بصياغته الفذة حقق ذاته «العربية» . فالفن والامة في حياة سامي الدروبي هما محور هذه الشخصية «المتصوفة» في تاريخ العرب الحديث .

منذ ثلاث سنوات رحل سامي الدروبي السفير الذي جعل من السفارة السورية في مصر بيتا للمثقفين والفنانين والعشاق ... عشاق الامة الواحدة وأبناء اللغة الواحدة والمصير الواحد .

لعله ببصيرة الفنان وتصوف العربي لم يشأ أن يشهد الساعة التي يقال فيها : ملعون ذلك اليوم الذي تغلق فيه سفارات العرب في القاهرة ، استعدادا لافتتاح سفارة «اسرائيل» .

لم يكن قلبه الكبير ليتسع لمأساة في مثل هذا الحجم ، لكن هذا القلب ، وان توقف ، لا يموت ...

١٩٧٩/٣/٢

أصوات من القدس

لا زلت أذكر الحماس المتقد الذي قابل به المثقفون العرب ، بل وقطاعات عريضة من الجماهير ، أدب الارض المحتلة ان لم يكن الادب الفلسطيني بشكل عام ...

وكان غسان كنفاني ، حين بدأ ينشر أعماله الروائية ، نجما ساطعا ، ترنو اليه العيون وهو يكتب عن حيفا وام السعد ، وعن الرجال الثلاثة الذين ماتوا في نقطة ما بين البصرة والكويت ، بحثا عن الطريق الضائع الى فلسطين .

وكان غسان كنفاني ويوسف الخطيب هما أول من كشف لنا الستار عن أدب جديد يولد في فلسطين . منهما سمعنا عن محمود درويش وقرأنا لسميح القاسم وتعرفنا على توفيق زياد وسالم جبران وراشد حسين .

وفي القاهرة كان معين بسيسو يكتب «ثورة الزنج» عن الفلسطيني الجديد .

ومن أوائل السبعينات الى اليوم ، توالت الاصوات الفلسطينية في القصة والشعر والنقد . وظل الحماس «العربي» لها قائما ، ولكنه الحماس شبه المقصور على الانتاج الفلسطيني «خارج» الارض المحتلة... حتى فدوى طوقان الشاعرة الكبيرة لم يعد النقد يتابع اعمالها ، كما كان في الماضي ، بمجرد ان أصبحت نابلس تحت الاحتلال .

لكن الاخطر في تقديري هو تجاهل الانتاج الفلسطيني الجديد ، هذه

الاجيال التي لا يسمع بها أحد ، الا اذا استطاعت ان تنشر قصيدة أو كتابا خارج الاسوار . اما الذين يناضلون بالكلمة في صفوف شعبهم المقهور ، فاننا لا نحاول التعرف عليهم واقامة الجسور بيننا وبينهم ... على الرغم من انهم أحوج الجميع الى هذا التعارف ، فضلا عن التفاعل ومتابعة السير المشترك .

لقد أحسست بهذا الشعور ، وانا استمع الى الروائية الفلسطينية سحر خليفة منذ شهر في باريس . نقلوا روايتها الاولى الى الفرنسية ، واحتفل بها البعض وفرح بها البعض الآخر ... لكن شيئا ما في صوتها يدفعك للقول بأنها تعاني «غيابنا» عنها ، عنهم ، عن اولئك الذين يؤكدون وجودنا بالحرف العربي والوجدان العربي والعقل العربي داخل المعقل الصهيوني ... يؤكدون هويتنا المغتصبة في السجون والمدارس والمحاكم والجامعات .

وهم هناك ، يشعرون بأنهم «وحدهم» . وهو اتعس المشاعر على الأطلاق .

بعد سحر خليفة ، اقتحمني هذا الاحساس من جديد وانا اتلقف من البريد ثلاثة كتب من القدس .

الاول مجموعة شعرية لشاب اسمه علي الصح ، وعنوان الديوان الصغير الجميل هو « الكتابة بالنار » . والكتاب مهدى « الى الذين يكتبون بالنار ويتحدثون بالطلقات » . احدى القصائد « برقية الى الشعب المصري » واخرى « رسالة بالدم من أطفال النبطية الى زعماء الامة العربية » . وسائر القصائد عن فلسطين، لكنك ستجد فيها بلدك وبلدي وبلده، اسمي واسمك واسمه ، سوف تكتشف ان هذا الشاعر الفلسطيني يحيا ويموت كل لحظة مع دقات القلب العربي في كل مكان .

ولست أكتب هنا نقدا لهذا الديوان ، لكني شعرت ان صاحب هذا الصوت وحيد وحدة ضارية ، لا على المستوى الشخصي ، فكلنا على هذا الصعيد سواء ... لكنه وحيد ومعزول ومحاصر ، لا من العدو ، بل منا

نحن الذين نسمع باسمه للمرة الاولى .

في العام ١٩٧٥ ، أصدر مجموعته الاولى «نقوش على جدار الوطن» عن منشورات صلاح الدين بالقدس ، وفي العام ١٩٧٧ أصدر « كل آذار وانتم بخير » عن منشورات العربي في عكا . وفي العام الذي يليه أصدر الديوان الذي وصلني منذ أيام « الكتابة بالنار » . وهو شاعر موهوب بحق ، على الرغم من أي سلبيات في الفن او الفكر ، ولكن مشكلته الوحيدة يجب أن تتحول لان تصبح مشكلتنا نحن... هي ذلك الحصار من التجاهل، والجهـــل .

في البريد نفسه ، وصلني من صديقي الشاعر علي الخليلي بحثان : أولهما « البطل الفلسطيني في الحكاية الشعبية » والآخر « اغاني الاطفال في فلسطين » . كلاهما صدر عن مؤسسة ابن رشد في القدس .

هل لاحظتم معي اسماء دور النشر العربية في القدس المحتلة ؟ هل أمسكتم بدلالة هذا الاختيار للاسماء ؟ بعد ثلاثين عاما من الاغتصـــاب الصهيوني ، لا زالت فلسطين تلد الجيل بعد الجيل ، وكل جيل أكثر تمسكا واصرارا على عروبته. يقاوم بالحرف، باللغة ، بالشعر، بالبحث الفولكلوري. يدعمون هويتنا في غيابنا ، فمتى نحضر ... قبل فوات الاوان ؟

علي الخليلي شاعر جيد ، لكنه انكب في الفترة الاخيرة ، منذ صدور كتابه « التراث الفلسطيني والطبقات » على البحث العلمي الجاد ، البحث عن الجذور . كان شاعرا عربيا ولا زال ، حين كانت «اسرائيل» ولا تزال تقاوم بضراوة عروبة الفلسطيني . وأصبح باحثا فلسطينيا وسيظل ، حـــين كانت «اسرائيل» وستظل تمحو كل «اثر» لجذور الهوية الفلسطينية ... بدءا من تغيير معالم القدس والسطو على الآثار العربية ، وانتهاء بتزوير الفولكلور ونسبته اغتصابا الى بني اسرائيل .

... وفي هذا كله لا تفيد نداءات اليونسكو ، مع تقديرنا البـــالغ لجهودها .

وانما يفيد الى اقصى مدى ذلك « الاستمرار » الفلسطيني داخل الاراضي المحتلة ، استمرار الخلق والابداع والهوية القومية ... مهما استمر من جانبنا التجاهل ، أو الجهل ، فالجريمة واحدة : اننا نتركهم « وحدهم » في غابة مع الذئاب .

١٩٧٩/٣/٩

قراءة سرية في كتاب لم يصادر

بعد عشرين دقيقة مـن هبوطه أرض المطار ، كان صوته يمتد فـي الاسلاك ضاحكا في صخب : أنا ، ولا تصدق غير ذلك . أنا دون غيري . وستصدق بعد لحظات .

بعد ستين دقيقة ، كان يملأ بيتي بالفرحة كلها ، وما هو أكثر من المفاجـأة .

كانت علاقتي به في القاهرة ليست من النوع المسجل على أشرطة الحفلات والسهرات والصالونات .

بل لعلنا لم نكن نلتقي ، الا وهو في ذروة العطاء . مع الجميع كنت أراه . لم يحدث أن أكلنا معا أو شربنا أو رقصنا .

رغم ذلك ، كنت أحسه قريبا مني أكثر كثـيرا من كل الراقصين والشاربين والآكلين معه .

لم تربطني به علاقة خاصة ابدا ، ولكني اعتقدت زمنا طويلا ان هناك قراءة سرية بيننا في كتاب لم يصادره الرقيب .

هو كتاب الجيل الذي ننتمي اليه .

وهو الجيل الذي طلب مني وهو يقهقه في سماعة الهاتف من المطار ، أن يراه . قال لي أريد أن أراهم واحدا واحدا ، وعندك أنت .

كانت المفاجأة الحقيقية لي ، أنه اختارني بالذات ، رغم ان له معهم جميعا علاقات أوثق .. ولم تكن مفاجأة ان طلبهم ليراهم بعد ساعة واحدة

من وصوله باريس .

وأقبلوا تتقدمهم أهازيج الفرح .

* * *

واكتشفت في عينيه وهمساته وصخبه ، صدق الحدس الذي خامرني زمنا بأنه قريب ، رغم مسافة الكرنفالات التي تفصلنا .

كانت المرة الاولى التي نأكل فيها معا ، ونشرب ، ونزمجر بالخلاف ، ونغني ، نرقص ونصلي للجنون ..

واكتشفت في رموز الجيل الذي أتى يعانقه ، ان الجميع خاشعون في قراءة سرية لكتاب لم يصادر بعد .

كتاب العمر .

تساقطت بعض صفحاته لهول الطريق وعذابات الدرب .. تساقطت عنوة ، بالخطف ، بالحرق ، بالقتل ، بالصعق ، بالغرق .. ولم يحدث أبدا انها ذبلت وجفت وشاخت وتهاوت مع انسام الخريف .

فالكتاب لم يصادر .. مزقوه حقا الى نصفين ، احدهما أخفوه كالكنوز تحت الارض ، والآخر طيّروه فوق السحاب .. ولكن قلم الرقيب لم يجرؤ على الشطب ، لا لانه رقيب جاهل أو ديموقراطي ، بل لان صفحات الكتاب من النوع الذي لا يصادر ، من معدن لا تحرقه النار ، ولا تذيبه الماء ولا يصدأ ، فهو غير قابل للمنع .

انه حي ، قد تخطف منه صفحة ، ولكن الى أين تذهب أو يذهب بها الخاطفون .. قد يحرقون صفحة ، ولكن رمادها لا يتبدد مع الريح ، بل يتحول في غمضة عين الى صفحة جديدة .

كل ما نجحوا فيه انهم مزقوا الكتاب الى نصفين ، أحدهما تحت الارض والآخر فوق السماء .. حتى تصبح الساحة كلها خالية من الفرسان. أرادوا أن ينخر اليأس في العيون السرية ، لانها لن تقرأ جملة مفيدة في نصف كتاب تحت الارض ، ولن تقرأها في نصفه الآخر فوق السحاب .

وكانت ، ولا تزال ، هذه هي المعضلة ، كيف يمكن قراءة الكتاب الذي لم يصادر .

نعم ، انه لا زال حيا ينبض في عمق الاعماق وفي أعلى عليين ، ولكنه بين المنزلتين لا يكتمل « وجوده » بغير القراءة .

والقراءة الوحيدة الصحيحة هي ان يعود النصفين الى بعضهما البعض.. والنصفان لا يعودان في الاعماق السفلى ولا في الاعالي العليا ، بل على الساحة الخالية وان كانت شديدة الازدحام .

* * *

ظللنا طول الليل نقرأ سرا في الكتاب غير الممنوع .. ماتت الفرحة والمفاجأة بالتدريج ، فكأننا مع صديقنا القادم من بعيد ، لم نفترق لحظة ، فحل الحزن الاصيل وهرب الضحك المزيف .

في اليوم الثالث للقراءة السرية، كانت أسلاك الهاتف ترتعش بالدموع المتكبرة .. فقد تراكمت الاسئلة على قلب صديقي واربكت شرايينه، وأدخلته المستشفى احتجاجا ..

هو بالذات ؟

نعم ، فكيف يتنفس الابداع في القفص الذهبي ؟ كيف ينتشي الخلق وينبثق العطاء السخي بعيدا عن الارض ؟ معادلة العذاب لم يعرفها المسيح، ولا الكتب المصادرة ..

ها أنذا أراه ،

ممدد على الفراش و «الجميع» حوله .. يبحث عن نقطة ما فوق الارض وتحت السماء ، يستعيد فيها نصفي" الكتاب غير المصادر ، يصلي من أجل لحظة يستطيع فيها القراءة العلنية لكتاب .. مصادر .

١٩٧٩/٣/١٦

/ كاتب الشرق بالحق الالهي

منذ نصف قرن أجريت في مصر انتخابات حرة ، بعدما سقط حكم «اليد الحديدية» كما كان الناس يسمون حكم محمد محمود باشا . وجاءت الانتخابات ، كالعادة ، بحزب «الوفد» وزعيمه مصطفى النحاس ، كممثل للاغلبية الشعبية ومصالحها الاساسية .

وكان الوفديون تقدموا الى الانتخابات ببرنامج عملي سياسي واجتماعي واقتصادي ، لذلك اعطتهم الجماهير صوتها بلا تردد . وحين حول النحاس وحزبه هذا البرنامج الى مشروعات قوانين تقتضي موافقة الملك ، عمد فؤاد الاول الى تجميدها وتعطيلها ، فما كان من النحاس الا ان قدم استقالة حكومته بعد ستة أشهر فقط من توليه السلطة مبررا ذلك صراحة في خطاب الاستقالة « نظرا لعدم تمكننا من تنفيذ برنامجنا الذي قطعنا على أنفسنا العهد بتنفيذه » .

كان ذلك يوم ١٧ يونيو (حزيران) ١٩٣٠ ، وهو اليوم الذي شهد جلسة عاصفة للبرلمان حين زف رئيس الوزراء نبأ استقالته الى النواب لانه لم يستطع « صيانة أحكام الدستور ، واحاطته بسياج من التشريع ، يكفل له حياة متصلة ونموا مطردا » . غضب النواب غضبا شديدا ، ووقف أحدهم ليقول « ألا فليعلم الجميع ان هذا المجلس مستعد أن يسحق أكبر رأس في البلاد ، في سبيل صيانة الدستور وحمايته» .

وعلى الرغم من أن هذه العبارة حذفت من مضبطة المجلس ، الا ان

احدى الصحف نشرتها في اليوم التالي . وفي اليوم الثالث كان صاحبها يكتب بقلمه في جريدة أخرى مقالا بعنوان « أن البلاد مستعدة لان تسحق كل رأس يخون الدستور » . ولم تكن المسافة بين « أكبر رأس » و « كل رأس » طويلة ، فقد بلغت الرسالة صاحبها ، وهو الملك فؤاد .

وحين قام الكاتب العظيم جورج برنارد شو بزيارة مصر في العـام ١٩٣١ استقبله الكاتب المصري سلامة موسى قائلا « انني بالغ الاسف ، لان من يستطيع استقبالك باسم الادب المصري معتقل في السجن » .

بعد تسعة أشهر من الاعتقال بتهمة العيب في الذات الملكية خـرج الكاتب النائب ــ وكان البرلمان قد حل ــ من السجن ، وتوجه الى ضريح سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩ منشدا :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
وها أنذا في ساحة الخلد أولد
عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما
سيعهد في كل كما كان يعهد

كان صاحب هذا الصوت الشجاع هو عباس محمود العقاد .

* * *

وصلت الشجاعة بالعقاد ــ وهو عضو حزب الوفد ــ أن اختلف مع زعيم حزب الاغلبية ، حيث كان يدعم احدى الحكومات الانتقالية التي من شأنها أن تمهد بانتخابات حرة لعودة الوفد . لكن هذه الحكومة ، كانت في نظر العقاد ، لا تستحق التأييد حتى اذا أتى حزبه بواسطتها الى الحكم ، فهي على حد تعبيره « تماطل في اعادة الدستور ، وتعمل لصالح السـراي والانكليز ، ووزير معارفها يضطهد الوطنيين » ... فما كان من النحاس الا أن طلب من العقاد أن يوقف حملته على الحكومة المذكورة قائلا له « ان الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها ، ويضع ثقته فيها » ، فأخرج العقـاد من جيبه قلما صغيرا معلقا « لن تنتهي برية هذا القلم الا وقد انتهى أجل هــذه

الوزارة » . وشعر النحاس ان كاتبه الاول يتحداه فانفعل قائلا « أنا زعيم الامة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد ؟ » فأجابه العقاد مشيرا الى بضعة أشخاص من أعضاء الوفد « أنت زعيم الامة لان هؤلاء انتخبوك ، لكني كاتب الشرق بالحق الالهي » .

وانتهت علاقة كاتب الوفد الاول بأكبر حزب في البلاد .

وبعد ربع قرن ، حين طلب كمال الدين حسين ، عضو مجلس الثورة ، ان يلقاه ولم يحضر في الموعد ، اتصل مدير مكتب الوزير بالعقاد مستفسرا عن سبب التأخير ، فأجابه الكاتب الشجاع ، يا بني ، لقد فهمت ان وزيرك يريد ان يلقاني ، فانتظرته في الموعد المحدد ولم يأت . قل له انني اعتــذر عن عدم استقباله ، فلا تجديد للموعد .

لم يفكر لحظة في الذهاب الى مسؤول كبير، بل جعله يفهم انه شخصيا بلا مطالب ، اما اذا كان المسؤول هو الذي يريد شيئا ، فعليه أن يسعى بنفسه الى الكاتب ، وليس العكس .

* * *

ورحل العقاد عن عالمنا منذ خمسة عشر عاما ، كم تغيرت فيها الموازين والقيم والتواريخ والجغرافيا .

رحل العقاد في منتصف مارس (آذار) ١٩٦٤ وكم تعلمنا من بداياته الرائدة ، وكم اختلفنا مع نهاياته المحافظة ... لكننا في جميع الاحوال ، لم تنس شجاعته الاسطورية .

وكالعادة دائما ، دراويشه وتلاميذ ندوته الاسبوعية لم يستفيدوا منه كلمة واحدة أو فكرة فضلا عن الفعل ... فلم يرفعوا الصوت قط ضد «أكبر رأس» ولا «كل رأس» تخون الدستور . وحين سجن الاوفياء للعقاد وشردوا في جهات الارض الاربع لم يكن هناك سلامة موسى جديد يعتذر عن استقبال أي ضيف لان من يمثلون الثقافة المصرية معتقلون في السجون أو في المنافي .

بل كان كتاب «عباس العقاد بين اليمين واليسار» أدق وأخلص وأعمق ما كتب عنه على الاطلاق ، بقلم رجاء النقاش ... أحد أبناء الجيل غير المحسوب على العقاد .

وهو الجيل الذي يستعيد ذكراه الآن ، لا بكاء على الاطلال ولا عبادة للموتى ولا براعة في صنع التماثيل للاقدمين ... بل لاننا أحوج ما نكون الى كتّاب « الحق الالهي » الذين لا يرهبهم سيف الملك فؤاد ولا تغويهم شعبية مصطفى النحاس .

١٩٧٩/٣/٢٣

[illegible]

[illegible]

اسرائيل في ضيافة مصر

انا لا اعرفه ...

لكني أعرف انه سيشد الرحال بعد اسبوع ، ويتجه الى مطار القاهرة.

وسواء كان أزرق الايمان أو اسود أو أحمر ، فانهم سيفتحون لـه الضوء الاخضر ، ليمر من دون تفتيش أو قلق ، بل قد يرفع بعضهم القبعات، وآخرون سيصافحونه بحرارة ، يوصلونه الى الباب الخارجي ، ليجد سيارة فارهة بانتظاره ، مرافقين رهن اشارته ، يواكبونه الى الفندق الفاخر .

انا لا اعرفه .

لكني أعرف انني لا استطيع مثله ان أشد الرحال والاتجاه نحو القاهرة.

رغم انه اسرائيلي .

وانا عربي من مصر .

هل فكر «لحظة» في هذه المفارقة وتساءل كيف ؟ كيف يفتحون لـه الاحضان وهو «العدو» حتى الامس القريب ، ويغلقونها دوني وانا ابن الارض وذرّة من طينها ؟

* * *

ليعلم اذن انه ذاهب في غيابي خارج الحدود وتغيب اخوتي داخلها .

سيقابله توفيق غير الحكيم ولويس عوض وانيس منصور وابراهيم الورداني وثروت اباظة . لكنه قرأ ولا شك كلام هؤلاء طوال ربع قرن ، عن اليهودي التائه واليهودي المرابي .

لكنهم غدا أو بعد اسبوع ، سوف يرفعون كأسه في صحة الصداقة المصرية ـ الاسرائيلية ، ولن ينسوا كأسا آخر في صحة السلام الاميركي
وهناك في القاهرة يمكنه ان يسأل ...
يسأل مرافقيه :
أين أحمد فؤاد نجم ؟
أين الشيخ امام ؟
أين صلاح عيسى ؟
أين أمل دنقل ؟
أين ابراهيم منصور ؟
أين يحيى الطاهر عبدالله ؟
أين محمد البساطي ؟
وليطلب من مرافقيه .
ان يزور جامعات القاهرة والاسكندرية والمنصورة والمنيا وطنطا واسيوط وشبين الكوم .
وان يزور مصانع المحلة الكبرى وكفر الدوار وحلوان وشبرا الخيمة واسوان .
فليسأل وليطلب ...
لكنه سيفاجأ بمرافقيه المبتسمين دائما ، وقد انعقدت ألسنتهم .
لن يجيبه أحد بالحقيقة ...
لن يقول أحد أهلا بأية لغة .
ولربما رحب فلاح من صعيد بلادي على طريقته فبصق على وجهه .
فهؤلاء جميعا لم يكتبوا حرفا ضد اليهود كيهود ، كلا ... فقد عاش آباؤه وأجداده بينهم مئات السنين، ولم يبصق في وجوههم أحد . عاشوا مواطنين لا رعايا . معابدهم سيراها في كل مكان كما هي لم تمس . هؤلاء لا يكرهون فيه الانسان . وهم كما هم ، كما تركهم آباؤه واجداده منذ

ثلاثين عاما أو ربع قرن أو عشرين سنة ، لم يتغيروا قط .

لكنه هو والذين أرسلوه تغيروا .. تركوا القاهرة والاسكندرية ودمشق وبغداد وباريس وموسكو والرباط وتونس ووارسو وبراغ ولندن ومدريد وروما ... وراحوا يسرقون أرضنا مترا بعد متر ويقتلون شعبنا شابا بعد شاب وطفلا بعد طفل ويشردون أهلنا جيلا بعد جيل .

انهم ، بلغتنا نحن العرب ، خانوا «العيش والملح» مع شعوب العالم كله ، وراحوا يبنون قلعة من ترابنا ودمنا وعظامنا ولحمنا الحي ...

لذلك ، لن يرحب به احد ممن يطالبه ، لانه ليس ضيفا ولا زائرا .... فالضيوف يطرقون أبواب البيوت وأهلها يأذنون لهم أو لا يأذنون ... اما هو فكأي قاطع طريق فيجنح الظلام فتح الباب بقبضة جزار، واستولى عنوة على احدى الغرف ... ثم يطلب زيارتنا ؟

زيارة من ؟ في غياب أهل البيت . أو تغييبهم جاء . ومن الباب الخلفي أقبل . فلن يفتح له أحد الباب .

مهما التقط الصور بجانب توفيق الحكيم والاهرامات وابي الهول... فهذه كلها وثائق مزورة عن «حلم» لم يتحقق ...

هو لم يدخل مصر .

ولن يدخلها صدق أم لم يصدق .

الا حين ترفرف الراية العربية على كل فلسطين ، ويصبح حينذاك مواطنا ... لا يحتاج حتى لجواز سفر .

١٩٧٩/٣/٣٠

تحصيل حاصل

الحزن لا يمنع التفكير
وقعت المعاهدة ، نعم
وماذا بعد ؟
بل ماذا قبل ؟
فلن نعرف « بعدنا » الا اذا عرفنا « قبلنا » .

* * *

فالنظـام المصري لم يصل الى « المعاهدة » فجـأة ... بل والكيان الصهيوني نفسه لم يوافق على «التوقيع» فجأة • بقي النظام في مصر يغير الدولة والمجتمع والثقافة والاقتصاد خطوة خطوة طيلة تسع سنوات حتى أصبح «مؤهلا» للمعاهدة ...

فليس صحيحا ان الكيان الصهيوني كان تواقا للاعتراف به شغوفا بالصلح معه ، من أي نظام عربي
ليس هذا صحيحا
بل كان يريد دائما أكبر دولة عربية مع أضعف نظام عربي .
لذلك كانت « مصر » دائما هي الهدف .

ولكن أي مصر ؟

ان مصر المتحررة من النفوذ الاستعماري ، أو التي تناضل من أجل هذا التحرر ... لا يفيد معها الصلح ، بل ولا حتى التهادن .

- ان مصر التي تحاول تنمية مواردها وتوزيع ثروتها الوطنية على نحو يكفل التطور لمجموع شعبها ، لا يفيد معها الصلح ، ولا حتى التهادن .

- ان مصر التي تستعيد وجهها العربي ، وترسخ هويتها القومية انتماءها المصيري ... لا يفيد معها الصلح ، ولا حتى التهادن .

- لمـاذا ؟

- لان الفرع ـ أي الكيان الصهيوني ـ لا يملك مقومات الصلح مع بلد يتصارع مع الاصل ، وهو الاستعمار الغربي ويتصارع مع الفرع المحلي ، وهو الرأسمالية المصرية ... انه لا يملك مقومات الصلح مع « عدو » طبيعي ، بل مع صديق «مؤهل» .

- لذلك كانت الحروب في زمن عبد النـاصر و «السلام» في زمـن السادات ... حرب ١٩٥٦ كانت الاشارة المبكرة والمباشرة لهذا المعنى ، فقد اشتركت الدولة الصهيونية في الحملة البريطانية الفرنسية على السويس بسبب تأميم القناة ... لا لان مصر أرادت تحرير فلسطين . أي ان استقلال مصر الذي هدد الاحتكارات العالمية هدد في الوقت نفسه وكيلتها الرئيسية في الشرق الاوسط .

- وحرب ١٩٦٧ كانت الاشارة الختامية لهذا المعنى نفسه ... فقد كانت من احدى الزوايا اجهاضا نهائيا لفكرة «التنمية غير الرأسمالية» في المجتمع المصري .

(بين الحربين هناك حرب كثيرا ما ننساها ، لانها تمت بأيد محلية وعلى نحو جديد هي حرب «الانفصال» بين مصر وسوريا ... فقد كان اجهاضا لنواة الوحدة القومية في ذلك الوقت)

أي ان الوجود الصهيوني بحد ذاته في الشرق الاوسط يرى نقيضه ـ لا عدوه فحسب ـ في الاستقلال العربي والتنمية العربية والوحدة العربية خصوصا اذا تجسدت هذه كلها في أكبر الدول العربية : مصر .

من هنا كان «الصلح» مستحيلا ، بل وكلمة لا معنى لها ... بل

الصراع . وبالرغم من ان السادات قد تسلم مصر وبذور الثورة المضادة كامنة وظاهرة في بنية الدولة والمجتمع ... الا أنه تعرض من جانب أميركا والكيان الصهيوني لاختبار تسع سنوات ، لم «يتنازل» خلالها عن شروط سياسية ، بل أجهز عاما بعد عام وخطوة خطوة ، على مقومات الاستقلال والتنمية وعروبة مصر . لذلك أصبح «مؤهلا» للصلح .

— فالقضية عند أميركا والدولة الصهيونية لم تكن في أي وقت مجرد خصام مع السوفيات أو اليسار المحلي أو العرب ... بل كان يعنيهم أولا وأخيرا ، تفتيت الدولة المصرية وانحلال المجتمع المصري واعادة صياغتهما على نحو يصلح «للقاء» .. وبمعنى أدق «التبعية» . أي فقدان الاستقلال والتنمية والهوية القومية .

— وبقوانين «الانفتاح» التدريجية تم كل شيء وفق جدول زمني سريع الخطى ... تغير جوهر الاقتصاد المصري من «محاولة» الاستقلال الى التبعية الكاملة والمطلقة دون شروط للغرب ، ومن «محاولة» التنمية الى توقف الانتاج المحلي واعتماد الاستهلاك على الاستيراد والتصدير ، ومن «محاولة» الوحدة القومية الى العزلة عن العرب .

— برفقة ذلك كله كان «المجتمع» أيضا يتغير ، فأدوات وهياكل وقيم وعلاقات الانتاج ، تختلف تماما عن ادوات وشرائح مجتمع الاستهلاك المتخلف .

— وهكذا أصبح السادات مؤهلا للتوقيع على معاهدة الصلح المنفرد ...

لانها في الجوهر ، اعلان دولي من زعيمة الغرب وربيبته في الشرق الاوسط معا ، بأن « مصر » قد فقــدت استقلالها الوطني ولم تعد تطمح للتقدم الاجتماعي وقد اعتزلت هويتها العربية .

ومن ثم فلقاؤها مع «اسرائيل» أكثر من طبيعي ...

والمعاهدة تحصيل حاصل ...

١٩٧٩/٤/٦

الدم كالماء لم يعد صالحاً للشرب

رسالتها الغاضبة تعصف بالجنون المقدس .

تدمي وجهها ووجوه الآخرين بقبضة من اللهب وتنزف .

خطا طويلا متعرجا من علامات السؤال الاسود : من المسؤول ؟

وتجيب بنحيب أكثر سوادا : هو جيلنا . تبصق الجواب في وجهك ، بحمرة داء الصدر ، وتدخل في الغيبوبة .

يهدهد الكابوس عينيها ، يسيطر على انفاسها وتغيب ... معنا .

* * *

القاهرة .

حرب العـالم تضع أوزراها ، وشعبنا يدفعَ الثمن ... ثمن الهزيمة والنصر معا ... هزيمة «المحور» وانتصار «الحلفاء» .

يدفعه سلفا من رصيد عشرات السجون ومئات الشهداء .

ويخرج من «جحيم الآخرين» مديونا ... فما كاد الاستقلال عن الامبراطوريات الغاربة يصبح « أملا » قابلا للتحقيق ، حتى كان الاحتلال الصهيوني لفلسطين « أمرا واقعا » قابلا للتوسع ...

أكبر خدعة في التاريخ كله ، مني بها شعبنا العربي ، ومصر على وجه الخصوص ... فلم ينتصر الحلفاء على المحور بل انتصر الجميع علينا ، وبالذات على محمد علي بعد أكثر من قرن على وفاته .

قالوا لنا : انتصرنا على النازية ، وها هوذا استقلالكم ، فتعالوا نحتفل.

في قاع الكأس الحمراء ، كانت «فلسطين» تقول شيئا آخر : لم تنالوا الاستقلال بعد ، بل لقد بدأ الاحتلال الحقيقي . انني قطعة من واحتكم

اقتلعوها قبل الرحيل ، ليبقوا بينكم كما لم يحدث لهم من قبل ، بقاء «شرعيا» حربكم من اجل الاستقلال لم تنته ، بل هي بدأت كما لم يحدث لكم من قبل .

— لقد سوى الغرب حسابه القديم مع صلاح الدين ، وحسابه الحديث مع محمد علي وابراهيم باشا ، سواه مع آل عثمان وقياصرة روسيا على السواء . واكتشف نابليون ونلسون بعد قرن ونصف ان الهدف الواحد لا يفرق ، وان الاستيطان العنصري في قلب العرب هو الضمان الوحيد .

وتزف العرب كلمة « لا » .

وكان في حرف الرفض نقطة دم مصرية .

* * *

العام ١٩٥٠ .

كبرت نقطة الدم على شواطىء القنال .

كان مصطفى النحاس هو الذي طلب من الجامعة العربية الوليدة ان تكتب وتسجل وتضيف : كل بلد عربي يفكر في التعامل مع الكيان الصهيوني(المزعوم) تنطبق عليه تلقائيا مواقف العرب من اسرائيل(المزعومة).

وكان مصطفى النحاس أيضا هو الذي ألغى معاهدة ١٩٣٦ من طرف واحد هو مصر . كان يدرك هذا الوفدي العريق ان خيطا واحدا يربط بين القاعدة البريطانية في السويس والقاعدة العبرية في فلسطين .

لكنهم أحرقوا القاهرة .

أحرقوها عشرين عاما لا عشرين ساعة .

وأحرقوا معها جيلا كاملا .

كانت نقطة دمه تكبر في السجون وميادين القتال وأعواد المشانق على السواء . كانت تزدهر احمرارا لحظات معدودة ، لكنها سرعان ما تنفرش وتكبر في أفران التعذيب المليئة بالخمائر في ٥٤ و٥٩ و٦٥ و١٩٦٦ وفي ساحات الشرف ٥٦ و٦٢ و٦٧ و١٩٦٩ .

بين فكي الرحى احترق جيلنا .
بين الفرن المشتعل وميدان القتال ظل معلقا : عيونه في السماء واقدامه في أعماق الارض ، لكن رأسه مدلاة ترسم مع العنق المكسور علامة سؤال.

* * *

لم يكن جيلا من المثقفين فقط .
ولم يكن جيلا من المصريين وحدهم .
تعددت «التواريخ» والجغرافيا ، والموت واحد .
كان ولا زال جيلا من أمة .
أعطى نصف نقطة دمه لمخابز اللحم البشري الوطنية ، والنصف الآخر لمحابر الدم البشري الاجنبية .
ـ لم يعد دمه ، كماء النيل ، صالحا للشرب .
لم يتلوث .
لكنه كان نقطة واحدة ابتلعها مصاصو الدماء ، على مدى جيل .
فماذا يبقى سوى الجنون ؟
... أو الانتحار ؟

* * *

كابوسك المقدس وانتحارنا البريء ، بند حاضر في جدول أعمال الذين مصوا دمك ودمي ، لانه ــ على الرغم من جــلاله ــ دعوة لسائر الاجيال ان تمزق الخريطة ، دعوة للامة بأن تنقرض في بار مزخرف بأجود ألوان الخمور ، وان تتلاشى في زار مدجج بأشهى رقصات الموت .
جيلنا نقطة دم ... لكنها لم تجف .
سارية المفعول في شرايين جديدة لا تموت .
فلسنا البداية ولا النهاية ، لسنا الاول والآخر .
انا نقطة نعم ، لكنها في نهر لا يعرف الالف ولا الياء ... لان الصحراء الحمراء لا بد ان تخضر ذات يوم .

١٩٧٩/٤/١٣

كنا نبيع الحرية

منذ ثلاثين عاما و «المثقفون» العرب هم المتهمون الرئيسيون في كل كارثة تنزل بأمتهم .. فهم أصحاب «الشعارات» أو «النظريات» . وهم أيضا أصحاب «النقد الذاتي» المستمر ، أي الذي يلغي انهم كانوا على صواب في أي يوم من الايـام . وأخطاؤهم المستمرة هي التي بلبلت الجماهـير وضللتها . فأعطتها الامل الكاذب أو شحنتها باليأس القاتل .

منذ ثلاثين عاما و «المثقفون» العرب في قفص الاتهام أو في زنزانـة الاعدام ينتظرون تنفيذ الحكم . الذي أصدره في حضورهم وغيابهم . القاضي ووكيل النيابة والمحامي وشاهد الاثبات وشاهد النفي جميعا ..

منذ ثلاثين عاما و «المثقفون» العرب ضحايا جاهزون في كل حادث يقيد «ضد مجهول» ، وضحايا جاهزون للشماتة العربية الشاملة ، حتى من جانب الذين تتوهم ان المثقفين دافعوا عنهم وتحالفوا معهم . فالمناخ العـام ضد المثقف أيا كان ومهما كانت عقيدته ، فسيف الاتهام معلق على عنقه في الطريق العام والساحات العامة ، بجميع الايدي التي أحرقت جان دارك وبرونو والتي هتفت لبيلاطس النبطي في وجه المسيح «اصلبه ، اصلبه ، دمه علينا وعلى أولادنا » .

* * *

وكما كان «المثقفون» العرب هم سبب «الانفصال» المر عام ١٩٦١ فقد كانوا سبب الهزيمة الساحقة عام ١٩٦٧ وهو الآن سبب التوقيـع على

وثائق الهزيمة عام ١٩٧٩ . هكذا يجب شنق كل واحد منهم ثلاث مرات على الاقل .

ولقد شنق «المثقفون» العرب ثلاث مرات بالفعل خلال ثلاثين عاما ، شنقت ثلاثة اجيال متتالية : الاول في عصور الاحتلال والسلطة الاجنبية ، والثاني في عصور الاستقلال والسلطة الوطنية ، والثالث في عصور الارتداد وسلطة الجبهة الصهيونية الاميركية المحلية .

شنقوا ولم يبك عليهم أحد . بل لعل البعض بكى لانهم لم يشنقوا من قبل . أو لان ثمن الحبال المستوردة لاعواد المشانق قد أرتفع .

ولم يشنق مثقفونا صدفة ، ولا في السر . بل لان الجيل الاول قال لا ، للاستعمار والاقطاع . ولان الجيل الثاني قال لا ، للدكتاتورية . ولان الجيل الثالث قال لا لاغتصاب الارض .

وقد شنقت الاجيال الثلاثة ، لانها تجاوزت حدود « المثقف » كما يعرفه الغرب ، فلم تقل « لا » فقط ، بل حاولت ترجمتها الى فعل .. فالجيل الاول قاوم الاستعمار بالرصاصة لا بالكلمة وحدها . والجيل الثاني قاوم الدكتاتورية بالتنظيم السياسي المستقل ، لا بالهمسة وحدها . والجيل الثالث رفض الاغتصاب بالدبابة والطائرة والمدفع ، لا بالكلمة وحدها .

لقد تجاوز مثقفونا حدودهم فعلا .. حدودهم المرسومة في تاريخ الثقافة الغربية . أرادوا ان يكونوا أمناء لتاريخهم العربي أوفياء لتراثهم ، امتدادا لاصالتهم .. حيث «الثقافة» هي القول والفعل معا .

وتلك كانت جريمتهم الحقيقية التي نحرت اعناقهم جيلا بعد جيل .. حتى ان مشهدهم الفريد في تاريخ الثقافة الانسانية لم يعد يسلي أحدا .

● فكم من مثقف مصري ، مثلا ، كان في السجن عشية ثورة يوليو «تموز ١٩٥٢» بتهمة محاولة قلب نظام الحكم ، فاذا به يستمر في السجن.. بعد ان قلب نظام الحكم فعلا .

● وكم من مثقف مصري ، مثلا ، ينتمي الى اليمين وآخر ينتمي الى

اليسار ، وقد تجاوروا داخل المعتقل عقدا كاملا أو عقدا ونصف من الزمان، أي عمرا كاملا .. بل كان أحدهما يلقى حتفه في فرن التعذيب ، والآخر يلقاه بكل تكريم بين فكي المقصلة .

● وكم من مثقف مصري ، مثلا كذلك ، ينتمي احدهما الى اليسار والآخر الى الاخوان المسلمين ، وقد التقيا في مطار القاهرة صالة المغادرين وفي مطارات العالم صالة القادمين .. ثم في مقاهي الغربة وشوارع الهجرة الجماعية الدائمة .

قلت « مثلا » لان هذه الحال لا تخص المثقف المصري وحده . ولان أوراق التاريخ تختلط ، فما حدث في مصر منذ ثلاثين أو عشرين عاما يحدث في غيرها اليوم . وما جرى لغيرها منذ ربع قرن يجري لها اليوم .. وكأن شيئا لم يحدث لا بالامس ولا اليوم ولا غدا .

نعم ولا غدا ، فلاننا شنقنا الحرية لم تعد لنا وظيفة سوى السير في جنازتها .. ونكتفي حين تلحق بنا احدى الكوارث ان نتطهر قائلين : لعنة الله على المثقفين . ونتناسى اننا حين قتلناهم ، ولا زلنا ، كنا نبيع الارض والانسان ، بأبخس الاثمان . لاننا كنا نبيع الحرية .

١٩٧٩/٤/٢٠

التمثال المشنوق

لست أقيم للمثقفين العرب «تمثالا من ذهب» كما تصور البعض . لكني لا أحب لغيري ان يقيم لهم تمثالا من طين . ولست أضع تمثال المثقفين العرب على قاعدة من المرمر وسط أشهر الميادين . فالمثقف العربي ليس «صورة» أو «مرآة» لمجتمعه فحسب ، بل هو جزء عضوي لا ينفصل عن جسد المجتمع ... فهو ابن الفلاح والعامل والجندي والتاجر ، وليس بضاعة مستوردة .

لذلك ، قلت وأقول ان وضع «المثقف وحده في قفص الاتهام العربي كلما نزلت بنا كارثة ، هو عمل لا يتصف بالشجاعة أمام الذات وامام الغير . فالمثقف مسؤول ـ حتى عن الجرائم التي لم يسمع بها كما يقول سارتر ـ لكنه في سلم المسؤوليات يأتي ترتيبه الأخير .

... فبعض أنظمة الحكم أولا ، ثم المناخ الشعبي الذي سمح لهـذه الانظمة أصلا بالوجود ، ثانيـا ، همـا المسؤول الاول عن كل ما جرى ويجري .

فالمثقف ، أي مثقف ، لا يستطيع الانجاز لحد الابداع الا في ظل الحرية . وليس صحيحا ما يقال ان الفقر والقهر قد «أثمرا» كتابا عظاما في مختلف العصور والمجتمعات . اننا ننسى مرتين ، انه لولا الفقر والقهر ، لاعطى هؤلاء الكتاب عطاء أعظم ، وانه لولا الفقر والقهر لما أصيب بعضهم بالجنون ولما أقدم البعض الآخر على الانتحار .

ولا يهم دوستويفسكي الآن أن يقام له في كل مدينة روسية تمثال من ذهب ، فلقد كان يسعده أكثر وهو بعد حي ألا يكون مديونا لدرجة تطلبت منه أن يتعاقد على روايات لم يكتبها ، وحين اضطره الدائنون لكتابتها كتب «أي كلام» ، وحين اضطره الناشرون ان «يزيد» في عدد الصفحات في مقابل «المال» الذي حصل عليه ، وحين اضطرته المطبعة لان يرسل لها «أي شيء» يكتبه من دون مراجعة ، حتى انه كان ينسى احداث الفصل السابق .

وكم يسعد دوستويفسكي أكثر ، وهو بعد حي ، لو ان القيصر لم يحكم عليه بالاعدام ، وانه قبل التنفيذ بدقيقة واحدة يصدر عنه العفو ... فقد كانت تلك اللحظة تساوي عمره كله .

دوستويفسكي عبقري الرواية في القرن التاسع عشر ؟ نعم . لكن الدارس المتعمق يكتشف بسهولة انه في الحقيقة «اعظم» مما اعطاه ، لو لم يطارده الفقر والقهر .

ولا يهم مايكوفسكي الآن ان يقام له تمثال من ذهب في كل كولخوز سوفياتي ، فلقد كان يسعده أكثر ، وهو بعد حي ، ألا يكون مطالبا بنظم الشعر عن الكولخوزات ، والمصانع ولينين . وكان يسعده أكثر ، وهو بعد حي ، ألا يصادر شعره الحقيقي ، وألا «تمر» قصائده الا بتعليمات لينين شخصيا . لم يكن ذلك ، في زمن القيصر ، بل كان في زمن الثورة . وحين تناقض الواقع والحلم انتحر مايكوفسكي .

– حتى مكسيم غوركي ، الاكثر قربا من قائد الثورة والاكثر اخلاصا للحزب ، وجد نفسه في أول صدام بين الفنان والسلطة ، منفيا الى ايطاليا .

* * *

وفي ثقافتنا العربية المعاصرة مئات من دوستويفسكي ومايكوفسكي وغوركي ، مئات المعذبين حتى الجنون ، والفقراء حتى الموت ، والمقهورين حتى الانتحار .

/ والروس الثلاثة يقولون معنى واحدا ، هو ان قدر المثقفين ، سواء كانوا أيام القيصر القديم أو القيصر الجديد ، هو الصليب والمحرقة واعواد المشانق ... وهم بعد احياء / اما بعد «استشهادهم» ، فهم نجوم المتاحف وقصور السياحة واصحاب التماثيل .

/ والمثقف العربي ، كأي مثقف غيره ، لا يريد تمثالا من ذهب بعد موته. انه ، فقط ، يريد الحرية ./

/وحريته ليست ترفا يمتاز به عن سائر البشر . بل حريته هي حرية الشعب الذي ينتمي اليه ، وحرية القلب المبدع ... فلا حرية لكاتب أو فنان بغير حرية جماهيره في صنع الادب والفن والثقافة . حرية التفكير والتعبير هي حرية الحياة . /

/وهي الحرية التي ناضل من اجلهـا المثقفون العـرب طوال الاعوام الثلاثين الماضية ، نضالا تاريخيا دفعوا فيه الثمن سلفا ، للاجانب والسلطات الوطنية على السواء / من منهم لم يخطىء الاجتهاد ، أو الرؤية ؟ الجميع أخطأ . لكنه خطأ البحث عن الطريق ./

/ وفي هذا الطريق ، لا زالت بقايا دمهم تقول : اننا لم نكن السبب في الهزائم . لقد كنا ضحايا الفقر والقهر و ... القائمة الطويلة . لا تقيموا لنا التماثيل بعد موتنا ولا في حياتنا ، ولكن «افرجوا عنا» يندحر جميع الاعداء . /

١٩٧٩/٤/٢٧

المثقفون العرب في زمن المحنة

ثلاثة أمور تدعوني للالحاح على قضية «المثقفين العرب» في زمن المحنة.

أولها دور « الكلمة » في حياة العربي القديم والوسيط والحديث . بمعنى آخر دور « الوعي » . فاذا سلمنا جدلا بالقانون العام القائل ان الوعي ، أي وعي ، انعكاس للواقع الاقتصادي ـ الاجتماعي ... واذا سلمنا جدلا بالتطوير الحديث لهذا القانون والذي يقول ان الوعي ليس مرآة جامدة أو مصقولة ، بل هو في تفاعل لا ينقطع مع الواقع ... فاننا على الرغم من تسليمنا بصحة القانون العام وتطويراته نقول ان هناك « خصوصية عربية » تمنح « الوعي » دورا أكبر من الحجم الذي فصَّل عليه القانون وتعديله معا .

وهو الدور الذي يبدأ من الشعر الجاهلي والخطب الجاهلية الى السينما العربية المعاصرة ... فالوعي ليس مرادفا للكلمة وحدها . لكن « الكلمة » في تاريخ العرب كانت التجسيد الاول والاوفى للوعي ، الى ان بدأ الايقاع والصورة يحتلان لا مكانها بل مكانا الى جانبها . فالكلمة وبقية أشكال الفكر والتعبير لها أثر خطير في تكوين العرب على مر العصور ، أكثر كثيرا من « التنظيم الحزبي » في حياة أمم أخرى ، أو « الحياة البرلمانية » في حياة شعوب مختلفة .

لذلك أيضا كانت « الامية » سلاحا خطيرا بين أيدي أعداء « الوعي العربي » ... بينما التعليم في بلاد غيرنا لا يعد من معايير التقدم والارتقاء ، وليس هو الذي يؤثر في احتمالات التغيير ... فعلاقات الانتاج في العالم

المتطور صناعيا هي التي تلعب غالبا الدور الحاسم .
- عندنا ، تلعب هذه العلاقات دورا أساسيا كذلك أيضا ، لكن «الوعي» لا يلعب دورا ثانويا أو «عاكسا» بل دورا أساسيا كذلك .

هكذا يصبح «التجهيل» في بلادنا من أخطر الاسلحة ضد تطورها . ان «الابجدية» و «المعلومة» هما جناحا الحرية في وطننا ... ومن هنا كانت الامية أو طبقية المعرفة . وكذلك «الرقابة» من المقومات الرئيسية للحكم الدكتاتوري .

الامر الثاني هو دور المثقفين العرب في التنمية بعد الاستقلال ... فقد كان هؤلاء المثقفون ولا يزالون هم قادة التنمية الحقيقيون في ظل التخلف . طبعا ، يلعب العامل والفلاح دورا رئيسيا في الانتاج ، لكن المثقف هو الذي يلعب الدور الحاسم في ترشيد الانتاج ... في اقطار لا زالت الهوة مخيفة بين العمل اليدوي والعمل الذهني ، بين القرية والمدينة ، وبين وسائل الانتاج وعلاقات الانتــاج . فالمثقفون ــ في ميادين الاقتصاد والصناعــة والزراعة والخدمات ــ يقومون بدور استثنائي لم يعرفه الآخرون في الغرب حين يقولون ان لا دور للمثقف في "دولاب الانتاج" : فرأس المال والمادة الخام والماكينة والعامل ، هم عناصر الانتاج الوحيدة وغيرهــا (أي المثقفون) من العناصر الطفيلية .

في بلادنا الامر يختلف قليلا أو كثيرا حسب مستوى التطور الذي بلغه هذا القطر أو ذاك ... فالمثقفون العرب ، سواء في القطاع الخاص أو قطاع الدولة أو قطاع الخدمات ، لعبوا ويلعبون ــ بعد الغروب النسبي للحضور الاستعماري ــ دورا حاسما في « ترشيد الانتاج » .

وهي الوظيفة «الوطنية» و « الديمقراطية» التي لا تلبي احتياجات فئات واسعة من عملاء الاستيراد والتصدير والبيروقراطيين والمستفيدين من المركزية والانفراد بصنع القرار .

والامر الثالث يترتب تلقائيا على النقطتين السالفتين ، فالامية الواسعة

النطاق والبيروقراطية الواسعة النفوذ يقيمان جدارا سميكا بين « المثقف العربي » والجماهير العريضة ... وفي مقدمتها الطبقات والشرائح التي « يفكر ويعمل » من أجلها ، حتى ليصبح المثقف معزولا لا معتزلا . ومن هذه الثغرة ، يصبح قهره سهلا و «عدم تأييده» ميسورا ، والتحريض عليه أكثر منالا .

هكذا ، يشعر المثقف في بلادي أنه وحيد على الرغم من الزحام ، زحام الاوسمة والجوائز والمؤتمرات . كما يشعر بأنه غريب في وطنه ، لا يعاني اغترابا مترفا مسطحا كالمثقف الغربي ، بل اغترابا عن الجلد واللحم والدم والعظم والتراب .

وفي معظم بلاد العالم ، يقوم الفلاحون بالتمرد على الاقطاع . ويقوم العمال بالتمرد على البرجوازية ، ويقوم الجنود بالتمرد على اغتصاب الارض ، ويقوم المثقفون بالتمرد على الرقابة ...

اما في بلادنا ، فالمثقفون هم الذين يواجهون الاستعمار ويتصدون للاقطاع ويحاربون البرجوازية ويعانون اهوال الرقابة .

وهاتوا سجلات السجون والمعتقلات في خلال ثلاثين عاما لنقرأ نسبة «المناضلين» من كل طبقة ، عن مصلحتها لا عن مصالح غيرها .

يقينا ستكون نسبة المثقفين هي الاعلى ، حتى وهم يناضلون عن غير الطبقات التي ينتمون اليها ... فكم من مثقف « ابن باشا » قد استشهد من أجل العمال والفلاحين ، وكم من مثقف «ابن فلاح» (استشهد) من أجل العسكر ؟

بل وهاتوا سجلات القهر الغربية ، وقارنوها باضطهاد مثقفينا ، سوف يذهلكم ان أحدا لم يعرف الجحيم كالمثقف العربي ... منذ مأساة الحلاج في الماضي الى مأساة محيي الدين بن عربي في مجلس الشعب المصري مرورا بسيد قطب وشهدي عطية الشافعي ونجيب سرور واسماعيل المهدوي ... والقائمة الطويلة التي لا تنتهي .

١٩٧٩/٥/٤

بريجنيف أديباً

– كان أقصى المنى عند السلاطين القدامى ، وأباطرة العصر الوسيط ، أن يدبج لهم الشاعر ملاحم المجد الكاذب أو الحقيقي .

ولم يفكر أحدهم يوما أن يصبح هو الشاعر . لكن العلاقة بين الفنان والسلطان ظلت على مدى العصور ، علاقة التوتر الكامن في دخيلة النفس وحنايا الصدور : طرف يملك الثروة والسلطة ، والآخر لا يملك سوى الضمير .

– وبقيت ملحمة العذاب الابدي : من يملك الارض يحتاج الى «شهادة» صاحب الضمير ليملك من عليها . ومن يملك وهج الضمير بين الضلوع يحتاج دائما الى الحرية والحماية ، وأحيانا يشعر في عمق الاعماق أنه أحق من المعزّ بسيفه وذهبه معا .

– وبقيت المسافة على مدى التاريخ بين بوابة السجن وبوابة القصر ، ميدانا للصراع بين السيف والذهب من ناحية ، وضمير الشاعر أو الفنان من ناحية أخرى .

– كثيرون هم الذين أرهبهم السيف أو أغراهم الذهب . وقليلون هم الذين فضلوا الزنزانة على حجرة النوم وأعواد المشانق على الرقص فوق الحبال . وبين هؤلاء وأولئك ، لم يكن هناك متسع لغير الجنون والانتحار والموت فجأة وجحيم المخدرات ... للذين رفضوا اعطاء السلطان شهادة حسن السيرة والسلوك ، كما اعتذروا عن عدم اعطاء الشهادة نفسها

للزنازين وغرف الاعدام .

* * *

كانت هذه هي صورة العلاقة بين الفنان والسلطان ... لم يشذ عنها طوال العصور سوى الشاعر (وأقصد به الكاتب والمفكر والمثقف عموما) الذي يختصر الطريق ويصبح جزءا من السلطة . لكن اتحـاد الكتاب السوفيات قلب الآية هذا الاسبوع ، فقد دفع بريجنيف لان يختصر طريق الحصول على شهادة الضمير ، فاعترف به أديبا أي جزءا من سلطة الضمير . وهكذا ، أصبح السلطان للمرة الاولى في التاريخ ، صاحب السيف والذهب و ... والشعر .

وهي سابقة خطيرة ، لانها تعني ان سلطانا ما لم يعد مكتفيا بشهادة حسن السيرة والسلوك ، ففضل الحصول على الخاتم الرسمي ليصبح في مقدوره ان يصدر هو الشهادات للآخرين . وهي سابقة خطيرة ثانيا ، لان الشاعر القديم أو الحديث حين كان «يوقع» بشهادته لسلوك الحاكم ، كان يتحمل المسؤولية الفردية عن هذه الشهادة ... أما الآن ، فاتحاد الكتاب السوفيات بمنحه بريجنيف جائزة لينين في الادب لهذا العام ، فانه يقوم بعمل استثنائي في التـاريخ الادبي وهو تسليم سلطة الضمـير بكاملهـا للسلطان . أي أنه يتنازل طوعيا عن سلطته المعنوية لصاحب السلطة الاخرى.

- وهي سابقة خطيرة ثالثا ، لان هذا يتم في بلد اشتراكي . لينين نفسه الذي سميت الجائزة باسمه كان يكرر القول انه لا يتذوق الفن تذوق المحترفين وانه لا يستطيع ان يصدر حكما في أي عمل أدبي .

- ولولاه شخصيا ، لما استطاع مايكوفسكي ان ينشر قصائده الحقيقية.

وقد انتكس الادب في الاتحاد السوفياتي انتكاسة تاريخية بوصول ستالين الى عرش الحكم السياسي وجدانوف الى سلطة الحكم الادبي . لكن ستالين الذي وضع كراسة في علم اللغة ، لم يطمح يوما في جائزة اتحـاد الكتاب ، ولا فكر جدانوف في اعطائها له .

ولست اعتقد ان باقة الاوسمة التي يعلقها بريجنيف على صدره تحتاج الى وسام جديد . بل انني لست اعتقد ان بريجنيف كان لديه الوقت، وهو رئيس احدى القوتين الاعظم في نظام شمولي، ليكتب هذه «المذكرات» التي نال عليها الجائزة الرفيعة من اتحاد الكتاب السوفيات .

أكثر من ذلك ..

- انني اشك شكا جديدا في أنه قد خطر ببال بريجنيف أن يطلب أو يوحي بطلب هذه الجائزة لنفسه ، فلعل أكثر الاصوات نفاقا ، ممن لا علاقة لها بالادب ، هي التي تطوعت بهذا الاقتراح المثير .

- كم كنت أود من الرئيس بريجنيف ان يرفض هذه الجائزة المزيفة ، وأن يأمر بالتحقيق في الاسباب التي «أرعبت» اتحاد الكتاب حتى أنه فكر علنا في رشوة أدبية للامين العام للحزب . فلا بد ان هناك اسبابا لعينة دفعت البعض للنفاق والبعض الآخر لرفع الاصابع بالموافقة ... بدلا من ان ترفع رؤوسهم عن اجسادهم .

وكم كنت أود من اتحاد الكتاب السوفيات ان يمنح جائزة لينين للادب ، لكاتب مغمور قال « لا » ودخل السجن أو مستشفى الامراض العقلية أو تشرد في المنفي . حينذاك كان سيفاجأ زوار جثمان لينين المحنط بأن شفتيه تنفرجان عن ابتسامة ... وان نقصت أوسمة بريجنيف واحدا .

١٩٧٩/٥/١١

لا يا نزار

— لانني أحب نزار قباني أقول له بأعلى صوت : لا قف وكفى . لن أقول الكلمات الكبيرة . لن أقول لانني أحب مصر والعرب والشعر سأطلب الى الشاعر أن يصمت . بل سأقول له : لانني ببساطة أحبك ، أتمنى أن تراجع النفس قليلا وأن تتوقف عن الكتابة كثيرا . فالكتابة في حياتك لم تكن يوما بطاقة انتساب لحزب ، ولا شيكا مجهولا في مصرف معلوم ، ولا تعزيزا لحضور تهدده شهادة الغياب .

— قرأت قصيدتك الاخيرة « اليوميات السرية لبهية المصرية » فلم أعثر على اليوميات ولا على بهية ولا على الشعر ، ولم أعد أصدق ان الخطاب يقرأ من عنوانه ... فكم وددت ان تكون الفارس الذي «يكتشف» الاوراق السرية لمصر ، في وقت كاد فيها الجميع أن يكفر بها وبأوراقها ، وأن يكتفي بقراءة أوراقها العلنيـة عـلى شاشات التلفزيون وميكروفونات الاذاعـة وصفحات الجرائد ، حيث « الالوف » تصطف لاستقبال « بطل السلام » كارتر أو بيغن أو السادات ، وحيث الرقم ٩٩،٩٩٩ يصرخ بأنها — بهية — وافقت على الانتحار .

كم تمنيت منك ومن غيرك ، ان يبرهن شعرا ونثرا ان هذه اليوميات العلنية مزورة ، وان يكشف لنا النقاب عن يوميات مصر السرية ... في الحواري والازقة والنجوع والكفور ، في حنايا الصدور المغلقة ودهاليز السراديب المظلمة . كم تمنيت ان يكون هناك « أحمد فؤاد نجم » عربي من

خارج مصر ، وان يكون هناك « شيخ امام » آخر غير الذي يسكن في الغورية أو أحد زنازين طرة والقلعة وابي زعبل ... يعمق ايمان العرب بمصر العربية ويبرز الوجه الآخر ، السري ، لبهية ، الوجه المحكوم بالتخفي عن عيون الاعلام المصري والعربي والعالمي .

كم تمنيت ، لكن ما نيل المطالب بالتمني .

قرأت قصيدتك فاذا بالامنية تتحول الى مـا يشبه اليأس ، واليك الاسباب :

/ ● لم أكن أدري حتى قرأت قصيدتك ان هناك مشكلة بيننا نحن العرب وبين اليهود والتوراة وموسى والتلمود وراشيل وابراهام واللغة العبرية والحاخام . كنت أعرف ولا زلت اننا في صراع وجود مع « الكيان الصهيوني » أي « دولة اسرائيل » .

ولو ان كل فعلة السادات هو انه قرأ التوراة أو عشق « عبرانيته » لما كان في ذلك أية جريمة ... فالدين لله والوطن للجميع . ولو كل فعلة السادات انه نقل القرآن الكريم الى العبرية ، لاستحق جائزة أكبر هيئـة اسلامية ... فلا فضل للغة على اخرى الا بالتقوى . ونشر الاسلام في مختلف اللغات عمل من أعمال التقوى .

/ ● لم أكن أدري حتى قرأت قصيدتك ان السادات كان رجلا « تقيا ورعا » يهرع اليه المصريون « ليطرد الشيطان عن أولادهم ، ويحمل الفول الى صحونهم » ... فقد كان المعروف عن الرجل ، قبل أن يصبح رئيسا ، أنه يحب الراحة والاناقة والعز والجاه ومجالس « الانس والفرفشة » . وأنت نفسك في القصيدة نفسها قلت عنه في مواضع متفرقة أنه كان في ظل عبدالناصر «حامل الحقائب» و «راوي النكات» ومن أحلامه «أن يصبح المطرب والعازف والممثل المشهور» ويعيش «عيشة الاباطرة» ... فكيف تستقيم هذه الاوصاف مع «المفاجأة» التي بنيت عليها القصيدة بأكملها ؟ هنا أتكلم عن الفن لا عن السياسة . كيف يمكن أن تكون هناك «مفاجأة»

أو «مفارقة» أو «انقلاب» بين صورة الرجل الذي كان وصورته الآن ؟ فهو لم يكن قط «عنترة» في سالف الازمان ، ولا « كان كالاطفال يبكي ان تذكر الرسول» ولم يكن «يخاف ان يدوس النمل أو يروع الحمام»... فكل من قرأ تاريخ مصر الحديث يعرف أنه ، كبيغن تماما ، كان ارهابيـا عريقا ، وكالصهيونية تماما تعاون مع النازي .

● لم أكن أدري حتى قرأت قصيدتك انه يمكن تشبيه السادات «حين كان» بأخناتون و «حين أصبح» بخوفو ، فكلاهما في تاريخ مصر القديم من أعظم الملوك : الاول هو من قال بالتوحيد الالهي والعدل الاجتماعي فانقضت عليه قوى «الثورة المضادة» في زمانه وخلعته . وهو أمر يكاد يكون السادات على نقيضه . والثاني ازدهرت في عصره الحضارة ، حتى أصبح «هرمه الاكبر» رمزا باقيا على التقدم المذهل للرياضيات والكيمياء والادب (كتاب الموتى) في ذلك الزمن القديم . فأين منه السادات ؟ أمـا «فرعون» فهو ليس اسما لاحد ملوك مصر القديمة، بل هي كلمة تعني الملك والاله معا وتطلق على هؤلاء الملوك جميعا . لكنها «القافية» اللعينة ، و «المفارقة» المطلوبة سلفا ، هي التي أملت عليك هذا الحشد من التشبيهات والتسميات الخاطئة تماما... والتي يفوز السادات في نهايتها بأمجد الالقاب، من دون أن تقصد .

● لم أكن ادري حتى قرأت قصيدتك ان بهية (مصر) مخدرة بالخمر والحشيش والافيون ، فلعلك قصدت بهية أخرى غير التي أعرفها ، تلـك التي ــ كما تقول تماما في موضع آخر ــ تصبر كثيرا ، لكنها حين تستيقظ توقظ العالم معها . ان «شارع الهرم» ليس هو عنوان بهية الصابرة . وبهية التي أعرفها ، لم «تحمل الخمر الى مليكهم داوود» ولم «تقرأ التلمود» ولم «تصبح راقصة في حارة اليهود» ... الا عند الذين لا يعرفونها أو الذين يكرهونها . ولعل نزار قباني الذي أعرف مدى حبه لمصر ، لم يقصد مطلقا هذا الهجاء البشع لمعشوقته السمراء . انه غالبا يقصد الراقصة «دلع» أو

المطرب «شخلع» وغيرهما ممن لا تراهم ولا تسمع بهم بهية .

* * *

وبعد ، فان صديقي نزار ، قد يحتج بأن هذا كلام سياسي لا علاقة له بالنقد . وعذري الوحيد أن «قصيدته» كلام سياسي لا علاقة له بالشعر .

١٩٧٩/٥/١٨

ثقافة المعاهدة

ـــ محاصرة النظام المصري ، على الصعيدين الاقتصادي والسياسي ، مهمة الى أقصى الحدود فقد كان الاجماع العربي في بغداد مقدمة ضرورية للحصار الاسلامي في فاس التي قد تصبح تمهيدا لحصار كتلة عدم الانحياز ... الى سائر الدوائر التي يمكن ان تطبق على عنق النظام أو تضيق عليه الخناق ، فلا يعود أمام الشعب المأسور في الداخل سوى أن يضرب ضربته القاضية .

ـــ لكن مفهوم «الحصار» هو الذي يحتاج الى تحديد أكثر ، حتى تكون فعاليته أعمق وأقوى وأشمل . فالاقتصاد والسياسة مهمان ، لكن الثقافة هي الاطار الوحيد القادر على احكام الحصار .

ـــ في ما يلي بعض الخواطر أسوقها على السجية، أراها ضرورية حتى لا يختلط الاصيل بالطارىء ، والجوهري بالعابر .

ـــ ان «ثقافة المعاهدة» ان جاز التعبير ، و «أعلام المعاهدة» ان جاز التعبير أيضا ... أكثر اتساعا من أن تنحصر في «أسماء» الذين أيدوا الرئيس المصري في الصلح مع «الكيان الصهيوني» ... فلو أن الامر بهذه البساطة لاستطاع اتحاد الصحفيين العرب واتحاد الكتاب العرب واتحاد السينمائيين العرب واتحاد المسرحيين العرب واتحاد الاذاعة والتلفزيون ... أن يصدروا جميعا قوائم «تحريم» على الاعمال والاشخاص الذين أيدوا ويؤيدون النظام المصري ورئيسه .

/ لكن المشكلة هي أن الصلح مع الكيان الصهيوني "ثقافة كاملة تتخفى وتتستر تحت عناوين واسماء ربما لم تؤيد المعاهدة ولا صاحبها علنا، ولكنها تكرس «روح» الصلح مع ألعدو وجوهره تكريسا عمليا .

/ بهذا المعنى ، فهي ثقافة لا تقتصر على انتاج بعض الكتاب والصحفيين والسينمائيين والمسرحيين المصريين ، بل هي «تيار فكري» يمتد من المحيط الى الخليج .

/ ـ فالثقافة التي تمجد مجتمع الاستهلاك وتزين فضائل الاستغلال وترشو الوجدان العربي بمخدرات التاريخ ، هي ثقافة مع «المعاهدة» ... لانها تبني (أو تهدم) روح الانسان ، على الاسس التي اختارها النظام المصري طيلة السنوات الماضية ، فجاء الصلح تتويجا لها .

/ ـ والثقافة التي تبرز الخصائص الاقليمية كأنها جوهر ثابت ووجود (قطري) مستقل ، هي ثقافة مع المعاهدة ... لانها ترسخ كيان التجزئة ، وتشيع القيم العنصرية في التعامل مع بقية الاقطار العربية . وهو الترسيخ الذي مارسه النظام المصري يوما فيوما ، حتى نجح في تهيئة المناخ الاجتماعي لاستقبال المعاهدة .

/ ـ والثقافة التي تركز على الاسس الدينية والمذهبية لبناء الدول والشعوب ، هي الاخرى ثقافة المعاهدة ... لانها تعيد صياغة « النموذج الاسرائيلي » وتبرر انبثاق « دويلة حداد » . وقد كانت هذه ثقافة النظام المصري طوال السنوات السابقة ، والتي انتهت تلقائيا باللقاء الحاسم مع الكيان الصهيوني .

/ ـ وثقافة «الرأي الواحد» الذي يتوهم انه الرأي الوحيد الصحيح، ويحاول فرضه على جميع الناس ، كأنه مبعوث العناية الالهية لانقاذ الارض ومن عليها ، هي أيضا ثقافة المعاهدة ... لان الدكتاتورية هي التي أدت ضمن عوامل أخرى الى الهزيمة في العام ١٩٦٧ فالحرب البديلة عام ١٩٧٣ فالمعاهدة عام ١٩٧٩ .

/ وثقافة « المعاهدة » اذن ليست هي الثقافة المصرية المعاصرة ... فما يكتب في الصحافة المصرية ويذاع من الراديو المصري ويمثل على الشاشة المصرية ليس أكثر من الجزء العلوي من جبل الثلج العائم تحت سطح الماء في قاع المسافة بين المحيط والخليج .

وما أيسر ان نحاصر الجزء العلوي الظاهر فوق السطح، ولكن المشكلة هي كيف نحمي السفينة المبحرة بعيدا عن المعاهدة من الاصطدام ببقية الجبل الرابض تحت السطح ؟

١٩٧٩/٥/٢٥

⁄ حادث « اليونسكو »

⁄ وقف الفنان المصري حامد عبدالله المقيم في باريس منذ وقت طويل، في احدى قاعات اليونسكو هذا الاسبوع موقفا بالغ الاهمية ... فقد دُعي لان يكون أحد أعضاء لجنة التحكيم الدولية في مسابقة تنظمها اليونسكو بين مصوري العالم . وقد اشتركت ثماني دول عربية في هذه المسابقة. ولكن عضو لجنة التحكيم المصري فوجيء بأن «اسرائيل» من بين الدول المشتركة أيضا ، وأنها قد احتلت الرقم (١٥) في قائمة الدول «الاوروبية» .

⁄ هنا وقف حامد عبدالله ليعترض ، أولا ، على اشتراك «اسرائيل» بصفتها دولة أدينت من قبل اليونسكو بالذات في قضية تغيير معالم مدينة القدس ــ وليعترض متسائلا، ثانيا، عما اذا كانت حدود أوروبا، ستصل في القريب الى أوغندا . وليعترض ، ثالثا ، على ان حضور «اسرائيل» يعني غياب فلسطين العربية صاحبة الارض المغتصبة منذ العام ١٩٤٨ .

⁄ تقدم رئيس اللجنة الدولية للتحكيم من الفنان المصري قائلا : ان بلادك قد اعترفت باسرائيل ، فلماذا تعترض ؟ أجاب حامد عبدالله : لقد دعوتموني في هذه الهيئة بصفتي فنانا عربيا من مصر ، ولم ادع كممثل للنظام المصري . وعلى أية حال ، فانني اعتذر عن عدم الاشتراك من الآن ، طالما ان «اسرائيل» مشتركة في المسابقة ، ولو تحت المظلة الاوروبية .

وانسحب حامد عبدالله في هدوء .

وهو حادث خطير ، لان الاشتراك في مسابقة فنية لا يختلف مطلقا عن الاشتراك في «ماتش» كرة قدم ... فهل يمكن لفريق عربي أن يلعب أية مباراة مع فريق اسرائيلي ؟

- لقد تعودنا ، دون قرارات ، مقاطعة الكيان الصهيوني في مختلف المجالات، حين يكون القرار بيدنا. فمثلا ، لا حيلة لنا في عضوية «اسرائيل» بالامم المتحدة ومؤسساتها . لكن المسابقات أو المؤتمرات العلمية والادبية والاقتصادية شيء آخر ... لان قرار الاشتراك أو عدم الاشتراك فيها ؛ بيدنا نحن .

- ونحن لسنا بحاجة « للتعرف » على الفن الصهيوني أو الادب أليهودي أو الثقافة الاسرائيلية، لاننا ننقلها الىلغتنا بأنفسنا وندرسها وندرك أبعادها، دون الحاجة الى الاعتراف «بدولتها» . وأية موافقة على الاشتراك في مسابقات من هذا النوع ، هي اعتراف ضمني بالدولة العبرية ، حتى وان لم يكن مقصودا .

- ولا أريد أن التمس العذر لبعض الجهات العربية التي اشتركت في مسابقة اليونسكو ... فهي قد لا تكون على معرفة بأسماء الدول الاخرى المشتركة . وهذا عذر أقبح من ذنب .

- ولا أحد يعترض مطلقا على أن يكون بين الفنانين المشتركين يهود من فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. ولكنه أمر يختلف تماما عن اشتراك «اسرائيل» كدولة ، ويختلف كليا عن التحايل بادراجها بين الدول الاوروبية وكأنه حل وسط .

- ان بعضنا بالغ الحماس لمقاطعة الثقافة المصرية والفن المصري المؤيد للصلح مع العدو الصهيوني ... فكيف يستقيم الامر بين هذا الحماس والاشتراك في مسابقة مع الاسرائيليين ؟

- ان أحدا حتى الآن لم يطالب بمقاطعة رسمية للكوكا كولا والسينما الاميركية والصحافة الاميركية التي تدعم الرؤية الصهيونية للصراع العربي الاسرائيلي، رغم أن الثقافة الاميركيةاخطر عشرات المرات من ثقافة السادات.

ولكن دعونا ، من فضلكم ، نقاطع «اسرائيل» أيضا ... لا السادات فقط .

١٩٧٩/٦/١

⁄ صراع الأصالة والعصر

⁄ حين وطأت قدماي مطار الرباط ، تذكرت على الفور ، ذلك الشاب المغربي الكريم الذي دعاني لزيارته في « الدار البيضاء » . وحين اعتذرت له كتابة ، كلف نفسه عناء الحضور الى باريس لاقناعي . ولم اكن بحاجة الى اقتناع ، فزيارة اي قطر عربي ضرورة وواجب وحق . لكن ظروف العمل لم تسمح لي حينذاك بتلبية الدعوة ... حتى كانت مناسبة الندوة الفكرية التي تفضل «منتدى الفكر والحوار» بدعوتي للمشاركة فيها ، فاقتنصت خمسة ايام من الزمن اللاهث ، أمضيتها في العاصمة الرباط ... اما «الدار البيضاء » فقد مررت بها في طريق العودة .

هكذا أجدني مطالبا بالاعتذار : اعتذر اولا لهذا القطر العربي العظيم الذي « اكتشفته متأخرا ، وللمرة الاولى ، واعتذر ثانيا لقصر الفترة التي أمضيتها في مدينة واحدة هي العاصمة ، حيث انها على الرغم من عظمتها ، لا تمنح الزائر المتعجل صورة شاملة لوطن عريق .

* * *

ـ من الوهلة الاولى وانت تخطف البصر خطفا لشوارع الرباط ، تشعر بذلك الصراع العلني والمستتر بين الجذور الحضارية الغائرة في باطن المدينة المغربية ، ورياح العصر الحديث . وليست العبرة بالاسوار التاريخية التي تحيط بالمدينة، لتقرأ عليك صفحات مجيدة من كتاب الاندلس ، ولا بالقلاع الجميلة التي تلح على ذاكرتك بالمقاومة الاسطورية لهذا الشعب العظيم ...

بل العبرة كل العبرة في تلك المباني المشيدة وفق الطراز العربي الاسلامي ، وفي مواجهتها المباني الاخرى التي شيدت حديثا على أحدث طراز غربي .

— ان هذه المفارقة ليست «هندسية» فقط ، بل هي تجسيد عميق الدلالة على حقيقة ما يدور في المغرب ، فوق السطح أحيانا وتحت السطح أغلب الاحيان ... في البناء المعماري ، كما في التعليم ، كما في الثقافة ، كما في السياسة والحياة الاجتماعية .

المغرب بلد لا يبحث عن هوية ، فاصالته ليست موضع جدل . لكنه يبحث عن «تركيب» بين الاصالة والعصر ، لا تزوّر هويته ولا تفصله عن العصر . وهو في طريق «البحث» يعاني أهوال الطريق ... ترشده بوصلة لا تخيب ، هي «خصوصية» النظرة الى الاشياء . فعلى الرغم من أواصر الجغرافيا والتاريخ والتكوين الديموغرافي للسكان في مختلف اقطار المغرب العربي ، وعلى الرغم من عمق الروابط بين المغرب والمشرق ، فان هناك «خصوصية مغربية» سواء في ربط التراث بالعصر ، أو في ربط القطر بالوطن الاكبر .

— الثقافة الفرنسية ، على سبيل المثال منتشرة . لكن الثقافة «المغربية» ليست فرنسية . ثقافة الفقهاء والمتكلمين والبلغاء في العصر الوسيط للحضارة الاسلامية ، منتشرة . لكن الثقافة «المغربية» ليست هوامش على المتون ، ولا مجرد اجترار للعصر الذهبي . انها « الثقافة العربية المعاصرة في المغرب » وليست شيئا آخر ، سواء كتبت في الفرنسيةأو في العربية . وليست الكتابة في الفرنسية تعني حتما «التفرنج» وان عنت الاستلاب على أحد الوجوه ، فلربما كان كاتب مغربي في الفرنسية أكثر عروبة من آخر يكتب بالعربية . كما انه في المقابل ، ليست الكتابة في العربية تعني حتما «السلفية» فلربما كان كاتب مغربي في العربية أكثر معاصرة من آخر يكتب باللغة الاجنبية .

الوضع الثقافي في المغرب ليس مبسطا الى هذا الحد ، فهو يعكس

البنى الاجتماعية القائمة والمتداخلة ، ويتفاعل معها في اتجاهات متصارعة . ولكنه «الصراع» مع تلك الخصوصية التي لا سبيل لفهم أي شيء في المغرب من دونها .

* * *

تتبدى هذه الخصوصية أولا في التكوين الاجتماعي شبه المتجانس ؛ والقريب في المظهر الخارجي من تكوين مصر ، حيث لا تجد تنوعات طائفية أو عشائرية من شأنها خلخلة اسس البناء «الهرمي» للمجتمع ... طبعا هناك «البربر» الذين قد يشكلون في مجتمع آخر كالجزائر ، مشكلة ديموغرافية ، لكنهم في المغرب مغاربة ومسلمون والواحد فيهم يسمي ابنه « محمد العربي » . وطبعا هناك أوضاع قبلية ، لكنها لا تتجاوز حدود الاوضاع في صعيد مصر ، حيث لا تشكل بنية اجتماعية مستقلة نوعيا .

وتتبدى هذه الخصوصية ، ثانيا ، في التكوين العربي شبه المتكامل، حيث العروبة ترادف الاسلام ، والاسلام يعني العروبة ... فالعربي لا يكون الا مسلما ، وهو تعبير لا علاقة له بالتعصب الديني ، بل هو امتداد السلاح الوطني في وجه الاجنبي . ان وحدة العقيدة والمذهب في المغرب ، وتنوع الاعراق (عرب وبربر) كانا من شأنهما هذا المزيج النادر من عروبة الاسلام أو اسلام العروبة ، واللاعنصرية .

وتتبدى هذه الخصوصية ، ثالثا ، في ان المغرب بين أقطار المغرب العربي ، هو "القطب الحضاري" العريق على ضفاف المحيط ... اذا اعتبرنا العراق على ضفاف الخليج يمثل القطب المشرقي ، ومصر في الوسط تمثل القلب . على انه اذا كانت مصر والعراق تستمدان وضعهما الحضاري المتميز من الارث القديم السابق على الفتح الاسلامي ثم دورهما الخاص في استمرارية التاريخ العربي في اوج ازدهاره ... فان المغرب قطب حضاري يستمد عظمته من دوره البالغ الاستثناء في حضارة الاندلس . والمسافة بين طارق بن زياد وابن خلدون توجز دون تعقيد مؤهلات المغرب لاحتلال هذه

المكانة الاستثنائية في تكوين العرب الحضاري .

هذه الخصوصية المغربية اذن ، هي النافذة التي تستطيع ان تطل منها على مجموع المفارقات والتناقضات وحتى الصراعات التي تصادفك في زيارة خاطفة لمدينة مغربية واحدة . انها الخصوصية التي تشكل جوهر « المعـادلة المغربية » القابلة للتطور والتغيـير ، ولكن لا سبيل لادراك ابعادها ، بغير هذه البوصلة .

انك ، في الشارع المغربي ، لن تجد نفسك ايضا في شوارع باريس ، لكنك لن تجد نفسك ايضا في شوارع العصر العباسي . ستجد انك في مكان ما من بيروت او القاهرة ، بغير السادات او الحرب الاهلية .

وأقصد بالشارع معناه الحقيقي ومعناه المجازي معا ، أي مجموع التقاليد والقيم والافكار والسلوك . قلة قليلة ، هي التي لا تعرف غـير الفرنسية ، والغالبية الساحقة تتكلم العربية وفي لهجة واضحة كأنها مألوفة لاذنيك. وما بين القلة والغالبية «وسط» يعرف اللغتين معا. ادخل أي مكتبة تجاور فندقك ، ستجد هذا الوضع منعكسا على الكتب المعروضة ... فانك اذا اضفت القلة المتفرنسة الى الوسط الذي يجيد اللغتين ، تعرف لماذا كانت الكتب الفرنسية اكثر من الكتب العربية . واياك ان تفهم من ذلك ان الغلبة للفرنسية .

* * *

واذا فعلت مثلي ودخلت مقر ندوات «اتحاد الكتاب» من دون موعد سابق ، فانك ستجدهم يناقشون عملا روائيا باللغة العربية لاحد الادباء ... واذا باللغة بين المتحاورين لغة نقية من شوائب عصر السرعة والاهمال والاخطاء الشائعة ، واذا بالرواية تناقش حقبة نضالية من تاريخ المغرب ، واذا بالنقد ــ وهذا هو المهم ــ تحليل عميق يقارن بين الرواية العربيـة عامة ، وهذه الرواية المغربية خصوصا ، بمنهج أبعد ما يكون عن نقد الغرب وأبعد ما يكون عن نقد السلف ، بل هو «تركيب نظري وتطبيقي» جديد لا

سبيل للتعرف عليه الا في سياق «النقد العربي المعاصر» .

وطبعا سوف تشعر بالخجل مثلي ، اذا كنت من ابناء المشرق ، وتحس «بالنقص القومي» في وجدانك ، لانهم هنا يتابعون بشغف كل حرف مما يكتبه المشارقة ، ولانهم هنا يبدعون ، فنا ونقدا ، تصبح نظرتنا الادبية عوراء اذا لم نستوعبهما ...

ـ ومع ذلك ، فما اندر التفاعل الحقيقي مع أدب المغرب ونقده وثقافته عامة . والمشرق ، أولا واخيرا ، هو المسؤول والخاسر معا ... لا بدافع «أخلاقي» بل بدافع ثقافي محض ، فأوروبا ليست أمة ولا قومية ، ومع هذا ، لا عزلة بين كاتب سويسري وكاتب فرنسي وكاتب الماني ... لان «الصورة الادبية الاوروبية» لا تتكامل بغير هذه الالوان جميعها ، وحتى لا تتكرر تجربة فنية في بلجيكا سبق لهولندا ان انجزتها ، وحتى لا يولد وهم زرجسي لفنان بريطاني سبق لآخر ايطالي ان تجاوزه . فكم وكم بالنسبة الى أدب «عربي» واحد ينتجه ابناء أمة واحدة ؟

هذا الكلام عن «المغرب والمشرق» في الثقافة يجوز وأكثر منه في مختلف المجالات والميادين ... في قاعة أحد الاندية الفكرية ، استقبلنا صوت مسجل لعبدالناصر واغاني الشيخ امام . الناس هنا يلتفون حول المصريين والفلسطينيين والعراقيين من زملائنا ، يلتقطون الصور معهم ، كأنهم في مهرجان مع «الاخوة الغائبين» .

وتقرأ الصحافة المغربية ، وتشاهد التلفزيون المغربي ، فتفهم أكثر وتحزن وتغضب لكنك في جميع الاحوال «تكتشف» .

في اليوم الثاني من وصولي ، كان المغرب يقطع علاقاته الدبلوماسية مع النظام المصري ، وكانت « فاس » تستعد لمؤتمرها الاسلامي الكبير . وكانت احدى الصحف تعلق بما معناه : ما أغلى مصر على العرب ، ما اغلاها على المغرب، لكن مصر وشعبها شيء ونظامها الحاكم شيء آخر . وكان الفتى المغربي يقلد عبدالحليم حافظ في التلفزيون ، وحتى الراقصة المغربية في

الهلتون ، تقلد نجوى فؤاد . لكنه ليس تقليدا ، انه الحب لمصر .

* * *

فللمغاربة غناؤهم العذب ورقصهم الجميل ، يستمد أصوله من الفولكلور الشعبي الاصيل : لا حواجز بين الرجل والمرأة في صياغة الاغنية أو تصميم الرقصة ، ولا حواجز بين الرجل والمرأة في مشاركة الغناء أو الرقص . لا حواجز بالمعنى التقليدي ولا فوضى بالمعنى الغربي . وهو الوضع ذاته الذي تلقاه في البيت والشارع والمكتب والجامعة ، فالحرية المسؤولة هي عنوان العلاقة الصحية بين الرجال والنساء في المغرب ، وبين الصغار والكبار ، وبين الآراء والافكار والاحزاب والصحف .

في البرلمان ، كما في أجهزة الاعلام ، ذلك الهامش الديموقراطي المفتوح بحساب لا تخطئه العين . وتقرأ في هذا الهامش العديد من مشكلات المغرب التي يعانيها كبلد في سبيل النمو ... طبقة جديدة ترسخ ظهورها في التجارة والتصنيع واسلوب الحياة . لكن الارستقراطية القديمة لا زالت تطبع الحياة بذلك الطابع التاريخي للعصور الوسطى ! لا فرق في ذلك بين بيت أحد أعمدة السلطة ، وبيت أحد «المناضلين» في المعارضة : ابتداء من طراز البناء الى موائد الطعام القريبة من سطح الارض ، الى الموقف من صراع الشرق الاوسط . لكن نوادي البرجوازية تنتشر في أطراف الرباط ، وكأنها تحاصر المدينة من أسوارها التاريخية . والصراع لا يهدأ ، وانما على الطريقة المغربية التي يجسدها رجل الشارع او بنت الجامعة ، سواء ارتدى جبة وقفطانا وطربوشا ، أو ارتدت احدث مبتكرات بيوت الازياء الاوروبية. هناك قاسم مشترك من القيم والعادات والتقاليد، تجعل للمغرب مذاقا خاصا جديرا بالاكتشاف مرة ومرة . هناك قيم عربية اصيلة لا تعوزها الشواهد ، ورقة أقرب الى النبل والتواضع والحياء .

... وأنت تركب السيارة من الرباط الى مطار الدار البيضاء ، كأنك تمر ساعة كاملة بالطريق الزراعي من القاهرة الى الاسكندرية ... السهول

الخضراء والندى ... بعدها كأنك تمر نصف ساعة اخرى بأجمل جبـال لبنان . وكأن المغرب ــ انسانا وجغرافيا ــ هو مصر ولبنان ، لكن بغير الحرب والسادات .

١٩٧٩/٦/١

ـ «أخي جاوز الظالمون المدى»

ـ قرار منع الدكتور لويس عوض من الكتابة في مصر، ليس «وساما» يعلقه على صدره، كما ان تخفيض اللواء محمد عبدالوهاب الى رتبة عقيد، ليس هو الآخر احدى آيات الموسيقار الكبير.

فالمنع الذي أصاب ناقد الاهرام «العتيد»، لم يكن نتيجة «معارضة» لا سمح الله، بل لانه من «المؤيدين» بطريقة تسمح لهم في المستقبل ان يقولوا انهم كانوا من المعارضين.

والتخفيض الذي جرى لمطرب الملوك والامراء (كما تقول اسطوانات بيضافون) لم يكن نتيجة عدم ادائه الجيد للنشيد الصهيوني، بل لان تقاليد العسكرية المصرية لا تسمح برتبة «لواء» لمن جاءوا من خارج المهنة.

ـ وليس هذا كله مهما، فالاهم ان منع لويس عوض من الكتابة لن يحرمه من مرتب «نائب رئيس الوزراء» الذي يتقاضاه، ولا تخفيض رتبة محمد عبدالوهاب ستحرمه من معاش «نائب رئيس أركان الحرب».

ـ لكن القضية هي ان البعض يتساءل: كيف يمكن للذي كتب عن عبدالناصر والناصرية حتى غداة وفاة قائدها، ان يصبح هو نفسه الذي يكتب عن الثورة المضادة وقائدها قلائد الذهب؟ وكيف يمكن لمن لحّن وغنى «أخي جاوز الظالمون المدى» ان يقود الفرقة الموسيقية لاداء النشيد الصهيوني؟

ويجيب البعض الآخر: ليس هذا صعبا ولا هو بمستغرب في تاريخ

الفنون والشعوب ، فقد كان شتاينبك لا غيره هو صاحب الرواية العظيمة «عناقيد الغضب» عن بشاعة الحياة في اميركا ، كان كاتبا تقدميا باهرا ، وهو نفسه الذي انهى حياته بسلسلة عن الحرب في فيتنام يمجد فيها السيطرة الاميركية ويدعو بلاده للبقاء . ومات شتاينبك قبل ان ترى عيناه رحيل القوات الاميركية ، ولا رأى فيتنام وهي تستعيد أنفاسها وتوحد الشمال مع الجنوب .

هكذا ، وقف التاريخ ضد كاتب ظل بصيرا بالمستقبل طول العمر ... الى اللحظة الاخيرة التي تخلى فيها عن بصيرته ففقد التاريخ والمستقبل معاً .

وشتاينبك ليس أكثر من مثل بارز على بداية كاتب مناضل ونهاية رجعي ضد الشعوب ، فالامثلة كثيرة في كل زمان ومكان على هذه « المأساة ــ المهزلة » .

لكني شخصيا اعتقد ان هذا المثل يظلم شتاينبك ويبرىء لويس عوض وعبدالوهاب وسائر افراد القائمة السوداء في تاريخ الثقافة المصرية ، لان شتاينبك وفاست وجيد ورايت «بدأوا» حياتهم و «استمروا» مناضلين و «تعبوا» أو «استسلموا» أو «شاخوا» في النهاية .

اما لويس عوض وعبدالوهاب وتوفيق الحكيم وحسين فوزي وغيرهم، فقد «بدأوا» حياتهم ضد العروبة والثورة والاشتراكية . وقد « هادنوا » ١٨ عاما ، او انحنوا للعاصفة حتى تمر . وحين مرت عادوا الى اصولهم ، الى حقيقتهم... فهم لم يخونوا ماضيهم قط، بل هم أفصحوا فقط عن جوهرهم، وهم انهم مخلصون تماما لهذا الماضي حين واتتهم الفرصة اخيرا .

لذلك ، ليس لنا ان ندينهم ، بقدر ما علينا ان ندين العشرين عاما التي أتاحت لهم جميعا ، ان يتبوأوا اعلى مراكز السلطة الثقافية والتوجيه الفكري في مصر حينذاك ... على الرغم من انهم كانوا يضمرون هذا « الماضي » ويسترونه بشتى ألوان الماكياج .

وهكذا ، اتيح لهم التربع على عرش الفكر المصري في ثلاثة عهود :

العهد الملكي والعهد الناصري والعهد الحالي او الاخير الذي لا يجدون انفسهم متناقضين معه ، وان لم يثق العهد نفسه فيهم بدرجة كافية ، فيمنع أحدهم من الكتابة ويخفض الآخر الى رتبة عقيد .

هؤلاء ليسوا «مأساة» كشتاينبك ، فهم أعمدة السقوط من قبل ان يتم . لكن المأساة الحقيقية هي من نصيب الجيل الذي عاش في ظلهم يكتوي بنارهم في صمت الانبياء . الجيل الذي كلفته الاقدار بدفع الثمن نيابة عن الجميع ، لا بالاصالة عن نفسه فقط . الجيل الذي آمن ، وكأن الكفرة هم كهنة المعبد ، لانه لم يؤمن بالسلطة والسلطان ، بل بمصر العربية .

... ويا اخي جاوز الظالمون المدى .

سلطة المثقفين

مهما ازدادت حدة الخلاف في فرنسا حول الكتاب الاخير لريجيس دوبريه « سلطة المثقفين » ، فان المفارقة تظل قائمة ، وتبقى لها دلالتها ... لسنا . فالكتاب يبدو كما لو كان على يسار السلطة «غير المثقفة» في بلده حسب رأيه ، وهو يوزع الاتهامات على المثقفين يمينا ويسارا ووسطا ، وعلى السياسيين المحترفين أيضا .

كل ذلك ، وأنت كعربي ، لا تعرف هل تضحك ساخرا حتى الموت ، أم تتوجع حزينا حتى الموت كذلك ... فنادرا ، نادرا ما تجد مثقفا فرنسيا من أي اتجاه كان ليس في السلطة ، أيا كانت السلطة : الدولة أو الحزب أو المؤسسة أو الجامعة أو الصحيفة أو دار النشر ، هكذا في حلقات تتكامل مع بعضها البعض وتؤدي بنا فيخاتمة المطاف الىالقول ان المثقفين الفرنسيين قد استولوا على السلطة كل السلطة . نادرا ما تسمع عن العمال والفلاحين وأمثالهم الا في البيانات والمنشورات والمطبوعات التي يكتبها المثقفون أنفسهم . حتى كبار رجال المال والاقتصاد والصناعة ، آثروا الاكتفاء « بالنعمة » ومنح سلطتهم في اتخاذ القرار لاستاذ جامعي عريق هو ريمون بار رئيس الوزراء . بقيــة الوزراء ومسلسل الحكومــة البيروقراطي لا يبتعدون عن السلم الجامعي ، أي عن المثقفين .

أيا كان اتجاهك السياسي ، فأنت لك «مكان» دائما في السلطة ، حتى لو كنت في المعارضة ، بل وجودك نفسه في المعارضة توزيع جيد لموسيقى

الادوار المحسوبة دائما ... لمصلحة الديموقراطية .

على الرغم من ذلك كله ، فريجيس دوبريه يعني سلطة المثقفين في فرنسا .

فماذا لو قام الكاتب الفرنسي بزيارة الاقطار العربية والتعرف على مثقفيها واحدا واحدا ، ليدرك ان عنوان كتابه « سلطة المثقفين » لن يكون مفهوما ، ولن يكون قابلا للترجمة ، وكأن العبارة تنتمي الى احدى لغات الكواكب الاخرى كالمريخ أو الزهرة ؟

ذلك ان السلطة في بعض اقطارنا شيء لا علاقة له بالثقافة أو المثقفين، بل لعلها علاقة تضاد ، فهل يمكن الجمع بين الماء والنار ؟ السلطة أيضا لا علاقة لها بالعمال والفلاحين وامثالهم ، لكنها تضيف المثقفين الى هؤلاء « الامثال » . انها تغري بعضهم وترهب بعضهم الآخر . لكنها في جميع الاحوال تخاصم وتصطلح على أساس ان هؤلاء « القوم » حلي تزين العنق. ولا شيء « آخر » .

فالسلطة في بعض البلدان لا تميز بين المثقف المسجون والمثقف الذي تمنحه البيت والسيارة ورصيد البنك والمكتب الانيق . كلاهما « محتقر » بالطريقة التي تناسبه . وهو في الحقيقة احتقار للعقل ... أيا كانت هوية هذا العقل الايديولوجية . لذلك ، كان المسجونون والمحظوظون دائما من المثقفين ، من مختلف الاتجاهات والعقائد .

والعقل قد تكون له علاقة بالطبقة أو الوطن أو الامة أو بها جميعا . لكن الغريزة لا علاقة لها الا بالعائلة والعشيرة والقبيلة والطائفة . والغريزة هي الاقوى ، أما العقل فلا حول له ولا قوة . لذلك ، لا يلتقيان الا لقاء السحق والانسحاق ، سواء سمي هذا السحق سجنا أو منفى أو جوعا أو منصب المدير العام ورئيس مجلس الادارة ووكيل الوزارة او الوزارة ذاتها. فلا علاقة للمثقف العربي بسلطة اتخاذ القرار في حالات متعددة ، حتى لو كان الموضوع ثقافيا بطبيعته . عليه ان يكون «ترسا» في آلة التنفيذ أو لا

يكون على الاطلاق .

- والمثقفون العرب هم أكبر الحالمين التعساء ، فهم يأكلون بعضهم أكلا، على كرسي لا يتحرك الا بأسلاك الهاتف ، أو على حيز في صحيفة لا يكتب الا بحبر أجهزة الامن ، أو على تذكرة طائرة الى مؤتمر ينهي أعماله ببرقية شكر الى مسؤول. يأكلون بعضهم أكلا، ولا «غنيمة» أمامهم سوى السراب. يأكلون بعضهم أكلا ليتسلى بهم الآخرون كما كان الاباطرة يتلذذون بمشاهدة الصراع بين الاسود والبشر في ملاعب الموت .

ليتقاتل بعض المثقفين العرب في أغلب الاحيان على سلطة وهمية ، فسلطة الغريزة العربية لا تسمح للعقل اصلا بالاقتراب ... الا من فتات الموائد ، سواء كانت لقمة جافة تلقى للسجين من ثقب الزنزانة ، أو قطعة كاتوه ملقاة في مزبلة خارج «القصر» .

وزميلنا الفرنسي ريجيس دوبريه حين ينعي سلطة المثقفين في بلاده ، لا يفعل أكثر من العودة الى أبهاء القصر ، بعد سنوات خمس في زنزانة أميركا اللاتينية .

بين اسقاط خالد محي‌الدين وانتحار أول سائح مصري في «اسرائيل» خيط رفيع من الاحداث الصغيرة والدلالات الكبيرة .

ماذا كان يستطيع خالد محي‌الدين أو غيره من المعارضين في اطار «الشرعية» ان يفعل في برلمان «المرحلة الاسرائيلية» من تاريخ مصر ؟

الجواب ، هو انتحار المواطن جابر رفاعي في زنزانة اسرائيلية بعد دخوله «البلاد» بطريقة «غير شرعية» ، وبعد أن تأكد من ان الشـرطة الصهيونية ستعيده الى مصر .

والخبر يلفه غموض نجاح وسقوط خالد محي‌الدين ، ولكن «نهاية» المواطن جابر رفاعي أكثر اثارة ، رغم انها الجواب الرمزي ـــ الدموي ، على كل الاسئلة .

الرمز يقول ان «الشرعية» التي أسقطت خالد محي‌الدين ، هي نفسها التي ذبحت مواطن مجهول يدعى جابر رفاعي ، لا يعرفه أحد ، ولكنه سيدخل التاريخ من أوسع الابواب . مواطن مصري من العريش تسلل خفية الى «اسرائيل» دون تأشيرة دخول . قبضوا عليه . حققوا معه . قال انه كان يظن ان توقيع المعـاهدة يعني الغـاء تأشيرات الدخول . سجنوه تمهيدا لتسليمه الى السلطات المصرية في اليوم التالي . ولكنهم حين فتحوا الزنزانة في الصباح ، وجدوه شنق نفسه بكوفيته الصحراوية .

كان المواطن جابر رفاعي قد اخبرهم في التحقيق انه جاء « سائحا »

والسائح يعود الى وطنه بعد أيام أو أسابيع ، فلماذا شنق نفسه حين علم بأنهم سيعيدونه الى الوطن ؟

السؤال هو ذاته الجواب على كل الاسئلة التي طرحها البعض من زمان ومن جديد .

قالوا ان « السلام » يعني حل المشكلة الوطنية ، وبالتالي يزدهر «الصراع الطبقي» ولا تعود للنظام حجة «اقتصاد الحرب» ، فاما ان يلبي احتياجات المواطنين ، واما ان يذهب . لقد كانت الحروب حجة النظام القديم في « تأميم الصراع الطبقي » . وقد زالت هذه الحجة الآن ، وسوف يحتدم هذا الصراع وتتغير الاوضاع ... فانتحر المواطن جابر رفاعي .

وقالوا ان « السلام » يعني حل المشكلة الديموقراطية ، فقد انتهى العهد الذي كان لا يرتفع فيه صوت فوق صوت المعركة . كما كانت الاحزمة تشد البطون بحجة المعركة ، كانت السياط تكمم الافواه للسبب نفسه . والآن ، بعد ان أصبحت «المعركة» من الذكريات ، وبعد ان انتهت «آخر الحروب» ، فالديموقراطية سوف تفتح أبوابها كما لم تفتحها من قبل .

... وانتحر المواطن جابر رفاعي .

انتحر أول سائح مصري الى « اسرائيل » ليستكمل بدمه اسقاط خالد محيالدين وكمال الدين حسين ومحمود القاضي والشيخ عاشور وأبو العز الحريري وكمال أحمد . انتحر في زنزانة «اسرائيلية» ليستكمل بدمه معنى سجن أحمد طه ونبيل زكي وليلى الجبالي وأحمد مجاهد وحمدي مرسي وعنان نديم عشية الانتخابات «الديموقراطية» .

* * *

سوف تهتم صحف العالم واذاعاته بنجاح وسقوط خالد محيالدين ، أكثر من اهتمامها بانتحار المواطن جابر رفاعي ، ولكن التاريخ والجغرافيا سيقولان شيئا آخر .

سيقولان ان «السياحة الديموقراطية» داخل الشرعية في مصر

ممنوعة ، كما ان السياحة غير الشرعية الى «اسرائيل» ممنوعة .. لان الطريق القصير الى «القدس المحتلة» ببساطة كاملة ، هو طريق اللاشرعية .

ـ الطريق الذي بدأ ليلة ١٤ مايو (ايار) ١٩٧١ خطوة خطوة الى معاهدة ٢٦ آذار (مارس) ١٩٧٩ لا عنوان له سوى اللاشرعية .

واللاشرعية لا ترجمة لهـا في معـاجم التاريخ والجغرافيا سوى اللاديموقراطية واللاتنمية واللاثقافة واللاهوية .

واللاشرعية لا تحتاج الى نجاح خالد محي الدين أو سقوطه ، وهي نفسها لا تحتاج الى تأشيرة دخول جابر رفاعي أو خروجه ... لان اللاشرعية المصرية تستكمل اللاشرعية الصهيونية في زنزانة واحدة ، خرج منها جابر رفاعي ، كخالد محي الدين ، مذبوحا .. تتساقط منهما الدماء لتكتب أخطر رسالة رمزية بشيفرة سرية لن تفك طلاسمها سوى الاجيال المقبلة .

ـ كل ما نستطيع ان ندركه نحن أبناء جيل المأساة ، ان مصر في المرحلة الاسرائيلية الراهنة من تاريخها ، لا تختلف «شرعيتها» عن شرعية الزنزانة الصهيونية ، بل تتكامل معها .

فهل نذرف الدموع على سقوط خالد محي الدين ، أم نلتقط دمـاء جابر رفاعي لنضع النقاط الحاضرة على الحروف الغائبة ؟

« يقولون عن مصر »

قرار اتحاد الجامعات العربية الذي عقد مؤخرا في بغداد ، قدوة تحتذى في العلاقات العربية الجديدة مع مصر ، سواء كانت النظام أو الحضارة .

قرر الاتحاد المذكور تجميد عضوية الجامعات المصرية باستثناء جامعتي عين شمس والاسكندرية . وقد خص الجامعتين بتحية خاصة لمعارضتهما ، أساتذة وطلابا ، معاهدة الصلح المنفرد .

مغزى القرار أكبر من القرار نفسه ، فهو يجسد المعنى الحقيقي لمقررات بغداد ، ولمختلف الوثائق العربية الرئيسية التي فرقت بحسم بين مصر والنظام ، وبين الشعب والرئيس ... بل ودعت صراحة الى دعم الشعب العربي في مصر ، لاسقاط المعاهدة والنظام الذي يمثلها .

قرار اتحاد الجامعات العربية ، اذن ، هو الاول من نوعه أو هو الخطوة الاولى في طريق طوله أكثر من ألف ميل .

ذلك ان مصر ، على الرغم من أنف المعاهدة ، ليست هي «اسرائيل» ولن تكون ... فشعبها عربي سواء شاء البعض أو أبى ، ولن تغير جلد مصر ودمها وعظامها وترابها ألوف المعاهدات . ولكن هذا لا ينفي أننا أمام مشكلة حقيقية ، ومعادلة غاية في الصعوبة . ذلك ، ان مقاطعة «اسرائيل» عمل سهل ، لانها شعبا ونظاما تكوين صهيوني متكامل يحتاج للاقتلاع لا الى الاسترداد .

بينما الهدف من مقاطعة النظام المصري هو استرداد مصر ذاتها من النظام و «اسرائيل» معا . لذلك ، كانت المهمة صعبة ، لكنها ستظل مهمة المهام أمام العرب والمصريين من بينهم ... حتى لو قطعنا أشواطا في التحرر والاستقلال (وهو فرض نظري) فاننا جميعا نظل مأسورين طالما ظلت مصر في الأسر . ان حربنا من أجل تحرير فلسطين لا تنفي حربنا الاخرى من اجل تحرير مصر .

لذلك ، يأتي قرار اتحاد الجامعات العربية في الوقت المناسب تماما ، وكأنه يرد في خط مستقيم على بعض الانحرافات الاقليمية المشينة التي تتخذ من مقاطعة النظام المصري «مناسبة» للدس بين الشعب العربي في مصر وسائر العرب . وهي الانحرافات التي تتكامل مباشرة مع النعرات العنصرية المشينة لبعض كبار الكتاب المصريين داخل مصر .

وكما ان الكاتب «المصري» الذي يهاجم العرب ، ليس عدوا للعروبة فقط ، بل هو عدو لمصر أيضا ، كذلك الكاتب «العربي» الذي يهاجم المصريين شعبا وتاريخا وحضارة ، هو عدو للعرب في الوقت نفسه .

لذلك ، فهما يكملان بعضهما بعضا ، وكأنهما على اتفاق مكتوب أو غير مكتوب ... حتى أن أحـدث برامج الاذاعـة المصرية برنامج عنوانه «يقولون عن مصر» يذيع كل كلمة «عربية» تقال ضد شعب مصر ، وبلا تعليق . وفي المقابل ، يقرأ هذا الشعب ويسمع كلمات «الرئيس الاسرائيلي» نافون يقول ان مصر هي مهد الحضارة على مر العصور .

هذه هي الخطة الخبيثة التي يتعرض لها في ما يشبه المؤامرة العرب المصريون من الداخل والخارج ... لصرف الأنظار عن جريمة الجرائم والالتفات نحو أصغر الصغائر ، فالهرم الاكبر الذي لم يهتز لمدافع نابليون لا يهتز بسباب أي ناقص . ناقص علم وأخلاق وعروبة . وكارثة الكوارث ان يستدرج الانفعال بعضنا فنتبادل القذائف العنصرية ، فنحقق بوعي أو من دون وعي ما تريده اسرائيل والسادات وأميركا . أي كأننا نوقع عـلى

المعاهدة ، بطريقة أخرى .

لذلك ، يأتي قرار اتحاد الجامعات العربية باستثناء جامعتي عين شمس والاسكندرية من المقاطعة ، وكأنه يضع الامور في نصابها ، وكأنه يرد بشكل غير مباشر على الخطة المشبوهة والتي تستهدف لا استرداد مصر بل «اقتلاعها» كانها «اسرائيل» ... وهي لن تكون شاء البعض أو أبى .

أنطوان غطاس كرم

لم أره في حياتي مرة واحدة .

لكنه أحد القليلين الذين رأيتهم وأراهم ، أكثر من بعض الذين يصدمون عينيّ كل يوم ...

وعلى الرغم من انني أمضيت أكثر من ثلاث سنوات في بيروت، فانني لم اسع الى لقائه ، ولم يتصادف قط أنني لقيته .

لكنني ظللت دوما أعده أحد أصدقائي النادرين .

— منذ أكثر من عشرين عاما تعرفت عليه في كتابه الرائع «الرمزية والادب العربي الحديث» فلم أجده ناقدا ذواقة أو باحثا أكاديميا بقدر ما وجدته شاعرا ضل طريقه الى النقد والبحث العلمي ... أو أنه الناقد المثالي الذي لا يرى النقد هامشا على كتابات الآخرين ، بل عملا ابداعيا خالصا .

وانطوان غطاس كرم له طلاب كثيرون ، غير أنه قد لا يدري أن أهم طلابه هم أولئك النقاد العرب المحدثون الذين تبقى في ما وراء ذاكرتهم تلك الرؤى الخصبة للادب والفن . ربما لا يذكرونه ولا يتذكرونه . ولا اعتقد أنه كان مهتما بأن يذكره أو يتذكره أحد .

غير أن أحدا في لحظة صفاء حقيقية مع النفس ، لن يجرؤ على نسيان هذه العاصفة من الابداع المكثف في «الرمزية والادب العربي الحديث»... ففي غمرة الابتذال لدور النقد ، سواء كان واقعيا ميكانيكيا أو رومانسيا تأثريا ، كان انطوان غطاس كرم يقدم في صمت نموذجا رفيعا لاصالة

الابداع في النقد العربي .

يختار النص المنقود بحواسه وروحه وأدق خلجات مشاعره . يتقمص المبدع الاصلي حتى يستكنه أغواره ودم حشاياه . يتناسخ مع التجربة الابداعية ، لا كأنها تجربته الشخصية ، بل كجزء أصيل من تجربته فعلا مع الحيــاة .

لم يكن قاضيا على الادب والادباء ، ولا معلقا على ما يرضيه وما لا يرضيه ، بل هو مصباح منير يكشف ويكاشف الآخرين في رحلة لا متناهية من الجدل الصامت مع الذات والعالم .

لم يكن صيادا يبحث عن اللآلىء ، بل كان أحد الصناع النادرين لاثمن اللآلىء ... معاناة الخلق في وجدانه تنعكس في اختيــار اللفظ وتركيب الجملة وبيان الفكرة ، بحيث لن تفرق بين الشاعر الذي كان والشاعر الذي يكون .

ولانه كذلك ، أبدع «كتاب عبدالله» سيرة روحية آسرة ، انفلت بكتابتها من مأزق المفاهيم غير الخلاقة للنقد ، وساح في عيوننا راهبا للفكر وعاشقا للحياة .

فاذا كان «الموت» قد اعترض الذات التي غابت ، فان ابداعها يستمر فينا على نحو من الانحاء .

ولم يكن الموت لغزا أو عبثا في حياة انطوان غطاس كرم . كان «سرا» مقدسا ، وبممارسته فعل الموت ، فقد اكتشف السر وارتحل من جديد في مغامرة جديدة . وتبقى روحه فينا وفي القادمين من بعدنا ، وكأنه انتصر ، أخيرا ، على الموت و « قام » في اليوم الثالث .

انني أكاد أتحسس أنفاسه وهي تحترق في مكابدة الحياة ، وهي تنتشي في جحيم الحرف ، وأكاد أوقن أن ملحمة عناقه الابدي للخلق والموت ، هي «السيمفونية» الباقية من بعده ... فلا شك أن حياته كانت كأدبه ، صراعا مع الزمن يتجاوز جدران المستحيل .

عرفه البعض حين مات . لكنهم سيعرفونه أكثر حين يحيا فيهم على نحو لا يخطر لهم ببال . حين يبعث فيهم النقاء الصوفي والمشاعر البللورية والالتحام لحد الموت بسر أسرار الوجود .

... وكلها كامنة في حروفه المنحوتة من اللحم والدم والصمت . وكلها مرايا لصوت صارخ في البرية ، تنعرج أصداؤه بين نبضات القلب الملتهب بقطرة دم تذهب ، وأخرى تجيء ... الى ما لا نهاية .

١٩٧٩/٧/٦

استقالة صحيحة
وأخرى مرفوضة

من المفارقات المحزنة لحد الموت ، ان مركز الدراسات الاستراتيجية في «الاهرام» كان النموذج الرائد الذي بناه محمد حسنين هيكل طوال ستة عشر عاما لمهمتين لا ثالث لهما : دراسة تاريخ مصر ودراسة الصهيونية.

وقد اختار للمهمتين مجموعة من ألمع الباحثين المصريين يتفرغون للعمل العلمي البحت ، باشراف حسن باشا يوسف رئيس الديوان الملكي السابق، كوثيقة بشرية تحتفظ بالعديد من الوثائق ، والدكتور محمد انيس عميد المؤرخين المصريين .

وكان هذا المركز، بعد مركز الابحاث الفلسطينية ومؤسسة الدراسات الفلسطينية ، أحد أبرز معالم الثقافة العربية الصامتة ... بلا ضجيج دعائي راح الشباب يدرسون تاريخ بلادهم ومجتمعات عدوهم ، فانتجوا خلال سنوات قليلة ما يعد فخرا حقيقيا على الصعيد القومي .

منذ عشر سنوات عقد المركز ندوة مع الرئيس الليبي معمر القذافي حضرها بعض كتاب «الاهرام» والشاعر محمود درويش ، حول موضوعين «الاسلام في العصر الحديث» و «الصراع العربي الاسرائيلي» . وللتاريخ، فقد كان رأي توفيق الحكيم وحسين فوزي ونجيب محفوظ هو « الصلح مع اسرائيل» . وحدث ان نشر «الاهرام» القسم الاول من الندوة ، واعتذر عن عدم نشر القسم الثاني . وكان السبب واضحا ، وهو ان آراء بعض كبار كتاب «الاهرام» تتناقض كليا مع آراء الباحثين الشباب في

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، بالاضافة الى الموقف المعروف للرئيس الليبي الذي كان قد انجز ثورته منذ عدة شهور فقط حينذاك .

- منذ اسبوعين كان هذا المركز يقلب موائده وأوراقه رأسا على عقب ، كان يشهد منظرا كابوسيا لا يخطر ببال الجحيم ... فقد كانت الطاولة المستديرة يتحلق من حولها وفد من الباحثين الصهاينة واساتذة الجامعات الاسرائيلية في مواجهة وفد من الباحثين المصريين بهدف اجراء حوار عن «الاسس الحضارية المشتركة» بين مصر و «اسرائيل» .

وهكذا ، بعد عشر سنوات تغيرت الدنيا ، ولم يعد الحكيم ومحفوظ وفوزي وحدهم ، بل انضم اليهم خصوم الامس من الجيل المعارض للصلح. ولم يعد المركز نفسه لدراسة «العدو» بل لمحاورة «الاصدقاء» . وبعدما كان المركز مؤسسة مصرية عربية خالصة ، أصبح مؤسسة اميركية التمويل، صهيونية العلاقات .

- وكانت علامة «التغير» الجذري الوحيدة هي استقالة المفكر المصري المعروف أبو سيف يوسف الذي صدّقت عينيه ، وان لم يصدّق الزمن .

سبقت استقالة ابو سيف يوسف من المركز المصري شائعات قوية عن استقالته في معهد الانماء العربي في بيروت .واذا كانت استقالة المفكر المصري لا تعني توقف مركز « الاهرام » عن عمله الجديد المضـــاد لمصر والعرب والحضارة،فان أنباء استقالته من معهد الانماء العربي أفزعتنا لانها تستكمل ــ موضوعيا ــ المهمة الجديدة للمركز المصري ... فاغلاق معهد عربي قومي متحضر ، كمعهد الانماء العربي في بيروت يرادف فتح مركز مصري ، صهيوني اميركي .

ومع احترامي الكامل لمختلف مراكز الابحاث العربية في مختلف ارجاء وجامعات وأحزاب ومنظمات وهيئات الوطن العربي ، فان معهد الانماء وحده هو الذي حقق نموذجا أكيدا في ريادته للبحث العلمي العربي ، على الرغم من مختلف الصعاب والاهوال التي يعانيها منذ أربع سنوات عـلى

مولده . حقق للبحث العلمي العربي معناه الحقيقي وللباحث العربي هويته الحقيقية ، فأصدر من المطبوعات الموثقة والمحققة ما يعد اللبنة الاولى في بناء استراتيجية حضارية عربية جديدة . كما أصدر مجلة «الفكر العربي» هي الاولى من نوعها في رؤيتها البعيدة المدى وتخطيطها الاكاديمي الدقيق. تسعة اعداد منها صدرت تبرهن على هذا الحس الحضاري والعقل الاستراتيجي .

لذلك كله فزعنا ، ومعنا أي مثقف عربي منزه عن الهوى ، من شائعات اقفال معهد الانماء العربي في بيروت ، واليوم تطمئن قلوبنا حين تتبدد هذه الشائعات ... فاذا كان «مركز الاهرام» قد أصبح عنوانا للثورة الفكرية المضادة ، فاننا نحزن ، واحدنا على الاقل يستقيل . لكن طالما ان « معهد الانماء » باق ، فاننا نفرح ، لاننا جميعا نرفض استقالته .

١٩٧٩/٧/١٣

تحية إلى الرئيس

اطلاق الرئيس الجزائري الاول لدولة الثورة والاستقلال ، يستحق من كل عربي التحية .. لاحمد بن بيلا . فهذا الشاب الذي عاش سبع سنوات في سجون الاستعمار وأربعة عشر عاما في سجون الوطن المستقل ، يلخص في سيرة حياته ، مناضلا ورئيسا وسجينا ، قصة الثورة العربية في انتصارها وانكسارها .

أقول هذا الشاب ، لانني لا استطيع ، مهما بلغت بي القدرة على التخيل ، الا أن أتصور أحمد بن بيلا ذلك الشاب الطويل الخجول الصلب الذي كان يزرع شوارع القاهرة في الخمسينات ، بحثـا عن كتاب أو صديق أو وجوه الناس الطيبين .

وهو نفسه الشاب الذي وضع في مكان ما من القاهرة النواة الاولى للثورة التي انجزت للعرب للمرة الاولى في تاريخهم الحديث أول انتفاضة شعبية مسلحة ، شاملة وموحدة ومستمرة ، حتى النصر .

وهو نفسه الشاب الذي وضعته فرنسا في مكان ما من سجونها ، فلم ينقطع الشريان بين دمه وتراب الوطن ، حتى حصلت الجزائر على الاستقلال.

وبن بيلا ، تحول مع الزمن الى اسطورة حية بينما الرجل أبعد ما يكون عن الاساطير . انه ، مثلا ، لم يكن يحتاج الى «انقلاب» ليخلي مكانه في الفيللا الصغيرة التي كان يسكنها بلا حرس تقريبا . كان يكفي ما حـدث بالفعل ، وهو ان يدخل عليه أحدهم ليأخذه الى السجن ، دون ادنى مقاومة .

ولكن الحقيقة ، هي ان أحمد بن بيلا قاوم حتى يوم اعلان حريته النسبية ، لم يقاوم العضل القادر على القبض عليه وايداعه زنزانة عسكرية . ولكنه قاوم العقل غير القادر على اقناعه بأنه مخطىء .

ثلاث سنوات فقط قضاها بن بيلا رئيسا ، حـاول اثناءها ان يضع الجزائر على بداية الطريق الصحيح . والمثير في الامر ، ان خلفاءه لم ينحرفوا عن هذا الطريق ، مهما اختلفت الاجتهادات وتنوعت التفاصيل والجزئيات.. لم يحدث في الجزائر بعد بن بيلا ، ما حدث لمصر بعد عبدالناصر . ولكن مشكلة المشكلات في بلاد الغرب ، وما يسمى بالعالم الثالث عشر ، كانت الحرية . ويبدو انه كان لا بد ، اسطوريا ، لرمز الثورة ، ان يكون في الوقت نفسه رمزا لمأساتها ، ان يدخل الاسر ، ليصبح عنوان المرحلة التالية كلها هو «الثورة في الاسر» .

لا لان الثورة يمكن ان تتجسد في رجل واحد ، بل لان هذا الرجل بالذات يرتفع الى مستوى الرمز التاريخي ، فهو الذي اختار لدولة الثورة هويتها بعد الاستقلال . وحين دخل الاسر كان ذلك تعديلا في بطاقة الهوية لثورة المليون شهيد ، تعديلا يقول باسم العرب وافريقيا وآسيا واميركا اللاتينية «ممنوع الحرية في ظل الحرية» . أو ممنوع الديمقراطية بعد ان رحل الغاصب الاجنبي ، أو ممنوع المشاركة الشعبية في صنع القرار مع التحول الاجتماعي الى الاشتراكية .

وكانت هذه الممنوعات هي عدد السنوات التي قضاها بن بيلا في سجنه . ولم تكن صدفة ان يكون يوم سجنه التاريخ الحقيقي لانكسارة الثورة في العالم الثالث عشر . بعده سقط نيكروما في غانا ، ثم اقبلت الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ ، وبعدها سقط سوكارنو .. وكرت المسبحة الى اليوم .

... فلم يكن امام ما يسمى بالعالم الثالث الحديث الاستقلال ، الا ان يختار بين الاستعمار الجديد الذي لا يرتدي البزة العسكرية ويستمر في

نهب الشعوب ، او التحول الاجتماعي نحو الاشتراكية . وكان اختيار التبعية اختيارا علنيا ومباشرا للدكتاتورية العسكرية . ولكن الاختيار الاشتراكي كان يستلزم يقينا استعادة الحريات الديمقراطية لمجموع الشعب. فالشعب الذي حرم من ممارسة حقه في الوجود طيلة عهود الاستعمار ، لم يعد في ظل الاستقلال صاحب الثروة الوطنية فقط ، بل صاحب «القرار» أيضـا .

كان هذا هو المفترض ، ولكنه لم يحدث ، بل استعادت الدبابات حرية القرار لنفسها دون الشعوب . فرأت في التاريخ العسكري ان المدافع وسيلة من الحديد والنار لغايات سياسية واقتصادية . قالت ما دام الهدف هو سعادة الشعب ، فلنستخدم الوسيلة التي «نراها» مناسبة .

والحقيقة هي ان دبابات العالم الثالث ومدافعه ، قد استكملت مهام الاستعمار الجديد الذي رفضته بأقوى الحناجر.. لان خصوصية «التخلف» ببساطة كانت تقتضي انجاز التحول الاجتماعي وتحرير الارض ، بأقصى درجات الديمقراطية .

ولان الذي حدث هو العكس تماما ، فقد خرج بن بيلا من سجنه بعد أربعة عشر عاما ليجد رقعة الارض المحتلة في بلاد العرب قد اتسعت ، وان وادي النيل ضاق بأهله وازدحم بأعدائه ، وان الموت اكتسب هوية عربية، وان العداء للديمقراطية نافس العداء للصهيونية ، وان ... ولكننا هنا لا نحكي ، بل نؤدي التحية للرئيس .

١٩٧٩/٧/٢٠

ثقافتنا بين نعم ولا

كان السؤال المصري في الاربعينــات ، هو ضرورة التغيــير . كان السؤال عن الهدف . في العشرين عاما التالية كان الجواب سؤالا جديدا ، هو اسلوب التغيير . كان السؤال عن الوسيلة . وبين السؤال والجواب مساحة من الزمن العربي في مصر ، عنوانها ٢٣ يوليو .

والعنوان لدى البعض هو عشرات السجون والمعتقلات . وهو لدى البعض الآخر مئات المسرحيات والقصائد والقصص ومؤسسات النشــر والموسيقى . أي ان ٢٣ يوليو كانت في طريق المرور ضوءا أخضر عند فريق ، وضوءا أحمر عند آخر .

لكن أصحاب العنوان الاول حين وصل بهم القطار الى محطة الصلح المنفرد بعد عشر سنوات من غياب ناصر ، اكتشفوا ان العنوان لم يكن صحيحا . كذلك ، أصحاب العنوان الثاني الذين كتبوا بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « وتحولت السجون الى حدائق » اكتشفوا ان الاشواك أكثر من الورود ، وبالتالي فالحدائق ليست هي الجنائن خصوصا اذا شيدت معلقة فوق جدران السجون .

والحقيقة هي انه بين المعتقل والسلطة وقف المثقف المصري في نقطة ما كانت السبب المباشر في اختيار السبعينات : بين المنفى والصمت والبوق.

ثورة يوليو ، على صعيد الثقافة ، هي ثورة المفارقات . فهي الثورة العربيــة الاولى التي قررت مجانيــة التعليم في شتى المراحل ، فدخلت

الجامعات مئات الالوف من أبناء العمال والفلاحين . وتلك هي ديمقراطية المعرفة. لكنهم داخل الجامعة كانوا يشربون الفكر المضاد لاي ثورة ويأكلون الجهل بكل قيمة ويلتهمون افرازات عقل الثورة المضادة ووجدانها .

وكانت ثورة يوليو هي الثورة العربية الاولى التي منحت الفنانين والكتّاب حق التفرغ ، وفتحت لهم ابواب النشر والمسرح والموسيقى والسينما. لكنها وضعت أغلب الوقت في قمة هذه المؤسسات أكثر الجلادين ضراوة ومعاداة للفكر والثقافة والفنون .

وكان من المثير المفاجيء لدى البعض ، ان جمعية المنتفعين بثورة يوليو هي التي قادت الحملة على الناصرية بعد وفاة قائدها . بينما اصبح المتضررون منها هم خط الدفاع الاول عنها .

أين الخطأ الذي تولدت عنه الخطايا في السنوات العشر الماضية ؟

أسهل الاجوبة الجاهزة هي اتهام «المثقفين» بالاستسلام للقهر في الزمنين كليهما ... فالذين لم يتحركوا عام ١٩٥٤ في مذبحة الجامعة حين أقيل ستين استاذا مرة واحدة بقرار من فوق ، ولم يتحركوا عام ١٩٥٥ حين ألغيت نقابة الصحفيين بقرار مماثل طرد بموجبه العشرات وفتح الباب من جديد (باشراف الذين ضمت اسماءهم قائمة المصاريف السرية المشهورة بعد رحيل الملك) ، ولم يتحركوا ضد تحويل زملائهم عام ١٩٦٥ من الصحف الى شركات الاحذية ومؤسسات اللحوم وورشات الخشب ، هم السبب في ان شيئا ما لم يحدث عندما فصل ١٢٠ صحفيا وكاتبا عام ١٩٧٣ وعندما بدأت الهجرة الجماعية حتى يومنا والتي بلغ عدد افرادها خمسماية صحفي غير أساتذة الجامعات والفنانين .

لكن اتهام «المثقفين» في رأيي هو أسهل الاجوبة ، لانهم في النهاية الجانب الاضعف او «الحائط المائل» كما نقول في الامثال . فالحقيقة ، هي ان غياب الديمقراطية عن جوهر السلطة في مختلف المجالات المادية ، قد انعكس على علاقة المثقف بالمجتمع والدولة والثقافة ذاتها . انعكس ذلك

بغياب المشاركة في صنع القرار الثقافي ، سواء من جانب الجمهور المتلقي أو من جانب المنتجين أنفسهم . كان القرار الثقافي السياسي علويا ، فخضع للارتجال والمزاج والصفقات .

ليس معنى ذلك انه في ظل ثورة يوليو اعطى نجيب محفوظ ويوسف ادريس وصلاح عبدالصبور وأحمد حجازي ونعمان عاشور وسعد وهبه ومئات غيرهم اعظم اعمالهم الباقية ... ان تبقى منها شيء . وليس معنى ذلك ان الملايين من شعب مصر اتيح لهم تذوق المحرمات من الاعمال الفنية التي كانت مقصورة على ابناء الباشوات .

لكن ذلك لا يمنع في الوقت نفسه انه كان من الممكن لثقافتنا بين نعم و لا أي في ظل الديمقراطية ، ان تعطي ما هو أعظم وأبقى كما وكيفا .

والاهم ، والاخطر ، انه في ظل الديمقراطية ما كان من الممكن ان تصل الثقافة المصرية ــ بعد عشر سنوات فقط ــ على أعتاب الخيار الصعب بين المنفى والصمت والجنون .

ذلك ان ثورة يوليو لم تكن «الثورة» بل الثورة المضادة معـا ... وبغياب الحرية وثقافتها ذهبت الثورة ، وبقيت الثورة المضادة .

١٩٧٩/٧/٢٧

الموسيقى افيون الشعوب

— لست أشك لحظة واحدة في ان آية الله الخميني من عشاق الموسيقى، على الرغم من «أمره» الاخير بتحريمها حتى لا تفسد الشباب . فلا بد ان الامام الايراني يستمع الى صوت العصافير وهدير البحر وصوت المؤذن وصفير الريح وهسهسات الشجر وثغاء الاطفال وزغاريد النساء ، وهذه كلها وملايين الايقاعات في الكون هي موسيقى الوجود .

ولا يفعل الملحن أكثر مما يفعله الروائي أو الشاعر ، حين يؤالف بين أصوات الطبيعة وأصوات البشر ، فيعيد صياغتها على نحو جديد ، ندعوه الموسيقى ... فلا فرق بين صوت الناي وتنهدات الحزن البشري ، ولا بين العود او الطبلة او الكمان او الغيتار او الاورغ وتمتمات الغابة وغمغمات الصحراء ووسوسات الفضاء ، الا ان الموهبة او الفطرة الانسانية قادرة على ابداع هذا المعادل الصوتي لمختلف المشاعر والانفعالات والاحاسيس، ابداعا يحاكي ويستوحي ويستلهم «الحياة» ذاتها .

ولا شك ان الامام الخميني من عشاق الحياة ، ومن الذين يقدسون خليقة الله وعطاياه ومواهبه ... فكيف يمكن ان يحرّم الموسيقى ويتهمها بافساد الشباب ؟

— لا بد ان في الامر لبسا ، كهذا الذي حدث في ثورة ماو الثقافية ، حين قامت القيادة الصينية بتحريم شكسبير وبتهوفن والرقص الاوبرالي . ومن المثير حقا أن يتم ذلك في الصين باسم الماركسية ، وان تمنع الموسيقى

في ايران باسم الاسلام .

وطبعا ، لا علاقة لهذا المنع أو ذاك التحريم ، بالماركسية ولا بالاسلام.

وربما كانت الدولة اليهودية وحدها هي التي حرّمت شكسبير (مسرحية تاجر البندقية بالذات) ودوستويفسكي بتهمة عدائها للسامية . وربما كانت الكنيسة وحدها في العصور الوسطى هي التي أقامت محاكم التفتيش ونشرت قوائم التحريم .

غير ان هذا لا يمنع انه الى جانب الكيان الصهيوني ومسيحية القرون الوسطى ، عرف التاريخ الحديث في أميركا ظاهرة المكارثية ، وفي روسيا الظاهرة الستالينية . ولا زلت أذكر الى الآن فيلم «٤٥١ فهرنهيت» أي درجة الحرارة التي تحترق عندهـا الكتب . والفيلم الاميركي يصور المرحلـة المكارثية تصويرا مبتكرا ، فالدولة «العصرية» أشاعت التكنولوجيا كالماء والهواء ، فأصبح التلفزيون والكمبيوتر هما كل شيء في حياة الانسان . بينما أصبح الكتاب من الممنوعات التي يعاقب عليها القانون . وقد تحول رجال الاطفاء الى أجهزة أمن ، فهم مكلفون بحرق أية مكتبة في أي بيت . وأصبح كل مواطن مكلفا بالتبليغ عن أي مواطن آخر «يقرأ» والا أصبح مشاركا في الجريمة .

ومن المشاهد التي لا تنسى في الفيلم سيدة عجوز آثرت ان تحترق مع مكتبتها. ومن المشاهد الاخرى، ان اطفائيا لم يكن صديقا للكتب والمكتبات في أي وقت فاذا الفضول يستدرجه لقراءة أحد الكتب المكلف بحرقها ، واذا به يتحول الى « قارىء » بعد ان كان اطفائيا ، واذا بأقرب الناس اليه ــ زوجته ــ تكتشف سره وتبلغ عنه . لكن أعظم المشاهد على الاطلاق ، كانت الجزيرة المهجورة التي يهرب اليها الناس ليحفظوا الكتب عن ظهر قلب قبل احتراقها ، ويتوارثون الكتب في الذاكرة جيلا بعد جيل ، ويتسمى كل منهم باسم الرواية او الكتاب أو المؤلف .

وكان آخر مشهد لرجل عجوز على فراش الموت ، وكان اسمه «الحرب

والسلام لتولستوي ــ الجزء الثاني» . وكان الى جانبه صبي صغير يحفظ الصفحة الاخيرة من ذاكرة الشيخ الذي يحتضر ، الى ان مات .

وعن العصر الستاليني كتب دودنتسيف رواية «ليس بالخبز وحده» وكتب اهرنبورغ «ذوبان الثلوج» وكتب يفتوشنكو في مذكراته يصف فتاة تناولت أحد دواوينه في مكتبه ثم اعادته وهي تقول : ليس هذا شعرنا ... انه شعر التعليمات .

على أي حال ، فثورة ماو الثقافية التي حطمت المسارح ودور الاوبرا والتماثيل واللوحات ومجلدات شكسبير واسطوانات بتهوفن ، انتهت بعد عشر سنوات فقط الى دولة الكوكاكولا والايس كريم ، ولم تمنع أكبر دولة رأسمالية في العالم من اختراق «سورها العظيم» ... فتحريم الفنون لا يمنع الشيطان من العبور ، بل على العكس يقيم له امتن الجسور .

ولقد اتهم اليونان الاقدمون سقراط ، والفلسفة كلها ، بافساد الشباب وحكموا عليه بالاعدام . ولكن سقراط يعيش الى يومنا ، ولا أحد يذكر اسم من ناوله السم .

لذلك ، لا أصدق ان آية الله الخميني قد حرّم الموسيقى ، لانه قرار مستحيل فلا أحد يمنع الوجود من التنفس .

١٩٧٩/٨/٣

عن مذكرات الشاذلي

قرأت وسمعت ورأيت الكثيرين يعترضون على «الذاتية» الواضحة في مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان القوات المسلحة المصرية في حرب أكتوبر ، والسفير المصري السابق في بريطانيا والبرتغال .

وبالرغم من أن المذكرات لم تكن قد نشرت كاملة بعد ، وهي الآن على وشك الانتهاء تمهيدا لاصدارها في كتاب ، الا أن الجدل من حولها لم يكف لحظة واحدة من قبل أن تظهر الحلقة الاولى على صفحات «الوطن العربي» .

ولا شك ان أكثر الاعتراض أتى من منابر منافسة ، أعتقد ان لها الحق .. ولكن ما العمل وأصول المهنة تقوم على المنافسة ؟ وان كان قد استرعى انتباهي ان أحد الزملاء في مجلة أخرى كتب ذات يوم معترضا على «الانا» في مذكرات الشاذلي ، ثم فوجئت به ذات يوم آخر يضع اسمه عنوانا لخواطر بقلمه .. وهي ذروة تضخم «الانا» .

على أية حال ، فلست أدافع هنا عن «الانا» في مذكرات الشاذلي ، لانها لا تحتاج الى دفاع .. وربما كان العكس عيبا في أدب المذكرات عموما، فتعبير «المذكرات» يعني ضمنا أن صاحبها سيتكلم عن الدنيا كلها من خلاله ، أي عبر ذاته ونفسه . ومن هنا الاهمية الخاصة والاستثنائية لاية مذكرات، فتأليف كتاب عن الحرب العالمية الثانية شيء، ومذكرات زوكوف وتشرشل وديغول وايزنهاور شيء آخر تماما . و «الانا» في مذكرات

الشاذلي تتواضع كثيرا أمام الانا السوفياتية والبريطانية والفرنسية والاميركية .

ان قيمة أية مذكرات سياسية أو عسكرية ، هي أن صاحبها «يعترف» بما رآه شخصيا وما شاهده ، وما مارسه ، ما خطط له وما نفذه ، وبالتالي يجيء تصويره — ولا أقول حكمه — للآخرين مهما ، لانه يكشف هوية الحرب لا أسرارها .

.. فالحرب ، أية حرب من النهاية هي قرار سياسي وعمل عسكري . أما الجانب العسكري فلا يعود سرا على العدو نفسه ، غداة الحرب المباشر، وأحيانا بعد بدايتها بساعات . وأية حرب في تاريخ العالم ليست قابلة للتكرار ، فالعلم العسكري يتقدم استراتيجيا وتكنولوجيا بحيث تصبح أحدث الحروب بعد شهور قليلة من «المواد التاريخية» القابلة للحفظ في المتاحف وللدراسة الاكاديمية في المعاهد .

من هذه الزاوية ، لم يكشف الفريق الشاذلي سرا عسكريا لا تعرفه «اسرائيل» والولايات المتحدة .هذا عن الماضي. أما في الحاضر حيث تقوم أميركا بما يسمى تسليح الجيش المصري ، وحيث يقوم وايزمان وكمال حسن علي وزيرا الدفاع في مصر و «اسرائيل» بالتنسيق الكامل بين القوات المسلحة في البلدين .. فلم يعد هناك أي مجال لحديث عن افشاء اسرار عسكرية قديمة .

وانما يبقى الجانب الاهم في مذكرات الشاذلي وهو «القرار السياسي» الذي كشف تفاصيله العسكرية وأوامره اليومية وحركته الدبلوماسية ، بحيث أزاح النقاب عن هوية الحرب . واذا بها «هوية مزدوجة» ، فهي حرب التحرير عند الشعب المصري وجيشه العظيم ، وهي حرب الصلح المنفرد مع العدو عند رب النظام وسادته الاجانب . فهي الحرب المسروقة من الشعب لمصلحة كامب ديفيد ، فكان لا بد من ان تمر من ثغرة الدفرسوار . وهي الحرب البديلة للحرب التي كان يجب ان تكون .. لا بالمعنى العسكري

المحض ، ولكن بالمعنى الاستراتيجي الشامل .

من هنا القيمة الاستثنائية الكبرى ، وطنيا وقوميا ، لشخص الفريق الشاذلي ومذكراته على السواء .. فهو القائد الاول في تاريخ الحروب العربية الاسرائيلية الذي يجرؤ على كشف كل الاقنعة عن الوجه الحقيقي لحرب كانت نقطة تحول حاسمة في تاريخ المنطقة كلها ، وعن أسرار يعرفها الجميع ما عدانا نحن أبناء الشعب البسطاء .

١٩٧٩/٨/١٠

ـ مسابقة « الأكثر زيفاً »

« لما كنتم سيادتكم واحدا من كتاب مصر بما ألفت من كتب ذاع صيتها ، ولما كان اتحاد الكتّاب يضم كل كاتب ألّف كتبا لها قيمتها ، فقد قرر الاتحاد أن يضمكم اليه عضوا به .

ولما كنت يا سيدي الرئيس قد أعدت كتابة التاريخ وعدلت موازين الفكر العالمي ، اجمع مجلس اتحاد الكتّاب أن يختار سيادتكم رئيسا فخريا لاتحادهم واثقين انك بقبولك تكرم الكتّاب الذين انتميت اليهم منذ صدر شبابك ، وتكرم التاريخ الذي صنعته في قمة نضجك » .

صاحب هذه الكلمات هو توفيق الحكيم .

والموجهة اليه الكلمات هو رئيس جمهورية مصر .

وقد كان من الممكن أن «تمر» هذه الكلمات دون تعليق ، لولا أنه خلال الاربع والعشرين الساعة التالية لهذا «الخطاب التاريخي» الذي ألقاه أحد ألمع كبار الادباء المصريين في جلسة استثنائية لاتحاد الكتاب في القاهرة، وقعت حادثتان تكملان «تاريخية الخطاب» بمغزى يستحق التسجيل .

ولن نتساءل في البداية ما اذا كان الرئيس السادات قدم طلب انتساب الى اتحاد الكتاب مرفقا بخمسة جنيهات رسم اشتراك حتى يقرر الاتحاد أو لا يقرر ضمه الى عضويته . فهذه شكليات اعتدنا عليها . لكننا سنوجه السؤال الى صاحب «أهل الكهف» عن مدى توفر الشرط الاساسي لقبول أي عضو جديد في أي اتحاد للكتّاب ، وهو ان يكون كاتبا ... فالحكيم

وغير الحكيم من جميع كتّاب مصر صغارهم قبل كبارهم يعلمون ان «الكاتب» محمد أنور السادات لم يكتب سطرا واحدا مما نشر موقعـا باسمه في أي يوم من الايام .

- كتابه الاول «قصة الثورة كاملة» كتبه الصحفي علي الدالي ، كتابه الثاني «يا ولدي هذا عمك جمال» كتبه الصحفي سامي داود ، وكتابـه الثالث «البحث عن الذات» كتبه الصحفي أنيس منصور . أما « قصصه القصيرة » في الخمسينات ، فقد كان يعطي أفكارها ليوسف ادريس الذي تطوع بصياغتها . واما «مقالاته» في الفترة نفسها فقد كان يتبادل كتابتها علي الدالي وزكريا الحجاوي .

توفيق الحكيم لا يستطيع ان ينكر معرفته بهذه الوقائع ، أولا لانه أستاذ في فن تمييز الاساليب ، وثانيا لانه لم يكن بعيدا في أي وقت عن كواليس الصحافة والكتابة المصرية .

وهو يعرف أكثر ان كاتبا لا غش فيه هو الدكتور محمد حسين هيكل صاحب «زينب» و «ثورة الادب» و «حياة محمد» و «هكذا خلقت» كان رئيسا لحزب الاحرار الدستوريين ورئيسا لتحرير جريدة «السياسة» . ومع ذلك لم يكن يوما عضوا لا في نقابة الصحفيين ولا في اتحاد الادباء . ويعرف أكثر وأكثر ان الاتحاد الراهـن الذي يزيف العضوية لرئيس الجمهورية تخلو قائمة المشتركين فيه من اسماء : أحمد بهاء الدين ، محمود أمين العالم ، أنور عبد الملك ، علي الراعي ، فؤاد زكريا ، محمد عودة ، محمد حسنين هيكل ... ولن استطرد لاكتب قائمة بمائة من أبرز الكتّاب المصريين خلال الربع القرن الاخير .

ولكن الزيف لا يتوقف عند حدود العضوية ، بل يصل لحد التبجح بأن «العضو الجديد» قد «عدل موازين الفكر العالمي» . ولو أن صـاحب هذا التعبير من نزلاء مستشفى الامراض العقلية لهان الامر ، ولو ان قائله فلاح صعيدي لا يفك الحرف لهان الامر أيضا . ولكن الحكيم الذي قرأ

الفكر العالمي فعلا من أرسطو الى ماركيوز ، هو الذي يقول هذا الكلام . ان الرئيس السادات الذي يعتبر القراءة «رجساً من الشيطان» هو الرجل الذي هاجم يوما «بريشت» باعتباره رئيس جمهورية المانيا الديموقراطية ، وهو الذي حرّم دراسة «اولبريخت» في المعاهد الفنية باعتباره «كاتبا مسرحيا» ... ولم يكن الخطأ لفظيا ، وانما الامر بكل بساطة هو ان ثقافة الرئيس المصري لم تتجاوز في الماضي مجلة «البعكوكة» وفي الحاضر «فوازير رمضان» .

لذلك ، كانت اضافة الرئيس الكاتب الى الفكر العالمي ، بعد أربع وعشرين ساعة من هذا الخطاب التاريخي لتوفيق الحكيم هي الغاء نقابة الصحفيين المصريين . فلان النقابة المناضلة لم تستطع اتخاذ اجراء بفصل الكتّاب المعارضين قرر الاستغناء عن النقابة كلها . واذا كانت المهمة الاولى في دستور اتحاد الكتّاب هي الدفاع عن الديموقراطية ، فقد مارس العضو الجديد ــ محمد أنور السادات ــ دفاعه عن الديموقراطية بأسلوب جديد لم يعرفه «الفكر العالمي» فعلا ... بل هو اضافة «خلاّقة» لم يعرفها جوبلز أيام هتلر ، ولا زدانوف ايام ستالين ، ولا مكارثي ايام ترومان . أما فرانكو وسالازار فلم يجرؤ أحدهما على الانتساب ، في الاقل ، الى اتحاد الكتّاب.

... أم أقول العكس أيضا ، وهو أن أحداً من الكتّاب في ظل النازية أو الستالينية أو الفاشية ، لم يجرؤ على «معارضة» الرئيس ذات يوم وقبول أرفع وسام من يديه الكريمتين في اليوم التالي .

هكذا «باعنا» توفيق الحكيم في لقاء «عودة الوعي» مع السادات عام ١٩٧٣ ، وهكذا قبض الثمن بعد ست سنوات «قلادة النيل» : بعد أربع وعشرين ساعة من تتويجه للسادات كاتبا مصريا ومفكرا عالميا .

١٩٧٩/٨/١٧

الاختيــار

لم أكن أملك عيني زرقاء اليمامة ولا كنت رادارا حين تركت القاهرة في بداية الشهر الخامس من العام ١٩٧٣ ولكن الامر كله كان تنفيذا لقرار قديم ..

وباختصار ، لم يكن القرار انعكاسا لغياب الحريات ، فلم تكن لديّ أوهام عن الديموقراطية في أية عاصمة أخرى . ولم يكن القرار انعكاسا لازمة اقتصادية ، فلعل البقاء في القاهرة والكتابة في صحف خارج مصر ، أكثر ربحا .

وانما كان القرار ببساطة أنه من حق الكاتب ، أي كاتب ، بعد مضي أكثر من ثلاثين عاما في وطنه الاصلي ، أن يحيا تجربة وجودية أكثر اتساعا وشمولا .. فالزيارات السنوية القصيرة واللاهثة لعواصم العالم ، لا تكفي لمعايشة تجربة حقيقية .

وفي العام ١٩٦٦ كنت على وشك ان احزم حقائبي حين عطلني زائر الفجر عدة شهور .. وقعت بعدها الهزيمة . واشتعلت مصر خمس سنوات متصلة ، بما جعل الامر مستحيلا ان يكون المرء بعيدا عن البركان .

ومع بداية العام ١٩٧٣ تكرمت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي ففصلتني مع أكثر من مائة كاتب وصحفي من عضوية التنظيم السياسي الوحيد ، وبالتالي من العمل ..

وشعرت أن القرار الذي ترددت في اتخاذه أو تعطل تنفيذه سنوات

عديدة ، قد اتخذ نيابة عني ، وانه قد آن الاوان .. للرحيل .

واخترت بيروت مكانا للاقامة ، رغم ان أصوات المدافع بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية في ذلك الوقت كانت تحذيرا بليغا . وبقيت في بيروت ثمانية وثلاثين شهرا ، عشت خلالها أروع تجارب عمري . انهـا « التجربة العربية » ان جاز التعبير ، فلم تعد الامور بالنسبة لي مجردات أو شعارات بل «حياة» عشتها بكل خلايا دمي ، وبخاصة في ظل الصواريخ والقذائف والقنص والقتل على الهوية .. فتجربة بيروت في السلم والحرب هي أثمن تجاربي على الاطلاق .

في هذا الوقت ، كان محمد حسنين هيكل اقيل من «الاهرام» وتوقفت مجلة «الكاتب» وسرعان ما جاء الدور على «الطليعة» فتوقفت هي الاخرى. وحين صدرت «الاهالي» صودرت نهائيا بعد أقل من عشرين اسبوعا .

وبدأت ــ خلال الفترة ــ ظاهرتان تتبلوران للمرة الاولى في تاريخ مصر الحديث ، وهما الهجرة الجماعية للكتاب والفنانين الى الخارج ، وهجرة الاقلام التي فضل أصحابها البقاء في الداخل .

في الماضي ، كانت هذه الظاهرة أو تلك فردية ، ولكنها طيلة السنوات الست الماضية أضحت من الظواهر المتكاملة .

- ولا شك ان الاسباب الخـاصة تختلف من كاتب الى آخر أو من فنان الى آخر ، ولكن هذا لا يمنع أن مناخا ما طاردا للمثقفين يشكل القاسم المشترك لجملة الدوافع الى الهجرة او الرحيل .

واذكر انني أول العام ١٩٧٧ قمت بزيارة سريعة للقاهرة ، وانني زرت محمد حسنين هيكل في منزله مرتين ، وانه قال لي حرفيا «لا مكان لكم في القاهرة الآن» و «ابقوا في أماكنكم كما أنتم» . وبالرغم من انه استخدم صيغة الجمع في ضمير المخاطب الا انه في ما يخصني أكمل «وحسنا فعلت بالذهاب الى فرنسا» . كنت قد تركت بيروت ، بعد ان اكتملت تجربتي فيها بالنهاية ــ الرسمية ــ للحرب ، والنهاية الفعلية لممارسة المهنة .

ولكن هيكل يكتب الآن ما معناه انه عاتب على المثقفين المقيمين خارج مصر ، وأكثر من ذلك هو يجعل من الاقامة داخلها دليلا على الشجاعة . وهو عتاب لا افهمه وشجاعة تحتاج الى تحديد . فالشجاع والجبان ، كلاهما يوجد داخل مصر وخارجها . ومن عاش في ظلال «صدفة الموت» في لبنان ــ التي خطفت منا ابراهيم عامر مثلا ــ لا يخاف عدة جلسات مع المدعي العام الاشتراكي في القاهرة ولا عدة اسابيع في سجونها . خاصة وان أكثر الذين يعنيهم هيكل عاشوا زهرة اعمارهم في السجون .

ولكن المفارقة التي تستدعي التساؤل هي ان أكبر كتّاب النظام ــ كهيكل نفسه وأحمد بهاء الدين ــ يكتبون في الخارج ، سواء كان ذلك اضطرارا أو اختيارا . فهل يكون المطلوب هو ان يكون الكاتب بجسده في مصر وبقلمه خارجها ... ام يكون للجميع الحق في اختيار الزمان والمكان اللذان يناسبان تجربة الكاتب في الحياة .

١٩٧٩/٨/٢٤

الجواب من وراء الأسوار

في حفل تنصيبه رئيسا فخريا لاتحاد الكتاب في مصر ، قال أنور السادات انه مع بدايات الحرب العالمية الثانية كابد صراعا عقليا مريرا بين أدب توفيق الحكيم وفلسفة الالماني نيتشه .

وسامح الله استاذنا الدكتور عبدالرحمن بدوي الذي أراد ان يخدم الثقافة العربية في الاربعينات من هذا القرن فلخص بعض الفلاسفة الالمان ... فقد تسببت أغلفة كتبه عن نيتشه وشوبنهور وشبنلغر ان «يتهوّد» انسان لا علاقة له بالثقافة الا اعتقال المثقفين و «يدعي» انه عانى صراعا ــ عقليا ! ــ تأملوا ، بين الحكيم ونيتشه .

ومن حق السادات أن يخاطب توفيق الحكيم قائلا « يا أستاذي » لا لانه لا سمح الله قرأ حرفا من«عودة الروح» أو «يوميات نائب فيالارياف» أو «أهل الكهف» ... بل لان توفيق الحكيم هو استاذ المدرسة الفكرية المصرية المعادية للاحزاب والبرلمان وكل ما جاء في كتابه المبكر « شجرة الحكم» .

لكن ليس من حق السادات ان «ينصب» علينا وعلى نيتشه وعــلى الدكتور بدوي ، الا اذا كان قد اخطأ في هجاء الاسم الالماني وظنه الكلمة العامية المصرية الشهيرة «النتش» أي الكذب ، والنتاش هو الكذاب .

ــ وليس معنى ذلك انه ليس للسادات صلة بكل ما هو الماني . بالعكس تماما . فالرجل يعترف مزهوا بأن علاقته بالنازي في الحرب العالمية الثانية

كانت من القوة الفكرية والسياسية والتنظيمية، بحيث كان الاسبق من جميع بني البشر هذا الاسبوع الى اعلان «سعادته» بخبر الافراج عن كتاب هتلر « ايماني » بعد حظر رقابة النشر الالمانية لاكثر من خمسة وثلاثين عاما متصلة .

وفي الوقت الذي كان يدلي فيه بهذا التصريح «الثقافي» المذهل ، كان يأمر بالقبض على أكثر من مائة مناضل مصري من اجل الديموقراطية ، ومن أجل عروبة مصر ، ومن أجل الاستقلال الوطني ، ومن اجل التقدم الاجتماعي للمصريين .

وهو أمر طبيعي ، ففي الوقت الذي يصيب المثقفين الديموقراطيين في جميع أنحاء العالم ، الهلع والذعر من «دلالة» الافراج عن كتاب هتلر — انجيل النازية — يمارس السادات «ايمانه» باعتقال المناضلين المصريين ضد النازية القديمة والنازية الجديدة .

وقد يخطر ببال « المتعمقين » في «بواطن» الامور ، ان يرصدوا هذه التناقضات الظاهرية مندهشين :

● من ان الرجل الحريص على استعادة الزي النازي وفرضه على ثياب العسكرية المصرية ، هو الصديق الاول «لاسرائيل» في الشرق الاوسط ، والتابع الامين للولايات المتحدة في الوقت نفسه . و «اسرائيل» تدعي أن اليهود هم الضحية الاولى للنازية ، واميركا تدعي انها قادت «العالم الحر» الى الخلاص من هتلر .

● كذلك ، كيف يمكن لتوفيق الحكيم ان يكون «استاذ» هذا الرجل ، وقد كان في أثناء الحرب العالمية الثانية صاحب الموقف (ربما الوحيد الواضح في حياته كلها) ضد النازيين والفاشست ؟

والجواب نسمعه من المؤرخ رفعت السعيد والكاتب حسين عبدالرازق والناقدة فريدة النقاش والشاعر زكي مراد وغيرهم من عشرات المثقفين الذين أضربوا عن الطعام في معتقل «القلعة» (الذي تشرف عليه أجهزة

المباحث والمخابرات المصرية مباشرة) . هؤلاء يقولون لنا : لا تدهشوا ، فـ «اسرائيل» تتاجر بدماء اليهود ، لكن الصهيونية كانت الحليف السري الاول للنازية . واسرائيل تتاجر في اميركا بأصوات اليهود ، لكنها الحليف العلني الاول للولايات المتحدة .

اما توفيق الحكيم صاحب «التعادلية» فلن يخدعكم ، لقد وقف ضد المانيا الهتلرية نعم ، لان السلطة البريطانية كانت ترحب بذلك . وهو يتوج اليوم رئيس النظام ملكا على الثقافة ... لان السلطة المصرية ترحب باستضافة أغلى الكنوز الوطنية ــ العقل المصري ــ في اقبية السجون والمعتقلات .



الكلب ... واللصوص

أراد السيد النبوي اسماعيل وزير الداخلية المصري أن يكرم ضيوفه القدامى الجدد من المناضلين المعتقلين ، فأستقبلهم شخصيا على باب سجن «القلعة» . ولعلها المرة الاولى في تاريخ الديموقراطية المصرية ان يقوم المسؤول الاول عن الامن ، بنفسه ، باستقبال سجنائه ... وفي يده كلب .

طبعا ، ظن البعض للوهلة الاولى أن المناخ الحار في القاهرة دفع القلب العطوف للسيد الوزير أن يخرج كلبــه معه في الصباح الباكر للتريض ... وشم الهواء .

ولكن بعض الظن اثم ...

فما ان وصل الموكب الذي يضم بعض الصحفيين والمحامين والشعراء والنقاد والطلاب والعمال ، حتى بدأ أغرب حوار بين الكلب والضيوف . حوار حول الديموقراطية .

ويقول الذين لم يشاهدوا «الحفل» المثير ان الكلب ، والحق يقال ، برهن على جملة أمور : أولها انه كلب تاريخي ، وليس كلبا عاديا ، فهو من سلالة عريقة تربت في ابهاء «السجن الحربي» و «الاوردي» ، وليس كلبا حديث السن ... أنه ابن الايام الخوالي التي عرفت «العز» الحقيقي في عهود زيور ومحمد محمود وابراهيم عبد الهادي واسماعيل صدقي ، واستعادت عزها في عهود حسن المصيلحي وحمزة البسيوني وصلاح نصر ، وها هي تقاوم الزمان وتستمر في أداء رسالتها المقدسة .

والامر الثاني أنه كلب وفي ، فبالرغم من كافة الشعارات التي ارتفعت ضده منذ القول بسقوط دولة المخابرات الى القول بارتفاع دولة سيادة القانون ، لم يتغير ولم يغضب ولم يخن . بل هو أذكى الجميع في فهم لغة أصحابه على مر العصور ، فكما راجت كلمة «الديموقراطية» وعلت نبراتها في الصحف والاذاعات والخطب ، ادرك على الفور انه ليس مغضوبا عليه، بل العكس انه في «نزهة» يأكل فيها جيدا ويلعب الرياضة جيدا استعدادا لاداء مهام عاجلة .

والامر الثالث أنه كلب مثقف أكثر من جميع النقاد العرب ، وربما نقاد العالم .. فهو يفهم ما لم يفهمه الرقيب ، ويشعر بما لم يحس به رئيس مجلس ادارة الصحيفة أو دار النشر أو الاذاعة أو المسرح ، ويفسر كل ما استعصى على لجان القراءة تفسيره .

لذلك كان حريصا وهو برفقة السيد نبوي اسماعيل في هذا الفجر الباكر فوق تلك الهضبة على ابواب سجن «القلعة» أن يهز أذنيه طويلا حين رأى ذلك الموكب من الرجال ، وأن يشمشم في بنطلون سيده قبل أن يتكلم .

لم يكن مترجما ولا خطيبا . كل ما في الامر أنه أراد أن يمارس حقه في الديموقراطية .

نظر الى رفعت السعيد وقال له أنت تكتب التاريخ ، أما أنا فأكتب الحاضر .. وراح في صمت حكيم لا يعرفه الكلاب العاديون يكتب بلغته وقلمه خطوطا بيضاء وحمراء وسوداء وزرقاء على عظم ولحم ودم «المؤرخ» الماثل أمامه .

ونظر الى حسين عبد الرازق وقال له أنت تكتب عن ١٨ و ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ حيث لم أستطع الوصول اليك . ونظر الى السيد الوزير معاتبا وهو يقول : لقد فضلوا التكنولوجيا حينذاك على المخلب والناب ، فضربوكم بالرصاص .. ولكنهم اليوم ، وبعد المبادرة التاريخية ،

بدأوا يفهمون أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الفطرة والبراءة والبدائية والطبيعة التي تتجسد في هذا اللعاب . وراح الكلب يجري «تجاربه الحية» في مزج دماء البشر بعصارة امعاء الكلاب .

واقبلت فريدة النقاش ونبيل الهلالي وزكي مراد ومحمد علي عامر وصابر زايد وغيرهم وغيرهم ، فسألهم واحدا واحدا ، سأل بأنيابه وجوههم وبمخالبه ما تبقى من جلودهم الممزقة تحت وطأة الحوار الديموقراطي المحتدم : هل قرأتم رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ ؟

لم يجب أحد . كانوا في اغفاءة اضطرارية تنظمها الدورة البيولوجية للجسم البشري ويدعوها الجهلة أمثالنا بالغيبوبة . لم يجب أحد . فنظر الكلب الى السيد نبوي اسماعيل الذي كان يستعد لتوديع ضيوفه القدامى الجدد ، فاجأه بالسؤال ولكن بلغة العيون والذيل المرفوع : من كان اللص ومن كان الكلاب ؟ سعيد مهران أم أنا وأخوتي ؟

بدأت ملامح وزير الداخلية تتغير ، ولكن الكلب لم يفهم بل راح يقول : لا تخف ، لقد اختلفت الامور ، أصبح هناك كلب واحد ، أما اللصوص فكثيرون . وأضاف : ولكني لست الكلب في جميع الاحوال . ولا هؤلاء سعيد مهران .

لم يسمع الوزير شيئا . كان قد عاد الى مكتبه ليرفع سماعة التليفون قائلا : تمام يا أفندم ، الامن مستتب . وفي الطرف الآخر كان هناك صوت كلب .

الحداد يليق بالحرية

لا احد يعلم ما اذا كانت حالة «الاستنفار النووي» قد اعلنت سرا الاسبوع الماضي بين موسكو وواشنطن ام لا ... على اثر لجوء الراقص الروسي جودنوف الى الولايات المتحدة ، واحتجاز الراقصة فلاسوفا زوجته في الطائرة المتجهة الى الاتحاد السوفياتي لاكثر من خمسين ساعة .

يا الهي ... ما الذي يجري في الدنيا ؟ هيبة روسيا واميركا معا ، أكبر قوتين في العالم المعاصر ، تصبح موضع امتحان عسير بسبب لجوء راقص واحتجاز راقصة .

ومع احترامنا البالغ لفن الرقص ، واحترامنا الاكبر لحق المستر جودنوف في اللجوء السياسي وحق الليدي فلاسوفا في العودة الى وطنها، الا ان القصة برمتها توجز زماننا كله في سخرية المساخر ، وتدمغ عصرنا كله بلعنة من الوحل .

فالولايات المتحدة التي فتحت أبوابها الواسعة لراقص الباليه لم يسمع أحد قط انه اضطهد في بلاده ، بل هو نفسه في براءة اللحظات الاولى يعترف بأن الفنان في وطنه يحظى بما لا يحظى به أي مواطن آخر ، وانه يريد فقط « تجربة الغرب مع الشهرة » ... هذه الولايات المتحدة الاميركية ، تصمت يوميا عن مئات الجرائم التي ترتكب في حق الثقافة والآداب والفنون في بلاد ترعاها بمظلتها ، بل وتصدر اليها «التقاليد المكارثية العريقة» كما هو الحال في مصر الآن ، ولكنها تفتح الابواب لراقص باليه وتحتجز زوجته في

طائرة حرصا «على حقها في تقرير المصير» .

يا سلام ؟

امـا مصائر شعوب كاملة تقع تحت النـير الاميركي وامتداداته الاخطبوطية في أرجاء العالم الخمس ، فانها لا تخطر على بال زعيمة «العالم الحر» ولا على بال رئيسها المتشدد في الدعوة الى «حقوق الانسان» .

في الغرب مهازل لم تصدر عن بشرية العصـر الحجري ... أوروبا مأزومة الضمير منذ الحرب العالمية الثانية ، وما اقترفته النازية من جرائم في حق اليهود . اميركا مأزومة الضمير منذ أيام المرحوم ماكارثي الذي أتهم كل اميركي يمشي على الرصيف ناحية اليسار ، بالشيوعية ، فاستعاد أمجاد «محاكم التفتيش» من ظلمات العصور الوسطى .

وهم يترجمون أزمة الضمير في الغرب ترجمة مأساوية لا علاقة لهـا بأي لغة في معجم الحضارات القديمة والوسيطة والحديثة ... في أوروبا تبعث النازية من جديد ، ولكن ليس ضد اليهود هذه المرة ، بل ضد العرب ثقافة وتاريخا وبشرا وجنسا و ... وكل شيء . وفي اميركا تبعث المكارثية من جديد ، ولكن ليس ضد الاميركيين هذه المرة ، بل ضد شعوب وثقافات كل ما يسمى «العالم الثالث» ، مكارثية للتصدير .

وليس من اميركي يريد ان يفهم ان المكارثية القـديمة قـد ذبحت واحرقت شموعا مضيئة في تاريخ الثقافة الاميركية ، بدءا من شتاينك الى شارلي شابلن مرورا بريتشارد رايت وهاورد فاست وبول روبسون واليا كازان . وان اميركا الراهنة بالصمت على جرائم النظام المصري وغيره من أنظمة «العالم الثالث» التي تقع في منطقة نفوذها ، انما تقتل هؤلاء الرجال العظام مرة اخرى ... فالشيخ امام وأحمد فؤاد نجم وعدلي فخري وسمير عبدالباقي وزين العابدين فؤاد في شعرنا وموسيقانا ، يقومون بما كان يقوم به بول روبسون في خمسينات اميركا .

وثمة غيرهم عشرات الكتّاب والشعراء والفنانين في مصر وغير مصر

من بلدان «العالم الثالث» المنحازة سرا او علنا للولايات المتحدة ، تكتوي جلودهم وتنشق عظامهم في السجون والمنافي واقبية التعذيب ، بفضل الخبرات الاميركية المسجلة في ماركة «المكارثية» .

... فاذا كان جودنوف ، راقص البولشوي ، قد لجأ الى الولايات المتحدة، واذا كانت زوجته الراقصة فلاسوفا قد حصلت على حق تقرير المصير وعادت الى بلادها ، من دون اراقة قطرة دم ، او تهديد نووي يعلق انفاس العالم ... علينا ان نقيم الافراح والليالي الملاح لاشهر حفلات الزفاف في الربع الاخير من القرن العشرين .

زفاف «الحرية» الى الجحيم .

مفكر فرنسي يرفض

- « سيدي المستشار

لقد أردتم بكل رقة أن تصروا على ان اشارك في الندوة التي ستعقد قريبا في القاهرة حول المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة .

ولا شك ان الموضوع قديم ، وهو أيضا ، بمزيد الاسى ، موضوع مستمر تطرحه الاحداث . الا ان الاطار المحدد للمناقشات هو اتفاقيات كامب ديفيد وهي اتفاقيات سبق لي ان عبرت عن موقفي منها باعتباري صديقا ومؤرخا للعرب . وهو موقف لا يتفق مع مواقف حكومتكم .

ومن دون ان يترجم موقفي هذا عن أي نفور من بلدكم . أطلب اليكم احاطة المشرفين على تنظيم الندوة بما يحتمه واجبي من رفض دعوتهم .

وتفضلوا سيدي المستشار ، بقبول تأكيدي لعظيم مشاعري .

«جاك بيرك»

كان هذا الرد من المفكر الفرنسي الكبير البروفيسور جاك بيرك ، على المستشار الثقافي بالسفارة المصرية في باريس ردا في الوقت نفسه على السيد محمد رياض الذي لا يزال يصف نفسه في البرقية التي وصلت الاستاذ الفرنسي «بممثل الامين العام لجامعة الدول العربية» .

وكانت السيدة غراندن سكرتيرة جاك بيرك قد اتصلت بي على وجه السرعة ، فور تسلمها رسالة برقية يطلب فيها بيرك من قريته في اقصى الجنوب الفرنسي ان التقي به هذا الاسبوع . وهو في طريقه لتمضية بقية الاجازة خارج فرنسا . ولم يكن مثل هذا «الطلب» من بين عاداته التي

عرفتها عن كثب في خلال ثلاث سنوات ، فقد كانت العادة المتبعة في الصيف انني أزوره في بيته الريفي الذي ينقطع بين جدرانه الخشبية مطلا على المحيط من ناحية وعلى الغابات الكثيفة من ناحية اخرى ، ستة اشهر كاملة بين حزيران (يونيو) وكانون الثاني (يناير) من العام الجديد .

لذلك دهشت ، حين طرقت باب مكتبه في الموعد المحدد ، وهو يرحب بي ضاحكا : لقد كسرت القاعدة ، فأنت لم تأت ، اما انا فأتيت على الرغم من انني اكره باريس في الصيف . المهم ، قل لي يا صديقي ، هل عندكم جامعتان عربيتان ؟ انني اعرف ان جامعة الدول العربية قد تم نقلها الى تونس. لكن ها هي ذي امامك برقية من «جامعة» أخرى في القاهرة ، وها هي رسالة من السفارة المصرية في باريس تؤكد ذلك ، ويطلبان مني بالحاح مثير ان اتوجه الى مصر للاشتراك في ندوة حول الاوضاع في الاراضي المحتلة . هل هم لا يقرأون ما اكتب ، أو لا يدرون شيئا عن موقفي ؟ لقد وقفت علنا ولا ازال ضد زيارة السادات للقدس المحتلة ، ثم وقفت علنا ولا أزال ضد اتفاقيات كامب ديفيد ، واخيرا فانا ضد ما يسمى بمعاهدة السلام منذ يوم توقيعها ... فماذا يريدون مني أكثر من ذلك وضوحا ؟ هل يمكن لمثلي أن يبارك «المكان» فيعترف بمنظمة وهمية ينكرها العرب بعدما نقلوا مقر الجامعة الاصلية الى تونس ؟ وهل يمكن لمثلي أن يبارك «الزمان» حين تصلني الدعوة والسادات في زيارة حيفا ؟

ماذا يعني ذلك ؟ لقد رددت عليهم بهذه الرسالة .

* * *

لم أجب عن تساؤلات جاك بيرك ، لان حوارا عنيفا آخر كان يدور بداخلي ... ففي الوقت الذي يتخذ فيه هذا المفكر الاجنبي عنا هذا الموقف الى جانب جامعة الدول العربية ، فضلا عن موقفه السياسي الى جانب العرب، تتخذ احدى منظمات هذه الجامعة الشرعية المنقولة الى تونس ، وهي منظمة اليونسكو العربية ، قرارا مثيرا وهو الاحتفال بمرور ستة قرون على ميلاد

ابن خلدون ... في القاهرة !

وكأن منظمة «التربية والثقافة والعلوم» العربية المتفرعة عن جامعة الدول العربية لم تسمع بعد من الاذاعة أو الصحافة أو التلفزيون ما جرى ويجري منذ ستة أشهر على الاقل ... ولم نقل منذ عامين مثلا . ويردد العالم ان رؤساء وملوك العرب اجتمعوا في بغداد عاصمة العراق ، وانهم قرروا مقاطعة النظام المصري مقاطعة شاملة كاملة .

ولذلك ، كانت أولى اجراءاتهم هي نقل مقر جامعة الدول العربية بمختلف أجهزتها ومنظماتها ومؤسساتها الى تونس . ولم يفهم أحد من القرار انه يمكن نقل مبنى الجامعة القديم بطائرات النقل الضخمة قطعة قطعة الى تونس . كما لم يفهم أحد من القرار انه يمكن القبض على جميع الموظفين المصريين في مكاتب الجامعة القديمة وشحنهم الى تونس .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد فهم البعض ممن يشتغلون بـ «التربية والثقافة والعلوم» انه يمكن ايجاد مقر في تونس ، ويمكن انتخاب امين عام جديد تونسي ، ويمكن توظيف عشرات ومئات الكفاءات العربية في الاماكن الخالية بامتناع المصريين عن العمل في المقر الجديد ، ولكن من المستحيل عقد مؤتمر علمي وعالمي عن ابن خلدون ... في غير القاهرة .

ولا أدري ، بهذا المنطق ، ما الذي يمنع عقد المؤتمرات السياسية والاقتصادية في القاهرة كذلك، طالما ان المقاطعة للمقر وحده، اي للمبنى... فهناك فندق شيراتون وهيلتون وميرديان وغيرها من أحدث منجزات التكنولوجيا الاميركية والاسرائيلية .

انني بالفعل عاجز عن فهم هذا القرار «الشجاع» من جانب منظمة ثقافية عربية رسمية بهذا الوزن خصوصا ان آخر الانباء تؤكد ان مصر ستشارك «اسرائيل» في أي مؤتمر علمي يعقد في القاهرة أو تل أبيب . كما تؤكد الانباء نفسها ان توفيق الحكيم وأبا ايبان ووزيرا مصريا على الاقل ، ان لم يكن السادات نفسه أيضا ، سيفتتحون المؤتمر .

لا تحجزوا له مكاناً في السيرك

كيف يمكن تناول مثل هذا الفنان المبدع ؟

هل نأخذ ، مثلا ، رواياته واحدة فواحدة ، ونقول «رأينا» وانتهى الامـر ؟

هل نبحث عن «مكانه» في الرواية العربية الحديثة ، وبالذات في مسيرة القصة ــ القضية ، اي الرواية الفلسطينية المعاصرة ؟

لا شك ان هذا كله مطلوب وأكثر ، فصاحب «العجوز» و «الباشا» و «العصافير» و «النقيض» يحتاج هو وقراؤه معا لوقفة نقدية طويلة أمام هذه الاعمال الخصبة والمفاجئة معا .

من هو ؟

انه الروائي الفلسطيني افنان القاسم ، يعلم الادب العربي في جامعة السوربون ، ويكتب في صمت بعيدا كل البعد عن الاضواء .

وهذه هي النقطة المحورية التي أريد الكلام عنها ، في اتصالها الوثيق ببقية عناصر أدبه «الجديد» تماما في كلاسيكيته الراقية .

معظم اعمال افنان القاسم طبعت في بغداد ودمشق وبيروت ، عواصم النشر والاعلام في المشرق العربي . ولكن الرجل في باريس . لا يحمل كتبه الى السادة النقاد ومحرري الصفحات الادبية ، ولا يدعوهم للعشاء ، ولا يبحث عن دعوة الى هذه العاصمة أو تلك ليتكلم من الاذاعة او التلفزيون . انه يكتب فقط .

ويعتقد ، مخلصا ، ان واجبه نحو نفسه ونحو الادب ونحو الوطن ، ينتهي عند هذه الحدود ... فهو يرفض التطفل على الوقت الثمين للاساتذة النقاد ، ولا يجد الوقت غير الثمين ليسعى الى صحفي يعقد معه مقابلة .

انه يكتب فقط .

وبالرغم من انه استاذ في النقد والتحليل الادبي ، الا انه لا يعرف بالضبط كيف يمكن تصنيفه : في الخانة الواقعية أو الرمزية ، الثورية أو الوجودية ، فكل ما يعرفه انه يكتب فقط .

وفي الزمن القديم كانت رواية جيدة واحدة لكاتب ما تضعه على الفور في طليعة العصر والمجتمع الذي يكتب فيه ومن أجله . اما افنان القاسم ، فقد كتب حتى الآن أربع روايات هامة . ولكن السوق المتخمة بالتفاهات تغطي على اللآلىء النادرة .

ولكن الكاتب ، يكتب فقط .

فالامتحان أصلا ، للنقد والنقاد ، وليس له .. فالذين يشكون من غياب الادب الجيد ويبحثون عنه بالمنظار ، هم المطالبون باكتشافه وتقييمه وتقويمه وتقديمه لاعرض قطاع جماهيري قارىء ... بل لعل أدب افنان القاسم يحتاج منا الى ما هو أكثر ، الى ترويجه بين الذين لا يقرأون بكل الوسائل ، بالسينما والاذاعة والتلفزيون .

وسيحدث ذلك ، بالقطع ، يوما ... وحينذاك سيحاول البعض أن يحجز للروائي الفلسطيني مكانا في السيرك العربي العام . وهو نقيض المطلوب تماما ، فالظل الذي اختاره افنان القاسم افضل كثيرا من سيرك الاعلام العربي ، أي تحويل الفنان الى موضة وفنه الى سلعة تجارية رابحة .

لماذا أقول ذلك ، وهناك من أصدر من الروايات والقصص والاشعار ، ما يفوق عددا ما أصدره افنان القاسم ؟

لان هذا الفنان الذي آثر العمل في صمت ، لم يقلد أحدا من كتاب الاجيال السابقة أو المعاصرة له ، ولم يؤخذ بالاتجاهات «الحديثة» في

الغرب في الوقت نفسه .

وسر الاسرار الرابض في رواياته الاربع ، هو انه مخلص مع الـذات حتى المنتهى ، متفاعل مع موضوعه حتى الذروة . فهو ابن فلسطين العربي المقيم قسرا في المنفى . وهو ابن الثقافة العربية وفي القلب منهـا الادب الفلسطيني . لذلك فهو لا يتخلف عن التراث الحي في دمه وخلاياه المبدعة، وهو لا يقفز فوق الواقع نحو متاهات تبدو سرابا في الرمال المتحركة .

لغته الشعرية المكثفة في تركيز شفاف ، هي نحت بنيوي لاسطورة العربي المقتلع . تكوين الفقرات لا يخضع لبنية هندسية سابقة بل لايقـاع الحياة والموت . لذلك تنهض الرواية في أدبه من ضمن المواد التي وفرتهـا المأساة الكبرى والوسطى والصغرى . مأساة الوجود ومأساة فلسطين ومأساة الفرد .

ولكن «الجدل» هو الذي يصوغ من عمق اعماق هذه المأساة وهجا ضئيلا يبدو من بعيد كالامل المستحيل . كوّة من النور في جدار من الظلمة. والجدل الروائي عند افنان القاسم هو أصلا انعكاس المونو ــ ديالوغ الذي يعـانيه شخصيا مع دورة الوجود . ولكنه في الادب يتحول الى جـدل الشخصية وجدل الموقف وجدل الحدث ، جدل الفكر والجمال معا .

واقعية جديدة ؟

ربما، فبعد غسان كنفاني أرى الامر طبيعيا أن يجيء ابن آخر لفلسطين يستكمل مسيرة لا تنتهي .

فقط .. لا تحجزوا له مكانا في السيرك .

كذلك ... لا أحد يرث القاهرة

لم يفهم الكثيرون الحكمة العراقية في الابقاء على الجسور مفتوحة مع الشعب العربي في مصر ، رغم أن حكمة بغداد في القاهرة قديمة قدم النظام المصري الحالي ، فالعراق هو البلد النفطي العربي الوحيد الذي لا يملك جناحا في شارع الهرم ولا معرضا في شارع الشواربي . وكان رأيه دائما ، اذا لم تكن الوحدة السياسية ممكنة ، فلا أقل من توحيد الشعب عبر قنوات عديدة : التفاعل الثقافي لدرجة ان بغداد هي العاصمة العربية التي تضم أكبر عدد من المثقفين المصريين ، وهي أيضا عاصمة النشر الاولى للانتاج الادبي المصري خارج القاهرة . والتفاعل الزراعي لدرجة استضافة مئات الفلاحين المصريين وعائلاتهم في تجربة انتاجية هي الاولى من نوعها . فضلا عن أن مصر حين طلبت قرضا بتروليا اعتذر العراق عن «القرض» واعطى البترول بلا مقابل . ومن تكرار القول ما استشهد به الرئيس المصري أكثر من مرة أن الطلعات الاولى في حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ على سيناء كانت طلعات الطيران العراقي . كذلك كان العراق هو البلد الوحيد الذي قبل أن يعطي مصر ما احتاجت اليه من قطع غيار السلاح السوفياتي . ولم تشر أجهزة الاعلام المصرية منذ سنوات الى الدعم المالي المباشر من القيادة العراقية لمصر الا في بضعة أسطر .. لم يتكرر ذكرها ، حتى لا ترسخ في ذاكرة الشعب المصري .

ولكن الشعب لا ينسى . واذا كانت الحكومة المصرية تذكرت فجأة

ان هناك مائة ألف فلسطيني في مصر ، فالشعب العربي في مصر يتذكر يوميا أن هناك ربع مليون مواطن مصري في ليبيا وأقل منهم قليلا في الكويت ، غير عشرات الالوف في دول الخليج والسعودية . وان هؤلاء المواطنين ــ باختلاف طبقاتهم الاجتماعية بدءا من كبار الخبراء الى العمال والاجراء ــ يرسلون العملات الصعبة الى مصر ، بغض النظر عن القانون الذي يطالبهم بذلك . يرسلونها الى عائلاتهم الفقيرة اذا كانوا فقراء ، والى بنوكهم ومشاريعهم للاستثمار اذا كانوا أغنياء. ورغم انف الحوادث الفردية، المحتملة حتى بين أبناء القطر الواحد ، فان هؤلاء المواطنين يواصلون العمل والكدح، أيا كانت ردود الفعل الشعبية والعفوية على خطوات النظام المصري في الاقطار التي يعملون بها .

والمصريون في الداخل ليسوا أهل الكهف ، فهم على اتصال وثيق بأبنائهم وآبائهم واخوتهم في الخارج ، وهم «يعيشون» الكثير من الحقائق رغم قبضة التضليل الاعلامي القوية .. لانهم يرون بوضوح الفرق بين أوهام الانفتاح الاقتصادي على الغرب الذي جر عليهم الافلاس والجوع ، وواقع العطاء العربي لمصر الذي يمثل لبعضهم طوق النجاة من الموت والضياع .

لذلك لا خوف على عروبة المصريين ، رغم قساوة الحملة على العرب ، فهم ــ في المستوى المادي المباشر وبعيدا عن مستويات الوعي واللاوعي ــ يدركون ان الصراع «المصري» الاسرائيلي كان محتما ، بغض النظر عن فلسطين .. وأن الملك فاروق ، وليس جمال عبدالناصر ، هو الذي أرسل الجيش المصري عام ١٩٤٨ الى فلسطين ، لان قادة مصر الملكية كانوا أيضا يعرفون ان استراتيجية «من النيل الى الفرات» تستهدف الامن الوطني لمصر أولا . وان الصراع الاجنبي للسيطرة على مصر لم يتوقف منذ محاولة محمد علي الكبير للاستقلال عن أوروبا والسلطنة العثمانية معا . وان الاستعمار كان يهيء منذ وقت مبكر لدولة «اسرائيل» في قلب الشرق الاوسط .. لا

لشق الوطن العربي فقط ، وقد كان شفوقا بالجيوش البريطانية والفرنسية، ولا لاغتصـاب أرض فلسطين فقط فقـد كانت مغتصبة من الانكليز ، بل لاحكام السيطرة الاستراتيجية على مصر ذاتها . وكان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ تأكيدا صارخا على هذه الحقيقة ، فلم يكن هناك «مبرر عربي» لاشتراك اسرائيل في الحرب ، كان تأميم قناة السويس مبررا لتدخل انكلترا وفرنسا ، أما تدخل اسرائيل التي لا تملك اسهما في القناة المؤممة ، فكان اثباتا «للحضور» ورمزا للبعد الاستراتيجي في «الوجود» الصهيوني . وقد ذهبت بريطانيا وفرنسا وبقيت .. اسرائيل ، قريبة غاية القرب من الهـدف «المصري» . وليس اصرار بيغن والمعارضة معا على بقاء المستوطنات في شبه جزيرة سيناء ، رغم تنازلات النظـام المصـري الباهظة ، الا عنوانا ثابتـا للهدف : مصر . فالصراع المصري الاسرائيلي ، بجذوره التاريخية الموغلة في القدم يحتل مكانا بارزا في اللاوعي الجماعي المصري ، حتى اذا حالت دونه والطفو على سطح الوعي معوقات التضليل ومخدرات العنصرية .

لذلك مرة اخرى لا خوف على عروبة مصر والمصريين ، لان معدلات التزايد السكاني وضيق رقعة الموارد الطبيعية لا سبيل لمعالجتها بالاكتفاء الذاتي .. فلا أمل في تنمية اقتصادية الا بالتكامل القومي بين أقطار العرب التي يشقها الكيان الصهيوني . هكذا يصبح تحرير فلسطين تحريرا لمصـر (لا لسيناء) من الموت . ولم يعد بمستطاع الرأسمالية المصرية ذاتها ان تحل مشكلتها المزمنة بفتح الاسواق العربية والافريقية ، فالمزاحمة العالمية والقطرية ، لم تعد تمنحها هذه الفرصة .. حتى داخل سوقها المحلي . ومن هنا كان الرباط الذي لا ينفصم بين تثوير الاقتصاد المصري في اتجـاه راديكالي وتحرير الاراضي العربية المحتلة في اتجاه التكامل القومي وهكذا تصبح العروبة والاشتراكية هما قدر مصر المحتوم والذي لا بديل له سوى الدمـار .

والشعب في مصر يدري ذلك كله ، ولو في اللاوعي الذي يتراكم

أحيانا في بطء ولكنه حين ينفجر لا يبقي ولا يذر . والحكمة العراقية التي تبقي على الجسور مفتوحة مع الشعب العربي في مصر ، تساعد على تحويل البطء الى سرعة . لان الموقف المتطرف من شأنه عزل مصر ، أي مساعدة النظام الحالي على تحقيق أهدافه ، فضلا عن أهداف العدو المزدوج : مصر واميركا .

ـــ والحكمة العراقية في محتواها الاشمل من السياسة والابعد نظرا ، هي انه كما ان لا حياة لمصر بغير العرب ، فان احدا لا يرث القاهرة . مهما طال الزمن فهو يتحرك ،حيث يزول الحكام وتذهب الأنظمة ويبقى الشعب، تبقى مصر وعروبتها . واذا كانت «جامعة الدول العربية» قد ولدت في القاهرة وكان فاروق على عرشها ، فان هذا الرمز لا يجب أن يغيب عن بال الذين يتوهمون ان مصر هذه باتت أبعد عن العروبة بعد ثلاثين عاما .

والذين يتصرفون على اساس «اللحظة» وكأنها الزمن يخطئون خطـأ الموت لا في حق مصر وحدها بل في حق «العروبة» التي يدافعون عنها .. فمصر ليست بقرة حين تسقط اعياء ، تكثر السكاكين ، ولا هي «تركة» مات صاحبها فيتنازع الورثة من حولها .

* * *

وهذا الكلام ليس موجها الى السياسيين ، بقدر ما هو موجه ... الى «المثقفين العرب» !

هذا البحر ... وطني

هل العالم ، رغم الثورات التكنولوجية المتلاحقة ، لا زال رومانتيكيا يعشق الاسطورة ويتعلق بحبالها من يوم الى يوم ومن عام الى آخر ؟

- حتى في الغرب ، حيث وصل العلم الى أعلى ذراه المادية ، ترى الناس تتفاءل وتتشاءم ، تسأل الغيب اسراره في كف اليد أو قاع الفنجان أو أطياف الضوء المنعكسة على جدران كرة من الزجاج .

حتى في الغرب ، نعم ، تسمع ايقاع الحياة عند الغالبية من البشر وقد انسجم مع أصوات الطيور وأجراس الكنائس ، وكأن «الواقع» ليس فقط اللهاث فوق الارض وتحتها بحثا عن لقمة الخبز ، بل هناك واقع آخر في عمق أعماق الضمير يهمس للانسان بلغة الصمت .

فلسنا وحدنا ، نحن أبناء الشرق ، الذين «نؤمن» بجاذبية الروح وحنان الماضي وعمق النفس البشرية .. يبدو ان جميع الاحياء على ظهر هذا الكوكب يشاطروننا « الايمان » ذاته ، مهما اختلف الشكل والاطار والاسلوب ، فالجوهر لا يختلف .

- تلك كانت الخواطر التي اقتحمت مخيلتي عشية رأس السنة ، والدنيا من حولي ترقص وتغني وتهلل بمقدم العام الجديد .. وكأن هذه «الليلة» تختلف عن كل الليالي ، سماؤها ونجومها ، ظلمتها وضياؤها ، الكلمات والاحلام ، الضحكات والدموع ، كلها تختلف في هذا المهرجان الكرنفالي

الذي يتكرر مرة واحدة كل عام ، بل وكأن الجزء من الثانية الذي تحتك عنده عقارب الساعة معلنة بداية السنة الجديدة ، كأن هذا الجزء هو الزمن خارج الزمن أو كأنه العمر كله .. انها تلك اللحظة الخاطفة التي يستعرض فيها المرء واعيا أو غير واع حياته بأكملها ، فأذا به يحزن ويفرح في وقت واحد ، واذا به أحيانا يستغفر ويأمل ويجزع ويرجو ، يتطلع من خلف الحجب ماذا يضمر الغد المجهول ؟

— ورأيتني أسيح في طفولتي وشقاوة صباي وتمرد شبابي ، وأتقلب كالحجر المشتعل وسط عذاباتي الصغيرة وأحزاني الكبيرة ، ثم تنفرج شفتاي عن ومضات السعادة النادرة التي عشتها كالحلم ، وأقلب عيناي في ما وعدت وما أنجزت . وفجأة اخرج من همومي عاريا مندفعا الى بحر متلاطم الامواج ، أشعر في غمرة مياهه الدافئة والباردة أنني مجرد قطرة في هذا المحيط الذي أنتمي اليه . وأحس بآلامي وأفراحي كلها تمتزج بموجات هذا الصدر الواسع سعة السماء .

— هذا البحر الذي يمتد في الافق اللانهائي ، قد لا يرى منه بعضنـا سوى شواطئه والصخور الرابضة على جانبها ، وقد لا يرى البعض الآخر سوى الاسماك المتوحشة التي تمزق الشبك والصيادين . وقد لا يرى البعض الآخر سوى عواصفه التي تغرق الرجال والسفن وحتى القوارب الصغيرة تهلك دون أن يسمع بها احد .

* * *

ولكن هذا البحر وطني .. لا ملجأ لي سواه ولا ملاذ لي دونه ، وواهم من يتصور في البعد عنه نجاة ! هكذا وجدتني دون أن أغمض العين اهرع اليه .. الى لبنان .. منذ عام كانت صلوات الامل في شفائه من الحرب . وكما لو كنا نمارس طقوسـا بترديد الكلمات رددنا بلا تعب : الحـرب انتهت . انتهت الحرب ، حتى نصدق حركات شفاهنا وألسنتنا لم تتوقف عن القول بأن الحرب انتهت .

ولكن العام جاءنا من أوله بأفجع الفواجع،كانت الحرب قد «توقفت» ولكنها لم تنته .. بل امتد جحيمها الى جنوب الوطن يزلزله برياح الشر التي اقتلعت سكانه قبل البيوت ، وفتحت مع العدو الحدود . وترسخ «التقسيم» في موضع القلب ، ولم تعد الدولة الى الدولة ، بقيت «دولا» ودويلات تتنازعها الشهوات الغبية وكافة أدران التخلف . وأضحت «شهادة الزور» حكومة بلا سلطة ورئاسة بلا شرعية .. في ظل تقسيم من الشرق واحتلال في الغرب . ويرحل جنبلاط في ذلك العام شهيدا لحرب توقفت ولم تنته ، وسلام انتهى من قبل أن يبدأ .

* * *

ولكن هذا البحر وطني .. هناك في المخيمات وأكواخ التنك تبيت «فلسطين» ليلتها ، بعد عرس الدم ، مجهدة مريضة أنهكتها روشتات الاطباء وأعيتها حيل السحرة . أرادوا قتلها بالداء والدواء في الصبح والمساء وفي منتصف الليل وعند الفجر .

زينوا لها أوحال الدماء على أنها «المخاض» فقط عليها أن توافق. كانت تعلم سلفا انه الوحل وليس الميلاد الجديد ، فرفضت . راحوا يستنزفون دمها قطرة قطرة ويطلبون منها أن تزغرد ، فقد اقترب الخلاص وحانت لحظة الولادة . لم تصدق الجلادين مهما ارتدوا ثياب ملائكة الرحمة . ذبحوها مرة ومرتين ، فتقمصت وتناسخت ولم تمت .

أرادوا للخيمة اللاجئة أن تتحول الى وطن حتى تنسى الوطن . وأرادوا للخيمة المشطورة الى نصفين أن تتوحد في ظل العلم الاسود حتى تنسى العلم الاحمر والاخضر والابيض . وأرادوا لخيمة بيت لحم ان تقنع بنجمة داود بدلا من نجمة مجوس المشرق .

ولا زالوا يريدون ،

والخيمة صامدة في الداخل والخارج ، مهما عنفت رياح الجهات الاربع ،

فلسطين وطن المسيح لا وطن يهوذا ، فلسطين وطن الطفل يسوع لا وطن هيرودوس ، فلسطين وطن ابن العذراء لا وطن بيلاطس .. فاذا كان العام الماضي هو عام التحالف غير المقدس بين يهوذا وهيرودوس وبيلاطس، فالشيء المؤكد ان يهوذا قد انتحر وان هيرودوس قد مات وان بيلاطس قد انهزم .. وان المسيح الفلسطيني ، رغم الصليب ، سينتصر على الموت .

* * *

فهذا البحر وطني .. أعرف أساطيره المأساوية الجميلة . أعرف لماذا يقولون في المواويل وبالناي الحزين ان نهر النيل هو دموع ايزيس . واعرف أن زوجها الملك أوزوريس هو اله الخير والخصب والخضرة والنماء . وان شقيقه ست هو اله الشر في مصر القديمة . وكان من الطبيعي أن يغار ست من أخيه ففكر له في خديعة يدفنه بواسطتها حيا . هكذا أحضر له تابوتا على مقاسه ، ودعا بعض أصحابه ومن بينهم أوزوريس . وطلب أن يجرب كل ضيف أن يرقد في التابوت ، كنوع من المزاح فمن يأتي على مقاسه يأخذه هدية الى اليوم الموعود . وما ان جاء دور أوزوريس حتى انقض الجميع على التابوت فأغلقوه عليه وأحكموا اغلاقه والقوا به في النيل . ولكن ايزيس راحت تبحث عنه في كل مكان حتى عثرت عليه في بيبلوس . وعادت به من الشاطىء الفينيقي ، ولكن ست كان قد قرر الخلاص من اخيه نهائيا فمزق جسده قطعة قطعة ورمى بها في طول الوادي وعرضه . غير ان ايزيس الحبلى ولدت ابنها البكر حوريس الذي كبر ونضج واكتشف جريمة عمه فحاكمه محاكمة عادلة انتهت باعدامه . اما اوزوريس ، ففي كل بقعة من أرض مصر وصلتها قطعة من جسده خلدته للابد فقد أصبحت أرضنا خضراء لا يحرق اخضرارها الزمن .

هذه مصر
وتلك اسطورتها
هنالك دوما أوزوريس

وهنالك دائما ست

ولكن لا تنسوا ان ماء النيل لا يجف طالما كانت هناك دموع ايزيس .

ولا تنسوا انها حبلى دائما بحوريس الذي سرعان ما يكبر ويقتل عمه ــ اله الشر ــ فيطهر منه الارض التي تبقى نقية خضراء يبللها الندى كل صباح بأنفاس أوزويريس .

* * *

هذا البحر وطني .

من مشرقه الى مغربه ، من عصوره السحيقة الى عصره الحديث ، من بداوته وجاهليته وظلماته الى انبيائه وشهدائه وعلمائه الذين علموا الانسانية كلها في ذروة عطاء الاسلام ، أبجدية الحضارة والنهضة .

هذا البحر الكبير وطني .. بتناقضاته وصراعاته ، بهزائمه وانتصاراته، ببطولات رجاله وضعفهم .. هو وطني اودعني لغته وسره وهمس لي : لا تضللني اذا انتصرت ولا تضل عني اذا انهزمت ، لا تفتر بي اذا ربحت ولا تنكرني اذا خسرت ، لا تتكبر اذا فرحت وتكفر بي اذا حزنت .

ــ نعم ، يا وطني ، هذا أنا .. وهذا عام انقضى ، بُعدي عنك يضنيني ، وعمق الجراح في جسدك يكويني . ولكن قلبك داخلي يدق ، ودمك في شراييني ينبض وعقلك في رأسي يفكر ، ووجدانك في وعيي يصلي بأنك أنت الحس الباقي للابد : فوق الحكم والحكام ، فوق المرارات وصغائر الزمان .. فكل ما مر ليس الا « لحظة » في عمر شعب لا يقهره فرد وأمة لا يخونها التاريخ .

* * *

وأفتح عيني من داخلي ، مع الشعاع الاول من الفجر الاول للعـــام الجديد ، فأرى في الافق البعيد انه قد استبان الخيط الابيض من الخيط الاسود .. وأن «شيئا ما» أبهى من الضياء يغمر الكون بأكمله ، ويترك على جبيني علامة تنزع عني غلالة الحزن وتصنع مكانها بشائر المستقبل .

عروبة مصر تبقى .. ويزول « العابرون »

وصل الاستفزاز الساداتي للعــرب ، داخل مصر وخارجهــا حده الاقصى .. وكلام «الرئيس» المصري عن العرب والعروبة ، بل وزيارته السوداء للقدس و «مبادرته» لقطع العلاقات مع العرب وطرد ممثليهم كأنهم «جواسيس للعدو» ، هذه كلها ليست ارادة فرد ولا أهواء زعيم . فحتى لا نخطىء الحساب ، مرة ومرة ، علينا أن نرى السادات على قمة «نظام» كامل ، له قواه الاجتماعية ومصالحه وتفكيره .. وليس «الرئيس» اكثر من رمز لهذه القوى والمصالح والافكار . فلو كان السادات مجرد ورقة جافة في غصن أجوف لسقط مع أول نسمة هواء ، ولما تمت أصلا زيارة القدس ، بل لا تتجنى على الحقيقة اذا قلنا انه لما تولى السلطة يوما واحدا .

- معنى ذلك ان «الرئيس» المصري ، يجسد طموحات شريحة اجتماعية في مصر ، كما يمثل فئات عربية خارجها ، كما انه يعبر عن أحد أطراف النظام الدولي الراهن ، أساسا «الغرب» وبالذات الولايات المتحدة الاميركية .

وليس هذا كلاما سياسيا محضا ، بل هو كلام اقتصادي أيضا .. فثمة روابط ظاهرة وأخرى خفية تصل بين الشريحة الاجتماعية المصرية التي يجسدها السادات ، ومصالح الفئات العربية خارج مصر ، ورأس المال الاحتكاري الغربي .

و «الدورة» تبدأ من الداخل والخارج وخارج الخارج في وقت

واحد .. فالشريحة المصرية الممثلة في «نظام» السادات ، مؤلفة بصورة رئيسية من عملاء رأس المال الاجنبي . والفئات العربية مؤلفة من الخامات الطبيعية الجوهرية كالطاقة . والجناح الدولي مؤلف من شركات الاحتكار المتعددة الجنسيات بقيادة الدولار الاميركي . وهو «السيد» الحقيقي وغيره خدم . غاية ما هنالك ان درجات «الخدمة» نفسها تختلف ، فهناك الخادم ابن الاصول ، وهناك الخادم الرث المبتذل . و «السيد» يحكم قبضته لا على «المال» وحده بل على اتجاه سيره أيضا ، من المنبع الى المصب . والمصب الدائم هو «بيت السيد» مع ترك الفتات للخدم بدرجاتهم المختلفة .. فهناك خدم يأكلون على مائدة السيد بعد أن يفرغ من الطعام ، وهناك خدم يأكلون في المطبخ بعيدا عن العيون ، وهناك خدم يأكلون من صناديق النفايات .

المهم في جميع الاحوال أن يقام سد عال ـ ابتداء من القهر العدواني المباشر الى القهر الاستيطاني الاكثر مباشرة الى القهر (الوطني) ـ بين المال وأصحابه الاصليين ، أصحاب الخامات الطبيعية وأصحاب الايدي المنتجة، سد عال من شأنه تغيير مجرى «النهر» حتى تحتجز الخيرات في المصارف والمصانع الاجنبية .

في ضوء هذا التصور للامور تبدو مشاكل مصر ومشاكل العرب ، واضحة ومفهومة .. فالاسلوب الساداتي في حكم مصر والعلاقات مع العرب والارتباط بالعالم هو «النموذج» المطلوب محليا من الشريحة الضيقة المستفيدة من وضعها كخادم درجة ثالثة يأكل من فتات الاستيراد والتصدير ، وهو النموذج المطلوب من بعض الفئات العربية ذات الموارد الطبيعية ولكنها تكتفي بالاكل من مائدة السادة بعد انتهائهم من الطعام ، وهو النموذج المطلوب اسرائيليا كخادم من الدرجة الاولى ، وهو بالطبع النموذج المطلوب أوروبيا وأميركيا لتيسير دورة رأس المال من المنبع الاصلي في بلادنا الى المصب الرئيسي في نيويورك وواشنطن .. حيث تصبح المعادلة في النهاية هكذا : كل مصنع يدور في الغرب يغلق في مقابله مصنع

في بلاد العرب ، وكل شارع جديد في الغرب يخرب في مقابله شارع عربي، وكل مدرسة أو جامعة جديدة في الغرب ، تقفل زميلتها العربية ، وكل زيادة جديدة في الاسعار بالغرب يدفع فرقها دافع الضرائب العربي . أي التقدم كل التقدم للعالم المتقدم ، والتخلف والفقر والقهر للعالم العربي .

وهذا هو «الارتباط» المصيري والتحالف الموضوعي غير المكتوب بين نظام السادات وبعض العرب وكل الغرب . لذلك فهو ليس ورقة جافة في مهب الريح ، كما يتوهم البعض فيخطئون الحساب ، حساب ميزان القوى. انه ليس وحده ، يجب ان نفهم ذلك جيدا .

- والنقيض المتطرف أيضا ليس صحيحا . ليس صحيحا مثلا ما تزوره وكالات الانباء الاجنبية والمصرية والاسرائيلية ، وهي تصور السادات «مسنودا» داخليا بالشعب المصري ، وخارجيا بشعوب العالم ، بما فيهـا بعض « شعوب » العرب .

ليس هذا صحيحا بالمنطق ذاته ، الذي دفعنا للقول بأن السادات ليس فردا وليس وحده .. فرغم معرفتنا (وجزعنا) بدور «التضليل» الاعلامي الواسع النطاق داخل مصر وخارجها ، فاننا نعرف أكثر دور «المصالح» الموضوعية التي تتبخر في نيرانها أية وعود وتحترق أية أوهام في زمن قصير . فالغالبية الساحقة من شعب مصر من العمال والفلاحين والجنود والطـلاب وصـغار الموظفين ، والرأسماليين المتوسطين . هؤلاء جميعـا «مضروبون» في ظل الشريحة الضيقة التي يمثلها نظام السادات . وهي الشريحة التي تملك، منذ انقلاب ١٤ ايار ١٩٧١، بمقدرات الامن والجيش والاعلام . وهي الشريحة التي لم يكن لديها في أي وقت أي مانع من القاء راية الوطنية في الوحل ، اذا كان ذلك يحقق لها كمية أكبر من فتات موائد «السادة» خارج الحدود . وقد ألقته في أول فرصة أتيحت لها — وهي زيارة السادات لاسرائيل . فهذه الزيارة لم تفعل أكثر من تحطيم الجدار نهائيـا بين السماسرة المصريين والاحتكارات العـالمية وفي مقدمتهـا رأس المال

الصهيوني . والحقيقة هي أن الجدار لم يتحطم بل « تعدّل » موقعه فرفع من مكانه السابق بين مصر واسرائيل ، ويوضع الآن بين مصر والعرب .

- ولكن الحقيقة الاكبر ــ وحتى لا نخطىء الحساب ، أكرره للمرة المائة ــ هي ان مصر ليست هذه الرقعة الضيقة من عملاء الشركات الاجنبية بما فيها الشركات الصهيونية . مصر هي تلك الملايين الكادحة المقهورة ، والتي لا مصلحة تربطها مطلقــا ، بنظــام السمسرة الساداتي ولا بالكيان الصهيوني ولا برأس المال الاميركي. و مصلحة تفرق مطلقا بينها وبين العرب.

- بل المصلحة كل المصلحة لشعب مصر في ارتباطه العضوي الذي لا ينفصم بوطنه العربي الاكبر . ولا عبرة هنا بما يقال عن «بخل» العرب في انقاذ مصر من أزمتها الاقتصادية ، لان المال العربي المقصود ، سواء وصل الى مصر أو لم يصل ، مرتبط أصلا بالحنفية الاجنبية التي لا يهمها شعب مصر في كثير أو قليل . بل لعله يهمها المزيد من تخلف هذا الشعب وافقاره وعزله التام عن أشقائه العرب . هكذا كان هذا المال يصل مصر ــ اذا وصل ــ بالقطارة ، فيلبي عطش الفئة الساداتية ونظامها . أما جماهير الشعب فتموت من العطش والجوع والمرض . وتلك هي الثمرة الوحيدة الطبيعية لسيطرة النظام الساداتي على الحكم ، والثمرة الطبيعية لتحالفاته العربيــة والاسرائيلية والاميركية .



- أما شعب مصر فله شأن آخر ، فمستقبله الحقيقي في العروبة ، عروبة السيادة والاستقلال الوطني والتنمية والديموقراطية ، عروبة عشرات الملايين من العمال والفلاحين والجنود والحرفيين والطلاب والموظفين والرأسماليين الصغار والمتوسطين الذين ينشدون «سوق» بلادهم ونهضتها .

والكذب الاعلامي الواسع الذي يمارسه نظام السادات في قهر العقل المصري والوجدان المصري ، حباله قصيرة . لان المؤكد يقينا ان «السلام» الذي ينشده مع اسرائيل والاستعمار الاميركي الجديد ، هو سلام هــذه القلة القليلة .

حرية الكلمة فليرحمها الله

(١)

أهلا وسهلا بالمؤتمر الثاني عشر ، الثاني والعشرين ، الثاني والسبعين، الثاني بعد الالف ، للكتّاب العرب .

للكتّاب العرب ؟ متى حدث ذلك ؟ متى عقد الكتّاب العرب ، أقول الكتّاب العرب ، مؤتمرا خاصا بهم ؟

وهل يمكن أصلا ، أن يجتمع الكتاب العرب وأحدهم يكتب الشعر على جدران الزنزانة ، والآخر يكتب المسرحية على أرصفة المنفى ، والثالث يكتب الرواية على أبواب عنابر مستشفى الامراض العصبية ، والخامس يكتب ما قل ودلّ على أقبية التعذيب ، والسادس يكتب القصة القصيرة على بدلات شرطة الحدود ، والسابع ينقد ما شاء له النقد في أية لغة غير العربية ، والثامن والتاسع والعاشر ... والمؤتمر هو الثاني عشر ، فيا ألف أهلا وسهلا.

(٢)

مؤتمر من ، ولمن ؟

مؤتمر الكتّاب العرب يقولون ، وللكتّاب العرب يجيبون .

وسنذهب الى دمشق المعشوقة الابدية للقلب ، سنلتقي الزملاء الذين افتقدناهم سنوات وسنوات . وسنشرب لنتذكر ، وسنأكل لننسى .

وسنستمع الى محاضرات قيمة وأخرى تافهة عن الاديب والحداثة والمصير والامبريالية والصمود ، وربما التصدي . وسنستمع الى اشعار

رائعة واخرى ضحلة تتحدث عن الفردوس المفقود والمدينة الفاضلة ولعنة الفراعنة وحب بنت الجيران .

ونفترق .

كأنها سهرة طالت سبعة أيام ، وانقضت كأية سهرة تطول ساعات ولا تحمل اسم المؤتمر ، والكتاب العرب ، والثاني عشر .

(٣)

ماذا أريد أن اقول اذن ، وسيتوجه الى دمشق عشرات على الاقل من المبدعين الاصلاء الحقيقيين، وماذا يهمنا من بقية «الكتبة» وحاملي الحقائب؟

لا شيء ، سوى أن المؤتمرات الاثني عشر لم تفعل شيئا للكتّاب العرب على مدى جيل وأكثر .. لم تخرج شاعرا سجينا من زنزانته ، ولم تعد روائيا من منفاه ، ولم تطلق ناقدا من مستشفى الامراض العقلية ، ولم تمنع فنانا من الانتحار أو الموت جوعا .

وطبعا ، اعرف سلفا ان مؤتمرات الكتّاب العرب ليست حكومة ولا هي جامعة الدول العربية ولا هي هيئة الامم المتحدة .

ولهذا السبب بالذات اتساءل لماذا اذن اصبحت هذه المؤتمرات منذ ميلادها الميت الى اليوم عديمة الفاعلية الى هذا الحد ؟ فالمفارقة الفاجعة انها مؤتمرات حكومية وفي الوقت نفسه لا تملك سلطة وزارة الشؤون البلدية أو الشؤون الاجتماعية أو السياحة .

لذلك اصبح مؤتمر الكتّاب العرب ، كل عام ، جنازة لا تشبع لطما .. ولا تعيد الميت الى الحياة ، فهو حصيلة كل سلبيات «جامعة الدول العربية» على صعيد الثقافة .

(٤)

والحل ؟

لا حل يأتي من خارج الكتّاب العرب أنفسهم ، دون أية وصاية من

ادارة السجن أو عيادة المستشفى او مطار المنفى أو القبر . فاما ان يجتمع هؤلاء بارادتهم واختيارهم ، ولو لمرة واحدة واخيرة ... والا فلا ضرورة لان تتحول الى مجرد ديكور في احدى المناسبات أو زيارة سياحية لاحدى المدارس الابتدائية اما ان نجتمع ولو مرة واحدة ، كأفراد وتيارات ، لا كجغرافيا شوهاء ، أو لا ضرورة على الاطلاق للفرصة السياحية أو المظاهرة السياسية .. لا فرق .

نعم اننا نكتب البحوث والاشعار ذات القضايا المحورية في حياة أمتنا ولكننا أغلب الوقت — في كل المؤتمرات — نبدو كمستشارين للذين لن يأخذوا بآرائنا، أو كأننا نصدر البيانات نيابة عن وزارات الخارجية والاعلام. أما «الهموم الصغيرة» للكتّاب العرب ، فلا أحد يفكر فيها نيابة عنهم .

أما حرية الكلمة ، فهي ترف المثقفين الذين يعطلون المركبة الحربية لتحرير فلسطين ويعيقون مسيرة التنمية الاقتصادية للتحول نحو الاشتراكية، ويشوشون ايمان الجماهير ويبلبلون الرأي العام .

حرية الكلمة ، فليرحمها الله . وأهلا وسهلا بالمؤتمر الثاني عشر ، بأنتظار المؤتمر الاول .. فقط فقط لا غير .

١٩٧٩/١١/٣٠

البحث عن بيروت

(١)

ستة أيام في بيروت ، بعد قرابة ثلاث سنوات ونصف السنة من الغياب . ربما كان ــ دون أي تلاعب بالالفاظ ــ غياب «الحاضر» أو حضور «الغائب» . لا فرق . كان في جميع الاحوال غيابا .

وصحيح أن ذاكرتي الجغرافية هي نقيض ذاكرتي الفكرية أو الحديثية أو اللغوية، فأنا لا أجيد الى الآن معرفة شوارع أية مدينة مصرية. وفي بيروت لم أكن أعرف سوى الطريق من بيتي الى الصحيفة التي اعمل بها أو دار النشر أو المكتبة ، وقد رحمتني الحرب بحظر التجول والاقامة الجبرية . أما في باريس ، فقد بقيت اشهرا لا أعرف كيف استخدم المترو ، فاذا «غامرت» وسرت على قدمي ، فاني ضائع لا محالة .

رغم هذه «الناسية» ــ ولا أقول الذاكرة ــ فانني حين هبطت أرض لبنان ، بكل الشوق المكبوت ، ورحت من نافذة السيارة أخطف مدينتي الى قلبي ، استرجع ملامحها وأتبين خلجاتها واستوضح نسمات شهيقها وزفيرها ... كدت أنكر ان الطائرة حطت بي في مطار بيروت الدولي . تغيرت الشوارع والازقة والملامح والمعالم والمباني والاشجار والاحجار والانوار ، حتى أصبحت لا أميز في أي المدن انا .

كان رياض طـه ، نقيب الصحافة اللبنانية ، من المطـار الى فنـدق الكارلتون يسألني عن مصر ومصر ومصر ، بينما الصدر يكتوي بالاسئلة

المتزاحمة عن لبنان ولبنان ولبنان . ووجه الاخ سهيل الذي يقود سيارة النقيب يبتسم في حياء يشي بالسؤال والجواب .

وطيلة ستة أيام ، أمضيتها في البحث عن بيروت ، لم أجد شيئا يطابق الذاكرة . كان فعل الحرب قد شق الصخر عن مدينة أخرى . وفي اليوم السابع ، حين توجهت في الصباح الباكر الى المطار قاصدا باريس ، كانت بيروت معي . لم أنظر من نافذة السيارة لاراها . كانت معي .

(٢)

... فمن يحاول اكتشاف وجه بيروت من نافذة طائرة أو سيارة ، لن يرى شيئا ... لان الاشجار والاحجار والشوارع والابنية تتغير . أما قراءة البشر فتمنح العاشق سر المدينة .

ومن يحاول اكتشاف وجه بيروت من جدول أسعار العملة ، سيقول أن بيروت لم تتغير ، فرصيدها النقدي ثابت ثبات الذهب في قاع المناجم .

ولكن الحقيقة هي أن بيروت تغيرت ولم تتغير . وكان هذا التعبير يقوله لي عصام نعمان بطريقته ، ويقوله نجاح واكيم بطريقة أخرى عن ... مصر لا بيروت ، عن القاهرة والاسكندرية والاقصر واسوان ، عن تغيرات القشرة والسطح الخارجي للاشياء ، وثبات الجوهر والعمق الداخلي للانسان .

- أما أنا فأتكلم عن بيروت . بيروت التي لا يراها أحد من «نافذة سيارة» . وكم من بنيها أنفسهم لا يرونها من غير هذه النافذة الضيقة . وكم من الذين «احبوها» رأوها بهذه العين الزجاجية التي لا ترى . عين السائح المركبة على عدسة كاميرا متعجلة ، لا تنفذ أشعتها الى الباطن والاحشاء ، الى شعيرات الدم وخلجات العصب .

- ستة ايام في بيروت تجعل غيري يقول أنها - للمثقفين - مطبعة العرب . وتجعل غيري يقول أنها أطول وأعرض مقهى للنميمة والاغتياب . وتجعل غيري يقول أنها أكبر «دكان» لتصنيع الثقافة الاستهلاكية . وتجعل

غيري يقول أنها «ترانزيت» الحرية .

ولكن لا .

بيروت تغيرت ولم تتغير . والمطلوب ممن يريد ان يراها دون عـين زجاجية ، أن يتغير هو الآخر ، وألا يتغير في الوقت نفسه . أن يكون في مستواها . في مستوى سلامها وحربها ، أن يحياها ويموتها في آن . باختصار ، أن يحبها ، اذا كان الحب هو أعلى درجات الفهم .

وكل ما فعلته ، ببساطة ، أنني أحببت بيروت ولا أزال . أحببت فيها «الانسان» الخارج على القانون ، بالفطرة . أي ذلك العقل المتمرد على كافة القيود ، حتى على نفسه . في النوادي والمقاهي والبيوت ، ليست من خاطرة مكتومة ، ولا من فكرة مغتالة ، ولا من سانحة تتردد في الانفلات من قواعد «الامن» والبروتوكول .

اللبناني يفكر في الجنوب طبعا ، ولكنه يفكر في اقصى ما يجري في شمال العالم ... لا شمال لبنان وحده . مهموم بما يحدث في الشياح أو المصيطبة أو عين الرمانة أو الاشرفية ، ولكنه مهتم بما يجري في صعيد مصر وغرب المغرب وشرق الصين . لبنان ليس جغرافيا ، والمثقف اللبناني كذلك . ومن يرى «البيع والشراء» في بورصة الدعاية والاعلام ، عليه أن يبحث عن جذور الاشياء واصولها ، فلعله يعثر على بلاده ... لا على لبنان . ومن يرى «الشطارة والتجارة» في سوق الفكر والفن ، عليه أن يبحث عن التاريخ لا عن الجغرافيا ، فلعله يقرأ بحروف بارزة اسم القطر الذي ينتمي اليه ... لا اسم لبنان .

بيروت ليست مجرد دور او وظيفة ، ولا هي عاصمة «للحرية» . انها غاية بحد ذاتها ، فهي المدينة العربية الوحيدة التي لا ترتدي الاقنعة ، وتقول صراحة : ها أنذا . أنا أنا . لا أنا الآخرون ، سرها انها ليست مدينة سـرية كالاخريات .

وحين عدت الى باريس كانت معي .   ١٩٧٩/١٢/٧

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

انتهى طبع الكتاب في ٢١ آذار (مارس) ١٩٨٠ م
على مطابع دار الكتب – بيروت
ص ب ١١٣٥٥٩ هاتف ٢٣٧٩٠٣ – ٢٥٧١٨٧

مؤلفات د. غالي شكري

١ ـ سلامة موسى وازمة الضمير العربي — ط ثالثة ١٩٧٥
٢ ـ ازمة الجنس في القصة العربية — ط ثالثة ١٩٧٨
٣ ـ المنتمي : دراسة في ادب نجيب محفوظ — ط ثالثة ١٩٧٩
٤ ـ ماذا أضافوا الى ضمير العصر ؟ — نفـد
٥ ـ اميركا والحرب الفكرية — نفـد
٦ ـ شعرنا الحديث ... الى اين ؟ — ط ثانية ١٩٧٨
٧ ـ ثورة المعتزل : دراسة في أدب توفيق الحكيم — ط ثانية ١٩٧٣
٨ ـ ادب المقاومة — ط ثانية ١٩٧٩
٩ ـ معنى المأساة في الرواية العربية
(الجزء الاول : الرواية العربية في رحلة العذاب) — نفـد
١٠ ـ مذكرات ثقافة تحتضر — نفـد
١١ ـ عروبة مصر وامتحان التاريخ — ط أولى ١٩٧٤
نفـد
١٢ ـ ذكريات الجيل الضائع — نفـد
١٣ ـ التراث والثورة — ط ثانية ١٩٧٩
١٤ ـ ماذا يبقى من طه حسين ؟ — نفـد
١٥ ـ من الارشيف السري للثقافة المصرية — ط أولى ١٩٧٥
١٦ ـ ثقافتنا بين نعم و لا — نفـد
١٧ ـ العنقاء الجديدة : صراع الاجيال في الادب المعاصر — ط أولى ١٩٧٧
١٨ ـ عرس الدم في لبنان — ط أولى ١٩٧٦
١٩ ـ غادة السمان بلا اجنحة — ط أولى ١٩٧٧
٢٠ ـ يوم طويل في حياة قصيرة — ط أولى ١٩٧٨
٢١ ـ النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث — ط أولى ١٩٧٨
٢٢ ـ الثورة المضادة في مصر — ط أولى ١٩٧٨
٢٣ ـ الماركسية والادب — ط أولى ١٩٧٩
٢٤ ـ انهم يرقصون ليلة رأس السنة — ط أولى ١٩٨٠